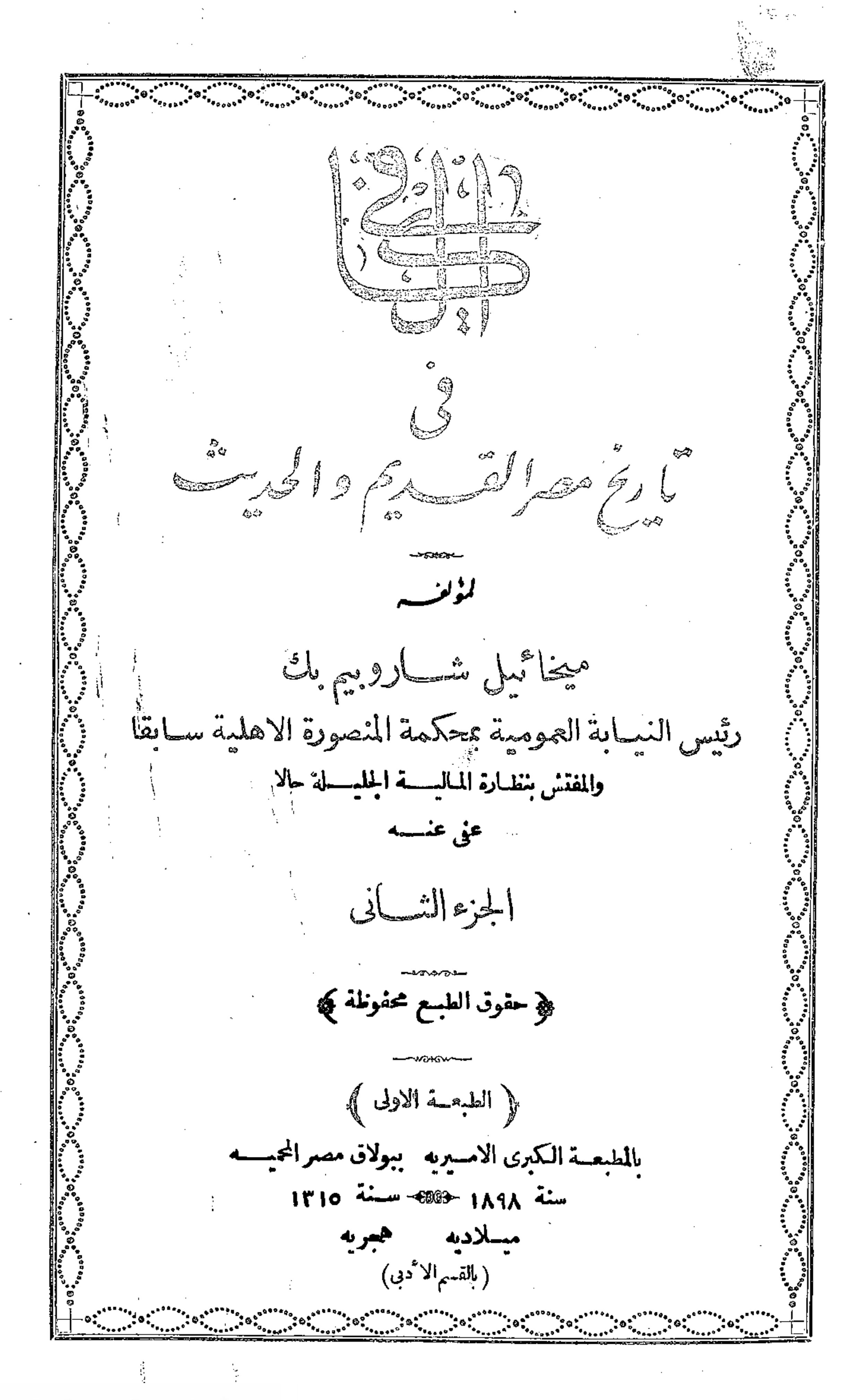


الكافى

فى

تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه

ميخائيل شاروبيم بك

رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية سابقا

والمفتش بنظارة المالية الجليلة حالا

عفى عنه

الجزء الثانى

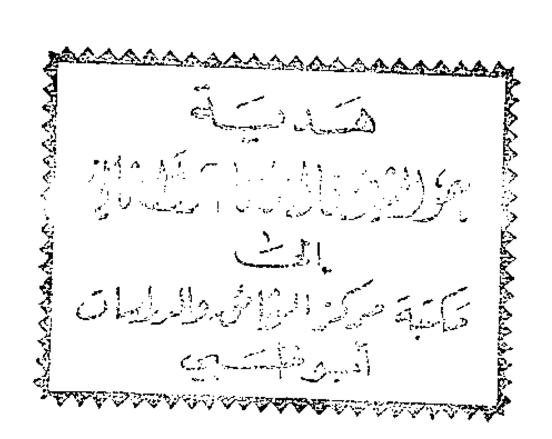
(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الكبرى الاميريه ببولاق مصر المحميه

سنة ١٨٩٨ سنة ١٣١٥

ميلاديه هجريه

(بالقسم الأدبى)

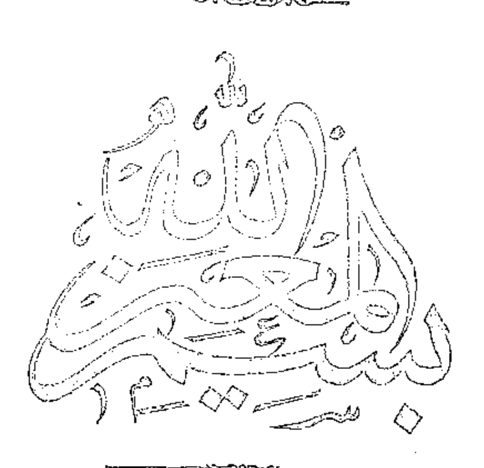

هدية
إلى
مكتبة مركز الوثائق والدراسات
أبوظبي



(فهرس الجــــزء الثانى من تاريخ الكافى)

﴿تمت﴾





لما كان من الواجب معرفة بعض شئ من أخبار العرب فى الجاهلية وطباعهم وعوائدهم ونسبهم وسكناهم وغير ذلك مما يتعلق بتاريخ أيامهم قبل الاسلام تتميما للفائدة المقصودة من التاريخ ولكى لا يكون اتياننا على تاريخ دولهم بعد الاسلام قليل الفائدة فسنذكر هنا فذلكة من تاريخهم القديم نقلا عما جاءت به كبار أصحاب التاريخ من الشرقيين والغربيين لتكون مقدمة يتوصل بها القارئ الى معرفة حوادث أيامهم فى مصر بعد الفتح
وقد قسمنا هذا الجزء الى ست مقالات وفى كل منها عدة فصول وبالله سبحانه الاستعانة وهو نعم المولى ونعم النصير

(المقالة الاولى)

(فى أخبار العرب فى الجاهلية)

وفيها فصول

(الفصل الاول)

(فى نسب العرب وطوائفهم)

قال المقريزى اختلف الكتاب فى نسب العرب وأصل تسميتهم فقال جماعة ان اسمهم اشتق من الاعراب بمعنى الابانة لقولهم أعرب الرجل عما فى ضميره اذا أبان عنه والاصح

أنهـم نسبوا الى عربة وهى من تهامة ودعى جيلهم جيل الجاهلية لما كان عليـه العرب من الجهل بالله وشرائع الدين والكبر والتجبر اه وقـد قسم المؤرخون العرب الى ثلاثة أقسام عاربة ومتعربة ومسـتعربة * أما العاربة فهم العـرب الاول الذين ذهبت عنا تفاصـيل أخبارهم لتقادم عهدهم وفى رواية أنهـم قوم أتوا فى غابر الازمان من الحبشـة وعـبروا الى اليمن من بحر القلزم بالقرب من الموضع الذى فيه الآن عدن فاستوطنوا تلك الناحية ثم صار لهم بها مملكة ولم تزل دار ملكهم الى أن خربت بسيل العرم * وأما العرب المتعربة فهم عرب اليمن من ولد قحطان * وأما العرب المستعربة فهم ولد اسمعيل وفى رواية أنهم من افريقية أيضا ولكنهم عـبروا الى الحجاز من خليج العقبة وانتشروا فى البلاد حتى تاخموا العراق من جهة والشام من أخرى وخالطوا السريان والفـرس واليهود ولذا كانت لغتهم الى السريانية أقرب واختلط بها شئ من ألفاظ الفرس والعـبريين أيضا * وكان العرب العاربة شعوبا كثيرة وهم عاد وثمود وطسم وجـديس وجرهم الاولى وقـد سمى أصحاب التاريخ هـذا الجيل أيضا بالعرب البائدة يعنى الهالـكة لانه لم يبق على وجه الارض أحد من نسلهم قالوا وربمـا سموا بالعرب العـاربة اما بمعنى الراسخة فى العروبية كما يقال ليل أليل وصوم صائم أو بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كانت فى أول أجيالها وقد استدل بعض المحققين على أصلهم الحبشى بشكل جماجمهـم وما فى لغتهـم من ألفاظ الحبشـة كتبع من أسماء ملوكهم ومعناه القوى وحمير ومعناه الاحمر

وأما بنو عاد فقد كانت مواطنهم الاولى بأحقاف الرمل بين اليمن وعمـان الى حضرموت والشحر وكان أبوهم عاد أول ملك من العرب وذكر المسعودى أن الذى ملك منهم بعد عاد شداد وهو الذى سار فى الممالك واسـتولى على كثير من بلاد الشام والهنـد والعراق ولما اتصـل ملك عاد وعظم طغيانهم وعتوهم وانتحلوا عبادة الاصـنام والاوثان أبادهم الله وهلكوا عن آخرهم

وأما ثمود فكانت ديارهم بالحجر ووادى القرى فيما بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم فى الجبال فكانوا أهـل كفر وبغى فأنذرهم بعض الانبياء فلم يصيخوا الى دعائه فهلكوا جميعا حيث كانوا من الارض ودرجوا فى الغابرين

وأما جـديس وطسم فكانت ديارهم اليمـامة وهى اذ ذاك من أخصب البـلاد وأعمرها وأكثرها ثمـارا وحدائق وقصورا وكان ملك طسم غشوما مصابرا لجـديس مستذلا لهم حتى قام الاسود وقتله غيلة

وأما جرهم الاولى فكانت ديارهم باليمن وكانوا يتكلمون بالعربية فكانوا على عهـد عاد ولتقادم انقراضهـم ذهبت حقائق أخبارهـم وانقطعت أسـباب العلم بآثارهم قال بعض المحققين وأما جرهم الثانيـة فليسوا من البائدة بل هم من ولد قحطان وبهم اتصـل اسمعيل ابن ابراهيم

وانما سمى بنو قحطان الذين هـم القسم الثانى بالمتعربة لنزولهـم بالبادية مع العـرب العاربة وتخلقهم بأخلاقهـم وهم بنو قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام قال بعض أهل التاريخ وقحطان هـذا معرب يقطان وهو أول من ملك أرض اليمن ولبس التاج قبـل الميلاد المسيحى بألفين وثلاثين سـنة وكان بنو قحطان معاصرين لاخوانهم من العرب العاربة ومظاهرين لهـم على أمورهم ولم يزالوا مجتمعـين فى مجالات البادية مبعدين عن رتبـة الملك وترفهـه الذى كان لاولئك فأصبحوا بنجاة من الهرم الذى يلزمه الترف والنضارة فتشعبت فى أرض الفضاء فصائلهـم وتعـددت فى جوّ القفر أفخاذهـم وعشائرهم ونمى عددهم وكثر اخوانهم من العمالقة فى آخر جيلهم وزاحموهم بمناكبهم واستجدّوا خلق الدولة بما استأنفوه من عزهم وكانت الدولة لبنى قحطان متصلة فيهم قالوا وكان يعرب بن قحطان من أعاظم ملوك العرب ويسمى أيضا يمنا وبه سميت اليمن وهو أول من حياه ولده بقولهـم «(أبيت اللعن)» و «(أنعم صباحا)» وقيل انه أول من نطق بالعربية وملك بعد يعرب ابنه يشجب وكان واهى العزيمة فاستبدّ أعمامه بما فى أيديهم من الممالك وملك من بعده ابنه عبد شمس وأكثر الغزو فى أقطار البـلاد فسمى سبأ لكثرة ماسبى وكانت قاعدة ملكه مدينة صنعاء ومن مدنه مأرب على ثلاث مراحل منها

وعظم أمر سـبا المذكور وعلت كلمته فبنى فى مأرب سـدّا مابين جبلين بالصخر والقار حقن به ماء العيون والامطار وساق اليه سبعين واديا وترك فيه خروقا على قدر مايحتاجون اليه فى سقيهم وهو الذى يسمى العرم ومات قبل أن يتمه فأتمه ملوك حمير من بعده وأقاموا فى جنانه عن اليمين وعن الشمال ودولتهم يومئذ أوفر مما كانت وأترف وأبذخ وأعلى يدا وأظهر فلما طغوا وأعرضوا أجحفهم السـيل وأغرق جناتهـم وخربت أرضهم وتمزق ملكهم وصاروا أحاديث وكان هؤلاء التبابعـة ملوكا عدة فى عصور متعاقبـة وأحقاب متطاولة لم يضبطهم الحصر ولاتقيدت منهم الشوارد وربما كانوا يتجاوزون ملك اليمن الى مابعد عنهم من العراق والهنـد والمغرب فاختلفت لذلك أحوالهـم ووقع اللبس فى نقـل أخبار أيامهـم ومع ذلك فسـنأتى بايراد ماصح منها على قـدر الاسـتطاعة لعـدم الوقوف على أخبارهـم مدونة فى مؤلف واحد

وكان لسبا المذكور كثير من الاولاد وأشهرهم حمير وعمرو وكهلان فكانت التبابعة تعزى الى حمير والمناذرة الى عمرو وتنتهى الغسانية الى كهلان * قال المسعودى قيل لملوك اليمن تبابعة لانه يتبع بعضهـم بعضا كلما هلك واحـد قام آخر ولم يسموا الملك منهـم بتبع حـتى يملك اليمن والشحـر وحضرموت ومن لم يكن له شئ من هـذا يسمى ملكا ولا يقال له تبع اﻫ قلت وهذا خلاف مايقوله غيره فى معنى تبع التى هى من الكلمات الحبشـية وأما حمير فقد يعرف أيضا بالعرنجج وكان ظهوره قبل الميلاد المسيحى بألف وأربعمائة وثلاثين سنة وقيل هو أول من تتوج بالذهب وأخرج ثمود من اليمن الى الحجاز ثم ملك بعـده ابنه وائل ولم يزل

ملكهم

ملكهم على اليمن حتى مضت قرون وآل الامر الى شداد فغزا البلاد الى أن بلغ أقصى المغرب وبنى المدائن والمصانع وأبقى الآثار العظيمة ثم اضطربت أحوال حمير وصار ملكهم فى طوائف الى أن استقر فى الحارث وهو تبع الاول ثم فى بقية التبابعة وقد لقب الحارث بالرائش لانه راش الناس بالعطاء مما كان أصابه فى غزواته من السلب والغنائم

ثم ملك أبرهة ذو المنار ثم افريقش وذلك قبل الميلاد بألف وثمان وتسعين سنة وذهب بقبائل العرب الى افريقية وبه سميت وساق البرابرة اليها ولما افتتح المغرب وسمع رطانتهم قال ما أكثر بربرتهم فسموا البرابرة ثم ملك بعد افريقش أخوه عمرو ذو الاذعار ولم يحسن السيرة فى الرعية ولم يعبأ بوصاية أبيه أبرهة وكان أنشده عند وفاته

يا عمرو انك ما جهلت وصيتى * اياك فاحفظها فانك ترشد

يا عمرو لا والله ما ساد الورى * فيما مضى الا المعين المرفد

يا عمرو من يشرى العلا بنواله * كرما يقال له الجواد السيد

كل امرئ يا عمرو حاصد زرعه * والزرع شئ لا محالة يحصد

ولما ذعرت حمير من جوره خلعت طاعته وقلدت الملك شرحبيل فجرى بين شرحبيل وذى الاذعار قتال شديد قتل فيه خلق كثير واستقل شرحبيل بالملك حتى مات ثم ملك بعده ابنه الهدهاد وذلك سنة خمس وستين وألف قبل الميلاد المسيحى ثم ملكت بلقيس ابنة الهدهاد وكانت على عهد سليمان عليه السلام ووفدت عليه بنفيس الهدايا وبقيت فى ملك اليمن عشرين سنة وماتت ثم قام بعدها بالملك مالك ناشر النعم لانه قلد أعناق رعيته أطواق النعم والمنن وسار غازيا الى المغرب فبلغ وادى الرمل فلم يجد فيه مجازا لكثرة الرمل وعبر بعض أصحابه فلم يرجعوا فأمر بصنم من نحاس نصب على شفير الوادى وكتب فى صدره بالخط المسند هذا الصنم لناشر النعم الحميرى ليس وراءه مذهب فلا يتكلف أحد ذلك فيعطب * قلت ومن رام معرفة ماهو الوادى المذكور فليراجع ماقاله ابن خلدون فى مبدأ مقدمة تاريخه * ثم ملك بعد ناشر هذا ابنه أبو كرب شمر مرعش سمى بذلك لارتعاش كان به وهذا هو تبع الآخر وهو المشهور من ملوك التبابعة ذوى المغازى والآثار البعيدة وكان من أشد ملوك العرب نكاية بالاعداء وأبعدهم مغارا وقد حكم قبل الميلاد بمائتين وخمسين سنة قال بعض أصحاب التاريخ ووطئ أرض العراق وفارس وخراسان وافتتح مدائنهم وخرب مدينة الصغد وراء جيحون فقالت العجم شمركند (أى شمر خرب) يعنى خرب البلاد وبنى مدينة هنالك فسميت باسمه هذا وعربته العرب فصار سمرقند وشخص من اليمن غازيا ومر بالحيرة فتحير عسكره ثم رجع الى اليمن وهابه الملوك وهادنوه وأخذ بدين اليهودية باغراء بعض أحبار اليهود من بنى قريظة ثم عاد الى غزو بلاد فارس فوطأ المسالك وذللها وعمد الى الصين قال النويرى وكان لملك الصين فى ذلك الزمان وزير شديد البأس سامى الهمة فلما بلغه مسير ملك اليمن جدع أنفه ولحق بأبى كرب وسعى اليه بأمره وشكى من ملك الصين وتظاهر أنه

يدل أبا كرب على خلل يمكنه من الفرصة فى القاء بلادهم بالقياد وفتحها فسربه تبع وبالغ فى اكرامه وأصاخ لقوله فنهض الوزير بجيشه وهو يقدمهم حتى انتهى بهم الى أرض مسبخة فتوغلوا فى فلوات سحيقة لاماء فيها فاجهدهم العطش فماتوا اه * ثم قام بعده ابنه أبو مالك وهلك فى بعض غزواته وتعاقبت الملوك على اليمن دهرا طويلا حتى ملك عمرو بن عامر الازدى وقيل له مزيقيا لانه كان يلبس كل يوم حلة فاذا أراد الدخول الى مجلسه رمى بها فمزقت لئلا يجد أحد فيها مايلبسه وقيل انه على عهده كان سيل العرم أى بعد الميلاد بثلثمائة سنة وسنتين اثنتين فانفجرت مياه سد مأرب فاحتمل السيل أنعامهم وخرب ديارهم فتفرقت القبائل المجاورة له أيدى سبأ

ولم تزل تتوالى الملوك على حمير حتى آل الملك فى سنة ثمانين وأربعمائة ميلادية الى ذى نواس واتفق أهل الاخبار كلهم على أن ذا نواس هو ابن تبان أسعد واسمه زرعة وأنه لما تغلب على ملك آبائه التبابعة سمى يوسف وتعصب لدين اليهودية وحمل عليه قبائل اليمن فاستجمعت معه حمير على ذلك وأراد أن يكون أهل نجران عليها أيضا وكانوا من بين العرب يدينون بالنصرانية ولهم فضل فى الدين واستقامة ولهم رأس يقال له عبد الله بن تامر وكان هذا الدين وقع اليهم قديما من بقية أصحاب الحواريين من رجل سقط لهم من ملك التبابعة يقال له ((فيمون)) وكان رجلا صالحا ورعا مجتهدا فى العبادة مجاب الدعوة وظهرت على يديه الكرامات فى شفاء المرضى وكان يطلب الخفاء عن الناس جهده وكان لايأكل الامن كسب يده ويعظم يوم الاحد فلا يعمل فيه شيأ ففطن لشأنه رجل من أهل الشام اسمه صالح فلزمه وخرجا فارين بأنفسهما حتى وصلا بلاد العرب فاختطفتهما سيارة فباعوهما بنجران وأهل نجران يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة لهم طويلة ويعلقون عليها فى الاعياد من حليهم وملابسهم ويعكفون عليها أياما وكان قد ابتاع ((فيمون)) رجل من أشرافهم وابتاع صالحا آخر فكان فيمون اذا قام فى الليل فى بيت له أسكنه اياه سيده استسرج له البيت نورا وهو فى غير مصباح حتى يصبح الصباح فأعجب سيده مارأى منه فسأله عن دينه فأخبره به وقال له انما أنتم على باطل وهذه الشجرة لاتضر ولاتنفع ولودعوت عليها الهى الذى أعبده لأهلكها وهو وحده لاندله فقال له سيده افعل فانك اذافعلت هذا دخلنا فى دينك وتركنا مانحن عليه قال الراوى فدعا فيمون فأرسل الله ريحا فقلعت النخلة من أصلها وأطبق أهل نجران على اتباع دين المسيح فانتشرت من ذلك العهد النصرانية بنجران وأما عبد الله بن تامر فكان يجلس الى فيمون كل يوم ويسمع منه شيأ عن المسيح حتى فقه وظهرت على يده الخوارق والمعجزات ودان الكل بدينه فسار اليهم ذونواس بجنوده واستدعى رأسهم عبد الله بن تامر وقال له أفسدت علىّ أهل بلدى وخالفت دينى ودين آبائى ثم أمر به فقتل وعرض على أهل نجران القتل فلم يزدهم الاثباتا فى النصرانية فخدلهم الاخاديد وأوقدلهم نارا ثم امتحنهم فجعل يقول للرجل والمرأة إما أن تترك دينك واما أن نقذفك فى النار فيقول ماأنا تارك دينى لشئ

فيقذف

فيقذف فيها فيحرق فبقيت امرأة ومعها صبى رضيع عمره سبعة أشهر فجزعت وتهيبت فقال لها الغلام ياأماه لاتنافق فانك على الحق ولم يتكلم منذى قبل فاحترقت قالوا وقتل وأحرق ذو نواس حتى أهلك منهم فيما قال ابن اسحق عشرين ألفا أويزيدون وأفلت منهم رجل اسمه درس وكان من سبا ويقال له أيضا درس ذو ثعلبان فسلك الرمل على فرسه فأعجزهم فقدم على قيصر صاحب الروم يستنصره على ذى نواس * فلما علم القيصر حقيقة الخبر أخذ من ساعته فى التأهب لقتال ذى نواس وبعث الى ملك الحبشة يأمره بنصره فجاءته السفن وأجاز فيها العساكر من الحبشة وأمر عليهم رجلا منهم اسمه ارياط وعهد اليه بقتلهم وسبيهم وخراب بلادهم فركبوا البحر ونزلوا ساحة اليمن فلقيهم ذونواس فيمن معه فانهزم فلما رأى ذو نواس مانزل به وبقومه وجه بفرسه الى البحر وخاض ضحضاحه ثم أفضى به الى غمرة فأغرقه فيها فكان آخر العهد به وانقرض بموته أمر التبابعة وذلك سنة تسع وعشرين وخمسمائة للميلاد * ووطئ من ثم ارياط اليمن بالحبشة وأذل رجالات حمير وهدم حصون الملك ثم انتقض على ارياط أبرهة أحد رؤساء جيشه وجذب معه رعاع الحبشة وغطاريفهم فاقتتلوا فحمل ارياط على أبرهة وعلا وجهه بالحربة فشرم أنفه وبذلك لقب بالاشرم وحمل أبرهة على ارياط بالسيف وعلا به رأسه فأسرع السيف فى دماغه وسقط عن جواده فالوا حينئذ جميعا وصاروا مع أبرهة وأقاموه ملكا * قال أهل التاريخ وكان أبرهة رجلا قصيرا حادرا لحما ومداحا ذا دين فى النصرانية فبنى بصنعاء الى جانب غمدان كنيسة محكمة العمل وسماها القليس * قال ابن اسحق وكان القليس مربعا مستوى التربيع وجعل طوله فى السماء ستين ذراعا وجعل بين ذلك كله حجارة تسميها أهل اليمن الجروب منقوشة مطبقة لايدخل بين أطباقها الابرة وكان له باب من نحاس يفضى الى بيت فى جوفه طوله ثمانون ذراعا فى أربعين ذراعا معلق العمل بالساج المنقوش ومسامير الذهب والفضة وعقوده مضروبة بالفسيفساء (شجرة بين أصنافها كواكب الذهب ظاهرة) ثم يدخل من البيت الى قبة جدرها بالفسيفساء وفيها جلب منقوشة بالذهب والفضة وفيها رخامة مما يلى مطلع الشمس من البلق مربعة تعشى عين من نظر اليها من بطن القبة تؤدى ضوء الشمس والقمر الى داخل القبة وكان تحت الرخامة منبر من خشب اللبخ وهو الآبنوس مفصل بالعاج ودرج المنبر من خشب الساج ملبسة ذهبا وفضة اه

وانتشر خبر بناء هذا البيت فى العرب فلما كانت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة للميلاد مات أبرهة فملك بعده ابنه يكسوم وبه كان يكنى واستفحل ملكه وعلت كلمته وأذل حمير وقبائل اليمن فقتل رجالهم واستخدم أبناءهم * ثم مات يكسوم فملك مكانه أخوه مسروق وكان طاغية جبارا ساءت سيرته وكثر عسفه * قال ابن خلدون ولما طال البلاء من الحبشة على أهل اليمن خرج سيف ذى يزن الحميرى من الاذواء بقية ذلك السلف وعقب أولئك الملوك وذبال الدولة المنوض بالجرد وقدم على قيصر يوستينس يستنجده على الحبشة فأبى وقال الحبشة على دين

النصارى فرجع الى كسرى وقدم الحيرة على النعمان بن المنذر عامل فارس على الحيرة وما يليها من أرض العرب فشكا اليه واستمهله الضمان الى حين وفادته على كسرى ووفد معه وسأله النصر على الحبشة وشاور أهل دولته فقالوا فى سجونك رجال حبستهم للقتل ابعثهم معهم فان هلكوا كان الذى أردت بهم وان ملكوا كان ملكا ازددته على ملكك فاحصوا بثمانمائة وقدم عليهم أفضلهم وأعظمهم بيتا وأكبرهم نسبا واسمه وهزر الديلى فتواقفوا للحرب وأمر وهزر ابنه أن يناوشهم القتال فقتلوه وأحفظه ذلك فقال أرونى ملكهم فأروه اياه على فيل عليه تاجه وبين عينيه ياقوتة حمراء فرماه بسهم فصك الياقوتة بين عينيه وتغلغل فى دماغه وتنكس عن دابته وداروابه فحمل القوم عليهم وانهزمت الحبشة فى كل وجه وفنى ملكهم فى اليمن بعد أن توارثه أربعة فى ثنتين وسبعين سنة وانصرف وهزر الى كسرى بعد أن خلف سيأ على اليمن فى جماعة من الفرس ضمهم اليه على فريضة يؤدّيها كل عام وجعله لنظر ابن ذى يزن وأنزله بصنعاء وانفرد ابن ذى يزن بسلطانه ونزل قصر الملك وهو رأس غمدان يقال ان الضحاك بناه على اسم الزهرة وهو أحد البيوت السبعة الموضوعة على أسماء الكواكب وروحانيتها (وقد خرب فى خلافة عثمان) ولما استوثق لذى يزن الملك جعل يعتسف الحبشة ويقتلهم حتى اذا لم يبق الا القليل جعلهم خولا واتخذ منهم طوابير يسعون بين يديه بالحراب فخرج يوما وهم يسعون بين يديه فلما انفردوا به عن الناس رموه بالحراب فقتلوه فأرسل كسرى عاملا على اليمن واستمرت عماله الى أن كان آخرهم باذان فأسلم وصارت اليمن للاسلام بعد ذلك

قال الاصفهانى أما أخبار العرب بالعراق فى الجيل الاول فلم تصل الينا تفاصيلها وشرح حالها الا أنه لما حدث سيل العرم تمزقت عرب اليمن من مدينة مأرب الى العراق والشام فكانت تنوخ وقضاعة وهما حيان من أحياء الازد من بنى كهلان ممن تمزق الى العراق فقال مالك بن فهم الازدى لمالك بن القضاعى نقيم بالبحرين ونتحالف على من ناوانا فتحالفوا فسموا تنوخ وذلك فى أيام ملوك الطوائف فنظروا الى العراق وعليها طائفة من ملوكها وهى شاغرة فخرجوا من البحرين وسارت الازد الى العراق مع مالك بن فهم الازدى وسارت قضاعة الى الشام مع مالك القضاعى

وأول من تملك على تنوخ فى العراق مالك بن فهم وذلك سنة خمس وتسعين ومائة للميلاد وكان منزله بالانبار فبقى بها الى أن رماه سليمة بن مالك رمية بالليل وهو لايعرفه فلما علم أن سليمة راميه قال

جزانى لاجزاه الله خيرا * سليمة انه شرا جزانى
أعلمه الرماية كل يوم * فلما اشتد ساعده رمانى

فلما قال هذين البيتين فاظ (أى مات) وهرب سليمة ثم ملك من بعد مالك جذيمة الابرش سنة احدى وخمسين ومائتين للميلاد وكان ثاقب الرأى بعيد المغار شديد النكاية ظاهر الحزم وهو أوّل من غزا بالجيوش وشن الغارات على قبائل العرب وكان به برص فأكبرته العرب

على

على أن تنعته به اعظاما له فسمته جذيمة الابرش وجذيمة الوضاح واستولى على السواد مابين الحيرة والانبار وسائر القرى المجاورة لبادية العرب وكان يجبي أموالها وغزا طسما وجديسا فى منازلهما من اليمامة وفيه قال الشاعر

أضحى جذيمة فى أشراف منزله * قد حاز ماجمعت فى عصرها عاد

وطال ملكه الى أن أدرك ملك سابور بن أشك وكان جذيمة قد ملك معدا وبعض اليمن وغزا فى آخر عمره الشام وقتل عمرو بن حسان بن أذينة والد الزباء ملكة الطوائف فانطوت له الزباء على طلب الثار حتى قتلته وكان ملك جذيمة نحو ستين سنة بالتقريب اه

ولما مات جذيمة المذكور ورث الملك بعده ابن اخته عمرو بن عدى وذلك سنة ثمان وستين ومائتين للميلاد وأمه رقاش وهو الذى اتخذ الحيرة منزلا من ملوك العرب وأول ملك بعده الحيريون فى كتبهم من ملوك عرب العراق وملوك العراق ينتسبون اليه فلما استقرت به السلطنة هم بطلب الثأر من الزباء بخاله جذيمة فلما أحست الزباء بنيته تحصنت فى معقل فصارت أمنع من عقاب فعمد عمرو الى قصير وزيره فجدع أنفه بمواطأة منه على ذلك وألحقه بالزباء يشكو ما أصابه من عمرو وأنه اتهمه بمداخلة الزباء فى أمر خاله جذيمة وقال لها وما رأيت بعد مافعل بى أنكى له من أن أكون معك فأكرمته وقربته فلما تحقق منها الوثوق به غرّها وأسلم حصنها الى عمرو فلاحها بالسيف وأصاب ما أصاب من المدينة وانكفأ راجعا فبقى عمرو ملكا مدة عمره منفردا بملكه مستبدا بأمره يغزو المغازى ويفوز بالغنائم وتجبى اليه الاموال وتفد عليه الوفود ولايدين لملوك الطوائف بالعراق حتى قدم أزدشير بن بابك فى أهل فارس أرض العراق فضبطها وقهر من كان له بها مناويا حتى حملهم على ما أراد مما يوافقهم ومما لايوافقهم فكره كثير من تنوخ مجاورة العراق على الصغار فخرج من كان منهم من قبائل قضاعة الذين كانوا أقبلوا على مالك فى أيام ملكه فلحقوا بالشأم وانضموا الى من هنالك من قضاعة فكان اذا أحدث ناس من العرب أحداثا فى قومهم أوضاقت معيشتهم يخرجون الى ريف العراق وينزلون الحيرة * قال أهل التاريخ فكان ذلك على أكثرهم هجنة وصار أهل الحيرة ثلاثة أثلاث الثلث الاول تنوخ وهم من كان يسكن المظال وبيوت الشعر والوبر فى غربى الفرات مابين الحيرة الى الانبار فما فوقها والثلث الثانى العباد وهم الذين سكنوا رقعة الحيرة فابتنوا بها والثلث الثالث الاحلاف * وعمرت الحيرة أيام ملك عمرو ابن عدى باتخاذه اياها منزلا وعظم شأنها الى أن وضع فى الكوفة ونزلها عرب الاسلام

ولما مات عمرو ملك بعده امرؤ القيس البدء وهو الاول فى كلامهم وهو أول من تنصر من ملوك آل نصر وعمال الفرس ثم ولى مكانه ابنه عمرو سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة للميلاد ثم أعقبه أوس بن قلام العمليقى خمس سنين ثم ثار به جحجب أحد بنى فزان فقتله سنة ثمان وستين وثلثمائة وولى مكانه مدة ثم ولى من بعده امرؤ القيس الثانى سنة ثمان وستين وثلثمائة للميلاد ويعرف امرؤ القيس هذا بالمنذر والمحرق لانه أول من عاقب بالنار وهو الذى ذكره

الاسود بن يعفر فى قوله * ماذا أؤمل بعد آل محرق * ثم ملك بعده ابنه النعمان الاعور السائح صاحب الخورنق والسدير وكان النعمان هذا فى أيام يزدجرد فدفع اليه ابنه بهرام ليربيه وأمر ببناء الخورنق مسكنا لابنه فأسكنه اياه وأحسن تربيته وتأديبه وجاءه بمن يلقنه الخلال من العلوم والآداب والفروسية حتى نبغ وفاز بما رضيه وكان النعمان من أشد ملوك العرب نكاية فى الاعداء وأبعدهم مغارا قد أتى الشام مرارا كثيرة وأكثر المصائب فى أهلها وسبى وغنم وكان ملك فارس ينفذ معه كتيبتين من المقاتلين الشهباء وأهل الفرس ودوس وأهلها تنوخ فكان يغزو بهما من لايدين له من العرب وكان صارما حازما ضابطا لملكه قد اجتمع له من الاموال والخول والرقيق مالم يملكه أحد من ملوك الحيرة والحيرة يومئذ ساحل الفرات * ولما أتى على النعمان ثلاثون سنة تنصر على يد بعض وزرائه ثم زهد وترك الملك ولبس المسوح وخرج على وجهه فلم يوقف له على أثر * حكى عن سبب زهده أنه لما بنى الخورنق والسدير أشرف عليهما يوما فأعجبه ماأوتى من الملك والسعة ونفوذ الامر واقبال الوجوه عليه فقال لاصحابه هل أوتى أحد مثل ما أوتيت أنا فقال له حكيم من حكماء أصحابه أهذا الذى أوتيت شئ لم يزل ولا يزول أوشئ كان لمن قبلك وزال عنه وصار اليك قال بل شئ كان لمن قبلى زال عنه وصار الىّ وسيزول عنى فقال الحكيم فسررت بشئ تذهب عنك لذته وتبقى تبعته قال فأين المهرب قال اما أن تقيم وتعمل بطاعة الله أوتلبس أمساحا وتلحق بجبل تعبد ربك فيه وتفر من الناس حتى يأتيك أجلك قال فاذا فعلت ذلك فمالى قال حياة لاتموت وشباب لايهرم وصحة لاتسقم وملك جديد لايبلى قال فأى خير فيما يفنى والله لأطلبن عيشا لايزول أبدا فانخلع من ملكه ولبس الامساح وساح فى الارض وتبعه الحكيم وصارا يسيحان ويعبدان الله تعالى حتى ماتا وفيه يقول عدىّ بن زيد

وتفكر رب الخورنق اذ أشـ * ـرف يوما وللهدى تفكير

سره ما له وكثرة ما يمـ * ـلك والبحر معرضا والسدير

فارعوى قلبه وقال فما غبـ * ـطة حىّ الى الممات يصير

ثم بعد الفلاح والملك والنعـ * ـمة وارتهم هناك القبور

ثم صاروا كأنهم ورق جف * فألوت به الصبا والدبور

ولما تزهد النعمان تولى الامر بعده ابنه المنذر الاول سنة عشرين وأربعمائة للميلاد وكان أهل فارس ولوا عليهم شخصا من ولد أزدشير وعدلوا عن بهرام لنشئه بين العرب وخلوه من آداب العجم فاستنجد بهرام بالعرب فجهز المنذر لبهرام المذكور وقام يطلب له ملكه وحاصر تخت الملك فأذعن له فارس وأطاعوه واستوهب المنذر ذنوبهم من بهرام فعفا عنهم واجتمع أمره ورجع المنذر الى بلاده واشتغل باللهو الى أن مات سنة اثنتين وستين وأربعمائة ميلادية * فقام بالامر بعده النعمان الثانى وكان وزيره عدى بن زيد النصرانى وكان عدى المذكور ورعا فتزهد ولبس المسوح سنة تسع وستين وأربعمائة للميلاد ويروى عن سبب

تزهده أنه خرج متصيدا ومعه عدى بن زيد وزيره المذكور فمرا بشجرة فقال عدى أيها الملك أتدرى ماتقول هذه الشجرة قال لا قال انها تقول

من رآنا فليحدث نفسه * أنه موف على قرب زوال
فصروف الدهر لاتبقى لها * ولما تأتى به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا حولنا * يشربون الخمر بالماء الزلال
والاباريق عليها فدم * وجياد الخيل تجرى بالجلال
عمروا الدهر بعيش حسن * ثم أفنى دهرهم غير عجال
عصف الدهر بهم فانقرضوا * ولذاك الدهر حال بعد حال

ثم جاوزا الشجرة فمرا بمقبرة فقال له عدى أتدرى ماتقول هذه المقبرة قال لا قال فانها تقول

أيها الركب المخبونا * على الارض المجدونا
كما أنتم كذا كنا * كما نحن تكونونا

فقال النعمان قد علمت أن الشجرة والمقبرة لايتكلمان وقد علمت أنك انما أردت عظتى فجزاك الله عنى خيرا فما السبيل الذى تدرك به النجاة قال تدع عبادة الاوثان وتتنصر وتعبد الله تعالى وحده قال وفى هذا النجاة قال نعم قال فترك عبادة الاوثان وتنصر حينئذ وأخذ فى العبادة والاجتهاد ثم تزهد كما تقدم فملك مكانه أخوه الاسود وهو الذى انتصر على عرب الشام وأسر عدة من ملوكهم ثم مات سنة احدى وتسعين وأربعمائة * فملك بعده أخوه المنذر الثانى سبع سنين ثم ابن أخيه فى سنة ثمان وتسعين وهو النعمان الثالث ثم استخلف أبو يعفر بن علقمة الزميلى سنة ثلاث وخمسمائة قال أهل التاريخ وزميل بطن من لخم ثم ملك امرؤ القيس الثالث سنة ست وخمسمائة وامرؤ القيس هذا هو الذى غزا بكرا يوم دارة فى دارها فكانت بكر قبله تقيم أود ملوك الحيرة وتعضدهم وهو أيضا بانى الغريب والصنبر وفيهما يقول جبير بن بلوغ

ليت شعرى متى تخب بنا النا * قة نحو الغريب والصنبر

ولما مات امرؤ القيس الثالث قام بعده المنذر الثالث ابنه وهو ذو القرنين لضفيرتين كانتا له من شعره وأمه ماء السماء قال الجنابى وكان هذا لقبا لابى عامر الازدى لانه كان يقيم ماله مقام القطر أى عطاء وجودا فغلب على بنيه لانهم خلف منه وذكر أن مرة بن كلثوم قتله لخمسين سنة من ملكه وذلك سنة اثنتين وستين وخمسمائة ثم ملك من بعده الحارث بن عمرو الكندى الملقب بآكل المرار وكان شديد السلطان غزا تميما فى دارها فقتل مائة من بنى دارم يوم دارة الثانى بأخيه أسعد بن المنذر وكان ملكه ست عشرة سنة أى الى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة للميلاد ثم ولى شقيقه قابوس أربع سنين فى زمن أنوشروان وكان فيه لين وكان ضعيفا مهينا قتله ابن يشكر وسلبه سنة ثنتين وثمانين ثم ملك المنذر الرابع أخوه ثلاث

سنين ثم النعمان الرابع أبوقابوس سنة ثنتين وثمانين وهو صاحب النابغة الذبيانى الذى بنى الغريين وتنصرأى اعتنق الديانة النصرانية

وكان المنذربن ماءالسماء الملقب بأبى قابوس هذا قدنادمه رجلان من بنى أسد أحدهما خالد بن المضلل والآخر عمرو بن مسعود فأغضباه فى بعض المنطق فأمر بأن يحفر لكل واحد حفرة بظهرالحيرة ثم يجعلا فى تابوتين ويدفنا فى الحفرتين ففعل ذلك بهما حتى اذا أصبح سأل عنهما فاخبروه بهلا كهما فنــدم على ذلك وغمه جدا وفى عمرو بن مسعود وخالد بن المضلل المذكورين يقول شاعر بنى أسد

ياقــبرين بيوت آل محرق * جادت عليك رواعد وبروق
أما البكاء فقــل عنك كثـيره * ولئن بكيت فللبكاء خليق

وركب المنذر حتى نظر الى قبرهما فأمر ببنــاء الغريين عليهما فبنيا وجعل لنفسه يومين فى السنة يجلس فيهما عند الغريين يسمى أحدهما يوم نعيم والآخر يوم بؤس فأول من يطلع عليــه يوم نعيمه يعطيه مائة من الابل شوما أى سودا وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس ظربان أسود ثم يأمر به فيذبح ويغرى بدمه الغريين فلبث على هــذا الحال برهةمن دهره حتى مر به رجــل من طئ يقــال له حنظلة بن أبى عفراء كان آوى النعمــان فى خبائه يوم خرج الى الصيد وانفرد عن أصحابه بسبب المطر فرحب به حنظلة وهو لايعرفه وذبح له شاة فأطعمه من لحمها وســقاه لبنا فلما نظر اليه النعمــان وافدا اليه ساءه ذلك جــدا وقال له ياحنظلة هلا أتيت فى غير هــذا اليوم فقال أبيت اللعن لم يكن لى علم بمـا أنت فيه فقال له أبشر بقتلك فقال له والله لقد أتيتك زائرا ولاهلى من خيرك مائرا فلا تكن ميرتهــم قتلى فقال لابد من ذلك فاسأل حاجة أقضها لك فقال تؤجلنى سنة أرجع فيها الى أهلى وأحكم من أمرهم ماأريد ثم أصير اليك فأنفذفىّ حكمك فقال ومن يتكفل بك حتى تعود فنظر فى وجوه جلسائه فعرف منهم شريك بن عمروفأنشد

ياشريك ياابن عمرو * يا أخا من لا أخاله
يا أخا شيبان فك الــ * ــيوم رهنا قــد أناله
يا أخا كل مصاب * وحيا من لاحيا له
ان شيبان قبيــل * أكرم الله رجاله
وأبوك الخــير عمرو * وشراحيل الحماله
رقياك اليوم فى المجــ * ــد وفى حسن المقاله

فوثب شريك وقال أبيت اللعن يدى بيده ودمى بدمه وأمر للطائى بخمسمـائة ناقة وقد جعل الأجل عاما كاملا من ذلك اليوم الى مثله من القابل فلما حال الحول وقدبقى من الاجل يوم واحد قال النعمـان لشريك ماأراك الاهالكا غدا فداء لحنظلة فقال شريك

فان يك صدر هذا اليوم ولى * فان غدا لناظره قريب

فذهب قوله مثلا ولما أصبح النعمان وقف بين قبرى نديميه وأمر بقتل شريك فقال له وزراؤه ليس لك أن تقتله حتى يستوفى يومه فتركه النعمان وكان يشتهى أن يقتله لينجو الطائى فلما آذنت الشمس بالمغيب قام شريك مجردا فى ازار على النطع والسياف بجانبه وكان النعمان قد أمر بقتله فلم يشعر الا وراكب قد ظهر فاذا هو حنظلة الطائى تكفن وتحنط وجاء بنادبته فلما رآه النعمان قال ماالذى جاءبك وقد أفلت من القتل قال الوفاء قال وما دعاك الى الوفاء قال ان لى دينا يمنعنى من الغدر قال وما دينك قال النصرانية قال فاعرضها على فعرضها عليه فتنصر النعمان وترك تلك السنة من ذلك اليوم وعفا عن شريك والطائى وقال ماأدرى أيكما أكرم وأوفى أهذا الذى نجا من السيف فعاد اليه أم هذا الذى ضمنه وأنالا أكون ألأم الثلاثة قال الميدانى وتنصر مع النعمان أهل الحيرة أجمعون * وبنى النعمان فى حاضرة ملكه الكنائس العظيمة ثم قتله كسرى بن هرمز أبرويز سنة أربع وستمائة للميلاد وانقطع الملك عن لخم ولم يلبث أن ظهر الاسلام بعد زمان وكان آل جفنة عمال القياصرة على عرب الشام كما كان المناذرة آل نصر فى آخر أمرهم عمالا للاكاسرة على عرب العراق وأصلهم من اليمن من الازد بنى كهلان قال أهل التاريخ لان الازد لما أحست بمأرب انتقاض العرم وخشيت السيل تفرقت فتشام قوم فنزلوا على ماء يقال له غسان فصيروه شربهم فسموا غسان ثم أنزلهم ثعلبة بن عمرو الغسانى ببادية الشام والملوك بها من قبل القياصرة وكانوا يدينون بالنصرانية فلما نزلت غسان بأرض الشام كان لها قوم من سليح فضربوا على الغساسنة الاتاوة وكان الذى يلى جبايتها رجلا منهم اسمه سبيط فسار لجبايتها فاستبطؤه فقصد ثعلب كبيرهم وقال له لتعجلن لى الاتاوة أولآخذن أهلك وكان ثعلب حليما فقال هل لك فيمن يربح عليك بالاتاوة قال نعم قال عليك بأخى جذع بن عمرو وكان جذع فاتكا فأتاه سبيط وخاطبه بما خاطب به ثعلبة فخرج عليه ومعه سيف مذهب وقال فيه عوض من حقك الى أن أجمع لك الاتاوة قال نعم قال فخذه فتناول سبيط جفن السيف واستل جذع نصله وضربه به فقيل خذ من جذع ماأعطاك فذهبت مثلا فوقعت الحرب بين سليح وغسان فأخرجت غسان سليحا من الشام وصاروا ملوكا واستقر ملك الغساسنة أربعمائة سنة ونيفا وكان أول ملوكهم جفنة بن عمرو المذكور وآخرهم جبلة بن الأيهم وهو الذى بنى مدينة جبلة بين طرابلس واللاذقية وسماها باسمه وكان قد أسلم فى زمن عمر بن الخطاب عند افتتاح الشام فسار الى مكة يريد الحج بمائتين وخمسين نفرا من أصحابه فلما قرب من المدينة قلد أعناق خيله بقلائد الفضة والذهب ووضع تاجا على رأسه فلما بلغ عمر بن الخطاب قدومه تلقاه بموكب عظيم ورفع مقامه حتى كان يوم الطواف فبينما جبلة يطوف بالبيت اذوطئ رجل من بنى فزارة طرف ازاره فانحل عنه الازار فغضب جبلة من ذلك ولطم الفزارى لطمة هشم بها أنفه فتعلق به الرجل وانطلق الى عمر ودمه يسيل على وجهه وشكا اليه حاله فقال عمر لجبلة أنت فى خيرة اما أن يلطمك هذا الرجل كما لطمته أو تفتدى اللطمة منه بالمال فقال جبلة

لعمر أفلا يفضل عندكم ملك على سوقة قال كلا بل كلاهما فى الحق سيان فغضب جبلة من ذلك وصبر الى الليل فاجتمع بغلمانه وخرج بهم حتى لحق بالشام وارتد الى دينه ثم سار من هنالك الى قيصر وأقام عنده فتشعبت أولاده فى تلك البلاد وتسموا بالارنؤد * قلت وقد عد أهل النقد ماوقع من عمر فى هذه الحادثة من الاسباب التى ترتب عليها شئ فى الاسلام

ومن ملوك العرب ملوك بنى كندة الذين منهم امرؤ القيس الشاعر وهم من بنى زيد بن كهلان قال أصحاب التاريخ كانت كندة قبل أن علك حجر عليهم بغير ملك فأكل القوى منهم الضعيف حتى ملك حجر وكان تبع حين أقبل سائرا الى العراق استعمله عليهم فسدد أمورهم وساسهم أحسن سياسة وانتزع من اللخميين أرضهم وبقى وحده فى مملكته مطاعا لحسن سيرته الى سنة ثلاث وخمسمائة للميلاد ثم ملك بعده ابنه المقصور لانه اقتصر على ملك أبيه ثم استخلفه الحارث وهذا عظم أمره وكبر شأنه حتى طرده أنوشروان وتبعته تغلب وعدة قبائل فظفروا بأمواله وبأربعين نفسا من بنى حجر فقتلهم المنذر عن آخرهم وكان منهم اثنان من ولد الحارث وفى ذلك يقول امرؤ القيس

بنو أسد قتلوا ربهم * ألا كل شئ سواه جلل

ثم استنجد امرؤ القيس ببكر وتغلب على بنى أسد فانجدوه وهرب بنو أسد منهم فتبعهم فلم يظفر بهم ثم تخاذلت عنه بكر وتغلب وتطلبه المنذر بن ماء السماء فتفرقت جموع امرئ القيس خوفا من المنذر وخاف امرؤ القيس من المنذر وصار يدخل على قبائل العرب وينتقل من أناس الى أناس حتى قصد السموأل بن عادياء اليهودى فاكرمه وأنزله وأقام امرؤ القيس عند السموأل ماشاء الله ثم سار امرؤ القيس الى قيصر ملك الروم مستنجدا به وأودع دروعه عند السموأل بن عادياء المذكور ومر على حماة وشيرز وقال فى مسيره قصيدته المشهورة

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه * وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك انما * نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ومات امرؤ القيس بعد عوده من عند قيصر عند جبل يقال له عسيب ولما علم بموته هنالك قال

أجارتنا ان الخطوب تنوب * وانى مقيم ما أقام عسيب

ولما مات امرؤ القيس سار الحارث بن أبى شمر الغسانى الى السموأل وطالبه بدروع امرئ القيس وماله عنده وكانت تلك الدروع مائة وكان الحارث قد أسر ابن السموأل فلما امتنع السموأل عن تسليم ذلك الى الحارث قال الحارث اما أن تسلم الدروع واما قتلت ابنك فقال السموأل لست أخفر ذمتى فافعل ماشئت فذبح ابنه والسموأل ينظر اليه وانصرف الملك على يأس فضرب العرب به المثل فى الوفاء

أما العرب المستعربة الذين هم القسم الثالث وهم بنو عدنان بن اسمعيل فكانوا قد نزلوا بالحجاز وتولوا سدانة الكعبة وكانت الحجاز والكنان ديار العمالقة وكان لهم ملك هنالك

وكانت جرهم من تلك الطبقة وكانت ديارهم اليمن مع اخوانهم من حضرموت وأصاب اليمن قحط ففروا نحو تهامة يطلبون الماء والمرعى قال أصحاب التاريخ وعثروا فى طريقهم باسمعيل مع أمه هاجر فاحتلوا أسفل مكة واقتتلوا مع العمالقة فأبادوهم ونشأ اسمعيل بين جرهم وتكلم بلغتهم وتزوج منهم قلت وهذا القول غير معوّل عليه عند جماعة من المتأخرين وتوفى لمائة وثلاثين سنة من عمره ولم يزل أمر جرهم يعظم بمكة ويستفحل حتى ولوا البيت الحرام وكانوا ولاته وحجابه وولاة الاحكام بمكة ولما طالت ولاية جرهم استحلوا من الحرم أمورا عظاما واستخفوا بحرمة البيت العتيق فأبادهم الله قالوا لانه لما خرب سد مأرب سار عمرو بن عامر وقومه من بلد الى بلد لايطؤن بلدا الا غلبوا عليها فلما قاربوا مكة أبت جرهم أن تفسح لهم واستكبروا فى أنفسهم وقالوا مانحب أن تنزلوا فتضيقوا علينا مراتعنا ومواردنا فارحلوا عنا حيث أحببتم فلا حاجة لنا بجواركم فاقتتلوا ثلاثة أيام وانهزم جرهم فلم يفلت منهم الا الشريد فيهدر دمه وذلك سنة سبع ومائتين للميلاد * ثم تفرقت قبائل اليمن وانخزعت خزاعة بمكة فولوا أمر مكة وحجابة الكعبة وسألهم بنو اسمعيل السكنى معهم فأذنوا لهم وأقاموا عليهم لحيا وهو ربيعة بن حارثة ملكا وكان فيهم شريفا سيدا مطاعا وبلغ بمكة من الشرف مالم يبلغ عربى قبله وذهب اسمه فى العرب كل مذهب وقوله فيهم دينا متبعا * قال أصحاب التاريخ وكان أول من أطعم الحاج بمكة سنائف الابل ولحمانها على الثريد وكسا فى تلك السنة جميع حاج العرب كل واحد بثلاثة أثواب من برود اليمن وهو الذى بحر البحيرة ووصل الوصيلة وحمى الحامى وسيب السائبة ونصب الاصنام حول الكعبة فكانت قريش والعرب تستقسم عنده بالازلام وهو أول من غير الحنيفية دين ابراهيم

وأقامت خزاعة ثلثمائة سنة فى سدانة البيت حتى قام قصىّ القرشىّ من بنى اسمعيل وعظم شرفه فرأى أنه أحق بالكعبة وبأمر مكة وكانت ولاية الكعبة لابى غبشان الخزاعى فباعها من قصى بزق خمر فقيل فيه أخسر من صفقة أبى غبشان ثم دعا قصىّ اليه رجالات قريش وأجمع لحرب خزاعة فتناجزوا وكثر القتل ثم صالحوه على أن يحكموه الكعبة وكان ذلك سنة سبع وخمسمائة للميلاد فصار لقصىّ لواء الحرب وحجابة البيت وتيمنت قريش برأيه وصرفوا مشورتهم اليه فى قليل الامور وكثيرها واتخذوا دار الندوة إزاء الكعبة فكانت مجتمع الملا من قريش فى مشاوراتهم ومعاقدهم ثم تصدّى لاطعام الحاج وفرض على قريش خراجا يؤدونه ومازال على هذا الحال حتى مات وقام بالامر بعده بنوه بالقيادة فى كل موسم حتى جاء الاسلام

وكان فى الجاهلية من كبارهم وأشرافهم بيوت معلومة يشار اليها ويقال ان أكبرهم وأشرفهم عبد مناف من ولد قصى بن كلاب القرشى وبنوه عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل ثم كانوا كذلك فى الاسلام وكان عبد مناف يدعى عندهم أيضا القمر والسيد والفهد واسمه المغيرة واخوته عبد الدار وعبد العزى وكان اسمه أولا عبد مناة بن كنانة بن خزيمة فأحيل

الى عبد مناف ومن أشرافهم أيضا عبد المدان بن الريان بن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة الحارثى رهط من بنى الحرث بن زياد وأهل بيته بنو قنان وأولاده أخوال بنى العباس قالوا وهم من أشراف العالم وأكابر الدنيا وبه يضرب المثل للرجل العظيم فيقال أشرف من ابن عبد المدان قال لقيط بن زرارة

شربت الخمر حتى خلت أنى * أبو قابوس أو عبد المدان
أسير فى بنى عبس بن زيد * رخىّ البال منطلق اللسان

وكان العرب يعدون البيوتات المشهورة الكبيرة المعروفة بالشرف من القبائل بعد بيت هاشم الذى تقدم ذكره فى قريش ثلاثة بيوت وقيل سبعة أولها بيت حذيفة بن بدر الفزارى وبيت قيس وبيت آل زرارة بن عدّى الدارين وبيت تميم وبيت آل ذى الجدّين بن عبدالله ابن همام وبيت شيبان وبيت بنى الديان من بنى الحرث بن كعب بيت اليمن وأما كندة فلا يعدّون من أهل البيوتات وانما كانوا ملوكا كما تقدم أما علو شأن القرشيين فقد كان مترتبا على أن خزانة الكعبة كانت بيدهم فأثروا ثم نمت ثروتهم بالتجارة وكانوا من الدهاقين فيها فأصبح لهم بذلك ضرب من السودد وعلو الكلمة على باقى القبائل وزادهم مكانة أن سوق عكاظ كانت تقام ببلدهم مكة وكانت العرب تأتيها من كل صوب وحدب لا للتجارة فقط بل للمفاخرة واثارة الحرب وابرام الصلح وفعل مايشجر بينها كما سيذكر ذلك مفصلا فى محله

(الفصل الثانى)

(فى أديان العرب فى الجاهلية)

كانت العرب فى أول أمرها على غير دين مقرر حتى قدم عمرو بن لحى بصنم يقال له هبل فعكفوا على عبادته وبالغوا فى ذلك وكان من أعظم أصنام قريش عندها فكان الرجل اذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده وكان هبل هذا من خرز العقيق على صورة انسان وكانت يده اليمنى مكسورة فأدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب وكانت له خزانة للقربان وسبعة قداح يضربون بها اذا مستهم الحاجة ويقولون

إنا اختلفنا فهب السراحا * ان لم تقله فمر القداحا

وزعم قوم أن هبل هذا انما هو صورة ابراهيم الخليل التى كسرها صاحب الشريعة الاسلامية عند مادخل الكعبة مع ما كسره من بقية الاصنام قالوا وكان حولها عدد كثير من صور الملائكة والانبياء وفيهم اسمعيل نفسه وفى يده الازلام

ولما دخل صاحب الشريعة الاسلامية الكعبة يوم فتح مكة كان بها ثلثمائة وستون صنما

صنما قالوا فجعل يطوف على راحلتـه ويطعنها ويقول جاء الحق وزهق الباطل فجمعت ثم أحرقت بالنار وكان بالكعبة على يمينها حجر أسود وما زال هـذا الحجر معظما فى الجاهلية والاسلام يتبرك به الناس ويقبلونه اجلالا * وقد كانت الكعبة قبل ظهور صاحب الشريعة الاسلامية بقرون بيت عبادة للعرب يعظمونه غاية التعظيم ويجلونه وفيـه مصاف أصنامهم فلما ظهر الاسلام زاد هذا البيت تعظيما واعتقد جمهور المسلمين أنه قديم العهد جدا ويقال انه لما أهبط آدم من الجنة دعا ربه أن يأذن له فى بناء بيت يكون قبلة لصلاته ومطافا لعبادته كما كان قد عهد فى السماء من البيت المعمور الذى يقال له الضراح أيضا وهو مطاف الملائكة فأنزل الله عليه مثال ذلك البيت على شكل سرادق من نور وضعه فى مكة تحت البيت المعمور حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل كما جاء فى الاصطخرى وأمر آدم أن يطوف به ويتوجه اليه فلما مات آدم تولى ابنه ووصيه شيث بناءه من حجر وطين على ذلك الرسم ثم انطمس فى الطوفان كما هو مذكور فى كتاب الملل والنحل فأمر الله تعالى ابراهيم واسمعيل فجددا بناءه فى موضعه وعلى رسمه ثم مازال يتشعث فيرمم الى أن جددت قريش بناءه على الاسس القديمة بعد ميلاد صاحب الشريعة ببضع سنين * وكان قد نصب بأسفل مكة صنم يعرف بالخلصة فكانوا يلبسونه القلائد ويعدون له الشعير والحنطة ويصبون عليه اللبن ويذبحون له ويعلقون عليه بيض النعام وكانت لهم أصنام أخر نصبوها على السيارات من الكواكب وهى المشترى قيل ان أصل اسمه ذوشرا أى ساطع النور والزهرة وزحل والمريخ وغيرها من الثوابت

ومن معبوداتهم أيضا مناة واللات والعزى وكانت مناة على ساحل البحر مما يلى قديد وكانت صخرة تراق عليها دماء الذبائح ويلتمسون منها المطر فى الجدب وكانت اللات أيضا صنما للشمس اذا مر عليها الحاج لتّها بالسويق وقيل أصلها من ﴿ لاه ﴾ أى علا وعظم ومنه اسم الجلالة * وكان الذى اختص من العرب بعبادة اللات ثقيف وكان بيت عبادتها فى نخلة فوجـه صاحب الشريعة فى السنة التاسعة من هجرته المغيرة وأبا سفيان الى نخلة فكسروا الصنم فحزن الثقفيون أهل الطائف لاسيما نساؤهـم أشد الحزن عليـه وسألوا صاحب الشريعة عند عقد الصلح أن يدع لهم اللات ولايهدمها الى ثلاث سنين فأبى عليهم ذلك فنزلوا الى شهر فلم يجبهـم * ويقال ان تاء اللات ليست أصلية بل هى هاء تأنيث وانما كره البدل فيها لئلا تشبه اسم الله تعالى كما ذكر ابن درستويه * وأما مناة فكانت تعبدها هذيل وخزاعة ومنازلهما بين مكة والمدينة وقيل عبدتها الاوس والخزرج وثقيف قاله الشهرستانى وأبو الفداء وغيرهما * وكانت صخرة عظيمة فكسرها رجل اسمه سعد فى السنة الثامنة من الهجرة وهى سنة شؤم على أصنام العرب ويقال ان اسم مناة مشتق من أمنى أى أراق لكثرة ما كان يراق عندها من دماء الاضاحى ومن هـذا الاصل اشتق أيضا اسم وادى منى على مقربة من مكة حيث ينحر الحجاج هديهم فى يومنا هذا * وأما العزى فكانت شجرة تعظمها

قريش و بنو كنانة ويطوفون بها بعد طوافهم بالكعبة ويعكفون عندها يوما * قال الكلبى وكان فى كل واحدة من اللات والعزى شيطان يتكلم ويترا آى للسدنة وهم الحجبة وذلك من صنيع ابليس وكيده وكان بنو حنيفة فى الجاهلية قد اتخذوا إلها عبدوه دهرا طويلا ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه فقيل فى ذلك

أكلت حنيفة ربها * زمن التقحم والمجاعه
لم يحذروا من ربهم * سوء العقوبة والتباعه

ومن أديانهم المجوسية والصابئية وقد نصب الصابئية بحسب تلك الآراء أصنام الذهب للشمس وأصنام الفضة للقمر ونسبوا المعادن والاقاليم للكواكب وزعموا أن قوى الكواكب تفيض على تلك الاصنام فتتكلم وتفهم وتوحى للناس وتعلم الناس منافعهم وكذلك قالوا فى الاشجار التى هى من قسمة تلك الكواكب اذا أفردت تلك الشجرة لذلك الكوكب وغرست له وفعل لها كذا فاضت روحانية ذلك الكوكب على تلك الشجرة فتوحى للناس وتكلمهم فى النوم * ومن مزاعمهم فى هذا المذهب أى الصابئية أن نفس الفاسق تعذب تسعة آلاف دور ثم تصير الى رحمة الاله الاعلى وقد فرض عليهم فى اعتقادهم ثلاث صلوات أولها قبل طلوع الشمس بنصف ساعة أو أقل من ذلك بحيث ينقضى مع الطلوع ثمان ركعات فى كل ركعة ثلاث سجدات والثانية صلاة الظهر وهى خمس مثل تلك الركعات وسجداتها وتنقضى مع الزوال والثالثة كالثانية وتنقضى مع الغروب وكان لهم أيضا ثلاث صيامات فى السنة أولها ثلاثون يوما والثانى تسعة أيام والثالث سبعة وكانوا يكثرون من تقديم القرابين لا آلهتهم ولكنهم لايأكلون منها شيأ بل كانوا يحرقونها وكذلك كانوا لايأكلون الباقلاء والثوم وبعض البقول والقطانى قاله أبو الفرج الملطى المعروف بابن العربى وجاء أيضا فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى * وقد اختلف أهل التاريخ فى تعيين قبلتهم التى كانوا يؤمّونها يومئذ فقال ابن العربى انها القطب الشمالى وقال غيره انها القطب الجنوبى وقال آخر بل هى مكة وقال رابع بل كانوا يستقبلون النجم الذى اليه يصلون * قلت ولعل الصحيح فى ذلك أنهم لم يكونوا فى أمر القبلة على سنن واحد * وكانوا يحجون على مقربة من حوران بالجزيرة وهى مابين النهرين ويعظمون الكعبة وأهرام منف زاعمين أن الاهرام مقابر شيث وابنيه ادريس وصابئ ويزعمون أن هؤلاء وضعوا دين الصابئية فكانوا يتقربون عند تلك الاهرام بعجل أسود وديك ويحرقون شيأ من البخور وكانوا يقولون انهم انما سموا بالصابئة نسبة الى صابئ ولد شيث المذكور والمرجح عند بعض أهل التاريخ أنهم سموا بهذا الاسم من لفظ صبأت أوصباءوت يعنى الجنود السماوية لعبادتهم اياها ويسميهم أيضا أهل السياحة بنصارى مارى يوحنا المعمدان وهم يدعون ذلك أيضا ولهم ضرب من المعمودية تشبه معمودية النصارى ولذلك كان العرب الآخرون يسمونها المغتسلة ويقال ان هذا الدين هو أحد الاديان التى تغاضى عنها صاحب الشريعة الاسلامية بشرط أداء الجزية * ومن أديانهم اليهودية أيضا

في

فى حمير وكنانة وبنى الحارث بن كعب وكندة وأما النصرانية فكانت قد انتشرت فيهم وتمكنت تمكنا قال الفيروزابادى واجتمعت على النصرانية قبائل شتى من بطون العرب بالحيرة وهم العباد وتنصر كثير من ملوك اليمن والحيرة وكذا كان ملوك غسان كلهم نصارى وكانت النصرانية فى ربيعة وقضاعة وبهرو تنوخ وتغلب وبعض طيئ وكانت قريش نصبت فى جملة أصنامها فى الكعبة تمثال مريم العذراء أم عيسى المسيح مزوقا وابنها عيسى فى حجرها قاعدا وذلك فى العمود الذى يلى باب الكعبة ولم تطمس صورتهما لما دخل صاحب الشريعة الكعبة بل بقيتا الى عهد ابن الزبير فاحترقتا فى الحريق ذكره النويرى والازرقى * ومن أصنامهم أيضا إساف فى صورة رجل ونائلة فى صورة امرأة جيء بهما من الشام ووضع أحدهما فى الصفا والآخر فى المروة وزعم العرب أنهما جرهميان وان إسافا هو ابن عمرو ونائلة بنت سهل ففجرا فى الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين ذكره ابن الجنابى

(الفصل الثالث)

(فى علوم العرب وآدابهم)

وكان العرب يفاخرون بعلم لسانهم واحكام لغتهم ونظم الاشعار وتأليف الخطب وكانوا موصوفين بين الامم بالبيان فى الكلام والفصاحة فى المنطق والذلاقة فى اللسان وكانت لهم مع ذلك معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بانواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله سبحانه شيأ منه ولاهيأ طباعهم للعناية به وكان الشعر ديوان خاصة العرب ومنتهى حكمتها والمنظوم من كلامها والمقيد لأيامها والشاهد على حكامها به يأخذون واليه يصيرون وكانوا لايهنؤن الا بغلام يولد أوشاعر ينبغ فيهم أوفرس تنتج * قال الصفدى بل ما كان للعرب ماتفتخر به الا السيف والضيف والبلاغة * وكانوا كل حول يتقاطرون الى سوق عكاظ ويتبايعون ويتناشدون ويتفاخرون ويتعاكظون ولقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت الى سبع قصائد من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة فقيل لها مذهبات ويقال لها أيضا معلقات لانها علقت فى أستار الكعبة * وكان أسلوبهم فى الخطابة مخالفا لخطباء الروم واليونان والفرس فكانت فقراتهم مثل الجواهر المنثورة لاارتباط لبعضها ببعض ولذا كانت أكثر ماتروع مستمعيها بتبريزهم على غيرهم فى هذا الاسلوب فكانوا يزعمون أنه ليس فى الامم كلها من يعرف فن الخطابة حق معرفته سوى العرب ويتلوهم الفرس

وكانت عكاظ التى يتفاخرون باشعارهم فى سوقها قرية بصحراء بين نخلة والطائف على ثلاث مراحل من مكة وكان لها سوق أسبوعية يوم الاحد وسوق سنوية كانت تقوم هلال ذى القعدة ويستمر موسمها عشرين يوما تجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكظون أى يتفاخرون ويتناشدون قالوا وكان من فوائدها أن العرب يتعارفون فى هذه الاسواق ويتحابون وكانت فرسانهم اذا كانت سوق عكاظ فى الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا أن يتقنعوا حتى لايعرفوا وان كانت هذه السوق يؤذن فيها بالتعامل والاخذ والعطاء الا أنه كان الغرض الاهم منها اجتماع فحول الشعراء والفصحاء والبلغاء من أهل العربية لابداء نتائج أفكارهم واظهار محاسن فصاحتهم وبلاغتهم ومثل عكاظ فى ذلك مثل سوق ذى المجاز خلف عرفات ولهم أسواق أخر غير هذه ولكنها كانت غاية فى المهابة والاحترام يزورهم فيها الشعراء من كل صوب وحدب فيقوم الشاعر منهم ويبرز فى الميدان وأرباب المجلس ثابتون فى أماكنهم فينشد الاشعار من قريضه وهم يصغون الى سماعها منه ويحرصون على التقاطها من فمه بمجرد النطق بها فيحفظونها عن ظهر قلب

وكان أول مايبرز الشاعر يظهر بمظهر الشجاعة والحماس ويتماشى قبل أن ينشد الشعر مشية التيه والاعجاب ليتحقق من حماس بنات فكره ثم يصعد الى مرتفع فينشد بصوت جهورى قصيدته بتمامها بدون أن يقطعها عليه أحد فتارة تكون مرتجلة بالبديهة وتارة يكون قد نظمها بالروية قبل ذلك وهيأها لينشدها فى المجمع ولكن كان الغالب على فحول شعرائهم أنهم كانوا يرتجلون الشعر بدون روية فيأتون فيه بما لايقتدر غيرهم على الاتيان به ومنهم من كان بخلاف ذلك كما روى عن زهير بن أبى سلمى أنه كان ينظم القصيدة فى أربعة أشهر ويهذبها بنفسه فى أربعة أشهر أخرى ويعرضها على الشعراء من أصحابه فى أربعة أشهر ثالثة فلايشهرها حتى يأتى عليها حول كامل ولذلك كانت تسمى قصائده بالحوليات ومع هذا فقد قيل انه كان أشعر الجميع * وكان اذا فرغ الشاعر من الانشاد أمعن الحاضرون النظر فى شعره فاما أن يستحسنوه واما أن يعيبوه

وكان الشاعر يجلس جلسة خطيب للاستراحة ثم يعود الى اتمام انشاده بهمة ونشاط ويجلى عن بنات أفكاره فرائد فيكتب فى ذلك المحفل ما يستحسن من القصائد بحروف الذهب على منسوج الحرير ولهذا بقيت شهرة المعلقات السبع محفوظة الى هذا الحين وقد مضى عليها أجيال طويلة وكان يجتمع بسوق عكاظ أيضا سادات العرب وملوكهم ورؤساء قبائلهم وعرفاؤهم وكان لمدح الشعراء وقدحهم تأثير فى النفوس يترتب عليه كثير من الامور الخطيرة كالخفض والرفع والاعزاز والاذلال وغير ذلك * قيل ان الاعشى كان يأتى عكاظ فى كل سنة فمر على بنى كلاب وكان المحلق الكلابى فقيرا خامل الذكر وله بنات لم يخطبهن أحد من الازواج رغبة عن أبيهن لفقره فقالت له امرأته ماءنعك يابن كلاب من التعرض لهذا الشاعر والتعرف به واكرامه فما رأيت أحدا آواه اليه وجذبه الا أكسبه خيرا فقال ويحك

ماعندى

ماعندى الاناقى فقالت الله يخلفها عليك فتلقاه قبل أن يسبق اليه أحد من الناس وكان الاعشى بصيرا وله ابن يقوده فأخذ المحلق بخطام ناقة الاعشى فقال الاعشى من هذا الذى غلبنا على خطامنا فقيل المحلق فقال شريف كريم ثم سلمه ابنه اليه فأنزله ونحرله المحلق ناقته وأحاطت به بناته يخدمنه فقال ماهذه الجوارى حولى قال بنات أخيك وهن ثمان نصيبهن قليل فقال الاعشى هل لك حاجة قال المحلق تشيد بذكرى فلعلى أشهر فتخطب بناتى فنهض الاعشى من عنده ولم يقل فيه شيأ فلما وافى سوق عكاظ اذهو بمكان قد اجتمع الناس عليه فأنشد قصيدته القافية التى منها

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة * الى ضوء نار باليفاع تحرق

تشب لمقرورين يصطليانها * وبات على النار الندى والمحلق

فاشتهرت هذه الابيات فى العرب وما أتت على المحلق سنة حتى زوج البنات وكانت تضرب للنابغة الذبيانى قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ وتأتيه الشعراء فتنشده أشعارها وأول من أنشده الاعشى ثم أنشدته الخنساء فكان للنابغة التقدم على جميع شعراء عصره وهو من فحول الطبقة الاولى المقدمين على سائر الشعراء قال ربعى بن خراش قال لنا عمر رضى الله عنه يامعشر غطفان من الذى يقول

أتيتك عاريا خلقا ثيابى * على خوف تظن بى الظنونا

قلنا النابغة قال ذلك أشعر شعرائكم وقال عمر بن المنتشر المرادى وفدنا على عبد الملك ابن مروان فدخلنا عليه فقام رجل فاعتذر اليه من أمر وحلف عليه فقال له عبد الملك أما كنت حريا أن تفعل ولاتعتذر ثم أقبل على أهل الشام فقال أيكم يروى من اعتذار النابغة الى النعمان

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله للمرء مذهب

فلم يجد فيهم من يرويه فأقبل على فقال أترويه قلت نعم فأنشدته القصيدة كلها فقال هذا أشعر العرب وكان الشاعر المجيد يحسب فخرا لقبيلته وكانت القبيلة اذا نبغ فيها شاعر صنعت الاطعمة وأتت القبائل فهنأتها بذلك واجتمعت النساء يضربن بالمزاهر كما يصنعن فى الاعراس وتتباشر الرجال والولدان لانه يكون حماية لاعراضهم وذودا عن أحسابهم وتخليدا لمآثرهم وصيانة لنسائهم وإشادة بذكرهم ذكره ابن رشيق فى العمدة * وكان العرب اذا أتوا الموسم يضعون سلاحهم عند أهل السدانة من قريش قبل دخولهم فى السوق ومن لم يضع سلاحه عندهم عرض نفسه للقتل وكانت هذه السوق أيضا مجمع مكارم الاخلاق كما كانت مجمع الفصاحة والفروسية فقد حكى أن عامر بن الطفيل العامرى النجدى أحد أشراف الشعراء كان ينادى مناديه فى هذه السوق هل من راحل فنحمله أو جائع فنطعمه أوخائف فنؤمنه ومن شعره

فانى وان كنت ابن فارس عامر * وسيدها المشهور فى كل موكب

فما سوّدتنى عامر عن وراثة * أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماها وأتقى * أذاها وأرمى من رماها بمنكب

وكانت أيضا هذه السوق فى أيام هذا الموسم كديوان ملوك العرب فقد كان بعض ملوكهم يأخذ ما لهم من الاتاوة والمرتبات على القبائل كل سنة بالموسم مثل جذيمة العبسى فانه كان يأخذ الاتاوة من هوازن فى هذه السوق فاذا تأخروا هددهم بالحرب وكانت العرب تقيم بهذه السوق شهر شوال جميعه أو عشرين يوما منه ثم تنتقل من تلك السوق بعد انفضاضها الى سوق مجنة فتقيم فيها عشرين يوما من ذى القعدة ثم تنتقل منها الى سوق ذى المجاز فتقيم فيها الى أيام الحج * وكانت هذه السوق أيضا من مسببات القتال بين العرب كما وقع ذلك فى الفجار الاول والفجار الثانى روى أن سبب الفجار الاول أن بدر بن معشر الغفارى كان له مجلس يجلس فيه فى سوق عكاظ ويفتخر على الناس فبسط يوما رجله وقال أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز منى فليضربها بالسيف فوثب عليه رجل من أشراف العرب فضربه بالسيف على ركبته فأدماها فاقتتلوا وسبب الفجار الثانى أن امرأة من بنى عامر كانت جالسة بسوق عكاظ فأطاف بها شاب من قريش من بنى كنانة فسألها أن تكشف عن وجهها فأبت فجلس خلفها وهى لا تشعر وعقد ذيلها بشوكة فلما قامت وانحسر ذيلها من خلفها ضحك الناس وقيل لها قد بخلت بكشف وجهك فبان غيره فنادت يا آل عامر فثاروا بالسلاح ونادى الشاب يا بنى كنانة فثاروا كذلك فقامت الحرب بين الفريقين على ساقها ثم فجار ثالث ثم رابع قيل ان صاحب الشريعة الاسلامية شهد هذا الفجار وهو فى الرابعة عشرة من عمره وقد خرج مع عمومته ورمى فيه بالنبل رواه ابن سعد

وأما الكتابة فقد حكوا أن ثلاثة نفر من طيئ وكانوا على دين المسيح وضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلمه قوم من الانبار وجاء الاسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير بضعة عشر انسانا ولقلة القراطيس عندهم عمدوا الى كتف الحيوان فكتبوا عليها وكان الناس فرقتين أهل كتابة وأميون والأمى من لا يعرف الكتابة فكان اليهود والمسيحيون بالمدينة والامّيون وهم الوثنيون بمكة

وأما الطب عندهم فقد كانت معارفهم فيه قليلة جدا وكانت تغلب عليهم التجربة والاستقراء أو التقليد أحيانا وكان المشهور من أطبائهم رجل يقال له لقمان بن عاد يزعمون أن أباه عاد بن لجين بن عاد بن عوص بن ارام بن سام بن نوح وان لقمان المذكور عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة وذلك عمر سبعة أنسر ثم آخر من تيم الرباب اسمه ابن حزيم ويضربون به المثل بالحذاقة فى الطب فيقولون لمن أرادوا وصفه بذلك أطب من ابن حزيم وهو أطب العرب عندهم ويفضلونه على الحرث قال أوس بن حجر

فهل لكم فيها الىّ فاننى * بصير بما أعيا النطاسىّ حزيما

أما الحرث المذكور فهو الحرث بن كلدة من بنى ثقيف من أهل الطائف رحل الى أرض

فارس وأخذ الطب عن أهله بجند يسابور وغيرها فى الجاهلية وطبب فى أهل فارس وحصل مالا ثم تاقت نفسه الى الرجوع الى بلده فرجع وقيل انه مات سنة ثلاث عشرة للهجرة وقيل سنة عشرين مسموما * ومن أطبائهم أيضا ابن أبى رومية التميمى وكان معاصرا للحرث المذكور ونصر بن الحرث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى كان من الجاهلية أخذ أسيرا يوم بدر فقتل وهؤلاء كانوا أشهر أطباء العرب فى الجاهلية وقد بقى من كلامهم فى الطب ماقاله لقمان بن عاد المتقدّم كل داء حسم بالكى ولذلك قالوا فى أمثالهم * آخر الطب الكى * وماقاله الحرث بن كندة أيضا من سره البقاء ولا بقاء فليباكر الغداء وليخفف الرداء وليقل من غشيان النساء قال بعضهم يريد بخفة الرداء أن لايكون عليه دين ومن أنواع معالجاتهم أيضا معالجة الاحول بادامة النظر الى حجر الرحى فى حال دورانها يزعمون أن العين تستقيم به ويعالجون الخدر وهو التشنج الذى يعترى الاعضاء فلاتطيق الحركة بأن يدعو صاحبه أحب الناس اليه قال بعضهم وعليه قول بعضهم يخاطب محبوبته

رآنى الله ياسلمى حياتى * وفى يوم الحساب كما أراك
الى كم تهجرين فتى معنى * اذا خدرت له رجل دعاك

فلما جاء الاسلام اتسع نطاق الطب وعلت منزلته وتعلمه الكثير من العرب عن علماء النصرانية واليهودية والفارسية ونبغوا فيه وتفشى بينهم

وأما السيف والفروسية فقد كانوا غاية فى التمرن عليهما والندب اليهما وذلك لكثرة ما كان يشجر بينهم وكانوا يقولون ان الله ميزهم باربعة أبدلهم العمائم من التيجان والخيام من الدور والجدران والسيوف من الخنادق والشعر من كتب الشرائع ولم يكن لهم فى الجاهلية لعلم العروض قانون يضبط قواعده ويقرر أحواله وانما تم لهم ذلك بعد ظهور صاحب الشريعة الاسلامية ببضع سنين أى حينما ظهر الخليل بن أحمد الفراهيدى فى خلافة الرشيد العباسى ودوّن أصول العروض * روى الصفدى أن عروضيا بمصر يدعى أبا جعفر جلس يوما عند مقياس النيل فى سنة لم يرتفع الماء فيها كعادته وكان لذلك يخشى القحط فيها فأخذ ذلك العروضى يقطع بيت شعر على تفاعيله فمر به رجل لم يفهم قصده من هذا التقطيع فظن أنه يتلو سحرا على الماء حتى لايرتفع فقذفه فى النيل فغرق

(الفصل الرابع)

(فيما كانت عليه قريش قبل الاسلام)

اجتمعت كلمة جماعة من أصحاب التاريخ على أن قريشا فى الجاهلية اختصوا بكثير من

المزايا منها أن اللسان العربى العذب الفصيح الذى نطقت به فحول الخطباء والشعراء هو لسان قريش ومنها أنهم كانوا سكان بيت الله الحرام ولذلك كانوا دائما آمنين فى امتيارهم وتنقلاتهم فى رحلتى الشتاء والصيف والناس يتخطفون من حولهم فاذا عرض لهم عارض قالوا نحن أهل حرم الله فلا يتعرض لهم أحد وكان هاشم يؤلف الى الشام وعبد شمس الى الحبشة والمطلب الى اليمن ونوفل الى فارس فكان تجار قريش يختلفون الى هذه الامصار بحبال هؤلاء الاربعة الاخوة ولا يتعرض لهم أحد وكان كل أخ منهم قد أخذ حبلا من ملك ناحية سفره أمانا له كالاجازة وكانت قبائل قريش قبل ظهور قصى بن كلاب متفرقة فى البوادى فجمعها وأسكنها الحرم وكانت تدعى قبل هذا التجميع النضر بن كنانة فلما جمعهم وأسكنهم فى البيت سموا قريشا من التقريش وهو التجميع * وقال بعضهم انما سميت قريش قريشا لدابة فى البحر هى أعظم دواب البحر خطرا لاتظفر بشئ من دواب البحر الا أكلته فسميت قريش قريشا لانها أعظم العرب فعالا وأعزهم جانبا

قال بعض أصحاب التاريخ وأول دار بنيت بمكة دار الندوة وتسمى دار المنتدى بناها قصى لتكون مجلس القوم نهارا يجلسون فيها للمشاورة فى الامور المهمة فلم يكن لهم أمر مهم الا اجتمعوا فيها وقصى هو الذى بنى المسجد الحرام بأشراف المزدلفة وكان يسرج عليه أيام الحج فسمى مشعرا وأمروا بالوقوف عنده وتم لقريش فى ذلك العهد أن صارت لهم الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة * قالوا فالحجابة هى سدانة البيت الحرام أى تولية مفتاح بيت الله * والسقاية سقى الحاج كلهم الماء العذب وكان نادرا بمكة يجلب اليها من الخارج لسقاية الحاج بل وينتبذ لهم التمر والزبيب للشراب أيضا * وأما الرفادة فهى اطعام الطعام لسائر الحجاج فكانت تمد لهم الاسمطة فى أيام الحج * وأما الندوة فهى المشورة فكان يجتمع فيها من قريش وغيرهم من العرب من أهل الرياسة من بلغ فى العمر أربعين سنة ولا يعقد عقد نكاح لقرشى الا فيها * وأما اللواء فراية معقودة على رمح ينصبونه علامة على اجتماع الجيش لحرب الاعداء فيجتمعون تحت هذه الراية ويقاتلون عندها * والقيادة امارة الجيش ورياسة الحرب * قيل كانت هذه المناصب كلها لقريش وانتهت الى عشرة أبطن منها وبقيت لهم فى الاسلام أيضا والعشرة الابطن هم هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم قالوا فكان من بنى هاشم العباس وعبد المطلب يسقى الحجيج وبقى له ذلك فى الاسلام ومن بنى أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش وكانت اذا حفظت عند رجل أخرجها اذا حميت الحرب فان اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه * ومن بنى نوفل الحرث ابن عامر وكانت اليه الرفادة وهى ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج * ومن بنى عبد الدار عثمان بن طلحة له اللواء والسدانة أى خدمة الكعبة مع الحجابة ويقال والندوة أيضا فى بنى عبد الدار * ومن بنى أسد يزيد بن زمعة بن الاسود وكانت اليه المشورة وذلك أن

رؤساء قريش كانوا لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه عليه فان وافقه ولاهم عليه والا تخيروا وكانوا له أعوانا واستشهد يزيد المذكور وهو مع صاحب الشريعة بالطائف * وكان من بنى تيم أبوبكر الصديق وكانت اليه فى الجاهلية الاشناق وهى الديات والمغرم وكان اذا احتمل شيأ فسأل فيه قريشا صدّقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وان احتملها غيره خذلوه * ومن بنى مخزوم خالد بن الوليد وكانت له القبة والاعنة فأما القبة فانهم كانوا يضربونها ثم يجمعون اليها مايجهزون به الجيش وأما الاعنة فانه كان على خيل قريش فى الحرب * ومن بنى عدى عمر بن الخطاب وكانت اليه السفارة فى الجاهلية وذلك أنهم كانوا اذا وقعت بينهم حرب بعثوه سفيرا وان نافرهم فى المفاخرة جعلوه منافرا ورضوا به * ومن بنى جمح صفوان بن أمية وكانت اليه الايسار والازلام فكان لايسبق بأمر عام حتى يكون هو الذى تيسيره على يديه * ومن بنى سهم الحرث بن قيس وكانت اليه الحكومة والاموال المحجرة التى سموها لاصنامهم قالوا فهذه الوظائف كلها كانت فى قريش على النحو المذكور

وكان لبنى هاشم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر فأما حلوان النفر فلكون العرب لم يكونوا ليرضوا فى الجاهلية أن يتملك عليهم ملك فاذا حدثت لهم حرب مع أحد أقرعوا بين أهل الرياسة فمن خرجت عليه القرعة أحضروه صغيرا كان أو كبيرا وأمروه بالنفر للحرب * وكان للعرب جميعا فى الجاهلية كثير من العوائد والاوابد وكانوا ينزلونها منزلة عظمى ويتنافسون فى تعظيمها فمنها البحيرة والسائبة والوصيلة والحام والخمر والميسر والانصاب والازلام ووأد البنات والرفادة فى الحج (أما البحيرة) فهى ناقة كانت اذا انتجت خمسة أبطن وكان الاخير ذكرا بحروا أذنها أى شقوها وامتنعوا عن ذكاتها ولا تمنع من ماء ولا مرعى (وأما السائبة) فهى أن الرجل اذا أعتق عبدا قال هو سائبة فلايبقى بينهما عقد ولا ميراث (وأما الوصيلة) فتكون فى الغنم فاذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم وان ولدت ذكرا جعلوه لاصنامهم فان ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلا يذبحون الذكر لآلهتهم (وأما الحام) فهو الذكر من الابل كان اذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى (وأما الخمر) فهو ماخامر العقل ومنه سميت الخمر خمرا وكان باعة الخمر فى الجاهلية ينصبون رايات ليعرف مكانهم بها ويسمونها الغاية وكان العرب يفتخرون بشربها وبالمقامرة أيضا لانها من دلائل الجود عندهم وقد بلغ تنافسهم فى شرب الخمر درجة يستدل عليها بما فعله أبوغبشان من بيع مفاتيح الكعبة بزق خمر كما تقدّم بيان ذلك فى محله ومازالت هذه العوائد مرعية بينهم مألوفة فى مذهبهم حتى ظهر صاحب الشريعة الاسلامية محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشى وكان من أمر تحريمها والنهى عنها مالا موضع لذكره هنا الآن

(المقالة الثانية)

(فيما كان بظهور الاسلام وفيه فصول)

(الفصل الاول)

(فى ظهور صاحب الشريعة الاسلامية)

قال أهل التاريخ وابن اسحق عن قيس مخرمة وقفاث بن أثيم وابن عباس ان صاحب الشريعة الاسلامية ولد عام الفيل وقال ابن الكلبى ولد عبدالله بن عبد المطلب أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم لاربع وعشرين سنة مضت من سلطان كسرى أنوشروان وولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة اثنتين وأربعين من سلطانه وأرسله الله لمضى اثنتين وعشرين من ملك كسرى ابرويز بن كسرى هرمز بن كسرى أنوشروان وهاجر لاثنتين وثلاثين سنة مضت من ملك ابرويز * وقال ابن اسحق ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الاول وكان مولده بالدار التى تعرف بدار ابن يوسف قيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبها عقيل بن أبى طالب فلم تزل فى يده حتى توفى فباعها ولده من محمد بن يوسف أخى الحجاج فبنى داره التى يقال لها دار ابن يوسف وأدخل ذلك البيت فى الدار حتى أخرجته الخيزران فجعلته مسجدا يصلى فيه * وقيل ولد لعشر خلون منه وقيل للملتين خلتا منه * وأول من أرضع صاحب الشريعة ثويبة مولاة أبى لهب بلبن ابن له يقال له مسروح وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبدالمطلب وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الاسد المخزومى فكانت ثويبة تأتى صاحب الشريعة بمكة قبل أن يهاجر فيكرمها وتكرمها خديجة فأرسلت الى أبى لهب أن يبيعها اياها لتعتقها فأبى فلما هاجر صاحب الشريعة الى المدينة أعتقها أبو لهب قال ثم أرضعت صاحب الشريعة بعد ثويبة المذكورة حليمة بنت أبى ذؤيب واسمه عبدالله بن الحرث بن شجنة من بنى سعد بن بكر بن هوازن واسم زوجها الحرث بن عبد العزى واسم اخوته صلى الله عليه وسلم من الرضاعة عبدالله وأنيسة وخدامة وهى الشيماء عرفت بذلك وكانت الشيماء تحضنه مع أمه حليمة وردته حليمة الى أمه وجده عبد المطلب وعمره خمس سنين فى قول اهـ قال ابن اسحق هلك عبدالله بن عبد المطلب أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة حامل به * وقال ابن هشام توفى عبد الله أبو رسول الله بعد ما أتى على رسول الله ثمانية وعشرون يوما * وقال الواقدى ثبت عندنا أن عبد الله بن عبد

المطلب

المطلب أقبــل من الشام فى عير لقريش ونزل بالمدينة وهو مريض فأقام بها حتى توفى ودفن فى دار النابغة الصغرى * وقال ابن اسحق وتوفيت آمنة وله صلى الله عليه وسلم ست سنين بالابواء بين مكة والمديـنـة كانت قدمت به المديـنـة على أخواله من بنى النجار تزورهم فـاتت وهى راجعة * وقيل ان عبد المطلب زار أخواله من بنى النجار وحمل معه آمنة وصاحب الشريعة فلما رجع توفيت بمكة ودفنت فى شعب أبى ذر قيل والاول أصح * ولما سارت قريش الى أحد يعنى الى حرب أحد وقلوبهم تلتهب غيظا من صاحب الشريعة وهم فى أشد مايكون من النكاية به هموا باستخراج آمنة من قبرها يعنى بنبشه فقال بعضهم ان النساء عورة وربما أصاب محمد من نسائكم فكفوا بهذا القول وقال ابن اسحق وتوفى عبد المطلب ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن ثمان سنين وقيل ابن عشر سنين اه ولما مات عبد المطلب صار صاحب الشريعة فى حجر عمه أبى طالب بوصية من عبد المطلب اليه بذلك لما كان يرى من بره به وشفقته وحنوه عليه

وأما نسـبه وأخبار آبائه وأجداده فهو محمد بن عبد الله ويكنى عبد الله أبو قثم وقيل محمد وقيل أحمد بن عبد المطلب وكان عبدالله أصغر ولد أبيه فكان عبـد الله وأبو طالب واسمه عبد مناف والزبير وعبد الكعبة وعاتكة وأميمة وبرة ولد عبد المطلب أمهـم جميعا فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمرو بن مخزوم بن يقظة وكان عبـد المطلب نذر حـين لقى من قريش العنت فى حفر زمزم أنه إن ولد له عشرة نفر وبلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة لله تعالى فلما بلغوا عشرة وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه وقالوا كيف نصنع قال يأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه ففعلوا وأتوه بالقداح فدخلوا على هبـل فى جوف الكعبة وكان أعظم أصنامهم وهو على بئر يجمع فيه مايهـدى الى الكعبة وكان عند هبل سبعة قداح فى كل قدح كتاب فقدح فيـه العقل اذا اختلفوا فى العقـل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة وقدح فيه نعم للامر اذا أرادوه يضرب به فان خرج نعم عملوا به وقدح فيه لا فاذا أرادوا أمرا ضربوا به فاذا خرج لا لم يفعلوا ذلك الامر وقدح فيه منكم وقدح ملصق وقدح فيه من غيركم وقدح فيه المياه اذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به * وكانوا اذا أرادوا أن يختنوا غلاما أو ينكحوا جارية أو يدفنوا جثة أو شكوا فى نسب أحـد منهم ذهبوا به الى هبـل وبمائة درهم وجزور فاعطوها صاحب القداح الذى يضرب بها ثم قربوا صاحبهم الذى يريدون به مايريدون ثم قالوا ياالهنا هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق فيه ثم يقولون لصاحب القداح اضرب فيضرب فان خرج عليـه منكم كان وسيطا وان خرج عليه من غـيركم كان حليفا وان خرج عليه ملصق كان على منزلته منهم لانسب له ولا حلف وان خرج عليه شئ سوى هـذا مما يعملون به فان خرج نعم عملوا به وان خرج لا أخروه عامهم ذلك حتى يأتوه به مرة أخرى ينتهون فى أمورهم الى ذلك مما خرجت به القداح

وقال عبد المطلب لصاحب القداح اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هـذه وأخبره بنذره

الذى نذر وكان عبد الله أصغر بنى أبيه وأحبهم اليه فلما أخذ صاحب القداح يضرب قام عبد المطلب يدعوالله تعالى ثم ضرب صاحب القداح فخرج قدح على عبدالله فأخذ عبد المطلب بيده ثم أقبل الى اساف ونائلة وهما الصنمان اللذان ينحر الناس عندهما فقامت قريش من أنديتها فقالوا ماتريد قال أذبحه فقالت قريش وبنوه والله لاتذبحه أبدا حتى تعذر فيه لئن فعلت هذا لايزال الرجل منا يأتى بابنه حتى يذبحه فقال له المغيرة بن عبد الله ابن عمرو بن مخزوم والله لاتذبحه حتى تعذر فيه فان كان فداؤه بأموالنا فديناه وقالت له قريش وبنوه لاتفعل وانطلق الى كاهنة بالحجر فسلها فان أمرتك بذبحه ذبحته وان أمرتك بمالك وله فيه فرج قبلته فانطلقوا اليها وهى بخيبر فقص عليها عبد المطلب خبره فقالت ارجعوا اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله فرجعوا عنها ثم غدوا عليها فقالت نعم قد جاءنى الخبر فكم الدية فيكم قالوا عشر من الابل وكانت كذلك قالت ارجعوا الى بلادكم وقربوا عشرا من الابل واضربوا عليها وعليه بالقداح فان خرجت على صاحبكم فزيدوا عشرا حتى يرضى ربكم وان خرجت على الابل فانحروها فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم فخرجوا حتى أتوا مكة فلما اجتمعوا لذلك قام عبد المطلب يدعوالله ثم قربوا عبدالله وعشرا من الابل فخرجت القداح على عبدالله حتى بلغت الابل مائة ثم ضربوا فخرجت القداح على الابل فنحرت ثم تركت لايصد عنها انسان ولاسبع

وأما تزويج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة ابنة وهب أم صاحب الشريعة فانه لما فرغ عبد المطلب من الابل انصرف بابنه عبد الله وهو آخذ بيده وخرج به حتى أتى وهب ابن عبد مناف بن زهرة وهو سيد بنى زهرة فزوّجه ابنته آمنة بنت وهب وهى لبرة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى وبرة لام حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى وأم حبيب لبرة بنت عوف بن عبيد بن عريج بن عدى بن كعب فدخل عبد الله عليها حين أملكها مكانها فحملت بمحمد صاحب الشريعة الاسلامية * وقال الزهرى أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله الى المدينة يمتار لهم تمرا فمات بالمدينة وقيل بل كان بالشام فأقبل فى عير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفى بها ودفن فى دار النابغة الجعدى وله خمس وعشرون سنة وقيل ثمان وعشرون سنة وتوفى قبل أن يولد له محمد صلى الله عليه وسلم وهو محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان اه وكانت وفاة عبد المطلب بعد الفيل بثمان سنين أعنى بعد حرب الفيل بثمان سنين وأوصى أبا طالب بمحمد فكان أبو طالب هو الذى قام بأمره بعد جدّه ثم ان أبا طالب خرج الى الشام فلما أراد المسير لزمه صاحب الشريعة فرق له وأخذه معه وله يومئذ تسع سنين ثم عادا معا الى مكة فلما بلغ الخامسة والعشرين تزوج خديجة بنت خويلد وهى يومئذ ابنة أربعين سنة وكانت أوسط نساء قريش نسبا وأكثرهن مالا وشرفا فولدت له أولاده كلهم الا

ابراهيم

ابراهيم وهم زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم وبه كان يكنى وعبدالله والطاهر والطيب فلما بلغ الاربعين من عمره دعا الناس الى الاسلام وأخذ ينذرهم بعذاب الله وينهاهم عما هم فيه من عبادة الاوثان * قال ابن اسحق وكان يذكر ذلك سرا الى من يطمئن اليه من أهله فكان أول من آمن به وصدقه من خلق الله تعالى خديجة بنت خويلد زوجته اه فتبعه نفر وكانوا اذا أرادوا الصلاة ذهبوا الى الشعاب فاستخفوا فبينما سعد بن أبي وقاص وعمار وابن مسعود وخباب وسعد بن زيد يصلون فى شعب اذ اطلع عليهم نفر من المشركين منهم أبو سفيان بن حرب والاخنس بن شريق وغيرهما فسبوهم وعابوهم حتى قاتلوهم فضرب سعد رجلا من المشركين بلحى جمل فشجه قيل فكان أول دم أريق فى الاسلام

وقال جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم لما أنزل الله على رسوله وأنذر عشيرتك الاقربين اشتد ذلك عليه وضاق به ذرعا فجلس فى بيته كالمريض فأتته عماته يعدنه فقال مااشتكيت شيأ ولكن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الاقربين فقلن له فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم فانه غير مجيبك فدعاهم صلى الله عليه وسلم فحضروا ومعهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين رجلا فبادره أبولهب وقال هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباءة يعنى الخروج عن عبادة الاصنام * واعلم انه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وان أحق من أخذك فحبسك بنو أبيك وان أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب فما رأيت أحدا جاء على بنى أبيه بشر مما جئتهم به قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتكلم فى ذلك المجلس اه

ولبث يدعو الناس سرا ثلاث سنين ثم ظهر ونادى قومه بالاسلام قيل فلم يبعدوا منه ولم يردوا عليه الابعض الرد حتى ذكر آلهتهم وعابها فلما فعل ذلك أجمعوا على خلافه وحدب عليه عمه أبوطالب ومنعه وقام دونه ومضى صاحب الشريعة على ماهو عليه فلما رأت قريش أنه لايعتبهم من شئ يكرهونه وان أبا طالب قد قام دونه ولم يسلمه لهم مشى رجال من أشرافهم الى أبى طالب عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان صخر بن حرب وأبو البخترى بن هشام والاسود بن المطلب والوليد بن المغيرة وأبوجهل بن هشام والعاص بن وائل ونبيه ومنبه ابنا الحجاج أومن مشى منهم فقالوا ياأبا طالب ان ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فاما أن تكفه عنا واما أن تخلى بيننا وبينه فانك على مثل مانحن عليه من خلافه فقال لهم أبوطالب قولا جميلا وردهم ردا رفيقا فانصرفوا عنه ومضى محمد لما هو عليه ثم سرى الامر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال فتضاغنوا وأكثرت قريش من ذكر محمد ومايأتيه فى كل يوم وقد تآمروا فيه ومشوا الى أبى طالب مرة أخرى وطلبوا أن يخلى لهم عنه والا قاتلوا حتى يهلك أحد الفريقين فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم له فبعث الى صاحب الشريعة فاعلمه ما قالت قريش وقال له أبق على نفسك وعلىّ ولا تحملنى من

الامر مالا أطيق ثم ان قريشا اشتدت على من فى القبائل من الصحابة الذين أسلموا فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم و يفتنونهم عن دينهم وقام أبو طالب فى بنى هاشم فدعاهم الى منع محمد فأجابوا الى ذلك واجتمعوا اليه الا ما كان من أبى لهب عم صاحب الشريعة واشتدّ القوم على من أسلم فجعلوا يحبسونهم ويضربونهم و يعذبونهم بالجوع والعطش و رمضاء مكة والنار ليفتنوهم واشتد أبولهب عبد العزى بن عبد المطلب على صاحب الشريعة شدة بالغة وكذلك اشتد على المسلمين وكان عظيم التكذيب لصاحب الشريعة دائم الاذى فكان يطرح العذرة والنتن على باب محمد وكان جاره فكان محمد يقول أىّ جوار هذا يابنى عبد المطلب

ولما رأى صاحب الشريعة مايصيب أصحابه من البلاء وماهو فيه من الشدة وانه لاقبل له بمنع خصومه وقد كثروا جمع اليه المسلمين وقال لهم لو خرجتم الى أرض الحبشة فان فيها ملكا لايظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجا فخرجوا جميعا مهاجرين فكانت أول هجرة فى الاسلام فخرج عثمان و زوجته رقية ابنة صاحب الشريعة معه وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وامرأته معه سهلة بنت سهيل والزبير بن العوام وغيرهم ثمانية عشر رجلا وقيل أحد عشر رجلا وأربع نسوة قيل وكان سيرهم فى رجب سنة خمس من نبوّة صاحب الشريعة قالوا وهى السنة الثانية من اظهار الدعوة فأقاموا شعبان وشهر رمضان وقدموا فى شوّال سنة خمس المذكورة ولكن لم يدخل أحد منهم الى مكة الابجوار أومستخفيا فدخل عثمان فى جوار أبى أحيحة سعيد بن العاص بن أمية فأمن بذلك ودخل أبو حذيفة بن عتبة فى جوار أبيه ودخل عثمان بن مظعون بجوار الوليد بن المغيرة وأقام المسلمون بعد ذلك بمكة يؤذون فلما اشتد بهم الحال رجعوا مهاجرين الى الحبشة ثانية فخرج جعفر بن أبى طالب وتتابع المسلمون الى الحبشة فكمل بها تمام اثنين وثمانين رجلا وصاحب الشريعة مقيم بمكة على ماهو عليه من دعوة الناس الى الاسلام ولم يقو الاسلام قليلا الا بدخول حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب فيه وقد اختلف الرواة فى سبب اسلامهما ولا سيما عمر فقال بعضهم قال عمر لما أسلمت أتيت باب أبى جهل بن هشام فضربت عليه بابه فخرج الىّ وقال مرحبا يابن أخى ماجاء بك قلت جئت لأخبرك أنى قد أسلمت وآمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم وصدقت بماجاء به قال فضرب الباب فى وجهى وقال قبحك الله وقبح ماجئت به

ولما رأت قريش الاسلام يفشو و يزيد ائتمروا فى أن يكتبوا بينهم كتابا يتعاقدون فيه على أن لاينكحوا بنى هاشم و بنى المطلب ولاينكحوا اليهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيأ فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا لذلك الامر على أنفسهم فلما فعلت قريش ذلك انحاز بنو هاشم و بنو المطلب الى أبى طالب فدخلوا معه فى شعبه واجتمعوا وخرج من بنى هاشم أبو لهب بن عبد المطلب الى قريش فلقى هندا بنت عتبة فقال كيف رأيت نصرى اللات والعزى قالت لقد أحسنت فأقاموا على

ذلك

ذلك سنتين وقيل ثلاثا حتى جهد المسلمون فكان لايصل الى أحد منهم شئ الاسرا وكانوا نازلين بالشعب مع صاحب الشريعة ثم قام بعد ذلك نفر من قريش فى نقض الصحيفة وشقوها فخرج المسلمون من الشعب وبعد خروجهم بقليل مات أبو طالب فعظمت مصيبته على صاحب الشريعة واشتدت قريش بعد موته على صاحب الشريعة شدة بالغة ونالت منه حتى كان ينثر بعضهم التراب على رأسه وبعضهم كان يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلى وغير ذلك من الايذاء فلما اشتد عليه الأمر خرج ومعه زيد بن حارثة الى ثقيف يلتمس منهم النصر فلما انتهى اليهم عمد الى ثلاثة نفر منهم هم يومئذ سادة ثقيف وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عمير فدعاهم الى الاسلام وكلمهم فى نصرته والقيام معه على من خالفه فلم ينصروه وقد سخروا به وأغروا به سفهاءهم فاجتمعوا عليه وألجؤه الى حائط (١) لعتبة وشيبة ابنى ربيعة وهما فيه ثم رجع السفهاء عنه وعاد هو الى مكة فجعل يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب فلم يقم منهم أحد لنصرته

(الفصل الثانى)

(فى هجرة صاحب الشريعة وفى غزواته وما وقع لبعد ذلك)

واشتد القوم بمكة على صاحب الشريعة وكان معه علىّ بن أبى طالب وأبو بكر الصديق وخافت قريش خروجه من مكة وما يكون من وراء ذلك فاجتمعوا فى دار الندوة وهى دار قصىّ بن كلاب وتشاوروا فيها فتقررت القاعدة بينهم على قتله وقد علم صاحب الشريعة بذلك فخرج من مكة ولم يشعر به أحد وخرج معه أبو بكر من خوخة فى بيت أبى بكر ثم عمدا الى غار بثور فدخلاه وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع لهما بمكة نهاره ثم يأتيهما ليلا فكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما بطعامهما مساء فأقاما فى الغار ثلاثا وجعلت قريش مائة ناقة لمن يرده عليهم فلما مضت الثلاث وسكن الناس أتاهما دليلهما وهو وثنى اسمه عبد الله بن أرقط كانوا قد استأجروه ليدلهم على الطريق ببعيريهما فركبا وأردف أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة ليخدمهما فى الطريق وساروا قاصدين المدينة فنزلوا بها وكان علىّ قد تخلف عنهم بمكة ليؤدى الودائع لاربابها فلما أداها وافاهم الى المدينة بعد ثلاث ولحق بهم من أسلم فلما كان بعد سبعة أشهر عقد صاحب الشريعة لعمه حمزة لواء أبيض فى ثلاثين رجلا من المهاجرين ليتعرضوا لعير قريش فلقى أبا جهل فى ثلثمائة رجل فحجز بينهم مجدى ابن عمرو الجهنى وكان يحمل اللواء أبو مرثد وهو أول لواء عقده ثم عاد فعقد لواء لعبيدة بن الحرث بن المطلب وكان أبيض يحمله مسطح بن أثاثة فالتقى هو والمشركون فكان بينهم

(١) الحائط هو البستان

الرمى دون المسابقة فجرح من الفريقين ثم عقد لواء ثالثا لسعد بن أبى وقاص وسيره الى الابواء وكان يحمل اللواء المقداد بن الاسود وكان مسيره فى ذى القعدة وجميع من معه من المهاجرين فلم يلق حربا (جعل الواقدى هذه السرايا جميعها فى السنة الاولى من الهجرة) وجعلها ابن اسحق فى السنة الثانية فقالا على رأس اثنى عشر شهرا من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة خرج غازيا واستخلف على المدينة سعد بن عبادة فبلغ ودّان يريد قريشا وبنى ضمرة من كنانة وهى غزاة الابواء بينهما ستة أميال فوادعتهم فيها بنو ضمرة ورئيسهم مخشى بن عمرو ثم رجع الى المدينة ولم يلق حربا اه وذكرا بن اسحق بعد هذه الغزوة غزوة عبيدة بن الحرث ثم غزوة حمزة بن عبد المطلب وابتنى فى هذه بالمدينة مسجدا ودارا لسكناه فى قطعة أرض كانت قبل ذلك مربدا وقيل مقبرة وكانت فى ملك يتيمين يقال لهما سهل وسهيل ابنا عمرو فاشتراها صلى الله عليه وسلم منهما ثم ان المدينة كانت تسمى يثرب قبل استيطان صاحب الشريعة بها ثم سميت بالمدينة بعد استيطانه اياها

وخرج صاحب الشريعة بعد ذلك يريد غزاة بواط فى مائتين من أصحابه فى شهر ربيع الآخر يعنى سنة اثنتين يريد قريشا حتى بلغ بواط من ناحية رضوى وكان فى عير قريش أمية ابن خلف الجمحى فى مائة ومعهم ألفان وخمسمائة بعير فرجع ولم ينل منهم وكان حامل اللواء فى هذه الغزوة سعد بن أبى وقاص وقد كان استخلف على المدينة قبل خروجه منها سعد بن معاذ ثم غزا غزوة العشيرة من ينبع فى جمادى الاولى يريد قريشا حين ساروا الى الشام فلما وصل العشيرة وادع بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ورجع ثم غزا غزوة أخرى ليست من الاهمية بشئ * وزوّج علىّ بن أبى طالب فاطمة فى صفر من السنة الثانية * وفى هذه السنة فى شهر رمضان منها فى سابع عشره وقيل تاسع عشره كانت غزوة بدر الكبرى وسببها قتل عمرو بن الحضرمى واقبال أبى سفيان بن حرب فى عير لقريش عظيمة من الشام وفيها أموال كثيرة ومعها ثلاثون رجلا أوأربعون وقيل قريب من سبعين رجلا من قريش منهم مخرمة ابن نوفل الزهرى وعمرو بن العاص فمات فيها كثير من قريش وانهزمت قريش شر هزيمة

ولما كان لهذه الغزوة ذكر مشهور فى التاريخ رأيت أن ألخص خبرها هنا * خرج أبو سفيان متاجرا الى الشام فى ألف من عير قريش فسمع به صاحب الشريعة ومن معه من الانصار والمهاجرين ومن لاذبهم من العرب فهموا بالخروج اليه فتحرّز وتأهب للقتال فلم ينالوا منه فانتظروا الى أن عاد قافلا يريد مكة فكمنوا له فأعلم بذلك قريشا واستنفرهم الى أموالهم فأسرعوا اليه بخيلهم ورجلهم وكانوا فى نحو مائة فارس وثمانمائة راجل وكان صاحب الشريعة فى ثلثمائة وثلاثة عشر راجلا سبعة وسبعون من المهاجرين والباقون من الانصار فلما بلغ صاحب الشريعة وادى بدر جاءه الخبر أن العير مقبلة من جهة وقريشا مقبلة من جهة أخرى فشاور أصحابه فى أى الطائفتين يتعدى لها أوّلا فأجمع رأيهم على ترك العير ومقابلة قريش أوّلا فنزلوا على أدنى ماء من القوم وصف رجاله وشدّد عزائمهم ووعدهم

بالنصر

بالنصر ان صدقوا فى القتال ثم بنى له عريش فصار عليه مع أبى بكر وجعل يناشد ربه فى النصر فقال اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد واشتد المشركون على أصحاب صاحب الشريعة حتى كادوا ينالون منهم قيل فنزل صاحب الشريعة عن العريش وأخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا ثم رماهم بها وقال شاهت الوجوه قيل فسمعوا صوته فانخلعت قلوبهم وخيل لهم أن الملائكة تقاتلهم فانهزموا وقتل من صناديدهم سبعون فاهينت جثثهم وأسر سبعون فافتدوا أنفسهم بأربعة آلاف درهم الاأبا معيط والنضر بن الحارث وكانا شديدى الاذى لصاحب الشريعة فأمر بهما فقتلا صبرا ثم أدرك أصحابه عير قريش فانتهبوها وكان خمس صاحب الشريعة منها عشرين ألف درهم فقفل الى المدينة غانما

ثم كانت بعد ذلك غزوة قينقاع ثم غزوة الكدر ثم غزوة السويق ثم غزوة أحد وكانت من أشد الغزوات مات فيها من الفريقين خلق كثير وكانت نساء قريش يحرضن الرجال على اصطلاء نار الوغى ويضربن خلفهم بالدفوف وبينهن امرأة تقول هذه الابيات

نحن بنات طارق * نمشى على النمارق

مشى القطا البوارق * والمسك فى المفارق

والدر فى المخانق * ان تقبلوا نعانق

ونفرش النمارق * أوتدبروا نفارق

* فراق غير وامق *

وكانت تقول أيضا

ويها بنى عبد الدار * ويها حماة الديار * ضربا بكل بتار

فكانت تندفع أبطال قريش فى ميدان القتال اندفاع الاسود الضوارى غير هيابين ولا حاسبين للموت حسابا * ثم كانت غزوة الرجيع وقد قتل فيها كثير من المسلمين وبينهم خبيب أخذ أسيرا فبقى أياما ثم قتلوه صبرا ثم كانت غزوة ذات الرقاع وسميت بذلك لجبل كانت الواقعة فيه ثم غزوة بدر الثانية وتعرف أيضا بغزوة السويق ثم غزوة الخندق وهى غزوة الاحزاب كانت فى شوال وكانت من الغزوات الكبيرة وذلك أن يهود بنى قريظة كان بينهم وبين صاحب الشريعة عهد أن لايعينوا عليه أحدا ولا يثيروا عليه حربا ويتركهم وشأنهم فخالفوا ونقضوا وحزبوا العرب لاستئصال المسلمين فاجتمع منهم خلق كثير جدا وساروا الى المدينة فخندق المسلمون حولهم وتترسوا بالمدينة وقاتلوا فبينماهم كذلك اذقامت ريح عاصفة فاقتلعت خيام الاعداء فانخذلوا ثم اختلفوا وتفرقوا وساروا عن المدينة وتركوا متاعهم وكان من وراء ذلك غزوة يهود بنى قريظة وموت الكثير منهم ثم غزوة بنى المصطلق من خزاعة قال بعض أهل التاريخ كانت هذه الغزوة بعد غزوة ذى قرد وكانت فى شعبان من سنة ست فلما كانت سنة سبع وقد تقوت عزيمة صاحب الشريعة وعلت كلمته بعث رسلا من عنده

الى ملوك الارض يدعوهم الى الاسلام فأرسل حاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس بمصر وأرسل شجاع بن وهب الاسدى الى الحرث بن أبى شمر الغسانى وأرسل دحية الى قيصر وأرسل سليط بن عمرو العامرىّ الى هوذة بن على الحنفى وبعث عبدالله بن حذافة الى كسرى وأرسل عمرو بن أمية الضمرى الى النجاشى وأرسل العلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوا أخى عبد القيس وكان لكل من هؤلاء الملوك مع الرسل المذكورين شأن لامحل له هنا فأما المقوقس عظيم القبط بمصر فقيل انه قبل الكتاب وأهدى اليه مع الرسول أربع جوار منهن مارية امّ ابراهيم ولد صاحب الشريعة ثم كانت غزوة خيبر سار اليها صاحب الشريعة فى ألف وأربعمائة رجل معهم مائتا فارس وكان مسيره اليها فى المحرم سنة سبع واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى فمضى حتى نزل بالرجيع ليحول بين أهل خيبر وغطفان لانهم كانوا مظاهرين لهم وكانت هذه الغزوة من الغزوات الكبرى وفتحت البلدة فى صفر من هذه السنة فلما استقربها أهدت اليه زينب بنت الحرث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية مسمومة فوضعتها بين يديه فأخذ منها مضغة قبل فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور فأكل منها * قال الراوى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان هذه الشاة تخبرنى أنها مسمومة ثم دعا المرأة فاعترفت فقال ماحملك على ذلك قالت بلغت من قومى مالم يخف عليك فقلت ان كان نبيا فسيخبر وان كان ملكا استرحنا منه قال فتجاوز عنها اه

ومات بشر من تلك الاكلة وكان صاحب الشريعة يقول فى مرضه الذى مات به لقد وجدت الآن انقطاع أبهرى من أكلة خيبر فكان المسلمون يرون أنه مات شهيدا مع كرامة النبوة * ولم يمض على صاحب الشريعة الابضع سنين حتى ظهرت كلمته وعلت شهرته ونال الظفر فى أكثر مغازيه * ومنها غزوة أحد فلما كانت السنة الثانية من هجرته خرج معتمرا الى مكة فى ألف وأربعمائة رجل وكان مسالما لايريد حربا فلما بلغ الحديبية وهى موضع بعضه فى الحل وبعضه فى الحرم أرسل اليه قريش يعلمونه أنهم لايأذنون له فى دخول مكة أو يدخلها عنوة فجمع رجاله وأخذ عليهم يمين الطاعة وبايعوه بيعة الرضوان وعزم على مناجزة القوم بمكة فجاءه من قبلهم عروة بن مسعود كبير الثقفيين يسأله الصلح * وفى رواية ان الذى جاءه فى ذلك سهيل بن عمرو وان عروة انما ذهب اليه أولا يقول انهم لايدعونه يدخل مكة الاعنوة أى بعد قتال * فاتفقا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين وكتبا بذلك عهدا وكان مما جاء فى العهد ان من أحب أن يدخل فى عقد محمد دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش دخل فيه * ولما عاد عروة بن مسعود الى قريش قال لهم انى جئت كسرى وقيصر فى ملكهم فوالله مارأيت ملكا فى قومه مثل محمد فى أصحابه كان لايتوضأ الا ابتدروا وضوءه ولايبصق الا ابتدروا بصاقه ولا يسقط من شعره شئ الا أخذوه تبركا * ذكره ابن الاثير وأبو الفداء وابن هشام والقاضى عياض

وفى ذى الحجة من السنة أى سنة سبع اعتمر صاحب الشريعة عمرة القضاء وساق معه

سبعين بدنة وخرج معه المسلمون ممن كان معه فى عمرته الاولى فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه وتحدثت قريش أنه وأصحابه فى عسر وجهد فاصطفوا له عند دار الندوة فلما دخلها اضطبع بردائه فأخرج عضده اليمنى ثم قال رحم الله امرأ أراهم اليوم قوة ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه وكان بين يديه لما دخل مكة عبدالله بن رواحة آخذا بخطام ناقته ويقول

خلوا بنى الكفار عن سبيله * خلوا فكل الخير فى رسوله
يارب انى مؤمن بقيله * أعرف حق الله فى مقوله
نحن قتلناكم على تأويله * كما قتلناكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله * ويذهل الخليل عن خليله

ولما كانت سنة ثمان غزا غزوة ذات السلاسل ثم غزوة الخبط وغيرهما ثم غزوة مؤتة وكانت فى جمادى الاولى من هذه السنة وهى من الغزوات الكبرى ومؤتة قرية انحاز اليها المسلمون يوم القتال ثم ان بنى بكر بن عبد مناة غدت على خزاعة وهم على ماء لهم باسفل مكة يقال له الوتير وكانت خزاعة فى عهد صاحب الشريعة وبكر فى عهد قريش فى صلح الحديبية وكان سبب ذلك أن رجلا من بنى الحضرمى اسمه مالك بن عباد كان حليفا للاسود بن رزن الديلى ثم البكرى فى الجاهلية خرج تاجرا فلما كان بأرض خزاعة قتلوه فعدت خزاعة على بنى الاسود بن رزن وهم سلمى وكلثوم وذؤيب فقتلوهم بعرفة وكانوا من أشراف بنى بكر فبينما خزاعة وبكر على ذلك اذجاء الاسلام واشتغل الناس به فلما كان صلح الحديبية ودخلت خزاعة فى عهد صاحب الشريعة ودخلت بكر فى عهد قريش اغتنم بنو بكر تلك الهدنة وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم بقتل بنى الاسود فخرج نوفل بن معاوية الديلى بمن تبعه من بكر حتى بيت خزاعة على ماء الوتير وقيل كان سبب ذلك أن رجلا من خزاعة سمع رجلا من بكر ينشد هجاء صاحب له فشجه فهاج الشر بينهم وثارت بكر بخزاعة حتى بيتوهم بالوتير وأعانت قريش بنى بكر على خزاعة بشئ من السلاح والدواب وقاتل معهم جماعة من قريش أيضا مختفين قيل منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهل بن عمرو فانحازت خزاعة الى الحرم فقال بنو بكر يانوفل انا قد دخلنا الحرم الهك الهك فقال لااله اليوم يابنى بكر أصيبوا ثأركم فلعمرى انكم لتسرفون فى الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه فلما انقضت بكر وقريش العهد الذى بينهم وبين صاحب الشريعة خرج عمرو بن سالم الخزاعى ثم الكعبى حتى قدم على صاحب الشريعة المدينة فوقف عليه ثم أنشد

يارب انى ناشد محمدا * حلف أبينا وأبيه الاتلدا
فوالدا كنا وكنت الولدا * ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر رسول الله نصرا أعتدا * وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا * أبيض مثل البدر تنمى صعدا

ان سيم خسفا وجهه تربدا * فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا
ان قريشا أخلفوك الموعدا * ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوالى فى كداء رصدا * وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل وأقل عددا * هم بيتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعا وسجدا

فقال صاحب الشريعة لقد نصرت ياعمرو بن سالم

(الفصل الثالث)

(فى فتح مكة)

تأهب صاحب الشريعة وأمر الناس بالتأهب لفتح مكة فلما شاع الخبر كتب حاطب ابن أبى بلتعة كتابا الى قريش يعلمهم الخبر وسيره مع امرأة من مزينة اسمها كنود وقيل مع سارة مولاة لبنى المطلب تعلمهم الخبر وسيره معها فعلم صاحب الشريعة بذلك فأرسل عليا والزبير فأدركاها وأخذا منها الكتاب وجاآبه اليه فأحضر حاطبا وقال ماحملك على هذا فقال والله انى مؤمن مابدّلت ولاغيرت ولكن لى بين أظهرهم أهل وولد وليس لى عشيرة فصانعتهم عليهم فقال عمر دعنى أضرب عنقه فانه قدنافق وجاء الخبر بتأهب صاحب الشريعة لقتالهم على مكة فخافوا وخشوا العاقبة وسيروا أبا سفيان الى صاحب الشريعة لتلافى الامر وتجديد العهد فلم يأذن له صاحب الشريعة فى الدخول عليه فقصد أبابكر وعليا فلم يلبياه فرجع الى مكة خائبا وتجهز صاحب الشريعة يريد أخذ قريش قبل أن يتأهبوا وخرج لعشر مضين من رمضان واستخلف على المدينة أبارهم كلثوم بن حصين الغفارى فلم يصل مكة حتى بلغ جيشه عشرة آلاف ولما رأى أهل مكة أن لاقبل لهم بمثل هذا الجيش العظيم نزلوا على حكم صاحب الشريعة ودانوا بدينه وأسلم كذلك أبوسفيان وقتل من المشركين ثمانية وعشرون رجلا قتلهم خالد وأسلم أهل مكة كافة الا ستة رجال وأربع نسوة كانوا أشد جرما عند صاحب الشريعة من غيرهم وكان بعضهم قد ارتد عن الاسلام ثم قتلوا منهم ثلاثة رجال وامرأة واحدة وأسلم الباقون وفازت واحدة من النسوة بالهرب فلم يوقف لها على أثر الا بعد حين فكان فتح مكة لعشر بقين من رمضان

ولما فتحت مكة بعث صاحب الشريعة الزبير وأمره أن يدخل ببعض الناس من كدى قال سعد حين وجهه * اليوم يوم الملحمه * اليوم تستحل فيه الكعبه * قال فسمعها رجل من المهاجرين فأعلم صاحب الشريعة فقال لعلىّ بن أبى طالب أدركه فخذ الراية وكن أنت الذى تدخل بها وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من الليط فى بعض

الناس وكان معه أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب فلما وصل صاحب الشريعة الى ذى طوى وقف على راحلتـه وهو معتجر بشقة برد حبرة أحمر ثم تقدم ودخل من أذاخر بأعلاها وضربت قبته هنالك

ووقف صاحب الشريعـة على باب الكعبة وقال يامعشر قريش ماترون أنى فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء فعفا عنهم فلذلك سمى أهل مكة (الطلقاء) وطاف صاحب الشريعة بالكعبة سبعا ودخلها وصلى فيها ثم جلس للبيعة فى الصفا وعمر بن الخطاب تحته واجتمع الناس لبيعته فكان يبايعهـم على السمع والطاعـة لله ولرسوله فيما استطاعوا فكانت هذه بيعة الرجال ثم أخـذ يبايع النساء فأتاه منهن نساء من قريش منهن أم هانئ بنت أبى طالب وأم حبيبة بنت العاص بن أمية وكانت عنـد عمرو بن عبد ود العامرى وأروى بنت أبى العيص عمـة عتاب بنت أسـيد وأختها عاتكة بنت أبى العيص وكانت عنـد المطلب بن أبى وداعة السهمى وأمية بنت عفان بن أبى العاص أخت عثمان وكانت عند سعد حليف بنى مخزوم وهند بنت عتبة وكانت عنـد أبى سفيان وبسـيرة بنت صفوان بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى وأم حكيم بنت الحرث بن هشام وكانت عنـد عكرمة ابن أبى جهل وفاختة بنت الوليد بن المغيرة أخت خالد وكانت عند صفوان بن أمية بن خلف وريطة بنت الحجاج وكانت عند عمرو بن العاص وغيرهن وكانت هنـد متنكرة لصنيعها بحمزة فهى تخاف أن تؤخـذ به وقال لهن تبايعننى على أن لاتشركن بالله شـيأ قالت هنـد انك والله لتأخذ علينا مالاتأخـذه على الرجال فسـنؤتيكه قال ولا تسرقن قالت والله ما كنت أصيب من مال أبى سـفيان الا الهنة بعد الهنة فقال أبو سـفيان وكان حاضرا أما مامضى فأنت منـه فى حل فقال صاحب الشريعـة أهند قالت أنا هند فاعف عما سلف عفا الله عنك قال ولا تزنين قالت وهـل تزنى الحرة قال ولا تقتلن أولادكن قالت ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كبارا فأنت وهم أعلم فضحك عمر قال ولاتأتين ببهتان تفترينـه بين أيديكن وأرجلكن قالت والله ان اتيان البهتان لقبيح وما تأمرنا الا بالرشد ومكارم الاخلاق قال ولاتعصيننى فى معروف قالت ماجلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصـيك فقال صاحب الشريعة لعمر بايعهن ففعل * قال أهل التاريخ ولما جاء وقت الظهر أمر صاحب الشريعة بلالا أن يؤذن على ظهر الكعبة وقريش فوق الجبال فلما أذن وقال أشهد أن محمدا رسول الله قالت جويرية بنت أبى جهـل لقد أكرم الله أبى حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة وقال خالد بن أسعد لقد أكرم الله أبى فلم ير هذا اليوم وقال الحارث بن هشام ليتنى مت قبل هذا اليوم وقال جماعة نحو هذا القول تحاملا واستخفافا

(الفصل الرابع)

﴿ فى ذكر مرض صاحب الشريعة ووفاته ﴾

ابتدأ المرض بصاحب الشريعة فى أواخر صفر فى بيت زينب بنت جحش وكان يدور على نسائه حتى اشتد مرضه فى بيت ميمونة فجمع نساءه فاستأذنهن أن يمرض فى بيت عائشة وبينما هو فى مرضه اذ وصلت الاخبار بظهور الاسود العنسى باليمن ومسيلمة باليمامة وطليحة فى بنى أسد وعسكر بسميراء فتأخر مسير أسامة وكان قد عقد له لواء وأمره بالغزو قبل أن يثقل به مرضه وكذلك تأخر لخبر الاسود العنسى ومسيلمة فخرج صاحب الشريعة عاصبا رأسه من الصداع وأمر بانفاذ جيش أسامة ولعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وخرج أسامة فضرب بالجرف المعسكر وتمهل الناس وثقل صاحب الشريعة ولم يشغله شدة مرضه عن انفاذ الغزوة فأرسل الى نفر من الانصار فى أمر الاسود فأصيب الاسود فى حياة صاحب الشريعة قبل وفاته بيوم فأرسل الى جماعة من الناس يحثهم على جهاد من عندهم من المرتدين وقد اشتد به المرض شدة بالغة وازداد ألمه * قال ابن مسعود نعى الينا نبينا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر فلما دنا الفراق جمعنا فى بيت عائشة فنظر الينا فشدد ودمعت عيناه وقال مرحبا بكم حياكم الله رحمكم الله آواكم الله حفظكم الله رفعكم الله وفقكم الله سلمكم الله قبلكم الله أوصيكم بتقوى الله وأوصى الله بكم وأستخلفه عليكم حذركم الله انى لكم منه نذير و بشير أن لاتعلوا على الله فى عباده وبلاده فانه قال لى ولكم تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الارض ولافسادا والعاقبة للمتقين * قلنا فى أجلك قال دنا الفراق والمنقلب الى الله وسدرة المنتهى والرفيق الاعلى وجنة المأوى فقلنا من يغسلك قال أهلى قلنا فيم نكفنك قال فى ثيابى أوفى بياض قلنا فمن يصلى عليك قال مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا فبكينا وبكى ثم قال دعونى على سريرى على شفير قبرى ثم اخرجوا عنى ساعة ليصلى علىّ جبريل واسرافيل وميكائيل وملك الموت مع الملائكة ثم ادخلوا علىّ فوجا فوجا فصلوا علىّ ولاتؤذونى بتزكية ولارنة أقرؤا أنفسكم منى السلام ومن غاب من أصحابى فأقرؤه منى السلام ومن تابعكم على دينى فأقرؤه منى السلام اه قال ابن عباس يوم الخميس ومايوم الخميس * ثم جرت دموعه على خديه * اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه ووجعه فقال ائتونى بدواة وبيضاء أكتب لكم كتابا لاتضلون بعدى أبدا فتنازعوا ولاينبغى عند نبى تنازع فقالوا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهجر فجعلوا يعيدون عليه فقال دعونى فما أنا فيه خير مما تدعونى اليه فأوصى أن يخرج

المشركون من جزيرة العرب وأن يجاز الوفد بنحو مما كان يجيزهم وسكت عن الثالثة عمدا أو قال نسيتها اه

وخرج على بن أبى طالب من عند صاحب الشريعة فى مرضه فقال الناس كيف أصبح رسول الله فقال أصبح بحمد الله بارئا فأخذ بيده العباس فقال أنت بعد ثلاث عبد العصا وان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتوفى فى مرضه هذا وانى لاعرف الموت فى وجوه بنى عبد المطلب فاذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسأله فيمن يكون هذا الامر فان كان فينا علمناه وان كان فى غيرنا أمره فأوصى بنا فقال على لئن سألناها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعناها فلا يعطيناها الناس أبدا والله لاأسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فما اشتد الضحى حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم * وكان موته يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الاول * ولما توفى كان أبو بكر بمنزله بالسنح لانه كان قد تخلف عن الخروج فى جيش أسامة لما تحقق من شدة مرض صاحب الشريعة وقرب وفاته وعمر حاضر فلما شاع خبر موته كثر توارد العرب من كل صوب وحدب وعلت الضوضاء وارتفعت الجلبة واشتد الهرج والمرج وظهرت دلائل الردة وقام كل ذى مرض فى الصدر وافتتنوا أو كادوا فقام عمر بينهم فقال ان رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى وانه والله مامات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقطع أيدى وأرجل رجال زعموا أنه مات وأقبل أبو بكر وعمر يكلم الناس وهم فى ضجة فدخل على صاحب الشريعة وهو مسجى فى ناحية البيت فكشف عن وجهه ثم قبله وقال بأبى أنت وأمى طبت حيا وميتا أما الموتة التى كتب الله عليك فقد متها ثم ردّ الثوب على وجهه ثم خرج وعمر يكلم الناس فأمره بالسكون فأبى وعلا صوته وشدد القول فأقبل أبو بكر على الناس فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لايموت ثم تلا هذه الآية * وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيأ وسيجزى الله الشاكرين * قال الراوى فوالله لكأن الناس ماسمعوها الامنه وقال عمر فوالله ماهو الا اذ سمعتها فعقرت حتى وقعت على الارض ماتحملنى رجلاى وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات اه

ولما مات صاحب الشريعة ووصل خبره الى مكة وعامله عليها عتاب بن أسيد بن أبى العاص بن أمية استخفى عتاب وارتجت مكة وكاد أهلها يرتدون واجتمعوا حول الكعبة وكثر ضجيجهم فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا اليه فقال ياأهل مكة لاتكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله ليتمنّ الله هذا الامر كما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد رأيته قائما مقامى هذا وحده وهو يقول قولوا معى لااله الا الله كلمة تدين لكم بها العرب

وتؤدى لكم العجم الجزية والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر فى سبيل الله فمن بين مستهزئ ومصدق فكان مارأيتم والله ليكونن الباقى فامتنع الناس من الردة وقل الهرج وتطامنت القلوب واجتمع الانصار فى سقيفة بنى ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة فبلغ ذلك أبا بكر فأتاهم ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح فقال ماهذا فقالوا منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر منا الامراء ومنكم الوزراء ثم قال أبو بكر قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين عمر وأبا عبيدة أمين هذه الامة * فقال عمر أيكم يطيب نفسا أن يخلف قدمين قدمهما النبى صلى الله عليه وسلم فبايعه عمر وبايعه الناس فقالت الانصار لانبايع الاعليا وتخلف على وبنو هاشم والزبير وطلحة عن البيعة وقال الزبير لاأغمد سيفا حتى يبايع على فقال عمر خذوا سيفه واضربوا به الحجر ثم أتاهم عمر فأخذهم للبيعة وقيل لما سمع على ببيعة أبى بكر خرج فى قميص ماعليه ازار ولا رداء عجلا حتى بايعه ثم استدعى ازاره ورداءه فتجلله * قال بعض أهل التاريخ والصحيح أن عليا مابايع الا بعد ستة أشهر وقيل لما اجتمع الناس على بيعة أبى بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول انى لارى عجاجة لايطفئها الادم يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم أين المستضعفان أين الاذلان على والعباس مابال هذا الامر فى أقل حى من قريش ثم قال لعلى ابسط يدك أبايعك فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجلا فأبى على عليه فتمثل بشعر المتلمس

ولن يقيم على خسف يراد به * الا الاذلان عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته * وذا يشج فلا يرثى له أحد

قيل فزجره على وقال والله انك ماأردت بهذا الا الفتنة وانك والله طالما بغيت للاسلام شرا لاحاجة لنا فى نصيحتك * وقال ابن عباس كنت أقرئ عبد الرحمن بن عوف القرآن فحج عمر وحججنا معه فقال لى عبد الرحمن شهدت أمير المؤمنين اليوم بمنى وقال له رجل سمعت فلانا يقول لومات عمر لبايعت فلانا فقال عمر انى لقائم العشية فى الناس أحذرهم هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغتصبوا الناس أمرهم قال فقلت ياأمير المؤمنين ان الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم وهم الذين يغلبون على مجلسك وأخاف أن تقول مقالة لايعوها ولايحفظوها ويطيروا بها ولكن أمهل حتى تقدم المدينة وتخلص بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقول ماقلت فيعوا مقالتك فقال والله لأقومن بها أول مقام أقومه بالمدينة قال فلما قدمت المدينة هجرت يوم الجمعة لحديث عبد الرحمن فلما جلس عمر على المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال بعد أن ذكر الرجم وما نسخ من القرآن فيه * انه بلغنى أن قائلا منكم يقول لومات أمير المؤمنين بايعت فلانا فلا يغرن امرأ أن يقول ان بيعة أبى بكر كانت فلتة فقد كانت كذلك ولكن الله وقى شرها وليس منكم من تقطع اليه الاعناق مثل أبى بكر وانه كان خيرنا حين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وان عليا والزبير ومن معهما تخلفوا عنا فى بيت فاطمة وتخلف عنا الانصار واجتمع المهاجرون الى أبى بكر فقلت له انطلق بنا الى اخواننا من الانصار فانطلقنا نحوهم فلقينا رجلان صالحان من الانصار أحدهما

عويم بن ساعدة والثانى معن بن عدى فقالا لنا ارجعوا اقضوا أمركم بينكم قال فأتينا الانصار وهم مجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة وبين أظهرهم رجل مزمل قلت من هذا قالوا سعد بن عبادة وجع فقام رجل منهم فحمد الله وأثنى عليه وقال * أما بعد فنحن الانصار وكتيبة الاسلام وأنتم يامعشر قريش رهط بيننا وقد دفت الينا دافة من قومكم فاذاهم يريدون أن يغصبونا الامر فلما سكت وكنت قد زورت فى نفسى مقالة أقولها بين يدى أبى بكر فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر على رسلك فقام فحمد الله وماترك شيأ كنت زورت فى نفسى الاجابه أوبأحسن منه وقال * يامعشر الانصار انكم لاتذكرون فضلا الاوأنتم له أهل وان العرب لاتعرف هذا الامر الالقريش وهم أوسط العرب دارا ونسبا وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين وأخذ بيدى و بيد أبى عبيدة بن الجراح وانى والله ما كرهت من كلامه كلمة غيرها ان كنت أقدم فتضرب عنقى فيما لايقربنى الى اثم أحب الى من أن أؤمر على قوم فيهم أبو بكر * فلما قضى أبو بكر كلامه قام منهم رجل فقال أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منا أمير ومنكم أمير وارتفعت الاصوات واللغط فلما خفت الاختلاف قلت لابى بكر ابسط يدك أبايعك فبسط يده فبايعته و بايعه الناس ثم نزونا على سعد بن عبادة فقال قائلهم قتلتم سعدا فقلت قتل الله سعدا وانا والله ماوجدنا أمرا هو أقوى من بيعة أبى بكر خشيت ان فارقت القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة فاما أن نتابعهم على ما لانرضى واما أن نخالفهم فيكون فسادا اه

وقال أبو عمرة الانصارى لما قبض النبى صلى الله عليه وسلم اجتمعت الانصار فى سقيفة بنى ساعدة وأخرجوا سعد بن عبادة ليولوه الامر وكان مريضا فقال بعد أن حمد الله * يامعشر الانصار لكم سابقة وفضيلة ليست لاحد من العرب ان محمدا صلى الله عليه وسلم لبث فى قومه بضع عشرة سنة يدعوهم فما آمن به الا القليل ما كانوا يقدرون على منعه ولا على اعزاز دينه ولا على دفع ضيم حتى اذا أراد الله بكم الفضيلة ساق اليكم الكرامة ورزقكم الايمان به و برسوله والمنع له ولاصحابه والاعزاز له ولدينه والجهاد لاعدائه فكنتم أشد الناس على عدوه حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها وأعطى البعيد المقادة صاغرا فدانت لرسوله باسيافكم العرب وتوفاه الله وهو عنكم راض قرير العين استبدوا بهذا الامر دون الناس فانه لكم دونهم * فأجابوه بأجمعهم قد وفقت وأصبت الرأى ونحن نوليك هذا الامر فانك مقنع ورضاء للمؤمنين ثم انهم ترادوا الكلام وأبى المهاجرون من قريش وقالوا نحن المهاجرون وأصحابه الاولون وعشيرته وأولياؤه فقالت طائفة منهم فانانقول منا أمير ومنكم أمير وان نرضى بدون هذا أبدا فقال سعد هذا أول الوهن وسمع عمر الخبر فأتى منزل صاحب الشريعة وأبو بكر فيه فأرسل اليه أن اخرج الى فأرسل اليه انى مشتغل فقال عمر قد حدث أمر لابدلك من حضوره فخرج اليه فأعلمه الخبر فمضيا مسرعين نحوهم ومعهما أبو عبيدة قال عمر فأتيناهم وقد كنت زورت كلاما أقوله لهم فلما دنوت أقول أسكتنى أبو بكر وتكلم

بكل ماأردته لحمد الله وقال * ان الله قد بعث فينا رسولا شهيدا على أمته ليعبدوه ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى من حجر وخشب فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخص الله المهاجرين الاولين من قومه بتصديقه والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومه وتكذيبهم اياه وكل الناس لهم مخالف زار عليهم فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم فهم أول من عبد الله فى هذه الارض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الامر من بعده لاينازعهم الاظالم * وأنتم يامعشر الانصار من لاينكر فضلهم فى الدين ولاسابقتهم فى الاسلام رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله وجعل اليكم هجرته فليس بعد المهاجرين الاولين عندنا بمنزلتكم فنحن الامراء وأنتم الوزراء لاتفاوتون بمشورة ولا تقضى دونكم الامور * فقام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال * يامعشر الانصار املكوا عليكم أمركم فان الناس فى ظلكم ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ولايصدروا الاعن رأيكم أنتم أهل العز وأولو العدد والمنعة وذوو البأس وانما ينظر الناس ماتصنعون ولاتختلفوا فيفسد عليكم أمركم أبى هؤلاء الاماسمعتم فمنا أمير ومنكم أمير فقال عمر هيهات لايجتمع اثنان والله لاترضى العرب أن تؤمركم ونبينا من غيركم ولاتمتنع العرب أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ولنا بذلك الحجة الظاهرة من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته فقال الحباب بن المنذر يامعشر الانصار املكوا على أيديكم ولاتسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الامر فان أبوا عليكم فأجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذا الامر فأنتم والله أحق بهذا الامر منهم فانه بأسيافكم دان الناس لهذا الدين أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب أنا أبو شبل فى عرينة الاسد والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة فقال عمر اذن ليقتلك الله فقال بل اياك يقتل * فقال أبو عبيدة يامعشر الانصار انكم أول من نصر فلا تكونوا أول من بدل وغير * فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال * يامعشر الانصار انا والله وان كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى الدين ماأردنا به الارضاء ربنا وطاعة نبينا والكدح لانفسنا فما ينبغى أن نستطيل على الناس بذلك ولانبتغى به الدنيا ألاان محمدا صلى الله عليه وسلم من قريش وقومه أولى به وايم الله لايرانى الله أنازعهم هذا الامر فاتقوا الله ولاتخالفوهم * فقال أبو بكر هذا عمر وأبو عبيدة فان شئتم فبايعوا فقالا والله لانتولى هذا الامر عليك وأنت أفضل المهاجرين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة وهى أفضل دين المسلمين ابسط يدك نبايعك فلما ذهبا يبايعانه سبقهما بشير بن سعد فبايعه فناداه الحباب بن المنذر عققت عقاقا أنفست على ابن عمك الامارة فقال لاوالله ولكنى كرهت أن أنازع القوم حقهم * ولما رأت الاوس ماصنع بشير وما تطلب الخزرج من تأمير سعد قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان نقيبا والله لئن وليتها الخزرج مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولاجعلوا لكم فيها نصيبا أبدا فقوموا فبايعوا أبا بكر فبايعوه فانكسر على سعد والخزرج ماأجمعوا عليه وأقبل الناس يبايعون أبا بكر من كل جانب ثم تحول سعد

ابن

ابن عبادة الى داره فبقى أياما وأرسل اليه ليبايع فان الناس قد بايعوا فقال لاوالله حتى أرميكم بما فى كنانتى وأخضب سنان رمحى وأضرب بسيفى وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى ولو اجتمع معكم الجن والانس ماىايعتكم حتى أعرض على ربى فقال عمر لاتدعه حتى يبايع فقال بشير بن سعد انه قدلج وأبى ولا يبايعكم حتى يقتل وليس بمقتول حتى يقتل معه أهله وطائفة من عشيرته ولايضركم تركه وانما هو رجل واحد فتركوه * وجاءت أسلم فبايعت فقوى أبو بكر بهم وبايع الناس بعد * قيل ان عمرو بن حريث قال لسعيد بن زيد متى بويع أبو بكر قال يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم كرهوا أن يبكوا بعض يوم وليسوا فى جماعة * قال الزهرى بقى على وبنو هاشم والزبير ستة أشهر لم يبايعوا أبا بكر حتى ماتت فاطمة رضى الله عنها فبايعوه فلما كان الغد من بيعة أبى بكر جلس على المنبر وبايعه الناس بيعة عامة ثم تكلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال * أيها الناس قدوليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينونى وان أسأت فقوّمونى الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه والقوى ضعيف عندى حتى آخذ منه الحق ان شاء الله تعالى لايدع أحد منكم الجهاد فانه لايدعه قوم الاضربهم الله بالذل أطيعونى ماأطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم قوموا الى صلاتكم رحمكم الله اه

ولما بويع أبو بكر أقبل الناس على جهاز صاحب الشريعة ودفن يوم الثلاثاء وقيل يوم الاربعاء وقيل بقى ثلاثة أيام لم يدفن وكانت مدة مرضه أربعة عشر يوما وقيل سبعة أيام بذات الجنب فلما كان اليوم السابع من مرضه مات * قال ضمران مات وتحته فى مرضه شملة حمراء وعليها مات وفيها أدرج بعد موته وورى التراب بغير غسل ولا أكفان * وروى عمران بن حضير الخزاعى أنه غسل وأدرج فى ثلاثة أثواب سحولية أى بيض يمانية وان الذى تولى ذلك معه على بن أبى طالب والفضل بن العباس بن عبد المطلب عمه واختلفوا أين يدفنونه فقال أبو بكر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ماقبض نبى الادفن حيث قبض فرفع فراشه ودفن موضعه حفرله أبو طلحة الانصارى لحدا ودخل الناس يصلون عليه أرسالا الرجال ثم النساء ثم الصبيان ثم العبيد ودفن ليلة الاربعاء وقيل ليلة الخميس واختلفوا فى عمره يوم مات فقال ابن عباس وعائشة ومعاوية وابن المسيب كان عمره ثلاثا وستين سنة وقال ابن عباس أيضا ودغفل بن حنظلة كان عمره خمسا وستين سنة وقال عروة بن الزبير كان عمره ستين سنة والله أعلم بالحقيقة

(المقـالة الثالثة)

﴿في الخلفاء الراشدين وفيها فصول﴾

(الفصل الاول)

﴿في خلافة أبي بكر الصديق﴾

لما تولى أبو بكر الامر بعد وفاة صاحب الشريعة كان قد استفحل أمر الخلاف بين العرب وظهر النفاق وتأخر سير جيش أسامة بن زيد الى الشام بأسباب وفاة صاحب الشريعة وظهور الفتنة في العرب وارتداد الخاصة والعامة من كل قبيلة وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة لفقد صاحبهم وقلتهم وكثرة عدوهم وكان أبو بكر قد نادى في جيش أسامة بالخروج الى الشام كما أمر صاحب الشريعة وكرر أبو بكر النداء بالتعجيل فقال الناس لابي بكر ان هؤلاء (يعنون جيش أسامة) جند المسلمين والعرب على ماترى فقد انتقضت بك فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك فقال أبو بكر والذي نفسي بيده لوظننت أن السباع تخطفني لانفذت جيش أسامة كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم فخاطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة الى معسكره بالجرف فخرجوا كما أمرهم وحبس أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل فلما خرج الجيش الى معسكرهم بالجرف وتكاملوا أرسل أسامة عمر بن الخطاب وكان معه في جيشه الى أبي بكر يستأذنه أن يرجع بالناس وقال ان معي وجوه الناس وجلتهم ولا آمن على خليفة رسول الله وحرم رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون وقال من مع أسامة من الانصار لعمر بن الخطاب ان أبا بكر خليفة رسول الله ألا فامض فأبلغه عنا واطلب اليه أن يولي أمرنا أقدم سنا من أسامة فخرج عمر بأمر أسامة الى أبي بكر فأخبره بما قال أسامة فقال لو خطفتني الكلاب والذئاب لانفذته كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق في القرى غيري لانفذته * قال عمر فان الانصار تطلب رجلا أقدم سنا من أسامة * فوثب أبو بكر وكان جالسا وأخذ بلحية عمر وقال ثكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني ان أعزله * ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم وأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب فقال له أسامة يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن فقال والله لانزلت ولا أركب وما عليّ أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله فلما أراد أن يرجع قال لاسامة ان رأيت أن تعينني بعمر فافعل فأذن له ثم وصاهم فقال لهم * لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تقعروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا

بعيرا وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تمرون بأقوام قد فحصوا أواسط رؤسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا اندفعوا باسم الله * وأوصى أسامة أن يفعل ما أمره به صاحب الشريعة فساروا وأوقع بقبائل من ناس قضاعة التى ارتدت وغنم وعاد وكانت غيبته أربعين يوما وقيل سبعين يوما

قال أصحاب التاريخ وكان انفاذ جيش أسامة أعظم الامور نفعا للمسلمين فان العرب قالوا لولم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه وقال بعضهم لما مات صاحب الشريعة ارتدت العرب ومنعت الزكاة فجمع أبوبكر الصحابة وشاورهم فى الامر وفى قتال العرب فاختلفوا عليه وقال له عمر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله فمن قالها فقد عصم منى دمه وماله الا بحقه وحسابه على الله عز وجل فقال أبوبكر والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لومنعونى عناقا كانوا يؤدونها رسول الله لقاتلهم على منعها قال عمر فوالله ماهو الا أن شرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق * وفى رواية قال عمر فقلت تألف الناس وارفق بهم فقال أجبارا فى الجاهلية وخوارا فى الاسلام ياعمر انه قد انقطع الوحى وتم الدين أينقص وأنا حىّ ثم خرج لقتالهم

وقال ابن قتيبة ارتدت العرب الا القليل منهم فجاهدهم الصدّيق حتى استقاموا وفتح اليمامة وقتل مسيلمة الكذاب بها والاسود العنسى الكذاب بصنعاء وبعث الجيوش الى الشام والعراق * وأخرج ابن عبد الحكم عن على بن رباح اللخمى قال بعث أبوبكر الصدّيق رضى الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا الى المقوقس بمصر فمر على ناحية قرى الشرقية فعاهدهم وأعطوه فلم يزالوا على ذلك حتى دخلها عمرو بن العاص فقاتلوه وانتقض ذلك العهد * وقال عبد الملك بن مسلمة وهى أول هدنة كانت بمصر (قلت) ولم أر فى قول أحد من أهل التاريخ شيأ من نحو ذلك البتة * وأقام أبوبكر يدبر الامر ويبعث البعوث والسرايا الى الآفاق ويشدد على من ارتد من القبائل ويعمل فى رقاب أصحاب الفتنة بالسيف حتى استقام له الامر وعلت كلمة الاسلام ولاحت طوالعه فى سماء السعادة ومازال حتى مرض وثقل به المرض ومات وله ثلاث وستون سنة قيل ولما مرض ترك التطبب تسليما للامر فعاده الصحابة وقالوا ألا ندعو لك طبيبا ينظر اليك فقال نظر الىّ فقالوا وما قال لك قال قال لى انى فعال لما أريد * وتوفى ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ودفن فى حجرة عائشة مع صاحب الشريعة وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيام

(الفصـــــل الثـــانى)

(فى خلافة عمر بن الخطاب)

ثم قام بالامر بعده عمر بن الخطاب بويع له بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه أبو بكر بوصية من أبى بكر اليه * فهو عمر الفاروق وهو أول من سمى بأمير المؤمنين وهو أول المهاجرين الاولين قبل صلى الى القبلتين وشهد بدرا وبيعة الرضوان وجميع المشاهد مع صاحب الشريعة ولما أسلم تعزز به الاسلام * واختلف الكتاب فى اسلام عمر فمن قائل أسلم بعد تسعة وثلاثين رجلا وثلاث وعشرين امرأة ومن قائل بعد أربعين رجلا واحدى عشرة امرأة ومن قائل بل أسلم بعد خمسة وأربعين رجلا واحدى وعشرين امرأة * وكان رجلا جلدا منيعا شديد البأس جبارا وكان اسلامه بعد هجرة من هاجر من أصحاب صاحب الشريعة الى الحبشة قيل وكان أصحاب صاحب الشريعة لايقدرون أن يصلوا عند الكعبة حتى أسلم عمر فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى صاحب الشريعة عندها وصلى معه أصحابه وكان قد أسلم قبـل عمر حمزة ابن عبـد المطلب فقوى بهـما الاسـلام وتحقق المسلمون أنهما سيمنعان صاحب الشريعـة والمسلمين واختلفوا أيضا فى سبب اسلامه بعـد الذى كانوا يرونه من شـدّته وجـبروته على المسلمين * قالت أم عبدالله بنت أبى حثمة وكانت زوج عامر بن ربيعة انا لنرحل الى أرض الحبشة وقد ذهب عامر لبعض حاجته اذ أقبل عمر وهو على شركه حتى وقف علىّ وكنا نلقى منه البلاء أذى وشـدّة فقال أتنطلقون يا أم عبدالله قالت قلت نعم والله لنخرجنّ فى أرض الله فقد آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعـل الله لنا فرجا قالت فقال صحبكم الله ورأيت له رقة وحزنا فلما عاد عامر أخبرته وقلت له لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا قال أطمعت فى اسلامه قلت نعم فقال لايسلم حتى يسـلم حمار الخطاب لما كان يرى من غلظته وشـدّته على المسلمين قالت فهداه الله تعالى فأسلم فصار على الكفار أشد منه على المسلمين

وقال جماعة ان سبب اسلامه ان أخته فاطمة بنت الخطاب كانت تحت سعيد بن زيد ابن عمرو العـدوى وكانا مسلمين يخفيان اسلامهـما من عمر وكان نعيم بن عبـدالله النحام العدوى قد أسلم أيضا وهو يخفى اسلامه خوفا من قومه وكان خباب بن الارت يختلف الى فاطمة يقرئها القرآن فخرج عمر يوما ومعه سيفه يريد قتل صاحب الشريعـة وأصحابه وهـم مجتمعون فى دار الارقم عند الصفا وعنـده من لم يهاجر من المسلمين فى نحو أربعـين رجـلا فلقيه نعيم بن عبـد الله فقال أين تريد ياعمر فقال أريد محمـدا الذى فرّق أمر قريش وعاب دينها فأقتله فقال نعيم والله لقد غرتك نفسك أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الارض وقد قتلت محمدا أفلا ترجع الى أهلك فتقيم أمرهم فقال وأى أهلى فقال ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختـك فاطمة فقد والله أسلما فرجع عمر اليهما وعنـدهما خباب بن الارت

يقرئهما القرآن فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب وأخذت فاطمة الصحيفة فألقتها تحت فخذها وقد سمع عمر قراءة خباب فلما دخل قال ماهذه الهينمة قالا ماسمعت شيأ قال انكما تابعتما محمدا وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت اليه أخته تكفه فضربها فشجها فلما فعل ذلك قالت له أخته قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ماشئت فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم وقال لها أعطيني هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرؤن فيها الآن حتى أنظر الى ما جاء به محمد فقالت انا نخشاك عليها فحلف أنه يعيدها قالت وقد طمعت فى اسلامه انك نجس على شركك ولا يمسها الا المطهرون فقام فاغتسل فأعطته الصحيفة وقرأها وفيها طه وكان كاتبا فلما قرأ بعضها قال ما أحسن هذا الكلام وأكرمه فلما سمع خباب خرج اليه وقال ياعمر انى والله لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فانى سمعته أمس وهو يقول اللهم أيد الاسلام بعمر بن الخطاب أوبأبى الحكم بن هشام فالله الله ياعمر فقال عمر عند ذلك فدلنى ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم فدله خباب فأخذ بسيفه وجاء الى صاحب الشريعة وأصحابه وضرب عليهم الباب فقام رجل منهم ينظر من بالباب فرآه متوشحا بسيفه فأخبر صاحب الشريعة فقال حمزة ائذن له فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له وان أراد شرا قتلناه بسيفه فأذن له فنهض اليه صاحب الشريعة حتى لقيه فأخذ بمجامع ردائه ثم جذبه جذبة شديدة وقال ماجاء بك ما أراك تنتهى حتى ينزل الله عليك قارعة فقال عمر يارسول الله قد جئت لأومن بالله وبرسوله فكبر صاحب الشريعة تكبيرة شديدة * قال عمر ولما أسلمت أتيت باب أبى جهل بن هشام فضربت عليه بابه فخرج الىّ وقال مرحبا يابن أخى ما جاء بك قلت جئت لأخبرك أنى قد أسلمت وآمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم وصدّقت ماجاء به قال فضرب الباب فى وجهى وقال قبحك الله وقبح ماجئت به اه وقيل فى اسلامه غير ذلك * وكانت العرب لاتحب تولية عمر الخلافة بعد أبى بكر لغلظته وشدّته فلما نزل بأبى بكر الموت دعا عبد الرحمن بن عوف فقال أخبرنى عن عمر فقال انه أفضل من رأيت الا أن فيه غلظة فقال أبو بكر ذلك لانه يرانى رفيقا ولو أفضى الامر اليه لترك كثيرا مما هو عليه وقد رمقته فكنت اذا غضبت على رجل أرانى الرضا عنه واذا لنت الى رجل أرانى الشدة عليه ثم دعا عثمان بن عفان وقال له أخبرنى عن عمر فقال سريرته خير من علانيته وليس فينا مثله فقال أبو بكر لهما لاتذكرا مما قلت لكما شيأ ولو تركته ماعدوت عثمان والخيرة له الآن أن يلى من أموركم شيأ ولوددت أنى كنت من أموركم خلوا وكنت فيمن مضى من سلفكم * ودخل طلحة ابن عبيدالله على أبى بكر فقال استخلفت على الناس عمر وقد رأيت مايلقى الناس منه وأنت معه وكيف به اذا خلا بهم وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك * فقال أبو بكر أجلسونى فأجلسوه فقال أبالله تخوفنى اذا لقيت ربى فسألنى قلت استخلفت على أهلك خير أهلك ثم ان أبا بكر أحضر عثمان بن عفان خاليا ليكتب عهد عمر فقال له اكتب * بسم الله الرحمن الرحيم * هذا ماعهد أبو بكر بن أبى قحافة الى المسلمين أما بعد ثم أغمى عليه فكتب عثمان

أما بعد فانى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرا ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ على فقرأ عليه قال الراوى فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس ان مت فى غشيتى قال نعم قال جزاك الله خيرا عن الاسلام وأهله فلما كتب العهد أمره أن يقرأه على الناس فجمعهم وأرسل الكتاب مع رسول له ومعه عمر فكان عمر يقول للناس أنصتوا واسمعوا لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لم يألكم نصحا فسكن الناس فلما قرئ عليهم الكتاب سمعوا وأطاعوا وكان أبو بكر أشرف على الناس وقال أترضون بمن استخلفت عليكم فانى مااستخلفت عليكم ذا قرابة وانى قد استخلفت عليكم عمر فاسمعوا له وأطيعوا فانى والله ما ألوت من عهد الرأى فقالوا سمعنا وأطعنا ثم أحضر أبو بكر عمر وقال له انى قد استخلفتك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصاه بتقوى الله ثم قال له * ياعمر ان لله حقا بالليل لايقبله فى النهار وحقا فى النهار لايقبله فى الليل وانه لايقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ألم تر ياعمر أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم وحق لميزان لايوضع فيه غدا الا حق أن يكون ثقيلا * ألم تر ياعمر أنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان أن لايوضع فيه الا باطل أن يكون خفيفا * ألم تر ياعمر انما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة وآية الشدة مع آية الرخاء ليكون المؤمن راغبا راهبا لايرغب رغبة يتمنى فيها على الله ماليس له ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه * ألم تر ياعمر أن الله ذكر أهل النار بأسوإ أعمالهم فاذا ذكرتهم قلت انى لارجو أن لاأكون منهم وانه انما ذكر أهل الجنة باحسن أعمالهم لانه تجاوز لهم عما كان من سيئ فاذا ذكرتهم قلت أين عملى من أعمالهم فان حفظت وصيتى فلايكونن غائب أحب اليك من حاضر من الموت ولست بمعجزه اهـ * وتوفى أبو بكر فلما دفن صعد عمر بن الخطاب فخطب الناس ثم قال انما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده لينظر قائده حيث يقوده وأما أنا فورب الكعبة لاحملنكم على الطريق قال بعض الكتاب وهو أول من عس فى عمله أى كان يمشى ليلا لحفظ الدين والناس فهابه الناس هيبة عظيمة حتى تركوا الجلوس بالافنية فلما بلغه هيبة الناس له جمعهم ثم قام على المنبر حيث كان أبو بكر يضع قدميه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال قد بلغنى أن الناس قد هابوا شدتى وخافوا غلظتى وقالوا قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ثم اشتد علينا وأبو بكر رضى الله عنه والينا دونه فكيف الآن وقد صارت الامور اليه ولعمرى ان من قال ذلك فقد صدق كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض والحمد لله وأنا أسعد الناس بذلك ثم ولى أمر الناس أبو بكر رضى الله عنه فكنت خادمه وعونه أخلط شدتى بلينه فأكون سيفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فما زلت معه كذلك حتى قبضه الله تعالى وهو عنى راض والحمد لله وأنا أسعد الناس بذلك ثم انى وليت أموركم فاعلموا أن تلك الشدة قد تضاعفت ولكنها انما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين وأما أهل

السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض ولست أدع أحدا يظلم أحدا ويتعدّى عليه حتى أضع خدّه على الارض وأضع قدمى على خده حتى يذعن للحق ولكم علىّ أيها الناس أن لاأخبأ عنكم شيأ من خراجكم واذا وقع عندى أن لايخرج الا بحقه ولكم علىّ أن لاألقيكم فى المهالك واذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا أقول قولى هذا وأستغفرالله العظيم لى ولكم اه قال سعيد بن المسيب وفىّ والله عمر وزاد فى الشدة فى مواضعها واللين فى مواضعه * قيل ولما رجع من الشام الى المدينة انفرد عن الناس ليتعرف أخبار رعيته فمرّ بعجوز فى خبائها فقصدها فقالت ياهذا مافعل عمر قال قد أقبل من الشام سالما فقالت لاجزاه الله عنى خيرا قال ولم قالت لانه والله مانالنى من عطائه منذ ولى أمر المؤمنين دينار ولا درهم فقال وما يدرى عمر بحالك وأنت فى هذا الموضع فقالت سبحان الله والله ماظننت أن أحدا يلى على الناس ولا يدرى مابين مشرقها ومغربها فبكى عمر وقال واعمراه كل أحد أفقه منك حتى العجائز ياعمر ثم قال لها ياأمة الله بكم تبيعينى ظلامتك من عمر فانى أرحمه من النار فقالت لاتهزأ بنا يرحمك الله فقال لست بهازئ فلم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين دينارا فبينما هو كذلك اذ أقبل على بن أبى طالب وابن مسعود فقالا السلام عليك ياأمير المؤمنين فوضعت العجوز يدها على رأسها وقالت واسوأتاه شتمت أمير المؤمنين فى وجهه فقال لها عمر لابأس عليك رحمك الله ثم طلب رقعة يكتب فيها فلم يجد فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها * بسم الله الرحمن الرحيم هذا مااشترى عمر من فلانة ظلامتها مذ ولى الى يوم كذا وكذا بخمسة وعشرين دينارا مما تدعى عند وقوفها فى المحشر بين يدى الله تعالى فعمر منه برىء وشهد على ذلك على بن أبى طالب وابن مسعود * ثم دفع الكتاب الى ولده وقال اذا أنا مت فاجعله فى كفنى ألقى به ربى * قال بعض الكتاب وهو أوّل من أرّخ التاريخ وذلك فى سنة ست عشرة وفيها كان فتح بيت المقدس صلحا وفيها نزل سعد بن أبى وقاص على الكوفة وحصرها وهو أول من دوّن الدواوين ومصر الامصار وفتح الفتوحات الكثيرة ففتح دمشق ثم الروم ثم فارس ثم انتهى الفتح الى حمص وحلوان والرقة والرها وحران ورأس العين وخابور ونصيبين وعسقلان وطرابلس وما يليها من الساحل وبيسان واليرموك والاهواز وقيسارية

قال ابن عبد الحكم حدثنا عثمان بن صالح أنبأنا ابن لهيعة عن عبد الله بن أبى جعفر وعياش بن عباس العتابى وغيرهما يزيد بعضهم على بعض قالوا ولما كانت سنة ثمان عشرة وفد عمر بن الخطاب الجابية قام اليه عمرو بن العاص فخلا به فقال يا أمير المؤمنين ائذن لى أن أسافر الى مصر وحرّضه عليها وقال انك ان فتحتها كانت قوّة للسلمين وعونا لهم وهى أكثر الارض أموالا وأعجزهم على القتال والحرب فتخوّف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها حتى ركن لذلك عمر فعقد له على أربعة الاف رجل كلهم من عك ويقال على ثلاثة آلاف وخمسمائة فقال عمر سر

وأنا متخير الله فى مسيرك وسيأتى اليك كتابى مسرعا انشاء الله تعالى فان أدركك كتابى وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيأ من أرضها فانصرف وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره فسار عمرو بن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس واستخار عمر الله فكأنه تخوف على المسلمين فى وجههم ذلك فكتب الى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين فأدرك الكتاب عمرا وهو برفح فتخوف عمرو بن العاص ان هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد اليه عمر فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين فح والعريش فسأل عنها فقيل انها من مصر فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين فقال عمرو ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر قالوا بلى فقال ان أمير المؤمنين عهد الىّ وأمرنى ان لحقنى كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا مصر فسيروا وامضوا على بركة الله فتقدم عمرو بن العاص فلما بلغ المقوقس قدوم عمرو توجه الى الفسطاط وكان أول موضع قوتل فيه الفرما قاتله الروم قتالا شديدا نحو شهر حتى فتح الله على يديه وكان بالاسكندرية أسقف للقبط اسمه بنيامين فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص كتب الى القبط يعلمهم انه لايكون للروم دولة وان ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقى عمرو ومعاونته على الروم فصار القبط الذين فى الفرما يومئذ لعمرو أعوانا ثم توجه عمرو لايدافع الا بالامر الخفيف حتى نزل القواصر فنزل ومن معه ثم تقدم وهو لايدافع الا بالامر الخفيف حتى أتى بلبيس فقاتلوه بها نحوا من شهر حتى فتحها ثم مضى لايدافع الا بالامر الخفيف حتى أتى أم دنين فقاتلوه بها قتالا شديدا وأبطأ عليه الفتح فكتب الى عمر يستمده فأمده بأربعة آلاف رجل تمام ثمانية آلاف فسار عمرو بمن معه حتى نزل على الحصن فحاصرهم بالقصر الذى يقال له باب ليون حينا وقاتلهم فلما أبطأ عليه الفتح كتب الى عمر بن الخطاب يستمده فأمده عمر بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل وكتب اليه انى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الالف الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد واعلم ان معك اثنى عشر ألفا ولن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة * وكان الروم قد خندقوا حول حصنهم وجعلوا للخندق أبوابا وجعلوا سكك الحديد موتدة بأفنية الابواب فلما قدم المدد الى عمرو بن العاص أتى الى القصر ووضع عليه المنجنيق وكان على القصر رجل من الروم يقال له الاعيرج واليا عليه وهو مندقور فرمى عمرو بالمنجنيق على الروم وطال القتال بين الفريقين أياما كثيرة والقبط يعاونون العرب على القتال سرا كرها فى الروم فلما أبطأ الفتح قال الزبير انى أهب نفسى لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلما الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام وأمرهم ان سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعا فما شعروا الاوالزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا من أن ينكسر فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه وكبر وكبر من معه وأجابهم المسلمون من خارج لم يشك أهل الحصن أن العرب قد

اقتحموا جميعا فهزموا فعمد الزبير وأصحابه الى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن
فحينئذ سأل المقوقس عمرو بن العاص الصلح ودعاه اليه على أن يفرض للعرب على القبط
دينارين على كل رجل منهم فأجابه عمرو الى ذلك قيل وكان مكثهم على باب القصر حتى
فتحوه سبعة أشهر وكان قد تنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر
القبلى فلحقوا بالجزيرة وأمروا بقطع الجسر وذلك فى جرى النيل وتخلف الاعيرج فى الحصن
ثم ركب هو وأهل القوة والشرف بعد قليل وكانت سفنهم ملصقة بالحصن ولحقوا بالمقوقس
فى الجزيرة فأرسل المقوقس الى عمرو بن العاص يقول * انكم قوم قد ولجتم فى بلادنا وألححتم فى
قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا وانما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا عليكم
ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل وانما أنتم أسارى فى أيدينا فأرسلوا لنا
رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتى الامر فيما بيننا على ماتحبون ونحب ونقطع
عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه * فرد
عليهم عمرو مع رسله أن ليس بينى وبينكم الا احدى ثلاث خصال اما ان دخلتم فى الاسلام
فكنتم لنا اخوانا وكان لكم مالنا وان أبيتم أعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون واما ان
جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين فرد اليه المقوقس رسله
وقال ابعثوا الينا رسلا منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم على ماعسى أن يكون فيه صالح
لنا ولكم فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وهو أقدم من أدرك
الاسلام من العرب وطوله عشرة أشبار وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم فلما ركبوا
السفن الى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة وتكلم معه وقال انظر الذى تريد فبينه لنا فليس
بيننا و بينكم خصلة نقبلها منكم ولا نجيبكم اليها الا خصلة من ثلاث فاختر أيها شئت بذلك
أمرنى الامير و بها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل الينا
فلم يقبل أصحاب المقوقس ذلك وأمروا بقطع الجسر بين الفسطاط والجزيرة فعاد الفريقان
بعد ذلك للقتال وانحازت السفن كلها الى الجزيرة وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء من كل
وجه لايقدرون على أن ينفذوا أو يتقدموا نحو الصعيد ولا الى غير ذلك من المدائن والقرى
وراسل عمرو بن العاص المقوقس وألح فأجابه المقوقس وقال نجتمع أنا وأنت فى نفر من أصحابى
ونفر من أصحابك فان استقام الامر بيننا تم لنا ذلك وان لم يتم رجعنا الى ما كنا عليه فاستشار
عمرو أصحابه فى ذلك وقال قد علمتم ماعهد الىّ أمير المؤمنين فى عهده فان أجابوا الى خصلة من
الخصال الثلاث التى عهد الىّ بها أجبتهم اليها وقبلت منهم مع ما قد حال بيننا وبين مانريد
من قتالهم فأذعنوا واجتمعوا على عهد بينهم وتقررت القاعدة على أن يفرضوا على جميع من
بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ومن بلغ الحلم
منهم ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شئ وعلى أن للمسلمين
عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك

كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام وان لهم أرضهم وأموالهم لايتعرض لهم فى شئ منها قط ووافق المقوقس على ذلك وفرض عمرو بن العاص على نفسه القيام بكرامة المقوقس وأن لايشاغبه على مافى يده ولايسلبه حقه وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر فيما أحصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس فكانت فريضتهم اثنى عشر ألف ألف دينار كل سنة وقيل بلغت غلتهم ثمانية آلاف ألف

وشرط المقوقس للروم أن يتخيروا فمن أحب منهم أن يقيم على هذا الشرط أقام على هذا الأمر الذى هو مفترض عليه ممن أقام بالاسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها ومن أراد الخروج منها الى أرض الروم خرج على أن للمقوقس الخيار فى الروم خاصة حتى يكتب الى ملك الروم يعلمه مافعل فان قبل ذلك ورضيه جاز عليهم والا كانوا جميعا على ما كانوا عليه وكتبوا به كتابا وكتب المقوقس الى ملك الروم يعلمه على وجه الامر كله * قال الراوى فكتب اليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه مافعل ويقول فى كتابه انما أتاك من العرب اثنا عشر ألفا وبمصر من بها من كثرة عدد القبط مالايحصى فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية الى العرب واختاروهم عنا ولأراهم الافاعلون ذلك فان عندك بمصر من الروم وبالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ماقد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم فى حال القبط فقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم فانهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم على قدر قلتهم وضعفهم كافة فناهضهم القتال ولايكون لك رأى غير ذلك * وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتابا لجماعته واتفق المقوقس وعمرو بن العاص على أن يكون القبط له أعوانا ويقيموا له الانزال والضيافة والاسواق والجسور مابين الفسطاط الى الاسكندرية ففعلوا واستعدت الروم وجاشت وقدم عليهم من أرض الروم جمع عظيم ثم التقوا ببلدة سلطيس فاقتتلوا بها قتالا شديدا ثم انهزموا ثم التقوا بالكريون فاقتتلوا بها بضعة عشر يوما وكان عبد الله ابن عمرو على المقدمة وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو واشتد الروم فى قتال المسلمين شدة بالغة وأبلى المسلمون بلاء حسنا وما زال القتال حتى بلغ الروم الاسكندرية فتحصنوا بها وكانت عليهم حصون مبنية لاترام حصن دون حصن فنزل المسلمون مابين حلوة الى قصر فارس الى ماوراء ذلك ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا اليه من الاطعمة والعلوفة وغير ذلك ورسل ملك الروم تختلف الى الاسكندرية فى المراكب بمادة الروم وتجهز هرقل ملك الروم لقتال المسلمين بمدينة الاسكندرية فأدركته المنية قبل قيامه ومات سنة خمس وأربعين وستمائة للميلاد أى سنة ثلاث وعشرين للهجرة ۞ وما زالوا على قدم القتال حتى فتحت الاسكندرية وهرب الروم فى البر والبحر فخلف عمرو بن العاص بالاسكندرية من أصحابه ومضى بمن معه فى طلب من هرب من الروم فى البر فرجع من كان هرب من الروم فى البحر

الى

الى الاسكندرية فقتلوا من كان بها من المسلمين الا من هرب منهم وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكر راجعا ففتحها وأقام بها وكتب الى عمر بن الخطاب ان الله قد فتح علينا بالاسكندرية عنوة بغير عقد ولا عهد فكتب اليه عمر بن الخطاب يقبح رأيه ويأمره أن لا يجاوزها * قال ابن عبد الحكم وحدثنا عثمان بن صالح عن أبي لهيعة قال بعث عمرو بن العاص معاوية بن حديج وافدا الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بشيرا له بالفتح فقال له معاوية ألا تكتب معي كتابا قال له عمرو وما تصنع بالكتاب ألست رجلا أعرابيا تبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت فلما قدم على عمر وأخبره بفتح الاسكندرية خر عمر ساجدا وقال الحمد لله * قال وحدثنا ابراهيم بن سعد البلوى قال كتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أما بعد فانى فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودى وأربعمائة ملهى للملوك * وأخرج عن ابراهيم بن سعد البلوى المذكور ان سبب فتح الاسكندرية أن رجلا كان يقال له ابن بسامة كان بوابا فسأل عمرو بن العاص أن يؤمنه على نفسه وأرضه وأهل بيته ويفتح له الباب فأجابه عمرو الى ذلك ففتح له الباب فدخل

(مطلب)

(فى الخلاف بين العلماء فى مصر هل فتحت صلحا أو عنوة)

فمن قائل انها فتحت صلحا قال ابن عبد الحكم حدثنى عثمان بن صالح أخبرنا الليث قال كان يزيد بن أبى حبيب يقول مصر كلها صلح إلا الاسكندرية فانها فتحت عنوة

وأخرج عن يحيى بن أيوب وخالد بن حميد قال فتح الله أرض مصر بصلح غير الاسكندرية وثلاث قريات ظاهروا الروم على المسلمين سلطيس ومصيل وبلهيت * وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب قال كانت قرى من قرى مصر قاتلت ونقضوا العهد فسبوا منها قرية يقال لها بلهيت وقرية يقال لها الخيس وقرية يقال لها سلطيس وقرطا وفرق سباياهم بالمدينة وغيرها فردهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى قراهم وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة * وأخرج يحيى بن أيوب ان أهل سلطيس ومصيل وبلهيت ظاهروا الروم على المسلمين فى جمع كان لهم فلما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم وقالوا هؤلاء لنا فىء مع الاسكندرية فكتب عمرو بن العاص بذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وكتب اليه عمر أن يجعل الاسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين ويضربون عليهم الخراج ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوهم ولا يجعلون فيئا ولا عبيدا ففعل ذلك

ومن قائل انها فتحت عنوة قال ابن عبد الحكم حدثنا عبد الملك بن مسلمة وعثمان بن

صالح قال أخبرنا ابن لهيعة عن ابن هبيرة أن مصر فتحت عنوة وقال أخبرنا عبد الملك بن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قال سمعت أشياخنا يقولون ان مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد وقال أنبأنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن وهب عن داود بن عبدالله الحضرمى أن أبا حيان أيوب بن أبى العالية حدثه عن أبيه أنه سمع عمرو بن العاص يقول لقد قعدت مقعدى هذا وما لاحد من قبط مصر علىّ عهد ولا عقد الا أهل انطابلس فان لهم عهدا يوفى لهم به * حدثنا عبد الملك حدثنا ابن لهيعة عن أبى قنبان به وزاد ان شئت قتلت وان شئت خمست وان شئت بعت * وأخرج عن ربيعة بن عبد الرحمن بن عمرو بن العاص قال فتحت مصر بغير عهد ولا عقد وان عمر بن الخطاب حبس درها وصرها أن يخرج منه شئ نظرا للاسلام وأهله * وأخرج عن زيد بن أسلم قال كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل ما كان بينه وبين أحد ممن عاهده فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد * وأخرج عن الصلت بن أبى عاصم أنه قرأ كتاب عمر بن عبد العزيز الى حيان بن شريح ان مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد

ومن قال ان بعضها صلح وبعضها عنوة قال ابن عبد الحكم حدثنا يحيى بن خالد عن راشد بن سعد عن عقيل بن خالد عن ابن شهاب قال كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة فجعلها عمر بن الخطاب جميعا ذمة وحملهم على ذلك فمضى فيهم ذلك الى اليوم ﴿قلت﴾ وقد أثبت أصحاب التاريخ من غير العرب من المتقدمين والمتأخرين أن مصر فتحت كلها صلحا باتفاق مع المقوقس عظيم القبط يومئذ تخلصا من ربقة ظلم الروم وعسفهم وقد لخص القضاعى فى كتابه الخطط قصة فتح مصر تلخيصا وجيزا هو أقرب للصواب * قال لما قدم عمرو بن العاص رضى الله عنه من عند عمر رضى الله عنه كان أول موضع قاتل فيه الفرما قتالا شديدا نحوا من شهر قال أبو عمرو الكندى وكان أول من شد على باب الحصن حتى اقتحمه اسميقع بن وعلة السبائى واتبعه المسلمون فكان الفتح وتقدم عمرو لايدافع الا بالامر الخفيف حتى أتى أم دنين وهى المقس فقاتلوه بها قتالا شديدا وكتب الى عمر يستمده فامده باثنى عشر ألف نفر فوصلوا اليه أرسالا يتبع بعضهم بعضا وكان فيهم أربعة آلاف عليهم أربعة وهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وقيل ان الرابع خارجة بن حذافة دون مسلمة ثم أحاط المسلمون بالحصن وأمير الحصن يومئذ المندقور الذى يقال له الاعيرج من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى وكان المقوقس ينزل الاسكندرية وهو فى سلطان هرقل غير أنه كان حاضرا الحصن حين حاصره المسلمون ونصب عمرو فسطاطه فى موضع الدار المعروفة باسرائيل التى على باب زقاق الزهرى ويقال فى دار أبى الوزام التى فى أول زقاق الزهرى ملاصقة لدار اسرائيل وأقام المسلمون على باب الحصن محاصرين للروم سبعة أشهر * ورأى الزبير خللا مما يلى دار أبى صالح الحورانى الملاصقة لحمام ابن نصر السراج عند سوق الحمام فنصب سلما وأسنده الى الحصن وقال انى أهب نفسى لله عز وجل فمن شاء أن يتبعنى فليتبعنى فتبعه جماعة حتى أوفى على الحصن فكبر وكبروا ونصب شرحبيل

ابن

ابن حسنة المرادى سلما آخر مما يلى زقاق الزمامرة ويقال ان السلم الذى صعد عليه الزبير كان موجودا فى داره التى بسوق وردان الى أن وقع حريق فاحترق ولما رأى المقوقس أن العرب قد ظفروا بالحصن جلس فى سفنه هو وأهل الرفعة من القوم وكانت ملصقة بباب الحصن الغربى فلحقوا بالجزيرة وقطعوا الجسر وتحصنوا هنالك والنيل حينئذ فى مده وتكلموا فى أمر الصلح فبعث عمرو بعبادة بن الصامت الى المقوقس فصالحه المقوقس على القبط والروم على أن للروم الخيار فى الصلح الى أن يوافى كتاب ملكهم فان رضى تم ذلك وان سخط انتقض ما بينه وبين الروم وأما القبط فبغير خيار قال وكان الذى انعقد عليه الصلح أن فرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين عن كل نفس فى كل سنة من البالغين شريفهم ووضيعهم دون الشيوخ والاطفال والنساء على أن للمسلمين عليهم النزل والضيافة حيث نزلوا وضيافة ثلاثة أيام لكل من ينزل منهم وأن لهم أرضهم وبلادهم لا يتعرضون فى شئ منها أبدا اه ﴿ قلت ﴾ فن قال ان مصر فتحت صلحا تعلق بهذا الصلح وقال الامر لم يتم الا بما جرى بين عبادة ابن الصامت وبين المقوقس وعلى ذلك أكثر العلماء من أهل مصر منهم عقبة بن عامر ويزيد ابن أبى حبيب والليث بن سعد وغيرهم وذهب الذين قالوا ان مصر فتحت عنوة الى أن الحصن فتح عنوة فكان جميع الارض كذلك وكان فتحها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين وذكر يزيد بن أبى حبيب أن عدد الجيش الذى كان مع عمرو بن العاص خمسة عشر ألفا وخمسمائة وقال عبد الرحمن بن سعد بن مقدام ان الذين جرت سهامهم فى الحصن من المسلمين اثنا عشر ألفا وثلثمائة بعد من أصيب منهم فى الحصار من القتل والموت ويقال ان الذين قتلوا فى مدة هذا الحصار من المسلمين دفنوا فى أصل الحصن ثم سار عمرو الى الاسكندرية فى شهر ربيع الاول سنة عشرين وقيل فى جمادى الآخرة فأمر بفسطاطه أن ينزع فاذا بيمامة قد باضت فى أعلاه فقال قد تحرمت فى جوارنا أقروا الفسطاط حتى تطير فراخها فأقروا الفسطاط فى موضعه فلذلك سميت الفسطاط * وقال ابن قتيبة وانما العرب تقول لكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط اه ونقل عمرو بن العاص الى الاسكندرية بعد افتتاحها والمقام بها فى ذى القعدة سنة عشرين قال الليث أقام عمرو بالاسكندرية فى حصارها وفتحها ستة أشهر ثم انتقل الى الفسطاط فاتخذها دارا اه

وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها هم أن يسكنها وقال مساكن قد كفيناها فكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذن فى ذلك فسأل عمر الرسول هل يحول بينى وبين المسلمين ماء قال نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل فكتب عمر الى عمرو بن العاص انى لا أحب نزول المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف فتحوّل عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط * ولما رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية ونزل موضع الفسطاط

انضمت القبائل بعضها الى بعض وتقاسموا فى المواضع فولى عمرو على الخطط معاوية بن حديج التجيبى وشريك بن سمى الغيطفى بن مراد وعمرو بن قحزم الخولانى وحيويل بن ناشرة المعافرى فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل وذلك فى سنة احدى وعشرين * ذكره الكندى * وقد كان المسلمون حين اختطوا تركوا بينهم وبين البحر والحصن فضاء لتفريق دوابهم وتأديبها فلم يزل الامر على ذلك حتى ولى معاوية بن أبى سفيان فأقطع فى الفضاء وبنيت به الدور * وأما الاسكندرية فلم يكن بها تخطيط وانما كانت أخائذ من أخذ منزلا نزل فيه هو وبنوه وبنو بنيه وفى قول ليزيد بن أبى حبيب ان الزبير بن العوام اختط الاسكندرية * وفتح عمر بن الخطاب فى خلافته أيضا عدا ماتقدم ذكره تستر ونهاوند والرى وما يليها واصبهان وبلاد فارس واصطخر وهمذان والنوبة والبرلس والبربر وغير ذلك قيل وكانت درته أهيب من سيف الحجاج ومع ذلك كله بقى على حاله كما كان قبل الولاية فى لباسه وزيه وأفعاله وتواضعه يسير منفردا فى حضره وسفره من غير حرس ولا حجاب لم تغيره الامرة ولم يستطل على مسلم بلسانه ولا حابى أحدا فى الحق

وقتل عمر بن الخطاب سنة ثلاث وعشرين للهجرة قتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة واسمه فيروز وكان المغيرة يستغله كل يوم أربعة دراهم لانه كان يصنع الارحاء فلقى عمر يوما فقال ياأمير المؤمنين ان المغيرة قد أثقل علىّ غلتى فكلمه لى ليخفف عنى فقال له عمر اتق الله وأحسن الى مولاك فغضب أبو لؤلؤة وقال ياعجباه قد وسع الناس عدله غيرى وأصر على قتله واصطنع له خنجرا له رأسان وسمه وتحين به عمر فجاء عمر الى صلاة الغداة * قال عمرو بن ميمون انى لقائم فى الصلاة وما بينى وبين عمر الا ابن عباس رضى الله عنهما فما هو الا أن كبر فسمعته يقول قتلنى الكلب حين طعنه وطار العلج بسكين كانت ذات طرفين لايمر على أحد يمينا وشمالا الا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات سبعة وقيل تسعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما علم أنه مأخوذ نحر نفسه فقال عمر قاتله الله لقد أمرت به معروفا ثم قال الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الاسلام وكان أبو لؤلؤة مجوسيا توفى فى ذى الحجة لاربع عشرة ليلة مضت منه فى السنة المذكورة بعد طعنه بيوم وليلة عن ثلاث وستين سنة ودفن مع صاحبيه فى حجرة النبى صلى الله عليه وسلم اهـ

قال صاحب حياة الحيوان فى باب الدال المهملة روى مسلم وغيره أن عمر رضى الله عنه خطب الناس يوما فحمد الله وأثنى عليه ثم قال انى رأيت رؤيا لم أرها الا لحضور أجلى وهى أن ديكا نقرنى ثلاث نقرات * وفى لفظ رأيت كأن ديكا أحمر نقرنى نقرة أو نقرتين فحدثتها أسماء بنت عميس فحدثتنى بأنه يقتلنى رجل من الاعاجم وكان هذا القول منه يوم الجمعة فطعن يوم الاربعاء رضى الله عنه اهـ قال وروى الحاكم عن سالم بن أبى الجعد عن معدان ابن أبى طلحة عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قال على المنبر رأيت فى المنام كأن ديكا نقرنى ثلاث نقرات فقلت أعجمى يقتلنى وانى جعلت أمرى لهؤلاء الستة الذين توفى رسول الله

صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض وهو عثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص فمن استخلفوه فهو الخليفة * وذكر ابن خلكان وغيره أن عمر لما طعن اختار من الصحابة ستة نفروهم المتقدم ذكرهم وكان سعد بن أبي وقاص غائبا وجعل عبد الله ابنه مشيرا وليس له من الامر شئ وأقام المسور بن مخرمة وثلاثين نفسا من الانصار وقال ان اتفقوا على واحد الى ثلاثة أيام والافاضربوا رقاب الكل فلا خير للمسلمين فيهم وان افترقوا فرقتين فالفرقة التى فيها عبد الرحمن بن عوف * وأوصى أن يصلى صهيب بالناس ثلاثة أيام فأخرج عبد الرحمن بن عوف نفسه من الشورى واختار عثمان فبايعه الناس (قلت) وقد نسب أهل التاريخ هذه الفعلة لعمر من أشنع الفعال وأشدها ضررا بالاسلام وأهله * ونقل ابن العباس بن عبد المطلب انه قال لعلى ياابن أخى لاتدخل نفسك فى الشورى مع القوم فانى أخاف أن يخرجوك منها فتبقى وصمة فيك فلم يقبل منه * قال ولما طعن عمر سئل ماأحب الاشربة اليك ياأمير المؤمنين قال النبيذ فسقوه نبيذا فخرج من جرحه فقال قوم نبيذ وقال قوم دم فسقوه لبنا فخرج من جرحه فقيل له أوص ياأمير المؤمنين فأوصى بالشورى قال ويقال ان عبيد الله بن عمر وثب على الهرمزان فقتله وقتل معه رجلا نصرانيا من أهل نجران كانا قد اتهما باغراء أبى لؤلؤة بعمر رضى الله عنه وقتل بنتا طفلة لابى لؤلؤة ووارهم عثمان رضى الله عنه ولحق عبيد الله بمعاوية فى خلافة على رضى الله عنه * قال وكان فى أيام عمر الفتوحات العظام وهو الذى سمى الغزوات الشواتى والصوائف وهو أوّل من أرخ التاريخ بعام الهجرة وأوّل من دعى أمير المؤمنين وأوّل من ختم الكتب وكان فى يده خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوّل من ضرب بالدرة وحملها وأوّل من قال أطال الله بقاءك قالها لعلى رضى الله عنهما وهو الذى أخر المقام الى موضعه اليوم وكان ملصقا بالباب وهو أوّل من جمع الناس على امام واحد فى التراويح وحج بالناس عشر سنين متوالية آخرها سنة ثلاث وعشرين ومعه نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهوادج ورجع الى المدينة فرأى الرؤيا المتقدمة اهـ

واستعمل عمر بن الخطاب فى خلافته على مصر بعد فتحها فى سنة تسع عشرة للهجرة عمرو بن العاص فضرب عمرو على أهلها الجزية كما تقدم بك بيانه وبالغ فى ارهاب الناس واذلالهم وجمع ماعندهم من الاموال والكنوز واختط مصر قبل الاسكندرية والجيزة وكان الى هذا الحين قد تم له فتح سائر البلاد الا دمياط وكان العامل عليها يومئذ من قبل الروم (الهاموك) أحد أقارب المقوقس فراسله عمرو فى الاذعان والتسليم فامتنع وقال لاسبيل الى ذلك فطاوله فلم يذعن وأصر على ماهو عليه فأنفذ له عمرو المقداد بن الاسود فى جماعة من المسلمين فلاقاه (الهاموك) فى عسكر واقتتل الفريقان قتالا شديدا فكانت بينهم سجالا ومات ابن الهاموك فى ساحة القتال فارتد الهاموك الى دمياط وجمع اليه أصحاب الرأى وكلهم فى الامر قبل وكان بينهم رجل حكيم مسموع الكلمة فقال أيها الامير انا لم نسمع عن هؤلاء القوم

منذ جاؤا الى هذه الديار ووطؤا أرضها الا مايدل على تأيدهم ونصرهم وهاهم قد فتحوا البلاد وقهروا العباد وبسطوا يدهم على تلك الممالك الواسعة فالرأى عندى أن تعقد مع القوم صلحا تحقن به الدماء وتحفظ الاعراض والاموال وانظر الى ماجرى مع المقوقس وأصحابه فقد صالحوا القوم وكفاهم الله شرهم قيل فلم يقبل الهاموك كلامه وباتوا ليلتهم تلك وأصبح الهاموك فنادى فى عسكره بالخروج لقتال المسلمين فلم يتكامل خروجهم حتى سمعوا تكبير المسلمين على أسوار المدينة فسقط الهاموك فى يده وتسلم المسلمون المدينة وجاء الخبر الى عمرو بن العاص بالفتح ففرح فرحا لايوصف وسار المقداد بن الاسود بمن بقى معه من المسلمين الى فتح تانس فقاتله أهلها قتالا شديدا وما زال يقاتلها أياما حتى تم له فتحها فلم يبق بعد ذلك شئ بغير فتح واشتد عمرو بن العاص فى احصاء أهل البلاد وتقدير الجزية عليهم فكان يحبس منها مايحتاج اليه ويبعث الى عمر بن الخطاب بما بقى منها * قال ابن عبد الحكم وكان عمرو بن العاص لما استوثق له الامر أقر قبطها على جباية الروم فكانت جبايتهم بالتعديل اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم وان قل أهلها وخربت نقصوا فيجتمع عرفاء كل قرية ورؤساؤها فيتناظرون فى العمارة والخراب حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع ثم ترجع كل قرية الى قسمتهم فيجمعونها وخراج كل قرية وما فيها من الارض العامرة فيبدؤن فيخرجون من الارض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الارض ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان فاذا فرغوا نظروا الى مافى كل قرية من الصناع والاجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم فان كانت فيهم جالية قسموا عليها بقدر احتمالها وقلما كانت الا للرجل الشاب أو المتزوج ثم نظروا فيما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الارض ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم فان عجز أحد منهم وشكى ضعفا عن زرع أرضه وزعوا ماعجز عنه على ذوى الاحتمال وان كان منهم من يريد الزيادة أعطى ماعجز عنه أهل الضعف فان تشاحنوا قسموا ذلك على عدتهم وكانت قسمتهم على قراريط الدينار أربعة وعشرين قيراطا يقسمون الارض على ذلك وجعل عليهم عمرو بن العاص لكل فدان نصف اردب قمح وويبتين من شعير الا القرظ فلم يكن عليه ضريبة * قال عبد الملك بن الليث بن سعد كانت ويبة عمر بن الخطاب فى ولاية عمرو بن العاص ستة أمداد

واستقامت الامور لعمرو فعمد الى اصلاح ما أفسدته الحروب وعبثت به أيدى الجور والعسف من العمائر والترع والخلجان والجسور فمهد الطرق وسهل المسالك وحفر الخلجان لرى الاراضى وأصلح مقياس النيل وأعاده الى ما كان عليه من قبل وأقام العرفاء والمشايخ للقرى والبلاد من أبنائها فاستقامت الاحوال واطمأنت قلوب الرعية وخلدوا الى السكون والطاعة ورتب المحاكم للفصل فى الخصومات بين أهل البلاد فلم يكن لعمرو ولا لغيره من أصحاب الفتح دخل فى ذلك البتة ولا كلمة مقولة وأوسع صدره للعظماء والكبراء من أهل

البلاد

البلاد فأحبوه ومالوا اليه وأخلصوا له النيـة فعلت كلمتـه وعظمت شهرته ودانت له عظائم الامور وعمرت القرى وازدهت البلاد واتسعت مادّة ثروتها وعادت الى رونقها القديم وضاقت بأهلها أوكادت * حدثنا عثمان بن صالح وعبدالله بن صالح قالا حدثنا الليث بن سعد قال لما ولى ابن رفاعة مصر خرج ليحصى عدة أهلها وينظر فى تعديل الخراج عليهم فقام فى ذلك ستة أشهر بالصـعيد حتى بلغ أسوان ومعه جماعة من الاعوان والكتاب يكفونه ذلك بجدّ وتشمير وثلاثة أشهر بأسـفل الارض فأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية فلم يحص فيها فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين يفرض عليهم الجزية قال وحدثنا عبدالله بن صالح عن الليث بن سعد أن عمرا جبى مصر اثنى عشر ألف ألف وجباها المقوقس قبله ستة وعشرين ألف ألف فعند ذلك كتب اليه عمر بن الخطاب * بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله عمر أمير المؤمنين الى عمرو بن العاص * سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لااله الاهو * أما بعد فانى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه فاذا أرضك أرض واسـعة عريضة رفيعة وقد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة فى بر وبحر وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهـم وكفرهـم فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لاتؤدّى نصف ما كانت تؤدّيه من الخراج قبـل ذلك على غير قحوط ولاجدب ولقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى على أرضـك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزاث ورجوت أن تفيق فترفع الىّ ذلك فاذا أنت تأتينى بمعاريض تعبأبهـا لاتوافق الذى فى نفسى ولست قابلا منـك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ولست أدرى مع ذلك ماالذى نفرك من كتابى وقبضك فلئن كنت مجربا كافيا صحيحا ان البراءة لنافعـة وان كنت مضـيعا نطعا ان الامر لعلى غـير ماتحدث به نفسك وقد تركت أن أبتلى ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفيق فترفع الىّ ذلك وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك الا أن عمالك عمال السوء وما توالس عليك وتلفف اتخذوك كهفا وعنـدى باذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبدالله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه فان النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعنى وماعنه تتلجلج فانه قد برح الخفاء والسلام فكتب اليه عمرو بن العاص * بسم الله الرحمن الرحيم * لعبدالله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لااله الاهو * أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج والذى ذكر فيهـا من عمل الفراعنـة قبلى واعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها مذ كان الاسلام ولعمرى الخراج يومئذ أوفر وأكثر والارض أعمر لانهـم كانوا على كفرهم وعتوهـم أرغب فى عمارة أرضهم منـا مذ كان الاسلام وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبتها حلبا قطع درها وأكثرت فى كتابك وأنبت وعرّضت وثربت وعلمت أن ذلك عن شئ تخفيه على غـير خبر فجئت لعمرى بالمقطعات المقذعات ولقـد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق ولقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لاماناتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا نرى غير ذلك

فيها والعمل به شيئا فتعرف ذلك لنا ونصدق فيه قلبنا معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجتراء على كل مأثم فأمض عملك فان الله قد نزهنى عن تلك الطعم الدنيئة والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضا ولم تكرم فيه أخا والله يا ابن الخطاب لانا حين يراد ذلك منى أشد غضبا لنفسى ولها انزاها واكراما وما عملت من عمل أرى علىّ فيه تعلقا ولكنى حفظت مالم تحفظه ولو كنت من يهود يثرب مازدت يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء كنت بها عالما وكان اللسان بها منى ذلولا ولكن الله عظم من حقك مالا يجهل والسلام

فكتب اليه عمر بن الخطاب من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا إله الا هو * أما بعد فانى قد تعجبت من كثرة كتبى اليك فى ابطائك بالخراج وكتابك الىّ بثنيات الطرق وقد علمت أنى لست أرضى منك الا بالحق البين ولم أقدمك الى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فاذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج فانما هو فىء المسلمين وعندى من قد تعلم قوم محصورون والسلام

فكتب اليه عمرو بن العاص * بسم الله الرحمن الرحيم * لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا إله الا هو * أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ويزعم أنى أحيد عن الحق وأنكب عن الطريق وانى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ولكن أهل الارض استنظرونى الى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من أن نخرق بهم فيصيروا الى بيع مالا غنى بهم عنه والسلام

فلما استبطأ عمر بن الخطاب الخراج كتب اليه أن ابعث الىّ رجلا من أهل مصر فأرسل اليه رجلا قديما من القبط فاستخبره عمر عن مصر وخراجها قبل الاسلام فقال يا أمير المؤمنين كان لا يؤخذ منها شئ الا بعد عمارتها وعاملك لا ينظر الى العمارة وانما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريدها الا لعام واحد فعرف عمر مقاله وقبل من عمرو بن العاص ما كان يعتذر به * وقال ابن عبد الحكم حدثنا هشام بن اسحق العامرى قال كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى عمرو بن العاص أن يسأل المقوقس عن مصر من أين تأتى عمارتها وخرابها فسأله عمرو فقال له المقوقس تأتى عمارتها وخرابها من خمسة وجوه أن يستخرج الخراج فى إبان واحد عند فراغ أهلها من زرعها ويدفع خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومها وتحفر فى كل سنة خلجها وتسد ترعها وجسورها ولا يقبل مطل أهلها يريد البغى فاذا فعل هذا فيها عمرت وان عمل فيها بخلافه خربت * قال ابن عبد الحكم حدثنا عثمان بن صالح عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب قال كانت فريضة مصر لحفر خلجها واقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة ألف وعشرين ألفا معهم الطوريات والمساحى والاداة يعتقبون ذلك لا يدعونه شتاء ولا صيفا اهـ

وكان فى خلال المدة من مجىء هرقل ملك الروم الى مصر واشتداده على المتأصلين من

أهل

أهل البلاد كما تقدم الكلام على ذلك فى محله الى فتوح مصر على يدى عمرو بن العاص قد مات اطناسيوس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام اثنتى عشرة سنة وقد اختلف الكتاب فيما اذا كان هو الذى هاداه اطناسيوس بطرك انطاكية وقدم عليه زائرا أوهو داميانوس خامس ثلاثى بطاركة الاسكندرية فلما مات أقاموا بعده اندرونيقون وهو سابع ثلاثيهم فلبث ست سنين ومات فى ثامن طوبة * وفى أيامه خربت جميع الديارات واشتد الامر على النصارى شدة عظيمة للغاية وأبق الكثير من الرهبان والراهبات الى بعض الجبال فرارا ثم أقاموا بعده بنيامين وهو ثامن ثلاثيهم وكان متأصلا وهو من مربوط وكان ورعا تقيا فعمر فى أيامه دير أبو بشاى ودير سيدة أبو بشاى وهما فى وادى هبيب فلما جاءت الفرس ديار مصر كما تقدم بيان ذلك فى محله واشتدوا على النصارى فرهاربا منهم وبقى مختفيا حتى زالت دولة الفرس على يدى هرقل وذلك أن هرقل المذكور لما نزل على مصر وحارب الفرس وطردهم من أرضها أقام بطركا من الملكيين بالاسكندرية اسمه نيرش وكان منانيا مع أن هرقل كان مارونيا وطلب بنيامين البطرك المذكور وسعى خلفه ليقتله فلم يتمكن منه فظفر باخيه مينا فقبض عليه وأحرقه بالنار تشفيا وانتقاما وبنيامين هذا هو الذى راسل المقوقس وعظماء القبط فى أمر المسلمين ومعاونتهم على قتال الروم وامدادهم بالذخيرة والميرة فلما استتب الامر لعمرو بن العاص أرسل اليه فى سنة عشرين هجرية فقدم على عمرو بالقاهرة فأكرمه وأجله وبالغ فى تعظيمه لانه كان عونه على الروم فجلس فى منصب البطريكية بعد غيابه عنه ثلاث عشرة سنة منها عشر سنين فى ملك فارس على مصر وباقيها بعد ذلك وأخذ يتصرف فى الأمور فأحسن التدبير وكاد يعيد للقبط ما أزالته عنهم الحروب والخطوب المتراكمة من العز والسودد وظل مهيبا معظما موقرا مسموع الكلمة حتى مات كما سيأتى ذكر ذلك فى محله

وكانت خلافة عمر بن الخطاب عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال وفى رواية وثلاثة عشر يوما فقام بالامر بعد موته عثمان بن عفان

(الفصل الثالث)

﴿فى خلافة عثمان بن عفان﴾

ثم قام بالامر بعده عثمان بن عفان تشاور أهل الحل والعقد بعد دفن عمر بثلاثة أيام واتفقوا على مبايعته وهو ابن عم صاحب الشريعة الاعلى بويع له بالخلافة فى أول يوم من سنة أربع وعشرين للهجرة أى سنة أربع وأربعين وستمائة للميلاد * قال أصحاب التاريخ انه لم يزل اسمه فى الجاهلية والاسلام عثمان ويكنى بأبى عمرو وأبى عبد الله والاول أشهر وينسب الى أمية بن عبد شمس فيقال الاموى يجتمع مع صاحب الشريعة الاسلامية فى

عبد مناف ويدعى بذى النورين قيل لانه تزوّج بابنتى صاحب الشريعـة رقية وأم كلثوم وهو أول من هاجر الى الحبشـة فارا بدينه ومعه زوجته رقية وعدّ من البدريين ومن أهـل بيعة الرضوان ولم يحضرهما وكان غنيا كثيرالمال وكانت له شفقة ولما تولى زاد تواضـعه وشفقته برعيته وكان يطعم الناس طعام الامارة و يأ كل الخل والزيت وجهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيرا باحلاسها وأقتابها وأتم الالف بخمسين فرسا * قال ابن قتيبة وافتتح فى أيامه الاسكندرية (قلت لخروجها فى خلافته) وسابوروافريقة وقبرص وسواحل الروم واصطخر الاخرى وفارس الاولى وخورستان وفارس الاخرى وطبرستان وكرمان وسجستان والاساورة وافريقة من حصون قبرص وساحـل الاردن ومرو ولما عمرت المدينـة وصارت وافـرة من الانام وكثرت فيها الخـيرات والاموال وجىء اليها بالخراج من الممالك وبطرت الرعية من كثرة الاموال والخير والنعم وفتحوا أقاليم الدنيا واطمأنوا وتفرغوا جعلوا ينقمون على خليفتهـم عثمان لانه كان له الاموال العظيمـة وكان له ألف مملوك ولانه كان يعطى المال لاقاربه و يوليهـم الايالات الجليلة فأحس عثمان بذلك وسـير فى طلب عماله وكتب الى أهـل الامصار انى آخـذ عمالى بموافاتى كل موسم وقـد رفع الىّ أهل المدينـة أن أقواما يشتمون ويضربون فمن ادّعى شيأ من ذلك فليواف الموسم يأخـذ حقه حيث كان منى أو من عمالى أو تصدقوا فان الله يجزى المتصدقين قيل فلما قرئ ذلك بالامصار بكى الناس ودعوا لعثمان وقدم عليه فى الموسم بعض عمـاله وهم عبد الله بن عامر وعبد الله بن سـعد ومعاوية وأدخل معهم أيضا سعيد بن العاص وعمرا فقال و يحكم ما هذه الشكاية والاذاعة انى والله خائف أن تكونوا مصدوقا عليكم وما يصعب هذا الابى فقالوا ألم تبعث ألم يرجع اليك الخبر عن العوام ألم يرجع رسلك ولم يشافههم أحد بشئ والله ماصدقوا ولابروا ولم نعلم لهذا الامر أصلا ولايحل الاخـذ بهذه الاشاعة فقال عندذلك أشيروا علىّ فقال سـعيد هذا أمر مصنوع يلقى فى السر فيتحدث به الناس ودواء ذلك طلب هؤلاء وقتل الذين خرج هذا من عندهم * وقال عبد الله بن سعد خذ من الناس الذى عليهم اذا أعطيتهم الذى لهم فانه خير من أن تدعهم * وقال معاوية قد وليتنى فوليت قوما فلا يأتيكم عنهم الاالخير والرجلان أعلم بناحيتهما والرأى حسن الادب وقال عمرو أرى أنك قد لنت لهم ورخيت عليهم و زدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشتدّ فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين * قال عثمان قد سمعت كل ما أشرتم به على ولكل أمر باب يؤتى منه ان هذا الامر الذى يخاف منه على هذه الامة كائن وان بابه الذى يغلق عليه ليفتحن فنكفكفه باللين والمواتاة الافى حدود الله فان فتح فلايكون لاحد علىّ حجة وقد علم الله أنى لم آل الناس خيرا وان رحى الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان ان مات ولم يحركها سكنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم فاذا تعوطيت حقوق الله فلاتداهنوافيها * ثم افترقوا على ذلك واتفق المنحرفون على عثمان على يوم يخرجون فيه بالامصار جميعها اذا سارعنها الامراء وخلت منهم فلم يتهيأ لهم ذلك وكان بمصر محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة يحرضان على

عثمان

عثمان فلما خرج المصريون خرج فيهم عبد الرحمن بن عديس البلوى فى خمسمائة وقيل فى ألف وفيهم كنانة بن مبشر الليثى وسودان بن حمران السكونى وقتيرة بن فلان السكونى وتقدمهم جميعا الغافقى بن حرب العكى وخرج أيضا أهل الكوفة وهم فى عداد أهل مصر أو مايقرب منه وخرج أهل البصرة وهم بعداد أهل مصر وأميرهم حرقوص بن زهير السعدى وكان خروجهم جميعا فى شوّال وأظهروا أنهم انما يريدون الحج فلما كانوا بالمدينة على ثلاث مراحل تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشب وكانوا يميلون الى طلحة وتقدم ناس من أهل الكوفة وكان هواهم مع الزبير ونزلوا الاعوص وجاءهم ناس من أهل مصر وكانوا يميلون الى علىّ ونزل جميعهم بذى المروة ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر وعبدالله بن الاصم وقالا لهم لاتعجلوا حتى ندخل المدينة ونرتاد لكم فقد بلغنا انهم عسكروا لنا فوالله ان كان هذا حقا واستحلوا قتالنا بعد علم حالنا ان أمرنا لباطل وان كان الذى بلغنا باطلا رجعنا اليكم بالخبر فذهبا ودخلا المدينة فلقيا أزواج صاحب الشريعة وطلحة والزبير فكلمهما أبىّ ونهاهما فرجعا الى أصحابهما وكتب عثمان الى أهل الامصار يستنجدهم ويأمرهم بالبحث للمنع عنه ويتعرف ماالناس فيه من الهرج والتألب على خلع بيعته واقامة خليفة غيره * قال بعض أهل التاريخ فخرج أهل الامصار على الصعب والذلول وسير كل عامل جماعة من عنده الى المدينة فلما كانت الجمعة التى على اثر دخولهم المدينة خرج عثمان فصلى بالناس ثم قام على المنبر فقال * ياهؤلاء الله الله فوالله ان أهل المدينة ليعلمون انكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فامحوا الخطأ بالصواب * فقام عند ذلك محمد بن مسلمة فقال أنا أشهد بذلك فاقعده حكيم بن جبلة فقام زيد بن ثابت فأقعده محمد بن أبى كثيرة وثار القوم بأجمعهم وقامت الضوضاء واشتد اللجاج فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد عنوة وحصبوا عثمان حتى صرع من المنبر مغشيا عليه فأدخل داره * واستقتل جماعة من أهل المدينة مع عثمان منهم سعد بن أبى وقاص والحسين بن على وزيد بن ثابت وأبو هريرة فأرسل اليهم عثمان فى الانصراف فانصرفوا وأقبل علىّ وطلحة والزبير فذهبوا الى عثمان يعودونه من صرعته ويشكون اليه مايجدون وكان عند عثمان نفر من بنى أمية فيهم مروان بن الحكم فقاموا كلهم فى وجه علىّ وقالوا أهلكتنا وصنعت هذا الصنيع والله لئن بلغت الذى تريد لتمررنّ عليك الدنيا فقام مغضبا وعاد هو ومن كان معه الى منازلهم * قال أهل التاريخ وصلى عثمان بالناس بعد ذلك ثلاثين يوما ثم منعوه الصلاة وصلى بالناس أميرهم الغافقى واشتد بعض الناس لعثمان وكثرت أعداؤه وطالبوه ونزلوا ذا خشب كما تقدم القول يريدون قتله ان لم يقلع عما يكرهون منه فاشتد قلق عثمان وجاء الى علىّ بن أبى طالب فدخل عليه بيته فقال له يا ابن عم ان قرابتى قريبة ولى عليك حق عظيم وقد جاء ماترى من هؤلاء القوم وهم مصبحىّ ولك عند الناس قدر وهم يسمعون منك وأحب أن تركب اليهم فتردهم عنى فان فى دخولهم علىّ توهينا لأمرى وجراءة علىّ فقال علىّ على أى شئ أردهم عنك قال

على أن أصيرالى ماأشرت اليه ورأيتهلى فقال علىّ انى قد كلمتك مرة بعد أخرى فكل ذلك نخرج فتقول ثم ترجع عنه وهذا من فعل مروان وابن عامر ومعاوية وعبدالله بن سعد فانك أطعتهم وعصيتنى قال عثمان فانا أعصيهم وأطيعك فى أمر الناس قيل فركب علىّ ومعه من المهاجرين والانصار ثلاثون رجلا فأتوا المصريين فكلموهم وكان الذى يخاطبهم علىّ ومحمد ابن مسلمة فسمعوا مقالتهما ورجعوا الى مصر ورجع علىّ الى المدينة وأخبر عثمان برجوعهم وكلمه بما فى نفسه فلما كان اليوم الثانى دخل مروان على عثمان فقال له تكلم وأعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا وانهم تحققوا بطلان مابلغهم عن امامهم (يعنى عثمان) فأطاعه عثمان فى ذلك فلما خطب الناس قال له عمرو بن العاص اتق الله ياعثمان فانك قد ركبت أمورا وركبناها معك فتب الى الله تب فناداه عثمان وانك هنالك ياابن النابغة قلت والله جبتك منذ عزلتك عن العمل فصاح صائح من جهة أخرى تب ياعثمان الى الله فرفع يديه وقال اللهم انى أول تائب فخرج عمرو بن العاص الى الشام وجعل يحرض الناس على خلع بيعة عثمان * قال عمرو والله انى كنت لألقى الراعى فأحرضه على عثمان * ولم يكن بأسرع من أن عاد المصريون الى المدينة فانطلق اليهم محمد بن مسلمة يسألهم عن سبب عودهم فأخرجوا صحيفة فى أنبوبة رصاص وقالوا وجدنا غلام عثمان بالبويب على بعير من ابل الصدقة ففتشنا متاعه فوجدنا فيه هذه الصحيفة يأمر فيها بجلد عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن الحمق وعروة بن البياع وحبسهم وحلق رؤسهم ولحاهم وصلب بعضهم * وفى رواية أخرى ان الذى كان يحمل الصحيفة الاعور السلمى فلما رأوه سألوه عن مسيره وهل معه كتاب فقال لاتسألونى فى أى شئ هو ففتشوه وأخذوا الكتاب منه وعادوا وعاد الكوفيون والمصريون فلما عاد أهل مصر أخبروا بذلك محمد بن مسلمة فدخل علىّ ومحمد بن مسلمة على عثمان وأخبراه بما قاله أهل مصر فاقسم بالله ما كتبته ولا علم لى به فقال محمد صدق هذا من عمل مروان ودخل عليه المصريون فلم يسلموا عليه بالخلافة فعرفوا الشر فيهم وتكلموا فذكر ابن عديس مافعل عبد الله بن سعد بالمسلمين فى مصر وبأهل البلاد فيها أيضا والاستئثار فى الغنائم فاذا قيل له فى ذلك قال هذا كتاب أمير المؤمنين وذكروا شيأ مما وقع بالمدينة أيضا ثم قال له وخرجنا من مصر ونحن نريد قتلك فردنا علىّ ومحمد بن مسلمة وضمنا لنا النزوع عن كل ما تكلمنا فيه فرجعنا الى بلادنا فرأينا غلامك وكتابك وعليه خاتمك تأمر عبدالله بجلدنا والمثلة بنا وطول الحبس فعند ذلك حلف عثمان انه ما كتب ولا أمر ولا علم * قال أصحاب التاريخ فقال على ومحمد صدق عثمان فقال المصريون فمن كتبه قال لاأدرى قالوا فيجترأ عليك ويبعث غلامك وجمل من الصدقة (يعنى من جمال عثمان المعدة للصدقة) وينقش على خاتمك ويبعث الى عاملك بهذه الامور العظيمة وأنت لاتعلم قال نعم فقال ماأنت الا صادق أو كاذب فان كنت كاذبا فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا بغير حق وان كنت صادقا فقد استحققت أن تخلع نفسك لضعفك عن هذا الامر وغفلتك وخبث بطانتك ولا ينبغى لنا أن

تترك هذا الامر بيد من تقطع الامور دونه لضعفه وغفلته فاخلع نفسك منه كما خلعك الله فقال عثمان لاأنزع قميصا ألبسنيه الله ولكنى أتوب وأنزع قالوا لو كان هذا أول ذنب تبت منه قبلنا ولكنا رأيناك تتوب ثم تعود ولسنا منصرفين حتى نخلعك أو نقتلك أو تلحق أرواحنا بالله تعالى وان منعك أصحابك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص اليك فقال أما أن أتبرأ من خلافة الله فالقتل أحب الىّ من ذلك وأما قولكم تقاتلون من منعنى فانى لاآمر أحدا بقتالكم فمن قاتلكم فبغير أمرى قاتل ولو أردت قتالكم لكتبت الى الاجناد فقدموا علىّ أولحقت ببعض أطرافى * وكثرت الاصوات واللغط وعلت الضوضاء فقام علىّ فخرج وأخرج المصريين ومضى علىّ الى منزله فحاصر المصريون عثمان واشتدّ الحصار عليه قيل فأرسل الى علىّ وطلحة والزبير فحضروا فأشرف عليهم عثمان وقال أيها الناس اجلسوا فجلسوا المحارب والمسالم فقال لهسم ياأهل المدينة أستودعكم الله وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدى ثم قال أنشدكم بالله هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب عمر أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم أتقولون ان الله لم يستجب لكم وهنتم عليه وأنتم أهل حقه أم تقولون هان على الله دينه فلم يبال من ولى والدين لم يتفرق أهله يومئذ أم تقولون لم يكن أخذ عن مشورة انما كان مكابرة فوكل الله الامة اذ عصته ولم يشاوروا فى الامامة أم تقولون ان الله لم يعلم عاقبة أمرى * وأنشدكم بالله أتعلمون لى من سابقة خير وقدم خير قدّمه الله لى * يحق على كل من جاء بعدى أن يعرفوا لى فضلها فمهلا لاتقتلونى فانه لايحل الاقتل ثلاثة رجل زنى بعد احصانه أو كفر بعد ايمانه أو قتل نفسا بغير حق فانكم اذا قتلتمونى وضعتم السيف على رقابكم ثم لم يرفع الله عنكم الاختلاف أبدا فقالوا أما ماذكرت من استخارة الناس بعد عمر ثم ولوك فان كل ماصنع الله خيرة ولكن الله جعلك بلية ابتلى بها عباده وأما ماذكرت من قدمك وسلفك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كنت كذلك وكنت أهلا للولاية ولكن أحدثت ماعلمته ولا نترك اقامة الحق عليك مخافة الفتنة عاما قابلا وأما قولك انه لايحل الا قتل ثلاثة فانا نجد فى كتاب الله قتل غير الثلاثة الذين سميت * قتل من سعى فى الارض فسادا وقتل من بغى ثم قاتل على بغيه وقتل من حال دون شئ من الحق ومنعه وقاتل دونه وقد بغيت ومنعت وحلت دونه وكابرت عليه ولم تقد من نفسك من ظلمت وقد تمسكت بالامارة علينا فان زعمت أنك لم تكابرنا عليها فان الذين قاموا دونك ومنعوك منا انما يقاتلون لتمسكك بالامارة فلو خلعت نفسك لانصرفوا عن القتال معك * قيل فسكت عثمان ولزم الدار وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم فرجعوا الا الحسن بن علىّ وابن عباس ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وأشباههم واجتمع اليه ناس كثير فكانت مدة الحصار أربعين يوما وقد اشتدوا فى الحصار بعد ثمان عشرة ليلة مضت شدة بالغة ومنعوا كل شئ حتى الماء * قيل ان طلحة هو الذى أمر بذلك وثاروا الى باب دار عثمان يريدون الدخول عليه وقتله فلم يمنعهم أحد منه والباب مغلق لايقدرون على الدخول منه فجاؤا بنار فأحرقوه والسقيفة التى على الباب وثار أهل الدار وعثمان يصلى فلما فرغ

جلس الى المصحف يقرأ فيه وقرأ الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فقال لمن عنده بالدار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد الىّ عهدا فأنا صابر عليه ولم يحرقوا الباب الا وهم يطلبون ماهو أعظم منه فاقتحم الناس الدار من الدور التى حولها ودخلوا من دار عمرو بن حزم الى دار عثمان حتى ملؤها ولم يشعر من بالباب وغلب الناس على عثمان وندبوا رجلا يقتله فانتدب له رجل يدخل عليه فدخل عليه البيت فما سمع كلامه حتى عاد مدحورا وولى عن أصحابه ثم دخل آخر وآخر وكان آخر من دخل عليه ممن رجع محمد بن أبى بكر فقال له عثمان ويلك أعلىّ لله تغضب هل علىّ لك جرم أو حق أخذته منك فأخذ محمد بلحيته أى لحية عثمان وقال قد أخزاك الله يانعثل فقال لست بنعثل ولكنى عثمان وأمير المؤمنين فقال محمد ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان فقال عثمان يا ابن أخى فما كان أبوك ليقبض عليها يعنى على لحيته فقال محمد لو رآك أبى تعمل هذه الاعمال أنكرها عليك والذى أريد بك أشد من قبضى عليها فقال عثمان أستنصر الله عليك وأستعين به فتركه وخرج وقيل بل طعن جبينه بمشقص كان فى يده فلما خرج محمد وعرفوا انكساره ثار قتيرة وسودان بن حمران والغافقى فضربه الغافقى بحديدة معه وضرب المصحف برجله فاستدار المصحف واستقر بين يدى عثمان وسالت عليه الدماء وجاء سودان ليضربه فانكبت عليه امرأته واتقت السيف بيدها فقطع أصابعها فولت وضرب عثمان فقتله * وقيل ان الذى قتله كنانة بن بشر التجيبى ودخل غلمة لعثمان لينصروه على القوم فانقضوا على سودان فضربوا عنقه ووثب قتيرة على الغلام الذى قتل سودان فقتله وانتهبوا مافى البيت وخرجوا ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى فلما خرجوا وثب غلام لعثمان على قتيرة فقتله وثار القوم فأخذوا ماوجدوا حتى أخذوا ماعلى النساء وأخذ كلثوم التجيبى ملاءة على نائلة فضربه غلام لعثمان فقتله وأتوا بيت المال فانتهبوه وماج الناس وكثر الضجيج والصياح قيل ووثب عمرو بن الحمق على صدر عثمان وبه رمق فطعنه تسع طعنات قال فأما ثلاث منها فانى طعنتهن اياه لله تعالى وأما الستة فلما كان فى صدرى عليه * وأرادوا قطع رأسه فوقعت نائلة زوجته عليه وأم البنين فصحن وضربن الوجوه فقال ابن عديس اتركوه وأقبل عمير بن ضابئ فوثب عليه فكسر ضلعا من أضلاعه وقال سجنت أبى حتى مات فى السجن * أخرج ابن عساكر عن أبى خلدة قال سمعت عليا رضى الله عنه يقول ان بنى أمية يزعمون أنى قتلت عثمان لاوالله الذى لااله الاهو ماقتلت ولا مالأت وقد نهيت فعصونى وعن سمرة قال ان الاسلام كان فى حصن حصين وانهم ثلموا فى الاسلام ثلمة بقتلهم عثمان لاتسد الى يوم القيامة وان أهل المدينة كانت تتم الخلافة فيهم فأخرجوها ولم تعد اليهم اه وقال المدائنى قتل رضى الله تعالى عنه * يعنى عثمان * يوم الاربعاء بعد العصر ودفن يوم السبت قبل الظهر وقيل يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين * وقال المهدوى قتل فى وسط أيام التشريق وأقام ثلاثة أيام لم يدفن ولم يصل عليه رضى الله تعالى

عنه وقيل صلى عليه جبير بن مطعم ودفن ليلا واختلف فى مدة الحصار فقيل أكثر من عشرين يوما وقيل تسعة وأربعون يوما * وكانت خلافته اثنتى عشرة سنة الااثنى عشر يوما وقتل وهو ابن ثمانين سنة قاله ابن اسحق * وقال عمرة كانت خلافته احدى عشرة سنة وأحدعشر شهرا وأربعة عشر يوما وقتل وعمره ثمان وثمانون سنة * وقيل كانت خلافته اثنتى عشرة سنة وقتل وهو ابن اثنتين وثمانين سنة وقيل ابن ثلاث وثمانين سنة وقيل تسعين وقيل غيرذلك

وفى أيامه انتقض عهد الاسكندرية * قال ابن عبد الحكم حدثنا ابن صالح عن الليث بن سعد قال عاش عمر بن الخطاب بعد فتح مصر ثلاث سنين قدم فيها عليه عمرو قدمتين استخلف فى احداهما زكرياء بن جهم العبدى على الجند ومجاهد بن جبير مولى بنى نوفل على الخراج فسأله عمر عمن استخلف فذكر له مجاهد بن عبيد فقال عمر مولى بنى غزوان قال نعم انه كاتب فقال عمر ان العلم ليرفع صاحبه واستخلف فى القدمة الثانية عبدالله بن عمر قال حدثنا ثوبان بن أبى رقية عن حيوة بن شريح عن الحسن بن ثوبان عن أبى رقية قال كان سبب نقض الاسكندرية العهد أن صاحب اخنا قدم على عمرو بن العاص فقال أخبرنا ماعلى أحدنا من الجزية فقال عمرو لو أعطيتنى من الركن الى السقف ما أخبرتك انما أنتم خزانة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم فغضب صاحب اخنا فخرج الى الروم فقدم بهم فهزمهم الله وأسر القبطى فأتى به الى عمرو فقال له الناس اقتله قال لابل انطلق فجئنا بجيش آخر اه وقال عبد الله بن صالح كانت الاسكندرية انتقضت وجاءت الروم وعليهم منويل الخصى فى المراكب حتى أرسى بالاسكندرية فأجابهم من بها من الروم ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث وكان عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه قد عزل عمرو بن العاص وولى عبد الله بن سعد فلما نزلت الروم بالاسكندرية سأل أهل مصر عثمان أن يقر عمرا حتى يفرغ من قتال الروم فان له معرفة بالحرب وهيبة فى قلب العدو ففعل وكان على الاسكندرية سورها فحلف عمرو بن العاص لئن أظفره الله عليهم ليهدمن سورها حتى يكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان فخرج عمرو فى البر والبحر وضموا الى المقوقس من أطاعه من القبط فأما الروم فلم يطعه منهم أحد فقال خارجة بن خزاعة لعمرو ناهضهم القتال قبل أن يكثر عددهم ولا آمن أن تنتقض مصر كلها فقال عمرو لا ولكن أدعهم حتى يسيروا الىّ فانهم يصيبون من مروا به فيخزى الله بعضهم ببعض فخرجوا من الاسكندرية ومعهم من نقض من أهل القرى فجعلوا ينزلون القرى فيشربون خمورها ويأكلون أطعمتها وينهبون مامروا به فلم يتعرض لهم عمرو حتى بلغوا نيقوس فلاقوهم فى البر والبحر فبدأت الروم فرموا بالنشاب فى الماء رميا حتى أصاب النشاب يومئذ فرس عمرو فى لبته وهو فى البر فعقر فنزل عنه عمرو ثم خرجوا من البحر فاجتمعوا هم والذين فى البر فنضحوا المسلمين بالنشاب فاستأخر المسلمون عنهم فحملوا على المسلمين حملة شديدة فولى المسلمون منها وانهزم شريك بن سمى فى

خيله وكانت الروم قد جعلت صفوفا خلف صفوف ثم شد المسلمون عليهم فكانت هزيمتهم فطردهم المسلمون حتى ألحقوهم بالاسكندرية ففتح الله عليهم وقتل منويل الخصى وهدم سور الاسكندرية كله * فلما هزمت الروم أراد عثمان عمرا أن يكون على الحرب وعبد الله ابن سعد على الخراج فقال عمرو أنا اذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها فأبى عمرو * ولما قتل عثمان بن عفان تولى الخلافة بعده على بن أبى طالب وكان من أمر ولاية مصر ماسيذكر فى محله

(الفصل الرابع)

(فى خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب)

ثم قام بالامر بعد قتل عثمان بن عفان أمير المؤمنين على بن أبي طالب وقد اختلف أهل التاريخ فى كيفية بيعته فذهب بعضهم الى أنه لما قتل عثمان اجتمع أصحاب صاحب الشريعة من المهاجرين والانصار وفيهم طلحة والزبير فأتوا عليا وضربوا عليه الباب ودخلوا وقالوا ان هذا الرجل قد قتل ولابد للناس من امام ولانعلم أحدا أحق بها منك قال لاحاجة لى فى أمركم فمن اخترتم رضيت به فقالوا مانختار غيرك فردهم عن ذلك فأبوا فقال ان أبيتم الا بيعتى فان بيعتى لاتكون سرا ولا تكون الا فى المسجد وكان فى بيته وقيل فى حائط لبنى عمرو بن مبذول

ولما أصبحوا يوم البيعة وهو يوم الجمعة حضر الناس المسجد وجاء علىّ وعليه ازار وطاق وعمامة خز ونعلاه فى يده متوكئا على قوس فصعد المنبر وقال * أيها الناس عن ملا واذن ان هذا أمركم ليس لاحد فيه حق الا من أمرتم وقد افترقنا بالامس على أمر وكنت كارها لامركم فأبيتم الا أن أكون عليكم ألا وانه ليس لى دونكم الا مفاتيح مالكم معى وليس لى أن آخذ درهما دونكم فان شئتم قعدت لكم والا فلا آخذ على أحد * فقالوا نحن على ما فارقناك عليه بالامس * فقال اللهم اشهد ولما جاؤا بطلحة ليبايع فقال انما أبايع كرها فبايع وكان به شلل فقال رجل يعتاف وقيل حبيب بن ذؤيب إنا لله وإنا اليه راجعون أول يد بايعت يد شلاء لا يتم هذا الامر ثم جيء بالزبير فقال مثل ذلك و بايع وفى الزبير اختلاف وقيل ان عليا قال لطلحة والزبير ان أحببتما أن تبايعانى وان أحببتما بايعتكما فقالا بل نبايعك * قال بعض أهل التاريخ وقد قالا بعد ذلك انما فعلنا ذلك خشية على نفوسنا وعرفنا أنه لا يبايعنا ثم هربا الى مكة بعد قتل عثمان بأربعة أشهر ولم يبايعه كثير من أهل مكة والمدينة وكان ممن لم يبايعه النعمان بن بشير وكان قد أخذ أصابع نائلة امرأة عثمان التى قطعت فى دفاعها عن عثمان يوم قتله وقميص عثمان الذى قتل فيه وهرب به فلحق بمعاوية

فى

فى الشام فكان من وراء ذلك ماسيذكر فى محله * وقيل ان صهيبا وسلمة بن سلامة بن وقش وأسامة بن زيد لم يبايعوا عليا ولم يعدوا له يدا * ثم جيء بعده بقوم كانوا قد تخلفوا فقالوا نبايع على اقامة كتاب الله فى القريب والبعيد والعزيز والذليل فبايعهم ثم قام العامة فبايعوا وصار الامر أمر أهل المدينة وكانهم كما كانوا فيه وتفرقوا الى منازلهم وبويع يوم الجمعة لخمس بقين من ذى الحجة والناس يحسبون بيعته من قبل عثمان وأول خطبة خطبها حين استخلف حمد الله وأثنى عليه ثم قال * ان الله أنزل كتابا هاديا يبين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر * الفرائض الفرائض أدوها الى الله تعالى يؤدكم الى الجنة ان الله حرم حرمات غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده الا بالحق لايحل دم امرئ مسلم الا بما يجب * بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فان الناس أمامكم وان ماخلفكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا فانما ينتظر بالناس أخراهم * اتقوا الله عباد الله فى بلاده وعباده انكم مسؤلون حتى عن البقاع والبهائم * أطيعوا الله فلا تعصوه واذا رأيتم الخير فخذوا به واذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون فى الارض ولما فرغ من الخطبة وهو على المنبر قالت السبئية

خذها اليك واحذرن أبا حسن * انا نمر الأمر امرار الرسن

صولة أقوام كاشداد السفن * بمشرفيات كغدران اللبن

ونطعن الملك بلين كالشطن * حتى يمرون على غير عنن

فقال على

انى عجزت عجزة لا أعتذر * سوف أكيس بعدها وأستمر

أرفع من ذيلى ما كنت أجر * وأجمع الامر الشتيت المنتشر

ان لم يشاغبنى العجول المنتصر * ان تتركونى والسلاح يبتدر

ثم نزل ورجع الى بيته وجعل يفرق عماله على الامصار فبعث عثمان بن حنيف على البصرة وعمارة بن شهاب على الكوفة وعبيد الله بن عباس على اليمن وقيس بن سعد على مصر وسهل بن حنيف على الشام فلم يفلحوا وظهر معاوية بن معه ليفسد الامر على علىّ وأرسل رجلا من بنى عبس يدعى قبيصة الى علىّ ومعه طومار مختوم عنوانه من معاوية الى علىّ وقال له اذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار ثم أوصاه بما يقول فقدم الرجل الى المدينة فى ربيع الاول فدخلها وقد رفع الطومار فتبعه الناس ينظرون اليه وعلموا أن معاوية معترض * قال ابن عباس أتيت عليا بعد قتل عثمان عند عودى من مكة فوجدت المغيرة بن شعبة مستخليا به فخرج من عنده فقلت له ماقال لك هذا فقال قال لى بعد مرته هذه ان لك حق الطاعة والنصيحة وأنت بقية الناس وان الرأى اليوم تحرز به مافى غد وان الضياع اليوم يضيع به مافى غد أقرر معاوية وابن عامر وعمال عثمان على

أعمالهم حتى تأتيك بيعتهم ويسكن الناس ثم اعزل من شئت فأبيت عليه ذلك وقلت لأداهن في ديني ولا أعطي الدنية في أمري قال فان كنت أبيت عليّ فانزع من شئت واترك معاوية فان في معاوية جراءة وهو في أهل الشام يستمع منه ولك حجة في اثباته كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام * فقلت لا والله لأستعمل معاوية يومين ثم انصرف من عندي وأنا أعرف فيه أنه يودّ أني مخطئ ثم عاد اليّ الآن فقال اني أشرت عليك أول مرة بالذي أشرت وخالفني فيه ثم رأيت بعد ذلك أن تصنع الذي رأيت فتعزلهم وتستعين بمن تثق به فقد كفى الله وهم أهون شوكة مما كان * قال ابن عباس فقلت لعلي أما المرة الاولى فقد نصحك وأما المرة الثانية فقد غشك قال ولم نصحني قلت لان معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى ثبتهم لايبالون من ولي هذا الامر ومتى تعزلهم يقولون أخذ هذا الامر بغير شورى وهو قتل صاحبنا ويؤلبون عليك فتنتقض عليك الشام وأهل العراق مع أني لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية فان بايع لك فعليّ أن أقلعه من منزله فقال علي والله لأعطيه الا السيف ثم تمثل

وما ميتة ان متها غير عاجز * بعار اذا ماغالت النفس غولها

فقلت ياأمير المؤمنين أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الحرب خدعة فقال بلى فقلت أما والله لئن أطعتني لاصدرنهم بعد ورد ولاتركنهم ينظرون في دبر الامور ولايعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك ولااثم لك * فقال ياابن عباس لست من هناتك ولامن هنات معاوية في شئ * قال ابن عباس فقلت له أطعني وألحق بمالك بينبع وأغلق بابك عليك فان العرب تجول جولة وتضطرب ولاتجد غيرك فانك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غدا فأبى عليّ فقال تشير عليّ وأرى فاذا عصيتك فأطعني قال فقلت افعل ان أيسر مالك عندي الطاعة فقال له عليّ تسير الى الشام فقد وليتكها فقال ابن عباس ماهذا برأي معاوية رجل من بني أمية وهو ابن عم عثمان وعامله ولست آمن أن يضرب عنقي بعثمان وان أدنى ماهو صانع أن يحبسني فيتحكم عليّ لقرابتي منك وان كل ماحمل عليك حمل عليّ ولكن اكتب الى معاوية فمنه وعده فقال لاوالله لا كان هذا أبدا * وكان المغيرة يقول نصحته فلم يقبل فغششته وخرج فلحق بمكة وجعل عليّ يتجهز لاهل الشام ويكثر من جمع الرجال اذ جاءه الخبر عن طلحة والزبير وعائشة وأهل مكة بنحو آخر وانهم على الخلاف فاعلم عليّ الناس ذلك وان عائشة وطلحة والزبير قد سخطوا امارته ودعوا الناس الى الاصلاح * وكان سبب اجتماع طلحة والزبير وعائشة بمكة أن عائشة كانت خرجت اليها وعثمان محصور ثم خرجت من مكة تريد المدينة فلما كانت بسرف لقيها رجل من أخوالها من بني ليث يقال له عبيد بن أبي سلمى وهو ابن أم كلاب فقالت له عائشة مهيم قال قتل عثمان وبقوا ثمانيا قالت ثم صنعوا ماذا قال اجتمعوا على بيعة عليّ فقالت ليت هذه انطبقت على هذه ان تم الامر لصاحبك ردوني ردوني

فانصرفت

فانصرفت الى مكة وهى تقول قتل والله عثمان مظلوما والله لاطلبن بدمه فقال لها ولم والله ان أول من أمال حرفه لأنت ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر قالت انهم استتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقولى الاخير خير من قولى الاول فقال لها ابن أم كلاب

فنك البداء ومنك الغير * ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الامام * وقلت لنا انه قد كفر
فهبنا أطعناك فى قتله * وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا * ولم ينكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرا * يزيل الشبا ويقيم الصغر
ويلبس للحرب أثوابها * وما من وفى مثل من قد غدر

فانصرفت الى مكة فقصدت الحجر فسترت فيه فاجتمع الناس حولها فقالت * أيها الناس ان الغوغاء من أهل الامصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالامس ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه وقد استعمل أمثالهم قبله ومواضع من الحمى حماها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها فلما لم يجدوا حجة ولاعذرا بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام والله لاصبع من عثمان خير من طباق الارض أمثالهم ووالله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه اذ ماصوه * فقال عبدالله بن عامر الحضرمى وكان عامل عثمان على مكة هاأنا أول طالب فكان أول مجيب وتبعه بنو أمية على ذلك وكانوا هربوا من المدينة بعد قتل عثمان الى مكة ورفعوا رؤسهم وكان أول ماتكلم بالحجاز وتبعهم سعيد ابن العاص والوليد بن عقبة وسائر بنى أمية * وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير ويعلى بن أمية وهو ابن منية من اليمن ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم فأناخ بالابطح وقدم طلحة والزبير من المدينة فلقيا عائشة واتفقوا على الشخوص الى البصرة فجهزهم يعلى بن منية بستمائة بعير وستمائة ألف درهم وجهزهم ابن عامر بمال كثير ونادى مناديها ان أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون الى البصرة فمن أراد اعزاز الاسلام وقتال المحلين والطلب بثار عثمان وليس له مركب وجهاز فليأت فحملوا ستمائة على ستمائة بعير وساروا فى ألف وقيل فى تسعمائة من أهل المدينة ومكة ولحقهم الناس فكانوا فى ثلاثة آلاف رجل فبعثت أم الفضل بنت الحرث أم عبد الله بن عباس رجلا من جهينة يدعى ظفرا فاستأجرته على أن يأتى عليا بالخبر فقدم على على بكتابها فلما جاءه الخبر سار فى تعبيته التى تعباها لاهل الشام آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخففين فى تسعمائة وهو يرجو أن يدرك أصحاب عائشة فيحول بينهم وبين الخروج أو يأخذهم وساروا حتى انتهوا الى الربذة فلما انتهوا اليها أتاهم خبر سبق عائشة ومن معها فأقام بها يأتمر مايفعله وأتاه ابنه الحسن فى الطريق فقال له لقد أمرتك فعصيتنى فتقتل

غدا بمعصية لاناصر لك فقال له على انك لاتزال تحن حنين الجارية وماالذى أمرتنى فعصيتك قال أمرتك يوم أحيط بعثمان أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ثم أمرتك يوم قتل أن لا تبايع حتى تأتيك وفود العرب و بيعة أهل كل مصر فانهم لن يقطعوا أمرا دونك فأبيت على وأمرتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحوا فان كان الفساد كان على يد غيرك فعصيتنى فى ذلك كله * فقال أى بنى قد بايعونى طائعين غير مكرهين فأنا مقاتل من خالفنى بمن أطاعنى حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين فكف عنك يا بنى * وأرسل الى المدينة فأتاه ما يريده من دابة وسلاح وأمر أمره وقام فى الناس فخطبهم وسار من الربذة وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمر بن الجراح والراية مع محمد بن الحنفية وعلى على ناقة حمراء يقود فرسا كميتا فلما التقى الجمعان ترددت الرسل بينهما وطال الكلام فى أمر الصلح ووضع الحرب فأبى قوم عائشة الا القتال وأقبل كعب بن سور فأتى عائشة فقال أدركى فقد أبى القوم الا القتال لعل الله أن يصلح بك فركبت وألبسوا هودجها الادراع فلما برزت من البيوت وهى على الجمل بحيث تسمع الغوغاء وقفت واقتتل الناس قتالا عظيما جدا

وقاتل الزبير فحمل عليه عمار بن ياسر فجعل يحوزه بالرمح والزبير كاف عنه ويقول أتقتلنى يا أبا اليقظان فيقول لا يا أبا عبد الله * قال أهل التاريخ وانما كف الزبير عنه لقول صاحب الشريعة تقتل عمارا الفئة الباغية قالوا ولو لاذلك لقتله * وبينما عائشة واقفة اذ سمعت ضجة شديدة فقالت ماهذا قالوا ضجة العسكر قالت بخير أو بشر قالوا بشر فما فجاءها الا الهزيمة فمضى الزبير من وجهه الى وادى السباع وأما طلحة فأتاه سهم فأصابه فشك رجله بصفحة الفرس وهو ينادى الى الى عباد الله الصبر الصبر ثم دخل البيوت ودمه يسيل وهو يقول اللهم خذ لعثمان منى حتى ترضى فلما امتلأ خفه دما وثقل قال لغلامه أردفنى وأمسكنى وأبلغنى مكانا أنزل فيه فدخل البصرة فأنزله فى دار خربة فمات فيها وقيل انه اجتاز به رجل من أصحاب على فقال له أنت من أصحاب أمير المؤمنين قال نعم فقال امدد يدك أبايعك له فبايعه فخاف أن يموت وليس فى عنقه بيعة ولما قضى دفن فى بنى سعد وكان الذى رمى طلحة مروان بن الحكم وقيل غيره وأما الزبير فانه مر بعسكر الاحنف بن قيس فلما رآه الاحنف قال من يأتينى بخبر هذا وأشار اليه فقال رجل اسمه عمرو بن جرموز أنا ثم تبعه فلما لحقه نظر اليه الزبير قال ما وراءك قال انما أريد أن أسألك فقال غلام للزبير كان معه انه معد قال الزبير ما يهولك من رجل وحضرت الصلاة فقال ابن جرموز الصلاة الصلاة فقال الزبير الصلاة ونزل ليصلى فاستدبره ابن جرموز وطعنه فقتله وأخذ فرسه وسلاحه وخاتمه وخلى عن الغلام فدفنه بوادى السباع ورجع الى الناس بالخبر ثم سار الى على ودفع اليه سيف الزبير فنظر اليه وقال طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقالت عائشة لما انجلت الوقعة وانهزم الناس لكعب بن سور خل عن الجمل وتقدم

بالمصحف فادعهم اليه وناولته مصحفا فاستقبل القوم فرموه بالسهام فقتلوه ورموا عائشة في هودجها فجعلت تنادى البقية البقية يابنىّ ويعلو صوتها الله الله اذكروا الله والحساب فلم يمتنعوا عنها فجعلت تحرض الناس فحملت مضر البصرة حتى قصفت مضر الكوفة حتى زحم على وكانت راية على مع ابنه محمد فنخس على قفا ابنه محمد وقال له احمل فتقدم وأخذ علىّ الراية من يده وقال يابنىّ بين يدى واشتدت الحرب وكثر الهول والكرب وتساقطت النبال تباعا وأبى أهل الكوفة الا القتال ولم يريدوا الاعائشة وتزاحف الناس بعضهم على بعض ونظرت عائشة من يسارها فقالت من القوم عن يسارى فقال لها صبرة بن شيمان بنوك الازد فصاحت يا آل غسان حافظوا اليوم جلادكم الذى كنا نسمع به وتمثلت

وجالد من غسان أهل حفاظها * وكعب وأوس جالدت وشبيب

فكان الازد يأخذون بعر الجمل يشمونه ويقولون بعر جمل أمنا ريحه ريح المسك وقالت لمن عن يمينها من القوم عن يمينى قال بكر بن وائل قالت لكم يقول القائل

وجاؤا الينا فى الحديد كأنهم * من الغرة القعساء بكر بن وائل

واشتد الفريقان فى القتال شدة بالغة فكثرت الجرحى والقتلى فى العسكر جميعا فقال قوم لاتزال الحرب أو يصرع الجمل وكره القوم بعضهم بعضا وأخذ عميرة بن يثربى برأس الجمل فكان لايتقدم اليه أحد الا قتله حتى قتل هو دون زمام الجمل ولم يزل الامر كذلك حتى قتل على خطام الجمل أربعون رجلا * قالت عائشة مازال جملى معتدلا حتى فقدت أصوات بنى ضبة * قيل وأخذ الخطام سبعون رجلا من قريش وكلهم يقتل وأحدق أهل النجدات والشجاعة بعائشه فكان لايأخذ الخطام أحد الا قتل وما زال حتى ضاع الخطام ونادى علىّ اعقروا الجمل فانه ان عقر تفرقوا فضربه رجل فسقط واجتمع القعقاع وزفر على قطع بطان البعير وحملا الهودج فوضعاه وفر من كان وراءه من الناس وتمت هزيمة أصحاب عائشة فلما انهزموا أمر علىّ مناديا فنادى ألا لاتتبعوا مدبرا ولاتجهزوا على جريح ولاتدخلوا الدور ثم رسم الى نفر أن يحملوا الهودج من بين القتلى فوضعوه وليس قربه أحد وأتى علىّ الى عائشة فقال كيف أنت يا أمه قالت بخير قال يغفر الله لك قالت ولك فلما كان الليل أدخلها أخوها محمد بن أبى بكر البصرة فأنزلها فى دار عبد الله بن خلف الخزاعى وتسلل الجرحى من بين القتلى ليلا ودخلوا البصرة فأقام علىّ بظاهر البصرة ثلاثا وأذن للناس فى دفن موتاهم قيل وكانت القتلى زهاء عشرة آلاف نصفهم من أصحاب علىّ ونصفهم الآخر من أصحاب عائشة وقيل ثلاثة عشر ألفا وقيل غير ذلك

ودخل علىّ البصرة يوم الاثنين فبايعه أهلها على راياتهم حتى الجرحى والمستأمنة ثم جهز على عائشة بكل ماينبغى لها من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك وبعث معها كل من نجا ممن خرج معها الا من أحب المقام واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة والمعروفات وسير

معها أخاها محمد بن أبي بكر وخرجت يوم السبت غرة رجب فشيعها علىّ أميالا وسرح بنيه معها يوما فكان وجهها الى مكة ووقف علىّ مودعا لها وحضر الناس فودعتهم فقالت وهى خارجة يابنىّ لايعتب بعضنا على بعض انه والله ما كان بينى وبين علىّ فى القديم الاما يكون بين المرأة وبين أحمائها وانه على معتبتى لمن الاخيار فقال علىّ صدقت والله ما كان بينى وبينها الا ذاك وانها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة

قلت واختلف الكتاب وأهل التاريخ فيما دعا عائشة وعليا الى هذه الحرب المشؤمة وركوب هذا المركب الخشن فنهم من قال ان الحرب انما كانت منها أخذا بثأر عثمان لانها كان ترمى عليا بقتله أوبالتألب عليه * ومنهم من قال بل لكراهتها فيه وحقدها عليه منذ كانت تحت صاحب الشريعة خصوصا ما كان من علىّ بعد خروجها مع صاحب الشريعة الى غزوة بنى المصطلق وتشديده على صاحب الشريعة فى طلاقها بعد الذى قاله أهل الافك فيها * وتحرير الخبر كما روته عائشة * أن صاحب الشريعة كان اذا أراد السفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه فلما كانت غزوة بنى المصطلق أقرع بين نسائه فخرج سهم عائشة فخرجت معه فلما قفل صاحب الشريعة من سفره ذلك وكان قريبا من المدينة بات بمنزل بعض الليل ثم ارتحل بالناس وكانت عائشة قد خرجت لحاجتها وفى عنقها عقد من جزع أظفار انسل من عنقها ولاتدرى فلما رجعت التمست العقد فلم تجده فخرجت الى المكان الذى كانت فيه تلتمسه فوجدته وجاء القوم الذين يرحلون بعيرها فأخذوا الهودج وهم يظنون أنها فيه وانطلقوا ورجعت هى الى المعسكر وما فيه داع ولا مجيب فالتفت بجلبابها واضطجعت وهى تنتظر احدى خلال ثلاث اما هلاكها جوعا وعطشا أوأن يفترسها سبع من سباع البر أويرجع اليها منشد * وبينما هى على هذا الحال اذ أقبل عليها صفوان بن المعطل السلمى وكان قد عرّس وراء العسكر لحاجته فلم يبت مع الناس فوقف عليها وكان يعرفها جيدا قبل أن يضرب الحجاب فقال لها ماخلفك ههنا ثم قرّب بعيره وقال اركبى فركبت وأخذ برأس البعير وسارا حتى أتيا الجيش وبينما كان يقودها اذ مر ببعض المنافقين وبينهم عبدالله بن أبىّ الذى كان يدعوه صاحب الشريعة رأس النفاق فقال من هذه فقيل له عائشة زوج النبى مع صفوان فقال والله مانجت منه ولا نجا منها وقال امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها * وقال هو وغيره ماقالوه افكا وخاضوا فى الحديث * وعلم بالامر صاحب الشريعة فأقلقه فقام فى الناس فخطبهم ثم قال * أيها الناس مابال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهنّ غير الحق ويقولون ذلك لرجل والله ماعلمت عليه الا خيرا ومادخل بيتا من بيوتى الا معى اه وكان قد كبر ذلك عند عبدالله بن أبى ابن سلول فى رجال من الخزرج مع الذى قاله مسطح وحمنة بنت جحش وهما من أهل الافك * وذلك أن زينب أختها كانت عند صاحب الشريعة فأشاعت حمنة من ذلك كلاما كثيرا * فلما قال صاحب الشريعة تلك المقالة وقع الهرج وعلت الضوضاء بين الناس وتشاوروا حتى كاد يكون بينهم شر فنزل صاحب الشريعة ودعا

على

علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما فأما أسامة فأثنى خيرا وأما علي فقال ان النساء لكثير وسل الخادمة تصدقك فدعا صاحب الشريعة بريرة الخادمة يسألها فقام اليها علي فضربها ضربا مبرحا وهو يقول اصدقي رسول الله فقالت والله ما أعلم الا خيرا ثم قالت ماقالت * وهبط جبريل بثمان عشرة آية من سورة النور في براءة عائشة * قال الزمخشري في تفسير هذه الآيات * لوقلبت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شئ تغليظه في إفك عائشة ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعقاب البليغ والزجر العنيف ما أنزل في إفك عائشة على طرق مختلفة وأساليب مفتنة فأوجز في ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرر وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الاوثان الا ماهو دونه في الفظاعة اه وأقامت عائشة على بغضها لعلي والتألب عليه في خلافته فكانت لاتنكف عن التشنيع عليه بالقول انه حذف من القرآن وأسقط وبدل وحرف فمن ذلك آية المتعة قالت انه أسقطها بتة وكان يجلد من يقرؤها وينهى عنها * وكانت عونا لمن خرج على علي من الاحزاب حتى مات

وبعث علي قيس بن سعد أميرا على مصر وقيس هذا كان صاحب راية الانصار على عهد صاحب الشريعة وكان من ذوي الرأي والبأس فقال له علي سر الى مصر فقد وليتكها واخرج الى رحلك واجمع ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها وأحسن الى المحسن واشدد على المريب وارفق بالعامة والخاصة فان الرفق يمن * فخرج قيس حتى دخل مصر في سبعة من أصحابه ودخل المسجد وصعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب علي فقرئ على أهل مصر بامارته ويأمرهم بمبايعته ومساعدته واعانته على الحق ثم قام قيس خطيبا فقال الحمد لله الذي جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين * أيها الناس انا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله فان نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم * فقام الناس فبايعوا واستقامت مصر واطمأنت القلوب وبعث عليها عماله الا قرية اسمها خربتا هذه فيها ناس قد أعظموا قتل عثمان واستكبروه وكاتبوا قيسا يدعونه الى الطلب بدم عثمان وطال بينهم وبينه الاخذ والرد ثم تهادنوا وكان قيس ذا تدبير وحيلة فلما فاض الخبر بما وقع بين عائشة وعلي ونهض معاوية بن أبي سفيان الى شق عصا الطاعة كان معاوية يخشى كثيرا من قيس المذكور مخافة أن يقبل علي في أهل العراق وقيس في أهل مصر فيقع بينهما معاوية فكتب معاوية الى قيس كتابا يقول فيه سلام عليك * أما بعد فانكم نقمتم على عثمان ضربة بصوت أوشتمة رجل أوتسيير آخر واستعمال فتى وقد علمتم أن دمه لايحل لكم فقد ركبتم عظيما وجئتم أمرا إدًّا فتب الى الله ياقيس فانك من المجلبين على عثمان فأما صاحبك فانا استيقنا أنه الذي أغرى الناس وحملهم حتى قتلوه وانه لم يسلم من دمه عظم قومك فان استطعت ياقيس أن تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل وتابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين اذا ظهرت مابقيت ولمن أحببت من أهلك سلطان الحجاز مادام لي سلطان

وسلني ماشئت فاني أعطيك واكتب الىّ برأيك اه فلما جاءه الكتاب أحب أن يدافعه ولا يبدى له أمرا ولا يتعجل الى حربه * قال أصحاب التاريخ فكتب اليه يقول * امابعد فقد فهمت ما ذكرته من قتلة عثمان فذلك شئ لم أقاربه وذكرت أن صاحبي هو الذى أغرى به حتى قتلوه وهذا مما لم أطلع عليه وذكرت ان عظم عشيرتى لم تسلم فأول الناس كان فيه قياما عشيرتى وأما ماعرضته من متابعتك فهذا أمر لى فيه نظر وفكرة وليس هذا مما يسرع اليه وأنا كاف عنك وليس يأتيك من قبلى شئ تكرهه حتى ترى ونرى ان شاء الله تعالى * قالوا فلما قرأ معاوية كتاب قيس رآه مقاربا مباعدا فكتب اليه * أمابعد فقد قرأت كتابك فلم أرك تدنو فاعدك سلما ولا متباعدا فأعدك حربا وليس مثلى يصانع المخادع و ينخدع للمكايد ومعه عدد الرجال وأعنة الخيل والسلام * قالوا فلما قرأ قيس كتابه ورأى أنه لا تفيد معه المدافعة والمماطلة أظهر له ما فى نفسه فكتب اليه * أمابعد فالعجب من اغترارك بى وطمعك فىّ واستسقاطك اياى أتسومنى الخروج عن طاعة أولى الناس بالامارة وأقولهم بالحق وأهداهم سبيلا وأقربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيلة وتأمرنى بالدخول فى طاعتك طاعة أبعد الناس من هذا الامر وأقولهم بالزور وأضلهم سبيلا وأبعدهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيلة ولد ضالين مضلين طاغوت من طواغيت ابليس وأما قولك انى مالئ عليك مصر خيلا ورجالا فوالله ان لم أشغلك بنفسك حتى تكون أهم اليك انك لذو جد والسلام * فلما رأى معاوية كتابه أيس منه وثقل عليه مكانه فجعل يكيده وافتعل كتابا عن قيس اليه بالطلب بدم عثمان والدخول معه فى ذلك وقرأه على أهل الشام وطير خبره الى الآفاق فبلغ ذلك عليا أبلغه أياه محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر بن أبى طالب وأعلمته عيونه بالشام فكبر عليه هذا الامر جدا وأعظمه فدعا ابنيه وعبد الله بن جعفر فأخبرهم بالخبر فقال ابن جعفر ياأمير المؤمنين دع ما يريبك الى مالا يريبك اعزل قيسا عن مصر فقال علىّ انى والله ما أصدق بهذا عنه فقال عبد الله اعزله ياأمير المؤمنين فان كان هذا حقا لا يعتزل لك فبينماهم على هذا الحال اذ جاءهم كتاب من قيس يخبر أمير المؤمنين بأمر المتحزبين الطالبين بدم عثمان وأنه كف عن مشاغبتهم وقتالهم فقال ابن جعفر ما أخوفنى أن يكون ذلك ممالأة منه فمره بقتالهم فكتب اليه علىّ يأمره بقتالهم فلما قرأ الكتاب كتب جوابه * أما بعد فقد عجبت لامرك تأمرنى بقتال قوم كافين عنك مفرغيك لعدوك ومتى حاددناهم ساعدوا عليك عدوك فأطعنى ياأمير المؤمنين واكفف عنهم فان الرأى تركهم والسلام * قيل فلما قرأ علىّ الكتاب قال ابن جعفر ياأمير المؤمنين ابعث محمد بن أبى بكر على مصر واعزل قيسا فقد بلغنى أن قيسا يقول ان سلطانا لا يستقيم الابقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء فأطاعه علىّ وبعث محمد بن أبى بكر لمصر وقيل بعث قبله الاشتر النخعى فمات بالطريق فبعث محمدا فلما قدم على قيس بمصر قال له قيس ما بال أمير المؤمنين ماغيره أدخل أحد بينى وبينه قال لا وهذا السلطان سلطانك فقال لا والله لا أقيم وخرج منها مقبلا الى المدينة وهو غضبان لعزله

فجاءه حسان بن ثابت وكان عثمانيا يشمت به فقال له قتلت عثمان ونزعك علىّ فبقى عليك الاثم ولم يحسن لك الشكر فقال له قيس يا أعمى القلب والبصر والله لو ألقى بين رهطى ورهطك حربا لضربت عنقك اخرج عنى ثم خاف من مروان بن الحكم بالمدينة فرحل عنها

ولما قدم محمد بن أبى بكر مصر قرأ كتاب علىّ على أهل مصر ثم قام فخطب فقال * الحمد لله الذى هدانا واياكم لما اختلف فيه من الحق وبصرنا واياكم كثيرا مما كان عمى عنه الجاهلون * ألا ان أمير المؤمنين ولانى أمركم وعهد الى ماسمعتم وماتوفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب فان يكن ماترون من امارتى وأعمالى طاعة لله فاحمدوا الله على ما كان من ذلك فانه هو الهادى له وان رأيتم عاملا لى عمل بغير الحق فارفعوه الىّ وعاتبونى فيه فانى بذلك أسعد وأنتم جديرون * وفقنا الله واياكم لصالح الاعمال برحمته * ثم نزل ولبث شهرا كاملا حتى بعث الى اولئك المعتزلين من الطالبين بدم عثمان وقال لهم اما أن تدخلوا فى طاعتنا واما أن تخرجوا من بلادنا فأجابوه انا لانفعل هذه ولاهذه وامتنعوا وأخذوا حذرهم فسير اليهم الحرث بن جمهان الجعفى فى جمع كبير فاتلهم فقاتلوه وقتلوه فبعث اليهم أيضا ابن مضاهم الكلبى فقتلوه ووصل الخبر بذلك الى معاوية فكتب اليه يسبه ويقبح فعاله ويتوعده

وكتب علىّ الى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والانصار على بيعته ونكث طلحة والزبير وحربه اياهما ويدعوه الى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والانصار من طاعته فاستشار معاوية عمرو بن العاص فى ذلك وكان قد لحق بمعاوية قبل قتل عثمان بقليل كى لايقتل عثمان وهو فى المدينة فقال عمرو اجمع أهل الشام وقاتله أخذا بثار عثمان حتى تظفر ففعل معاوية ذلك وكان أهل الشام لما قدم عليهم النعمان بن بشير بقميص عثمان الذى قتل فيه مخضوبا بالدم بأصابع زوجته نائلة إصبعان منها وشئ من الكف وإصبعان مقطوعتان من أصولهما ونصف الابهام وضع معاوية القميص على المنبر وجمع الاجناد اليه وكلهم فى أمر القتال والخروج على علىّ والزامه بدم عثمان فبكوا جميعا مدة وهو على المنبر والاصابع معلقة فيه وأقسم رجال من أهل الشام ان لايمسهم الماء الا للغسل من الجنابة وان لايناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن قام دونهم قتلوه وكان هذا كله بحضرة رسول علىّ فرجع الرسول اليه وأخبره بالخبر وان أهل الشام اجتمعوا على قتاله فكبر الامر على علىّ ونادى فى عسكره بالخروج فخرجوا وعسكروا بالنخيلة ففرق فيهم الاعطية وجهز معاوية وتجهز الناس وحضهم عمرو بن العاص على القتال وقال لمعاوية سر الى علىّ بنفسك ولاتغب عنه برأيك ومكيدتك فبالغ معاوية فى التأهب والاستعداد ووقف عمرو وسط القوم وناداهم انما سار اليكم علىّ فى شرذمة قليلة وقد قتل خليفتكم فالله الله فى حقكم ان تضيعوه وفى دمكم أن تطلوه * فعقد له معاوية لواء ولواء لابنيه عبدالله ومحمد ولواء لغلامه وردان وجاءهم الخبر بان عليا عقد لواء لغلامه المدعو قنبر فأنشد عمرو بن العاص فى ذلك

هل يغنين وردان عني قنبرا * أو تغني السكون عني حميرا
اذا الكماة لبسوا السنورا

وساروا حتى التقوا جميعا وسير علي جماعة من كبار قومه الى معاوية ليحتجوا عليه ويدعوه الى الطاعة فدخلوا عليه وكلموه في الامر طويلا فقال ليس بيني وبين علي الا السيف فعادوا وأخبروا عليا بما جرى وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اصطف الفريقان ودارت الحرب بينهما على السهل الخفيف اذ كرهوا أن يجمعوا أهل العراق بأهل الشام في قتال خوفا من الاستئصال والهلاك فكانوا يخرجونهم جماعات قليلة فاقتتلوا على هذا الحال أيام ذي الحجة كلها من سنة ست وثلاثين وربما اقتتلوا في اليوم الواحد مرتين ثم عادوا بعد المحرم في سنة سبع وثلاثين الى القتال فرتب علي أصحابه وحضهم على القتال حتى يموتوا أو يمكنهم الله من عدوهم * وضرب معاوية له قبة عظيمة وألقى عليها الثياب فبايعه أكثر أهل الشام على الموت وأحاط بقبته خيل دمشق ودارت الحرب بين الفريقين فاقتتلا قتالا عنيفا وكان معاوية يعلق قميص عثمان وفيه أصابع نائلة زوجته فاذا رأى ذلك أهل الشام ازدادوا غيظا وحدة في أمرهم فاذا أحس منهم بفتور يقول له عمرو بن العاص حرك لها حوارها تحن فيعلق القميص * واشتد أهل الشام في قتالهم لاصحاب علي وأجهزوا عليهم وأطبقوا من كل صوب وحدب وما زالوا كلما انهزمت طائفة من أصحاب علي وانكشفت عنه سار الى استنهاض الأخرى وكان الاشتر أحد كبار أصحاب علي ينادي في الناس ويقول انصروا أمير المؤمنين واصدقوا عدوكم اللقاء ان الله مع الصادقين * وكثر القتل في أصحاب علي وكذلك في أصحاب معاوية واشتد علي بمن معه في القتال فلما رأى عمرو بن العاص ماصاروا اليه قال لمعاوية هل لك في أمر أعرضه عليك لايزيدنا الا اجتماعا ولايزيدهم الا فرقة قال نعم قال نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها هذا حكم بيننا وبينكم فان أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول ينبغي لنا أن نقبل فتكون فرقة بينهم وان قبلوا مافيها رفعنا القتال عنا الى أجل فأجابه معاوية الى ماطلب وأمر فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا هذا حكم كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم فلما رآها الناس قالوا نجيب الى كتاب الله فقال لهم علي ان معاوية وعمرا ومن معهما ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالا ثم رجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال ويحكم والله مارفعوها الا خديعة ووهنا ومكيدة * فقالوا له لايسعنا أن ندعى الى كتاب الله فنأبى أن نقبله وقال جماعة أجب الى كتاب الله عز وجل اذ دعيت اليه والا دفعناك برمتك الى القوم أونفعل بك مافعلنا بابن عفان * فقال لهم احفظوا عني نهيي اياكم واحفظوا مقالتكم لي فان تطيعوني فقاتلوا وان تعصوني فاصنعوا مابدا لكم * واختلفوا فيما بينهم حتى كادوا يفترقون وسب أهل الكوفة الاشتر وضربوا وجه دابته بسياطهم لانه كان يحض عليا على القتال وعدم وضع الحرب ويقول لهم ان رفع المصاحف انما هي حيلة ومشورة من ابن النابغة يعني به عمرو بن العاص * فلما رأى علي اشتداد الخلاف وتفريق الكلمة سير الاشعث بن

قيس

قيس الى معاوية يسأله عما يريد فقال معاوية انما أريد أن نرجع نحن وأنتم الى ماأمر الله به فى كتابه تبعثون رجلا ترضون به ونبعث نحن رجلا نرضى به نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لايعدوانه ثم نتبع مااتفقا عليه * فرجع الاشعث الى عليّ وأخبره بما قاله معاوية وفاض الخبر بذلك بين أصحاب عليّ فقالوا قد رضينا وقبلنا وقال أهل الشام قد رضينا عمرا وقال أصحاب عليّ ونحن قد رضينا بأبى موسى الاشعرى فمانعهم على فى ذلك فأصروا على تحكيم أبى موسى * وجاء أبوموسى حتى دخل المعسكر وحضر عمرو بن العاص عند عليّ ليكتبوا القضية بحضوره فكتبوا * بسم الله الرحمن الرحيم هذا ماتقاضى عليه أميرالمؤمنين فقال عمرو هو أميركم وأما أميرنا فلا * فقال الاحنف لاتمح اسم أمير المؤمنين فانى أخاف إن محوتها أن لاترجع اليك أبدا لاتمحها وان قتل الناس بعضهم بعضا قيل فأبى ذلك على مليا من النهار ثم ان الاشعث بن قيس قال امح هذا الاسم فمحاه فقال عليّ الله أكبر سنة بسنة والله انى لكاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية فكتبت محمد رسول الله وقالوا لست برسول الله ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فأمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحوه فقلت لاأستطيع فقال أرنيه فأريته فمحاه بيده وقال انك ستدعى الى مثلها فتجيب * فقال عمرو بن العاص سبحان الله أنشبه بالكفار ونحن مؤمنون ووقع بينه وبين أمير المؤمنين على كلام كثير ثم كتب الكتاب * هذا ماتقاضى عليه عليّ بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان قاضى على على أهل الكوفة ومن معهم وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم اننا ننزل عند حكم الله وكتابه وأن لايجمع بيننا غيره وان كتاب الله بيننا من فاتحته الى خاتمته نحيى ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان فى كتاب الله وهما أبوموسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عملا به ومالم يجداه فى كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة اهـ ثم أخذ الحكمان من عليّ ومعاوية ومن العسكرين من العهود والمواثيق انهما آمنان على أنفسهما وأهليهما والامة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه واتفقوا على أن يكون الحكم فى رمضان أوبعده وشهد بذلك جماعة من أصحاب على وآخرون من أصحاب معاوية وكتب الكتاب يوم الاربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين واتفقوا على أن يوافى عليّ على موضع الحكمين بدومة الجندل أوبأذرح فى شهر رمضان وتفرقت جموع كثيرة من أصحاب عليّ وسار بمن بقى معه عن صفين الى الكوفة ونزل بها

ولما جاء وقت اجتماع الحكمين أرسل عليّ أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثى وأوصاه أن يقول لعمرو بن العاص ان عليا يقول لك ان أفضل الناس عند الله عزوجل من كان العمل بالحق أحب اليه وان نقصه من الباطل وان زاده ويحك لاتكن للخائنين خصيما وللظالمين ظهيرا * وأرسل معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام حتى توافقوا جميعا على دومة الجندل بأذرح فلما اجتمع عمرو بن العاص وأبوموسى الاشعرى قال عمرو لابى موسى ياأبا موسى ألاتعلم أن عثمان قتل مظلوما قال أشهد قال ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه

قال بلى قال فما يمنعك منه وبيته فى قريش كما قد علمت فان خفت أن يقول الناس ليست له سابقة وجدته ولىّ عثمان المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة والتدبير وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وكاتبه وقد صحبه وعرض له بسلطان * فقال أبو موسى يا عمرو اتق الله فأما ما ذكرت من شرف معاوية فان هذا ليس على الشرف تولاه أهله ولو كان على الشرف لكان لآل أبرهة بن الصباح انما هو لأهل الدين والفضل مع انى لو كنت معطيه أفضل قريش شرفا أعطيته على بن أبى طالب * وأما قولك ان معاوية ولىّ دم عثمان فوله هذا الامر فلم أكن لاوليه وأدع المهاجرين الاولين * وأما تعريضك لى بالسلطان فوالله لو خرج معاوية لى من سلطانه كله لما وليته وما كنت لارتشى فى حكم الله ولكنك ان شئت أن تحيى اسم عمر بن الخطاب رحمه الله * قال له عمرو وما يمنعك من ابنى وأنت تعلم فضله وصلاحه فقال ابنك رجل صدق ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة * فقال عمرو ان هذا الامر لا يصلح الا لرجل يأكل ويطعم وكانت فى ابن عمر غفلة فقال له ابن الزبير أفطن فانتبه فقال والله لا أرشو عليها شيأ أبدا وقال يا ابن العاص ان العرب قد أسندت اليك أمرها بعد ما تقارعوا بالسيوف فلا تردهم فى فتنة فلما اختلفوا فيمن يتولاها قال عمرو بن العاص لابى موسى خبرنى ما رأيك قال أبو موسى أرى أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الامر شورى فيختار المسلمون لانفسهم من أحبوا فقال عمرو الرأى ما رأيت فقاما وأقبلا الى الناس وهم مجتمعون وكان عمرو قد عود أبا موسى أن يقدمه فى الكلام ويقول أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسن منى فقال حينئذ يا أبا موسى اعلم الناس أن رأينا قد اتفق فتكلم أبو موسى فقال ان رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الامة فقال عمرو صدق وبرّ تقدم يا أبا موسى فقال له ابن عباس ويحك والله انى لاظنه قد خدعك ان كنتما اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم به قبلك ثم تكلم به بعده فانه رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا بينكما فاذا قمت فى الناس خالفك * قال بعض الكتاب وكان أبو موسى مغفلا فقال إنا قد اتفقنا والتفت الى الناس وقال * أيها الناس إنا قد نظرنا فى أمر هذه الامة فلم نر أصلح لامرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه وهو أن نخلع عليا ومعاوية ويولى الناس أمرهم من أحبوا وانى قد خلعت عليا ومعاوية ثم تنحى وأقبل عمرو وقال * ان هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبى معاوية فانه ولىّ ابن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه * فعند ذلك وقع الهرج بين الناس وعلت الضوضاء وتشاتم أبو موسى وعمرو بن العاص وتسابا وضرب شريح بن هانئ عمرو بن العاص بسوط كان فى يده فقام عليه ابن لعمرو فضربه كذلك وكثر الصياح من الفريقين وطلب أهل الشام أبا موسى فهرب الى مكة وعاد عمرو بن العاص بأهل الشام الى معاوية فسلموا عليه بالخلافة ورجع ابن عباس وشريح الى علىّ وأخبره بما كان فاغتم غما شديدا وصار اذا صلى الغداة يقنت فيقول اللهم العن معاوية وعمرا وأبا الاعور وحبيبا وعبد الرحمن

ابن

ابن خالد والضحاك بن قيس والوليد فبلغ ذلك معاوية فكان اذا قنت أيضا سب عليا وابن عباس والحسن والحسين والاشتر * وتآلب أصحاب علىّ على قتال معاوية وأصحابه وأتوا عليا فبايعوه وقالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت * وكتب علىّ الى أهل النهر * بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله علىّ أمير المؤمنين الى زيد بن حصين وعبدالله بن وهب ومن معهما من الناس * أما بعد فان هذين الرجلين اللذين ارتضيناهما حكمين قد خالفا كتاب الله واتبعا هواهما بغير هدى من الله فلم يعملا بالسنة ولم ينفذا القرآن حكما فبرئ الله منهما ورسوله والمؤمنون فاذا بلغكم كتابى هذا فأقبلوا الينا فانا سائرون الى عدونا وعدوكم ونحن على الامر الاول الذى كنا فيه فكتبوا اليه * أما بعد فانك لم تغضب لربك وانما غضبت لنفسك فان شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك والا فقد نبذناك على سواء ان الله لا يحب الخائنين * فلما قرأ الجواب أيس منهم وسار بمن مال معه حتى نزل على أهل الكوفة واستنصرهم فاجتمع له منهم زهاء ثلاثة آلاف مقاتل وقيل ثلاثة آلاف ومائتين وخرج معه من أهل الكوفة اربعون ألف مقاتل وسبعة عشر ألفا من الابناء ممن أدرك وثمانية آلاف من الموالى والعبيد فكان جميع أهل الكوفة خمسة وستين ألفا فسار بهم علىّ لقتال من خرج عن دعوته من أهل النهر وغيرهم فقاتلهم واستظهر عليهم ثم نادى فيمن معه بالخروج لقتال معاوية فراجعه فى ذلك الاشعث بن قيس وقال يا أمير المؤمنين لقد نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصدا فارجع الى مصرنا نستعد ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا فان عدونا أقوى منا فأجابه علىّ الى ذلك وما زالوا حتى نزلوا بالنخيلة فأمر الناس بأن يلزموا المعسكر ويتأهبوا للزحف على العدو وأن يقلوا من زيارة أبنائهم ونسائهم حتى يسيروا الى عدوهم فلبثوا على هذا الحال أياما ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا البيوت الا نفرا من وجوه الناس وأصبح علىّ وقد رأى المعسكر خاليا فحزن واشتد به الحزن ودخل الكوفة وقد انكسر عليه رأيه فى المسير ولكنه قد كبر عليه الامر واستعظمه فجعل يستنفرهم ويحثهم على الخروج فلم يطيعوا وبقوا على هذا الحال أياما فجمع رؤساءهم وكبارهم وقام فيهم فقال عباد الله مالكم اذا أمرتكم أن تنفروا تثاقلتم الى الارض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة وبالذل والهوان من العز خلفا وكلما ناديتكم الى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت فى سكرة وكأن قلوبكم مألوسة وأنتم لا تعقلون فكأن أبصاركم كمه وأنتم لا تبصرون لله أنتم ما أنتم الا أسد الشرى فى الدعة وثعالب رواغة حين تدعون الى البأس انكم تكادون ولا تكيدون وينتقص أطرافكم وأنتم لا تتحاشون ولا تنام أعينكم وأنتم فى غفلة ساهون الى أن قال * فلم يلتفتوا الى مقالته وكادوا يخذلونه

وبينما كان علىّ على هذا الحال من الضعف والوهن وتفريق كلمة أصحابه اذ جاءه الخبر بفساد أهل مصر على محمد بن أبى بكر عامله بها وخروج معاوية بن خديج السكونى بها يطالب بدم عثمان واجتماع الكثير اليه فكبر الامر على علىّ * قال بعض الكتاب فكتب

الى الاشتر وهو بنصيبين يستدعيه فلما حضر أخبره خبر أهل مصر وقال له ليس لها غيرك فاخرج اليها فانى قد وليتك اياها واستعن بالله فخرج الاشتر يتجهز الى مصر وأتت معاوية عيونه بذلك فعظم عليه الامر وخشى عاقبته لانه علم أن الاشتر ان قدمها كان أشد عليه من محمد بن أبى بكر فأرسل معاوية الى المقدم على أصحاب الخراج بالقلزم يقول ان الاشتر قد ولى مصر فان كفيتنيه لم آخذ منك خراجا مابقيت وبقيت فقام الرجل من ساعته وسار حتى أتى القلزم وأقام به وخرج الاشتر من العراق يريد مصر فلما انتهى القلزم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه الضيافة فنزل عنده فأتاه بطعام فأكل فأتاه بشربة من عسل قد وضع له فيها سما فشرب فمات لساعته وجاء الخبر بموته الى معاوية ففرح فرحا لايوصف وقام فى الناس خطيبا فقال بعد كلام قد كانت لعلىّ يمينان فقطعت احداهما بصفين يعنى بموت عمار بن ياسر وقطعت الاخرى اليوم يعنى بموت الاشتر وعلم محمد بن أبى بكر بما فعله علىّ من ارساله الاشتر مكانه فكبر عليه الامر جدا وأرسل الى علىّ فى ذلك فكتب اليه علىّ يقول * أما بعد فقد بلغنى موجدتك من تسريحى الاشتر الى عملك وانى لم أفعل ذلك الا استبطاء لك فى الجهادولا ازديادا منى لك فى الجد ولو نزعت ماتحت يدك لوليتك ماهو أيسر عليك مؤنة منه وأعجب اليك ولاية * ان الرجل الذى كنت وليته أمر مصر كان لنا نصيحا وعلى عدوّنا شديداوقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون فرضى الله عنه وضاعف له الثواب اصبر لعدوك وشد للحرب وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك على ماولاك * فكتب اليه محمد أما بعد فقد انتهى الىّ كتابك وفهمته وليس أحد من الناس أرضى برأى أمير المؤمنين ولا أجهد على عدوه ولا أراف بوليه منى وقد خرجت فعسكرت وأمنت الناس الا من نصب لنا حربا وأظهر لنا خلافا وأنامتبع أمير المؤمنين وحافظه والسلام وقيل انما تولى الاشتر مصر بعد قتل محمد بن أبى بكر وقيل غير ذلك * وكان معاوية شديد الخوف من أهل مصر يهابهم جدا لقربهم منه وشدتهم على من قام يطالب بدم عثمان ولم يكن يخشى غيرهم لاسيما بعد اختلاف الناس على علىّ بالعراق فجعل يدبر الحيلة فى ذلك ثم دعا عمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وبسر بن أرطاة وآخرين وشاورهم فى أمر مصر ومن بها من أصحاب علىّ فأشار عليه عمرو بن العاص بفتحها والركوب على من بها من الاحزاب حتى يتم النصر فكاتب معاوية الى بعض من خالف عليا بمصر فى أمر ذلك فمنوه بالنصر واستنهضوه فأمر عمرو بن العاص ليتجهز اليها وسير معه ستة آلاف رجل فنزلوا على مقربة من أرض مصر فاجتمع اليه من قام يطالب بدم عثمان فتقوّت بهم عزيمته وكتب الى محمد بن أبى بكر أما بعد فتنح عنى بدمك يا ابن أبى بكر فانى لا أحب أن يصيبك منى ظفر ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك وهم مسلموك فاخرج منها انى لك من الناصحين وبعث معه كتابا من معاوية أيضا فأرسل محمد الكتابين الى علىّ وأخبره بنزول عمرو بن العاص على حدود مصر وطلب

منه

منـه المدد لتثاقل الناس وتقاعدهم فوعـده عليّ بارسال نجـدة عاجلة وحضه على أن يضم شيعته اليه

واشتبك القتال بين محمد بن أبي بكر وعمرو بن العاص ومن بمصر من أصحاب عثمان واشتد شدة بالغة واجتمع أهل الشام حول محمد وأصحابه وأخذوهم بالرماح والسيوف من كل صوب وكان كنانة بن بشر على مقدمة أصحاب محمد فلما رأى ذلك كنانة نزل عن فرسه ونزل معه أصحابه فضارب أهل الشام بسيفه حتى قتل وبلغ محمـد بن أبي بكر خبر موته فانزعر وتفرق عنـه أصحابه وأطبق عليـه عمرو بن معه ففر محمـد على وجهـه حتى انتهى الى خربة فى الطريق فأوى اليها وساق عمرو بن العاص بن معـه يريد الفسطاط وخرج معاوية بن حديج فى طلب محمد بن أبي بكر فدل عليه رجل فأخرجوه من الخربة وقد كاد يهلك عطشا فقال يا ابن حديج اسقني فقال له لاسقاني الله ان سقيتك قطرة أبدا انكم منعتم عثمان شرب الماء والله لاقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم والغساق فقتله ابن حديج ثم ألقاه في جيفة حمار ثم أحرقه بالنار وجاء الخبر الى عليّ بفتح مصر وقتل محمد بن أبي بكر فحزن كثيرا وحزنت عائشة وجزعت عليه جزعا شـديدا وجعل عمرو يدبر الامور بمصر وقد أخذ البيعة لمعاوية بن أبي سفيان وجمع اليه كلمة الاحزاب فقويت بهم شوكته واتسعت كلمته وهابه عليّ فاحجم عن تسيير الجند لقتاله بعد أن نادى فيهم بالرحيل * واختلفت كلمة أصحاب عليّ وتفرقوا عنه أو كادوا ومعاوية يبعث البعوث الى الآفاق لتتم دعوته وتعلو كلمته فلما دخلت سنة ست وثلاثين للهجرة فرق معاوية جيوشه فى العراق ورسم لهم بقتال كل من لم يذعن لسلطانه فعاثوا وقتلوا ونهبوا وسبوا وفعلوا مالا خير فيه وكذلك فعلوا بأهل البوادى وبلغوا مكة والمدينة وفعلوا بها مافعلوا وكبر الامر على عليّ وكاد يسـقط فى يده فكانت الاخبار تأتيـه فى كل يوم بتثاقل الناس عن الخروج لقتال عدوّه فكان يخطب ويحض ويعذر ويؤنب ويقول يا أيها الناس انصروا من هو على الحق ويحكم المغرور من غررتموه ومن فاز بكم فاز بالسهم الاخيب إنا لله وإنا اليـه راجعون والناس مع ذلك فى تثاقل وسلطانه فى إدبار * فلما اشـتد الحال وعظم الخـلاف بين المتحازبين اجتمع عبد الرحمن بن ملجم المرادى والبرك بن عبـد الله التميمى الصريمى وقيـل اسم البرك الحجاج وعمرو بن بكر التميمى السعدى وهم من الخوارج فتذاكروا أمر الناس وعابوا عمل ولايتهـم ثم ذكروا قتلى النهر فترحموا عليهـم وقالوا مانصنع بالبقاء بعدهم فلو شرينا أنفسنا وقتلنا أئمة الضلالة وأرحنا منهم البـلاد لكان فى ذلك المصلحة فقال ابن ملجم ويحكم أنا أكفيكم عليّا وكان ابن ملجم هذا من أهل مصر وقال البرك بن عبد الله وأنا أكفيكم معاوية وقال عمرو ابن بكر وأنا أكفيكم عمرو بن العاص فتعاهدوا أن لا ينكص أحدهم عن صاحبه الذى توجه اليـه حتى يقتله أو يموت فأخذوا سيوفهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة من رمضان وقصـد كل منهم الجهة التى يريد فأتى ابن ملجم الكوفة فلقى أصحابه بالكوفة وكتمهم أمره ورأى يوما

أصحابا له من تيم الرباب وكان عليّ قد قتل منهم يوم النهر عدة فتذاكروا قتلى النهر ورأى معهم امرأة من تيم الرباب اسمها قطام وقد قتل أبوها وأخوها يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها أخذت قلبه فخطبها فقالت لاأتزوجك حتى تشتفي لي فقال وما تريدين قالت ثلاثة آلاف وعبدا وقينة وقتل عليّ فقال أماقتل عليّ فما أراك ذكرتيه وأنت تريدينني قالت بلى التمس غرته فان أصبته شفيت نفسك ونفسي ونفعك العيش معي وان قتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها قال والله ماجاءبي الاقتل عليّ فلك ماسألت قالت سأطلب لك من يشد ظهرك ويساعدك وبعثت الى رجل من قومها اسمه وردان وكلمته فأجابها وأتى ابن ملجم رجلا من أشجع اسمه شبيب بن بجرة فقال له هل لك في شرف الدنيا والآخرة قال وماذا قال قتل عليّ قال شبيب ثكلتك أمك لقد جئت شيأ إدّا كيف تقدر على قتله قال أكمن له في المسجد فاذاخرج الى صلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه فان نجونا فقد شفينا أنفسنا وان قتلنا فما عند الله خير من الدنيا ومافيها قال ويحك لو كان غير عليّ كان أهون * فلما كانت ليلة الجمعة سابع عشرة رمضان سنة أربعين استيقظ عليّ سحرا وقال لابنه الحسن رأيت الليلة النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله ماذا لقيت من أمتك من الاود واللدد فقال لي ادع الله تعالى عليهم فقلت اللهم أبدلني بهم خيرا لي منهم وأبدلهم بي شرا لهم مني ودخل المؤذن فقال الصلاة فخرج عليّ من الباب ينادي أيها الناس الصلاة الصلاة فاعترضه ابن ملجم فضربه بالسيف فأصاب جبهته ووصل الى دماغه فشد عليه الناس من كل جانب فأمسك وأوثق وأقام عليّ الجمعة والسبت وتوفي ليلة الاحد وغسله الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر ومحمد بن الحنفية وصلى عليه الحسن ودفن بدار الامارة بالكوفة ليلا وأخفي قبره لئلا ينبشه الخوارج وأما البرك فانه ضرب معاوية فأصاب أوراكه وكان معاوية عظيم الاوراك فقطع منه عرق النكاح فلم يولد له بعد ذلك ولد فأمر معاوية باتخاذ المقصورة في الجوامع من ذلك الوقت وأما عمرو بن بكر فانه رصد عمرو بن العاص بمصر فاشتكى عمرو بطنه فلم يخرج الى الصلاة فصلى بالناس رجل من بني عامر يقال له خارجة فضربه ابن بكر فقتله واليه أشار ابن عبدون في قصيدته الرائية

فليتها اذ فدت عمرا بخارجة * فدت عليا بمن شاءت من البشر

وقيل ان عليا كان اذا رأى ابن ملجم يتمثل بهذا البيت

أريد حياته ويريد قتلي * عذيرك من خليلك من مرادي

وأخذوا ابن ملجم فعذبوه وقطعوه اربا بعد موت عليّ قال غير واحد انه لما ضربه ابن ملجم أوصى الحسن والحسين وصية طويلة وفي آخرها * يابني عبد المطلب لاتخوضوا دماء المسلمين خوضا تقولون قتل أمير المؤمنين ألالايقتلن بي غير قاتلي اضربوه ضربة بضربة ولا تمثلوا به فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اياكم والمثلى * ولما مات عليّ قتل الحسين ولده عبد الرحمن بن ملجم المذكور فقطع يديه ورجليه وكحل عينيه بمسمار محمي في النار قيل

كل ذلك ولم يتأوه ولم يجزع فلما أرادوا قطع لسانه تأوه وجزع فسئل عن ذلك فقال والله
ماأتأوه فزعا ولاجزعا من الموت وانما أتأوه لانغمر على ساعة من ساعات الدنيا لاأذكر الله تعالى
فيها فقطعوا لسانه فمات بعد ذلك * ومات على وعمره سبع وقيل ثمان وخمسون وقيل ثلاث
وقيل ثمان وستون سنة وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر ويوما واحدا وكانت مدة
اقامته بالمدينة أربعة أشهر ثم سار الى العراق وقتل بالكوفة قيل وكان قبل موته قد بايعه
أربعون ألفا من عسكره على الموت فقتل قبل أن يخرج بهم لقتال عدوه * وكان يجتمع
على مع صاحب الشريعة فى عبد المطلب الجد الادنى وينسب الى هاشم فيقال القرشى
الهاشمى ولم يزل اسمه فى الجاهلية والاسلام عليا ويكنى أبا الحسن أسلم وهو ابن سبع سنين
وقيل ابن تسع وقيل ابن عشر وقيل ابن خمس عشرة وقيل غير ذلك والصحيح الاول وشهد
المشاهد كلها الاتبوك فان صاحب الشريعة خلفه فى أهله وكان غزير العلم ولما هاجر صاحب
الشريعة أقام بعده ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عنه الودائع وكان لعلى شفقة على رعيته
فكان متواضعا ورعا ذاقوة فى الدين وكان قوته من دقيق الشعير يأخذ منه قبضة فيضعها
فى القدح ثم يصب عليه ماء فيشربه وقد تفرق عليه الخوارج واعتقد فيه الناس الالوهية
قيل ولما بلغ عائشة قتل على قالت

فالقت عصاها واستقربها النوى * كما قرعينا بالاياب المسافر

قالت من قتله فقيل رجل من مراد فقالت

فان يك نائيا فلقد نعاه * نعى ليس فى فيه التراب

فقالت زينب بنت أبى سلمة أتقولين هذا لعلى فقالت انى أنسى فاذا نسيت فذكرونى
ومات فى أيامه بنيامين بطرك الاسكندرية بعد أن أقام تسعا وثلاثين سنة على المشهور وكان
فيها من الحوادث والمحن مامر بك ذكره فاقيم بعده اغاثو وهو تاسع ثلاثيهم وكان فى أيامه من
الحوادث ماسيذكر بعد * ولما مات أمير المؤمنين على بن أبى طالب خلفه ابنه الحسن

(الفصل الخامس)

(فى خلافة أمير المؤمنين حسن بن على)

ثم قام بالامر بعد أمير المؤمنين على الحسن ابنه وكنيته أبو محمد ولقبه الذكى وأمه فاطمة
الزهراء بويع له بالخلافة بعد موت أبيه فى شهر رمضان سنة أربعين للهجرة أى سنة احدى
وستين وستمائة ميلادية فكان الناس فى ريب من بيعته لانه كان يقول لهم أشترط عليكم فى
بيعتى انكم مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت فقالوا ماهذا لكم بصاحب

ومايريد هذا الا القتال ثم سار الى المدائن واستقربها فبينما هو بالمدائن اذ نادى مناد ان قيسا قتل وكان الحسن قد جعله على مقدمة الجيش وهو قيس بن سعد بن عبادة فخرج الحسن لذلك وخرج معه الكثير من الناس وانفشلوا وقد نهبوا متاع الحسن حتى نازعوه بساطا كان تحته فازداد لهم بغضا وكاد يسقط فى يده وكان بينهم الجراح الاسدى فهزأ الجراح على الحسن وهو يسير معه ووجأه بالخنجر فى فخذه فقال الحسن قتلتم أبى بالامس ووثبتم علىّ اليوم تريدون قتلى زهدا فى العادلين ورغبة فى القاسطين ووالله لتعلمن نبأه بعد حين * وسار وهو يريد تسليم الامر الى معاوية بغضا فى القوم لخذلهم اياه ثم كتب الى معاوية بتسليم الامر اليه واشترط عليه شروطا فأجابه معاوية الى ماالتمسه منه وسيرله مااشترط عليه فسلم الامر الى معاوية وبايع له لخمس بقين من ربيع الاول قال بعض الكتاب لانه رأى المصلحة فى جمع الكلمة وترك القتال ويقال انه أخذ من معاوية ألف ألف درهم وقال قوم انه صالحه باذرح فى جمادى الاولى وأخذ منه مائة ألف دينار ويقال أربعمائة ألف درهم وقيل انه شرط عليه أن يمكنه من بيت المال يأخذ منه حاجته وأن يكون ولى العهد من بعده ففرح معاوية بذلك فخلع الحسن نفسه وسلم الامر الى معاوية وصالحه ودخل هو واياه الكوفة فسمى هذا العام عام الجامعة لاجتماع الامة بعد الفرقة على خليفة واحد وقيل انه لما راسل معاوية فى تسليم الخلافة اليه خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال إنا والله ماثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم وانما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر فشيبت السلامة بالعداوة والصبر بالجزع وكنتم فى سيركم الى صفين ودينكم أمام دنياكم وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم ألاوقد أصبحتم بين قتيلين قتيل بصفين تبكون له وقتيل بالنهر وان تطلبون بثأره وأما الباقى فخاذل وأما الباكى فثائر ألا وان معاوية دعانا لامر ليس فيه عز ولانصفة فان أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه الى الله عز وجل بظبا السيوف وان أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا * فعند ذلك ناداه الناس من كل جانب البقية البقية فأمضى الصلح * قال الليث شهدت خطبة الحسن رضى الله تعالى عنه حين صالح معاوية وخلع نفسه من الخلافة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فان أكيس الكيس التقى وأحق الحق الفجور وان هذا الامر الذى اختلفت أنا ومعاوية فيه ان كان له فهو أحق به منى وان كان لى فقد تركته له ارادة لاصلاح الامة وحقن الدماء عن سفكها والعار على النار

قال بعض أصحاب التاريخ لما مرض الحسن رضى الله تعالى عنه كتب مروان بن الحكم الى معاوية بذلك فكتب اليه معاوية أن أقبل المطى الىّ بخبر الحسن فلما بلغ معاوية موته سمع تكبيره من الخضراء فكبر أهل الشام لذلك التكبير فقالت فاختة بنت قريظة لمعاوية أقر الله عينك ماالذى كبرت لاجله فقال مات الحسن فقالت أعلى موت الحسن بن فاطمة تكبر فقال والله ما كبرت شماتة فى موته ولكن استراح قلبى * ودخل عليه ابن عباس

فقال

فقال له يابن عباس هل تدرى ما حدث فى أهل بيتك فقال لأدرى ماحدث الأنى أراك مستبشرا وقد بلغنى تكبيرك فقال مات الحسن فقال ابن عباس يرحم الله أبامحمد ثلاثا والله يامعاوية لاتسد حفرته حفرتك ولايزيد عمره فى عمرك ولئن كناقد أصبنا بالحسن فلقد أصبنا بامام المتقين وخاتم النبيين فجبر الله تلك الصدعة وسكن تلك العبرة وكان الله الخلف علينا من بعده

وكان الحسن قد سمته امرأته جعدة بنت الاشعث فمكث شهرين يرفع من تحته فى اليوم كذا وكذا مرة طست من الدم وكان يقول سقيت السم مرارا وماأصابنى فيها ماأصابنى فى هذه المرة وكان قد أوصى لاخيه الحسين وقال اذا أنا مت فادفنى مع جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم انوجدت الى ذلك سبيلا وان منعوك فادفنى فى بقيع الغرقد فلما مات لبس الحسين ومواليه السلاح وخرجوا ليدفنوه مع جده فخرج مروان بن الحكم فى موالى بنى أمية وهو يومئذ عامل على المدينة فمنع الحسين من ذلك وكانت وفاته فى شهر ربيع الاول سنة تسع وأربعين وقيل سنة خمسين وصلى عليه سعيد بن العاص ودفن مع أمه فاطمة وقيل دفن بالبقيع فى قبر بقبة العباس ودفن فى هذا القبر أيضا على زين العابدين وابنه محمد الباقر وابن ابنه جعفر بن محمد الصادق فهم أربعة فى قبر واحد * فكانت خلافة الحسن ستة أشهر وخمسة أيام وقيل ستة أشهر الا أياما ومات وعمره سبع وأربعون سنة فتم بموته الامر لمعاوية وانقطع بموته حبل الخلفاء الراشدين وقامت بعدهم الخلافة الاموية فكانت مدة خلافة الراشدين عبارة عن ثلاثين سنة هجرية وبعض أشهر وكان عددهم خمسة خلفاء أولهم أبوبكر وآخرهم الحسن بن علىّ بن أبى طالب

(المقالة الرابعة)

﴿ فى الخلفاء الامويين وفيها فصول ﴾

(الفصل الاول)

﴿ فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ﴾

لما خلع الحسن نفسه من الخلافة على الشروط التى تقدم الكلام عليها تم الامر لمعاوية واستقام له الملك وصفت له الخلافة وعلت كلمته وطارت شهرته وكان قد بويع له بالخلافة يوم التحكيم بايعه أهل الشام واختلف عليه أهل العراق الى أن صالحه الحسن بن على فأجمع

الناس على بيعته فى جمادى الاولى سنة اثنتين وأربعين هجرية أى سنة اثنتين وستين وستمائة ميلادية

وكان مولد معاوية بالخيف من منى أسلم قبل أبيه أبى سفيان وصحب صاحب الشريعة وكتب له وكان فى عسكر أخيه يزيد بن أبى سفيان وكان عاملا لعمر بن الخطاب فى سنة عشرين هجرية على الشام فلم يزل متوليا عليه عشرين سنة وذلك بقية خلافة عمر بن الخطاب وخلافة عثمان وفى خلافة على متغلبا عليها الى أن أسلم اليه الحسن الخلافة فاجتمع له الامر وبعث نوابه الى البلاد وذلك فى سنة احدى وأربعين للهجرة أى سنة احدى وستين وستمائة للميلاد فسمى هذا العام عام الجماعة قالوا لان الامة اجتمعت فيه بعد الفرقة على امام واحد

قال بعض الكتاب وكانت امرأة استشارت صاحب الشريعة فى أن تتزوج بمعاوية فقال لها صعلوك لامال له ثم بعد هذا القول باحدى عشرة سنة صار نائب دمشق ثم بعد الاربعين صار ملك الدنيا * فلما استقرت به الخلافة وتصرف فى الامور خرج عليه فروة بن نوفل الاشجعى الحرورى وورد الكوفة وهو أول الخوارج فكتب معاوية الى أهل الكوفة لاذمة لكم عندى حتى تكفونى أمره فقاتلوه وقتلوه بشهرزور وقيل ببعض السواد ثم خرج بعده معن الخارجى وهو معن بن عبد الله رجل من محارب فقبض عليه المغيرة وحبسه وبعث الى معاوية يخبره أمره فكتب اليه ان شهد أنى خليفة فخل سبيله فأحضره المغيرة وقال له أتشهد أن معاوية خليفة وأنه أمير المؤمنين فقال أشهد أن الله عز وجل حق وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور فأمر به فقتل ثم خرج أبو مريم مولى بنى الحرث بن كعب ومعه امرأتان قطام وكحيلة فكان أول من خرج معه النساء على الخليفة فعاب ذلك عليه بعض قومه فقال قد قاتل النساء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع المسلمين بالشام قال وسأردهما فردهما فوجه اليه المغيرة رجالا فقاتلوه وقتلوه

ولما كانت سنة اثنتين وأربعين سير معاوية جندا ضخما لبلاد الروم للغزو فاقتتلوا قتالا شديدا ثم دخل بسر بن أرطاة أرضهم سنة ثلاث وأربعين قيل وبلغ القسطنطينية ثم دخل عبد الله بن خالد وكان على حمص فشتى بهم وغزاهم بسر تلك السنة بحرا ثم دخل اليها عبد الرحمن السبيعى سنة ست وأربعين فشتى بها وشتى أبوه على أنطاكية ثم دخلوا سنة ثمان وأربعين فشتى عبد الرحمن بانطاكية ودخل عبد الله بن قيس فى تلك السنة بالصائفة وغزاهم مالك بن هبيرة سنة تسع وأربعين فشتى بأرض الروم ودخل عبد الله بن كرز الجبلى بالصائفة وشتى يزيد بن شمرة الرهاوى فى بلاد الروم بأهل الشام فى البحر وعقبة بن نافع بأهل مصر كذلك * وسير أيضا فى سنة ثمان وأربعين للهجرة الى سنة خمسين أى سنة ثمان وستين وستمائة للميلاد جيشا كثيفا الى قسطنطينية مع سفيان بن عوف فأوغلوا فى بلاد الروم وألقوا الحصار على المدينة وكان فى الجيش يومئذ ابن عباس وعمرو بن الزبير وأبو أيوب الانصارى الذى شهد بدرا وأحدا وحرب صفين فمات أيام الحصار ودفن بقرب سور القسطنطينية

وبعد

وبعد أن هاجوا المدينة هجمات كثيرة وشـدوا عليها من كل جانب هزمهم الروم شر هزيـة وعرقلت النار الاغريقيـة حركاتهم فكانت تحرق وتبيد وتهلك من فوق ومن تحت الماء وكان معاوية قد أمر ابنـه يزيد بالغزو معهم فتثاقل واعتل فأمسك عنه أبوه وأصاب الناس فى غـزوتهم هـذه جوع ومرض شديد وفاض الخبر بذلك وتحدث الناس فيه فأنشأ يزيد يقول

ما ان أبالى بما لاقت جموعهـم * بالفرقدونة من حمى ومن شوم
اذا اتكأت على الانماط مرتفعا * بدير مرّان عنـدى أم كلثوم

وأم كلثوم هى امرأته ابنـة عبـد الله بن عامر فبلغ معاوية شعره فأقسم عليه ليلحقن بسيفان من أرض الروم ليصيبه ما أصاب الناس فسار ومعـه جمع كثير أضافهم اليه أبوه ثم رجع يزيد والجيش الى الشام * قال أصحاب التاريخ فكانت هذه أول مرة لقيت فيها عساكر المسلمين صدّا * وكان معاوية قد عقد لعمرو بن العاص النيابة على مصر فى مدة اختلافه مع أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كما تقدم القول وكتب الى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج وهما كبراء العاملين على أخذ ثار عثمان بن عفان بمصر يخبرهم بقدوم عمرو بن العاص ومن معه من الجند لاخـذ مصر فأجابوه فجهز معاوية عمرو بن العاص فى سـتة آلاف فسار اليها واجتمعت عليه العثمانية وهم عشرة الاف فكتب عمرو الى محمد بن أبى بكر ما كتب وكان ما كان من أمر قتـل محمد بن أبى بكر واحراق جثته مما مر بيانه فى محله فلما تم الامر الى عمرو ابن العاص ودانت له الامور كتب الى معاوية يخبره بما كان من الامر وأن الله قد فتح عليه بلاد مصر فأقام عمرو أميرا عليها الى أن مات بها ليلة عيـد الفطر سنة ثلاث وأربعـين على المشهور ودفن بالمقطم من ناحية الفج وكان طريق الناس يومئذ الى الحجاز فأحب أن يدعو له من مرّ به وهو أول أمير مات بمصر وفى ذلك يقول عبدالله بن الزبير

ألم تر أن الدهـر أخنى بربوة * على عمرو السهمى تجبى له مصر
فأضحى نبيـذا بالعراء وضللت * مكايده عنـه وأمـواله الدثر
ولم يغن عنه جمعه المال برهة * ولا كيـده حتى أتيح له الدهر

ولما مات عمرو بن العاص ولى معاوية على مصر ولده عبد الله بن عمرو المذكور * قال الواقدى فعمل له عليها سنتين وقال غيره بل أشهرا ثم عزله وولى عقبة بن عامر سـنة أربع وأربعين فأقام الى سنة سبع وأربعين فعزله وولى معاوية بن حديج فأقام الى سنة خمسين فعزله وولى مسلمة بن مخلد وجمعت له مصر والغرب وهو أول وال جمع له ذلك * قال ابن عبد الحكم حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة عن بعض شيوخ أهل مصر قال أول كنيسة بنيت بفسطاط مصر الكنيسة التى خلف القنطرة أيام مسلمة بن مخلـد المذكور فأنكر ذلك الجند على مسلمة وقالوا له أتقر لهم أن يبنوا الكنيسة حتى كاد يقع بينهم وبينه شر فاحتج عليهم يومئذ مسلمة فقال انها ليست فى قيروانكم وانما هى خارجة فى أرضهم فسكتوا عن ذلك

فأقام مسلمة أميرا الى سنة تسع وخمسين وكان عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفى المشهور بابن أم حكيم وهى أخت معاوية أميرا على الكوفة فأساء السيرة فى أهلها فأخرجوه من بين أظهرهم طريدا فرجع الى خاله معاوية فقال لأولئك مصر خيرا منها فولاه مصر فلما سار اليها تلقاه معاوية بن حديج على مرحلتين من مصر فقال ارجع الى خالك فلعمرى لاتسير فينا سيرتك فى أهل الكوفة فرجع ابن أم حكيم ولحقه معاوية بن حديج وافدا على معاوية فلما دخل عليه وجد عنده أخته أم حكيم وهى أم عبد الرحمن الذى طرده من مصر فلما رآه معاوية قال بخ بخ هذا معاوية بن حديج فقالت أم حكيم لامرحبا تسمع بالمعيدى خير من أن تراه فقال معاوية بن حديج على رسلك باأم حكيم أما والله لقد تزوجت فما أكرمت وولدت فما أنجبت أردت أن يلى ابنك الفاسق علينا فيسير فينا كما سار فى أهل الكوفة فما كان الله ليريد ذلك ولو فعل لضربنا ابنك ضربا يطأطئ منه وان كره هذا الجالس فالتفت اليها معاوية فقال كفى فاستمر مسلمة على إمرة مصر الى أن مات فى خلافة يزيد فى ذى الحجة سنة اثنتين وستين

ولما كانت سنة ست وخمسين بايع الناس يزيد بن معاوية بولاية عهد أبيه وكان الذى أشار على معاوية بذلك المغيرة بن شعبة وذلك لان معاوية أراد أن يعزله عن الكوفة ويستعمل عوضه سعيد بن العاص فبلغه ذلك فقال الرأى أن أشخص الى معاوية فأستعفيه ليظهر للناس كراهتى للولاية فسار الى معاوية وقال لاصحابه حين وصل اليه ان لم أكسبكم الآن ولاية وامارة لاأفعل ذلك أبدا ومضى حتى دخل على يزيد وقال له انه قد ذهب أعيان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وآله وكبراء قريش وذوو أنسابهم وانما بقى أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة ولا أدرى مايمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة قال أو ترى ذلك يتم قال نعم فدخل يزيد على أبيه وأخبره بما قال المغيرة فأحضر المغيرة وقال له مايقول يزيد فقال ياأمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفى يزيد منك خلف فاعقد له فان حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ولاتسفك دماء ولاتكون فتنة قال ومن لى بهذا قال أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك قال فارجع الى عملك وتحدث مع من تثق اليه فى ذلك وترى ونرى فودعه ورجع الى أصحابه فقالوا مه قال لقد وضعت رجل معاوية فى غرز بعيد الغاية على أمة محمد وفتقت عليهم فتقا لايرتق أبدا وتمثل

بمثلى شاهدى النجوى وغالى * بى الاعداء والخصم الغضابا

وسار المغيرة حتى قدم الكوفة وذاكر من يثق اليه ومن يعلم أنه شيعة لبنى أمية أمر يزيد فأجابوا الى بيعته فأوفد منهم عشرة ويقال أكثر من عشرة وأعطاهم ثلاثين ألف درهم وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة وقدموا على معاوية فزينوا له بيعة يزيد ودعوه الى عقدها فقال معاوية لاتعجلوا باظهار هذا وكونوا على رأيكم * وجعل معاوية يعطى المقارب ويدارى

المباعد

المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس وبايعه فلما بايعه أهل العراق والشام سار الى الحجاز فى ألف فارس فلما دنا من المدينة لقيه الحسين بن على أول الناس فلما نظر اليه معاوية قال لامرحبا ولا أهلا بدنة يترقرق دمها والله مهريقه قال مهلا فانى والله لست بأهل لهذه المقالة قال بلى واشر منها ولقيه ابن الزبير فقال لامرحبا ولا أهلا خب ضب تلعة يخرج رأسه ويضرب بذنبه ويوشك والله أن يؤخذ بذنبه ويدق ظهره نحياه عنى فضرب وجه راحلته ثم لقيه عبد الرحمن بن أبي بكر فقال له معاوية لاأهلا ولامرحبا شيخ قدخوف وذهب عقله ثم أمر فضرب وجه راحلته ثم فعل بابن عمرو نحو ذلك فاقبلوا معه لايلتفت اليهم حتى دخل المدينة فحضروا بابه فلم يؤذن لهم على منازلهم ولم يروا منه مايحبون فخرجوا الى مكة فأقاموا بها * وخطب معاوية بالمدينة فذكر يزيد فمدحه وقال من أحق منه بالخلافة فى فضله وعقله وموضعه وما أظن قوما بمنتهين حتى تصيبهم بوائق تجتث أصولهم وقد أنذرت ان أغنت النذر ثم أنشده متمثلا

قد كنت حذرتك آل المصطلق * وقلت ياعمرو أطعنى وانطلق

انك ان كلفتنى مالم أطق * ساءك ماسرك منى من خلق

دونك مااستسقيته فاحس وذق

ثم دخل على عائشة وقد بلغها أنه ذكر الحسين وأصحابه فقال لاقتلنهم ان لم يبايعوا فشكاهم اليها فوعظته وقالت له بلغنى أنك تتهددهم بالقتل فقال ياأم المؤمنين هم أعز من ذلك ولكنى بايعت ليزيد وبايعه غيرهم أفترين أن أنقض بيعة قد تمت قالت فارفق بهم فانهم يصيرون الى ماتحب ان شاء الله قال أفعل ومكث بالمدينة ماشاء الله ثم خرج الى مكة فلقيه الناس قال بعض الكتاب فقال أولئك النفر نتلقاه فلعله قدندم على ما كان منه فلقوه ببطن مر فكان أول من لقيه الحسين فقال له معاوية مرحبا وأهلا يابن رسول الله وسيد شباب المسلمين وأمرله بدابة فركب وسايره ثم فعل بالباقين مثل ذلك وأقبل يسايرهم لايسير معه غيرهم حتى دخل مكة فكانوا أول داخل وآخر خارج ولايمضى يوم الا ولهم صلة ولايذكر لهم شيأ حتى قضى نسكه وحمل أثقاله وقرب مسيره فقال بعض أولئك النفر لبعض لاتخدعوا فما صنع بكم هذا لحبكم وما صنعه الا لما يريد فأعدوا له جوابا فاتفقوا على أن يكون المخاطب له ابن الزبير فأحضرهم معاوية وقال قد علمتم سيرتى فيكم وصلتى لارحامكم وحملى ما كان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه لايعارضكم فى شئ من ذلك فسكتوا فقال ألاتجيبون مرتين ثم أقبل على ابن الزبير فقال هات لعمرى انك خطيبهم فقال نعم نخيرك بين ثلاث خصال قال اعرضهن قال تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أوكما صنع أبو بكر أوكما صنع عمر قال معاوية ماصنعوا قال قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستخلف أحدا فارتضى الناس أبا بكر قال ليس فيكم مثل أبى بكر وأخاف الاختلاف قالوا صدقت فاصنع كما صنع أبو

بكر فانه عهد الى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أبيه فاستخلفه وان شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الامر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحـد من ولده ولا من بنى أبيه * قال معاوية هـل عنـدك غير هذا قال لا * ثم التفت الى من لم يتكلموا وقال فأنتم قالوا قولنا قوله قال فانى قد أحببت أن أتقـدم اليكم انه قد أعـذر من أنذر انى كنت أخطب منكم فيقوم الىّ القائم منكم فيكذبنى على رؤس الناس فأحـمل ذلك وأصـفح وانى قائم بمقالة فأقسم بالله لئن ردّ علىّ أحدكم كلمة فى مقامى هذا لاترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السـيف الى رأسه فلا يبقين رجل الا على نفسه * ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سـيف فان ذهب رجل منهم يرد علىّ كلمة بتصـديق أو تكـذيب فليضرباه بسـيفهما ثم خرجا وخرجوا معـه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال * ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهـم لايبتز أمر دونهـم ولايقضى الا عن مشورتهم وانهـم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله * فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ثم ركب رواحله وانصرف الى المدينـة فبايعه أهل المدينـة ثم انصرف الى الشام وقد تم له ما أراد وقضى الامر ولم يختلف فيه اثنان

وخطب معاوية قبل مرضـه فقال انى كزرع مستحصد وقد طالت إمرتى عليكم حتى مللتكم ومللتمونى وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى ولن يأتيكم بعـدى الا من أنا خير منه كما أن من قبلى كان خيرا منى وقد قيل من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه اللهـم انى قـد أحببت لقاءك فأحبب لقائى وبارك لى فيه فلم يمض غـير قليل حتى ابتدأ به مرضـه فلما مرض المرض الذى مات فيه دعا ابنه يزيد فقـال يابنى انى قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الامور وذللت لك الاعـداء وأخضعت لك رقاب العـرب وجمعت لك مالم يجمعه أحد فانظر أهل الحجاز فانهم أصلك وأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب وانظر أهل العراق فان سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عامـلا فافعل فان عزل عامل أيسر من أن يشهر عليـك مائة ألف سيف وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فان رابك من عـدوك شئ فانتصر بهم فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم فانهم ان أقاموا بغير بلادهم تغـيرت أخلاقهم وانى لست أخاف عليك أن ينازعك فى هذا الامر الا أربعة نفر من قريش الحسين بن علىّ وعبـد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبـد الرحمن بن أبى بكر فأما ابن عمر فانه رجـل قد وقذته العبادة فاذا لم يبق أحد غيره بايعك وأما الحسين بن علىّ فهو رجل خفيف ولن يتركه أهـل العراق حتى يخرجوه فان خرج وظفرت به فاصفح عنـه فان له رحما ماسـة وحقا عظيمـا وقرابة مع محمد صلى الله عليه وسلم وأما ابن أبى بكر فان رأى أصحابه صنعوا شيأ صنع مثله ليس له همة الا فى النساء واللهو وأما الذى يجثم لك جثوم الاسد ويراوغك مراوغة الثعلب فان أمكنته فرصة وثب فـذاك ابن الزبـير فان هو فعلها بك فظفرت به فقطعه اربا اربا واحقن دماء قومك ما استطعت اهـ قال ابن الاثير الجزرى * ذكر فى هذه الرواية

عبد الرحمن بن أبى بكر وليس ذلك بصحيح فان عبد الرحمن بن أبى بكر كان قد مات قبل معاوية اه وقال بعض أهل التاريخ ان يزيد كان غائبا فى مرض أبيه وموته وان معاوية أحضر الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة المرى فأمرهما أن يؤديا عنه هذه الرسالة الى يزيد ابنه * قلت وهذا هو المشهور * ولما حضرته الوفاة جمع أهله فقال ألستم أهلى قالوا بلى فداك الله بنا فقال وعليكم حزنى ولكم كدى وكسبى فقالوا بلى فداك الله بنا قال فهذه نفسى قد خرجت من قدمى فردوها علىّ ان استطعتم فبكوا وقالوا والله مالنا الى هذا سبيل فرفع صوته بالبكاء ثم قال فمن تغتره الدنيا بعدى * قال بعض أهل التاريخ ولما ثقل به الضعف وتحدث الناس أنه الموت قال لاهله احشوا عينى اثمدا وأسبغوا رأسى دهنا ففعلوا وبرقوا وجهه بالدهن ثم مهدوا له مجلسا وأسندوه وأذنوا للناس فدخلوا وسلموا عليه قياما ولم يجلس أحد فلما خرجوا عنه قالوا هو أصح الناس فقال معاوية عند خروجهم

وتجلدى للشامتين أريهم * انى لريب الدهر لا أتضعضع

فسمعه رجل من العلويين فأجابه

واذا المنية أنشبت أظفارها * ألفيت كل تميمة لا تنفع

قيل انه أوصى أن تدق قلامة أظافر صاحب الشريعة وكانت عنده وتجعل فى منافذ وجهه وان يكفن فى ثوب صاحب الشريعة * ومات بدمشق فى نصف رجب وقيل فى مستهل رجب سنة ستين هجرية أى سنة ستين وثمانمائة ميلادية وصلى عليه الضحاك بن قيس لغيبة الخليفة يزيد ابنه ببيت المقدس واختلف فى عمره فقيل ثمانون وقيل خمس وسبعون سنة وقيل خمس وثمانون وقيل ثمان وثمانون وقيل تسعون سنة * وكانت خلافته منذ خلص له الامر تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام وكان أميرا وخليفة أربعين سنة منها أربع سنين فى خلافة عمر بن الخطاب وكان مليح الشكل عظيم الهيبة وافر الحشمة يلبس الثياب الفاخرة والعدة الكاملة ويركب الخيل المسومة وكان كثير البذل والعطاء محسنا الى رعيته كبير الشأن له فى العلم أخبار كثيرة وهو أول من اتخذ المقاصير وأقام الحرس والحجاب وأول من مشى بين يديه صاحب الشرطة بالحربة وأول من تنعم فى مأكله ومشربه وملبسه وكان حليما يجتمع مع صاحب الشريعة فى عبد مناف بن قصى وينسب الى أمية بن عبد شمس فيقال الأموى

(الفصل الثانى)

(فى خلافة يزيد بن معاوية)

ثم قام بالامر بعد معاوية ابنه يزيد بويع له بالخلافة يوم موت أبيه فى رجب سنة احدى

وستين هجرية أى سنة ثمانين وستمائة ميلادية وقيل سنة ستين هجرية وقد كان بحمص فقدم منها وبادر الى قبر أبيه ثم دخل دمشق الى الخضراء وكانت دارا للسلطنة فخطب الناس بها و بايعوه بالخلافة وكتب الى الآفاق بذلك فبايعوه ولم يبايعه الحسين بن على ولا عبد الله ابن الزبير واختفيا من عامله الوليد بن عقبة بن أبى سفيان وأقاما مصرين على الامتناع وبيان ذلك * أنه لما امتنع الحسين وابن الزبير من البيعة ليزيد خرج الحسين الى مكة فلقيه عبد الله بن مطيع فقال له جعلت فداك أين تريد قال أما الآن فمكة وأما بعد فانى أستخير الله قال خار الله لك وجعلنا فداك فاذا أتيت مكة فاياك أن تقرب الكوفة فانها بلدة مشؤمة بها قتل أبوك وخذل أخوك الزم الحرم فانك سيد العرب لاتعدل بك أهل الحجاز أحدا ويتداعى اليك الناس من كل جانب ولا تفارق الحرم * فسار الحسين الى مكة ونزل بها فكان أهلها يختلفون اليه ويأتونه وعبد الله بن الزبير بها لايريد الا خروج الحسين عنها لأن أهل الحجاز لايبايعون الزبير مادام الحسين باقيا بالبلد * ولما بلغ أهل الكوفة امتناع الحسين ومن امتنع عن مبايعة يزيد وأنه سار الى مكة ونزل بها اجتمع جماعة من كبارهم وكتبوا الى الحسين يقولون * بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليك فانا نحمد اليك الله الذى لاإله سواه * أما بعد فالحمد لله الذى قصم عدوك الجبار العنيد الذى انتزى على هذه الامة فابتزها أمرها وغصبها دنياها وتأمر عليها بغير رضا منها ثم قتل خيارها واستبقى شرارها وانه ليس علينا امام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق والنعمان بن بشير فى قصر الامارة لسنا نجتمع معه فى جمعة ولاعيد ولوبلغنا اقبالك الينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام ان شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته * وسيروه اليه ثم كتبوا كتابا آخر وسيروه بعد ليلتين فكتب الناس معه نحوا من مائة وخمسين صحيفة ثم أرسلوا اليه رسولا ثالثا يحثونه على المسير اليهم فتاقت نفس الحسين عند ذلك الى الامارة وسير مسلم بن عقيل الى الكوفة وأمره بكتمان أمره واللطف فان رأى الناس مجتمعين له عجل اليه بذلك فسار مسلم حتى أدرك الكوفة وأقبلت الشيعة تختلف اليه فبلغ ذلك النعمان بن بشير وهو يومئذ أمير الكوفة فخطب فى الناس وحذرهم من العاقبة وكتب عبدالله بن مسلم من سعيد الحضرمى حليف بنى أمية الى يزيد يعلمه بخبر قدوم مسلم بن عقيل الكوفة ومبايعة الناس له ويقول له ان كان لك فى الكوفة حاجة فابعث اليها رجلا قويا ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك فى عدوك فان النعمان ضعيف أوهو يتضعف فخلع يزيد النعمان وولى عبيدالله بن مرجانة فسار اليها وتمكن من مسلم بن عقيل فقتله وأعلم يزيد بالخبر فسر به جدا وكتب اليه يقول بلغنى أن الحسين قد توجه نحو العراق فضع المراصد والمسالح واحترئ واحبس على التهمة وخذ على الظنة غير أن لاتقتل الا من قاتلك * ولما أراد الحسين المسير الى الكوفة حسب كتب أهل العراق أتاه الكثير من أشياعه يسألونه العدول عن المسير ويحذرونه العاقبة فلم يقبل وسار وهو لايعلم ماجرى بمسلم بن عقيل وبينما هو فى طريقه الى الصفاح اذ لقيه الفرزدق

الشاعر

الشاعر فقال له أعطاك الله سؤلك وأملك فيما تحب فقال له الحسين بين لى خبر الناس خلفك فقال الخبير سألت قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء * فقال الحسين صدقت لله الامر يفعل مايشاء وكل يوم ربنا فى شأن ان نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه وهو المستعان على أداء الشكر وان حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد من كان الحق نيته والتقوى سريرته

وجعل الحسين يرسل الرسل وهو فى الطريق الى أهل الكوفة يعرفهم بقدومه ويأمرهم بالجد فى أمرهم فكان أصحاب يزيد يقبضون عليهم فيقتلونهم وجاء الخبر الى الحسين بمقتل ابن عقيل بالثعلبية فتكدر جدا ووثب بنو عقيل مع الحسين يطلبون بثار عقيل وأتاه أيضا خبر مقتل أخيه من الرضاعة عبدالله بن يقطر وكان سرحه الى مسلم بن عقيل من الطريق وهو لايعلم بقتله فأخذته خيل الحصين وأعلم الحسين الناس بخبر قتل أخيه من الرضاعة ومسلم بن عقيل وقال قد خذلنا شيعتنا فمن أحب أن ينصرف فلينصرف ليس عليه منا زمام فتفرقوا يمينا وشمالا حتى بقى فى أصحابه الذين جاؤا معه من مكة فلما سار من شراف وانتصف النهار كبر رجل من أصحابه فقال له مم كبرت قال رأيت النخل * يريد نخل العلفة وانهم قريبون فيها * فقال رجل من بنى أسد مابهذه الارض نخلة قط فقال الحسين فما هو قال هى هوادى الخيل فقال الحسين وأنا أيضا أراه ذلك أما لنا ملجأ نلجأ اليه نجعله فى ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد ثم مال بمن معه الى ذو حسم وهو جبل هنالك فلم يكن بأسرع من أن ظهر أصحاب يزيد وهم ألف فارس فوقفوا مقابل الحسين وأصحابه فى نحر الظهيرة وكان مقدّم قوم يزيد الحر بن يزيد التميمى فوقع بينه وبين الحسين كلام مماهم فيه ثم سار الفريقان كل فى ناحية حتى أتى الحسين قرية اسمها العقر فنزل بها هو ومن معه وذلك يوم الخميس الثانى من المحرم سنة احدى وستين فلما كان الغد قدم عليهم عمر بن سعد ابن أبى وقاص من الكوفة فى أربعة آلاف وجاء عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس من قبل اليزيد من مرو فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وبين الماء وذلك قبل قتل الحسين بثلاثة أيام فلما اشتد العطش على الحسين وأصحابه أمر أخاه العباس بن علىّ فسار فى عشرين راجلا يحملون القرب وثلاثين فارسا فدنوا من الماء فقاتلوا عليه وملؤا القرب وعادوا ثم بعث الحسين الى عمر بن سعد عمرو بن قرظة بن كعب الانصارى أن القنى الليلة بين عسكرى وعسكرك فخرج اليه عمرو فاجتمعا وتحادثا طويلا ثم انصرف كل واحد منهما الى عسكره فتحدث الناس فى ذلك وقالوا ان الحسين قال لعمر اختاروا منى واحدة من ثلاث اما أن أرجع الى المكان الذى أقبلت منه أو أضع يدى فى يد يزيد بن معاوية فيرى فيما بينى وبينه رأيه واما أن تسيروا بى الى أىّ ثغر من ثغور المسلمين شئتم فأكون رجلا من أهله لى مالهم وعلىّ ماعليهم فكتب عمر الى ابن زياد عامل يزيد يعلمه بالخبر ويسأله أن يجاوب الحسين الى خصلة من هذه الثلاث فلما علم ابن زياد مافى كتاب عمر وقد حرضه شمر بن ذى الجوشن

على أن لايمكّن الحسين من شئ مما سأل كتب ابن زياد الى عمر يقبح فعله ويقول له انى لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه ولا لتطاول ولا لتقعد له عندى شافعا انظر فان نزل هو وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعثه الىّ سالما وان أبوا فازحف اليهم واقتلهم ومثل بهم فان قتل الحسين فأوطئ الخيل صدره فانه عاق شاق قاطع ظلوم أوتعتزل ويكون الامر لذى شمر وسلم الكتاب لشمر المذكور فلما جاء عمر الكتاب ركب والناس معه بعد العصر وساروا الى الحسين فأرسل لهم الحسين العباس فى عشرين فارسا فتقررت القاعدة بينهم على أن يلتقوا فى غداة غد فافترقوا على ذلك وباتوا ليلتهم تلك فلما كانت عشية الليلة سمعته أخته زينب وهو فى خباء له يقول وعنده حوىّ مولى أبى ذر الغفارى يعالج سيفه

يادهر أف لك من خليل * كم لك بالاشراق والاصيل

من صاحب أو طالب قتيل * والدهر لايقنع بالبديل

وانما الامر الى الجليل * وكل حىّ سالك السبيل

فاعادها مرتين أو ثلاثا فلما سمعته لم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها حتى انتهت اليه وصاحت واثكلاه ليت الموت أعدمنى الحياة اليوم ماتت فاطمة أمى وعلى أبى والحسين أخى ياخليفة الماضى وثمال الباقى * فلما سمعها قام اليها وقال يا أخية لايذهبن حلمك الشيطان فقالت بأبى أنت وأمى استقتلت نفسى لنفسك الفداء فترقرقت عيناه وقال لوترك القطا لنام فلطمت وجهها وقالت واو يلتاه أفتغصبك نفسك اغتصابا فذلك أقرح لقلبى وأشد على نفسى ثم لطمت وجهها وشقت جيبها وخرت مغشية عليها فقام الحسين فصب الماء على وجهها وقال اتقى الله وتعزى بعزاء الله واعلمى أن أهل الارض يموتون وأهل السماء لايبقون وان كل شئ هالك الاوجه الله أبى خير منى وأمى خير منى وأخى خير منى ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة ثم قال لها يا أخية انى أقسم عليك لاتشقى علىّ جيبا ولاتخمشى علىّ وجها ولا تدعى علىّ بالويل والثبور ان أنا هلكت * وأصبح الحسين وقد أمر أصحابه أن يقربوا بعض بيوتهم من بعض وأن يدخلوا الاطناب بعضها فى بعض ويكونوا بين أيدى البيوت فيستقبلون القوم من وجه واحد والبيوت على أيمانهم وعن شمائلهم ومن ورائهم وباتوا ليلتهم تلك وفى غداة السبت وقيل الجمعة يوم عاشوراء خرج عمر بن سعد فيمن معه من الناس وعبى الحسين أصحابه وهم اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا فجعل زهير بن القيس فى ميمنة أصحابه وحبيب بن مطهر فى ميسرتهم وأعطى رايته العباس أخاه وجعلوا البيوت فى ظهورهم ثم ركب دابته ودعا بمصحف فوضعه أمامه ونادى الحسين عمر وأصحابه ونهاهم عن قتاله وبالغ فى النهى وقال دعونى أنصرف الى مأمنى من الارض فقال له قيس بن الاشعث أولاتنزل على حكم ابن عمك يعنى ابن زياد فانك لن ترى الا ماتحب فقال له الحسين أنت أخو أخيك أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم ابن عقيل لاوالله ولا أعطيهم بيدى عطاء الذليل ولاأقر اقرار العبد ثم التفت الى القوم وقال

عباد الله انى عذت بربى وربكم أن ترجمونى أعوذ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ثم أناخ راحلته ونزل عنها وخرج زهير بن القين أحد أصحابه على فرس له فى السلاح فقال مقالة طويلة ونهى أصحاب يزيد عن القتال وجعل يعرّض بذكر ابن زياد ويسبه فغضب القوم ومالوا على زهير بالسب والشتم وقالوا والله لانبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه ونبعث به وبأصحابه الى الامير عبيدالله بن زياد

ورتب عمر أصحابه وأحكم ترتيبهم ثم اشتبك القتال بين الفريقين وحمى الوطيس وكثر الرمى بالنبال والحجارة وسالت الدماء وحملت رجال عمر بن سعد على أصحاب الحسين فأعملوا فيهم السيف حتى أفنوهم واشتد العطش بالحسين فدنا من الفرات ليشرب فرماه حصين بن نمير بسهم فوقع فى فمه فجعل يتلقى الدم بيده ورمى به الى السماء وقال اللهم انى أشكو اليك مايصنع بابن بنت نبيك اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولاتبق منهم أحدا ثم ان شمر ابن ذى الجوشن أقبل فى نفر نحو العشرة من رجالهم نحو منزل الحسين فحالوا بينه وبين رحله وأحاطوا بالحسين وهو يطاردهم ويدفعهم عنه فنادى شمر فى الناس ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم فحملوا عليه من كل جانب وطعنه سنان بن أنس النخعى برمح فوقع يتخبط فى دمه ونزل اليه فذبحه وأخذ رأسه فرفعه الى خولى وسلب الحسين ما كان عليه ومال الناس على الفرش والحلل والابل فانتهبوها ونهبوا ثقله ومتاعه وما على النساء حتى ان كانت المرأة لتنزع ثوبها من ظهرها فيؤخذ منها ووجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية ثم انتهوا الى علىّ بن الحسين زين العابدين فأراد شمر قتله فمنع عمر بن سعد قتله ومنع الناس من الدخول الى بيوت النساء وانتدب عمر بن سعد المذكور عشرة من أصحابه فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره وكان عدة من قتل مع الحسين من أصحابه اثنين وسبعين رجلا منهم من أولاد علىّ أربعة العباس وجعفر ومحمد وأبو بكر ومن أولاد الحسين أربعة ثم ان عبيدالله بن زياد جهز علىّ بن الحسين ومن كان مع الحسين من النساء الى يزيد بن معاوية وهو يومئذ بدمشق مع شمر بن ذى الجوشن فى جماعة من أصحابه فساروا حتى قدموا دمشق ودخلوا على يزيد بن معاوية ومعهم رأس الحسين فرمى به بين يدى يزيد ثم تكلم شمر بن ذى الجوشن فقال ياأمير المؤمنين ورد علينا هذا يعنى الحسين فى ثمانية عشر رجلا من أهل بيته وستين من شيعته فسرنا اليهم وسألناهم النزول على حكم أميرنا عبيدالله بن زياد أو القتال فاختاروا القتال فغدونا عليهم عند شروق الشمس وأحطنا بهم من كل جانب فلما أخذت السيوف مأخذها جعلوا يلوذون كما يلوذ الحمام من الصقور فما كان الامقدار جزر جزور أونومة قائل حتى أتينا على آخرهم فهاتيك أجسادهم مجردة وثيابهم مرملة وخدودهم معفرة تسفى عليهم الرياح زوارهم العقبان ووفودهم الرخم

فلما سمع يزيد ذلك دمعت عيناه وقال ويحكم قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل

الحسين لعن الله ابن مرجانة أما والله لو كنت صاحبه لعفوت عنه ثم قال يرحم الله أبا عبد الله وتمثل بقول الشاعر

يفلقن هاما من رجال أعزة * علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ثم أمر بالذرية فادخلوا دار نسائه وكان يزيد اذا حضر غداؤه دعا عليّ بن الحسين وأخاه عمر بن الحسين فأكلا معه ثم وجه الذرية صحبة عليّ بن الحسين الى المدينة ووجه رجلا في ثلاثين فارسا يسير أمامهم حتى انتهوا الى المدينة * قال أصحاب التاريخ * وكان بين وفاة صاحب الشريعة وبين اليوم الذى قتل فيه الحسين خمسون عاما وقيل ان الحسين لما وصل كربلا سأل عن اسم المكان فقيل له كربلا فقال ذات كرب وبلاء لقد مر أبي بهذا المكان عند سيره الى صفين وأنا معه فوقف وسأل عنه فأخبروه باسمه فقال ههنا محط رحالهم وههنا مهراق دمائهم فسئل عن ذلك فقال نفر من آل محمد ينزلون ههنا ثم أمر بأثقاله فحطت في ذلك المكان * وكان قتل الحسين يوم عاشوراء سنة ستين للهجرة وقيل احدى وستين أي نحو سنة ثمانين وستمائة ميلادية ذكره أبو حنيفة في الاخبار الطوال وقتل مع الحسين في هذه الواقعة سبعون رجلا وقتل معه العباس بن عليّ وأمه أم البنين بنت حزام وقتل جعفر بن علي وأمه أم البنين أيضا وقتل عبدالله بن علي وأمه أم البنين أيضاوقتل عثمان بن عليّ وأمه أم البنين أيضا وقتل محمد بن عليّ وأمه أم ولد وقتل أبو بكر بن عليّ وأمه ليلى بنت مسعود الدارمية وقتل عليّ بن الحسين بن عليّ وأمه ليلى ابنة أبي مرة بن عروة الثقفي وقتل عبدالله بن الحسين بن عليّ وأمه الرباب ابنة امرئ القيس الكلبي وقتل أبو بكر ابن أخيه الحسن وقتل القاسم بن الحسن وقتل عون بن أبي جعفر بن أبي طالب وقتل محمد ابن عبد الله بن جعفر وقتل جعفر بن عقيل بن أبي طالب وقتل عبد الرحمن بن عقيل وقتل عبد الله بن عقيل وقتل مسلم بن عقيل بالكوفة كما تقدم القول وقتل عبد الله بن مسلم بن عقيل وقتل محمد بن أبي سعيد بن عقيل * وفي هذه السنة أي سنة ستين دعا ابن الزبير الى نفسه بالخلافة بمكة وعاب يزيد بشرب الخمر واللعب بالكلاب والتهاون بالدين وأظهر ثلبه وتنقصه فبايعه أهل تهامة والحجاز * فلما بلغ يزيد ذلك ندب له الحصين بن نمير السكوني وروح بن زنباع الجذامي وضم الى كل واحد جيشا واستعمل على الجميع مسلم بن عقبة المزي وجعله أمير الامراء ولما ودعهم قال يامسلم لاتردّون أهل الشام من شئ يريدونه بعدوهم واجعل الطريق على المدينة فان حاربوك فحاربهم فان ظفرت بهم فأبحها ثلاثا فسار مسلم بن عقبة حتى نزل الحرة فخرج أهل المدينة وعسكروا بها وأميرهم عبد الله بن حنظلة وهو غسيل الملائكة فدعاهم مسلمة ثلاثا فلم يجيبوه فقاتلهم فغلب أهل الشام وقتلوا أمير المدينة عبد الله بن حنظلة وسبعمائة من المهاجرين والانصار ودخل مسلم المدينة وأباحها ثلاثة أيام ثم شخص بالجيش الى مكة وكتب الى يزيد بما صنع بالمدينة فلما بلغ مسلم (هرشى) اعتل ومات فتولى امرة الجيش الحصين بن نمير السكوني فسار حتى

وافى

وافى مكة فتحصن منه ابن الزبير فى المسجد الحرام بجميع من كان معه فنصب الحصين المنجنيق على أبى قبيس ورمى به الكعبة فبينما هم كذلك إذ ورد الخبر للحصين بموت يزيد بن معاوية فأرسل الى ابن الزبير يسأله الموادعة فأجابه الى ذلك وفتح الابواب واختلط العسكران يطوفان بالبيت فبينما الحصين يطوف ليلة بعد العشاء اذ استقبله ابن الزبير فأخذ الحصين بيده وقال له سرًّا هل لك فى الخروج معى الى الشام فأدعو الناس الى بيعتك فان أمرهم قد فرج ولا أدرى أحدا أحق بها اليوم منك ولست أعصى هناك فاجتذب ابن الزبير يده وقال وهو يجهر بقوله دون أن أقتل بكل واحد من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام فقال الحصين لقد كذب الذى يزعم أنك من دهاة العرب أكلمك سرا فتكلمنى علانية وأدعوك الى الخلافة وتدعونى الى الحرب ثم انصرف بمن معه الى الشام

ومات يزيد بن معاوية فى ربيع الاول سنة أربع وستين أى سنة ثلاث وثمانين وستمائة للميلاد ودفن بمقبرة باب الصغير وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر وقيل وثمانية أشهر وترك من البنين أحد عشر ذكرا لامهات شتى * ومما يحكى عن نجابته وشدة حذقه ماقاله محمد بن عبيد الله بن عمرو العتبى قال * نظر معاوية ومعه امرأته ابنة قرظة الى يزيد وأمه ترجله فلما فرغت منه قبلته فقالت ابنة قرظة لعن الله سواد ساقى أمك فقال معاوية أما والله لما تفرجت عنه وركاها خير مما تفرجت عنه وركاك وكان لمعاوية من ابنة قرظة عبد الله وكان أحمق فقالت له لا والله ولكنك تؤثر هذا فقال سوف أبين لك ذلك فأمر فدعى له عبدالله فلما حضر قال أى بنىّ انى أردت ان أعطيك ماأنت أهله ولست بسائل شيأ الا أجبتك اليه فقال حاجتى أن تشترى كلبا فارها وحمارا فقال أى بنىّ أنت حمار وأشترى لك حمارا قم فاخرج * ثم أحضر يزيد وقال له مثل قوله لاخيه فخر ساجدا ثم قال حين رفع رأسه الحمد لله الذى بلغ أمير المؤمنين هذه المدة وأراه فى هذا الرأى حاجتى أن تعتقنى من النار لان من ولى أمر الامة ثلاثة أيام أعتقه الله من النار فتعقد لى العهد بعدك وتولينى العام الصائفة وتأذن لى فى الحج اذا رجعت وتولينى الموسم وتزيد لاهل الشام كل رجل عشرة دنانير وتفرض لايتام بنى جمح وبنى سهم وبنى عدى لانهم حلفائى * فقال معاوية قد فعلت وقبل وجهه ثم نظر الى امرأته ابنة قرظة وقال كيف رأيتى فقالت أوصه به ياأمير المؤمنين قيل ففعل * وله لطائف أخرى واستعمل فى أيامه على مصر فى أواخر سنة اثنتين وستين سعيد بن يزيد بن علقمة الازدى فبقى الى خلافة الزبير وعزل

ومات فى أيامه أغاثو بطرك الاسكندرية تاسع ثلاثيهم بعد أن أقام سبع عشرة سنة ولم يحدث فى أيامه شئ يذكر فأقيم بعده يوحنا وهو الاربعون من بطاركتهم وأصله من مدينة سمنود وفى أيامه صارت الشدة على النصارى وعظم عليهم الخطب واشتد الكرب وكثر البلاء وتتبعهم أهل الفساد بالقتل والنهب والسلب فكان حازما وقورا صبورا لايتزعزع حسن السياسة كثير التفكر

ولما مات يزيد تولى الخلافة بعده ابنه معاوية

(الفصل الثالث)

(فى خلافة معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان)

ثم قام بالامر بعد يزيد معاوية ابنه بويع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة أربع وستين هجرية أى نحو ثلاث وثمانين وستمائة ميلادية فأقام فيها أربعين يوما وكان خيرا من أبيه فيه دين وعقل وقيل أقام خمسة أشهر وأياما ثم خلع نفسه عن رضا ورغبة * قال أصحاب التاريخ * ان معاوية بن يزيد هذا لما خلع نفسه صعد المنبر فجلس طويلا ثم حمد الله وأثنى عليه بأبلغ مايكون من الحمد والثناء ثم ذكر النبى بأحسن مايذكر به ثم قال * أيها الناس ماأنا بالراغب فى الائتمار عليكم لعظيم ما أكرهه منكم وانى لأعلم أنكم تكرهوننا أيضا لانا بلينا بكم وبليتم بنا الا أن جدى معاوية رضى الله عنه قد نازع فى هذا الامر من كان أولى به منه ومن غيره لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعظم فضله وسابقته أعظم المهاجرين قدرا وأشجعهم قلبا وأكثرهم علما وأولهم ايمانا وأشرفهم منزلة وأقدمهم صحبة ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره وأخوه زوجه صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة وجعله لها بعلا باختياره لها وجعلها له زوجة باختيارها له أبو سبطيه وسيدى شباب أهل الجنة وأفضل هذه الامة تربية الرسول وابنى فاطمة البتول من الشجرة الطيبة الطاهرة الزكية فركب جدى معه ماتعلمون وركبتم معه مالا تجهلون حتى انتظمت لجدى الامور فلما جاءه القدر المحتوم واخترمته أيدى المنون بقى مرتهنا بعمله فريدا فى قبره ووجد ماقدمت يداه ورأى ماارتكبه واعتداه ثم انتقلت الخلافة الى يزيد أبى فتقلد أمركم لهوى كان أبوه فيه ولقد كان أبى يزيد بسوء فعله واسرافه على نفسه غير خليق بالخلافة على أمة محمد فركب هواه واستحسن خطاه وأقدم على ماأقدم من جراءته على الله وبغيه على من استحل حرمته من أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت مدته وانقطع أثره وراجع عمله وصار حليف حفرته رهين خطيئته وبقيت أوزاره ومعايبه وحصل على سدم وندم حيث لاينفعه الندم وشغلنا الحزن له عن الحزن عليه فليت شعرى ماذا قال وماذا قيل له هل عوقب باساءته وجوزى بعمله وذلك ظنى * ثم اختنقته العبرة فبكى طويلا وعلا نحيبه * ثم قال وصرت أنا ثالث القوم والساخط على أكثر من الراضى وما كنت لاتحمل آثامكم ولا يرانى الله جلت قدرته متقلدا أوزاركم وألقاه بتبعاتكم فشأنكم أمركم فخذوه ومن رضيتم به عليكم فولوه فلقد خلعت بيعتى من أعناقكم والسلام * فقال له مروان بن الحكم وكان تحت المنبر أسنة عمرية ياأباليلى * فقال اعزب عنى أعن دينى تخدعنى فوالله ماذقت حلاوة خلافتكم حتى أتجرع مرارتها ايتنى برجل مثل رجال عمر رضى الله تعالى عنه على أنه ما كان من حين جعلها شورى وصرف بها عمن لايشك فى عدالته ظلوما والله لئن كانت الخلافة مغنما لقد نال أبى منها

مغرما

مغرما ومأثما ولئن كانت سوأ فحسبه منا ما أصابه * ثم نزل فدخل عليه أقاربه وأمه فوجدوه يبكى فقالت له أمه * ليتك كنت حيضة ولم أسمع بخبرك * فقال وددت والله ذلك * ثم قال ويلى ان لم يرحمنى الله * ثم ان بنى أمية قالوا لمؤدبه عمر المقصوص أنت علمته هذا ولقنته اياه وصرفته عن الخلافة وزينت له حب على وأولاده وحملته على ماوسمنا به من الظلم وحسنت له البدع حتى نطق بما نطق وقال بما قال فقال والله مافعلته ولكنه مجبول ومطبوع على حب على فلم يقبلوا منه ذلك وأخذوه ودفنوه حيا حتى مات

وتوفى معاوية بن يزيد بعد خلعه نفسه باربعين ليلة وقيل بتسعين وكان عمره ثلاثا وعشرين سنة وقيل احدى وعشرين سنة وقيل ثمان عشرة ولم يعقب واجتمع بنو أمية وانتخبوا مروان بن الحكم ليقوم بالامر بعده وكان ذلك فى سنة أربع وستين للهجرة

(الفصل الرابع)

(فى خلافة مروان بن الحكم المعروف بالطريد)

ثم قام بالامر بعد معاوية مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بويع له بالخلافة بالجابية سنة أربع وستين للهجرة أى سنة ثلاث وثمانين وستمائة للميلاد ثم دخل الشام فاذعن أهلها له بالطاعة وكان يقال له ابن الطريد لان صاحب الشريعة كان قد طرد أباه الى الطائف ورده عثمان حين ولى وكان مروان قد لحق صاحب الشريعة وهو صبى وولى نيابة المدينة مرات وهو قاتل طلحة أحد العشرة وكان كاتب السر لعثمان وبسببه جرى عليه ما جرى كما تقدم الكلام عنه * ولما بويع لمروان بالشام قام أهل مكة بمبايعة عبدالله بن الزبير وكان مروان وقتئذ بالمدينة فقصد السير الى عبدالله وممانعته ثم سار مع من سار من بنى أمية الى الشام * وبايع لابن الزبير أهل البصرة واجتمعت له أهل الحجاز واليمن وبعث الى بلاد العراق فبايعه أهلها وبايع له فى الشام سرا الضحاك بن قيس وبحمص النعمان بن بشير الانصارى وبقنسرين زفر بن الحارث قال بعض أهل التاريخ ولو صانع الزبير بنى أمية قليلا لاستقر له الامر * وكان ابن الزبير شجاعا كثير العبادة هذا ما كان من أمر ابن الزبير * أما ماكان من أمر بنى أمية فانهم لم يقبلوا به وكان مروان كما تقدم القول بالشام فاجتمع بنو أمية وافترق أهل الشام الى يمانية مع مروان والى قيسية مع الضحاك بن قيس وجرت بينهما أمور يطول شرحها ثم اقتتلوا بمرج راهط قتالا شديدا فانهزم الضحاك وأصحابه شر هزيمة وقتل كثير من فرسان قيس وقتل الضحاك وقتل معه أيضا ثمانون رجلا من أشراف أهل الشام وذلك فى المحرم سنة خمس وستين وقيل فى أواخر سنة أربع وستين ودخل * مروان دمشق وذهب الى دار الخلافة واجتمع اليه الناس وانحاز له زفر بن الحرث وكان بقنسرين يبايع لابن الزبير

واستوثق الشام لمروان والحجاز والعراق واليمن لابن الزبير فلما استقر مروان بالشام ودانت له أمورها سار الى مصر فقدمها وعليها عبد الرحمن بن جحدم القرشي يدعو الى ابن الزبير فخرج الى مروان فيمن معه فبعث مروان عمرو بن سعيد من وراء عبد الرحمن حتى دخل مصر فأمسى عبد الرحمن وكأنه بين منتطح عنزين فلما أحس بذلك رجع خائبا فبايع الناس مروان ودانت له الامور بمصر أيضا كما دانت له بالشام

وفي هذه الايام هدم ابن الزبير الكعبة وحفر أساسها وأدخل الحجر الاسود فيها وأعادها الى ما كانت عليه فأمر مروان قومه بان لا يحجوا الى هنالك بل الى جامع عمر بالقدس وانقسم عرب الشام مع مروان وبني فاطمة فقام مروان ومزق الفاطميين وأبادهم وتفرغ لحرب الشيعة من العجم فبددهم أيضا من سهول عين ومازال حتى استتب له الامر ودانت له المصاعب * فلما كانت سنة خمس وستين هجرية رسم بالبيعة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز وكان السبب في ذلك أن عمرو بن سعيد بن العاص لما هزم مصعب بن الزبير عند ماوجهه أخوه عبد الله الى الشام لقتال معاوية ومن معه من الاحزاب ورجع عمرو الى دمشق ظافرا غانما بلغ مروان أن عمرا يقول ان الامر لي من بعد مروان فأكبر ذلك جدا وأرسل في طلب حسان بن مالك بن بحدل فلما حضر اليه أخبره بخبر عمرو ومايقوله وقال اني أريد أن أبايع ولدي عبد الملك وعبد العزيز فقال له حسان أنا أكفيك عمرا فلما اجتمع الناس عند مروان عشيا قال * انه قد بلغنا أن رجالا يتمنون أماني * قوموا فبايعوا لعبد الملك وعبد العزيز من بعده فقاموا جميعا لساعتهم وبايعوا عن آخرهم وكان مروان قبلا قد حلف أنه يعهد لخالد بن يزيد فعتب عليه خالد فغضب وسماه ابن زانية وكان مروان متزوجا بام خالد بن يزيد المذكور فقام خالد ودخل على أمه فاخبرها بما كان من مروان فقالت له لايعلمن ذلك منك الا أنا أنا أكفيكه فدخل عليها مروان فقال لها هل قال لك خالد في شيأ فقالت لا انه أشد لك تعظيما من أن يقول فيك شيأ فصدقها ولبث أياما * ثم انه نام عندها ليلة فقامت عليه ووضعت على وجهه رداء مشربا بالسم وفوق الرداء وسادة ثم جلست فوقها حتى مات فكانت خلافته عشرة أشهر وقيل تسعة أشهر وعمره ثلاث وستون سنة وقيل احدى وستون سنة * روى الحاكم في كتاب الفتن والملاحم من المستدرك عن عبد الرحمن بن عوف قال * كان لايولد لاحد مولود الا أتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدعو له فأدخل عليه مروان بن الحكم فقال هو الوزغ ابن الوزغ الملعون بن الملعون اه وكان مروان قصيرا أحمر أوقص يكنى أبا الحكم وأبا عبد الملك قيل وأعتق في يوم واحد مائة رقبة وهو أول من قدم الخطبة في صلاة العيد قبل الصلاة ولما مات بويع لولده عبد الملك في اليوم الذي مات فيه

(الفصل)

(الفصل الخامس)

﴿ في خلافة عبد الملك بن مروان ﴾

ثم قام بالامر بعد مروان ابنه عبد الملك بويع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة ست وستين للهجرة أى سنة خمس وثمانين وستمائة للميلاد وهو أول من سمى بعبد الملك فى الاسلام وأول من ضرب الدراهم والدنانير بسكة الاسلام وكان على الدنانير قبل ذلك نقش بالرومية وعلى الدراهم نقش بالفارسية * قيل انه لما أتته الخلافة كان قاعدا والمصحف فى حجره فأطبقه وقال هذا آخر العهد بك * وكان عامله بمصر أخوه عبد العزيز بطاعة عبد الملك ولم يكد يستتب له الامر بالشام ومصر حتى خرج فى سنة ست وستين المختار من العلوية بالكوفة وأراد الاخذ بثار الحسين فبايعه الناس واجتمع اليه خلق كثير واستولى على الكوفة وأراد الاخذ بدم أهل البيت وطلب شمر بن ذى الجوشن فظفر به وقتله وأحاط بدار خولى الاصبحى صاحب رأس الحسين وقتله وأحرقه بالنار ثم قتل عمرو بن سعد بن أبى وقاص صاحب الجيش الذى قتل الحسين وقتل جعفر بن عمرو المذكور وبعث برأسيهما الى محمد بن الحنفية بالحجاز واتخذ له كرسيا وادّعى أن فيه من السر ما كان فى تابوت عهد بنى اسرائيل ومن خبر هذا الكرسى ماهو غريب * قال الطفيل بن جعدة بن هبيرة أضقنا اضاقة شديدة * يعنى أنه كان فى حاجة للقوت * فخرجت يوما فاذا جار لى زيات عنده كرسى ركبه الوسخ فقلت فى نفسى لو قلت للمختار فى هذا شيأ فأخذته من الزيات وغسلته فخرج عود نضار قد شرب الدهن وهو يبض قال الراوى فقلت للمختار انى كنت أكتمك شيأ وقد بدالى أن أذكره لك * ان أبى جعدة كان يجلس على كرسى عندنا ويروى أن فيه أثرا من علىّ قال سبحان الله أخرته الى هذا الوقت ابعث به فأحضرته عنده وقد غشى فامر لى باثنى عشر ألفا ثم دعا الصلاة جامعة فاجتمع الناس فقال المختار انه لم يكن فى الامم الخالية أمر الا وهو كائن فى هذه الامة مثله وانه كان فى بنى اسرائيل التابوت وان هذا فينا مثل التابوت فكشفوا عنه وقامت السبئية فكبروا ثم لم يلبثوا أن أرسل المختار الجند لقتال ابن زياد وخرج بالكرسى على بغل وقد غشى فقتل أهل الشام مقتلة عظيمة فزادهم ذلك فتنة وكبر اعتقادهم فى ذلك الكرسىّ وارتفعوا حتى تعاطوا الكفر قال ابن جعدة فندمت على ماصنعت اه ثم أرسل المختار عسكرا لقتال عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان وكان عبيد الله واليا على البصرة فولاه يزيد على الكوفة فقدم عليها ليرى ما كان الناس عليه وهو الذى قتل مسلم بن عقيل بن أبى طالب الذى كان الحسين قد أرسله الى الكوفة ليأخذ له البيعة كما تقدّم بيان هذا كله فى محله وكان المختار قد استولى على الموصل لما أرسل لقتال عبيد الله وقدّم على الجيش ابراهيم بن الاشتر فاقتتلوا قتالا شديدا وانهزم أصحاب ابن زياد وقتل وكان القاتل له ابراهيم المذكور وأخذ رأسه ثم أحرقوا جثته بالنار ورميت بالتراب

وولى ابن الزبير أخاه مصعبا على البصرة فاستدعى مصعب المهلب بن أبي صفرة من خراسان فأتاه بمال ورجال كثيرة وسارا الى قتال المختار وحصراه فى قصر الامارة بالكوفة وما زالا يقاتلانه حتى قتل المختار وأصحابه وكانوا سبعة آلاف وكان عبد الملك بن مروان يراقب الفرص ويتحين انتهازها فلما علم بظفر مصعب وقتله للمختار خشى استفحال أمر مصعب واتساع كلمته فتجهز وسار فى جيش عظيم الى العراق فالتقى الجمعان واقتتلا وكان أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك سرا فتخلفوا عن مصعب وقتل مصعب وابنه بدير الجاثليق عند نهر دجيل وله من العمر ست وثلاثون سنة وكان مصعب هذا صديق عبد الملك قبل خلافته فدخل عبد الملك الكوفة وبايعه الناس واستوثق ملك العراق واستناب عليها أخاه بشر بن مروان وكر راجعا الى دمشق ثم جهز الحجاج بن يوسف الثقفى فى جيش لحرب ابن الزبير وكان السبب فى تسيير الحجاج المذكور دون غيره أن الحجاج قال لعبد الملك قد رأيت فى المنام انى أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته فابعثنى اليه وولنى قتاله فبعثه فى ثلاثة آلاف من أهل الشام وكتب معه أمانا لابن الزبير ومن معه ان أطاعوا فسار فى جمادى الاولى سنة اثنتين وسبعين ولم يتعرض للمدينة ونزل الطائف فكان يبعث الخيل الى عرفة ويبعث ابن الزبير أيضا فيقتتلون بعرفة فتنهزم خيل ابن الزبير فى كل ذلك وتعود خيل الحجاج بالظفر ثم كتب الحجاج الى عبد الملك يستأذنه فى دخول الحرم وحصر ابن الزبير ويخبره بضعفه وتفرق أصحابه ويستمده فكتب عبد الملك الى طارق يأمره باللحاق بالحجاج فقدم المدينة فى ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين وأخرج عامر بن الزبير عنها وجعل عليها رجلا من أهل الشام اسمه ثعلبة فكان ثعلبة يخرج المخ وهو على منبر صاحب الشريعة ثم يأكله ويأكل عليه التمر ليغيظ أهل المدينة وكان مع ذلك شديدا على أهل الزبير * وقدم طارق على الحجاج بمكة فى سلخ ذى الحجة فى خمسة آلاف فحاصر الحجاج ومن معه ابن الزبير ونصب المنجنيق على أبى قبيس وهو جبل هنالك ورمى به الكعبة وحج ابن عمر تلك السنة فأرسل الى الحجاج يقول اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس فانك فى شهر حرام وبلد حرام وقد منعت الناس عن الطواف فبطل الرمى حتى عاد الناس من عرفات وطافوا وسعوا فنادى منادى الحجاج انصرفوا الى بلادكم فانا نعود بالحجارة على ابن الزبير الملحد فكانت الحجارة تقع بين يدى ابن الزبير وهو يصلى فلا ينصرف وكان أهل الشام يقولون عند الرمى بالمنجنيق هذه العبارة

* يا ابن الزبير طالما عصيكا * وطالما عنيتنا اليكا * لتجزين بالذى أتيكا *

يعنون عصيت وأتيت * وطال القتال بين الفريقين واشتد الشاميون أصحاب الحجاج على ابن الزبير وأصحابه فغلت الاسعار عنده وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح فرسه وقسم لحمها فى أصحابه وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم والمد الذرة بعشرين درهما وكانت بيوت ابن الزبير مملوءة قمحا وشعيرا وذرة وتمرا * وكان أهل الشام ينتظرون فناء ما عنده وكان يحفظ ذلك ولا ينفق منه الا ما يمسك الرمق ويقول نفوس أصحابى قوية مالم يفن * فلما كان

قبيل

قبيل مقتله تفرق الناس عنه وخرجوا الى الحجاج بالامان فكانوا نحو عشرة آلاف فلما تفرق أصحابه عنه خطب الحجاج الناس وقال * قدترون قلة من معابن الزبير وماهم عليه من الجهد والضيق ففرح أصحاب الحجاج واستبشروا وتقدموا فملؤا مابين الحجون الى الابواء فقال ابن الزبير الامر ودخل على أمه فقال ياأماه قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ولم يبق معى الا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطوننى ماأردت من الدنيا فما رأيك فقالت أنت أعلم بنفسك ان كنت تعلم أنك على حق واليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولاتمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية وان كنت انما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قاتل معك وان قتلت كنت على حق فلما وهن أصحابك ضعفت فهذا ليس فعل الاحرار ولا أهل الدين كم خلودك فى الدنيا القتل أحسن فقال ياأماه أخاف ان قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى قالت يابنى ان الشاة لاتتألم بالسلخ فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبل رأسها وخرج يقاتل الحجاج وطارقا وأصحابهما فكانت مدة القتال أربعة أشهر وقيل سبعة وبينما هو يحمل عليهم سقطت عليه شرافة من شراريف المسجد فخر منها فبادروا اليه واحتزوا رأسه وذلك يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وله ثلاث وسبعون سنة * وسير الحجاج رجلين الى عبد الملك بالخبر فلما شاع الخبر بين أهل الشام كبروا وفرحوا بقتله وأمر الحجاج بجثته فصلبوها على الثنية اليمنى بالحجون قيل وكان ابن الزبير قبل موته بقى أياما يستعمل الصبر والمسك لئلا ينتن فلما صلب ظهرت منه رائحة المسك فقيل ان الحجاج صلب معه كلبا ميتا فغلب على ريح المسك وقيل بل صلب معه سنورا * قال بعض أصحاب التاريخ ولما قتل عبدالله ركب أخوه عروة ناقة ليس لها مثيل فسار الى عبد الملك فقدم الشام قبل وصول رسل الحجاج بخبر قتل عبدالله فأتى باب عبد الملك فاستأذن فأذن له فلما دخل سلم عليه بالخلافة فرد عليه عبد الملك السلام ورحب به وعانقه وأجلسه على السرير فقال عروة

متت بأرحام اليك قريبة * ولا قرب للارحام مالم تقرب

ثم تحدثا حتى جرى ذكر عبدالله فقال عروة انه كان فقال عبدالملك وما فعل قال قتل فخر ساجدا فقال عروة ان الحجاج صلبه فهب جثته لامه فقال نعم وكتب الى الحجاج يعظم صلب عبدالله وكان الحجاج لما غاب عروة كتب الى عبد الملك يقول له ان عروة كان مع أخيه فلما قتل عبد الله أخذ مالا من مال الله فهرب فكتب اليه عبد الملك انه لم يهرب ولكنه أتانى مبايعا وقد أمنته وحللته مما كان وهو قادم عليك فاياك وعروة * وعاد عروة الى مكة وسلم الى الحجاج كتاب عبدالملك فأنزل الحجاج جثة عبدالله ودفعها الى أمه فغسلته ودفنته وقيل ألقيت جثته فى مقابر اليهود ثم دخل الحجاج مكة فأخذ البيعة من أهلها لعبد الملك ابن مروان وأمر بكنس المسجد الحرام من الحجارة والدم وسار الى المدينة وكان عبد الملك قد استعمله على مكة والمدينة فكانت خلافة ابن الزبير بالحجاز واليمن تسع سنين لاغير

ودانت لعبد الملك الامور فعلت كلمته وكبرت هيبته وقاتل الخوارج من أصحاب العباسيين وأقام المستشفيات للمرضى والخانات للغرباء بدمشق فامتدّت فى عهده وكثرت بعد ذلك فى جميع بلاد المسلمين وقد كانت لاتعرف قبله * ولما كانت سنة اثنتين وثمانين هم عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد ومبايعة ابنه الوليد وكان عبدالعزيز يومئذ عاملا على مصر فكلم قبيصة بن ذؤيب فى ذلك وكان قبيصة المذكور صاحب الخاتم فنهاه قبيصة عن ذلك وقال لاتفعل فانك تبعث على نفسك صوت عاد ولعل الموت يأتيه فكف عبد الملك عن أخيه وفى نفسه مافيها وبينما هو على هذا الحال اذ دخل عليه روح بن زنباع وكان روح هذا أجل الناس عند عبدالملك فكلمه عبد الملك فى ذلك فقال يا أمير المؤمنين لوخلعته ما انتطح فيه عنزان وأنا أوّل من يجيبك الى ذلك ففرح عبد الملك وقال نصبح انشاء الله وبات روح عند عبد الملك ليلته تلك فدخل عليهما قبيصة بن ذؤيب وقد جاءه الخبر بموت عبد العزيز فلما دخل سلم عليهما فقال عبدالملك ماوراءك ياقبيصة قال آجرك الله فى عبد العزيز أخيك قال هل توفى قال نعم فاسترجع ثم أقبل على روح وقال كفانا الله ما كنا نريد فقال قبيصة ياأمير المؤمنين ان الرأى كله فى الأناة فقال عبدالملك وربما كان فى العجلة خير * وكانت وفاة عبد العزيز فى جمادى الاولى فى مصر سنة خمس وثمانين فضم عبدالملك عمله الى ابنه عبد الله وولاه مصر وكان حين ولى على مصر حدثا فكان أهل مصر يسمونه تكيس قاله ابن خلكان وقيل ان الحجاج كتب الى عبد الملك يزين له بيعة الوليد وسير اليه فى ذلك وفدا فلما أراد عبد الملك خلع عبدالعزيز والبيعة للوليد كتب الى عبد العزيز يقول رأيت أن يصير هذا الامر لابن أخيك فأبى فكتب اليه ليجعل الامر له ويجعله له أيضا من بعده فكتب اليه عبد العزيز انى أرى فى ابنى أبى بكر ماترى فى الوليد فكتب اليه عبدالملك ليحمل له خراج مصر فأجابه عبدالعزيز * انى واياك يا أمير المؤمنين قد بلغنا سنا لم يبلغها أحد من أهل بيتك الا كان بقاؤه قليلا وانا لاندرى أينا يأتيه الموت أوّلا فان رأيت أن لاتفسد علىّ بقية عمرى فافعل فرق له عبدالملك وتركه وكان عبدالملك قبل الخلافة متعبدا ناسكا عالما تقيا واسع العلم حازما لايكل أمره الى سواه محبا للفخر مقداما على سفك الدماء ولذلك كان عماله الحجاج بالعراق ومحمد بن يوسف أخو الحجاج باليمن ومحمد بن مروان بالجزيرة وكل من هؤلاء ظلوم غشوم جبار * قال الليث بن سعد * وعبدالله ابن عبد الملك أول من نقل فى عمالته على مصر الدواوين الى العربية وانما كانت بالقبطية (قلت) وقد قال بعض أصحاب التاريخ انها بقيت بالقبطية والعربية معا زمنا طويلا حتى زالت القبطية من جميع الدواوين وبقيت العربية فاشية الى يومنا الذى نحن فيه * وهو أول من نهى الناس عن لباس البرانس وشدّد فى المنع وأقام الى سنة تسعين هجرية أى سنة عشر وسبعمائة ميلادية حتى عزله أخوه الوليد

ومن غريب ماسمع فيما حكاه ابن خلكان أن على بن عبدالله بن عباس ومحمدا ابنه دخلا على عبد الملك بن مروان وعنده قائف فأجلسهما ثم قال للقائف أتعرف هذا قال لاولكن

اعرف

أعرف من أمره أن هـذا الذى معـه ابنه وانه يخرج من عقبه فراعنـة يملكون الارض لايناويهم مناو الا قتلوه فتغير لون عبد الملك ثم قال زعم راهب إيليا وكان قد رآه عندى أنه يخرج من صلبه ثلاثة عشر ملكا ووصفهم بصفاتهم * وذكر أبوحنيفة فى الاخبار الطوال أن عبد الملك أوصى ابنه الوليد لما ثقل فى مرضه فقال ياوليد لاألفينك اذا وضعتنى فى حفرتى تعصر عينيك كالامـة الولهاء بل اتزر وشمر والبس جلد النمر وادع الناس الى البيعة فمن قال برأسه كذا أى لا فقل بالسيف كذا أى اضرب عنقه اهـ

وكان عبد الملك طويل العنق رقيق الوجه مشدود الاسنان بالذهب شديد البخل يلقب برشح الحجر لبخله ويلقب أيضا بأبى ذباب لبخره وكان يلقب بحمامـة المسجد لقبه به ابن عمر قيل لابن عمر أرأيت لوتفانى أصحاب صاحب الشريعة فمن نسأل بعدهم فقال سلوا هذا الفتى يعنى عبد الملك * وحج بالناس عبد الملك فخطب الناس بالمدينة فقال بعد حمدالله والثناء عليه أما بعـد فانى لست بالخليفة المستضعف يعـنى عثمان ولابالخليفة المداهن يعـنى معاوية ولابالخليفة المأفون يعنى يزيد ألا وانى لاأداوى هذه الامة الابالسيف حتى تستقيم لى قناتكم وانكم تحفظون أعمال المهاجرين الاولين ولا تعملون مثـل أعمالهم وانكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم والله لايأمرنى أحد بتقوى الله بعـد مقامى هذا الا ضربت عنقه ثم نزل فأكبر الناس أمره * ومات عبـد الملك فى شوال سـنة ست وثمانين وقيـل سـنة خمس وثمانين هجرية أى سنة أربع وسبعمائة ميلادية وله ثلاث وستون سـنة وقيل ستون سنة وخلف سبعة عشر ولدا ولى الخلافة منهم أربعة وكانت خلافته احدى وعشرين سـنة وخمسة عشر يوما منها ثمان سـنين مزاحما لابن الزبـير ثم انفرد بالملك الى أن مات وكان عاقـلا حازما أديبا لبيبا عالما قال عمـران بن موسى المـؤدّب كان يروى أن عبـد الملك المذكور لما اشتد مرضـه قال ارفعونى على شرف ففعلوا ذلك فتنسم الروح ثم قال يادنيا ما أطيبك ان طويلك لقصـير وان كبيرك لحقير وان كنا منك لفى غرور وتمثل بهذين البيتين

ان تناقش يكن نقاشـك يارب عـذابا لاطوق لى بالعذاب
أوتجاوز فانت رب صـفوح * عـن مسئ ذنوبه كالتراب

ويروى أن هذه الابيات تمثل بها معاوية

وفى أيامـه مات يوحنا بطرك الاسكندرية فكانت مدته ثمان سنين وفى أيامـه صارت الشدة على النصارى وكبر عليهم الامر وعظم الخطب وكانت أيام هذه الشدائد طويلة فأقيم بعده ايسالك وهو اسحق وكان متأصلا وهو حادى أربعيهم وأصـله من اقليم الغربيـة فأقام سنتين وأحـد عشر شهرا وفى رواية سنتين فقط ومات وكان تقيا وهو الذى أعاد الصلح بين ملك الحبشة وملك النوبة وعمل على اعزاز الدين وجمع المتشردين من المسيحيين فأقيم بعـده سيمون وهو سمعان وكان متأصـلا من اقليم الشرقيـة ويلقب بالسريانى وهو ثانى أربعيهم

فأقام بطركا سبع سنين وقيل سبع سنين وستة أشهر ومات وفى أيامه قدم رسول أهل الهند فى طلب أسقف يقيمه لهم فامتنع من ذلك حتى أذن له الخليفة ففعل وكان ورعا تقيا جدا صالحا متعبدا ذكر انه دعا الله سبحانه وتضرع اليه فأحيا على يديه قسيسا كان ميتا وخلا الكرسى بعده ثلاث سنين بغير بطرك ثم قدّم المتأصلون بعده الاكسندروس من أهالى نباموا سير وهو ثالث أربعيهم وكان راهبا فى دير الزجاج مرت به متاعب وشدائد عظيمة للغاية وقد صودر فيها مرتين أخذ منه فيهما ستة آلاف دينار نقرة فكانت أول جزية أخذت من الرهبان خلافا للعهد * قال أصحاب التاريخ واشتد عبدالله بن عبد الملك بن مروان على القبط بمصر وضيق عليهم واقتدى به قرة بن شريك أيضا فى ولايته على مصر فقتلا وأحرقا وخربا وأراقا الدماء بحورا وأنزلا بالنصارى شدائد لم يبتلوا بمثلها فكانت أيامهما كلها بلايا واحنا ورزايا ومحنا

ولما مات عبد الملك بن مروان تولى الخلافة بعده ولده الوليد

(الفصل السادس)

(فى خلافة الوليد بن عبد الملك)

ثم قام بالامر بعد عبد الملك ابنه الوليد بعهد منه بويع له بالخلافة يوم مات والده فى شوال سنة ست وثمانين للهجرة أى سنة خمس وسبعمائة للميلاد ولم يدخل دار الخلافة حتى صعد المنبر فقال الحمد لله انا لله وانا اليه راجعون والله المستعان على مصيبتنا بأمير المؤمنين والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة قوموا فبايعوا فكان أول من عزى نفسه وهناها وقيل انه لما صعد المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال * أيها الناس لامقدم لما أخر الله ولا مؤخر لما قدم وهذا كان من قضاء الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه وهو الموت وقد صار الى منازل الابرار ولى هذه الامة بالذى يحق لله عليه فى الشدة على المريب واللين لاهل الحق والفضل واقامة ما أقام الله من منار الاسلام وأعلامه من حج البيت وغزو الثغور وشن الغارة على أعداء الله فلم يكن عاجزا ولامفرطا * أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فان الشيطان مع الفرد أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ومن سكت مات بدائه * ثم نزل وجعل يتصرف فى الامور وفتح الفتوحات العظام مثل الهند والاندلس واتسع ملكه فى الاندلس وافريقية اتساعا عظيما بما منحه لاهلها من الحرية والمساواة حتى ضعفت النصرانية فيها وانحسمت أوكادت تنحسم منها وانمحت آثارها من افريقية كلها وصار نصارى اسبانيا يختتنون ويمتنعون من شرب الخمر وأكل الخنزير ونحو ذلك من المحرمات الاسلامية حتى كان يقال لهم ميزارابى ومعناها ﴿انصاف عرب﴾ وحارب الروم وغزاهم عدة غزوات وامتد حكمه فى مسافة مائة يوم من المشرق الى المغرب من التتارية الهندية الى الاقيانوس وقد وصلت فتوحات

العرب يومئذ الى العجم والشام وافريقية وسردينيا واسبانيا ونحوها وامتدوا الى نواحى الصين وكان أهل سروقة وقرطبة وغيرهما يتكلمون بالعربية وهى فاشية بينهم

ورسم الوليد بالاقلاع عن استعمال اليونانية وأرقامها فى الحساب فامتدت لذلك الارقام الهندية التى تلقتها العرب عن الهنود وراجت بذلك الامور الحسابية واتسع نطاق الرياضة ونحوها وكان الوليد يركب المركوب الحسن الجيد ويتقى الركوب والسفر فى الحرب فى أيام معلومة فى كل شهر وينهى عن ذلك قال الحافظ ابن عساكر وكان الوليد عند أهل الشام من أفضل خلفائهم بنى مساجد بدمشق وأعطى الناس وفرض للمجذومين وقال لاتسألوا الناس وأعطى كل مقعد خادما وكل أعمى قائدا وكان يبرحملة الكتاب ويقضى عنهم ديونهم وبنى الجامع الاموى وهدم كنيسة مارى يوحنا وزادها فى الجامع المذكور وذلك سنة ست وثمانين فى ذى القعدة وذكر أنه كان فى الجامع وهو يبنى اثنا عشر ألف مرخم وتوفى الوليد ولم يتمه فأتمه سليمان أخوه فكان جملة ما أنفق على بنائه أربعمائة صندوق فى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار وكان فيه ستمائة سلسلة ذهبا للقناديل وما زالت الى أيام عمر ابن عبد العزيز فجعلها فى بيت المال واتخذ عوضها صفرا وحديدا وبنى قبة الصخرة ببيت المقدس وبنى المسجد النبوى ووسعه حتى دخلت حجرة صاحب الشريعة فيه قيل وله آثار حسنة كثيرة جدا * قلت وقوله ان الوليد بنى قبة الصخرة فيه نظر وانما بنى قبة الصخرة عبد الملك ابن مروان فى أيام فتنة ابن الزبير لما منع عبد الملك أهل الشام من الحج خوفا من أن يأخذ منهم ابن الزبير البيعة له فكان الناس يقفون يوم عرفة بقبة الصخرة الى أن قتل ابن الزبير وكان الوليد أراد أن يخلع أخاه سليمان ويبايع لولده عبد العزيز فأبى سليمان فكتب الى عماله ودعا الناس الى ذلك فلم يجبه الا الحجاج وقتيبة وخواص من الناس فكتب الوليد الى سليمان يأمره بالقدوم عليه فابطأ فعزم الوليد على المسير اليه ليخلعه وأخرج خيمه ففاجأته المنية قبل أن يسير اليه وكان موته فى خامس عشر جمادى الآخرة سنة ست وتسعين للهجرة أى سنة أربع عشرة وسبعمائة للميلاد عن ست وأربعين سنة وقيل ثمان وأربعين وقيل خمسين سنة وترك أربعة عشر ولدا وحمل على أعناق الرجال ودفن فى مقابر باب الصغير وتولى دفنه عمر بن عبد العزيز فكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر وقيل عشر سنين وروى أن عمر بن عبد العزيز قال لما لحدت الوليد ارتكض فى أكفانه وغلت يداه الى عنقه نسأل الله العافية

واستعمل على مصر فى خلافته بعد عزله لاخيه عبد الله كما تقدم قرة بن شريك العبسى فقدمها يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الاول فقال فى ذلك أحد الشعراء

عجب ما عجبت حين أتانا * أن قد أمرت قرة بن شريك
وعزلت الفتى المبارك عنا * ثم ضلت فيه رأى أبيك

وكان قرة ظلوما غشوما عسوفا قيل كان يدعو بالخمر والملاهى فى جامع مصر * أخرج أبو

نعيم فى الحلية قال قال عمر بن عبد العزيز الوليد بالشام والحجاج بالعراق وقرة بمصر وعثمان ابن حيان بالحجاز امتلأت والله الارض جورا وقال ابن عبد الحكم أنبأنا سعد بن عفير ان عمال الوليد بن عبد الملك كتبوا اليه ان بيوت الاموال قد ضاقت من مال الخمس فكتب اليهم أن ابنوا المساجد فأول مسجد بنى بفسطاط مصر المسجد الذى فى أصل حصن الروم عند باب الريحان قبالة الموضع الذى يعرف بالقالوس يعرف بمسجد العيلة * وأقام قرة واليا بمصر الى أن مات سنة ست وتسعين فولى بعده عبد الملك بن رفاعة القيني فأقام الى سنة تسع وتسعين فى خلافة سليمان بن عبد الملك ومات ولما مات الوليد خلفه أخوه سليمان ابن عبد الملك

(الفصل السابع)

(فى خلافة سليمان بن عبد الملك)

ثم قام بالامر بعد الوليد أخوه سليمان وذلك لان أباهما عقد لهما جميعا بالامر من بعده فبويع له بالخلافة يوم موت أخيه الوليد فى خامس عشرى جمادى الآخرة سنة ست وتسعين هجرية أى سنة أربع عشرة وسبعمائة ميلادية وكان سليمان بالرملة فلما جاءته الخلافة عزم على الاقامة بها ثم توجه الى دمشق وكمل عمارة الجامع الاموى وجهز أخاه مسلمة بن عبد الملك فى سنة سبع وتسعين الى غزو الروم فانتهى الى القسطنطينية فنازلها على عهد انسطاسيوس قيصر وكان عدد أصحاب مسلمة مائة وعشرين ألفا من العرب والعجم وحارب فى طريقه طيان وعمورية وفرغانة من آسية الصغرى ودخل بوغاز كليبولى وتجاوز البحر من المكان المدعو عمر العرب ودخل أوروبا وقطع على سواحل بحر مرمرة الى أن قابل القسطنطينية من الجنوب وأقام مضارب جنوده وأعلن الحرب على الروم وألقى على المدينة الحصار وكان انسطاسيوس قيصر قد علم قيام العرب عليه فاستعد لقتالهم وأمر الروم بالتأهب لحصار ثلاث سنين وأن يترك الذين لاقدرة لهم القسطنطينية وملأ الساحات والاهراء بالذخائر وأصلح الاسوار وحصنها وجعل عليها المنجنيقات والدوافر لرشق النار الرومية والسهام والاحجار ونحوها ثم لم يلبثوا أن بعثوا بقوم ليحرقوا عمارة العرب ويناوشوا العدو قبل أن يناوشهم هو فلم يفلحوا اذ افتتنوا وقتلوا رئيسهم وتركوا راياتهم فى رودس وتفرقوا فى تلك الاطراف أشتاتا الى أن قام الملك ثودوسيوس ولم يكن أهلا لهذا المنصب اذ كان من آحاد الحراس على بيت المال وكان ساذجا غير مدرب فعفا عن أولئك القوم ولم يؤاخذهم بما فعلوه فلم يستقر به المنصب الاشهرا وخلع وقام بعده ليون اسوريكوس وكان مهيبا مقداما عريقا بالملك فلما قدمت عساكر مسلمة وتطارهم الروم بالقسطنطينية داخلهم الخوف واستولى عليهم الجبن فعرضوا على المسلمين الصلح بأن يؤدوا لهم الجزية فى كل سنة عن كل نفس دينارا فلم يقبل مسلمة وداخله الطمع وتقوى

حيث قدمت عليه عمارته البحرية من الشام وكانت قد مرت بعمارة المصريين التى كانت يومئذ على ثغور بلاد الفرنسيس وأتت بها فكانت جميعها نحو ألف وثمانمائة سفينة أكبرها كانت تحمل مائة رجل بجهازهم

أما الروم فانهم لما شاهدوا تلك السفن الكثيرة أمروا فرفعت السلسلة الحامية للمينا لكى تدخل السفن المذكورة وتستأمن من داخل البوغاز وأمر مسلمة قومه بالتأهب لمصادمة الروم فى تلك الليلة برا وبحرا فتقدمت السفن الى جانب السلسلة ووقفت مترددة بين أن تدخل المينا وبين أن تقضى ليلتها فى مكانها خوفا من الحيلة فبينماهم على هذا الحال اذ اشتعلت النار الاغريقية من كل جانب وتساقطت عليها تساقط المطر فأحرقتها كلها ولم تنج منها واحدة وهلك من فيها من الجند ثم أتى بعيد ذلك النبأ بموت سليمان بن عبد الملك وذلك فى سنة تسع عشرة وسبعمائة للميلاد أى سنة تسع وتسعين للهجرة فانفشل من بقى منهم وفترت هممهم وانجلوا عن مواقفهم وكادوا يتمزقون أشتاتا * وكان سليمان عادلا حكيما طويلا جميلا به عرج مولعا بالنساء شديد الغيرة وفى عهده خصى أبو بكر محمد بن عمرو الانصارى المخنثين بالمدينة قيل وكان العامل على المدينة أبا بكر عمر بن حزم فكتب اليه سليمان يقول أحص من عندك من المخنثين واتفق أن نقطة من السطر الاول وقعت على الحاء فصارت خاء فخصاهم * ومما يحكى من محاسنه أن رجلا دخل عليه فقال يا أمير المؤمنين أنشدك الله والاذان فقال له سليمان أما أنشدك الله فقد عرفناها ـ فما الاذان قال قوله تعالى فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين فقال له سليمان ما ظلامتك فقال ضيعتى الفلانية غلبنى عليها عاملك فلان فنزل سليمان عن سريره ورفع البساط ووضع خده على الارض وقال والله لارفعت خدى من الارض حتى يكتب له برد بيعته فكتب الكتاب وهو واضع خده وقيل انه أطلق من سجن الحجاج ثلثمائة ألف مابين رجل وامرأة وصادر آل الحجاج وأعمل فيهم القتل والتشريد واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيرا ومشيرا وأراد أن يستكتب يزيد بن أبى مسلم وزير الحجاج فقال له عمر بن عبد العزيز سألتك الله يا أمير المؤمنين لاتحى ذكر الحجاج باستكتابك يزيد فقال يا عمر انى لم أجد عنده خيانة فى درهم ولا دينار فقال يا أمير المؤمنين ان ابليس أعف منه فى الدرهم والدينار وقد أغوى الخلق كلهم جميعا فأضرب سليمان عما عزم عليه

وفى كامل المبرد وغيره أن يزيد هذا دخل على سليمان بن عبد الملك وكان يزيد دميما قبيحا فقال له سليمان قبح الله رجلا أجرّك رسنه وأشركك فى أمانته فقال يا أمير المؤمنين لاتقل هذا قال ولم قال لانك رأيتنى والامر عنى مدبر ولو رأيتنى والامر علىّ مقبل لاستحسنت مااستقبحت منى ولاستعظمت مااستصغرت منى فقال له سليمان ويحك أو قد استقر الحجاج فى قعر جهنم بعد أم لا فقال يا أمير المؤمنين لاتقل ذلك فى الحجاج قال ولم قال لان الحجاج وطأ لكم المنابر وأذل لكم الجبابرة وأنه يأتى يوم القيامة عن يمين أبيك ويسار أخيك فحيثما كانا كان

وكان سليمان فصيحا بليغا أديبا محسنا لعلم العربية مترفعا عن سفك الدماء قال ابن خلكان فى ترجمته انه كان يأكل فى كل يوم نحو مائة رطل شامى ولما ولى رد الصلاة الى ميقاتها الاول وكان من قبله من خلفاء بنى أمية يؤخرونها الى آخر وقتها ولذلك قال محمد بن سيرين ان سليمان افتتح خلافته بخير افتتحها باقامة الصلاة لميقاتها واختتمها باستخلافه لعمر ابن عبد العزيز وذكر المفضل وغيره أن سليمان بن عبد الملك خرج من الحمام فى يوم الجمعة فلبس حلة خضراء واعتم بعمامة خضراء وجلس على فراش أخضر وبسط ماحوله بالخضرة ثم نظر فى المرآة وكان جميلا فأعجبه جماله فشمر عن ذراعيه وقال * كان فينا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا وكان أبو بكر رضى الله تعالى عنه صديقا وكان عمر رضى الله تعالى عنه فاروقا وكان عثمان رضى الله تعالى عنه حييا وكان على رضى الله تعالى عنه شجاعا وكان معاوية رضى الله تعالى عنه حليما وكان يزيد صبورا وكان عبد الملك سائسا وكان الوليد جبارا وأنا الملك الشاب ثم خرج لصلاة الجمعة فوجد حظية له فى صحن الدار فانشدته هذه الابيات

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى * غير أن لا بقاء للانسان

ليس فيما بدا لنا منك عيب * عابه الناس غير أنك فانى

فلما فرغ من الصلاة ودخل داره قال لتلك الحظية ماقلت لى فى صحن الدار وأنا خارج قالت ماقلت لك شيأ ولا رأيتك وأنى لى بالخروج الى صحن الدار فقال إنا لله وإنا اليه راجعون نعيت الىّ نفسى فما دارت عليه جمعة أخرى حتى مات وقيل انه صعد المنبر وخطب وان صوته ليسمع فى أقصى المسجد فأخذته الحمى فمازال صوته يخفى حتى لم يسمعه من تحته وقال ابن خلكان انه حم ومات من ليلته وقيل انه مات بذات الجنب وقيل انه قبل موته أكل زنبيلين من التين والبيض ألطفه بهما بعض المسيحيين فأمر بأن يقشر البيض وجعل يأكل بيضة وتينة حتى أتى على الزنبيلين ثم أتوه بمخ وسكر فأكل فاحتم ومرض ومات * مات فى عاشر صفر سنة ثمان وتسعين هجرية وقيل سنة تسع وتسعين بمرج دابق من أرض قنسرين وله تسع وثلاثون سنة وقيل خمس وأربعون سنة وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر واستعمل فى أيامه على مصر عبد الملك بن رفاعة القينى الى سنة تسع وتسعين التى مات فيها سليمان

(الفصل الثامن)

(فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز)

ثم قام بالامر بعد سليمان الخليفة الراشد أبو حفص عمر بن عبد العزيز بويع له بالخلافة يوم

مات

مات سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين هجرية أى سنة سبع عشرة وسبعمائة ميلادية وكانت خلافته بعهد من سليمان له وذلك أنه لما كان سليمان بدابق ومرض مرضه الذى مات فيه عهد فى كتاب كتبه لاحد أولاده وهو غلام لم يبلغ أشده فعلم رجاء بن حيوة بالخبر فدخل عليه وقال له ماتصنع ياأمير المؤمنين ان مما يحفظ الخليفة فى قبره أن يستخلف على الناس الرجل الصالح فقال سليمان يارجاء انى مستخير الله وسأنظر ولم أعزم ولبث سليمان يوما أو يومين ثم مزق الكتاب ودعا رجاء فقال له يارجاء ماترى فى ولدى داود فقال رجاء هو غائب عند القسطنطينية ولا ندرى أحى أم لا قال فمن ترى قال رجاء رأيك ياأمير المؤمنين قال فكيف ترى فى عمر بن عبد العزيز قال رجاء فقلت أعلمه والله خيرا فاضلا سلما فقال سليمان هو على ذلك ولئن وليته ولم أول أحدا سواه لتكونن فتنة ولا يتركونه أبدا يلى عليهم الا أن يجعل أحدهم بعده قال وكان عبد الملك قد عهد الى الوليد وسليمان أن يجعلا أخاهما يزيد ولى عهد فأمر سليمان أن يجعل يزيد بن عبد الملك بعد عمر وكان يزيد غائبا فى الموسم قال رجاء فقلت رأيك فكتب سليمان * بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز انى قد وليتك الخلافة بعدى ومن بعدك يزيد بن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولاتختلفوا فيطمع فيكم * قال وختم الكتاب ثم أرسل الى كعب بن جابر العبسى صاحب شرطته فقال ادع أهل بيتى فجمعهم كعب فلما اجتمعوا قال سليمان لرجاء اذهب اليهم بكتابى وأخبرهم بما فيه ومرهم فليبايعوا من وليت فيه ففعل رجاء فلما علموا مافى الكتاب قالوا ندخل فنسلم على أمير المؤمنين ثم دخلوا فقال لهم سليمان فى هذا الكتاب الذى فى يد رجاء بن حيوة عهدى فاسمعوا وأطيعوا لمن سميت فيه فبايعوا عمر رجلا رجلا ثم تفرقوا وثقل المرض بسليمان فمات قال رجاء بن حيوة فغمضته وسجيته وأغلقت الباب وأجلست على الباب من أثق به ثم خرجت فأرسلت الى كعب بن جابر فجمع أهل بيت سليمان فى مسجد دابق فقلت بايعوا فقالوا قد بايعنا مرة قلت وأخرى هذا عهد أمير المؤمنين فبايعوا الثانية قال فلما بايعوا بعد موته رأيت أن قد أحكمت الامر فقلت قوموا الى صاحبكم فقد مات

ذكر غير واحد عن محمد المروزى قال أخبرت أن عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه لما دفن سليمان بن عبد الملك وخرج من قبره سمع للارض هدة أو رجة فقال ماهذه فقيل هذه مراكب الخلافة قربت اليك ياأمير المؤمنين لتركبها فقال مالى ولها نحوها عنى وقربوا الى دابتى فقربت اليه فركبها فجاء صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة على عادة الخلفاء قبله فقال له تنح عنى مالى ولك انما أنا رجل من المسلمين ثم سار مختلطا بين الناس حتى دخل المسجد فصعد المنبر فاجتمع اليه الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال * أيها الناس انى ابتليت بهذا الأمر بغير رأى منى فيه ولاطلبة ولامشورة من المسلمين وانى قد خلعت مافى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لانفسكم غيرى فصاح المسلمون صيحة عظيمة قد

اختزناك ياأمير المؤمنين و رضيناك أميرنا باليمن والبركة فلما سكتوا حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال * أوصيكم بتقوى الله فان تقوى الله تعالى خلف من كل شئ وليس من تقوى الله خلف واعملوا لآخرتكم فان من عمل لآخرته كفاه أمر دنياه وآخرته وأصلحوا سرائركم يصلح الله علانيتكم وأكثروا ذكر الموت وأحسنوا له الاستعداد قبل أن ينزل بكم فانه هاذم اللذات وانى والله لاأعطى أحدا باطلا ولاأمنع أحدا حقا * ياأيها الناس من أطاع الله وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له أطيعونى ماأطعت الله فان عصيته فلا طاعة لى عليكم * ثم نزل ودخل دار الخلافة فأمر بالستور فهتكت وبالبسط فرفعت وأمر ببيع ذلك وادخال ثمنه فى بيت مال المسلمين ثم ذهب يتبوأ مقيلا فأتاه ابنه عبد الملك فقال ماتريد أن تصنع ياأبت قال يابنى أقيل قال تقيل ولا ترد المظالم قال أى بنى انى قد سهرت البارحة فى أمر عمك سليمان فاذا صليت الظهر رددت المظالم فقال ياأمير المؤمنين من أين لك أن تعيش الى الظهر فقال ادن منى يابنى فدنا منه فقبله بين عينيه وقال الحمد لله الذى أخرج من ظهرى من يعيننى على دينى فخرج ولم يقل وأمر مناديه أن ينادى ألا كل من كانت له ظلامة فليرفعها قيل فتقدم اليه ذمى من أهل حمص فقال ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله قال وماذاك قال ان العباس بن الوليد اغتصبنى أرضى والعباس جالس فقال عمر ماتقول ياعباس فقال ان أمير المؤمنين الوليد أقطعنى اياها وهذا كتابه فقال عمر ماتقول ياذمى قال ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى فقال عمر كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد أردد اليه أرضه ياعباس فردها اليه ثم جعل لايدع شيأ مما كان فى يد أهل بيته من المظالم الارده مظلمة مظلمة فلما بلغ الخوارج سيرته وما رد من المظالم اجتمعوا وقالوا ماينبغى لنا أن نقاتل هذا الرجل وبلغ عمر بن الوليد خبر رد الضيعة التى كانت للذمى كتب الى عمر بن عبد العزيز * انك قد زريت على من كان قبلك من الخلفاء وعبت عليهم وسرت بغير سيرتهم بغضالهم وشينا لمن بعدهم من أولادهم وقطعت ماأمر الله به أن يوصل اذ عمدت الى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جورا وعدوانا وان تترك على هذا الحال والسلام * فلما قرأ كتابه كتب اليه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ من عبد الله عمر بن عبد العزيز الى عمر بن الوليد السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين * أما بعد فقد بلغنى كتابك أما أول شأنك ياابن الوليد فأمك بنانة أم السكون كانت تطوف فى سوق حمص وتدخل فى حوانيتها ثم الله أعلم بها ثم اشتراها زبان من بيت مال المسلمين فأهداها لابيك فحملت بك فبئس المولود ثم نشأت فكنت جبارا عنيدا تزعم أنى من الظالمين اذ حرمتك وأهل بيتك مال الله الذى فيه حق القرابة والمساكين والأرامل وان أظلم منى وأترك لعهد الله من استعملك صبيا سفيها على جند المسلمين تحكم فيهم برأيك ولم يكن له فى ذلك نية الا حب الوالد لولده فويل لابيك ماأكثر خصماءه يوم القيامة وكيف ينجو أبوك من خصمائه وان أظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لغالية البربرية فى خمس العرب نصيبا فرويدا ياابن بنانة فلو

التقت

التقت حلقتا البطان وردّ النوء لاهله لتفرغت لك ولاهل بيتك فوضعتهم على المحجة البيضاء فطالما تركتم الحق وأخذتم فى الباطل ومن وراء ذلك ماأرجو أن أكون رأيته من بيع رقبتك وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والارامل فان لكل فيك حقا والسلام على من اتبع الهدى ولا ينال سلام الله القوم الظالمين

قيل انه وقع فى زمانه غلاء عظيم فقدم عليه وفد من العرب فاختاروا رجلا منهم لخطابه فتقدم اليه وقال ياأمير المؤمنين انا وفدنا اليك من ضرورة عظيمة وراحتنا فى بيت المال وماله لايخلو اما أن يكون لله أولعباده أولك فان كان لله فالله غنى عنه وان كان لعباده فآتهم اياه وان كان لك فتصدّق به علينا ان الله يجزى المتصدّقين * قيل فتغرغرت عينا عمر بالدموع وقال هو كما ذكرت وأمر بحوائجهم فقضيت فهمّ الاعرابى بالانصراف فقال عمر كما أوصلت أيها الرجل حوائج عباد الله اليّ فأوصل حاجتى وفاقتى الى الله فقال الاعرابى الهى اصنع بعمر بن عبد العزيز كصنيعه فى عبادك قيل فما استتم كلامه حتى ارتفع غيم عظيم وأمطرت السماء مطرا كثيرا فجاء فى المطر بردة كبيرة فوقعت على جرة فانكسرت فخرج منها كاغد مكتوب فيه * هذه براءة من الله العزيز الغفار لعمر بن عبد العزيز من النار * قلت ولعل هذا من مبالغات الكتاب تذكرة وعبرة

ولما استقامت لعمر الامور ودانت له الخلافة لم يوجه عنايته الى تتميم الغزوات التى بدأ بها سليمان وترك مسلمة بمن معه من المسلمين فى حصار قسطنطينية طول الشتاء كراهة فى مسلمة وكان ذلك الشتاء قارسا جدا شديدا دامت فيه الثلوج مغطية للارض مائة يوم فمات خلق كثير من المسلمين ولبثوا على هذا الحال يقاسون العناء حتى دخل الربيع وورد على من بقى منهم الخبر بقدوم عمارتين فيهما من الرجال والذخائر شئ كثير لنجدتهم احداهما أربعمائة سفينة مشحونة قمحا من الاسكندرية وثانيتهما ثلثمائة وستون سفينة من افريقية ولكنه لم يتم فرحهم بقدم تلك العمارة حتى شاع الخبر ثانية بانه حل بهما ماحل بالعمارة الاولى فلم يحصلوا منهما الاعلى ماقل ففشا الجوع والمرض فى جند المسلمين وعادوا يأكلون مايجدونه من الميتة وغيرها واستنصر ليون قيصر الروم على من بقى منهم بالبلغاريين واستأجرهم لذلك فجاءه منهم عدد كثير واقتتلوا مع المسلمين قتالا عنيفا فقتلوا منهم زهاء عشرين ألفا وطيروا الاخبار بتجهيز الفرنجة برا وبحرا للنجدة فتشددت بذلك عزائم الروم وخافت العرب جدا ولبثوا يتوقعون الشر من كل جانب فوردت الى مسلمة الاخبار بأن يرجع بمن معه من المسلمين فقام على الفور وسار بمن بقى معه وهم قليلون فى بوغاز ... كليبولى من حيث أتى فلم يعارضه معارض فلما وصل بتينة قام عليه أهلها وقتلوا ممن كان معه خلقا كثيرا ولم يصل من جميع تلك العمارة الكبيرة الا خمسة فقط جاءت بالاخبار الى الاسكندرية فكانت مدة حصار مسلمة لقسطنطينية فى هذه الغزوة ثلاثة عشر شهرا * قال أهل التاريخ وكان اخفاق مسلمة فى غزوته هذه سببا فى منع العرب من تخطى أوروبا من جهة المشرق ولكنهم

لم يلبثوا أن عادوا فشنوا الغارة على بلاد الفرنسيس من جهة المغرب بمعاونة عرب الاندلس وجعلوا يتهددونها فى كل آونة ولا ينكفون عن مناوشتها كلما تمكنوا من ذلك * وكان عمر يكره الحرب جدا ولا يهتم بالفتوحات فلم يضم الى دولتـه فى خلافته الاجرجان وطبرستان وكتب فى سنة مائة هجرية الى ملوك السند يدعوهم الى الاسلام على أن يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وقد كانت سيرته وأجناده وصلت اليهم فأسلم حيشبة بن زاهر وتسمى بعض ملوكهم من هذا الحين بأسماء العرب وكان عمر قد استعمل على ذلك الثغر عمرو بن مسلم أخا قتيبة بن مسـلم فغزا بعض الهند فظفر وبقى ملوك السند مسلمين على بلادهم أيام عمر بن عبدالعزيز ويزيد بن عبد الملك فلما كان أيام هشام ارتدوا عن الاسلام وكان سببه ما سيذكر فى محله ان شاء الله

وتحالف بنو أمية لاسباب عدة على بغض عمر بن عبدالعزيز فرشوا عبدا أسود فسقاه السم وروى أنه دعا بخادمه الذى سقاه السم فقال له ويحك ما حملك على أن سقيتنى السم قال ألف دينار أعطيتها قال هاتها فجاء بها فأمر بطرحها فى بيت المال وقال لخادمه اخرج بحيث لا يراك أحـد ولما ثقل به مرضه قالوا له لو تداويت قال لو كان دوائى فى مسح أذنى ما مسحتها نعم المذهوب اليه ربى * قال مسلمة بن عبد الملك دخلت على أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز رضى الله تعالى عنه أعوده فى مرضه الذى مات فيه فاذا عليه قميص وسخ فقلت لفاطمة بنت عبـد الملك يا فاطمة اغسلى قميص أمير المؤمنين فقالت نفعـل ان شاء الله تعالى ثم عدت فاذا القميص على حالته فقلت يا فاطمة ألم آمرك أن تغسـلى قميص أمير المؤمنين فان الناس يعودونه فقالت والله ماله قميص غيره قال وكان عمر رضى الله عنه كثيرا يتمثل بهذه الابيات

نهارك يا مغـرور سهو وغفـلة * وليلك نوم والردى لك لازم
يغرك ما يفـنى وتفرح بالمـنى * كما غر باللذات فى النوم حالم
وشغلك فيما اليوم تكـره غبه * كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

وكان مرضـه بدير سمعان بأرض حمص وكانت شكواه عشرين يوما فلما احتضر قال أجلسونى فأجلسوه فقال * الهى أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت ولكن لا اله الا الله. وتوفى لخمس وقيل لست مضين وقيل لعشرة بقين من رجب الفرد سنة احدى ومائة للهجرة وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر وقيل وهو ابن أربعـين سنة وقبره بدير سمعان ظاهر يزار فكانت مدة خلافته سنتين وخمسة أشهر وكان يقال له أشج بنى أميـة وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب فعمر جده من قبل أمه وهو تابعى روى الحديث عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد وروى عنه جماعة ومولده بمصر سنة احدى وستين * قال الامام أحمد ليس أحـد من التابعـين قوله حجة الا عمر بن عبد العزيز اهـ وكان عمر عفيفا زاهدا ناسكا عابدا مؤمنا تقيا صادقا وهو أول من اتخـذ دار الضيافة وأول من فرض لابناء السبيل وأزال ما كانت بنو أمية تذكر به عليا على المنابر من اللعن وجعل مكان ذلك ان الله يأمر بالعدل

والاحسان

والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون فقال فيه كثير عزة لذلك

وليت ولم تسبب عليا ولم تخف * بريا ولم تقبل مقالة مجرم
وصادقت بالقول الفعال مع الذى * أتيت فأمسى راضيا كل مسلم
فما بين شرق الارض والغرب كلها * مناد ينادى من فصيح وأعجمى
يقول أمير المؤمنين ظلمتنى * بأخذك دينارى وأخذك درهمى
فاربح بها من صفقة لمبائع * وأكرم بها من بيعة ثم أكرم

قال ميمون بن مهران قال عمر بن عبد العزيز لما وضعت الوليد فى حفرته نظرت فاذا وجهه قد اسود فاذا مت ودفنت فاكشف عن وجهى قال ميمون ففعلت فرأيته أحسن مما كان أيام تنعمه ورثاه الشعراء فأكثروا فى رثائه وبالغوا جدا

واستعمل على مصر فى خلافته أيوب بن شرحبيل الاصبحى فأقام بها عاملا الى سنة احدى ومائة وعزل فى خلافة يزيد بن عبد الملك * وبعد موت عمر بن عبد العزيز خلفه فى الملك يزيد بن عبد الملك بن مروان

(الفصل التاسع)

(فى خلافة يزيد بن عبد الملك)

ثم قام بالامر بعد عمر بن عبد العزيز يزيد بن عبد الملك بن مروان بويع له بالخلافة يوم مات ابن عمه عمر سنة احدى ومائة للهجرة أى سنة تسع عشرة وسبعمائة للميلاد بعهد له من أخيه سليمان فى ذلك فلما ولى قال خذوا بسيرة عمر بن عبد العزيز فساروا بسيرته أربعين يوما فدخل عليه أربعون رجلا من مشايخ دمشق وحلفوا له أنه ليس على الخلفاء حساب ولا عقاب فى الآخرة وخدعوه بذلك فانخدع لهم وكان طائفة من جهال الشاميين يعتقدون ذلك * قال بعض أهل التاريخ ان يزيد هذا هو المعروف بالفاسق وهو غلط وانما الفاسق ولده الوليد كما اشتهر اه وقيل انه لما احتضر عمر بن عبد العزيز قال له اكتب الى يزيد فأوصه بالامة قال بماذا أوصيه انه من بنى عبد الملك ثم كتب اليه * أما بعد فاتق يا يزيد الصرعة بعد الغفلة حين لا تقال العثرة ولا تقدر على الرجعة انك تترك ما تترك لمن لا يحمدك وتصير الى من لا يعذرك والسلام * ولما استقرت بيزيد الخلافة عمد الى كل ما عمده عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فرده ورد المكوس التى أزالها عمر بن عبد العزيز عن أهل اليمن وغير ذلك وجهز جيشا عظيما لقتال يزيد بن المهلب بن أبى صفرة وسيره مع أخيه مسلمة والعباس ابن أخيه وكان ابن المهلب قد كثرت لومه واجتمع اليه من أهل الكوفة والبصرة والثغور وغيرها

فالتقى مسلمة بأهل الشام وابن المهلب فى لومه وعسكره الجرار فاقتتلوا قليلا وكان يزيد بن عبد الملك قد أمر باحراق جسر كان على الفرات ليأخذوا الطريق على ابن المهلب وأصحابه فلما علا دخان الحريق سأل أصحاب ابن المهلب عنه فقيل لهم حرق الجسر فانهزموا فقيل لابن المهلب انهزم الناس فقال لم انهزموا هل كان قتال ينهزم من مثله فقيل له قالوا أحرق الجسر فلم يلبث أحد فقال قبحهم الله بق دخن عليه فطار ثم خرج ومعه أصحابه وقال اضربوا وجوه المنهزمين ففعلوا ذلك بهم وبينما هو على هذا الحال اذ جاءه الخبر بموت أخيه حبيب فاغتم غما شديدا واستنقل وتقاعس عن الحرب فنسال عنه من يكره القتال وبقى معه جماعة من جنسه فانقض عليه أهل الشام وعلى أصحابه فقتلوه وقتلوا أخاه محمد بن المهلب وآخرين معه واختلفوا فيمن قتله واحتزوا رأس يزيد بن المهلب وأتوا بها الى مسلمة فسيرها الى يزيد ابن عبد الملك وأسر أهل الشام من أصحاب يزيد بن المهلب خلقا فسيرهم مسلمة الى الكوفة فجاء كتاب يزيد بن عبد الملك الى محمد بن عمرو بن الوليد يأمره بضرب رقابهم فأمر صاحب شرطته أن يخرجهم عشرين عشرين وثلاثين ثلاثين فقام نحو ثلاثين رجلا من تميم فقالوا نحن انهزمنا بالناس فابدؤا بنا قبل الناس فضرب رقابهم ثم جاء محمد بن عمرو كتاب من عند مسلمة يأمره بترك قتل الاسرى وأقبل مسلمة حتى نزل الحيرة واجتمع أهل المهلب بالبصرة فأعدوا السفن وتجهزوا للركوب فى البحر وحملوا أموالهم وعيالاتهم حتى وصلوا الى جبال وساروا فى البر فسير مسلمة فى أثرهم مدرك بن ضب الكلبى فأدركهم فى عقبة فعطفوا عليه وقاتلوه واشتد قتالهم فقتل أكثر أصحاب ابن المهلب وقتل أولاد المهلب عن آخرهم وحملت رؤسهم والأسرى الى مسلمة بالحيرة فبعثهم الى يزيد بن عبد الملك فسيرهم يزيد الى العباس بن الوليد وهو على حلب فنصب الرؤس وفرح يزيد بقتل آل المهلب فرحا عظيما وقد كان يتمنى قتلهم وقطع شأفتهم لعداوة سابقة بينه وبين يزيد بن المهلب قبل تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة * قال صاحب الكامل ان ابن المهلب خرج من الحمام أيام سليمان بن عبد الملك وقد تضمخ بالغالية فاجتاز بيزيد بن عبد الملك وهو الى جانب عمر بن عبد العزيز فقال يزيد قبح الله الدنيا لوددت أن مثقال غالية بألف دينار فلا ينالها الا كل شريف فسمع ابن المهلب فقال له بل وددت أن الغالية لو كانت فى جبهة الاسد فلا ينالها الا مثلى فقال له يزيد بن عبد الملك لئن وليت يوما لاقتلنك فقال له ابن المهلب والله لئن وليت هذا الامر وأنا حى لاضربن وجهك بخمسين ألف سيف فهذا كان سبب البغض بينهما وقيل غير ذلك اه وكان قد جىء الى يزيد ابن عبد الملك بثلاثة عشر رجلا من الاسرى فلما أدخلوهم عليه وعنده كثير عزة أنشد

حليم اذا ما نال عاقب مجملا * أشد العقاب أوعفا لم يثرب

فعفو أمير المؤمنين وحسبه * فما تأته من صالح لك يكتب

أساؤا فان تصفح فانك قادر * وأفضل حلم حسبة حلم مغضب

فقال يزيد بن عبد الملك هيهات ياأبا صخر طف بك الرحم لاسبيل الى ذلك ان الله عزوجل

أقاد بنيهم بأعمالهم الخبيثة ثم أمر بهم فقتلوا وبقى غلام صغير فقال اقتلونى فما أنا بصغير فأمر به يزيد فقتل أيضا * وكان أهل المهلب مشهورين بالكرم والجود والفتوة ولهم أخبار طويلة لامحل لذكرها هنا

وبينما كان مسلمة بن عبد الملك أخو يزيد والعباس بن أخيه يقاتلان آل المهلب اذ دخل على يزيد بن عبد الملك جماعة من المتقربين اليه وقالوا ياأمير المؤمنين ان أهل العراق أهل غدر وارجاف وقد توجهنا محاربين والحوادث تحدث ولا نأمن من أن يرجف أهل العراق فيقولون مات أمير المؤمنين فيفت ذلك فى أعضادنا فلو عهدت الى عبد العزيز بن الوليد لكان رأيا صوابا فبلغ ذلك مسلمة بن عبد الملك فأتى أخاه يزيد فقال ياأمير المؤمنين أيما أحب اليك أخوك أم ابن أخيك فقال بل أخى فقال فأخوك أحق بالخلافة فقال يزيد اذا لم تكن فى ولدى فأخى أحق بها من ابن أخى كما ذكرت قال فابنك لم يبلغ فبايع لهشام بن عبد الملك ثم بعده لابنك الوليد وكان الوليد يومئذ ابن احدى عشرة سنة فبايع بولاية العهد لهشام ابن عبد الملك أخيه وبعده لابنه الوليد بن يزيد وعاش اليزيد حتى بلغ ابنه الوليد أشده فكان اذا رآه يقول الله بينى وبين من جعل هشاما بينى وبينك وظلت ولاية العهد لهشام حتى ولى الخلافة * وفى أيام يزيد بن عبد الملك ولد أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن محمد بن على فى ربيع الآخر وهو السفاح وقدم على أبيه محمد بن على أبو محمد الصادق من خراسان وجماعة من أصحابه فأخرج اليهم أبا العباس مقمطا بقماط ولفائف وله خمسة عشر يوما وقال لهم هذا صاحبكم الذى يتم الامر على يده فقبلوا أطرافه وقال لهم والله ليتمن الله هذا الامر حتى تدركوا ثاركم من عدوكم

وخرج فى أيام يزيد كثير من طوائف الترك وقاتلوا المسلمين وأجلوا من كان منهم بارمينية والجزيرة والمتولى عليهما يومئذ ابن هبيرة فجهز يزيد الجراح لقتالهم وردهم الى الطاعة فقاتلهم قتالا شديدا وأفحش فى قتلهم وسبى ذراريهم وقاتل سائر الخوارج حتى أرجعهم الى الطاعة وكاتب يزيد بالفتح وطلب المدد فوعده ولكن المنية عاجلته وكانت وفاة يزيد باربل من أرض البلقاء وقيل بالجولان وحمل على أعناق الرجال الى دمشق ودفن بين باب الجابية وباب الصغير لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة وله أربعون سنة وقيل خمس وثلاثون سنة وكانت خلافته أربع سنين وشهرا وأياما * ذكر الحافظ ابن عساكر أن سبب موت يزيد ابن عبد الملك هذا أنه كان اشترى فى أيام أخيه سليمان جارية من عثمان بن سهل بن حنيف باربعة آلاف دينار وكان اسمها حبابة وأحبها حبا شديدا فبلغ أخاه سليمان ذلك فقال هممت أن أحجر على يزيد فبلغ ذلك يزيد فباعها خوفا من أخيه سليمان فلما أفضت الخلافة اليه قالت له زوجته ياأمير المؤمنين هل بقى فى نفسك من الدنيا شئ قال نعم فقالت وما هو قال حبابة فاشترتها له وهو لايعلم وزينتها وأجلستها من وراء ستر لها ثم قالت ياأمير المؤمنين هل

بقي في نفسك من الدنيا شئ قال أو ماأعلمتك أنها حبابة فرفعت الستر وقالت هاأنت وحبابة وتركته واياها فحظيت عنده وغلبت على عقله ولم ينتفع به في الخلافة وانه قال يوما ان بعض الناس يقولون انه لن يصفو لاحد من الملوك يوم كامل من الدهر واني لا كذبنهم في ذلك ثم أقبل على لذاته واختلى بحبابة وأمر أن يحجب عن سمعه وبصره كل مايكره فبينما هو على تلك الحالة في صفو عيشه وزيادة فرحه وسروره اذ تناولت حبابة حبة رمان وهي تضحك فغصت بها فماتت فاختل عقل يزيد وتكدر عيشه وذهب سروره ووجد عليها وجدا شديدا وتركها أياما لايدفنها وهو يقبلها ويسترشفها حتى أنتنت وفاحت فامر بدفنها ثم نبشها من قبرها وله معها أخبار طوال أضربنا عن ايرادها وغنته يوما

وبين التراقي واللهاة حرارة * وما طعمت يوما بسوغ فتبردا

فأهوى عند سماعه قولها ليطير فقالت ياأمير المؤمنين ان لنا فيك حاجة فقال والله لأطيرن فقالت على من تخلف الامة والملك قال عليك والله وقبل يدها فخرج بعض خدمه وهو يقول سخنت عينك ماأسخفك

ولما عاد من دفنها سمع جارية له تتمثل بعدها

كفى حزنا بالهائم الصب أن يرى * منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى بكاء مرا واشتد به النحيب ولم يعش بعدها الا خمسة عشر يوما وكان مرضه بالسل وقال فيها

فان تسل عنك النفس أوتدع الهوى * فباليأس تسلو عنك لابالتجلد

وكل خليل زارني فهو قائل * من أجلك هذا هالك اليوم أوغد

قال صاحب الكامل ولم يعلم بموت يزيد أحد حتى ناحت سلامة حظيته * هي حظية أخرى غير حبابة كان يحبها فقالت

لاتلمنا ان خشعنا * أو هممنا بخشوع
قد لعمري بت ليلي * كأخي الداء الوجيع
ثم بات الهم مني * دون من لي بضجيع
للذي حل بنا اليو * م من الأمر الفظيع
كلما أبصرت ربعا * خاليا فاضت دموعي
قد خلا من سيد كا * ن لنا غير مضيع

ثم نادت وا أمير المؤمنيناه فعلموا بموته قال والشعر لبعض الانصار اه واستأمر يزيد على مصر في خلافته بشر بن صفوان الكلبي فأقام الى سنة ثلاث ومائة ثم خلعه وولى أخاه حنظلة فأقام الى سنة خمس ومائة وهي السنة التي مات فيها يزيد بن عبد الملك ثم عزل ولما مات يزيد خلفه في الملك هشام بن عبد الملك

(الفصل العاشر)

(في خلافة هشام بن عبد الملك)

ثم قام بالامر بعد يزيد أخوه هشام بن عبد الملك بن مروان بويع له بالخلافة يوم مات أخوه يزيد سنة خمس ومائة هجرية أى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ميلادية بعهد منه اليه ولما أتته الخلافة كان بالرصافة فسجد وسجد أصحابه لما بشر بها وسار الى دمشق * قال مصعب الزبيري زعموا أن عبد الملك بن مروان رأى فى منامه أنه بال فى المحراب أربع مرات فدس من يسأل سعيدبن المسيب وكان يعبر الرؤيا فقال يملك من صلبه أربعة فكان آخرهم هشاما اه

فلما كانت السنة الاولى من خلافته سير مسلم بن سعيد لغزو الترك فعبر النهر وعاث فى بلادهم وخرب وأتلف وأراق الدماء وقفل فتأثره الترك فعبر النهر ولم ينالوا منه أربا ثم غزا افشين فلم يروا بدا من مصالحته على ستة آلاف رأس وسلموا اليه القلعة ثم غزا غزوة أخرى فى سنة ست ومائة فأبطأ عنه الناس وكان ممن أبطأ البختري بن درهم فأرسل مسلم نصر بن سيار الى بلخ وأمره أن يخرج الناس اليه وكان العامل على بلخ يومئذ عمرو بن مسلم فذهب نصر وأحرق باب البختري وزياد بن طريف الباهلي ومنعهما عمرو من دخول بلخ فقامت بسبب ذلك فتنة عظيمة فانهزم نصر المذكور وأمرهم بأن يلحقوا بمسلم بن سعيد * ولما قطع مسلم النهر ولحقه من لحقه من أصحابه سار الى بخارى فجاء كتاب خالدبن عبدالله القسري بولايته ويأمره باتمام الغزوة فسار الى فرغانة وبلغه أن خاقان كان قادما عليه بخيله ورجله فارتحل فلحقه خاقان بعد ثلاث مراحل وأحاط بالمسلمين ونازلهم وقتل المسيب بن بشر الرياحي والبراء من فرسان المهلب وغيرهما من الابطال وسار مسلم بالناس ثمانية أيام والترك مطيفون بهم وكان مسلم قد أحرق ماثقل من أمتعة المسلمين ماقيمته ألف ألف وأصبحوا فى اليوم التاسع قريب النهر ودونه أهل فرغانة والشاش فأمر مسلم أصحابه أن يخترطوا سيوفهم ويحملوا على الاعداء فأفرج أهل فرغانة والشاش عن النهر فعبر مسلم وأصحابه واتبعهم ابن خاقان فكان حميد بن عبد الله على الساقة من وراء النهر مثخنا بالجراح فبعث الى مسلم بالتربص وعطف على جموع الترك وقاتلهم قتالا شديدا وأسر قائدهم وقائد الصغد وبينما هو يدبر أمر أصحابه اذ أصابه سهم فمات ثم أتى مسلم وقومه خجندة وقد أهلكهم الجوع

ولما كانت سنة اثنتين وعشرين ومائة ظهر زيدبن على بن الحسين بن على بن أبى طالب يريد منصب الخلافة وأقبل الى الكوفة ولبث بها مستخفيا يتنقل فى المنازل وأقبلت الشيعة تختلف اليه تبايعه فبايعه أناس من وجوه أهل الكوفة قال أهل التاريخ * وكانت بيعته انا ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وجهاد الظالمين ونصر أهل البيت

أتبايعون على ذلك فاذا قالوا نعم وضع يده على أيديهم ويقول * عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم لتفين ببيعتى ولتقاتلن عدوى ولتنصحن لى فى السر والعلانية فاذا قال نعم مسح يده على يده ثم قال * اللهم اشهد * فبايعه خمسة عشر ألفا وقيل أربعون ألفا فأمرهم بالاستعداد ولما شاع خبر خروجه أتاه سلمة بن كهيل فذكر له قرابته من صاحب الشريعة الاسلامية وحقه فأحسن و بالغ ثم قال له أنشدك الله كم بايعوك قال أربعون ألفا قال فكم بايع جدك قال ثمانون ألفا قال فكم فقل معه قال ثلثمائة قال أنشدتك الله أنت خير أم جدك قال جدى قال فهذا القرن خير أم ذلك القرن قال ذلك القرن قال أفتطمع أن يفى لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدك قال قد بايعونى و وجبت البيعة فى عنقى وأعناقهم قال أفتأذن لى أن أخرج من هذا البلد فلا آمن أن يحدث حدث فلا أملك نفسى فأذن له فخرج الى اليمامة وأكثر زيد من دعاء الناس الى بيعته فبايعه ناس كثير منها و رسم لاصحابه فيها بالخروج فخرج معه من كان يريد الوفاء له بالبيعة فعلم يوسف بن عمر بخبره وهو على الحيرة يومئذ وبعث فى طلبه وكان على الكوفة الحكم بن الصلت فخاف جماعة ممن خرج مع زيد واجتمع كبارهم وتكلموا مع زيد فيما هو فيه ثم فارقوه ونكثوا بيعته وقالوا سبق الامام * يعنون محمد الباقر * وكان قد مات وقالوا جعفر ابنه امامنا اليوم بعد أبيه فسماهم زيد بن على لذلك الرافضة * قال صاحب الكامل * وهم يزعمون أن المغيرة سماهم الرافضة اه وكانت طائفة أتت جعفر بن محمد الصادق قبل خروج زيد فأخبروه ببيعة زيد فقال بايعوه فهو والله أفضلنا وسيدنا فعادوا وكتموا ذلك وخرج زيد فيمن بقى معه من أهل الكوفة واقتتل مع أصحاب يوسف والريان وأهل الشام فتخلى عنه نفر ممن بقى معه فلما رأى زيد خذلان الناس اياه قال لنصر بن خزيمة وقد كان يقاتل مع زيد أنا أخاف أن يكونوا قد فعلوها حسينية * يعنى كما فعلوا بالحسين * فقال نصر بن خزيمة أما والله لاقاتلن معك حتى أموت وان الناس فى المسجد فامض بنا نحوهم فساروا حتى انتهوا الى باب المسجد بعد قتال فجعل أصحابه يدخلون راياتهم من فوق الابواب و يقولون ياأهل المسجد اخرجوا من الذل الى العز اخرجوا الى الدين والدنيا فانكم لستم فى دين ولادنيا فرماهم أهل الشام بحجارة من فوق المسجد فانصرفوا ثم عادوا بعد ذلك الى القتال فاشتد أصحاب يوسف بن عمر على أصحاب زيد بن على واشتد كذلك أصحاب زيد واقتتلوا قتالا عنيفا فقتل نصر بن خزيمة ومعاوية بن اسحق الانصارى بين يدى زيد ورمى زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى فثبت فى دماغه وأحضر أصحابه طبيبا فانتزع النصل فضج زيد ومات لساعته واختلف أصحابه فى أين يدفنونه فقال بعضهم نطرحه فى الماء وقال بعضهم بل نحتز رأسه ونلقيه بين القتلى فمانع ابنه يحيى وقال والله لايأكل لحم أبى الكلاب فقال بعضهم ندفنه فى الحفرة التى يؤخذ منها الطين ونجعل عليه الماء ففعلوا فلما دفنوه أجروا عليه الماء وقيل انه دفن بنهر يعقوب سكر أصحابه الماء ودفنوه ثم أجروا الماء وكان معهم مولى لزيد بن على من أهل السند قيل انه

رآهم

رآهم فلما تفرق الناس وتتبع يوسف بن عمر الجرحى دله السندى المذكور على موضع زيد فنبشه وقطع رأسه وسيرها الى الحيرة وأمر فصلبوا جثته بالكناسة ومعه نصر بن خزيمة ومعاوية بن اسحق وزياد النهدى وسيروا رأس زيد الى هشام بن عبد الملك فأمر بها فصلبت على باب دمشق ثم أرسلها الى المدينة وبقيت الجثة مصلوبة الى أن مات هشام وولى الوليد فأمر بانزالها واحراقها

وكثرت فى أيام هشام الخوارج والدعاة وكان لهم مع عماله وقائع مشهورة يطول شرحها وكان هشام حازما عاقلا صاحب سياسة حسنة ورأى ودهاء وحزم وفيه حلم فكان لذلك موفقا وكان يوصف بالبخل والحرص ويقال انه جمع من الاموال مالم يجمعه خليفة قبله * قال عقال ابن شبة دخلت على هشام وعليه قباء فنك أخضر فوجهنى الى خراسان وجعل يوصينى وأنا أنظر الى القباء ففطن فقال مالك فقلت رأيت عليك قبل أن تلى الخلافة قباء مثل هذا فجعلت أتأمل أهو هذا أم غيره فقال هو والله ذلك وأما ماترون من جمعى المال وصونه فهو لكم * قال وكان محشوا عقلا اه وكان حسن الخلق قال مجمع بن يعقوب الانصارى شتم هشام رجلا من الاشراف فوبخه ذلك الرجل وقال أما تستحى أن تشتمنى وأنت خليفة الله فى أرضه فاستحى منه وقال اقتص منى فقال اذا أنا سفيه مثلك قال فخذ منى عوضا من المال قال ما كنت لأفعل قال فهبها لله قال هى لله ثم نكس هشام رأسه واستحى وقال والله لاأعود الى مثلها أبدا * ذكر صاحب الكامل أن الجعد بن درهم أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام فاخذه هشام وسيربه الى خالد القسرى وهو يومئذ على العراق وأمره بقتله فحبسه خالد ولم يقتله فبلغ الخبر هشاما فكتب الى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله فاخرجه خالد من الحبس فى وثاقه فلما صلى العيد يوم الاضحى قال فى آخر خطبته انصرفوا وضحوا يقبل الله منكم فانى أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم فانه يقول ما كلم الله موسى ولا اتخذ ابراهيم خليلا تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل وذبحه اه وكان هشام شديد التمسك بدينه قيل انه تفقد بعض ولده فلم يحضر الجمعة فقال مامنعك من الصلاة قال نفقت دابتى قال أفعجزت عن المشى وأمر فنعوه الدابة سنة ومات هشام بالرصافة لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة وكان مرضه الذبحة وعمره خمس وخمسون سنة وقيل ست وخمسون فكانت خلافته تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وأحدا وعشرين يوما

واستعمل على مصر فى خلافته أخاه محمد بن عبد الملك وعزله وولى بعده الحر بن يوسف ثم ولى حفص بن الوليد فأقام الى آخر سنة ثمان ومائة وولى بعده فى سنة تسع ومائة عبد الملك ابن رفاعة ثم صرفه فى سنته وولى أخاه الوليد فأقام الى أن توفى سنة تسع عشرة فولى بعده عبد الرحمن بن خالد الفهمى فأقام سبعة أشهر وصرف وأعيد حنظلة بن صفوان فى سنة عشرين ثم صرفه وأعاد حفص بن الوليد فأقام ثلاث سنين ثم عزل وكان عبد الله بن الحبحاب متولى الخراج بمصر فى سنة سبع ومائة للهجرة أى سنة سبع وعشرين وسبعمائة للميلاد فاشتد

على القبط فى تحصيل الخراج شدة بالغة وزاد قيراطا فى كل دينار فاسترجوه فلم يقبل فانتقض عليه عامة الحوف الشرقى من القبط فحاربهم وقتل وسبى ونهب وخرب وأراق الدماء أنهرا وقد كان قبله فى سنة أربع ومائة للهجرة اشتد أسامة بن زيد التنوخى متولى الخراج عليهم وأوقع بهم وأخذ أموالهم ووسم أيدى الرهبان بحلقة حديد منقوش عليها اسم الراهب وديره وتاريخه فكان اذا وجد أحدهم بغير وسم قطع يده وشهره وكتب الى جميع العمال بان من وجد من النصارى وليس معه منشور يؤخذ منه عشرة دنانير ثم كان منه بعد ذلك أن كبس دياراتهم وقبض على كثير من الرهبان بغير وسم فضرب أعناقهم وضرب باقيهم بالسياط حتى ماتوا تحت الضرب ثم أمر فهدموا الكنائس ونهبوا ما فيها فكانت شدة عظيمة للغاية ووصل الخبر بذلك الى هشام بن عبد الملك فكتب هشام الى مصر بان يجرى النصارى على عوائدهم وما بأيديهم من العهد فلم يعمل حنظلة بن صفوان بما رسم به هشام بل شدد عليهم فى ولايته الثانية وزاد فى الخراج وأحصى الناس والبهائم وجعل على كل رجل منهم وسما صورة أسد وتتبعهم فمن وجد يده بغير وسم قطع يده فازدادت الشدة وعظم أمرها أياما كثيرة وكادت تهب الفتنة وتعم سائر البلاد فخاف العمال وانكفوا وسكنت الاحوال

ومات فى خلافة هشام الاكسندروس بطرك الاسكندرية فكانت مدته اربعا وعشرين سنة قاسى فيها من البلايا والمحن مامر بك بيانه فخلا الكرسى بعده أربع سنين فأقيم بعده قسيما أوهو قزمان وهو رابع أربعيهم وأصله من نبا موسير فأقام سنة ومات ولم يعرف من أخباره شئ فقام بعده تاودورو وهو خامس أربعيهم وكان فى دير أبو يحنس وفى أيامه أحدثت كنيسة بوقنا بخط الحمرة ظاهر مدينة مصر فقام جماعة من المسلمين فى سنة سبع عشرة ومائة للهجرة أى نحو سنة سبع وثلاثين وسبعمائة للميلاد على الوليد بن رفاعة أمير مصر يومئذ بسببها وشددوا فى طلب هدمها وكادت الفتنة تنتشر ويعظم ضرامها وبقى الحال هكذا أياما كثيرة ثم سكنت * وفى سنة سبع ومائة أى فى خلافة هشام بن عبد الملك تمكن ملك الروم يومئذ من اقامة بطرك للملكية بالاسكندرية فمضى ومعه هدية سنية للغاية الى هشام فكتب له برد كنائس الملكية اليهم فأخذوا يومئذ من المتأصلين كنيسة البشارة وكان الملكيون أقاموا سبعا وسبعين سنة بغير بطرك فى أرض مصر من عهد عمر بن الخطاب الى خلافة هشام بن عبد الملك فغلب المتأصلون فى هذه المدة على كنائس مصر كافة وأقاموا منهم بها أساقفة وبعث اليهم أهل بلاد النوبة فى طلب أساقفة فسيروا اليهم جماعة فصارت النوبة من ذلك العهد على مذهب دسقورس وبقيت كذلك الى أن تفشت فيها الديانة الاسلامية وعمت سائر أرجائها فدانت بها الى هذا الحين * ولما مات هشام بن عبد الملك تولى الخلافة بعده ابن أخيه الوليد بن يزيد المعروف بالفاسق

(الفصل الحادى عشر)

(فى خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك)

ثم قام بالامر بعد هشام ابن أخيه الوليد بن يزيد المعروف بالفاسق بويع له بالخلافة فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة للهجرة أى نحو سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة للميلاد يوم موت عمه هشام بالرصافة وقد كان أبوه حين احتضر عهد بالامر الى هشام أخيه بأن يكون العهد من بعده لولده الوليد فلما مات هشام بويع له وهو اذ ذاك بالبريه فارا من عمه هشام لانه كان بينه وبين عمه منافسة بسبب استخفافه بالدين وشربه الخمر واشتهاره بالفسق فهم هشام بقتله ففر منه وصار لايقيم بأرض خوفا من هشام فلما كانت الليلة التى قدم عليه البريد فى صبيحتها بالخلافة قلق تلك الليلة قلقا شديدا فقال لبعض أصحابه ويحك انه قد أخذنى الليلة قلق فاركب بنا حتى نتنفس فسارا مقدار ميلين وهما يتحدثان فى أمر هشام وما يتعلق به مما كتبه اليه بالتهديد والوعيد ثم نظرا فرأيا من بعد رهجا وصوتا ثم انكشف ذلك عن بريد يطلبونه فقال لصاحبه ويحك ان هذه رسل هشام اللهم اعطنا خيرهم فلما قرب البريد منهما وأثبتوا الوليد معرفة ترجلوا وجاؤا فسلموا عليه بالخلافة فبهت وقال ويحكم أمات هشام قالوا نعم ثم أعطوه الكتب فقرأها وسار من فوره الى دمشق وكتب الى الآفاق بأخذ البيعة فجاءته بيعتهم وكتب اليه مروان بن محمد ببيعته واستأذنه فى القدوم عليه فلما استقرت به الخلافة أجرى على زمنى أهل الشام وعميهم وكساهم وأمر لكل انسان منهم بخادم وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزاد فى العطاء وزاد الوفود قال صاحب الكامل ولم يسئل فى شئ الاوقال

ضمنت لكم ان لم يعقنى عائق * بأن سماء الضر عنكم ستقلع
سيوشك الحاق بعن زيادة * وأعطية منى عليكم تبرع
فيجمعكم ديوانكم وعطاؤكم * به تكتب الكتاب شهرا وتطبع

وقال حكم الوادى المغنى كنا مع الوليد وأتاه خبر موت هشام وهنئ بولاية الخلافة وأتاه القضيب والخاتم ثم قال فأمسكنا ساعة ونظرنا اليه بعين الخلافة فقال غنونى

طاب يومى ولذ شرب السلافه * وأتانا نعى من بالرصافه
وأتانا البريد ينعى هشاما * وأتانا بخاتم الخلافه
فاصطبحنا من خمر عانة صرفا * ولهونا بقينة عرافه

قال وحلف لايبرح من موضعه حتى يغنى فى هذا الشعر ويشرب عليه ففعلنا ذلك ولم نزل نغنى الى الليل اه وعقد فى هذه السنة يعنى السنة التى تولى الخلافة فيها لولديه الحكم

وعثمان البيعة من بعده وجعلهما ولي عهده أحدهما بعد الآخر وجعل الحكم مقدما وكتب بذلك الى الآفاق وجعل يتنسم خبر أولاد الحسين بعد خروج زيد بن عليّ وقتله في خلافة هشام عمه * فلما كانت سنة خمس وعشرين جاء الخبر الى الوليد بالقبض على يحيي ابن زيد بن علي بن الحسين بخراسان وقد كان هرب اليها بعد موت أبيه زيد وسار منها الى بلخ مختفيا فأقام بها عند الحريش بن عمرو بن داود فكتب الوليد يأمره أن يؤمنوه ويخلوا سبيله وسبيل أصحابه فأطلقوهم فساروا الى نيسابور وبها عمرو بن زرارة وكان مع يحيي سبعون رجلا فرأى يحيي تجارا وجماعة من أبناء السبيل فسلبهم متاعهم وأخذ هو وأصحابه دوابهم ولحق بالجوزجان فسار في أثره سالم بن أحوز فلحقه بها فقاتله قتالا شديدا فقتل أصحاب يحيي عن آخرهم وأصاب يحيي بسهم في جبهته فاحتزوا رأسه وسلبوه قميصه وصلبوا جثته بالجوزجان * قال صاحب الكامل فلم يزل مصلوبا حتى ظهر أبو مسلم الخراساني واستولى على خراسان فأنزله وصلى عليه ودفنه وأمر بالنياحة عليه في خراسان وأخذ أبو مسلم ديوان بني أمية وعرف منه أسماء من حضر قتل يحيي فمن كان حيا قتله ومن كان ميتا خلفه في أهله بسوء وكانت أم يحيي ريطة بنت أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنيفة

وكان الوليد يتظاهر بالكفر والزندقة منهمكا على شرب الخمر واللذات والقصف واللهو قليل الاهتمام بأمور الرعية * قال الحافظ ابن عساكر وغيره انهمك الوليد في شرب الخمر ولذاته ورفض الآخرة وراء ظهره وأقبل على القصف واللهو والتلذذ مع الندماء والمغنين وكان يضرب بالعود ويوقع بالطبل ويمشي بالدف وكان قد انتهك محارم الله تعالى حتى قيل له الفاسق وكان مع ذلك أكمل بني أمية أدبا وفصاحة وظرفا وأعرفهم بالنحو واللغة والحديث وكان جوادا مفضالا ولم يكن في بني أمية أكثر ادمانا للشراب والسماع ولا أشد مجونا وتهتكا واستخفافا لامر الامة من الوليد المذكور * ويقال انه واقع جارية له وهو سكران وجاءه المؤذنون يؤذنون بالصلاة فحلف أنه لا يصلي بالناس الا هي فلبست ثيابه وتنكرت وصلت بالمسلمين وهي جنب سكرى قال ويقال انه اصطنع بركة من خمر فكان اذا طرب ألقى بنفسه فيها وشرب منها حتى يبين النقص في أطرافها اهـ * ولما كثر مجونه وزاد حبه وولوعه للمعاقرة وشرب الخمر واتيان المنكرات والاستخفاف بأمور الرعية قام عليه أهل دمشق واجتمعوا على خلعه وبايعوا ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك الملقب بالناقص فخرج عليه يزيد وتغلب على دمشق وكان الوليد يومئذ بناحية تدمر في الصيد فجهز يزيد عسكرا وسار بهم نحوه فحاربوه الى أن أحاطوا به بحصن البخرة من أرض تدمر وشددوا في القتال وأخذوا عليه جميع الطرق وتسوّروا عليه وذبحوه وأتوا برأسه على رمح فأمر به يزيد فنصبوه على سور دمشق * وقيل لما حصره أصحاب يزيد همّ أصحابه بالقتال فنهاهم عن ذلك فأفلتوا من حوله فدخل عليه أصحاب يزيد في قصره فقال يوم كيوم عثمان فقيل له ولا سواء فقطع رأسه وطيف به في دمشق ثم نصب على قصره ثم على

أعلى سور دمشق * وكان أكثر الناس بغضا اليه وأكبرهم حقدا عليه أهل اليمن فسعوا في قتله وأغروابه يزيد حتى ركب عليه وقتله * وقال حمزة بن بيض في الوليد

وصلت سماء الضر بالضر بعدما * زعمت سماء الضر عنا ستقلع
فليت هشاما كان حيا يسومنا * وكنا كما كنا نرجى ونطمع

وقال أيضا

ياوليد الخنا تركت الطريقا * واضحاوارتكبت فجا عميقا
وتماديت واعتديت وأسرفـ * ـت وأغويت وانبعثت فسوقا
أبدا هات ثم هات وهاتى * ثم هاتى حتى تخر صعيقا
أنت سكران ماتفيق فما تر * تق فتقا وقد فتقت فتوقا

وحكى الماوردى فى كتاب أدب الدين والدنيا عن الوليد بن يزيد المذكور أنه تفاءل يوما فى المصحف فخرج له قوله تعالى واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد فمزق المصحف وأنشأ يقول

أتوعد كل جبار عنيد * فها أنا ذاك جبار عنيد
اذا ماجئت ربك يوم حشر * فقل يا رب مزقنى الوليد

قال فلم يلبث الا أياما قليلة حتى قتل شر قتلة وصلب رأسه على قصره ثم على أعلى سور بلده اهـ قتل فى جمادى الاولى سنة ست وعشرين ومائة وكانت خلافته سنة واحدة وقيل سنة وشهرين وبموته اضطربت الامور واختل نظام البلاد واضطرمت نار الفتنة واستنصر على بنى أمية أعداؤهم فزالت هيبتهم وذبلت شوكتهم فلم تقم لهم قائمة بعده كما سيذكر فى محله * ومع مااشتهر به الوليد من الزندقة والتظاهر بالمنكرات فقد كان له محاسن أخرى فمما نقل عنه من حسن الكلام ماقاله لما مات مسلمة بن عبد الملك لهشام وهو جالس للعزاء فقد أتاه الوليد المذكور وهو نشوان يجرّ مطرف خز عليه فوقف على هشام فقال ياأمير المؤمنين ان عقبى من بقى لحوق من مضى * وقد أقفر بعد مسلمة الصيد لمن رمى * واختل الثغر فهوى وعلى اثر من سلف * يمضى من خلف * فتزوّدوا فان خير الزاد التقوى اهـ فأعرض هشام ولم يحر جوابا وسكت القوم فلم ينطقوا * قيل وقد نزه قوم الوليد مما قيل فيه وأنكروه ونفوه عنه وقالوا انه قيل عنه وألصق به وليس بصحيح * وكان من فتيان بنى أمية وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم وأشدائهم وله شعر جيد للغاية لاسيما فى الخمر والغزل والعتاب وقدأخذ كثير من الشعراء معانيه فى وصف الخمر فسرقوها وأدخلوها فى أشعارهم وخاصة أبا نواس فانه أكثرهم أخذا لها * قال المدائنى دخل ابن للغمر بن يزيد أخى الوليد على الرشيد فقال له ممن أنت فقال من قريش قال من أيها فامسك فقال قل وأنت آمن ولو أنك مروان فقال أنا ابن الغمر بن يزيد فقال رحم الله عمك الوليد ولعن يزيد الناقص فانه قتل خليفة مجمعا عليه ارفع حوائجك فرفعها فقضاها

وفى أيامه انتقض القبط بصعيد مصر من جور العمال وشقوا عصا الطاعة فوقعت الحرب بينهم وبين الجند المرابط بمصر واقتتلوا أياما كثيرة فقتل خلق ثم خرج يحنس القبطى وكان من فحول زمانه وكبار القوم وعظمائهم فى مدينة سمنود فحارب العمال وقاتلهم قتالا عنيفا ودامت الفتنة أياما كثيرة اشتد فيها المسلمون على النصارى شدة بالغة وطال الاخذ والرد وعمت الصعيدين ثم انجلت بموت يحنس المذكور وخلق معه فكانت فتنة عظيمة للغاية على جميع النصارى وبموت الوليد بن يزيد تولى الخلافة بعده يزيد بن الوليد بن عبد الملك

(الفصل الثانى عشر)

(فى خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان)

ثم قام بالامر بعد الوليد يزيد بن الوليد بن عبد الملك بويع له بالخلافة يوم قتل ابن عمه الوليد سنة ست وعشرين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ميلادية وهو أول خليفة كانت أمه أمة وكان بنو أمية يتحرزون ذلك تعظيما للخلافة ولما سقط اليهم أن ملكهم يزول على يد خليفة أمه أمة كانوا يتخوفون من ذلك الى أن ولى الخلافة الوليد بن يزيد فعلموا أن ملكهم قد انقضى * وكان يزيد المذكور يسمى الناقص وانما سمى بذلك لانه نقص أعطيات الناس وردهم الى ما كانوا عليه أيام هشام وقيل لنقصان كان فى أصابع رجليه وأول من سماه بهذا الاسم مروان بن محمد * ولما تولى الخلافة خطب الناس فذم الوليد وذكر الحاده وانه انما قتله لفعله الخبيث ثم قال * أيها الناس ان لكم على أن لا أضع حجرا على حجر ولا لبنة ولا اكرى نهرا ولا أكثر مالا ولا أعطيه زوجة وولدا ولا أنقل مالا عن بلد حتى أسد ثغره وخصاصة أهله بما يغنيهم فما فضل نقلته الى البلد الذى يليه ولا أجمركم فى ثغوركم فأفتنكم ولا أغلق بابى دونكم ولا أحمل على أهل جزيتكم ولكم أعطياتكم كل سنة وأرزاقكم فى كل شهر حتى يكون أقصاكم كأدناكم فان وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن الوزارة وان لم أف فلكم أن تخلعونى الا أن أتوب وان علمتم أحدا ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيكم وأردتم أن تبايعوه فأنا أول من يبايعه أيها الناس لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق اه

وأقام يزيد فى الخلافة والامور مضطربة عليه اذ قامت الفتنة على ساقها وهاجت وخرج أهل حمص واختلف أهل فلسطين ووثبوا على عمالهم ووثب سليمان بن هشام بن عبد الملك بعمان وكان قد حبسه الوليد بها فخرج من الحبس وأخذ ما كان بها من الاموال وأقبل الى دمشق وجعل يلعن الوليد ويسبه وخرج أهل اليمامة أيضا على عاملهم يوسف ابن عمر واقتتلوا واشتد الاضطراب وعم الخلل ولم تكن لتستقر به الخلافة حتى مرض فى سنة ست وعشرين ومائة هجرية فلما علم جماعة القدرية وهم شيعته بمرضه دخلوا عليه وما زالوا

به حتى رسم بالبيعة لاخيه ابراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ومات لعشر بقين من ذى الحجة وقيل فى ثانى عشر جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة هجرية وهو ابن أربعين سنة وقيل ست وأربعين وقيل سبع وثلاثين سنة فكانت خلافته ستة أشهر وليلتين وقيل ستة أشهر واثنى عشر يوما وقيل خمسة أشهر واثنى عشر يوما وكان موته بدمشق وكان يظهر التنسك وقراءة القرآن وأخلاق عمر بن عبد العزيز وكان ذا دين وورع قال الشافعى ولى يزيد بن الوليد فدعا الناس الى القدر اه وهو أول من خرج بالسلاح يوم العيد خرج بين صفين يحملون السلاح وكان آخر ماتكلم لما احتضر واحسرتاه وا أسفاه ولما مات تولى الخلافة بعده أخوه ابراهيم بن الوليد

(الفصل الثالث عشر)

(فى خلافة ابراهيم بن الوليد)

ثم قام بالامر بعد يزيد أخوه ابراهيم بعهد من يزيد بويع له بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه أخوه سنة ست وعشرين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة للميلاد ولم يثبت له الامر لاضطراب الأمور ووقوع الخلاف فكان جمعة يسلم عليه بالخلافة وجمعة بالامارة وجمعة لايسلم عليه لابالخلافة ولا بالامارة وما زالت الامور مضطربة والفتنة متقد لهيبها من بلد الى آخر الى أن قتله مروان بن محمد وصلبه وكان مروان المذكور واليا على الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان ولاه عليها الوليد خوفا من خروجه عليه فقد كان حضر فى جيش عظيم لقتال الوليد ورده عن الملك ولم يبايعه حتى ولاه ماذكر فخرج فى ثمانين ألفا من أهل الجزيرة وأهل قنسرين وأهل حمص فسير لقتالهم ابراهيم بن الوليد جندا من دمشق مع سليمان بن هشام فنزل عين الجر فى مائة وعشرين ألفا ونزلها أيضا مروان فى ثمانين ألفا ودعاهم مروان الى الكف عن قتاله واطلاق ابنى الوليد الحكم وعثمان من السجن وضمن لهم أنه لايطلب أحدا من قتلة الوليد فلم يجيبوه الى شئ من ذلك وجدّوا فى قتال بعضهم وكثر القتل بينهم واشتد فانهزم أصحاب سليمان بن هشام ووضع أهل حمص السلاح فيهم فقتلوا منهم خلقا كثيرا وأتوا مروان من أسرائهم بمثل القتلى فأخذ مروان عليهم البيعة لولدى الوليد الحكم وعثمان وكانا معتقلين وهرب سليمان بن هشام مع من بقى واجتمعوا مع ابراهيم وعبد العزيز بن الحجاج فقال بعضهم لبعض ان بقى ولدا الوليد حتى يخرجهما مروان ويصير الامر اليهما لم يستبقيا أحدا من قتلة أبيهما فأمروا بقتلهما وأخرج يوسف بن عمر فضربت عنقه وأرادوا قتل أبى محمد السفيانى فدخل بيتا من بيوت السجن وأغلقه فلم يقدروا على فتحه فأرادوا احراقه فلم يؤتوا بالنار لاحراقه حتى قيل قد دخلت

خيل مروان المدينة فهربوا واختفى ابراهيم وانتهب مروان مافى بيت المال فكان شيأ كثيرا

وكانت خلافة ابراهيم شهرين وعشرة أيام فبايع الناس مروان على ماسيذكر فى محله واستوثق له الامر قبل ظهور ابراهيم بن الوليد ودخل عليه ونزل له عن الخلافة وذلك سنة سبع وعشرين ومائة هجرية أى سنة أربع وأربعين وسبعمائة ميلادية * واستعمل على مصر فى خلافته حسان بن عتاهية الحبيبى ثم عزله وأعاد حفص بن الوليد فبقى الى أن عزل فى سنة ثمان وعشرين ومائة هجرية

(الفصل الرابع عشر)

(فى خلافة مروان بن محمد)

لما قتل ابراهيم بن الوليد بويع لمروان بن محمد المنبوز بالحمار بالخلافة سنة ست وعشرين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ميلادية * وتحرير الخبر أنه لما دخل مروان دمشق وهرب ابراهيم بن الوليد ومن معه كما تقدم القول ثار من بدمشق من موالى الوليد الى دار عبدالعزيز بن الحجاج بن عبد الملك فقتلوا الحجاج ونبشوا قبر يزيد بن الوليد وأخرجوا جثته وصلبوها على باب الجابية وكبرت الفتنة وأتى مروان بولدى الوليد الحكم وعثمان مقتولين وبيوسف بن عمر فدفنهم وأخرج محمد السفيانى من محبسه يجر فى قيوده فلما وقف السفيانى بين يديه سلم عليه بالخلافة وقد كان يسلم على مروان الى ذلك اليوم بالامرة فأسكته مروان فقال محمد السفيانى انهما جعلاها لك بعدهما * قال صاحب الكامل وأنشده شعرا قاله الحكم

ألا من مبلغ مروان عنى * وعمى الغمر طال به حنينا
بأنى قد ظلمت وصار قومى * على قتل الوليد مشايعينا
أيذهب كلهم بدمى ومالى * فلا غثا أصبت ولا سمينا
ومروان بأرض بنى نزار * كليث الغاب مفترس عرينا
أتنكث بيعتى من أجل أمى * فقد بايعتم قبلى هجينا
فان أهلك أنا وولى عهدى * فمروان أمير المؤمنينا

ثم قال لمروان أبسط يدك أبايعك وسمعه جميع من حضر فكان أول من بايع معاوية ابن يزيد بن حصين بن نمير وعظماء أهل حمص والناس بعدهم فلما استقر له الامر رجع الى أهله بحوران فتقدم اليه جماعة فى طلب الأمان لابراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام فأمنهما فقدما عليه وبايعاه كما تقدم القول * ولم تستقر به الخلافة حتى ظهر الاضطراب وظهر عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بالكوفة ودعا الناس الى نفسه وتغلب

على

على حلوان والجبال وهمدان وأصبهان والرى وكثرت لومه وخرج اليه عبيد أهل الكوفة وانتقض أهل حمص فقاتلهم مروان ودخل حمص وأعمل فى أهلها السيف وهدم من سورها نحو غلوة وخالف أهل الغوطة فحصروا دمشق ومقدمهم يومئذ يزيد بن خالد فسير اليهم مروان عشرة آلاف من حمص فقاتلوهم قتالا شديدا وأخذوا مقدمهم يزيد بن خالد المذكور فاحتزوا رأسه و بعثوا به الى مروان بحمص * واختلف أيضا أهل فلسطين وانتقضوا فسير لهم مروان عسكرا ومقدمهم أبو الورد فقاتلوهم وشدد أبو الورد فى قتالهم حتى هزمهم وجاء مروان الخبر وهو يومئذ بدير أيوب ففرح بذلك وبايع لابنيه عبيدالله وعبدالله وزوجهما ابنتى هشام بن عبد الملك * قال أصحاب التاريخ فجمع لذلك بنى أمية واستقام له الشام ماخلا تدمر فسار اليها وأرسل من يقاتلها فاستأمن من بها بعد القتال وهدم سورها * وأرسل مروان الى الشام بعد ذلك فى طلب الجند لقتال الضحاك بالعراق وقد كان خرج عن طاعة مروان وتقدم مروان الى قرقيسيا فبينما هو بها اذ رجع عشرة آلاف ممن كان أخذهم من أهل الشام لقتال الضحاك فنزلوا بالرصافة وحببوا الى سليمان بن هشام بن عبد الملك خلع مروان بن محمد ومنوه بالخلافة ان هو فعل ذلك فأجابهم وسار باخوته ومواليه معهم فعسكر بقنسرين وكاتب أهل الشام فأتوه من كل وجه وبلغ الخبر مروان فرجع اليه من قرقيسيا واجتمع الى سليمان بن هشام نحو من سبعين ألفا من أهل الشام وغيرهم وعسكر بقرية خساف من أرض قنسرين فجاءه مروان عند وصوله واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم سليمان ومن معه واتبعتهم خيل مروان تقتل وتأسر واستباحوا عسكرهم فبلغ قتلى أصحاب سليمان زهاء ثلاثين ألفا وقتل ابراهيم بن سليمان وأكبر ولده ومضى سليمان حتى دخل حمص وانضم اليه من بقى من عسكره فتحصن بها ورم ماتخرب من أسوارها فتبعه مروان وقاتله فهزمه فخرج سليمان ومضى الى تدمر فأقام بها ونزل مروان على حمص فحاصر أهلها عشرة أشهر قال أصحاب التاريخ ونصب عليهم نيفا وثمانين منجنيقا يرمى بها الليل والنهار فلما تتابع عليهم البلاء طلبوا الامان فأمنهم

وفى خلال هذه الخطوب والحروب ظهر أبو مسلم الخراسانى وهو عبد الرحمن صاحب الدعوة العباسية بخراسان وظهر السفاح بالكوفة فلما استقر للسفاح الامر وظهرت آثار الدعوة لبنى العباس على ماسنذكره فى محله ان شاء الله جهز السفاح عمه عبدالله بن على بن عبدالله بن عباس لقتال مروان بن محمد فالتقى الجمعان بالزاب زاب الموصل وجعل كل فريق يرتب عسكره ويبالغ فى ترتيبها فقال مروان لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ياعبد العزيز ان زالت اليوم الشمس ولم يقاتلونا كنا الذين ندفعها الى المسيح عليه السلام وان قاتلونا فأقبل الزوال فانا لله وانا اليه راجعون * وأرسل مروان الى عبدالله بن على مقدم عسكر السفاح يسأله الموادعة فقال عبدالله كذب ابن رزيق لاتزول الشمس حتى أوطئه الخيل ان شاء الله فقال مروان لاهل الشام

ففوا الاتبدؤهم بالقتال وجعل ينظر الى الشمس فحمل الوليـد بن معاوية بن مروان بن الحكم وهو ختن مروان بن محمد على ابنته فغضب مروان من ذلك وشتمه وأمر عبـدالله الناس بان ينزلوا عن خيلهم فنزلوا وأشرعوا الرماح وجثوا على الركب ولم يظهروا عزما على القتال فاندفع عليهم أصحاب مروان وقاتلوهم فجعل أهل الشام يتأخرون كأنهم يدفعون فنادى عنـد ذلك عبـد الله بن علىّ ياأهل خراسان يالثارات ابراهيم يامحمـد يامنصور واشتد بينهم القتال وحمى الوطيس وضـعفت همم أصحاب مروان وتثاقلوا عن القتال فكان مروان ذلك اليوم لايدبر شيأ الا كان فيـه الخلل وانفشل عسكره فشـلا عظيما وانهزموا وانهزم مروان وقطع الجسر فكان من غرق يومئذ عنـد عبور ذلك الجسر أكثر ممن قتـل * وكتب عبـدالله بن علىّ الى السفاح بالفتح وحوى عسكر مروان بما فيه فكان فيه من السلاح والكراع والاموال شيأ كثيرا للغاية فلما وصل الكتاب الى السفاح فرح فرحا لايوصف وخر ساجدا لله تعالى وأمر لمن شهد الواقعة بخمسمائة دينار ورفع أرزاقهم الى ثمانين * ولما تمت هزيمة مروان تبعه عبد الله الى أن وصل نهر الاردن فالتقى جماعة من بنى أمية وكانوا نيفا وثمانين رجلا فقتلهم عن آخرهم ثم أمر عبـد الله بسحبهم فسحبوا وبسـط عليهم بساط وجلس هو وأصحابه فوقهـم واستدعى بالطعام فأكلوا وهم يسمعون أنينهم من تحتهم فقال عبد الله يوم كيوم الحسين ولا سواء ولما رأى مروان اشتداد الفتنة واستفحال الخطب وان الاعـداء كادوا يطبقون عليـه من كل جانب وكان قد نزل بحوران قام منها قاصدا أباعون عبد الملك بن يزيد الاسدى الذى ولاه السـفاح على شهرزور فلاقاه جند عبد الله بن علىّ العباسى فرفى أشهر أمة بالموصـل فرأى الرايات سودا وهى رايات العباسـيين فذهب الى حوران وأقام نيفا عن عشرين يوما حتى دنا منه عسـكر السفاح فسار الى حمص ثم الى دمشق ثم الى فلسطين وكان السفاح قد كتب الى عمه عبدالله فتبعه عبـدالله الى دمشق وجهز السفاح أيضا عمه صالح بن علىّ على طريق السماوة فلحق بأخيه عبد الله وقد نزل دمشق وفتحها عنوة وأباحها ثلاثة أيام ونقض عبـد الله سورها فلم يبق فيـه حجرا على حجـر وهرب مروان الى مصر فتبعه صالح بن علىّ ومروان ينهزم أمامه حتى أدركه أبوعون وجماعة أصحاب صالح بعدحين فى كنيسة بأبى صير من صـعيد مصر وقد تبددت أصحابه ولم يبق معه الا القليل جـدا فقاتلوه ليلا وكان أصحاب صالح قليلين فخافوا ان هم أصبحوا ورأوا أصحاب مروان قلتهم أهلكوهم فتحالفوا على القتال ليلا وكسروا أجفان سيوفهـم وحملوا على أصحاب مروان فانهزموا وحمل رجل على مروان فطعنه وهو لايعرفه وصاح صائح صرع أمير المؤمنـين فابتدروه واحتزوا رأسـه وبعثوا به الى صالح فلما وصـل اليه أمر أن يقص لسانه فقطعوا لسانه وتركوه لحظة لطيفة فأتت هرة فأخـذته فقـال صالح ماذا ترينا الايام من العجائب والعبر هـذا لسان مروان قد أخـذته هرة وذلك فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية وقيـل ثلاث وثلاثـين ومائة أى نحو سـنة خمسين وسبعمائة ميلادية وهو ابن ست وخمسين سنة فكانت خلافته خمس سـنين وشهرين

وعشرة

وعشرة أيام وهو آخر خلفاء بنى أمية فكانوا أربعة عشر خليفة أولهم معاوية بن أبى سفيان وآخرهم مروان الجعدى المنبوز بالحمار وكانت مدة خلافتهم نيفا وثمانين سنة وهى ألف شهر * ورجع صالح الى الشام ومعه رأس مروان وخلف أبا عون بمصر فلما رفع صالح رأس مروان الى السفاح سجد لله شكرا * وذكر أنه بينما كان مروان يحارب على الزاب ترجل عن فرسه لحاجة طبيعية فرجع الفرس الى الوراء فظن عسكره انه قتل فوقع فيهم الخوف وانفشلوا وهربوا فصار ذهاب ملكهم مثلا فقيل * انتهى ملك بنى أمية ببولة * ولما قتل مروان هرب ولداه عبيد الله وعبدالله الى أرض الحبشة فقتل عبيد الله قتله الحبشان ونجا عبدالله فى عدد من أصحابه وبقى الى خلافة المهدى حتى قبض عليه نصر بن محمد بن الاشعث عامل فلسطين وبعث به الى المهدى * وكان مروان المذكور بطلا شديدا شجاعا ذاهيبة أبيض ربعة أشهل ضخما كث اللحية وكان حازما سياسيا واستعمل على مصر فى خلافته الحوثرة بن سهيل الباهلى ثم ولى بعده المغيرة بن عبيد الفزارى سنة احدى وثلاثين ومائة ثم ولى عبد الملك بن مروان مولى لخم سنة ثنتين وثلاثين ومائة فلما قامت الدولة العباسية واستقام الامر للسفاح على ماسيذكر فى محله وانهزم مروان الحمار وهرب الى مصر ولى السفاح نيابة الشام ومصر صالح بن علىّ بن عبد الله بن عباس فسار صالح بعد قتل مروان الى الشام واستخلف على مصر أبا عون عبد الملك بن يزيد الاسدى كما تقدم القول

(فصل)

(فى كيفية الدعوة لبنى العباس وفى ظهور دولتهم)

لما كان ظهور الدولة العباسية من الاهمية التاريخية بمكان لاسيما وفى ذكر حوادث ذلك الظهور وأصل الدعوة لبنى العباس وما ترتب عليها تذكرة وعبرة رأيت أن لابأس بايراد تفصيلها هنا اظهارا لاصل الدعوة وكيف كان كتمانها بين الاحزاب أعواما مع كثرة الدعاة وتخلفهم على الناس * قال أصحاب التاريخ لما كان محمد بن علىّ بن عبد الله بن عباس نازلا بأرض الشراة من أعمال البلقاء بالشام خرج أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الى الشام يريد لقاء سليمان بن عبد الملك فاجتمع به محمد بن علىّ بن عبدالله بن عباس المذكور فأحسن صحبته واجتمع أبو هاشم بسليمان فأكرمه وقضى حوائجه ورأى من علمه وفصاحته ماحسده عليه وخافه فوضع عليه من وقف على طريقه فسمه فى لبن فلما أحس أبو هاشم بذلك قصد الحمة وبها محمد بن علىّ بن عبد الله المذكور فنزل عليه فأخبره بخبره وأعلمه أن أمر الخلافة صائر الى ولد محمد بن علىّ بن عباس المذكور وعرفه مايعمل وأوصاه بكتمان الامر

وكان أبو هاشم قد أعلم شيعته من أهل خراسان والعراق عند ترددهم اليه أن أمر الخلافة صائر الى ولد محمد بن علىّ وأوصاهم بقصده بعده * فلما مات أبو هاشم قصدت شيعته محمد بن علىّ وبايعوه وعادوا فدعوا الناس اليه فأجابوهم وسير محمد بن عبد الله الى الآفاق جماعة فوجه ميسرة الى العراق ووجه محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وهو أبو محمد الصادق وحيان العطار وخال ابراهيم بن سلمة الى خراسان وعليها الجراح الحكمى وأمرهم بالدعاء اليه والى أهل بيته فلقوا من لقوا ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم الى محمد بن علىّ فدفعوها الى ميسرة فبعث بها ميسرة الى محمد بن علىّ ففرح بها واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علىّ اثنى عشر نقيبا وسبعين رجلا أخر فكتب لهم محمد بن على كتابا ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرون بها وذلك سنة مائة للهجرة فعملوا به وجعلوا يدعون الناس فظهر أمرهم بخراسان فجاء رجل الى سعيد بن خزيمة عامل خراسان فقال له ان ههنا قوما قد ظهر منهم كلام قبيح وأعلمه حالهم فبعث سعيد اليهم فأتى بهم فقال من أنتم قالوا ناس من التجار قال فما هذا الذى يحكى عنكم قالوا لاندرى قال جئتم دعاة قالوا ان لنا فى أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا فقال من يعرف هؤلاء فجاء ناس من أهل خراسان أكثرهم من أهل ربيعة واليمن فقالوا نحن نعرفهم وهم علينا ان أتاك منهم شئ تكرهه فخلى سبيلهم فظلوا على ما كانوا عليه من الدعوة الى محمد بن علىّ وابن خزيمة لاه عنهم

فلما كانت سنة أربع ومائة هجرية ولد (أبو العباس عبدالله) بن محمد بن على بن محمد بن على فى ربيع الآخر وهو السفاح وجاء الى أبيه محمد بن على (أبو محمد الصادق) من خراسان فى عدة من أصحابه فأخرج اليهم محمد بن على ولده أبا العباس المذكور فى خرقة وله خمسة عشر يوما وقال لهم هذا صاحبكم الذى يتم الامر على يده ففرحوا به وقبلوا أطرافه وقال لهم والله ليتمن الله هذا الامر حتى تدركوا ثاركم من عدوكم * قالوا وكان أول من قدم خراسان من دعاة بنى العباس زياد أبو محمد مولى همدان فى ولاية أسيد بعث به محمد بن على ابن عبد الله بن عباس وقال له انزل فى اليمن والطف بمضر ونهاه عن رجل بنيسابور يقال له غالب لانه كان مفرطا فى حب بنى فاطمة ويقال أول من أتى خراسان بكتاب محمد بن على حرب بن عثمان مولى بنى قيس بن ثعلبة من أهل بلخ فلما قدم زياد دعا الى بنى العباس وذكر سيرة بنى أمية وظلمهم وأطعم الناس الطعام فقدم عليه غالب من نيسابور فتناظرا فى تفضيل آل علىّ وآل العباس ثم افترقا وأقام زياد بمروشتوة فكان يختلف اليه من أهلها جماعة فعلم أسيد بخبره فدعاه وقال ما هذا الذى بلغنى عنك قال الباطل انما قدمت الى تجارة وقد فرقت مالى على الناس فاذا اجتمع خرجت فقال له أسيد اخرج عن بلادى فانصرف من عنده وعاد الى ما كان عليه من دعوة الناس فرفعوا أمره الى أسيد ثانية وخوفوه من جانبه فأحضره وقتله وقتل معه عشرة من أهل الكوفة ولم ينج منهم الاصغيران

وقيل بل أمر زياد أن يوسط بالسيف أى يقطع نصفين فضربوه بالسيف فلم يعمل فيه فكبر الناس فقال أسيد ما هذا قيل نبا السيف عنه ثم ضرب أخرى فنبا السيف عنه ثم ضربه الثالثة فقطعه اثنتين وعرض البراءة على أصحابه فمن تبرأ خلى عنه وذلك قبل الاضحى بأربعة أيام * فقام بالامر بعدهم رجل من أهل الكوفة يسمى كثيرا فنزل على أبى النجم فكان يأتى اليه كل من تبع مقالة زياد وبقى على هذا الحال سنة أوسنتين * واشتد ابن أسيد والى خراسان على من بها من الاحزاب فقتل وجلد وحبس منهم خلقا ووجه بكير بن ماهان فى نحو سنة ثمان عشرة ومائة هجرية عمار بن يزيد واليا على شيعة بنى العباس فنزل مرو وغير اسمه وتسمى بخداش ودعا الى محمد بن على فتسارع اليه الناس وأطاعوه فلما ظهرت كلمته غير مادعاهم اليه وأظهر دين الخرمية ورخص لبعضهم فى نساء بعض وقال لهم انه لاصوم ولا صلاة ولاحج وان تأويل الصوم أن يصام على ذكر الامام فلا يباح باسمه والصلاة الدعاء له والحج القصد اليه وكان يتأول بعض آيات القرآن وكان ممن اتبعه على مقالته مالك بن الهيثم والحريش بن سليم الاعجمى وغيرهما فأخبرهم أن محمد بن على بن عبدالله بن العباس أمر بذلك فبلغ خبره أسيد بن عبدالله والى خراسان فظفر به فأغلظ القول لأسيد فقطع لسانه وسمل عينيه ثم صلبه * وكان لما ظهر أمر خداش المذكور وأطاعه من أطاعه من الاحزاب بخراسان أهمل محمد بن على بن عبد الله أمرهم وترك مكاتبتهم ومراسلاتهم فلما قتل خداش وجهوا اليه سليمان بن كثير ليعلمه أمرهم وماهم عليه فعنفه محمد فى ذلك ثم صرفه الى خراسان ومعه كتاب مختوم فلما فضوه لم يروا فيه الا بسم الله الرحمن الرحيم فعظم ذلك عليهم وعلموا مخالفة خداش لأمره ثم وجه اليهم بكير بن ماهان بعد ذلك وكتب معه اليهم يعلمهم كذب خداش فلم يصدقوه واستخفوا به فعاد بكير الى محمد فبعث معه بعصى مضببة بعضها بحديد وبعضها بنحاس فجمع بكير النقباء والشيعة ودفع الى كل واحد منهم عصا فعلموا أنهم مخالفون لسيرته فتابوا ورجعوا

وما زال السر مكتوما والدعوة الى ولد العباس جارية والنقباء يعملون على جمع القلوب واستمالة الناس حتى كانت سنة تسع وعشرين ومائة هجرية ظهر أبومسلم الخراسانى فكان تمام الامر على يديه * قال جماعة الكتاب وأبومسلم هذا هو ابراهيم بن عثمان بن بشار بن سدوس بن جودرزده من ولد بزرجمهر الفارسى ويكنى أبا اسحق ولد باصبهان ونشأ بالكوفة وكان أبوه أوصى الى عيسى بن موسى السراج فحمله الى الكوفة وهو ابن سبع سنين وقال بعضهم انه من أهل ضياع بنى معقل العجلية باصبهان أوغيرها من الجبل وكان اسمه ابراهيم ويلقب حيكان وكان مع أبى موسى السراج صاحبه يخرز الاعنة ويعمل السروج وله معرفة بصناعة الأدم والسروج فكان يحملها الى اصبهان والجبال والجزيرة والموصل ونصيبين وآمد وغيرها يتجر فيها فاتصل بابراهيم بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس الامام أحد الائمة الاثنى عشر من ولد العباس فتخيل فيه النجابة والفتوة وتحقق أن الامر يتم على يديه لبنى العباس

فقال له غير اسمك فانه لايتم لنا الامر الا بتغيير اسمك فسمى نفسه عبد الرحمن بن مسلم وبكنى أبا مسلم وكان له من العمر يومئذ تسع عشرة سنة ثم زوّجه ابراهيم الامام ابنة عمران بن اسمعيل الطائى المعروف بأبى النجم وهى بخراسان مع أبيها فبنى بها أبومسلم بخراسان وولدت له ابنتين فاطمة وأسماء وفاطمة هى التى تذكرها الخرمية فى مذهبهم الذى دعاهم اليه خداش * قال ابن خلكان ونشأ أبو مسلم عند عيسى بن معقل بن عمير أخى ادريس بن معقل جد أبى دلف العجلى برستاق فايق فلما ترعرع اختلف مع ولده الى المكتب فخرج أديبا لبيبا يشار اليه فى صغره ثم انه اجتمع على عيسى بن معقل وأخيه ادريس بقايا من الخراج تقاعدا من أجلها عن حضور مؤدّى الخراج باصبهان فأنهى عامل اصبهان خبرهما الى خالد بن عبد الله القسرى والى العراقين فأنفذ خالد من الكوفة من حملهما اليه بعد قبضه عليهما فتركهما خالد فى السجن فصادفا فيه عاصم بن يوسف العجلى محبوسا بسبب من أسباب الفساد وقد كان عيسى بن معقل قبل أن يقبض عليه أنفذ أبا مسلم الى قرية من رستاق فايق لاحتمال غلتها فلما اتصل به خبر عيسى بن معقل باع ما كان احتمله من الغلة وأخذ ما كان اجتمع عنده من ثمنها ولحق بعيسى بن معقل فأنزله عيسى بداره فى بنى عجل وكان يختلف الى السجن ويتعهد عيسى وادريس ابنى معقل وكان قد قدم الكوفة جماعة من نقباء الامام محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب مع عدة من الشيعة الخراسانية فدخلوا على العجليين السجن مسلمين فصادفوا أبا مسلم عندهم فأعجبهم عقله ومعرفته وكلامه وأدبه ومال هو اليهم ثم عرف أمرهم وأنهم دعاة واتفق مع ذلك أن هرب عيسى وادريس من السجن فعدل أبومسلم من دور بنى عجل الى هؤلاء النقباء ثم خرج معهم الى مكة حرسها الله تعالى فأورد النقباء على ابراهيم بن محمد الامام وكان قد تولى الامامة بعد وفاة أبيه عشرين ألف دينار ومائتى ألف درهم وأهدوا اليه أبامسلم فأعجب به وبمنطقه وعقله وأدبه وقال لهم هذا عضلة من العضل وأقام أبومسلم عند الامام يخدمه حضرا وسفرا ثم ان النقباء عادوا الى الامام وسألوه رجلا يقوم بأمر خراسان فقال انى جرّبت هذا الاصبهانى وعرفت ظاهره وباطنه فوجدته حجر الارض ثم دعا أبا مسلم وقلده الامر وأرسله الى خراسان فكان من أمره ما كان وكان ابراهيم الامام قد أرسل الى أهل خراسان سليمان بن كثير الحرانى يدعوهم الى أهل البيت فلما بعث أبا مسلم أمر من هنالك بالسمع والطاعة وأمره أن لايخالف سليمان بن كثير فكان أبومسلم يختلف مابين ابراهيم وسليمان اهـ

ويقال ان أبا مسلم المذكور ولد بمدينة بحى الاصبهانية وكان أول ظهوره بمرو يوم الجمعة لتسع بقين من رمضان سنة تسع وعشرين ومائة والوالى بخراسان يومئذ نصر بن سيار الليثى من قبل مروان بن محمد المنبوز بالحمار آخر خلفاء بنى أمية فكتب نصر يومئذ الى مروان يقول

أرى جذعا ان يثن لم يقو ريض * عليه فبادر قبل أن يثنى الجذع

وكان مروان يومئذ مشغولا عن أبى مسلم بغيره ممن خرج بالجزيرة وغيرها فلم يجبه عن كتاب نصر بن سيار ولم يكن أبو مسلم يومئذ الا فى خمسين رجلا فكتب نصر ثانية الى مروان يقول

أرى خلل الرماد وميض نار * ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالزندين تورى * وان الحرب أولها كلام
لئن لم يطفها عقلاء قوم * يكون وقودها جثث وهام
أقول من التعجب ليت شعرى * أأيقاظ أمية أم نيام
فان كانوا لحينهم نياما * فقل قوموا فقد حان القيام

فلم يرد عليه الجواب ولما علم مروان بخبر ابراهيم الامام وتخلف الناس اليه وتقربهم منه سير رجلا للقبض عليه ووصف له صفته وهى صفة أبى العباس لأنه كان يسمع أن فى الكتب أن من كانت هذه صفته يفنيهم ويسلبهم ملكهم * قال ابن أشعث قال خالد بن يزيد ابن معاوية لعبد الملك بن مروان أما اذا كان الفتق من سجستان فليس عليك منه بأس انما كنا نتخوف لو كان من خراسان يعنى حيث غلب أبو مسلم * وقال محمد بن على بن عبدالله لنا ثلاثة أوقات موت الطاغية يزيد بن معاوية ورأس المائة وفتق افريقية فعند ذلك يدعو لنا دعاة ثم تقبل أنصارنا من المشرق حتى ترد خيلهم ويستخرجون ما كنز الجبارون اه وقال مروان لرسوله ان اسم الذى تقبض عليه ابراهيم بن محمد فلما وصل الرسول أخذ أبا العباس بالصفة التى قال له عنها مروان وقد كان ابراهيم مختفيا فظهر وأمن جانب الرسول فقال جماعة لرسول مروان انك انما أمرت بالقبض على ابراهيم وهذا الذى قبضت عليه عبدالله فأخذ الرسول بقولهم وخلى عن أبى العباس وقبض على ابراهيم فانطلق به الى مروان وتحقق ابراهيم أنه مقتول فنعى نفسه الى أهل بيته وأمرهم بالمسير الى الكوفة مع أخيه أبى العباس عبد الله وبالسمع له والطاعة وأوصى الى أبى العباس وجعله الخليفة بعده فسار أبو العباس بمن معه من أهل بيته حتى قدموا الكوفة فى صفر وشيعتهم من أهل خراسان بظاهر الكوفة * ولما وصل رسول مروان ومعه ابراهيم دخل به على مروان فقال مروان ليست هذه الصفة التى وصفت لك فقال هذا ابراهيم الذى سميته فأمر به مروان فحبسوه وأعاد جماعة أخر فى طلب أبى العباس

وكان من تمام حظ أبى مسلم وقوع الخلاف بين الكرمانى ونصر عاملى مروان على مرو فسير أبو مسلم النقباء الى طخارستان فما دون بلخ ومرو الروذ والطالقان وخوارزم يدعون الناس الى طاعة بنى العباس وقال لهم ان أعجلكم عدوكم دون الوقت بالاذى والمكروه فقد حل لكم أن تدفعوا عن أنفسكم وتجردوا السيوف وتجاهدوا أعداء الله ومن شغله منكم عدوه عن الوقت فلا حرج عليكم أن تظهروا بعد الوقت * وكان قد اشتد الخلاف بين الكرمانى ونصر عاملى مروان وقامت الحرب بينهما وحمى وطيسها فاشتدت

عزيمة أبى مسلم وبث دعاته بين الناس وأظهر أمره بلا تحاش فأتاه فى ليلة واحدة أهل ستين قرية فلما كانت ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان من السنة أى سنة تسع وعشرين ومائة عقد اللواء الذى كان الامام بعث به الذى يسمونه الظل على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعا وهو يتلو * أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير * ولبسوا السواد هو وسليمان ابن كثير واخوة سليمان ومواليه ومن كان أجاب الدعوة من أهل سفيذنج وأوقدوا النيران ليلتهم تلك لشيعتهم وكانت علامتهم فتجمع اليه الناس حين أصبحوا معدّين فقال لهم انى مؤول لكم الظل والسحاب * ان السحاب يطبق الارض وان الارض كما لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليفة عباسى الى آخر الدهر ففرحوا بمقالته واشتدت عزائمهم

وقدم على أبى مسلم الدعاة بمن أجاب الدعوة فكان أوّل من قدم عليه أهل التقادم مع أبى الوضاح فى تسعمائة راجل وأربعة فرسان ومن أهل هرمز فره جماعة وقدم مع أبى القاسم محرز بن ابراهيم الجوبانى ألف وثلاثمائة راجل وستة عشر فارسا ودخلوا جميعا الى معسكر أبى مسلم وهم يصيحون بأصوات التهليل والتكبير وكان أبو مسلم قد عسكر بسفيذنج فلما رأى هذه الجموع فرح بها وحصن حصن سفيذنج ورمه وسد دروب سفيذنج ولبث على هذا الحال الى يوم عيد الفطر فأمر أبو مسلم فى ذلك اليوم سليمان بن كثير أن يصلى به وبالشيعة صلاة العيد ونصب له منبرا بالعسكر ورسم له أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا اقامة * قال بعض الكتاب وكان بنو أمية يبدؤن بالخطبة قبل الصلاة وبالاذان والاقامة * ورسم له أيضا بست تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع بالسابعة ويكبر فى الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتح الخطبة بالتكبير ثم يختمها بالقرآن وكان بنو أمية يكبرون فى الاولى أربع تكبيرات يوم العيد وفى الثانية ثلاث تكبيرات فلما قضى سليمان الصلاة نهض أبو مسلم والشيعة الى طعام قد أعده لهم فأكلوا فرحين مسرورين * ولم يمض الا القليل حتى خرج الكرمانى ونصر الى القتال فى واقعة يقال لها واقعة الخندقين فاقتتلوا قتالا شديدا فلما استيقن أبو مسلم أن كلا الفريقين قد أثخن صاحبه وأنه لا مدد لهم جعل يكتب الى أصحاب الكرمانى يذم أصحاب نصر والى أصحاب نصر يذم أصحاب الكرمانى حتى صار هوى الفريقين معه وأقبل حتى نزل بين خندق الكرمانى وخندق نصر فهابه الفريقان وبعث الى الكرمانى يقول له انى معك ففرح الكرمانى بذلك فانضم أبو مسلم اليه فلما علم نصر بذلك أكبره جدا وأرسل الى الكرمانى يقول ويحك لا تغتر فوالله انى لخائف عليك وعلى أصحابك منه وطال بين الفريقين الاخذ والرد فمال الكرمانى الى مقالة نصر وخرج ليكتب كتاب الصلح بينه وبين نصر فأبصر نصر منه غرة فوجه اليه نحوا من ثلاثمائة فارس فالتقوا بها واشتد القتال بينهما فطعن الكرمانى فى خاصرته فخر عن دابته فأخذوه وقتلوه وأمر نصر فصلبوا جثته وصلبوا معها سمكة فانضم حينئذ على بن الكرمانى بمن كان مع أبيه الى عسكر أبى مسلم وقاتلوا نصرا قتالا شديدا وطالت الحرب بين أبى مسلم ونصر بن سيار فكانت

سجالا والدعوة قائمة والاحزاب تكثر واختلفت كلمة العرب وتفرقوا عن قتال أبي مسلم وأصحابه بعد أن كانوا يدا واحدة عليه ثم دخل أبو مسلم الى مرو والقتال قائم فيها بين علىّ ابن الكرمانى وأصحابه ونصر بن سيار ومضى أبو مسلم الى قصر الامارة وأرسل الى الفريقين أن كفوا ولينصرف كل فريق الى عسكره فلم يروا بدا من الكف عن القتال وصفت مرو لابى مسلم فأمر بأخذ البيعة من الجند وكان الذى يأخذها أبو منصور طلحة بن رزيق أحد النقباء عالما بحجج الهاشمية ومعايب الاموية وكان النقباء اثنى عشر رجلا عدد حوارى المسيح اختارهم محمد بن على من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله الى خراسان سنة ثلاث ومائة وأربع ومائة * وكانت البيعة أبايعكم على كتاب الله وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشى الى بيت الله الحرام وعلى أن لاتسألوا رزقا ولا طمعا حتى يبتدئكم به ولاتكم

ووردت الاخبار الى أبى العباس بما صار اليه أمر أبى مسلم وكان يومئذ بالحميمة فهم بالمسير منها الى الكوفة فأعلم أهل بيته بعزمه فوافقوه وخرجوا معه وكانوا أخوه أبو جعفر المنصور وعبدالوهاب ومحمد أبناء ابراهيم الامام وأعمامه داود وعيسى وصالح واسمعيل وعبدالله وعبد الصمد بنو علىّ بن عبدالله بن عباس ومازالوا حتى قدموا الكوفة فلقيهم أبو سلمة الخلال أحد مقدمى شيعتهم فأنزلهم دار الوليد بن سعد مولى بنى هاشم وكتم أمرهم عن الناس نحوامن أربعين ليلة فلم يعلم بهم أحد لامن القواد ولا من الشيعة وكان اذا سئل عن الامام أبى العباس يقول لاتعجلوا وكان أبو سلمة يميل الى جعل أمر الخلافة فى آل أبى طالب ولكنه كان يرى دون ذلك صعوبات وجعل جماعة من الشيعة يترددون على الامام فى مخبإه ويأتمرون بأمره حتى اتفق جماعة من القواد على أن يلقوا الامام ويتفقوا معه على مافيه المصلحة والظهور بعد هذا الانكماش فساروا اليه ودخلوا عليه وسلموا عليه بالخلافة وعزوه فى أخيه ابراهيم الامام ورجعوا فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الاول فلبسوا السلاح واصطفوا لخروج أبى العباس وأتوا بالدواب فركب أبو العباس وركب من معه من أهل بيته ودخلوا دار الامارة فلبث بها برهة لطيفة ثم خرج الى المسجد فخطب وصلى بالناس ثم صعد المنبر فقال مقالته التى سيأتى ذكرها فى محلها * قيل التقى داود بن على وابنه موسى بأبى العباس وأهل بيته وهم فى طريقهم الى الكوفة فسألهم داود عن خبرهم فقص عليه أبو العباس قصتهم وأنهم يريدون الكوفة ليظهروا بها و يظهروا أمرهم فقال له داود ياأبا العباس تأتى الكوفة وشيخ بنى أمية مروان بن محمد بحران مطل على العراق فى أهل الشام والجزيرة وشيخ العرب يزيد بن هبيرة بالعراق فى جند العرب فقال ياعمى من أحب الحياة ذل ثم تمثل بقول الاعشى

فما ميتة ان متها غير عاجز * بعار اذا ماغالت النفس غولها

فالتفت داود الى ابنه موسى وقال صدق والله ابن عمك فارجع بنا معه نعش أعزاء ونموت كرماء فرجعوا جميعا فكان عيسى بن موسى يقول اذا ذكر خروجهم من الحميمة يريدون الكوفة * ان نفرا أربعة عشر رجلا خرجوا من دارهم وأهلهم يطلبون ماطلبنا لعظيمة همتهم كبيرة أنفسهم شديدة قلوبهم اه وتمت البيعة بعد ذلك لابى العباس على ما سيذكر فى محله

(المقالة الخامسة)

(فى الخلفاء العباسيين وفيها فصول)

(الفصل الاول)

(فى خلافة أبى العباس السفاح)

كان أول خلفاء الدولة العباسية السفاح وهو أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس الهاشمى بويع له بالخلافة فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة يوم الجمعة ثالث عشرى ربيع الأول أى سنة تسع وأربعين وأربعمائة ميلادية وصعد المنبر حين بويع له فقام فى أعلاه وصعد محمد بن داود بن على فقام دونه فتكلم أبو العباس فقال الحمد لله الذى اصطفى الاسلام لنفسه وكرمه وشرفه وعظمه واختاره لنا فأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه والناصرين له فألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها وخصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته وأنشأنا من آبائنا وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته جعله من أنفسنا عزيزا عليه ماعنتنا وأنزل بذلك على أهل الاسلام كتابا يتلى عليهم فقال تبارك وتعالى فيما أنزل من محكم كتابه انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا وقال تعالى قل لاأسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى وقال وأنذر عشيرتك الاقربين وقال وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى وقال واعلموا أنما غنمتم من شئ فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى فاعلمهم جل ثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا وأجزل من الفئ والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا وفضلا علينا والله ذوالفضل العظيم * وزعمت الشامية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا فشاهت وجوههم ولم أيها الناس وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم وبصرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم وأظهر بنا الحق ودحض الباطل وأصلح بنا منهم ما كان فاسدا ورفع بنا الخسيسة وتمم بنا النقيصة وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل

التعاطف

التعاطف والبر والمواساة فى دنياهم واخوانا على سرر متقابلين فى آخرتهم فتح الله ذلك منة وبهجة لمحمد صلى الله عليه وسلم فلما قبضه الله اليه وقام بالامر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم حووا مواريث الامم فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا خماصا منها ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها فاملأ الله لهم حينا حتى أسفوه فلما أسفوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا ليمن بنا على الذين استضعفوا فى الارض وختم بنا كما افتتح بنا وانى لارجو أن لا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح وماتوفيقنا أهل البيت الابالله ياأهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فانا السفاح المبيح والثائر المنيح اه وكان موعوكا فاشتد عليه الوعك فجلس على المنبر وقام عمه داود على مراقى المنبر فقال * الحمد لله شكرا الذى أهلك عدونا وأصار الينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم * أيها الناس الآن أقشعت حنادس الدنيا وانكشف غطاؤها وأشرقت أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من مطلعها وبزغ القمر من مبزغه وأخذ القوس باريها وعاد السهم الى منزعه ورجع الحق فى نصابه فى أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم * أيها الناس إنا والله ماخرجنا فى طلب هذا الامر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولانحفر نهرا ولانبنى قصرا وانما أخرجتنا الانفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبنى عمنا وما كرهنا من أموركم فلقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم واستنزالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله علينا أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تبا تبا لبنى حرب بن أمية وبنى مروان آثروا فى مدتهم العاجلة على الآجلة والدار الفانية على الدار الباقية فركبوا الآثام وظلموا الأنام وانتهكوا المحارم وغشوا بالجرائم وجاروا فى سيرتهم فى العباد وسنتهم فى البلاد ومرحوا فى أعنة المعاصى وركضوا فى ميدان الغى جهلا باستدراج الله وأمنا لمكر الله فأتاهم بأس الله بياتا وهم نائمون فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق فبعدا للقوم الظالمين وأدالنا الله من مروان وقد غره بالله الغرور أرسل لعدو الله فى عنانه حتى عثر فى فضل خطامه أظن عدو الله أن لن نقدر عليه فنادى حزبه وجمع مكايده ورمى بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ماأمات باطله ومحا ضلاله وجعل دائرة السوء به وأحيا شرفنا وعزنا ورد الينا حقنا وارثنا * أيها الناس ان أمير المؤمنين نصره الله نصرا عزيزا انما عاد الى المنبر بعد الصلاة لانه كاره أن يخلط بكلام الجمعة غيره وانما قطعه عن استتمام الكلام شدة الوعك

فادعوا الله لامير المؤمنين بالعافية فقد بدلكم الله مروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع السفلة الذين أفسدوا فى الارض بعد اصلاحها بابدال الدين وانتهاك حريم المسلمين بالشاب المكتهل المتمهل المقتدى بسلفه الابرار الاخيار الذين أصلحوا الارض بعد فسادها بمعالم الهدى ومناهج التقوى * فعج الناس له بالدعاء ثم قال ياأهل الكوفة إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله شيعتنا أهل خراسان فأحيابهم حقنا وأبلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا وأراكم الله بهم ما كنتم تنتظرون فاظهر فيكم الخليفة من هاشم و بيض به وجوهكم وأدالكم على أهل الشام ونقل اليكم السلطان وأعز الاسلام ومن عليكم بامام منحه العدالة وأعطاه حسن الايالة فخذوا ماآتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا ولاتخدعوا عن أنفسكم فان الامر أمركم وان لكل أهل بيت مصرا وانكم مصرنا ألاوانه ماصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين على بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبدالله بن محمد * وأشار بيده الى أبي العباس السفاح * واعلموا أن هذا الامر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه الى عيسى بن مريم عليه السلام والحمد لله على ماأبلانا وأولانا

ثم نزل أبو العباس ومشى داود بن على أمامه حتى دخل القصر وأجلس أخاه أبا جعفر المنصور ليأخذ البيعة على الناس فى المسجد فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ثم المغرب وجنهم الليل فدخل القصر ولما تمت له البيعة على وجه ماذكر أنفذ أخاه المنصور واليا على الجزيرة وأذربيجان وارمينيا وولى عمه داود المدينة ومكة واليمن واليمامة وولى ابن أخيه عيسى الكوفة وسوادها وكان على الشام عمه عبدالله وعلى مصر أبو عون بن يزيد وعلى خراسان والجبال أبومسلم وجعل عمه سليمان على البصرة وكور دجلة والبحرين وعمان واستعمل عمه اسمعيل بن علىّ على الاهواز واشتد فى الانتقام من بنى أمية و بالغ فى تنكيل من بقى من الذرارى ومحا آثارهم وقتل سليمان بن هشام وغيره من كبار القوم الذين كانوا مع الأمويين باغراء الشريف وكان خصيصا به حيث أنشده يوما هذه الابيات

لايغرنك ماترى من رجال * ان تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى * لاترى فوق وجهها أمويا

وقد كان السفاح أمن سليمان بن هشام المذكور * وتطاولت أيدى العباسيين الى نبش قبور جميع بنى أمية بدمشق وهتكوا حرمة الاموات فلما أتوا الى قبر هشام وجدوا جسمه صحيحا فأمر بصلبه ثم حرقه بالنار فحرق وأفلت من الامويين عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل حيث فرّ هاربا الى الاندلس فقبلوه وأسس الخلافة الأموية فى قرطبة سنة تسع وثلاثين ومائة هجرية أى نحو سنة ست وخمسين وسبعمائة ميلادية وكان من أمره وأمر من ملك بعده مالا علاقة لنا به هنا * وقتل سليمان بن علىّ بن عبد الله بن عباس جماعة من بنى أمية وألقاهم فى الطرق فأكلتهم الكلاب وصارت تطوف بمشاش عظامهم فى الازقة وأخذ بثأر ابراهيم بن محمد والحسين بن علىّ بن أبي طالب من قاتليهما بالكيل الوافى

ولما قتل مروان بأبى صير بمصر كما تقدم بقيت نساؤه وذراريه بالكنيسة وكان قد وكل بهن خادما وأمره أن يقتلهن جميعا اذا هو قتل فلما قتل مروان كبس أصحاب صالح بن على بن عبدالله بن العباس على من بالكنيسة وأخذوا نساء مروان وبناته وسيروهن الى صالح بن على فلما دخلن عليه تقدمت ابنة مروان الكبرى فقالت ياعم أمير المؤمنين حفظ الله لك من أمرك ماتحب حفظه نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك فليسعنا من عفوكم ماوسعكم من جورنا فقال والله لاأستبقى منكم واحدا ألم يقتل أبوك ابن أخى ابراهيم الامام ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن على بن الحسين وصلبه فى الكوفة ألم يقتل الوليد ابن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان ألم يقتل ابن زياد الدعى مسلم بن عقيل ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن على وأهل بيته ألم يخرج اليه بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا فأوقفهن موقف السبى ألم يحمل رأس الحسين وقد قرع دماغه فما الذى يحملنى على الابقاء عليكن * قالت فليسعنا عفوكم فقال أماهذا فنعم وان أحببت زوجتك ابنى الفضل فقالت وأى عز خير من هذا بل تلحقنا بحران فحملهن اليها فلما دخلنها ورأين منازل مروان رفعن أصواتهن بالبكاء وأكثرن من العويل * وخاف العمال الذين كانوا على عهد بنى أمية فنهم من استأمن وتخلى عن العمالة ومنهم من تحصن وقاتل مع أهل عمالته كأبى الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحرث الكلابى وكان من أصحاب مروان وقواد عسكره فلما شاع خبر خروجه انضم اليه جماعة كثيرة من أهل قنسرين وأهل حمص وتدمر ومعهم أبو محمد ابن عبد الله بن يزيد بن معاوية فدعوا اليه وقالوا هذا السفيانى الذى كان يذكر وهم فى نحو من أربعين ألفا فعسكروا بمرج الاخرم فسار عبد الله بن على لقتالهم وكان يقاتل حبيب بن مرة المرى بالبثنية وحوران فاقتتلوا قتالا شديدا وثبت أبو الورد وأصحابه وقتل من أصحاب عبد الله خلق كثير فاشتد عبد الله فى قتال أبى الورد وثبت حتى انهزم أصحاب أبى الورد وانكشف ولم يبق معه الا خمسمائة من فرسانه فقتلوا بجمعهم وهرب أبو محمد ومن معه حتى جاؤا تدمر فأمن عبد الله أهل قنسرين ودخلوا تحت الطاعة وبايعوه فرحل عنهم الى دمشق وقد خرج أهلها فلما علموا بحضوره اليهم خافوا وعادوا الى الطاعة فأمنهم ولم يؤاخذهم بما كان منهم * قال أصحاب التاريخ وكان حرب عبد الله وأبى الورد فى سلخ ذى الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومائة

ولما رأى قسطنطين ملك الروم من اختلال الامور وسقوط الدولة الأموية وقيام العباسيين وعدم استقرار أمرهم نشط الى رد ماأخذه المسلمون من أملاك الروم فجهز جيشا على ملطية وكمخ فنازل كمخ أولا وقاتلها قتالا عنيفا فهزم من بها من المسلمين شر هزيمة وانقلب على ملطية وراسل أهلها فى الاستسلام والخروج من البلد الى أى بلد أخرى من بلاد المسلمين فلم يقبلوا فنصب المجانيقات وعزم على الرمى على البلد فاذعنوا وسلموا البلد على الامان وانتقلوا الى بلاد الاسلام وحملوا ماقدروا على حمله من متاعهم وألقوا مالم يقدروا على حمله بالآبار

والمجارى وتفرقوا فى الجزائر ثم سار ملك الروم الى قاليقلا وحاصرها وفتحها عنوة على يد قائد جيوشه كوشان الارمنى وغنم وسبى منها ثم رحل عنها واسترجع صقلية وعمر فيها الحصون والمعاقل وعززها بمراكب الحرب تطوف بالجزيرة وتذب عنها وتغزو ماتصادفه من مراكب المسلمين التى تحمل التجارة * ومع هذا كله فقد دانت للسفاح الامور وعلت كلمته واستوزر أبا مسلمة حفصا الخلال وهو أول من لقب بالوزير واستمر اللقب لمن بعده الى زمن الصاحب واستمر الوزراء من بعده على هذا الحال ولما كانت سنة ست وثلاثين ومائة عقد السفاح لاخيه أبى جعفر عبد الله بن محمد بالخلافة من بعده وجعله ولى عهد المسلمين ومن بعد أبى جعفر ولد أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على وجعل العهد فى ثوب وختمه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه الى عيسى بن موسى فلم يتم عليه هذا الحول حتى مات بالانبار لثلاث عشرة ليلة مضت من ذى الحجة وقيل لاثنتى عشرة مضت منه بالجدرى وعمره ثلاث وثلاثون سنة وقيل ست وثلاثون وقيل ثمان وعشرون فكانت ولايته من وقت قتل مروان الى أن مات أربع سنين ومن يوم أن بويع بالخلافة الى أن مات أربع سنين وثمانية أشهر وقيل وتسعة أشهر وقد كان قبل موته تحوّل من الحيرة الى الانبار * قال ابن خلكان فى ترجمة السفاح ان السفاح نظر يوما فى المرآة وكان من أجمل الناس وجها فقال اللهم انى لاأقول كما قال سليمان ابن عبد الملك ولكنى أقول اللهم عمرنى طويلا فى طاعتك متمتعا بالعافية قال فما استتم كلامه حتى سمع غلاما يقول لغلام آخر الأجل بينى وبينك شهران وخمسة أيام فتطير من كلامه وقال حسبى الله ولا حول ولاقوة الا بالله عليه توكلت وبه استعنت فما مضت الايام المذكورة حتى أخذته حمى فمرض ومات بعد شهرين وخمسة أيام بالجدرى بالانبار بالمدينة التى بناها وسماها الهاشمية وكان أبيض مليحا جميلا حسن اللحية والهيئة قال الامام أبو الفرج بن الجوزى وغيره ان السفاح خطب يوما فسقطت العصا من يده فتطير من ذلك فقام رجل من أصحابه ومسح العصا وناوله اياها وأنشد

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى * كما قرّ عينا بالاياب المسافر

فسرى عنه وسر بذلك

ومات فى أيام السفاح تاودوروس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام احدى عشرة سنة فأقيم بعده ميخائيل وهو سادس أربعيهم وأصله من دير بومقار وفى أيام تاودوروس المذكور خالفت القبط من مدينة رشيد من جور العمال وتسلطهم فقاتلهم عبد الملك بن موسى بن نصير عامل مصر يومئذ وقاتلوه قتالا عظيما ومازالوا حتى هزمهم وقبض على ميخائيل البطرك فاعتقله وألزمه بمال كثير فسار باساقفته فى أعمال مصر يسأل أهلها فوجدهم فى شدة عظيمة وعبودية لاتطاق فعاد الى الفسطاط حيث عبدالملك ودفع له ماحصل عليه فأفرج عنه ثم لم يلبث أن قبض عليه بعد أيام قلائل وأنزل به بلاء كبيرا وبطش بالنصارى وأعمل فيهم السيف وأحرقت فى هذه الاثناء مصر وجميع غلاتها وأسر كثيرا من

النساء

النساء الراهبات ببعض الديارات ونهب مافيها وخربها تخريبا وراود عبد الملك احدى النساء الزاهبات عن نفسها فاحتالت عليه ودفعته عنها بان رغبته فى دهن معها اذا دهن به الانسان جسده لايعمل فيه السيف ووثقته بان مكنته من التجربة فى نفسها فتمت حيلتها عليه وأخرجت زيتا ودهنت به نفسها ثم مدت عنقها فضربها عبد الملك بسيفه أطار رأسها فعلم أنها اختارت الموت على الزنا رحمها الله ومازال البطرك وكبار القبط فى الاعتقال مقيدين بالحديد يتجرعون مضض الشدة وألم الضيق حتى أفرج عنهم فى خلافة السفاح أى بعد زوال دولة بنى أمية وذهاب ملكهم وظهور الدولة العباسية * وقد خلع السفاح أبا عون عبد الملك المذكور وولى بدله صالح بن علىّ ثم صرفه وأعاد أبا عون المذكور سنة سبع وثلاثين ومائة للهجرة حيث مات السفاح وبموت السفاح قام بالامر بعده أخوه أبو جعفر المنصور

(الفصل الثانى)

(فى خلافة أبى جعفر المنصور)

ثم قام بالامر بعد السفاح أخوه أبو جعفر المنصور وهو عبد الله بن محمد المنصور بويع له بالخلافة يوم وفاة أخيه سنة ست وثلاثين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ميلادية بعهد منه وكان السفاح قد ولاه امرة الحاج فأتته الخلافة بمنزل صفية فقال صفت لنا ان شاء الله * وكتب الى أبى مسلم الخراسانى يستدعيه فأقبل أبومسلم عليه فأخبره أبو جعفر بخبر موت السفاح ثم بكى وجزع جزعا شديدا فقال له أبومسلم ولم هذا الجزع وقد أتتك الخلافة قال أتخوف شر عمى عبد الله بن علىّ وشغبه علىّ فقال لاتخفه فأنا أكفيكه ان شاء الله فسرى عنه وبايع له أبومسلم والناس وأقبلا حتى أتيا الكوفة وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق وأرسلوا فى طلب البيعة الى المنصور فلما جاء الخبر بذلك الى عبدالله بن علىّ وكان عبدالله يومئذ بدلوك وهى بأفواه الدروب فى عسكر الصائفة أمر مناديه أن ينادى الصلاة جامعة فاجتمعوا عليه فقرأ عليهم الكتاب بوفاة السفاح ثم دعا الناس الى بيعته وقال لهم اعلموا انه لما أراد السفاح أن يوجه الجنود لقتال مروان بن محمد دعا بنى أبيه فأرادهم على المسير اليه فقال من انتدب منكم فسار اليه فهو ولىّ عهدى فلم ينتدب غيرى وعلى هذا خرجت من عنده وقتلت من قتلت * وشهد له بعض قواده بذلك فبايعوه ثم سار عبد الله حتى نزل حران وقاتل من بها وضيق عليها وكان أبوجعفر المنصور قد عاد من مكة ومعه أبومسلم الخراسانى فسيره لقتال عبدالله فسار أبومسلم فى جنوده فقاتل عبدالله عند نصيبين خمسة أشهر وحمل أهل الشام حملة رجل واحد على عسكر أبى مسلم فأزالوا صفهم وجالوا جولة فانهزم عسكر أبى مسلم فأمر أبومسلم مناديا فنادى يا أهل خراسان ارجعوا فان العاقبة لمن اتقى فتراجع الناس وارتجز أبومسلم يومئذ فقال

من كان ينوى أهله فلا رجع * فرّ من الموت وفى الموت وقع

فلما كان يوم الثلاثاء أو الاربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ومائة التقوا فاقتتلوا فمكر بهم أبومسلم وأمر أحد قواده أن يعبى الميمنة أكثرها الى الميسرة ويترك فى الميمنة أشد الجند بأسا فلما رأى ذلك أهل الشام كشفوا ميسرتهم وانضموا الى ميمنتهم بازاء ميسرة أبى مسلم فأمر أبومسلم أهل القلب فحملوا على من بقى فى ميمنته على ميسرة أهل الشام فحطموهم فانهزم أصحاب عبد الله وتركوا عسكرهم فأخذ أصحاب أبومسلم مافيه وأرسل أبومسلم الخبر بذلك الى المنصور وهرب عبدالله الى البصرة ونزل عند أخيه سليمان ابن على فأقام زمانا مختفيا وأمّن أبومسلم الناس بعدهزيمة عبدالله وكف عنهم فلما علم المنصور بما جرى لعبدالله أرسل أبا الخصيب الى أبى مسلم ليكتب ما أصاب من أموال عبدالله فأراد أبومسلم قتله وقال أنا أمين على الدماء خائن فى الاموال وشتم المنصور فرجع أبوالخصيب الى المنصور فأخبره بما جرى له فخاف المنصور من رجوع أبى مسلم الى خراسان لئلا يفسد عليه الامر فكتب اليه يقول انى قد وليتك مصر والشام فهى خير لك من خراسان فوجه الى مصر من أحببت وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين فانى أحب لقاءك * فلما أتاه الكتاب غضب وقال يولينى الشام ومصر وخراسان لى * فكتب الرسول الى أبى جعفر المنصور بذلك وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجمعا على الخلاف وسار يريد خراسان فانتقل المنصور من الانبار الى المدائن * قال صاحب الكامل * وكتب الى أبى مسلم فى المسير اليه فكتب اليه أبو مسلم وهو بالزاب انه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدوّ الا أمكنه الله منه وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان ان أخوف مايكون الوزراء اذا سكنت الدهماء فنحن نافرون عن قربك حريصون على الوفاء لك ماوفيت حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث يقارنها السلامة فان أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك وان أبيت الا أن تعطى نفسك ارادتها نقضت ماأبرمت من عهدك ضنا بنفسى * فلما وصل الكتاب الى المنصور كتب الى أبى مسلم قدفهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم فانما راحتهم فى انتشار نظام الجماعة فلوسوّيت نفسك بهم فأنت فى طاعتك ومناصحتك واطلاعك بما حملت من أعباء هذا الامر على ما أنت به وليس مع الشريطة التى أوجبت منك سمعا ولاطاعة وحمل اليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن اليها ان أصغيت وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك فانه لم يجد بابا يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من الباب الذى فتحه عليك

فخرج أبو مسلم مراغما وأخذ طريق حلوان فقال المنصور لعمه عيسى بن علىّ ومن حضر من بنى هاشم اكتبوا الى أبى مسلم فكتبوا اليه يعظمون أمره ويشكرونه ويسألونه أن يتم على ما كان منه وعليه من الطاعة ويحذرونه عاقبة البغى ويأمرونه بالرجوع الى المنصور وبعث المنصور الكتاب مع أبى حميد المروروذى وقال له كلم أبا مسلم بألين ماتكلم به أحدا

منـه وأعلمه أنى رافعه وصانع به مالم يصنعه به أحد ان هو صلح وراجع ماأحب فان أبى أن يرجع فقـل له يقول لك أمير المؤمنـين لست من العبـاس وانى برىء من محمد ان مضيت مشاقا ولم تأتنى ان وكلت أمرك الى أحد سواى وان لم آل طلبك وقتالك بنفسى ولوخضت البحر لخضته ولواقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أوأموت قبل ذلك ولاتقولن هذا الكلام حتى تيأس من رجوعه ولاتطمع منه فى خير * قال فسار أبوحميد فقدم على أبى مسلم بحلوان فدفع اليه الكتاب وقال له الناس يبلغونك عن أمير المؤمنين مالم يقله وخلاف ماعليه منك حسدا وبغيا يريدون ازالة النعمة وتغييرها فلا تفسد ما كان منك وكلمه وقال ياأبا مسلم انك لم تزل أمير آل محمد يعرفك بذلك الناس وماذخر الله لك من الاجر عنده فى ذلك أعظم مما أنت فيه من دنياك فلاتحبط أجرك ولايستهوينك الشيطان * فقال له أبو مسلم متى كنت تكلمنى بهذا الكلام فقال انك دعوتنا الى هذا الأمر والى طاعة أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم بنى العباس وأمرتنا بقتال من خالف ذلك فدعوتنا من أرضين متفرقة وأسباب مختلفة فجمعنا الله على طاعتهم وألف مابين قلوبنا وأعزنا بنصرنا لهم ولم نلق منهم رجلا الا بما قذف الله فى قلوبنا حتى أتيناهم فى بلادهم ببصائر نافذة وطاعة خالصة أفتريد حين بلغنا غاية منانا ومنتهى أملنا أن تفسد أمرنا وتفرق كلمتنا وقد قلت لنا من خالفكم فاقتلوه وان خالفتكم فاقتلونى فأقبل أبو مسـلم على أبى نصر مالك بن الهيثم فقال أما تسمع مايقول لى هذا ما كان بكلامه يامالك قال لاتسمع قوله ولايهولنك هذا منه لعمرى ما هذا كلامه ولما بعد هذا أشد منه فامض لامرك ولاترجع فوالله لئن أتيتــه ليقتلنك ولقد وقع فى نفســه منك شئ لايأمنك أبدا ثم شاور أبو مسلم غيره من أصحابه فأشاروا عليه بأن لايذهب الى أبى جعفر المنصور وأن ينزل الرى ويقيم بها فان استقام له المنصور استقام هو له أيضا وان أبى المنصور كان أبو مسلم فى جنده بالرى فدعا أبا حميد فقال له ارجع الى صاحبك فليس من رأيى أن آتيه وقد عزمت أن لا أعود اليه أبدا فلما يئس من رجوعه معــه قال له ماأمره به أبو جعـفر المنصور فوجم طويلا ثم قال قم وقد أخذه الخوف وأوجس من المنصور الشر * وكان المنصور قد كتب الى أبى داود خليفة أبى مسـلم بخراسان يقول له ان لك امرة خراسان مادمت على قيـد الحياة فكتب أبو داود المذكور الى أبى مسلم يقول ما هذا إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله فى أرضه وأهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم فلا تخالفن امامك ولاترجعن الا باذنه * واتفق وصول كتاب أبى داود ليد أبى مسلم وهو على تلك الحال مع رسول أبى جعفر المنصور فزاده خوفا وهما فأرسل الى أبى حميد فقال له اعلم انى كنت عازما على المسير الى خراسان ولكنى عدلت عن ذلك حتى أوجه أبا اسحق الى أمير المؤمنين فيأتينى برأيه فان أبا اسحق ممن أثق به فلما تمثل بين يدى المنصور أجله وقال له اصرف أبامسلم عن وجهه ولك منى ولاية خراسان وأجازه فانصرف أبو اسحق وقال لأبى مسـلم ماأنكرت قط شـيأ ومارأيت بنى هاشم الامعظمين لحقك يرون لك مايرون لانفسهم وما زال به حتى حبب اليه الشخوص الى حيث أمير المؤمنين والاعتذار اليه مما كان

منه فلما قصد المسير قال له نيزك أحد قواده هل أجمعت على الشخوص الى أمير المؤمنين قال نعم وتمثل

ما للرجال مع القضاء محالة * ذهب القضاء بحيلة الاقوام

فقال له نيزك هذا ما اختاره الله تعالى لك واحفظ عنى واحدة اذا دخلت عليه فاقتله وبايع من شئت فان الناس لايخالفونك * وسار أبو مسلم قاصدا الخليفة فى ثلاثة آلاف رجل واستخلف أبا نصر فى عسكره وقال له أقم حتى يأتيك كتابى فان كان مختوما بنصف ختم فأنا الذى كتبته وان أتاك بخاتم كامل فلم أكتبه فلما علم أبو أيوب وزير المنصور بقدوم أبى مسلم خاف منه ومن أصحابه وخشى انهم يقتلون المنصور ثم يقتلونه هو أيضا فدبر الحيلة على اغتيال أبى مسلم قبل أن يتمكن من الفتك بالخليفة وبه فدعا سلمة بن سعيد بن جابر وقال له تأتى أبا مسلم فتلقاه وتكامه فى أن يعطيك كسكر اقطاعا اذا ولاه أمير المؤمنين عند قدومه جميع ماوراء بابه فان أمير المؤمنين على عزم أن يوليه ذلك ويريح نفسه فقال حتى يأذن لى أمير المؤمنين فأذن له المنصور وأمره أن يبلغ سلامه وشوقه الى أبى مسلم فسار اليه سلمة ولقيه فى الطريق وأخبره الخبر فطابت نفس أبى مسلم وزال عنه الخوف والغم فلما وصل تلقاه بنو هاشم والناس ثم قدم فدخل على المنصور فقبل يده وأمره أن ينصرف ويروح نفسه لثلاثة فانصرف فلما كان الغد دعا المنصور عثمان ابن نهيك وأربعة من الحرس منهم شبيب بن واج وأبو حنيفة حرب بن قيس قال صاحب الكامل فرسم لهم بقتل أبى مسلم اذا صفق بيده وتركهم خاف الرواق وأرسل الى أبى مسلم يستدعيه وكان عنده عيسى بن موسى يتغدى فدخل على المنصور فقال له المنصور أخبرنى عن نصلين أصبتهما مع عبدالله بن على فقال أبو مسلم هذا أحدهما قال أرنيه فانضاه وناوله اياه فوضعه المنصور تحت فراشه وأقبل عليه يعاتبه وقال له أخبرنى عن كتابك الى السفاح تنهاه عن الموات أردت أن تعلمنا الدين فقال ظننت أن أخذه لايحل فلما أتانى كتابه علمت انه أهل بيت معدن العلم قال فأخبرنى عن تقدمك اياى بطريق مكة قال كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس فتقدمتك للرفق قال فقولك لمن أشار اليك بالانصراف الى بطريق مكة حين أتاك موت أبى العباس الى أن تقدم فنرى رأينا ومضيت فلا أنت أقمت حتى ألحقك ولا أنت رجعت الى قال منعنى من ذلك ماأخبرتك من طلب الرفق بالناس وقلت تقدم الكوفة وليس عليك من خلاف قال فجارية عبد الله أردت أن تأخذها فقال لا ولكنى خفت أن تضيع فحملتها فى قبة ووكلت بها من يحفظها قال فمن أرفقك وخروجك الى خراسان قال خفت أن يكون قد دخلك منى شئ فقلت آتى الى خراسان فاكتب اليك بعذرى فأذهب مافى نفسك قال فالمال الذى جمعته بخراسان قال أنفقته بالجند تقوية لهم واستصلاحا قال ألست الكاتب التى تبدأ بنفسك وتخطب عمتى آمنة ابنة على وتزعم أنك ابن سليط بن عبدالله ابن عباس لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعبا ثم قال وما الذى دعاك الى قتل سليمان بن

كثير مع أثره فى دعوتنا وهو أحد قبائنا قبـل أن يدخلك فى هذا الامر قال أراد الخلاف وعصانى فقتلته

فلما طال عتاب المنصور قال أبو مسلم لايقال هذا الىّ بعـد بلائى وما كان منى فقال له المنصور يا ابن الخبيثـة والله لو كانت أمـة مكانك لأجزأت انما عملت فى دولتنا وبريحنا فلو كان ذلك اليك ماقطعت فتيلا * فعند ذلك أخذ أبو مسلم بيد المنصور وجعل يقبلها ويعركها ويعتذر اليه فقال له المنصور مارأيت كاليوم والله ما زدتنى الا غضبا فقال أبو مسلم دع هذا فقد أصبحت ما أخاف الا الله تعالى فغضب المنصور وقال له قتلنى الله ان لم أقتلك ثم صفق باحدى يديه على الاخرى فخرج اليه القوم وخبطوه بسيوفهم والمنصور يصيح اضربوه قطع الله أيديكم * وكان أبو مسلم قد قال عنـد أول ضربة استبقنى ياأمير المؤمنين لعدوك قال لا أبقانى الله أبدا ان أبقيتك وأىّ عدو أعدى منك * وكان قتله يوم الخميس لخمس بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة هجرية أى سنة أربع وخمسـين وسبعمائة ميلادية * ولما قتـل أبو مسلم أمر المنصور فأدرجوه فى بساط فدخل على المنصور جعفر بن حنظلة فقال له ماتقول فى أمر أبى مسلم فقال يا أمير المؤمنين ان كنت أخذت من رأسه شعرة فاقتل ثم اقتل ثم اقتل فقال المنصور وفقك الله ها هو فى البساط فلما نظر اليه قتيـلا قال ياأمير المؤمنين عدّ هـذا اليوم أول خلافتك فأنشد المنصور

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى * كما قرّ عينا بالاياب المسافر

ثم أقبل المنصور على من حضره وأبو مسلم طريح بين يده وأنشد

زعمت أن الدين لا ينقضى * فاستوف بالكيل أبا مجرم

اشرب بكأس كنت تسقى بها * أمرّ فى الحلق من العلقم

ثم كتب أبو جعفر المنصور بعد قتل أبى مسلم الى أبى نصر مالك بن الهيثم الذى استخلفه أبو مسـلم فى عسكره كما تقـدم يأمره على لسان أبى مسلم بنقل الاثقال وما خلف عنده وأن يقـدم وختم الكتاب بخاتم أبى مسـلم فلما رأى الخاتم تاما علم أن أبا مسـلم لم يكتب فقال فعلتموها ثم انحدر الى همـذان يريد خراسان فكتب المنصور لابى نصر عهده على شهر زور وكتب الى زهير بن التركى وهو على همذان ان مر بك أبو نصر فاحبسه فسبق الكتاب الى زهير وأبو نصر فى همذان فلما وصل أبو نصر قال له زهير قد صنعت لك طعاما فلو أكرمتنى بدخول مـنزلى فأجابه الى ذلك فقبض عليـه زهير وحبسه ثم خلى عنـه لما رأى عهـد أمير المؤمنين معه * ولما قتـل المنصور أبا مسلم خطب النـاس فقال * أيها الناس لاتخرجوا من أنس الطاعة الى وحشـة المعصية ولاتمشوا فى ظلمة الباطل بعـد سعيكم فى ضـياء الحق ان أبا مسلم أحسن مبتـدا وأساء معقبا وأخذ من النـاس نبأ أكثر مما أعطانا ورجح قبيح باطنه على حسن ظاهره وعلمنا من خبث سريرته وفساد نيته مالو علمه اللائم لنا فيه لعذرنا فى قتله وعنفنا فى امهالنا وما زال ينقض بيعتـه ويخفر ذمتـه حتى أحل لنا عقوبته وأبحنا دمه

فحكمنا فيه حكمه لنا فى غيره ولم يمنعنا الحق له من إمضاء الحق فيه وما أحسن ماقال النابغة الذبيانى للنعمان

فمن أطاعك فانفعه بطاعته * كما أطاعك وادلله على الرشد

ومن عصاك فعاقبه معاقبة * تنهى الظلوم ولاتقعد على ضمد

وقد تقدم الكلام على أبى مسلم المذكور بما فيه الكفاية ونقول هنا أيضا انه كان طاغية داهية جبارا ذا رأى وعقل وتدبير * قيل انه خطب يوما فقام اليه رجل فقال ماهذا السواد الذى أرى عليك فقال على الفور حدثنى أبو الزبير عن جابر بن عبدالله أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة ياغلام اضرب عنقه فضرب عنقه فأطاحها * قتل فى أيامه ستمائة ألف نفس صبرا ماعدا من قتل فى الحروب * ولم يمض على قتل أبى مسلم الا القليل حتى خرج رجل اسمه سنباد من خراسان يريد الاخذ بثأر أبى مسلم فكثرت جموعه وكان عامتهم من أهل الجبال فسار بهم الى نيسابور فغلب عليها وعلى قومس والرى وقتل وسبا وتسمى فيروز اصبهند وأخذ خزائن أبى مسلم من الرى وكان قد تركها بها عند ذهابه الى المنصور فسير اليه المنصور عسكرا كبيرا مع جهور بن مرار العجلى فالتقوا بين همذان والرى وعزم جهور على مطاولته لكثرة قومه فأمر سنباد فحملوا السبايا من النساء المسلمات على الجمال فلما رأين عسكر المسلمين صحن وقمن فى المحامل وبادين وامحمداه ذهب الاسلام وبينما هما على هذا الصياح والعويل والنداء على عسكر المسلمين اذ ارتفعت ريح ووقعت فى أثوابهن فنفرت الابل وعادت على أعقابها الى عسكر سنباد فانفشلوا وتفرقوا وكان ذلك سبب الهزيمة وتبع المسلمون الابل ووضعوا السيوف فى أصحاب سنباد فقتلوا منهم خلقا كثيرا وأسروا كذلك وسبوا نساءهم وذراريهم ثم قتل سنباد بين طبرستان وقومس

ولما كانت سنة أربع وأربعين ومائة ظهر أمر محمد وابراهيم ابنى عبد الله بن الحسن ابن الحسين بن على بن أبى طالب بالمدينة فاهتم المنصور بأمر محمد حيث أعلموه بأن محمدا كان يزعم أن المنصور ممن بايعه بالخلافة يوم تشاور بنو هاشم بمكة فيمن يعقدون له الخلافة حين اضطرب أمر مروان بن محمد فخافه المنصور وخشى عاقبة ظهوره وشدد فى طلبه ووكل أمر البحث عنه لجماعة من رقيق الاعراب فخرجوا فى طلبه فى ظهر المدينة واستعمل المنصور كل حيلة ودهاء فى طلب ابنى عبدالله فأدرك عبد الله فحبسه وضيق عليه ونزل محمد فى بنى راسب بالبصرة فعلم المنصور بخبره فسار اليه فرحل محمد عن البصرة قبل وصول المنصور اليها فرجع المنصور واشتد خوف محمد وابراهيم ابنى عبد الله وضاقت الدنيا عليهما فخرجا حتى أتيا عدن ثم سارا الى السند ثم الى الكوفة ثم الى المدينة فكان اذا ظهر محمد بين الناس صاحوا وهللوا وقالوا هاهو المهدى وكان اذا أرسل المنصور فى طلبه اختفى فكتب المنصور الى محمد بن خالد بن عبد الله القسرى وقد ولاه المدينة أن اكشف المدينة وأعراضها

فى طلب محمد فطاف بيوت الناس وكبس على من بها فلم يجـد محمدا فخلعه المنصور واستعمل رباح بن عثمان بن حيان المرى مكانه وألزمه بالقبض على ابنى عبد الله فجدّ رباح فى طلبهما وشدد فأخبر أن محمدا فى شعب من شعاب رضوى جبل جهينة من أعمال ينبع فرسم الى عامله هنالك بطلب محمد فلما أحس محمد بذلك هرب على الاقدام وكان معه ولد صغير ولد له وهو فى الهرب وجارية له أيضا فسقط ولده المذكور من الجبل عند ماهم بالهرب فتقطع فبكى عليه وأنشد

منخرق السربال يشكو الوجى * مسكنه أطراف مرّ وحداد
شرّده الخـوف فأزرى به * كذاك من يكره حرّ الجلاد
قـد كان فى الموت له راحـة * والموت حتم فى رقاب العباد

وما زال رباح يجـدّ فى الطلب وينفق الاموال الطائلة للعيون والارصاد حتى قبض على جميع بنى الحسين وقيدهم بالحديد وكان محمد قد بعث بابنه علىّ الى مصر يدعو اليـه الناس فقبض عليه عامل مصر وشيعه الى المنصور فاعترف له وأخبره باسماء أصحاب أبيـه فأمر به فحبسوه وبقى محبوسا الى أن مات المنصور * وقتل المنصور أكثر بنى الحسن صبرا ولم يظفر بمحمد فلما كانت سنة خمس وأربعين ومائة ظهر محمد بالمدينـة فى جمع من أصحابه فكسر أبواب السجن وأخرج من به وقبض على رباح وأخيه عباس وابن مسلم بن عقبة المرى فحبسهم فى دار الامارة ثم خرج الى المسجد فصعد على المنبر فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه * قال صاحب الكامل * ثم قال أما بعد فانه قد كان من أمر هـذا الطاغية عدوّ الله أبى جعفر مالم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندا لله فى ملكه وتصغيرا للكعبة الحرام وانما أخذ الله فرعون حين قال * أنا ربكم الاعلى * وان أحق الناس بالقيام فى هذا الدين أبناء المهاجرين والانصار المرأسين اللهم انهم لأحـلوا حرامك وحرموا حلالك وأمنوا من أخفت وأخافوا من أمنت اللهم فأحصهم عـددا واقتلهم بددا ولاتغادر منهـم أحدا * أيها الناس انى والله ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندى أهل قوة ولا شدة ولكن اخترتكم لنفسى والله ما جئت هـذه وفى الارض مصر يعبد الله فيه الا وقد أخذ لى فيه البيعة اه

واستولى محمد على المدينـة واستعمل عليها عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير ومال اليـه الناس واستفتوا مالك بن أنس فى الخروج مع محمد وقالوا ان فى أعناقنا بيعـة لابى جعفر المنصـور فقال انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين فأسرع الناس الى محمـد ثم تفرق بعضهم لما سمعوا عن اسمعيل بن عبـد الله بن جعفر بن أبى طالب وكان شيخا كبيرا انه يقول ان محمدا مقتول لامحالة قيل فدس له محمد من قتله * فلما ظهرت كلمة محمد بالمدينة أخـذ المنصور فى التأهب لقتاله وشاور أصحاب الرأى فى أمره فحسنوا له التعجيل فى الخروج اليـه وأخذه فكتب اليه المنصور يقول * بسم الله الرحمن الرحيم * انما جزاء الذين يحاربون الله

ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أويصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض الآيتين * ولك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله أن أؤمنك وجميع ولدك واخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم على دمائكم وأموالكم وأسوغك ما أصبت من دم أو مال وأعطيك ألف ألف درهم وما سألت من الحوائج وأنزلك من البلاد حيث شئت وأن أطلق من فى حبسى من أهل بيتك وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك واتبعك أو دخل فى شئ من أمرك ثم لا أتبع أحدا منهم بشئ كان منه أبدا فان أردت أن تتوثق لنفسك فوجه الى من أحببت يأخذ لك منى الامان والعهد والميثاق وما تتوثق به والسلام * فلما وصل الكتاب الى محمد كتب اليه يقول طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبا موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * الى يحذرون * وأنا أعرض عليك من الامان مثل ما عرضت علىّ فان الحق حقنا وانما ادّعيتم هذا الامر بنا وخرجتم له بشيعتنا وحظيتم بفضله فان أبانا عليا كان الوصى وكان الامام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ثم قد علمت انه لم يطلب الامر أحد مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء وليس يمتّ أحد من بنى هاشم بمثل الذى نمتّ به من القرابة والسابقة والفضل وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية وبنو بنته فاطمة فى الاسلام دونكم ان الله اختارنا واختار لنا فوالدنا من النبيين محمد أفضلهم ومن السلف أوّلهم اسلاما علىّ ومن الازواج أفضلهن خديجة الطاهرة وأول من صلى الى القبلة ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء العالمين وأهل الجنة ومن المولودين فى الاسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة وان هاشما ولد عليا مرتين وان عبد المطلب ولد حسنا مرتين وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل حسن وحسين وانى أوسط بنى هاشم نسبا وأصرحهم أبا لم نعرف فى العجمة ولم تنازع فى أمهات الاولاد فما زال يختارلى الآباء والامهات فى الجاهلية والاسلام حتى يختار لى فى الاشرار فأنا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة وأهونهم عذابا فى النار ولك الله علىّ ان دخلت فى طاعتى وأجبت دعوتى أن أؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته الاحدا من حدود الله أوحقا لمسلم أومعاهد فقد علمت مايلزمنى من ذلك وأنا أولى بالامر منك وأوفى بالعهد لانك أعطيتنى من الامان والعهد ما أعطيته رجالا قبلى فأى الامانات تعطينى أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبدالله بن علىّ أم أمان أبى مسلم * قال صاحب الكامل فلما ورد كتابه يعنى كتاب محمد على المنصور قال له أبو أيوب الورنانى دعنى أجبه عليه قال لا اذا تقارعنا على الاحساب فدعنى واياه ثم كتب اليه المنصور * بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد بلغنى كلامك وقرأت كتابك فاذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ولا كالعصبة والاولياء لان الله جعل العم أبا بدأ به فى كتابه على الوالدة الدنيا ولو كان اختار الله لهنّ على قدر قرابتهنّ كانت آمنة أقربهنّ رحما وأعظمهنّ حقا وأولى من يدخل الجنة ولكن اختار الله لخلقه على علمه فيما مضى منهم

واصطفائه

واصطفائه لهم وأما ماذكرت من فاطمة أم أبى طالب وولادتها فان الله لم يرزق أحـدا من ولدها الاسلام لابنتا ولا ابنا ولو أن رجلا رزق الاسلام بالقرابة لرزقه عبد الله ولكان أولاهم بكل خير من الدنيا والآخرة ولكن الله يهـدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ولقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وله عمومة أربعة فأنزل الله عزوجل * وأنذر عشـيرتك الاقربين فأنذرهم ودعاهم فأجاب اثنان أحدهما أبى وأبى اثنان أحدهما أبوك فقطع الله ولايتهما منه ولم يجعل بينه وبينهما إلا ولاذمه ولا ميراثا * وزعمت أنك ابن أخف أهـل النار عذابا وابن خير الاشرار وليس فى الكفر بالله صغير ولا فى عذاب الله خفيف ولا يسير وليس فى الشر خيار ولا ينبغى لمؤمن يؤمن بالله أن يفتخر بالنار وسترد فتعلم وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون * وأما أمر حسن وأن عبد المطلب ولده مرتين وأن النبى صلى الله عليه وسلم ولدك مرتين فخير الاولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسـلم لم يلده هاشم الا مرة ولا عبد المطلب الا مرة * وزعمت أنك أوسـط بنى هاشم وأصرحهم أما وأبا وانه لم يلدك العجـم ولم تعرف فيك أمهات الاولاد فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرا فانظر ويحـك أين أنت من الله غدا فانك قد تعدّيت طورك وفخرت على من هو خير منك نفسا وأبا وأولادا وأخا ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وماخيار بنى أبيك خاصة وأهل الفضل منهم الا بنو أمهات الاولاد ما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من على بن الحسين وهولام ولد ولهو خير من جدك حسن بن حسين وما كان فيكم بعده مثل محمد بن علىّ وجدته أم ولد ولهو خير من أبيك ولا مثل ابنه جعفر وجدته أم ولد وهو خير منك * وأما قولك انكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم فان الله تعالى يقول فى كتابه ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكنكم بنو بنتـه وانها لقرابة قريبة ولكنها لايجوز لها الميراث ولاترث الولاية ولا يجوز لها الامامة فكيف تورث بها واقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرج فاطمة نهارا ومرضها سرا ودفنها ليلا فأبى الناس الا الشيخان واقد جاءت السنة التى لا اختلاف فيها من المسلمين أن الجد أبا الام والخال والخالة لايورثون * وأما مافخرت به من على وسابقتـه فقد حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة فأمر غيره بالصلاة ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه وكان فى الستة فتركوه كلهم دفعا له عنها ولم يروا له حقا فيها * وأما عبـد الرحمن فقـدم عليه عثمان وهو له متهم وقاتله طلحة والزبير وأبى سعد بيعته فأغلق بابه دونه ثم بايـع معاوية بعده ثم طلبها بكل وجـه وقاتل عليها وتفرق عنه أصحابه وشك فيه شيعته قبـل الحكومة ثم حكم حكمين رضى بهما وأعطاهما عهـد الله وميثاقه فاجتمعا على خلعه ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم ولحق بالحجاز وأسلم شيعته بيد معاوية ورفع الامر الى غير أهله وأخذ مالا من غير ولايته ولاحله فان كان لكم فيها شئ فقد بعتموه وأخذتم ثمنه ثم خرج عمك حسين على ابن مرجانة فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه اليه ثم خرجتم على بنى أمية فقاتلوكم وصـلبوكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ونفوكم من البلدان حتى قتل يحيى بن زيد

بخراسان وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء وحلوهم وطاء فى المحامل كالسبي المجلوب الى الشام حتى خرجنا عليهم فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم وسنينا سلفكم وفضلناه فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا انما ذكرنا أباك لتقدمة ما له على حمزة والعباس وجعفر وليس ذلك كما ظننت ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين متسلما منهم مجتمعا عليهم بالفضل وابتلى أبوك بالقتال والحرب وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة فى الصلاة المكتوبة فاحتججنا وذكرناهم فضله وصفاته وظلمناهم بما نالوا منـه فلقد علمت أن مكرمتنا فى الجاهلية سقاية الحاج الاعظم وولاية زمزم فصارت للعباس بين اخوته فنازعنا فيها أبوك فقضى لنا عليه عمر فلم نزل نليها فى الجاهلية والاسلام ولقد قحط أهل المدينة فلم يتوسل عمر الى ربه ولم يتقرب اليه الا بأبينا حتى يغيثهم الله فسقاهم الغيث وأبوك حاضر لم يتوسلوا به ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبى صلى الله عليه وسلم غـيره فكانت وراثته من عمومته ثم طلب هذا الامر غير واحـد من بنى هاشم فلم ينله الا ولده فالسـقاية سقايته وميراث النبى له والخلافة فى ولده فلم يبق شرف ولا فضـل فى جاهليـة ولا اسـلام فى الدنيا والآخرة الا والعباس وارثه ومورثه وأما ماذكرت من بدر فان الاسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله وينفق عليهم للازمة التى أصابته ولو أن العباس أخرج الى بدر كارها لمات طالب وعقيل جوعا وللحسا جفان عتبة وشيبة ولكنه كان من المطعمين فأذهب عنكم العار والسبة وكفاكم النفقة والمؤنة ثم فدى عقيلا يوم بدر فكيف تفخر علينا وقد غلبناكم فى الكفر وفديناكم وحزنا عليكم مكارم الآباء وورثنا دونكم خاتم الانبياء وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ماعجزتم عنه ولم تدركوا لانفسكم والسلام عليكم ورحمة الله اه فلم يرد عليه محمد ثم سير أبو جعفر المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى لقتال محمد بن عبد الله المذكور بالمدينة واستحثه فى ذلك وشدد عليـه فقال عيسى شاور عمومتك ياأمير المؤمنـين ثم قال فأين قول ابن هرمة

نزور امرأ لايمخض القوم سره * ولا ينتجى الادنـين عما يحاول
اذا ماأتى شيأ مضى كالذى أتى * وان قال انى فاعل فهو فاعل

فقال المنصور امض أيها الرجـل فوالله مايراد غيرى وغـيرك وماهو الا أن تشخص أنت أو أشخص أنا فسار وسير معه الجنود فلما صار عيسى بن موسى على قيد أربعـة أميال من المدينـة رتب عسكره وأرسـل الى محمد بن عبـد الله بأمان أبى جعفر المنصور ان هو أطاع وانكف عما هو فيه فأبى محمد الطاعة وبرز عيسى بن موسى بعسكره للقتال وكذلك محمد بن عبـد الله فاقتتلوا قتالا عنيفا للغاية فتفرق أكثر أصحاب محمد بن عبـد الله حتى لم يبق معه الازهاء ثلثمائة رجل وذهب عيسى بن حضير وهو من أصحاب محمد فأحرق السجل الذى فيه أسماء الذين بايعوا محمدا خوفا من وقوعه فى يد عيسى بن موسى اذا هو دخل المدينة بعسكره وجعل محمد يقاتل بمن بقى معـه حتى ضربه أحد أصحاب عيسى بن موسى دون شحمة أذنه

اليمنى فبرك لركبته وجعل يذب عن نفسه ويقول ويحكم ابن نبيكم مجرح مظلوم فطعنه ابن قطحبة فى صدره فصرعه ثم نزل اليه فأخذ رأسه وأتى به عيسى وهو لا يعرف من هو لكثرة الدماء فأرسل عيسى الرأس الى المنصور مع محمد بن أبى الكرام بن عبد الله بن علىّ بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فأمر المنصور فطيف برأس محمد فى الكوفة وسيره الى الآفاق وكان قتل محمد المذكور فى يوم الاثنين بعد العصر لاربع عشرة خلت من شهر رمضان وكان محمد هذا يلقب بالمهدى وبالنفس الزكية ورثاه هو وأخاه عبد الله بن مصعب بن ثابت بهذه القصيدة

ياصاحبىّ دعا الملامة واعلما * أن لست فى هذا بألوم منكما
وقفا بقبر للنبى فسلما * لابأس أن تقفا به وتسلما
قبر تضمن خير أهل زمانه * حسبا وطيب سجية وتكرما
رجل نفى بالعدل جور بلادنا * وعفا عظيمات الامور وأنعما
لم يجتنب قصد السبيل ولم يحد * عنه ولم يفتح بفاحشة فما
لوأعظم الحدثان شيأ قبله * أحدا لكان قصاره أن يسلما
ضحوا بابراهيم خير ضحية * فتصرمت أيامه فتصرما
بطلا يخوض بنفسه غمراته * لاطائشا رعشا ولامستسلما
حتى مضت فيه السيوف وربما * كانت حتوفهم السيوف وربما
أضحى بنو حسن أبيح حريمهم * فينا وأصبح نهبهم متقسما
ونساؤهم فى دورهن نوائح * سجع الحمام اذا الحمام ترنما
يتوصلون بقتله ويرونه * شرفا لهم عند الامام ومغنما
والله لو شهد النبى محمد * صلى الاله على النبى وسلما
اشراع أمته الاسنة لابنه * حتى تقطر من ظباتهم دما
حقا لأيقن أنهم قد ضيعوا * تلك القرابة واستحلوا المحرما

ولما قتل محمد نصب عيسى بن موسى بعض الألوية بالمدينة ونادى مناديه من دخل تحت لواء منها فهو آمن ثم أخذ أصحاب محمد فصلبهم مابين ثنية الوداع الى دار عمر بن عبد العزيز صفين وبقوا على هذا الحال ثلاثا فأمر بهم عيسى فألقوهم على مقابر اليهود ثم بعد ذلك فى خندق فى أصل ذباب وزال عن أبى جعفر المنصور ما كان يلاقيه من خروج محمد ابن عبد الله

وخرجت فى خلافة المنصور أيضا الراوندية وهم قوم من خراسان على مذهب أبى مسلم كانوا يقولون بالتناسخ ويزعمون أن روح آدم حلت فى عثمان بن نهيك وان ربهم الذى يقيتهم هو الخليفة أبو جعفر المنصور فلما ظهروا وأتوا الى قصر المنصور فى سنة احدى وأربعين ومائة للهجرة أى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة للميلاد قالوا هذا ربنا فحبس المنصور

رؤساءهم وكانوا نحو مائتين فهاجوا وماجوا وأخذوا نعشا وحملوه ومشوا به كأنهم يشيعون جنازة حتى بلغوا باب السجن فرموا بالنعش وكسروا باب السجن وأخرجوا أكابرهم ثم طلبوا المنصور وهم نحو ستمائة رجل فتنادى الناس وأغلقت الابواب ووقع خوف عظيم وخرج المنصور ماشيا واجتمع عليه خلق كثير وكان معن بن زائدة مستخفيا خوفا لانه كان حارب مع ابن هبيرة الشيبانى فظهر وحارب الراوندية بين يدى المنصور فعفا عنه وكان ذلك يوم استئصال الراوندية وقطع دابرهم * وكره المنصور بعد واقعة الراوندية الاقامة بالهاشمية فدلوه على أن تكون اقامته على نهر الفرات ليكون متوسطا مابين البصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد وتكون دجلة والفرات خنادق مدينته فوقع اختياره على مكان اسمه بغداد ومعناه بستان دار واستشار المنجمين فى اختيار وقت البناء فأخبروه فوكل البناء لأربعة من القواد وأمر أن يكون عرض أساس القصر من أسفله خمسين ذراعا ومن أعلاه عشرين ذراعا ووضع بيده أول لبنة وهو يقول باسم الله والحمد لله والارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * ثم قال ابنوا على بركة الله وأمر بايوان كسرى فنقض ونقل الى المدينة الجديدة ونقضت شرفة من القصر الابيض فوجد أنه يلزم لنقض ذلك أكثر من كلفة الجديد فعدل عن ذلك فتمت على أحسن مثال وتوارد اليها السكان من العراقين والشام والجزيرة والعجم والعرب ومصر وغيرها وسميت دار السلام ثم تحول المنصور عن مدينة أبى هبيرة الى بغداد مدينته الجديدة ونقل أبواب مدينة واسط اليها وخلع ابن أخيه عيسى بن موسى عن ولاية العهد وبايع لابنه محمد المهدى بعد أمور أضربنا عن ايرادها هنا صفحا

وظهر فى أيامه رجل ادّعى النبوّة اسمه استاذسيس فى جهة خراسان فاجتمع اليه نحو ثلثمائه ألف مقاتل من أهل هراة وباذغيس وسجستان فسار اليه الاجشم عامل مرووذ فى عسكر فقاتل الاجشم وأصحابه وتتابع القواد فى هجماته حتى هزمهم شر هزيمة فبعث المنصور وهو بالراذان خازم بن خزيمة الى المهدى فى اثنى عشر ألفا فولاه المهدى حربه فزحف عليه فى عشرين ألفا وبعد قتال شديد تقوى المسلمون عليه وقتلوا من عسكره نحو سبعين ألفا وأسروا نحو أربعة عشر ألفا وأسر استاذسيس المذكور وبنوه وتفرق الباقون من قومه قيل ان استاذسيس هذا هو أبو مراجل أم المأمون وابنه غالب خال المأمون وهو الذى قتل الفضل بن سهل * ثم خرج المنصور قاصدا الحج فى سنة ثمان وخمسين ومائة للهجرة أى سنة أربع وسبعين وسبعمائة للميلاد فخرج ولده المهدى معه ليودّعه فقال له * يابنى انى أهجس بالموت ولاأدرى اذا كنا نجتمع بعد هذا فانى ولدت فى ذى الحجة ووليت فى ذى الحجة وأخشى أن أموت فى ذى الحجة من هذه السنة وانى لذلك عزمت على الحج والآن أوصيك بخصال وما أظنك تفعل واحدة منها * وكان له سفط قيل ان فيه أوراق عمه وعليه قفل لايفتحه غيره فقال للمهدى انظر الى هذا السفط فاحتفظ به فان فيه علم آبائك ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة

فان

فان أحزنك أمر فانظر فى الدفتر الكبير فان أصبت فيه ماتريد والا ففى الثانى حتى بلغ سبعة فان ثقل عليك فالكراسة الصغيرة فانك واجد فيها ما تريد وما أظنك تفعل * وانظر هذه المدينة واياك أن تستبدل بها غيرها وقد جمعت لك فيها من الاموال ماان انكسر عليك الخراج عشر سنين كفاك لارزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث فاحتفظ بها فانك لاتزال عزيزا مادام بيت مالك عامرا وماأظنك تفعل * وأوصيك بأهل خراسان خيرا فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم فى دولتك ومن لاتخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم عما كان منهم وتخلف من مات منهم فى أهله وولده وما أظنك تفعل * واياك أن تبنى مدينة الشرقية فانك لاتتم بناءها وأظنك ستفعل * واياك أن تستعين برجل من بنى سليم وأظنك ستفعل * واياك أن تدخل النساء فى أمرك وأظنك ستفعل * فاتق الله فيما أعهد اليك من أمور المسلمين بعدى يجعل الله لك مخرجا فى كربك ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لاتحتسب * يابنى احفظ محمدا صلى الله عليه وسلم فى أمته يحفظك الله ويحفظ عليك أمورك * واياك والدم الحرام فانه حوب عند الله عظيم وعار فى الدنيا لازم مقيم والزم الحدود فان فيها خلاصك فى الآجل وصلاحك فى العاجل ولاتعتد فيها فتبور فان الله تعالى لوعلم أن شيأ أصلح منها لدينه وأزجر عن معاصيه لأمر به فى كتابه * واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه أنه أمر فى كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى فى الارض فسادا مع ماذخر له من العذاب العظيم فقال انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أويصلبوا . الآية . فالسلطان حبل الله المتين وعروته الوثقى ودينه القيم فاحفظه وحصنه وذب عنه وأوقع بالملحدين واقمع المارقين منه وقابل الخارجين عنه بالعقاب ولاتجاوز ماأمر الله به فى محكم القرآن واحكم بالعدل ولاتشطط فان ذلك أقطع للشغب وأحسم للعدو وأنجع فى الدواء وعف عن الفىء فليس بك اليه حاجة مع ماخلفه لك وافتتح بصلة الرحم وبر القرابة واياك والاثرة والتبديد لاموال الرعية واشحن الثغور واضبط الاطراف وأمن السبيل وسكن العامة وأدخل المرافق عليهم وادفع المكاره عنهم وأعد الاموال واحرزها فان النوائب غيرمأمونة وهى من شيم الزمان وأعد الاكراع والرجال والجند مااستطعت واياك وتأخير عمل اليوم الى الغد فتتدارك عليك الامور وتضيع وجد فى احكام الامور النازلات فى أوقاتها أولا فأولا واجتهد وشمر فيها وأعد رجالا بالليل لمعرفة مايكون فى النهار ورجالا بالنهار لمعرفة مايكون بالليل وباشر الامور بنفسك ولاتضجر ولاتكسل واستعمل حسن الظن وأسئ الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ وتفقد من تثبت على بابك وسهل أذنك للناس وانظر فى أمر النزاع اليك وكن بهم عينا غير نائمة ونفسا غير لاهية ولاتنم فان أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ولادخل عينه الغمض الاوقلبه مستيقظ * هذه وصيتى اليك والله خليفتى عليك * ثم ودعه وبكى وبكى ولده المهدى * وسار المنصور فاشتدت به علته وأدركته منيته ببئر ميمونة محرما بمرضه وهو القيام وذلك فى ذى الحجة وهوابن ثلاث وستين سنة فكانت خلافته احدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وأربعة عشر يوما وأمه بربرية وكان طويلا

أسمر نحيفا خفيف اللحية رحب الجبهة وكأن عينيه لسانان ناطقان صارمان مهيبا ذا جبروت وسطوة وحزم ورأى وشجاعة وكمال عقل ودهاء وعلم وفقه وخبرة بالامور

قيل ولما قرب من مكة فى حجته التى مات فيها رأى على جدار سطرين مكتوبين وهما

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت * سنوك وأمر الله لا بدّ واقع

أبا جعفر هل كاهن أو منجم * لك اليوم من ريب المنية دافع

فلما قرأها تيقن فراغ أجله قيل فمات بعد ثلاثة أيام وقيل غير ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم

ومات فى أيامه خائل بطرك الاسكندرية بعد أن أقام ثلاثا وعشرين سنة فاقيم بعده مينا وهو سابع أربعيهم وفى أيام مينا هذا اشتد الولاة والعمال على القبط وضيقوا عليهم وساموهم الخسف فخرج منهم جماعة بناحية سخا وأخرجوا العمال وطردوا أرباب الجباية وذلك سنة سبعين وسبعمائة للميلاد أى سنة خمسين ومائة للهجرة فبعث اليهم يزيد بن حاتم ابن قبيصة أمير مصر اذ ذاك عسكرا عظيما فأتاهم القبط ليلا وقتلوا منهم عدة كثيرة وهزموا باقيهم شر هزيمة وشردوهم فاشتد البلاء بأسباب ذلك على النصارى فى الاقاليم القبلية والبحرية وزادوا فى التضييق عليهم حتى احتاجوا الى أكل الميتة والجيف وهدمت جميع الكنائس بمصر فكان منها كنيسة العذراء التى بجوار أبى شنودة بمصر وهدمت أيضا كنائس محارس قسطنطين فبذل أهل البلاد لسليمان بن علىّ أمير مصر يومئذ فى تركها خمسين ألف دينار فأبى فلما ولى بعده موسى بن عيسى أذن لهم فى بنائها فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة قاضى مصر يومئذ واحتجا بأن بناءها من عمارة البلاد وبان الكنائس التى بمصر لم تبن الا فى الاسلام فى زمن الصحابة والتابعين * واستعمل جعفر المنصور فى أيامه على مصر موسى بن كعب التميمى بعد ولاية أبى عون التى كانت الى سنة احدى وأربعين ومائة فأقام موسى المذكور سبعة أشهر ومات وولى بعده محمد بن الاشعث الخزاعى ثم عزل سنة اثنتين وأربعين وولى نوفل بن الفرات ثم عزل نوفل وولى بعده حميد بن قحطبة الطائى ثم صرف سنة أربع وأربعين وولى يزيد بن حاتم المهلبى فأقام الى سنة اثنتين وخمسين فعزل وولى محمد بن سعيد فأقام الى أن استخلف المهدى فعزله فى سنة تسع وخمسين ومائة * ولما مات أبو جعفر المنصور ولى الخلافة بعده محمد المهدى ابنه

(الفصل الثالث)

﴿ فى خلافة محمد المهدى ﴾

ثم قام بالامر بعد أبى جعفر المنصور ابنه أبو عبد الله محمد المهدى بالله بويع له بالخلافة يوم

مات

مات أبوه المنصور بعهد منه وهو يومئذ ببغداد ثم بويع له البيعة العامة بها لاحدى عشرة خلت من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة للهجرة أى نحو سنة أربع وسبعين وسبعمائة للميلاد * قال صاحب الكامل ذكر علىّ بن محمد النوفلى عن أبيه قال خرجت من البصرة حاجا فاجتمعت بالمنصور بذات عرق فكنت أسلم عليه كلما ركب وقد أشفى على الموت فلما صار ببئر ميمونة نزل به ودخلنا مكة فقضيت عمرتى وكنت أختلف الى المنصور فلما كان فى الليلة التى مات فيها ولم نعلم صليت الصبح بمكة وركبت أنا ومحمد بن عون بن عبد الله بن الحرث وكان من مشايخ بنى هاشم وساداتهم فلما صرنا بالابطح لقينا العباس بن محمد ومحمد ابن سليمان فى خيل الى مكة فسلمنا عليهما ومضينا فقلت لمحمد أحسب الرجل قد مات فكان كذلك ثم أتينا العسكر فاذا موسى بن المهدى قد صدر عن عمود السرادق والقاسم بن المنصور فى ناحية السرادق وسمعنا منهما بكاء وخرج أبو العنبر خادم المنصور مشقق الاقبية وعلى رأسه التراب وصاح وا أمير المؤمنيناه فما بقى أحد الا قام ثم تقدموا ليدخلوا عليه فمنعهم الخدم وقال ابن عياش المنتوف سبحان الله أما شهدتم موت خليفة قط اجلسوا فجلسوا وقام القاسم فشق ثيابه ووضع التراب على رأسه وموسى على حاله ثم خرج الربيع وفى يده قرطاس ففتحه فقرأه فاذا فيه * بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله المنصور أمير المؤمنين الى من خلف من بنى هاشم وشيعته من أهل خراسان دعاته المسلمين ثم بكى وبكى الناس ثم قال قد أمكنكم البكاء فانصتوا رحمكم الله ثم قرأ * أما بعد فانى كتبت كتابى هذا وأنا حى فى آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة أقرأ عليكم السلام وأسأل الله أن لا يفتنكم بعدى ولا يلبسكم شيعا ولا يذيق بعضكم بأس بعض * ثم أخذ فى وصيتهم بالمهدى واذكارهم البيعة له وحثهم على الوفاء بعهده * ثم تناول يد الحسن بن زيد وقال قم فبايع فقام الى موسى فبايعه الناس الاول فالاول ثم أدخل بنو هاشم على المنصور وهو فى أكفانه مكشوف الرأس فحملناه حتى أتينا به مكة ثلاثة أميال قال فكأنى أنظر اليه والريح تحرك شعر صدغيه وذلك أنه كان وفر شعره للحلق وقد فصل خضابه حتى أتينا به حفرته وكان أول شئ ارتفع به على بن عيسى بن ماهان أن عيسى بن موسى أبى من البيعة فقال على بن عيسى ابن ماهان والله لتبايعن أو لاضربن عنقك فبايع ثم وجه موسى بن المهدى الى المهدى بخبر وفاة المنصور وبالبيعة له مع منارة مولى المنصور وبعث أيضا بالقضيب والبردة وبخاتم الخلافة وقدم الخبر مع منارة فى منتصف ذى الحجة فبايعه أهل بغداد * قال بعض أهل التاريخ ان الربيع كتم موت المنصور وألبسه ثيابه على أحسن ما كان يلبس وأسنده وجعل على وجهه كلة خفيفة يرى شخصه منها ولا يفهم حاله وأدخل أهله عليه وأدناهم منه ثم قرب منه هو (أى الربيع) كأنه يخاطبه ثم رجع اليهم وقال لهم أمير المؤمنين يقول لكم جددوا البيعة الى المهدى فبايعوه ثم أخرجهم ولم يلبث أن خرج اليهم باكيا مشقق الجيب لاطما رأسه وهو يصيح وا أمير المؤمنيناه فعلموا بأن أمير المؤمنين مات * قالوا فلما بلغ ذلك

المهدى أنكره على الربيع وقال أما منعتك جلالة أمير المؤمنين أن تفعل به مافعلت وضربه * وقال آخرون لم يصح ضربه * ولما استقر بالمهدى الخلافة تقرب منه جماعة من بنى هاشم وشدوا أزره وكلموه فى خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة لموسى الهادى بن المهدى ووافقته شيعة المهدى على ذلك أيضا فسر المهدى هذا الامر وأعجبه جدا وكتب الى عيسى بن موسى بالقدوم وهو بقرية الرحبة من أعمال الكوفة فأحس عيسى بالذى يراد منه فامتنع من القدوم فسير المهدى روح بن حاتم الى الكوفة وولاه عمالتها وأمره أن يتصرف فى عيسى بن موسى ويضره فلم يجد روح سببا للاضرار به لانه كان لايأتى من القرية الى الكوفة الا نادرا وألح المهدى على عيسى انك ان لم تجبنى الى أن تخلع نفسك من ولاية العهد لموسى وهرون استحللت دمك بمعصيتك مايستحل من أهل المعاصى وان أجبتنى عوضتك منها ماهو أجدى عليك وأعجل نفعا * فلم يقدم عليه وخاف انتقامه فوجه اليه المهدى عمه العباس بن محمد برسالة وكتب يستدعيه فلم يحضر معه فلما عاد العباس وجه اليه المهدى أبا هريرة محمد بن فروخ القائد فى ألف من أصحاب المهدى المتشيعين له وجعل مع كل واحد منهم طبلا وأمرهم أن يضربوا طبولهم جميعا عند مايدخلون القرية التى بها عيسى فوصلوا اليها سحرا وضربوا طبولهم فخاف عيسى واضطرب اضطرابا شديدا ودخل عليه أبو هريرة وأمره بالشخوص معه فاعتل بالشكوى فلم يقبل منه وأخذه معه وأنزله دار محمد بن سليمان فى عسكر المهدى فأقام أياما يأتى فيها الى المهدى فلا يكلمه بشئ ولا يرى مايروعه

واتفق أنه حضر الدار يوما قبل حضور المهدى فجلس فى مقصورة للربيع وقد اجتمع شيعة رؤساء المهدى على خلعه فثاروا به وهو فى المقصورة فأغلق الباب دونهم فضربوا الباب بالعمد حتى كسروه وشتموا عيسى أقبح الشتم وجاء المهدى الى مجلسه فأظهر انكارا لما فعلوه فلم يرجعوا فبقوا على هذا الحال أياما الى أن كلمه فى ذلك أهل بيته وألح عليه المهدى فأبى وقال ان عليه أيمانا فى أهله وماله فأحضر له من القضاة والفقهاء عدة فافتوه بما رأوا فأجاب الى خلع نفسه فأعطاه المهدى عشرة آلاف ألف درهم وضياعه بالزاب وكسكر فكان خلعه لنفسه لاربع بقين من المحرم وبايع للمهدى ولابنه موسى الهادى ثم جلس المهدى من الغد وأحضر أهل بيته وأخذ بيعتهم ثم خرج الى الجامع وعيسى معه وخطب الناس وأعلمهم بخلع عيسى والبيعة للهادى ودعاهم الى البيعة فسارع الناس اليها وأشهد على عيسى بالخلع * قال صاحب الكامل * فأنشد فى ذلك بعض الشعراء

كره الموت أبو موسى وقد * كان فى الموت نجاة وكرم

خلع الملك وأضحى ملبسا * ثوب لؤم ماترى منه القدم

ولما دانت للمهدى الامور وتم له ماأراد من البيعة للهادى تفرغ للغزو والجهاد فأرسل فى سنة تسع وخمسين ومائة عبد الملك بن شهاب المسمعى فى جمع كثير من الجند والمتطوعة الى بلاد الهند فركبوا البحر من فارس ونزلوا بأرض الهند وفتحوا باربد عنوة فلجأ أهلها الى

البلد

البلد فأحرقوه عليهم ثم أصاب المسلمين يومئذ وباء عظيم فرجع من بقى منهم وبرجوعهم عصفت بهم الرياح عند ساحل حوران فكسرت جميع سفنهم ولم ينج الا النزر اليسير

وتجهز أيضا لحرب الروم فى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة للميلاد أى سنة ثلاث وستين ومائة للهجرة وجمع عسكره من خراسان ونحوها وقام الى البدندون وترك ولده موسى ببغداد وأخذ معه هرون الرشيد ثم سمع وهو فى طريقه أن بحلب من الزنادقة شئ كثير فعرج اليها وأقام بها أياما فجمع سائر من بها من هذه الطائفة وقتلهم وأحرق كتبهم ثم نهض الى جيحان وجيش ولده هرون الرشيد للغزو فتغلغل هرون فى البلد وفتح وأخضع وظفر وغنم وعاد بالغنائم * وظهر فى هذا الحين رجل اسمه يوسف ادّعى الولاية واستغوى خلقا كثيرا وظهر أيضا يوشيا وادّعى النبوّة فبعث اليه المهدى جيشا عظيما وأتى به بعد قتال فصلبه ثم ظهر المقنع الخراسانى واسمه عطاء وكان رجلا غريبا قيل انه خيل للناس صورة قمر يطلع ويراه الناس عن بعد شاسع نحو شهرين فتبعه خلق كثير جدّا فأرسل اليه المهدى جيشا وما زال يقاتله والحرب بينهم سجال حتى قتله وقد أشار ابن سينا الى ماكان يصنع المذكور فقال

اليك فما بدر المقنع طالعا * بأسحر من ألحاظ بدرىّ المعمم

قيل وتغالى المقنع فادّعى الربوبية واستمال جماعة وكان يقول بالحلول الالهى فى الانبياء كلهم الى أن حل فيه فاتسعت كلمته وطارت شهرته وكبرت هيبته وعمر قلعة تسمى بسيام وقيل تكس بما وراء النهر من رستاق كش وتحصن بها وكان يقول بالتناسخ فاجتمع اليه أصحاب المهدى وحصروه فى قلعته وشدّدوا فى الحصار أياما كثيرة فلما يئس من نفسه سقى نساءه سما فمتن ثم تناوله بنفسه فمات ودخل العسكر قلعته وقتلوا من بها من أصحابه بحد السيف قال بعض الكتاب وبعد أن تناول السم رمى بنفسه الى النار خوفا من أن العدوّ يلقى جسده وتبعه جنده فصارت القلعة خالية خاوية وكانت فعلته هذه سببا فى زيادة افتتان من بقى من شيعته بما وراء النهر حتى قالوا انه صعد الى السماء وكان قبل ذلك قد أعلمهم بأن روحه ستحوّل الى هيكل رجل أشمط على برذون أشهب وانه يعود اليهم ويملكهم سائر المعمور من الارض فكانوا ينتظرونه وهم يعرفون الى ذلك الحين (بالمبيضة) وكان المقنع المذكور فى بداية أمره قصارا من أهل كاوه من أعمال مرو وكان مشوّه الخلق قصيرا أعور اتخذ له برقعا من الذهب فكان لايسفر عن وجهه أبدا ولذلك سمى بالمقنع

وكان المهدى مولعا باللهو ويأذن بالشرب فى حضرته فنهاه عن ذلك وزيره يعقوب ابن داود بن طهمان فألقاه فى السجن فقال فيه بشار بن برد

بنى أميــة هبوا طال نومكم * ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا * خليفة الله بين الناى والعود

وبقى يعقوب مسجونا الى خلافة الرشيد فأخرجه وقد عمى فلحق بمكة وقتل المهدى

بشارا المذكور لقوله هذين البيتين وهو أول من رتب البريد بين مكة والمدينة واليمن من بغال وابل

ومات المهدى بقرية من قرى ماسبذان وذلك أنه ساق خلف صيد فدخل خربة فدق ظهره باب الخربة من قوة سوق الفرس فتلف لوقته * وقيل بل سممته جاريته حسنة وذلك أنه خرج يريد الهادى بجرجان فلما بلغ ماسبذان عمدت حسنة جاريته الى كمثرى فأهدتها الى جارية أخرى كان المهدى يحبها وكانت سمت كمثراة منها وهى الاطيب فمر المهدى وكان يحب الكمثرى فأخذ تلك الكمثراة المسمومة وأكلها فصاح من وقته جوفى جوفى فسمعت حسنة وجاءت تبكى وتلطم وجهها وتقول قصدت أن أنفرد بك فقتلتك ومات من يومه وقيل فى موته غير ذلك وهو أنه لما خرج الى ماسبذان كان يريد خلع ابنه موسى الهادى والبيعة للرشيد بولاية العهد وتقديمه على الهادى فبعث اليه وهو بجرجان فى أن يخلع نفسه وأبى فبعث اليه فى القدوم عليه فضرب الرسول وامتنع فسار المهدى يريده فلما بلغ ماسبذان أكل طعاما ثم قال انى داخل الى البهو أنام فلا توقظونى حتى أكون أنا الذى أنتبه فدخله فنام ونام أصحابه فاستيقظوا ببكائه فأتوه مسرعين فقال وقف على الباب رجل فقال

كأنى بهذا القصر قد باد أهله * وأوحش منه ربعه ومنازله
وصار عميد القوم من بعد بهجة * وملك الى قبر عليه جنادله
فلم يبق الا ذكره وحديثه * تنادى عليه معولات حلائله

فبقى بعد ذلك عشرة أيام ومات * ويحكى أيضا أنه لما هم المهدى بالخروج الى ماسبذان قدم الى حسنة حظيته أن تخرج معه فأرسلت الى طوفيل بن توما النصرانى المنجم الرهاوى وكان رئيس المنجمين تقول أشرت على أمير المؤمنين بهذا السفر فجشمتنا سفرا لم يكن فى الحساب فعجل الله موتك وأراحنا منك فلما بلغته الرسالة قال للجارية ارجعى اليها وقولى لها ان هذه الاشارة ليست منى وأما دعاؤك على بتعجيل الموت فهذا الشئ قد قضى الله به وموتى سريع فلا تتوهمى أنه بدعوتك ولكن أعدى لنفسك ترابا كثيرا فاذا مت أنا فاجعليه على رأسك * قيل فما زالت متوقعة تأويل قوله هذا الى أن مات المهدى بعد عشرين يوما * قال أبو الفرج وكان طوفيل هذا على مذهب الموارنة الذين فى جبل لبنان من مذاهب النصارى وله كتاب فى التاريخ حسن ونقل كتاب أوميروس الشاعر على فتح مدينة ايليون فى قديم الدهر من اليونانية الى السريانية بأبلغ ما يكون من العبارات اه

وكان موت المهدى لثمان بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة للهجرة أى نحو سنة خمس وثمانين وسبعمائة للميلاد ولم يوجد له نعش يحمل عليه فحمل على باب ودفن تحت شجرة جوز وله اثنتان وأربعون سنة ونصف وقيل ثلاث وأربعون سنة وكانت خلافته عشر سنين وشهرا وكان جوادا ممدوحا محببا للرعية حسن الخلق والخلق يقال ان أباه خلف فى الخزائن مائة ألف ألف درهم وستين ألف ألف ففرقها ويقال انه أجاز شاعرا بمائة ألف درهم

واستعمل

واستعمل فى أيامه على مصر بعد عزله محمد بن سعيد فى سنة تسع وخمسين أبا ضمرة محمد بن سليمان كذا فى تاريخ ابن كثير وأما الجزار فقال انه ولى بعد يزيد بن حاتم عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج التجيبى ثم ولى بعده أخوه فأقام سنة وشهرين ثم ولى بعده موسى ابن على اللخمى سنة خمس وخمسين فأقام الى سنة احدى وستين ثم ولى عيسى بن اللخمى ثم ولى واضح مولى المنصور سنة اثنتين وستين ثم صرف من عامه وولى منصور بن يزيد الحميرى ثم ولى بعده يحيى بن داود أبو صالح الخراسانى ثم ولى سالم بن سوادة التميمى سنة أربع وستين ثم ولى ابراهيم بن صالح العباسى سنة خمس وستين ثم ولى موسى بن كعب مولى خثعم ثم ولى الفضل بن صالح العباسى سنة تسع وستين وهى السنة التى مات فيها المهدى كما تقدم

ومات فى خلافة المهدى مينا بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثمان سنين فأقاموا بعده يوحنا وهو ثامن أربعيهم وأصله من نبا وأبو صير وكان راهبا بدير أبو مقار * وفى أيامه خرج القبط بناحية بلهيت فبعث اليهم موسى بن على أمير مصر يومئذ جندا فقاتلوهم وطال القتال بينهم أياما ثم سكنت الفتنة وعاد العمال الى مجاملتهم خوف اشتداد الفتنة فعادوا الى ما كانوا عليه من الطاعة والسكون وكان فى أيام يوحنا هذا من الحوادث ماسيذكر فى محله

(الفصل الرابع)

﴿ فى خلافة موسى الهادى ﴾

ثم قام بالامر بعد محمد المهدى ابنه موسى الهادى بويع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة تسع وستين ومائة هجرية أى سنة خمس وثمانين وسبعمائة ميلادية وكان مقيما بجرجان يحارب أهل طبرستان وكان الرشيد مع المهدى بماسبذان فسار منها الى بغداد بالجند وأرسل أحد القواد الى الهادى بالخاتم والقضيب والتعزية والتهنئة * فلما جاء الخبر الى الهادى نادى فى عسكره بالرحيل وركب هو على البريد مجدا فبلغ بغداد فى عشرين يوما فتلقاه الناس وبايعوه وكتب الى الآفاق بوفاة المهدى والبيعة له واستوزر الربيع وجعل يتصرف فى الامور فلم يمض على خلافته حول كامل حتى ظهر الحسين بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب بالمدينة * قال صاحب الكامل * وكان سبب ذلك أن الهادى استعمل على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فلما وليها أخذ أبا الزفت حسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن ومسلم بن جندب الشاعر الهذلى وعمر بن عبد السلام مولى آل عمر على نبيذ لهم فأمر بهم فضربوا جميعا وجعل فى أعناقهم حبال وطيف بهم فى المدينة فجاء الحسين بن على الى العمرى وقال له قد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لان أهل العراق لايرون به بأسا فلم تطوف بهم فأمر بهم فردوا وحبسهم ثم ان الحسين بن

عليّ ويحيى بن عبد الله بن الحسن كفلا الحسن بن محمد فأخرجه العمرى من الحبس وكان قد ضمن بعض آل أبى طالب بعضا وكانوا يعرضون فغاب الحسن بن محمد عن العرض يومين فأحضر العمرى الحسين بن عليّ ويحيى بن عبد الله وسألهما عنه وأغلظ لهما فحلف له يحيى أنه لاينام حتى يأتيه به أو يدق عليه باب داره حتى يعلم أنه جاءه به فلما خرجا قال له الحسين سبحان الله مادعاك الى هذا ومن أين تجد حسنا تحلف له بشئ لاتقدر عليه فقال والله لانمت حتى أضرب عليه باب داره بالسيف فقال له الحسين ان هذا ينقض ماكان بيننا وبين أصحابنا من الميعاد وكانوا قد تواعدوا على أن يظهروا بمنى وبمكة فى الموسم فقال يحيى قد كان ذلك فانطلقا وعملا فى ذلك من ليلتهم وخرجوا فى آخر الليل وجاء يحيى حتى ضرب على العمرى باب داره فلم يجده وجاؤا فاقتحموا المسجد وقت الصبح فلما صلى الحسين وقت الصبح أتاه الناس فبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه للمرتضى من آل محمد وجاء خالد البربدى فى مائتين من الجند وجاء العمرى ووزير بن اسحق الازرق ومحمد بن واقد الشروى ومعهم ناس كثير فدنا خالد منهم فقام اليه يحيى وادريس ابنا عبد الله بن الحسن فضربه يحيى على أنفه فقطعه ودار له ادريس من خلفه فضربه فصرعه ثم قتلاه فانهزم أصحابه ودخل العمرى فى المسودة فحمل عليهم أصحاب الحسين فهزموهم من المسجد وانتهبوا بيت المال وكان فيه بضعة عشر ألف دينار وقيل سبعون ألفا وتفرق الناس وأغلق أهل المدينة أبوابهم فلما كان الغد اجتمع عليهم شيعة بنى العباس فقاتلوهم وفشت الجراحات فى الفريقين واقتتلوا الى الظهر ثم افترقوا ثم ان مباركا التركى أتى شيعة بنى العباس من الغد وكان قدم حاجا فقاتل معهم فاقتتلوا أشد قتال الى منتصف النهار ثم تفرقوا ورجع أصحاب الحسين الى المسجد وواعد مبارك الناس فى الرواح الى القتال فلما غفلوا عنه ركب رواحله وانطلق وراح الناس فلم يجدوه فقاتلوا شيأ من قتال الى المغرب ثم تفرقوا وقيل ان مباركا أرسل الى الحسين يقول له والله لأن أسقط من السماء فتخطفنى الطير أيسر عليّ من أن تشوكك شوكة أو أقطع من رأسك شعرة ولكن لابد من الاعذار فبيتنى فانى منهزم عنك فوجه اليه الحسن وخرج اليه فى نفر فلما دنوا من عسكره صاحوا وكبروا فانهزم هو وأصحابه وأقام الحسين وأصحابه أياما يتجهزون فكان مقامهم بالمدينة أحد عشر يوما ثم خرجوا لست بقين من ذى القعدة فلما خرجوا عاد الناس الى المسجد فوجدوا فيه العظام التى كانوا يأكلون وآثارهم فدعوا عليهم ولما فارق المدينة قال يا أهل المدينة لاأخلف الله عليكم بخير فقالوا بل أنت لاأخلف الله عليك ولاردك علينا وكان أصحابه يحدثون فى المسجد فغسله أهل المدينة * ولما أتى الحسين مكة أمر فنودى أيما عبد أتانا فهو حر فاتاه العبيد فانتهى الخبر الى الهادى وكان قد حج تلك السنة رجال من أهل بيته منهم سليمان بن المنصور ومحمد بن سليمان بن عليّ والعباس بن محمد بن عليّ وموسى واسمعيل ابنا عيسى بن موسى فكتب الهادى الى محمد بن سليمان بتوليته على الحرب وكان قد سار بجماعة وسلاح من البصرة لخوف الطريق فاجتمعوا بذى طوى وكانوا قد

احرموا

أحرموا بعمرة فلما قدموا مكة طافوا وسعوا وأحلوا من العمرة وعسكروا بذى طوى وانضم اليهم من حج من شيعتهم ومواليهم وقوادهم ثم انهم اقتتلوا يوم التروية فانهزم أصحاب الحسين وقتل منهم وجرح وانصرف محمد بن سليمان ومن معه الى مكة ولايعلمون ما حال الحسين فلما بلغوا ذاطوى لحقهم رجل من أهل خراسان يقول البشرى البشرى هذا رأس الحسين فأخرجه وبجبهته ضربة طولى وعلى قفاه ضربة أخرى وكانوا قد نادوا الامان فجاء الحسن بن محمد بن عبد الله أبو الزفت فوقف خلف محمد بن سليمان والعباس بن محمد فأخذه موسى بن عيسى وعبد الله بن العباس بن محمد فقتلاه فغضب محمد بن سليمان غضبا شديدا وأخذ رؤس القتلى فكانت مائة رأس ونيفا وفيها رأس الحسين بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ وأخذت أخت الحسين فتركت عند زينب بنت سليمان واختلط المنهزمون بالحاج وأتى الهادى بستة أسرى فقتل بعضهم واستبقى بعضهم وغضب على موسى بن عيسى فى قتل الحسن بن محمد وقبض أمواله فلم تزل بيده حتى مات وغضب على مبارك التركى وأخذ ماله وجعله سائس الدواب فبقى كذلك حتى مات الهادى * وأفلت من المنهزمين ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ فأتى مصر وعلى بريدها واضح مولى صالح بن المنصور وكان شيعيا لعلىّ فحمله على البريد الى أرض المغرب فوقع بأرض طنجة بمدينة وليلة فاستجاب له من بها من البربر فضرب الهادى عنق واضح وصلبه وقيل ان الرشيد هو الذى قتله وان الرشيد دس الى ادريس الشماخ اليمامى مولى المهدى فأتاه وأظهر أنه من شيعتهم وعظمه وآثره على نفسه فمال اليه ادريس وأنزله عنده ثم ان ادريس شكا اليه مرضا فى أسنانه فوصف له دواء وجعل فيه سما وأمره أن يستن به عند طلوع الفجر فأخذه منه وهرب الشماخ ثم استعمل ادريس الدواء فمات منه فولى الرشيد الشماخ بريد مصر * قال أصحاب التاريخ وولد لادريس المذكور ولد جاءت منه الدولة الادريسية ثم المغربية ثم المهدية ثم المراكشية عند بناء مراكش وكان تأسيسها فى سنة ثلاث وستين وأربعمائة هجرية أى نحو سنة سبعين وألف ميلادية

ولما وضع رأس الحسين بين يدى الهادى قال كأنكم قد جئتم برأس طاغوت من الطواغيت ان أقل ما أجزيكم أن أحرمكم جوائزكم فلم يعطهم شيأ * وكان الحسين شجاعا كريما قدم على المهدى فأعطاه أربعين ألف دينار ففرقها فى الناس ببغداد والكوفة وخرج من الكوفة لايملك مايلبسه الا فروا ليس تحته قميص * ولما فرغ الهادى من قتال الحسين وأصحابه ودانت له الامور جد فى خلع هرون الرشيد والبيعة لابنه جعفر فوافقه على ذلك جماعة من قواده وجعلوا يعيبون الرشيد وينقصونه فى مجالسهم وأمر الهادى أن لايسار بين يدى الرشيد بالحربة فاجتنبه عند ذلك الناس وتركوا السلام عليه وكان الذى يتولى أمور الرشيد بأمر الهادى يحيى بن خالد بن برمك فخوفوا الهادى منه وقالوا ان الذى يفسد عليك أمرك انما هو يحيى لا هرون فبعث اليه الهادى يتهدده ثم استدعاه ليلة فخاف وأوصى

وتخنط وتمثل بين يديه فقال له يايحيى مالى ولك قال مايكون من العبد الى مولاه الا طاعته فقال لاتدخل بينى وبين أخى وتفسد على فقال من أنا حتى أدخل بينكما انما صيرنى المهدى معه ثم أمرتنى أنت بالقيام بأمره فانتهيت الى أمرك فسكن غضب الهادى وقد كان هرون أذعن لخلع نفسه فمنعه يحيى فلما أحضره الهادى وكلمه فى خلع هرون قال له ياأمير المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم أيمانهم وان تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد للبيعة فقال الهادى صدقت يايحيى وسكت عنه فلم يرض بذلك القواد والشيعة الذين بايعوه وعادوا فحملوا الهادى على معاودة الرشيد بالخلع فقبض على يحيى بن خالد وحبسه فأرسل اليه يحيى يقول عندى نصيحة فأحضره بين يديه فقال له ياأمير المؤمنين أرأيت ان كان الامر لانبلغه ونسأل الله أن يعدمنا قبله * يريد بذلك موت الهادى * أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحنث أويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم قال ما أظن ذلك فقال ياأمير المؤمنين أفتأمن أن يسمو اليها أكابر أهلك مثل فلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك والله لوأن هذا الامر لم يعقده المهدى لاخيك لقد كان ينبغى أن تعقده أنت له فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدى ولكنى أرى أن تقر الامر على أخيك فاذا بلغ جعفر أتيت بالرشيد فخلع نفسه له وبايعه فقبل قوله وقال له نبهتنى الى أمر لم أنتبه له وأطلقه ثم ان القواد عاودوا القول فى خلع الرشيد فأرسل الهادى الى الرشيد فى ذلك وشدد وضيق فقال يحيى للرشيد استأذن أمير المؤمنين فى الخروج الى الصيد فاذا خرجت فابعد ودافع الايام ففعل فأذن له فمضى الى قصربنى مقاتل فقام أربعين يوما ثم استدعاه فتعلل فشدد فى طلبه فحضر ثم خرج الهادى الى حديقة الموصل فمرض بها واشتد مرضه فلما ثقل أجمع جميع القواد الذين كانوا بايعوا جعفرا على قتل يحيى بن خالد ولكنهم عدلوا عن ذلك وخافوا من الهادى ان تراجعت اليه صحته ولم تطل أيام مرض الهادى حتى مات فى ربيع الاول سنةسبعين ومائة هجرية فكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر وقيل كانت أربعة عشرشهرا وكان عمره ستا وعشرين سنة وقيل ثلاثا وعشرين سنة ودفن بعيساباذ الكبرى فى بستانه * قيل ان وفاته كانت من قبل جوار لامه الخيزران كانت أمرتهن بقتله وكان سبب ذلك أنه لما ولى الخلافة جعلت تستبد بالامر حتى مضى أربعة أشهر فتزاحم الناس على بابها وكانت المواكب تغدو وتروح الى بابها فكلمته يوما فى حاجة لم يجد الى اجابتها اليها سبيلا فقالت لابد من اجابتى فقال والله لاقضيتها لك قالت اذن والله لاأسألك حاجة أبدا قال لاأبالى والله فغضبت وقامت فقال مكانك والله والا أنا نفى من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن بلغنى انه وقف ببابك أحد من قوادى وخاصتى لاضربن عنقه ولاقبضن ماله ماهذه المواكب التى تغدو وتروح الى بابك أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك اياك واياك لاتفتحى بابك لمسلم ولاذمى فانصرفت وهى لاتعقل من الغيظ فوضعت جواريها عليه لما مرض فقتلنه بالغم والجلوس وقيل بل مات بقرحة فى جوفه * وكان طويلا

جسيما أبيض مشربا بحمرة وكان بشفته العليا نقص وتقلص وكان أبوه قد وكل به خادما يقول له موسى أطبق فيضم شفته فلقب لذلك موسى أطبق * وكان شديدا جدا على الزنادقة أصحاب مانى فأعمل فيهم القتل والتشريد والصلب بوصية من أبيه المهدى وذلك أنه قال له يوما يابنى اذا صار الامر اليك فتجرد لهذه العصابة يعنى أصحاب مانى فانها تدعو الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها من هذا الى تحريم اللحوم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا ثم تخرجها الى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الاخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الاطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة الى هداية النور فارفع فيها الخشب وجرد السيف فيها وتقرب بامرها الى الله فانى رأيت جدى العباس رضى الله عنه فى المنام قلدنى سيفين لقتل أصحاب الاثنين * فلما ولى الهادى أعمل فيهم القتل وأمر أن يهيأ له ألف جذع ليرفع عليها كل من يأتون به من أصحاب مانى فمات ولم يدرك منشوده

واستعمل على مصر فى خلافته علىّ بن سليمان العباسى فى سنة تسع وستين بعد عزله للفضل بن صالح العباسى ثم ولى موسى بن عيسى العباسى فبقى الى أن مات الهادى فى سنة سبعين ومائة كما تقدم القول

(الفصــــل الخـامس)

((فى خلافة هرون الرشيد))

ثم قام بالامر بعد الهادى أخوه هرون الرشيد بن محمد المهدى وكان أبوهما قد أخذ لهما ولاية العهد معا كما مر بويع له بالخلافة فى الليلة التى مات فيها أخوه فى رابع عشر ربيع الاول سنة سبعين ومائة هجرية أى سنة ست وثمانين وسبعمائة ميلادية وله من العمر اثنتان وعشرون سنة وكان مولده بالرى وولد له فى تلك الليلة المأمون فكانت ليلة عجيبة لم ير مثلها فى بنى العباس وذلك لانه مات فيها خليفة وولد خليفة وولى خليفة * قيل لما مات الهادى جاء يحيى بن خالد الى الرشيد وهو نائم فى فراشه فقال له قم يا أمير المؤمنين فقال كم تروعنى اعجابا منك بخلافتى فكيف تكون حالتى مع الهادى ان بلغه هذا فأعلمه بموته وأعطاه خاتمه فلبس ثيابه وخرج فصلى على الهادى بعيساباذ * ودخل خزيمة بن خازم فى الليلة التى مات فيها الهادى على جعفر بن الهادى فحمله من فراشه وقال له لتخلعنها أو لاضربن عنقك فلم ير بدا من الاجابة الى الخلع وركب من الغد خزيمة وأظهر جعفرا للناس فأشهدهم جعفر بالخلع وأقال الناس من بيعتهم * ولما بويع الى هرون بالخلافة قلد يحيى بن خالد البرمكى وزارته وقال له قد قلدتك أمر الرعية فاحكم فيها بما ترى واعزل من رأيت واستعمل من رأيت ودفع اليه خاتمه فقال ابراهيم الموصلى فى ذلك

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة * فلما ولى هرون أشرق نورها
بيمن أمين الله هرون ذى الذى * فهرون واليها ويحيى وزيرها

ورسم بعزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزا واحدا وسماها العواصم وعمر مدينة طرسوس وبذل الجهد فى مد نطاق ملكه وتأييد سلطانه وكان سعيد الطالع موفقا فى جميع أعماله وعزل عمر بن عبد العزيز العمرى عن المدينة وولى مكانه اسحق بن سليمن بن عبد الله بن عباس ثم حج الرشيد ودخل مكة محرما وقسم فى الحرمين مالا كثيرا * وفى سنة خمس وسبعين ومائة للهجرة قامت الفتنة بدمشق بين المضرية واليمانية فى ولاية عبد الصمد بن علىّ فجمع الرؤساء وسعوا فى الصلح فتكلموا مع بنى القين فأجابوا اليه وكلموا اليمانية فحاولوا وساروا الى بنى القين وقتلوا منهم ستمائة نفر فاستنجد بنو القين قضاعة وسليما فلم ينجدوهم فاستجاشوا قيسا فأجابوهم وقتلوا من اليمانية نحو ثمانمائة واشتد القتال فعزل الرشيد عبد الصمد عن دمشق وولاها ابراهيم بن صالح فأحسن سياستها * وحج فى سنة ست وثمانين ومائة ومعه أولاده الثلاثة محمد الامين وعبد الله المأمون والقاسم وكان قد ولى الامين العهد وأعطاه العراق والشام الى آخر المغرب وولى المأمون العهد بعده وضم اليه همذان الى آخر المشرق وبايع لابنه القاسم من بعد المأمون ولقبه المعتصم وجعل خلعه واثباته للمأمون وجعله فى حجر عبد الملك بن صالح وضم اليه الجزيرة والثغور والعواصم ومرّ بالمدينة فأعطى فيها ثلاثة أعطية واحد منه وآخر من الامين وآخر من المأمون فبلغ ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ثم سار الى مكة فأعطى مثلها وأحضر الفقهاء والقضاة والقواد وكتب كتابى العهد وأشهد فيهما بالوفاء للامين والمأمون وعلقهما فى الكعبة * فتطير الناس من ذلك وخافوه جدا وأشهد على أن ما فى عسكره من الاموال والخزائن والسلاح والكراع للمأمون وجدد له البيعة عليهم فى طبرستان وأرسل الى بغداد فجدد له العهد على الامين

قال الكسائى دخلت على الرشيد يوما فلما قضيت حق التسليم والدعاء وثبت للقيام فقال اقعد فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان فى مجلسه ولم يبق الا خاصته فقال لى يا علىّ ألا تحب أن ترى محمدا وعبد الله قلت ماأشوقنى اليهما ياأمير المؤمنين وأسرّنى بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما فأمر باحضارهما فلم ألبث ان أقبلا ككوكبى أفق يزينهما هدوّ ووقار وقد غضا أبصارهما وقاربا خطوهما حتى وقفا على باب المجلس فسلما على أبيهما بالخلافة ودعوا له بأحسن الدعاء فأمرهما بالدنو منه فسير محمدا عن يمينه وعبد الله عن يساره ثم أمرنى أن أستقرئهما وأسألهما ففعلت فما سألتهما عن شئ الا أحسنا الجواب فيه والخروج منه فسر بذلك الرشيد حتى تبينته فيه ثم قال لى يا على كيف ترى مذهبهما وجوابهما فقلت يا أمير المؤمنين كما قال الشاعر

أرى قمرى مجد وفرعى خلافة * يزينهما عرق كريم ومحتد

يا أمير المؤمنين هما فرع زكا أصله وطاب مغرسه وتمكنت فى الثرى عروقه وعذبت

مشاربه أبوهما أغرّ نافذ الامر واسع العلم عظيم الحلم يحكمان بحكمه ويستضيئان بنوره وينطقان بلسانه ويتقلبان فى سعادته فامتع الله أمير المؤمنين بهما وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما فما رأيت أحدا من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة أذرب لسانا ولاأحسن ألفاظا ولا أشد اقتدارا على تأدية ماحفظا منهما ودعوت لهما دعاء كثيرا وأمّن الرشيد على دعائى ثم ضمهما اليه وجمع يديه عليهما فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ثم أمرهما بالخروج فلما خرجا أقبل علىّ فقال كأنك بهما وقد عم القضاء ونزلت مقادير السماء وبلغ الكتاب أجله قد تشتتت كلمتهما واختلف أمرهما وظهر تعاديهما ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفك الدماء وتقتل القتلى وتهتك ستور النساء * ويتمنى كثير من الاحياء أنهم فى عداد الموتى * قلت أيكون ذلك ياأمير المؤمنين لامر رؤى فى أصل مولدهما أو لاثر وقع لامير المؤمنين فى مولدهما فقال لا والله الا بأثر واجب حملته العلماء عن الاوصياء عن الانبياء اه ويقال ان العمانى الشاعر قام بحضرة الرشيد فلم يزل يحرضه على محمد ويحضه على تجديد العهد له فلما فرغ من كلامه قال له أبشر ياعمانى بولاية العهد له فقال اى والله يا أمير المؤمنين سرور العشب بالغيث والمرأة النزور بالولد والمريض المدنف بالبرء لانه نسيج وحده وحامى مجده وشبيه جدّه قال فما تقول فى عبدالله قال مرعى ولا كالسعدان فتبسم الرشيد وقال قاتله الله ما أعرفه بمواضع الرعية أما والله انى لأتعرّف فى عبد الله حزم المنصور ونسك المهدى وعز نفس الهادى والله لوشاء الله أن أنسبه الى الرابعة لنسبته اليها * وقال الاصمعى بينما أنا سائر الى الرشيد ذات ليلة اذ رأيته قد قلق قلقا شديدا فكان يقعد مرة ويضطجع مرة ويبكى ثم أنشأ يقول

قلد أمور عباد الله ذا ثقة * موحد الرأى لانكس ولا برم

واترك مقالة أقوام ذوى خطل * لايفهمون اذا ما معشر فهموا

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريد أمرا عظيما ثم قال لمروان الخادم علىّ بيحيى فما لبث أن أتاه فقال يا أبا الفضل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فى غير وصية والاسلام جذع والايمان جديد وكلمة العرب مجتمعة قد آمنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبى بكر وكان من خبره ماقد علمت وان أبا بكر صير الامر الى عمر فسلمت الامة له ورضيت بخلافته ثم صيرها عمر شورى فكان بعده ماقد بلغك من الفتن حتى صارت الى غير أهلها وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره الى من أرضى سيرته وأحمد طريقته وأثق بحسن سياسته وآمن ضعفه ووهنه وهو عبدالله وبنو هاشم مائلون الى محمد بأهوائهم وفيه مافيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته والتبذير لما حوته يده ومشاركته النساء والاماء فى رأيه وعبد الله المرضى الطريقة الاصيل الرأى الموثوق به فى الامر العظيم فان ملت الى عبد الله أسخطت بنى هاشم وان أفردت محمدا بالامر لم امن تخليطه على الرعية فأشر علىّ فى هذا الامر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها لانك بحمد الله

مبارك الرأى لطيف النظر * فقال يا أمير المؤمنين ان كل زلة مستقالة وكل رأى يتلافى خلا هـذا العهـد فان الخطأ فيه غير مأمون والزلة فيه لاتستدرك والنظر فيه مجلس غير هذا فعلم الرشـيد أنه يريد الخلوة فأمرنى بالتنحى فقمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما فما زالا فى مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليـل وافترقا على أن عقد الامر لعبد الله بعد محمد * ودخلت أم جعفر على الرشـيد فقالت ما أنصفت ابنك محمدا حيث وليته العراق وأعريته من العدد والقواد وصيرت ذلك الى عبد الله دونه فقال لها وما أنت وتمييز الاعمال وأخبار الرجال انى وليت ابنك السلم وعبد الله الحرب وصاحب الحرب أحوج الى الرجال من المسالم ومع ذلك فانا نتخوف ابنك على عبد الله ولا نتخوف عبد الله على ابنك ان بويع * ويحكى عن سـعيد بن عامر البصرى قال حججت فى هذه السنة يعنى سنة ست وثمانين ومائة التى حج فيها الرشـيد وولداه وقد كتب الشرطين بينهـما وعلقهما فى الكعبة وقد استعظم الناس أمر الشرط والايمان فى الكعبة فرأيت رجلا من هذيل يقود بعيرا ويقول

وبيعة قد نكثت أيمانها * وفتنة قد سعرت نيرانها

فقلت له ويحك ماتقول قال أقول ان السيوف ستسل والفتنة ستقع والتنازع فى الملك سيظهر قلت وكيف ترى ذلك قال أما ترى البعير واقفا والرجـلان يتنازعان والغربان قد وقعا على الدم والتطخا به والله لايكون آخر هذا الامر الا محاربة وشرا * ويروى أن الأمين لما حلف للرشيد بما حلف له به وأراد الخروج من الكعبة رده جعفر ابن يحيى وقال له فان غدرت بأخيك خـذلك الله حـتى فعـل ذلك ثلاثا كلها يحلف له فامتعضت لذلك أم جعفر وحقدت على جعفر بن يحيى فكانت ممن حرض الرشيد على أمره وبعثه على مانزل به * وقد كان من أمر الفتنة بينهما ماسيأتى ذكره فى محله ان شاء الله تعالى

ولما كانت سـنة ست وثمانين ومائة للهجرة أى سنة ست عشرة وثمانمائة للميلاد أوقع الرشـيد بالبرامكة وأبادهـم وقد اختلف الكتاب فى الاسباب وتباينت أقوالهم والاكثر انه لاتيان جعفر عباسة أخت الرشيد فانه كان زوجها من جعفر ليحل له النظر اليها لان الرشيد لم يكن يصبر على أخته ولا غنى له عن جعفر فباشرها جعفر فحبلت منه وجاءت بغلام وقيل انها ولدت توأمين وقيل لان الرشيد كان حبس يحيى بن عبدالله بن الحسن عند يحيى فأسراه وقيـل قتـل البرامكة خوفا منهم على ملكه لانهم كانوا عظموا واشتهروا بالجود والكرم ومال اليهم النـاس وأحبوهم * وعندى أن ذلك أقرب الى الصواب * قال ابن خلدون وانما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتيازهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم يقال انه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا

فيها

فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح بما لمكان أبيهم يحيى من كفالة هرون ولي عهد وخليفة حتى شب في حجره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان يدعوه ياأبتي توجه الايثار من السلطان اليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت اليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الامراء وتسربت الى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنن وكسبوا من بيوتات الاشراف المعدم وفكوا العاني ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والامصار في سائر الممالك حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة وأغصوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت الى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما وقع في نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولاردعتهم أواصر القرابة وقارن ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف من الحجر والانفة وكانت الحقود التي بعثتها منهم صغائر الدالة وانتهى بها الاصرار على شأنهم الى كبائر المخالفة كقصتهم في يحيى بن عبد الله ابن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخي محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور ويحيى هذا هو الذي استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد بخطه وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ماذكره الطبري ودفعه الرشيد الى جعفر وجعل اعتقاله بداره والى نظره فحبسه مدة ثم حملته الدالة على تخلية سبيله والاستبداد بحل عقاله حرما لدماء أهل البيت بزعمه ودالة على السلطان في حكمه وسأله الرشيد عنه لما وشى به اليه ففطن وقال أطلقته فأبدى له وجه الاستحسان وأسرها في نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثل عرشه وألقيت عليهم سماؤهم وخسفت الارض بهم وبدارهم وذهبت سلفا ومثلا للآخرين أيامهم الى أن قال * وانظر ما نقله ابن عبد ربه في مفاوضة الرشيد عمه داود بن علي في شأن نكبتهم وما ذكره في باب الشعراء في كتاب العقد في محاورة الاصمعي للرشيد وللفضل بن يحيى في سمارهم تفهم أنهم انما قتلتهم الغيرة والمنافسة في الاستبداد من الخليفة فمن دونه وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالا على اسماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم وهو قوله

ليت هندا أنجزتنا ماتعد * وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة * انما العاجز من لايستبد

وأن الرشيد لما سمعها قال اي والله اني عاجز حتى بعثوا بامثال هذه كامن غيرته وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال اه

قال صاحب الكامل لما رجع الرشيد من الحج نزل العمر الذي عند الانبار سلخ المحرم وأرسل

مسرورا الخادم ومعه جماعة من الجند الى جعفر ليلا وعنده ابن بختيشوع الطبيب وأبو زكار المغنى وهو فى لهوه وأبو زكار يغنى

فلا تبعد فكل فتى سيأتى * عليه الموت يطرق أو يغادى

وكل ذخيرة لابد يوما * وان كرمت تصير الى نفاد

قال مسرور فقلت له ياأبا الفضل الذى جئت له هو والله ذاك قد طرقك أجب أمير المؤمنين فوقع على رجلى يقبلها وقال حتى أدخل فأوصى فقلت أما الدخول فلا سبيل اليه وأما الوصية فاصنع ماشئت فأوصى بما أراد وأعتق مماليكه وأتتنى رسل الرشيد تستحثنى فضيت به اليه فأعلمته وهو فى فراشه فقال ائتنى برأسه فأتيت جعفرا فأخبرته فقال الله الله والله ما أمرك الا وهو سكران فدافع حتى أصبح أوراجعه فى ثانية فعدت لاراجعه فلما سمع حسى قال ياماص بظر أمه ائتنى برأسه فرجعت اليه فأخبرته فقال آمره فرجعت فحذفنى بعمود كان فى يده وقال نفيت من المهدى ان لم تأتنى برأسه لاقتلنك قال فخرجت فقتلته وحملت رأسه اليه * وكان قتل جعفر بالانبار فى صفر وبعد قتله أرسل من أحاط بيحيى ولده وجميع أسبابه وأخذ جميع ماوجد للبرامكة من مال ومتاع وضياع وغير ذلك وكتب الى كافة البلاد بقبض أموالهم وأرسل رأس جعفر وجثته الى بغداد وأمر بوضع الرأس على جسر وجثته على جسر آخر ولكنه مع ذلك لم يتعرض لمحمد بن خالد بن برمك قالوا لبراءته * وكان عمر جعفر لما قتل سبعا وثلاثين سنة وكانت الوزارة فيهم سبع عشرة سنة والبرامكة عائلة من فارس واسعة السمعة كانت لهم رتبة الامانة والكهانة قبل الاسلام بمائتى سنة وقد قال يحيى بن خالد عند مانكب * الدنيا دول والمال عارية ولنا بمن قبلنا أسوة وفينا لمن بعدنا عبرة * وشوهد بعد قتله فى حضنه رقعة مكتوب فيها * المقرف يذهب والمعرق يتبعه قريبا وسينتصب الاثنان أمام قاض عدل حيث لاتغنى الكتابات والاعذار شيأ * وسار الرشيد الى الرى ثم رجع الى العراق ودخل بغداد وأمر باحراق جثة جعفر ثم مضى الى الرقة ومات يحيى بن خالد فى هذا الحين فى السجن فى الرقة وعمره سبعون سنة ومات الفضل بن يحيى ابن خالد بن برمك مسجونا فى السنة الثانية وعمره خمس وأربعون سنة قيل ولم ير أجل منه فلم يكن الرشيد بعد قتل البرامكة يطيق المقام ببغداد فبارح السنة المذكورة الرقة الى خراسان ثم سار طالبا حرب رافع بن الليث بما وراء النهر لخروجه بسمرقند فلما كان فى طوس جىء بشبر بن الليث أسيرا فقال له الرشيد والله لولم يبق من أجلى الا أن أحرك شفتى بكلمة لقلت اقتلوه ثم أمر قصابا ففصل أعضاءه ومثل به تمثيلا * وكان الرشيد قد غضب على عبد الملك بن صالح بن على بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب فأمر به فالقوه فى السجن مكبلا على غير سبب ظاهر فلما كان فى بعض الايام استحضره وجعل يعنفه ويوبخه شديدا قال غوث بن المدرع عن الرياشى قال سمعت الاصمعى يقول كنت عند الرشيد وأتى

بعبد الملك بن صالح يرفل فى قيوده فلما نظر اليه قال هيه ياعبد الملك كأنى أنظر الى شؤبوبها قد همع وعارضها قد لمع * وكأنى بالوليد قد أقلع عن براجم بلامعاصم ورؤس بلا غلاصم مهلا مهلا بنى هاشم والله سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر وألقت اليكم الامور أزمتها فخذوا حذركم منى قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل * فقال له عبد الملك أفذا أتكلم أوتوأما فقال بل توأما قال فاتق الله ياأمير المؤمنين فيما ولاك وراقبه فى رعاياك التى استرعاك * قد سهلت والله لك الوعور * وجمعت على طاعتك القلوب فى الصدور * وكنت كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب * يعنى لبيدا *

ومقام ضيق فرجته * ببيان ولسان وجدل

لا يقوم الفيل أو فياله * زل عن مثل مقامى أورحل

قال فأراد يحيى بن خالد البرمكى أن يضع من مقام عبد الملك عند الرشيد فقال له ياعبد الملك بلغنى أنك حقود فقال أصلح الله الوزير ان يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندى فانهما لباقيان فى قلبى فالتفت الرشيد الى الاصمعى فقال يا أصمعى حررها فوالله ما احتج أحد للحقد بمثل ما احتج به عبد الملك ثم أمر به فرد الى محبسه ثم التفت الى الاصمعى وقال والله ياأصمعى لقد نظرت الى موضع السيف من عنقه مرارا ويمنعنى من ذلك ابقائى على قومى فى مثله اه

وكان هرون الرشيد موفق الغزوات ميمون الطالع كتب اليه نيقوفور ملك الروم الذى قام بعد خلع ايرمينى الملك كتابا يقول فيه * من نيقوفور ملك الروم الى هرون الرشيد ملك العرب أمابعد فان الملكة التى كانت قبلى قد أقامتك رخا وأقامت نفسها بيدقا فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافه اليها وما ذلك الا من ضعف النساء وحمقهن فاذا قرأت كتابى فاردد علينا ما سلبته من أموالنا والا فالسيف يقضى فيما بيننا * فلما تقدم السفراء بالكتاب أخذه الرشيد وقرأه ولما وصل الى قوله فالسيف يقضى فيما بيننا ألقى السفراء المذكورون ضمة سيوفهم أمامه فنظر اليها الرشيد وهو يتبسم قيل واستل سيفه وضرب به تلك السيوف الرومية فبراها كما يبرى الكاتب القلم ثم كتب على ظهر الجواب * بسم الله الرحمن الرحيم * من هرون الرشيد أمير المؤمنين الى نيقفور كلب الروم قد قرأت كتابك ياابن الكافرة والجواب ماتراه لاما تسمعه * وعندى أن هذا من مبالغة الكتاب لان الرشيد كان أديبا مهيبا حسن السياسة غير مشاغب ولا متسرع الى فحش القول وهو من الحلم وسعة الصدر بمكان * قالوا ثم ركب الرشيد على نيقفور من يومه حتى نزل هرقلة ففتح وغنم وخرب وبعث داود بن عيسى بن موسى فى سبعين ألفا غازيا فى أرضهم وفتح شرحبيل ابن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودلسة وفتح يزيد بن مخلد حصن الصفصاف ومقلونية وأناخ عبد الله بن مالك على حصن ذى الكلاع واستعمل الرشيد حميد بن معيوف على الاساطيل من سواحل الشام ومصر الى قبرص فهزم وخرب وسبى من أهلها سبعة عشر

ألفا وجاء بهم الى الرافقة فبيعوا بها وبلغ فداء أسقف قبرص يومئذ ألفي دينار * وسار الرشيد الى طوانة فنزل بها وحاربها وحاصرها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر فسأله نيقفور الصلح على خراج يحمله فى كل سنة فصالحه ورجع الى قصره على الفرات ثم لم تلبث الروم حتى انتقضوا فى الشتاء فركب عليهم ثانية ولم تمنعه ثلوج الجبال وقاتلهم قيل فقتل منهم أربعين ألفا وجرح نيقفور فى ثلاثة محال ثم عصى ثالثة فجيش عليه وأخضعه * وكان الرشيد يركب على مائة وخمسة وثلاثين ألفا من العساكر المرتزقة سوى من لا ديوان له والمتطوعة الجميع نحو ثلثمائة ألف وقد تجاوز بجميع هذه الجنود مدن آسية الصغرى حتى أنقرة وحاصر هرقلة شهرا وخربها وأخذ مافيها من الخيرات والكنوز وما زال يخرب ويسلب ويأسر ويشدد على نيقوفور الى أن تصالحا على أن تبقى مدينة هرقلة خربة أمثولة وذكرا لظفر الرشيد وعلى أن يكون المال المدفوع مسكوكا عليه اسمه واسم أولاده الثلاثة فكان ذلك

ومات الرشيد فى سنة ثلاث وتسعين ومائة لثلاث خلون من جمادى الآخرة فى ليلة السبت بطوس وهو ابن سبع وأربعين سنة وقيل خمس وأربعين وكان به مرض فاشتدت علته بجرجان فسار الى طوس ومات فيها وكان قد سير ولده المأمون الى مرو وكان قد حفر قبره فى وسط الدار التى كان فيها قيل ولما احتضر خاف وانزعج وغشى عليه ثم أفاق فرأى الفضل بن الربيع فقال يافضل

أحين دنا ما كنت أخشى دنوه * رمتنى عيون الناس من كل جانب
فأصبحت مرحوما وكنت محسدا * فصبرا على مكروه تلك العواقب
سأبكى على الوصل الذى كان بيننا * وأندب أيام السرور الذواهب

فبكى الفضل عند سماعه هذه الابيات وترك الرشيد اثنى عشر ابنا وخمس عشرة بنتا وكان جوادا ممدوحا غازيا مجاهدا شجاعا مهيبا مليحا أبيض طويلا عبل الجسم قد وخطه الشيب ويقال انه منذ استخلف كان يصلى كل يوم وليلة مائة ركعة ويتصدق من ماله الخاص بألف درهم وكان له معرفة جيدة بالعلوم وكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وأشهرا وقيل ثلاثا وعشرين فقط وكان مولده بالرى

واستأمر على مصر فى خلافته مسلمة بن يحيى الأزدى بعد خلعه موسى بن عيسى العباسى فى سنة اثنتين وسبعين ثم ولى بعده محمد بن زهير الأزدى سنة ثلاث وسبعين ثم ولى داود بن يزيد المهلبى سنة أربع وسبعين ثم أعاد موسى بن عيسى سنة خمس وسبعين ثم عزله الرشيد سنة ست وسبعين وولى عليها جعفر بن يحيى البرمكى فاستناب عليها عمر بن مهران شيعيا ردىء الشكل أحول وكان سبب ذلك أن الرشيد بلغه أن موسى بن عيسى عزم على خلعه فقال والله لأولين عليها أخس الناس فاستدعى عمر بن مهران هذا وولاه عليها نيابة عن جعفر فسار عمر اليها على بغل وغلامه أبو درة على بغل آخر فدخلها كذلك فانتهى الى مجلس

موسى بن عيسى فجلس فى أخريات الناس حتى انفضوا فأقبل عليه موسى وهو لايعرف من هو فقال ألك حاجة ياشيخ قال نعم أصلح الله الامير ثم مال بالكتب فدفعها اليه فلما قرأها قال أنت عمر بن مهران قال نعم قال لعن الله فرعون حين قال أليس لى ملك مصر ثم سلم اليه العمل وارتحل عنها

ثم فى سنة سبع وسبعين ومائة عزل الرشيد جعفرا عن مصر وولى عليها اسحق بن سليمن كذا فى تاريخ ابن كثير وغيره وذكر الأديب أبو الحسن الجزار فى أرجوزته فى أمراء مصر خلاف ذلك فانه قال أعيد موسى بن عيسى سنة خمس وسبعين ثم أعيد ابراهيم بن صالح العباسى سنة ست وسبعين ثم ولى عبد الله بن المسيب الضبى ثم ولى اسحق بن سليمان العباسى سنة سبع وسبعين كذا قال اه ثم عزل اسحق سنة ثمان وسبعين وولى هرثمة بن أعين فأقام نحوا من شهر ثم عزل وولى عبد الملك بن صالح العباسى فأقام الى سلخ سنة ثمان وسبعين وولى عبد الله بن مهدى العباسى سنة تسع وسبعين ثم أعيد موسى بن عيسى سنة ثمانين ثم أعيد عبيد الله المهدى وصرف فى رمضان سنة احدى وثمانين ثم صرف وولى الليث بن الفضل البيوردى ثم ولى أحمد بن اسمعيل العباسى سنة سبع وثمانين ثم ولى عبيد الله بن محمد العباسى ثم ولى الحسين بن جميل الازدى سنة تسعين ثم ولى مالك بن دلهم الكلبى سنة اثنتين وتسعين ثم ولى الحسن سنة ثلاث وتسعين وهى السنة التى مات فيها الرشيد

ومات فى أيامه يوحنا بطرك الاسكندرية بعد أن أقام ثلاثا وعشرين سنة وكان تقيا محبا للفقراء ولم تصبه شدائد بل كانت أيامه كلها سلاما فأقيم بعده مرقس المعروف بالجديد وهو تاسع أربعيهم وأصله من مدينة الاسكندرية ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

(الفصل السادس)

(فى خلافة محمد الامين بن هرون الرشيد)

ثم قام بالأمر بعد هرون الرشيد ابنه محمد الأمين بويع له بالخلافة يوم توفى أبوه بطوس سنة ثلاث وتسعين ومائة هجرية أى سنة ثمان وثمانمائة ميلادية واستناب أخاه على ممالك خراسان وهو اذ ذاك ببغداد فورد عليه بها خاتم الخلافة والبردة والقضيب وهما اصاحب الشريعة ثم بويع له بها البيعة التامة فى سائر الآفاق وكان الرشيد قد جدد البيعة بطوس بولاية العهد لابنه المأمون بعد الامين كما تقدم القول وأشهد على نفسه أن جميع مامعه من مال وسلاح وغير ذلك للمأمون وأوصى أن يكون مامعه من الجيوش مضمومين معه بخراسان فلما مات الرشيد نادى الفضل بن الربيع فى عسكر الرشيد بالرحيل الى بغداد وخالف وصية

الرشيد فعظم ذلك على المأمون وكتب الى الفضل يذكره بالعهود التى أخذها عليه الرشيد ويحذره البغى ويسأله الوفاء فلم يلتفت الفضل اليه فكان هذا الامر سبب ابتداء الوحشة بين الأمين والمأمون * وكان الأمين عديم السياسة فلم يلبث على كرسى الخلافة طويلا حتى أمر بابطال ذكر اسم المأمون من الخطبة واستبدله باسم ابنه موسى ولقبه الناطق بالحق وكان يومئذ طفلا فأدّى ذلك الى وقوع الوحشة واشتداد الخلاف بينه وبين المأمون وطال الاخذ والرد بين الفريقين حينا فكثرت أحزاب المأمون وانضم اليه ناس من كبار الدولة وأمراء الجند بعد أمور قد أضربنا عن ايرادها هنا وتجهز كل منهما لقتال الآخر فأرسل الأمين علىّ بن عيسى بن ماهان بجيش عظيم لقتال المأمون فى خراسان وجهز المأمون كذلك طاهر بن الحسين بعسكر قليل وأرسله الى الرى فخلع طاهر بيعة الأمين عن معه من الجند وبايع المأمون فقامت الحرب بينه وبين علىّ بن عيسى وقاتل عليا قتالا شديدا وقتل علىّ وأخذت رأسه الى طاهر وانهزم عسكره فأرسل الأمين عسكرا آخر صحبة أحمد بن مرشد وعبد الله بن حميد بن قحطبة وكان مع كل واحد عشرون ألفا وساروا الى حلوان لقتال طاهر فلما وصلوا الى خانقين وقع فيهم الخلاف فرجعوا دون قتال فتقدم طاهر ونزل فى حلوان ولحقه هرثمة بجيش آخر من عند المأمون وكتب يأمره بالقيام الى الاهواز ولما بلغ المأمون قتل ابن ماهان أمر أن يخطب له بامرة المؤمنين وعقد للفضل بن سهل على المشرق من همذان الى التبت طولا ومن بحر فارس الى بحر الديلم وجرجان عرضا ولقبه بذى الرياستين يعنى رياسة الحرب ورياسة القلم * وولى الحسن بن سهل ديوان الخراج ثم استولى طاهر على الاهواز وواسط والمدائن ونزل صرصر فى سنة ست وتسعين ومائة أى نحو سنة احدى عشرة وثمانمائة للميلاد وفى التى بعدها ألقى هرثمة وطاهر الحصار على بغداد وأوقعا فيها النهب والحريق ومنعا الميرة فغلا فيها سعر كل شئ ودام الحصار وشدة الحال السنة بطولها وهجم طاهر بعد ذلك على بغداد وبعد قتال شديد انجلى عن تمزيق شمل جند الأمين وتفريقهم أيدى سبا وخذلهم للخليفة نادى منادى طاهر من لزم بيته فهو آمن وتحصن الأمين فى مدينة المنصور وتفرق عنه عامة جنده وخصيانه فحاصره طاهر وسدّ عليه المنافذ ثم طلب الأمين الامان من هرثمة وأن يطلع اليه فلم يقبل فروجع طاهر فى ذلك فأبى فلما كانت ليلة الاحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة هجرية أى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة للميلاد خرج الأمين وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود فأرسل اليه هرثمة يمنعه من ذلك وأن يبقى الى الليلة القابلة فلم يقبل ودعا الأمين بابنيه وضمهما لصدره وقبلهما وبكى ثم مضى راكبا الى الشط فوجد حراقة هرثمة فصعد اليها فاحتضنه هرثمة وضمه اليه وقبل يديه ورجليه وقد علم أصحاب طاهر بخبره فشدوا على حراقة هرثمة حتى أغرقوها فأخرج الملاح هرثمة من الماء أما الأمين فانه لما سقط شق ثيابه وعدا سابحا الى الجانب الثانى فأمسكوه وأخذوه عريان ووضعوه فى بيت حتى جاء الليل وأرسل اليه طاهر بعض الاعجام فقتلوه وأخذوا رأسه فنصبه طاهر على برج من أبراج بغداد

الى

الى أن أرسلت الى المأمون وكتب له بالفتح وأرسل له البردة والقضيب ودخل طاهر المدينة وأقام خطبة المأمون نهار الجمعة واستتبت له الخلافة واستوثق له الامر مشرقا ومغربا بعد أمور أضربنا عن ايرادها هنا

قال أبو حنيفة فى الاخبار الطوال وغيره عن الكسائى انه قال ان الرشيد ولانى تأديب الأمين والمأمون فكنت أشدد عليهما فى الادب وآخذهما به أخذا شديدا وخاصة الأمين فأتتنى ذات يوم خالصة جارية زبيدة وقالت يا كسائى ان السيدة تقرأ عليك السلام وتقول لك حاجتى اليك أن ترفق بابنى محمد فانه قرة عينى وثمرة فؤادى وانى أرق عليه رقة شديدة فقلت لخالصة ان محمدا مترشح للخلافة بعد أبيه ولا يجوز التقصير فى أمره فقالت خالصة ان لرقة هذه السيدة سببا أنا أخبرك اياه انها فى الليلة التى ولدته فيها رأت فى منامها كأن أربع نسوة أقبلن اليه فاكتنفنه عن يمينه وشماله وأمامه ووراءه فقالت التى بين يديه ملك قليل العمر كثير الكبر ضيق الصدر واهى الامر كبير الوزر شديد الغدر * وقالت التى من ورائه ملك قصاف مبذر متلاف قليل الانصاف كثير الاسراف * وقالت التى عن يمينه ملك عظيم البذل ثقيل الحمل كثير الاثم قطوع للرحم * وقالت التى عن يساره ملك غدار كثير العثار سريع الدمار * قال ثم بكت خالصة وقالت يا كسائى وهل ينفع الحذر من القدر اه

ولما هم محمد بخلع المأمون شاور عبد الله بن حازم فقال له أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تكون أول الخلفاء نكث عهده ونقض ميثاقه واستخف بيمينه فقال اسكت لله أبوك فعبد الملك بن صالح كان أفضل منك رأيا حيث يقول لا يجتمع فحلان فى أجمة ثم جمع القواد وشاورهم فاتبعوه فى مراده الى أن بلغ الى هرثمة بن حازم فقال يا أمير المؤمنين لن ينصحك من كذبك ولن يغشك من صدقك لا تجرئ القواد على الخلع فيخلعوك ولا تحملهم على نكث العهود فينكثوا عهدك وبيعتك فان الغادر مخذول والناكث مغلول فأقبل الامين على على بن عيسى بن ماهان فتبسم محمد وقال لكن شيخ هذه الدعوة ونائب هذه الدولة لا يخالف إمامه ولا يوهن طاعته ثم رفعه الى موضع ما رفعه اليه فيما مضى فكان على بن عيسى هذا أول من أجاب الى خلع المأمون فأكبره الأمين وقربه وسيره فى جيش عظيم نحو المأمون فلما قرب من الرى قيل له ان طاهر بن الحسين مقيم بها وقد كان يظن أن طاهرا لا يثبت له فقال ما طاهر الاشوكة من أغصانى وشرارة من نارى وما مثل طاهر يؤمر على جيش وما بينه وبين الأمين الا أن تقع عينه على سوادكم فان السخال لا تقوى على نطاح الكباش والثعالب لا تقدر على لقاء الأسد فقال له ابنه ابعث طلائع وارتد موضعا لعسكرك فقال ليس طاهر يستعد له بالمكائد والتحفظ ان حال طاهر يؤدى الى أمرين اما أن يتحصن بالرى فيثب به أهلها ويكفونا مؤنته أو يخليها ويدبر راجعا اذا قربت خيولنا منه فقال له ابنه ان الشرارة ربما صارت ضراما فقال ان

طاهرا ليس قرنا فى هذا الموضع وانما يحترس الرجال من أقرانها * وسار على بن عيسى وبث عساكره من الرى وتبين ماعليه طاهر من الجد وأهبة الحرب وضم الاطراف فعدل الى رستاق من رساتيق الرى متياسرا عن الطريق فنزل وانبسطت عساكره وأقبل طاهر فى نحو من أربعة آلاف فارس فأشرف على عساكر على وتبين كثرتها وعدة مافيها فعلم أن لاطاقة له بذلك الجيش فقال لخواصه ومن معه نجعلها خارجية وكردس خيله كراديس وصمد فى نحو القلب فى سبعمائة من الخوارزمية وغيرهم من فرسان خراسان وخرج اليه من القلب العباس بن الليث مولى المهدى وكان فارسا فقصده طاهر وضم يديه على سيفه فأتى عليه وكان على على برذون فسقط كميت بين أرجل الرجال فتمالؤا على رأسه وتنازعوا فى خاتمه ورأسه فذبحه رجل يعرف بطاهر بن الراجى وقبض آخر على خصلة من شعر لحيته وآخر على خاتمه وكان سبب هزيمة الجيش ضربة طاهر بيديه جميعا للعباس بن الليث وبذلك سمى طاهر ذا اليمينين لجمع السيف بيديه * وذكر أحمد بن هشام وكان من وجوه القواد قال جئت الى مضرب طاهر وقد توهم انى قتلت فى المعركة ومعى رأس على فقلت البشرى هذه خصلة من رأس على مع غلامى فى المخلاة فطرحتها قدامه ثم أتى بجثته وقد شدت يداه ورجلاه كما يفعل بالدواب اذا ماتت فأمر به طاهر فألقى فى بئر وكتب الى ذى الرياستين فكان فى الكتاب * أطال الله بقاءك وكبت أعداءك كتابى اليك ورأس على بن عيسى بين يدى وخاتمه فى أصبعى والحمد لله رب العالمين * فسر المأمون بذلك وسلم عليه فى ذلك الوقت بالخلافة * وحدث ابراهيم بن المهدى قال بعث الى الأمين وهو محاصر فصرت اليه فاذا هو جالس فى طارمة خشبها من عود وصندل عشرة فى عشرة واذا سليمان بن أبى جعفر المنصور معه فى الطارمة وهى قبة كان اتخذ لها فراشا مبطنا بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الاحمر وغير ذلك من أنواع الابريسم فسلمت فاذا قدامه قدح بلور محروز فيه شراب ينفذ مقداره خمسة أرطال وبين يدى سليمان قدح مثله فجلست بازاء سليمان فأتيت بقدح كالأول والثانى قال فقال الامين انما بعثت اليكما لما بلغنى قدوم طاهر ابن الحسين الى النهروان وما قد صنع فى أمرنا من المكروه وقابلنا به من الاساءة فدعوتكما لأفرج بكما وبحديثكما فأقبلنا نحدثه ونؤنسه حتى سلا عما كان يجده وفرح ودعا بجارية من خواص جواريه تسمى ضعفا قال فتطيرت من اسمها ونحن على تلك الحال فقال لها غنينا فوضعت العود فى حجرها وغنت

كليب لعمرى كان أكثر ناصرا * وأكثر جرما منك ضرج بالدم

فتطير من قولها ثم قال لها اسكتى قبحك الله ثم عاد الى ما كان عليه من الغم والاقطاب فأقبلنا عليه نحادثه ونبسطه الى أن سلا وضحك ثم أقبل عليها وقال هات ماعندك فغنت

هم قتلوه كى يكونوا مكانه * كما غدرت يوما بكسرى مرازبه

فأسكتها

فأسكتها وزأرها وعاد الى الحالة الاولى فسليناه حتى عاد الى الضحك فأقبل عليها الثالثة فقال غنى فغنت

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالى والجدود العواثر

وقيل بل انها غنت

أما ورب السكون والحرك * ان المنايا كثيرة الشرك

فقال لها قومى عنى فعل الله بك وصنع بك فقامت فعثرت بالقدح الذى كان بين يديه فكسرته فأهريق الشراب وكانت ليلة قمراء ونحن على شاطئ دجلة فى قصره المعروف بالخلد فسمعنا قائلا يقول قضى الامر الذى فيه تستفتيان * قال ابن المهدى فقمت وقد وثب فسمعت منشدا من ناحية القصر ينشد هذين البيتين

لاتعجبن من العجب * قد جاء مايقضى العجب
قد جاء أمر فادح * فيه لذى عجب عجب

قال فما قمنا معه بعدها الى أن قتل

ومات محمد الأمين وهو ابن ثمان وعشرين سنة وقيل سبع وعشرين وكان طويلا أبيض بديع الحسن وكانت خلافته أربع سنين وثمانية شهور وقيل ثلاثة أعوام وأياما لانه خلع فى رجب سنة ثمان وتسعين ومائة ومن حسب له الى موته فخلافته خمس سنين خلا أشهرا وكان مبذرا للأموال لعابا لايصلح للخلافة مشتغلا باللهو والقصف والاقبال على اللذات فقال فيه بعضهم

اذا غدا ملك باللهو مشتغلا * فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أماترى الشمس فى الميزان هابطة * لما غدا وهو برج اللهو والطرب

قال صاحب الكامل وأكثر الشعراء فى مراثى الأمين وهجائه فما قيل فى مراثيه قول الحسين بن الضحاك وكان من ندمائه وكان لايصدق بقتله ويطمع فى رجوعه

ياخير أسرته وان زعموا * انى عليك لمثبت أسف
الله يعلم أن لى كبدا * حرى عليك ومقلة تكف
ولئن شجيت لما رزئت به * انى لأضمر فوق ما أصف
هلا بقيت لسد فاقتنا * أبدا وكان لغيرك التلف
فلقد خلفت خلائفا سلفوا * أوليس يعوز بعدك الخلف
لا بأت رهطك بعد هونهم * انى لرهطك بعدها شنف
هتكوا لحرمتك التى هتكت * حرم الرسول ودونها السجف
ونبت أقاربك التى خذلت * وجميعها بالذل معترف
تركوا حريم أبيهم نفلا * والمحصنات صوارخ هتف

أبدت مخلخلها على دهش * أبكارهن ورنت النصف
سلبت معاجرهن واختلست * ذات النقاب ونوزع الشنف
فكأنهن خلال منتهب * درّ تكشف دونه الصدف
سلك تخوّف نظمه قدر * فوهى فصرف الدهر مختلف
هيهات بعدك أن يدوم لنا * عز وأن يبقى لنا شرف
أفبعد عهد الله تقتله * والقتل بعد أمانة سرف
فستعرفون غدا بعاقبة * عز الاله فأوردوا وقفوا
يامن يخوّن نومه أرقا * هدت الشجون وقلبه لهف
قد كنت لى أملا غنيت به * فمضى وحل محله الأسف
مرج النظام وعاد منكرنا * عرفا وأنكر بعده العرف
والشمل منتشرا لفقدك والـ * ـدنيا سدى والباب منكشف

وأسرف الحسين بن الضحاك فى مراثى الأمين وذم المأمون فلهذا حجبه المأمون عنه ولم يسمع مدحه مدة ثم أحضره وقال له أخبرنى هل رأيت يوم قتل أخى هاشمية قتلت وهتكت قال لا قال فما قولك

ومما شجى قلبى وكفكف عبرتى * محارم من آل النبى استحلت

الابيات فقال ياأمير المؤمنين لوعة غلبتنى وروعة فاجأتنى ونعمة سلبتها بعد أن غمرتنى واحسان شكرته فأنطقنى وسيد فقدته فأقلقنى فان عاقبت فبحقك وان عفوت فبفضلك فدمعت عين المأمون وقال قد عفوت عنك وأمرت بادرار أرزاقك عليك وعطائك ما فاتك منها وجعلت عقوبة ذنبك امتناعى من استخدامك اه

واستعمل الامين على مصر فى خلافته حاتم بن هرثمة بن أعين ثم صرفه فى سنة خمس وتسعين ثم ولى المطلب بن عبد الله الخزاعى سنة ثمان وتسعين ثم صرفه و ولى العباس بن موسى فى السنة التى قتل فيها الأمين أى سنة ثمان وتسعين ومائة للهجرة

(الفصل السابع)

(فى خلافة عبد الله المأمون بن هرون الرشيد)

ثم قام بالامر بعد الأمين أخوه عبد الله المأمون بويع له بالخلافة البيعة العامة صبيحة الليلة التى قتل فيها الأمين باجماع من الامة على ذلك سنة ثمان وتسعين ومائة هجرية أى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ميلادية خلا ما كان من أمير الأندلس فانه كان هو والامراء قبله وبعده لم يتقيدوا بطاعة العباسيين لبعد الديار واستبدادهم بالأمر فيها

فلما استوثق الامر للمأمون تمم مابدأ به أبوجعفر المنصور جده من تعميم المعارف بين الرعية واستجلب ما تصل اليه قدرته من كتب الفلسفة والرياضيات وغيرها واستأجر لترجمتها من اللغات الاعجمية مهرة المترجمين ونجباء العلماء ورتب المجالس للمناظرة فى الأديان والفلسفة والنجوم وحث الرعية على ترك مارغب فيه الصين والترك ومن نحا نحوهم من التنافس فى دقة الصنائع العلمية وغيرها فارتقت العرب فى أيامه الى أرقى درجات العلوم والمعارف وفارقتهم أوكادت العوائد البدوية القديمة فى عهد قريب جدا لم يكن فى حسبان

وظهر فى أيامه بالكوفة محمد بن ابراهيم بن اسمعيل بن ابراهيم بن الحسن العلوى المعروف بابن طباطبا ودعا الناس اليه وكان القائم بامره أبوالسرايا فبايعه أهل الكوفة واستوثقواله فأرسل اليه المأمون الحسن بن سهل الضبى فى عشرة آلاف فهزمهم ابن طباطبا واستباحهم ولكنه لم يلبث أن مات فجأة وقيل سمه أبو السرايا ليستبد بالامر وأقام غلاما من أولاد علىّ يقال له ابن زيد صورة والكلمة لابى السرايا ثم قام ففتح البصرة وواسطا وجرى بينه وبين جند المأمون عدة وقائع انجلى الامر فيها عن فرار أبى السرايا من الكوفة بثمانمائة فارس بعد أن حصره هرثمة ودخل هرثمة الكوفة ونادى بالامان فسار أبو السرايا الى جلولاء فتفرق عنه أصحابه وظفر به حماد الكندغوش وقبض عليه وعلى من بقى معه وأتى بهم الى الحسن بن سهل وهو فى النهروان فقتله وسير برأسه الى المأمون

وكان المأمون يميل لآل علىّ ويحب عليا الرضا بن موسى الكاظم فعهد اليه بالخلافة من بعده وأمر جنده بخلع الاسود ولبس الاخضر وكتب بذلك الى الآفاق فشق الأمر على بنى العباس ووقع الخلاف وهاج الناس وهموا فى بغداد ببيعة ابراهيم بن المهدى وخلع المأمون لهذا السبب ولتقدعه الحسن بن سهل فبايعوا ابراهيم المذكور فى سنة اثنتين ومائتين ولقب بالمبارك وكان القيم على أمور ابراهيم المطلب بن عبد الله بن مالك فاستولى ابراهيم على الكوفة وجمع عسكره الى المدائن واستعمل على الجانب الغربى من بغداد العباس ابن موسى الهادى وعلى الجانب الشرقى اسحق بن الهادى فسار يومئذ المأمون من مرو الى العراق واستخلف على خراسان غسان بن عباد وعند وصوله الى برخس وثب أربعة رجال بالفضل بن سهل فقتلوه وعمره يومئذ ستون سنة فغضب المأمون وجعل لمن يقبض عليهم عشرة آلاف دينار فأمسكهم العباس بن الهيثم الدينورى فأمر المأمون بضرب أعناقهم وقام طالبا العراق فبلغ ذلك ابراهيم بن المهدى والمطلب وأصحابه فترك المطلب ابراهيم وتمارض وسار الى بغداد واشتغل سرا لجانب المأمون وخلع ابراهيم فعلم ابراهيم بذلك وكان فى المدائن فقصد بغداد وأمر بالمطلب فنهبت دور أهله ولم يظفروا به وعظمت الفتنة وكاد يتسع نطاقها وكان المأمون قد زوج ابنته من على الرضا الذى عهد اليه بالخلافة بعده فلم يلبث حتى مات فى السنة التالية لزواجه فدفن عند قبر الرشيد وكتب المأمون الى بغداد يعلم أهلها بموته ويقول لهم ان من نقمتم علىّ بسببه قد مات فارجعوا الى خليفتكم فرجعوا

وخلعوا بيعة ابراهيم بن المهدى ودعوا للمأمون فاختفى ابراهيم وقدم المأمون الى بغداد وانقطعت بعودته الفتن وكان لابسا الاخضر فدخل عليه الناس وسلموا بالاخضر ثم رجعوا الى اللباس الاسود كما رسم هو

وظهر فى أيامه القول بخلق القرآن وقيل ظهر فى أيام الرشيد وكان الناس فيه بين أخذ وترك الى زمن المأمون فحمل الناس على القول بخلق القرآن وكل من لم يقل بخلقه عاقبه أشد عقوبة وكان الامام أحمد امام أهل السنة من الممتنعين عن القول بخلق القرآن فحمل الى المأمون مقيدا فمات المأمون قبل وصوله اليه * ودخل المأمون بلاد الجزيرة والشام وأقام بها مدة طويلة ثم غزا الروم وفتح فتوحات عظيمة للغاية وبث العيون بعد ذلك فى طلب ابراهيم بن المهدى فظفر به لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة سبع ومائتين فى الدرب المعروف بالطويل ببغداد فادخل الى المأمون وهو فى زى امرأة ومعه امرأتان أخذه حارس أسود فى الدرب المذكور فلما رآه المأمون على هذه الحالة قال له هيه ياابراهيم فقال أمير المؤمنين ولىّ الثار محكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الزمان واستولى عليه الاغترار بما مدّله من أسباب الشقاق أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كل ذى عفو كما جعل كل ذى ذنب دونى فان تعاقب فبحقك وان تعف فبفضلك * قال بل العفو ياابراهيم فكبر ابراهيم ثم خر ساجدا ثم أمر المأمون بالاحتفاظ به الى بكرة فلما كان الغد أقعد ابراهيم فى دار المأمون والمقنعة التى تقنع بها فى عنقه والملحفة على صدره ليرى الناس الحال التى أخذ عليها ثم حوله الى أحمد بن أبى خالد ثم عفا عنه من بعد أن كان وكل به فقال ابراهيم فى ذلك من كلمة له

ان الذى قسم الخلافة حازها * من صلب آدم للامام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها * وحوى رداؤك كل خير جامع
فبذلت أعظم ما يضيق ببذله * وسع النفوس من الفعال البارع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله * عفو ولم يشفع اليك بشافع

وهى طويلة ومطلعها

ياخير من رفلت يمانية به * بعد النبى لآيس أو طامع

فذكر أن المأمون قال حين أنشده هذه القصيدة * أقول كما قال يوسف لاخوته لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين

واختلف أهل مصر فى أيام المأمون وخرج عن طاعته عبد الله بن السرى واستقل بحكم البلاد فأكبر المأمون هذا الامر جدا وسير عبد الله بن طاهر الى قتال ابن السرى فقدم ابن طاهر فى سنة عشر ومائتين فلما قرب من مصر وصار على مرحلة قدّم قائدا من قواده اليها لينظر موضعا يعسكر فيه وكان ابن السرى قد خندق على مصر وبث العيون والارصاد فجاءه الخبر بوصول قائد ابن طاهر الى ما قرب منه فخرج اليه فى أصحابه فالتقى هو والقائد

واقتتلوا قتالا شديدا وكان القائد فى قلة فسير بريدا الى عبد الله بن طاهر يخبره بما هو عليه فجعل عبدالله الرجال على البغال وجنبوا الخيل وأسرعوا السير فلحقوا بالقائد وهو يقاتل ابن السرى فلما رأى ابن السرى ذلك خاف ولم يقدر على الصبر فى القتال فانهزم وتساقط أكثر أصحابه فى الخندق فكان من هلك منهم بسقوط بعضهم على بعض أكثر ممن قتله الجند بالسيف ودخل ابن السرى مصر وأغلق الباب عليه وعلى أصحابه وحاصره عبد الله فلم يعد ابن السرى يخرج اليه واشتد على ابن السرى الامر فأرسل الى عبد الله ألف وصيف ووصيفة مع كل واحد منهم ألف دينار وكان ارسالهم ليلا فردهم عبدالله وكتب اليه لوقبلت هديتك نهارا لقبلتها ليلا بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون فعند ماوصل الكتاب الى ابن السرى خاف كثيرا وطلب الامان

وبعدأن فرغ عبد الله من قتال ابن السرى وتم له فتح مصر سار بعسكره الى الاسكندرية لاستخلاصها من أيدى المتغلبين عليها فقد كان خرج جمع من الاندلس فتغلبوا عليها واستتبت قدمهم فيها وأحدثوا بها من الاحدوثات ما راق لهم فلم يكن لاهل الاسكندرية قبل على ردهم لقيام فتنة ابن السرى وغيره ممن خرج وكان يقدم هؤلاء القوم رجل يدعى أبا حفص وكان داهية حسن السياسة فلما رأى أبوحفص كثرة عسكر عبدالله وأن لاقبل له على قتاله أجاب الى الطاعة وسأله الأمان على أن يرتحل بمن معه عن الاسكندرية الى حيث أطراف الروم فأعطاهم الامان على ذلك فرحلوا ونزلوا بجزيرة اقريطش واستوطنوها وأقاموا بها فأعقبوا وتناسلوا وجعل عبدالله يدبر الامور ويسوس البلاد حتى استوثقت منه الرعية بالطاعة فولاه المأمون الولاية على مصر والشام والجزيرة وأطلق كلمته فكبرت هيبته وحسده الناس وقال للمأمون بعض اخوته ان عبد الله بن طاهر يميل الى ولد علىّ بن أبى طالب ويتمنى أن تكون الخلافة فيهم وكذا كان أبوه قبله فأنكر المأمون ذلك ولم يصدقه فعاوده أخوه المعتصم وبالغ فى الامر لكراهته فى عبد الله فوضع المأمون رجلا وقال له امش فى هيئة القراء والنساك الى مصر فادع جماعة من كبرائها الى القاسم بن ابراهيم بن طباطبا ثم سر الى عبد الله بن طاهر فادعه اليه واذكر له مناقبه ورغبه فيه وابحث عن باطنه وائتنى بما تسمع ففعل الرجل ذلك فاستجاب له جماعة من الاعيان فقعد بباب عبد الله بن طاهر فلما خرج عبد الله يريد الركوب نهض اليه الرجل وناوله رقعة فتناولها وسار فلما عاد الى منزله أرسل يطلب الرجل فلما دخل عليه الرجل قال له قد فهمت مافى رقعتك فهات ماعندك فقال ولى أمانك قال نعم فدعاه الى القاسم من ولد علىّ بن أبى طالب وذكر فضله وزهده وعلمه فقال عبد الله أتنصفنى يا هذا قال نعم قال هل يجب شكر الله على العباد قال نعم قال فتجىء الىّ وأنا فى هذه الحالة من النعم لى خاتم فى المشرق جائز وخاتم فى المغرب جائز وفيما بينهما أمرى مطاع ثم ما ألتفت عن يمينى ولا شمالى وورائى وأمامى الا رأيت نعمة لرجل (يعنى المأمون) أنعمها علىّ ومنة ختم

بها رقبتى وبدا لائحة بيضاء ابتدأنى بها تفضلا وكرما فهل اذن تدعونى الى أن أكفر بهذه النعم وهذا الاحسان وتقول اغدر بمن كان أولى بهذا وأحرى واسع فى ازالة خيط عنقه وسفك دمه أتراك لو دعوتنى الى الجنة عيانا أكان الله يحب منى أن أغدر به وأكفر احسانه وأنكث بيعته فسكت الرجل فقال له عبد الله ماأخاف عليك الا نفسك فارحل عن هذا البلد فان السلطان الاعظم اذا بلغه ذلك كنت الجانى على نفسك ونفس غيرك فلما أيس منه جاء الى المأمون فأخبره فاستبشر وقال ذلك غرس يدى والف أدبى وقراب سيفى ثم كتم الامر على عبد الله حتى مات المأمون

ولما كانت سنة اثنتى عشرة ومائتين نادى منادى المأمون برئت الذمة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قدمه على أحد من أصحاب الرسول وتكلم فى أشياء من التلاوة انها مخلوقة وغير ذلك * قلت * وتنازع الكتاب فى السبب الذى من أجله أمر بالنداء فى أمر معاوية فقيل فى ذلك أقاويل منها أن بعض سماره حدث بحديث عن مطرف بن المغيرة بن شعبة الثقفى وقد ذكر هذا الخبر ابن بكار فى كتابه فى الاخبار المعروفة بالموفقيات التى وضعها للموفق وهو ابن الزبير * قال سمعت المدائنى يقول قال مطرف بن المغيرة بن شعبة وفدت مع أبى المغيرة الى معاوية فكان أبى يأتيه يتحدث عنده ثم ينصرف الى فيذكر معاوية ويذكر عقله ويعجب مما يرى منه اذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء فرأيته مغتما فانتظرته ساعة وظننت أنه لشئ حدث فينا أو فى عملنا فقلت له مالى أراك مغتما منذ الليلة قال يابنى انى جئت من عند أخبث الناس قلت له وما ذاك قال قلت له وقد خلوت به انك قد بلغت منا يا أمير المؤمنين فلو أظهرت عدلا وبسطت خيرا فانك قد كبرت ولو نظرت الى اخوتك من بنى هاشم فوصلت أرحامهم فو الله ماعندهم اليوم شئ تخافه فقال لى هيهات هيهات ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل فو الله ماغدا أن هلك فهلك ذكره الا أن يقول قائل أبو بكر ثم هلك أخو عدى فاجتهد وشمر عشر سنين فو الله ماغدا أن هلك فهلك ذكره الا أن يقول قائل عمر ثم ملك أخونا عثمان فملك رجل لم يكن أحد فى مثل نسبه فعمل ماعمل وعمل به فو الله ما غدا أن هلك وهلك ذكره وذكر ما فعل به وان أخا هاشم يصرخ به فى كل يوم خمس مرات (أشهد أن محمدا رسول الله) فأى عمل يبقى مع هذا * لاأم لك * والله الا دفنا دفنا قال وان المأمون لما سمع هذا الخبر بعثه ذلك على أن أمر بالنداء على حسب ماوصفنا وانتشرت الكتب فى الآفاق بلعنه على المنابر فأعظم الناس ذلك وأكبروه واضطربت العامة فأشير عليه بترك ذلك فتركه

قال صاحب مروج الذهب أخبرنا القاضى أبو محمد عبد الله بن أحمد بن يزيد الدمشقى بدمشق قال لما توجه المأمون غازيا ونزل البديدون جاء رسول ملك الروم فقال له ان الملك يخيرك بين أن يرد عليك نفقتك التى أنفقتها فى طريقك من بلدك الى هذا الموضع وبين أن يخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم بغير فداء ولادرهم ولادينار وبين أن يعمر لك كل بلد

للسلمين مما خربت النصرانيــة ويرده كما كان وترجع عن غزاتك فقام المأمون ودخـل خيمة فصـلى ركعتين واستخار الله عز وجـل وخرج فقال للرسول قل له أما قولك ترد على نفقتى فانى سمعت الله تعالى يقول فى كتابنا حاكيا عن بلقيس * وانى مرسلة اليهم بهـدية فناظرة بما يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدوننى بمال فما آتانى الله خـير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون * وأما قولك انك تخرج كل أسـير من المسلمين فى بلد الروم فما فى يدك إلا أحد رجلين اما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة فقد صار الى ماأراد واما رجل الدنيا فلا فك الله أسره * وأما قولك انك تعمر كل بلد للمسـلمين قد خربتـه الروم فلو أنى قلعت أقصى حجر فى بلاد الروم ما اعتضت بامرأة عثرت عثرة فى حال أسرها فقالت وامحمداه وامحمداه * عد الى صاحبك فليس بينى وبينه الا السـيف ياغلام اضرب الطبل فرحـل فلم ينـثن عن غزاته حـتى فتح خمسة عشر حصنا وانصرف فنزل على عين البديدون المعروفة بالقشـيرة فأقام هنالك حتى ترجع رسـله من الحصون فوقف على العـين ومنع الماء فأعجبه ماؤها وبرده وصـفاؤه وبياضـه وطيب حسـن الموضع وكـثرة الخضرة فأمر بقطع خشب طوال وأمر به فبسط على العـين كالجسر وجعـل فوقـه كالازج من الخشب وورق الشجر وجلس تحت الكنيسة التى عقدت له والماء تحته وطرح فى الماء درهم صحيح فقرأ كتابته وهو فى قرار الماء لصفاء الماء ولم يقدر أحد أن يدخل يده فى الماء من شدة برده * فبينما هو كذلك اذ لاحت سمكة نحو الذراع كأنها سبيكة فضة فجعل لمن يخرجها سيفا فبادر بعض الفراشـين فأخذها وصعد فلما صارت على حرف العين أوالخشب الذى عليه المأمون اضطربت وأفلتت من يد الفراش فوقعت فى الماء كالحجر فنضح من الماء على صدر المأمون ونحره وترقوته فبلت ثوبه ثم انحدر الفراش ثانية فأخذها ووضعها بين يدى المأمون فى منديل تضطرب فقال المأمون تقلى الساعة ثم أخذته رعدة من ساعته فلم يقـدر أن يتحرك من مكانه فغطى باللحف والدواويج وهو يرتعد كالسعفة ويصيح البرد البرد ثم حول الى المضرب ودثر وأوقدوا النيران حوله وهو يصيح البرد البرد ثم أتى بالسمكة وقد فرغ من قليها فلم يقدر على الذوق منها وشغله ماهو فيه عن تناول شئ منها ولما اشتد به الامر سأل المعتصم بختيشوع وابن ماسويه فى ذلك الوقت عن المأمون وهو فى سكرات الموت وما الذى يدل عليه علم الطب من أمره وهل يمكن برؤه وشفاؤه فتقدم ابن ماسويه وأخذ احدى يديه وأخذ بختيشوع يده الاخرى وأخذا المجسة من كلتا يديه فوجدا نبضه خارجا عن الاعتدال منذرا بالفناء والانحلال والتزقت أيديهما ببشرته لعرق كان يظهر من سائر جسده كالزيت أوكلعاب بعض الافاعى فأخبرا المعتصم بذلك فسألهما عن ذلك فأنكرا وانهما لم يجـداه فى شئ من الكتب وانه دال على انحلال الجسد * ثم أفاق المأمون من غشيته وفتح عينيه من رقدته فأمر باحضار ناس من الروم فسألهـم عن اسم الموضع والعين فأحضروا له عدة أسرى وأدلاء وقيل لهم فسروا هذا الاسم (القشيرة) فقيل له تفسيره مد رجليك فلما سمعها اضطرب من هذا الفال وتطير منه وقال سلوهم ماالاسم الموضع بالعربية

فقالوا الرقــة وكان فيما عــلم من مولد المأمون أنه يموت بالموضع المعروف بالرقة وكان المأمون كثيرا مايحيد عن المقام بمدينة الرقة فرارا من الموت فلما سمع هذا من الروم عـلم أنه الموضع الذى وعد به فيما تقدم من مولده وان فيه وفاته وقيل ان اسم البديدون تفسيره مدّ رجليك والله أعلم بكيفية ذلك وأحضر المعتصم الاطباء حوله يؤمل خلاصه مما هو فيه فلما ثقل قال أخرجونى أشرف على عسكرى وأنظر الى رجالى وأتبين ملكى وذلك فى الليل فأخرج فأشرف على الخيام والجيش وانتشاره وكثرته وماأوقدوا من النيران فقال * يامن لايزول ملكه ارحم من قد زال ملكه ثم رد الى مرقده * وأجلس المعتصم رجلا يلقنه الشهادة لما ثقل مرضه فرفع الرجـل صوته ليقولها فقال له ابن ماسويه لاتصح فوالله لايفرق بين ربه وبين مانى فى هـذا الوقت ففتح عينيه من ساعته وبهما من العظم والكبر والاحمرار ما لم ير مثله قط وأقبل يحاول البطش بيديه بابن ماسويه ورام مخاطبته فعجز عن الكلام فرمى بطرفـه الى السماء وقد امتلأت عيناه دموعا فانطلق لسانه وقال يامن لايموت ارحم من يموت وقضى من ساعته وذلك يوم الخميس لثلاث عشرة ليـلة بقيت من رجب سـنة ثمان عشرة ومائتـين وحمل الى طرسوس فدفن بهـا فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وقيل فى سبب علته وموته غـير ذلك أيضا * قال ابن خلكان وكان المأمون عظيم العفو جوادا بالمال عارفا بالنجوم والنحو وغـيرهما من أنواع العلوم خصوصا علم النجوم وكان يقول لو يعلم الناس ما أجده فى العفو من اللذة لتقربوا الىّ بالذنوب وقال غـيره أنه لم يكن فى بنى العباس أعلم من المأمون وكان يشتغل بعلم النجوم كثيرا وفى ذلك يقول أبوسعد المخزومى

هل رأيت النجوم أغنت عن المأ * مــون شـيأ وملكه المـأنوس

خلفوه بعـــــرصتى طرسوس * مثـلما خلفـــــوا أباه بطوس

وكان أبيض مليح الوجه مربوعا طويل اللحية دينا عارفا بالعـلم فيه دهاء وسياسة وخبرة بالامور

واستأمر على مصر فى خلافتـه المطلب فى سنة تسع وتسـعين ومائة ثم ولى السرى بن الحكم سنة مائتين ثم ولى سليمان بن غالب سنة احدى ومائتين ثم أعيد السرى بن الحكم فى السنة فما زال الى أن مات فى سنة خمس ومائتين فولى بعده أبو نصر محمد بن السرى ثم تغلب عليها عبدالله بن السرى فى سنة ست وأقام مستبدا بحكمها الى سنة عشرة وقد استفحل أمره وكادت تظهر كلمته ويستقل بملكها فوجه اليـه المأمون عبـد الله بن طاهر فى عسكر عظيم فقاتله وطال القتال بينهما واشتد ومازالا حتى استنقذها منه ابن طاهر بعد حروب يطول ذكرها وقد ذكر الوزير أبو القاسم المغربى أن البطيخ العبد لاوى الذى بمصر منسوب الى عبـدالله ابن طاهر هذا قال ابن خلكان اما لانه كان يستطيبه أولانه أول من زرعه بها * ثم ولى بعده عيسى بن يزيد الجلودى ثم فى سنة ثلاث عشرة ومائتين ثار رجلان بمصر وهما عبد السلام وابن جليس خلعا طاعـة المأمون واستحوذا على الديار المصرية وتبعهما طائفـة من القيسية

والىمانية

واليمانيـة القاطنـين بمصر وقطعا الخطبـة للمأمون واستبدا بالحكم فشق ذلك على المأمون واستعظمه جدا وولى أخاه أبا اسحق بن الرشيد نيابة مصر مضافة الى الشام فقدمها سنة أربع عشرة ومائتين وقاتل عبد السلام المذكور وابن حليس قتالا عنيفا ومازال حتى فتحها عنوة وقبض على عبد السلام وابن حليس وقتلهما وأقام بمصر ثم ولى عليها عمر بن الوليد التميمى ثم صرف وولى أبو عبيـد عيسى بن يزيد الجلودى ثم ولى عبـدويه بن جبـلة سنة خمس عشرة ومائتـين ثم صرف وولى عيسى بن منصور مولى بنى نصر وفى أيامه قـدم المأمون الى مصر وزار الكثير من مدنها وقراها وبقى عيسى الى سنة ثمان عشرة ومائتين وهى السنة التى مات فيها المأمون كما تقدم

ومات فى خلافة المأمون مرقس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام عشرين سنة وقيل عشرين سنة وسبعين يوما فأقيم بعده يعقوب وهو خمسيهم وأصله من مدينة الاسكندرية وهو راهب من دير أبو مقار وفى أيام مرقس هـذا كانت الفتنة بين الامـين وعبـد الله المأمون ولدى هرون الرشيد كما تقدم بيانه فى محله فانتهبت النصارى يومئذ بالاسكندرية وأحرقت لهم مواضع كثيرة جدا وأحرقت أيضا ديارات وادى هبيب ونهبت فلم يبق من رهبانها الانفر قليل وكانت شـدة عظيمـة * وفى أيامه مضى بطرك الملكية الى بغداد وعالج بعض حظايا أهل الخليفة وقـد كان طبيبا ماهرا عارفا بالطب جيـدا حاذقا فيه فلما عوفيت تقدم الى الخليفة فى رد كنائس الملكية التى كانت القبط تغلبت عليها وأخـذتها منهم فكتب الى عامـله بمصر بردها فاستردها قهرا وتغلب الملكيون وقهروا المتأصلين وعلت كلمتهم وتولى البطرك المذكور بطركية الملكية أربعين سـنة ثم مات واشتد الجور على القبط لذلك وسامهـم العمـال الخسف وضيق عليهـم أصحاب جباية الاموال فلما ضاق بهـم الخناق انتقضوا فى سنة ست عشرة ومائتين فأوقع بهم الأوفشين وقاتلهم قتالا عنيفا حتى نزلوا على حكم عبـد الله المأمون ورجعوا الى الطاعـة فحكم فيهم بقتـل الرجال وبيع النساء والذرية فبيعوا وسبى أكثرهم ومن هـذا الحين ذلت القبط فى أرضهم وغلبهم المسلمون على عامة القرى وشددوا عليهم وضيقوا وبالغوا فى تذليلهم فاتخـذوا كتابة الخراج حرفة يستعينون بها على الوقت بعـد أن كانوا سادة البلاد وأصحاب حقولها ومزارعها وغياضها وبساتينها وكان لهم بعد ذلك مع المسلمين أخبار كثيرة سيأتى ذكرها فى محلها

(الفصـــل الثامن)

(فى خلافة أبى اسحق ابراهيم المعتصـم بن هرون الرشيد)

ثم قام بالامر بعد المأمون أخوه أبو اسحق ابراهيم المعتصم بن هرون الرشيد بويع له

بالخلافة يوم موت أخيه سنة ثمان عشرة ومائتين هجرية أى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ميلادية بعهد منه فلما استوثق له الامر قام ملك الروم المسمى طيوفيل قيصر فى جمع عظيم وبلغ زمطة فسبى وقتل وحرق وخرب وسبى من المسلمين والمسلمات خلقا كثيرا حتى بلغ ملطية وغيرها فقام المعتصم لقتاله وكان مغازيا شجاعا ليس فى بنى العباس أشجع ولا أقوى قلبا منه وقصد عمورية التى كانت أعظم المدن عند الروم فوصلها وحاصرها خمسة وخمسين يوما وخرب أسوارها ودخلها عنوة قيل وقتل فيها ثلاثين ألفا وسبى مثلها وفعل أفعالا قد أضربنا عن ايرادها هنا * وكان المعتصم قد وجه عجيف بن عنبسة الى بلاد الروم لقتالها ولكنه لم يطلق يده فى النفقات كما أطلق يد الافشين ولم يحمده على شئ فعله البتة وقد استقصر أمره فأحس عجيف بذلك وأكبره جدا فدخل على العباس بن المأمون يوما وجعل يوبخه على فعله من مبايعة المعتصم عند وفاة المأمون ثم أخذ يشجعه على خلع بيعة المعتصم وارجاع الامر لنفسه فقبل العباس قوله وتاقت نفسه الى الاستبداد بالامر فدس رجلا اسمه الحرث السمرقندى أحد أقارب عبيد الله بن الوضاح وكان العباس يأنس به ويميل اليه وكان الحرث أديبا له عقل ومداراة فجعله العباس رسوله وسفيره الى القواد فجعل يدور فى العسكر حتى استمال له جماعة من القواد و بايعوه وجماعة من خواص المعتصم فكان يقول لكل من بايعه اذا أظهرنا أمرنا فليثب كل منكم بالقائد الذى هو معه ووكل من بايعه من خواص المعتصم بقتل المعتصم وكذلك فعل مع غيرهم من بقية الخواص الذين بايعوه فضمنوا له ذلك فلما كان اليوم الذى دخل فيه المعتصم الدرب بعسكره يريد أنقرة وعمورية أشار عجيف الى العباس أن يثب بالمعتصم فى الدرب ويقتله ويرجع الى بغداد فان الناس يفرحون بانصرافهم من الحرب فأبى العباس ذلك وقال لا أفسد هذه الغزوة حتى دخلوا بلاد الروم وافتتحوا عمورية فعاود عجيف العباس فى الركوب على المعتصم وقتله ودس الى العسكر بأن ينهبوا الغنائم التى غنموها من عمورية كى لا يبقى مع المعتصم أحد فيتمكن العباس من قتله فلم يطاوعه العباس ولم يأذن أحدا ممن بايعوه بالوثوب وعلم المعتصم بما ينويه العباس وبالحال جميعه وبجميع من بايعه من القواد وغيرهم فاحضر العباس ليلة فى مجلس الشراب وجعل يسقيه حتى سكر ثم استحلفه أن لا يكتمه من أمره شيأ فشرح له أمره كله فأمر به فقيدوه فى الحال وسلمه الى الافشين فحبسه وتتبع المعتصم أولئك القواد فلما نزل بمنبج طلب العباس الطعام فقدم اليه طعاما كثيرا فأكل ومنع الماء وأدرج فى مسح فمات من يومه وفعلوا كذلك بعجيف ومن كان معه ثم قدم راجعا الى الثغور

وتمم المعتصم المدينة التى كان أنشأها الرشيد ولم يستتمها وذلك فى سنة عشرين ومائتين وسماها سرمن رأى فرجها الناس وقالوا سامرا وصارت دارا لملك العباسيين من خلافة المعتصم * والمعتصم هذا أول من استخدم الترك فى جنده لشدتهم وبأسهم وخبرتهم بالحروب اذ كانت قد قلت حماسة العرب وارتاحوا للعيشة الرافهة حتى انهم لم يجسروا على مقابلة

الروم عند ماقام ملكهم طيوفيل لقتال المعتصم ولم يرده الا الترك وكان لذلك يحب الاتراك وشراءهم من أيدى مواليهم فاجتمع له منهم أربعة آلاف فألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزى عن سائر جنوده وقد كان اصطنع قوما فى حوفى مصر من حوف اليمن وحوف قيس فسماهم المغاربة واستنقذ رجال خراسان من الفراغنة وغيرهم من الاشروسية فكثر جيشه وضخم وكانت الكلمة بين عساكره للترك فتكبروا وجاروا وظلموا وكانوا يؤذون العوام بمدينة بغداد بجريهم الخيول فى الاسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمة لامرأة أوشيخ كبير أوصبى أوضرير فأغضب ذلك المعتصم وعزم على النقلة منهم والجلاء عن بغداد وأن ينزل فى فضاء من الارض فنزل الراذان على أربع فراسخ من بغداد فلم يستطب هواءها فلم يزل ينتقل وينقر المواضع والاماكن الى دجلة وغيرها حتى انتهى الى الموضع المعروف بالقاطول فاستطاب الموضع وكان هنالك قرية يسكنها خلق من الجرامقة وناس من النبط على النهر المعروف بالقاطول آخذا من دجلة فبنى هنالك قصرا وبنى الناس وانتقلوا عن مدينة السلام وخلت من السكان الا اليسير وكان فيما قاله بعض العيارين فى ذلك معيرا للمعتصم بانتقاله عنهم

أياساكن القاطول بين الجرامقه * تركت ببغداد الكباش البطارقه

وكان المعتصم داهية كبير السياسة مقداما صعب المراس طلب الامام أحمد قبل غزوته لعمورية وكان الامام فى سجن المأمون وامتحنه بخلق القرآن بناء على وصية أخيه المأمون وعقد له مجلسا للمناظرة وفيه عبد الرحمن بن اسحق والقاضى أحمد بن أبى دواد وغيرهما فناظروه ثلاثة أيام ولم يزل معهم فى جدال الى اليوم الرابع فأمر بضربه فضرب بالسياط قيل ولم يزل عن الصراط الى أن أغمى عليه ونخسه عجيف بالسيف ورمى عليه باريه وديس عليه ثم حمل وصار الى منزله وكانت مدة مكثه فى السجن ثمانية وعشرين شهرا ولم يزل بعد ذلك يحضر الجمعة والجماعات ويفتى ويحدث الى أن مات المعتصم وولى الواثق فأظهر ما أظهره المأمون والمعتصم من القول بخلق القرآن وقال للامام أحمد لاتجمعن اليك أحدا ولا تساكنى فى بلد أنا فيه فأقام الامام أحمد مختفيا لايخرج الى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولى المتوكل فرفع المحنة وأمر باحضار الامام أحمد واكرامه واعزازه وأطلق له مالا كثيرا قيل فلم يقبله وفرقه وأجرى المتوكل على أهل الامام وولده فى كل شهر أربعة آلاف درهم قيل فلم يرض الامام بذلك * وذكر العراقى فى مجمع الاخبار وغيره ان الامام أحمد نوظر فى الايام الثلاثة وان المعتصم كان يخلو به ويقول له ويحك يا أحمد أنا والله عليك شفيق وانى لاشفق عليك مثل شفقتى على ابنى هرون يعنى الواثق فأجبنى فوالله لئن أجبتنى لأطلقن غلك بيدى ولأطأن عقبتك ولأركبن اليك بجندى فيقول يا أمير المؤمنين أعطونى شيأ من كتاب الله تعالى أوسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا طال به المجلس ضجر وقام ورد أحمد فى الموضع الذى كان فيه وتتردد اليه رسل المعتصم يقولون يا أحمد أمير المؤمنين يقول لك

ماتقول فى القرآن فيرد عليهم كما ردّ أولا فلما كان فى اليوم الثالث طلب للمناظرة فأدخل على المعتصم وعنده محمد بن عبد الملك الزيات والقاضى أحمد بن دواد فقال المعتصم كلموه وناظروه فلم يزالوا معه فى جدال الى أن قالوا يا أمير المؤمنين اقتله ودمه فى أعناقنا فرفع المعتصم يده ولطم بها وجه الامام أحمد فخر مغشيا عليه فتمعرت وجوه قوّاد خراسان وكان عم أحمد منهم فخاف الخليفة منهم على نفسه فدعا بماء ورش على وجهه فلما أفاق من غشيته رفع رأسه الى عمه وقال ياعم لعل هذا الماء الذى رش على وجهى غصب عليه صاحبه فقال المعتصم ويحكم أما ترون مايتهجم به علىّ هذا وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم لارفعت السوط حتى يقول القرآن مخلوق ثم التفت الى أحمد وقال وأعاد عليه القول فرد أحمد كالاول فلم يزل كذلك حتى ضجر وطال المجلس فعند ذلك قال عليك لعنة الله لقد كنت طمعت فيك غير هذا خذوه اخلعوه اسحبوه فأخذ وسحب وخلع ثم قال المعتصم السياط قال العراقى وشدوا يديه فخلعت ولم يزل أحمد يتوجع منها حتى مات ثم قال المعتصم للجلادين تقدموا ونظر الى السياط فقال ائتوا بغيرها ثم قال لاحدهم زمه وأوجع قطع الله يدك فتقدم وضربه سوطين ثم تنحى ثم قال لآخر أزمه وشد قطع الله يدك فتقدم وضربه سوطين ثم تنحى ولم يزل يدعو رجلا رجلا فيضربه كل واحد سوطين ويتنحى ثم قام المعتصم وجاء وهم محدقون به وقال يأحمد تقتل نفسك أجبنى حتى أطلق عنك بيدى وجعل بعضهم يقول له يا أحمد امامك على رأسك قائم فأجبه وعجيف ينخسه بالسيف ويقول أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم وبعضهم يقول ياأمير المؤمنين اجعل دمه فى عنقى فرجع المعتصم الى الكرسى ثم قال للجلاد زمه قطع الله يدك ثم جاء المعتصم اليه ثانيا وقال يا أحمد أجبنى فقال كالاول فرجع المعتصم وجلس على الكرسى ثم قال للجلاد شدّ عليه قطع الله يدك * قال أحمد فذهب عقلى فما عقلت الا وأنا فى حجرة مطلق عنى قال الراوى وكل ذلك وهو صائم لم يفطر رضى الله عنه وضرب ثمانية عشر سوطا * ووجه المعتصم رجلا ينظر الضرب والجراحات ويعالجه فنظر اليه وقال والله لقد رأيت من ضرب ألف سوط فما رأيت أشدّ ضربا من هذا ثم عالجه وبقى أثر الضرب بينا فى ظهره الى أنمات والكلام على المحنة بخلق القرآن كثير جدا أضربنا عن ايراده هنا خوف الاطالة

ومات المعتصم فى سنة سبع وعشرين ومائتين على دجلة فى قصره المعروف بالخاقانى يوم الخميس لثمان عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الاول وقيل لساعتين من ليلة الخميس وهو ابن ثمان وأربعين سنة وقيل ست وأربعين سنة وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية شهور وثمانية أيام وهو الثامن من خلفاء بنى العباس قيل وخلف من الذهب ثمانية آلاف دينار ومن الدراهم ثمانية عشر ألف ألف درهم ومن الخيل ثمانية آلاف فرس ومثلها من الجمال والبغال ومن المماليك ثمانية آلاف مملوك وثمانية آلاف جارية وكان يقال له الثمانى لاجل ذلك وكان أميا وذلك أنه كان له مملوك صغير يذهب معه الى الكتاب فمات فقال له

الرشيد مات مملوكك يا ابراهيم فقال استراح من الكتاب يا أمير المؤمنين فقال الرشيد أوبلغ منك الكتاب الى هذا الحد اتركوا ولدى لاتعلموه فكان أميا لذلك * قال زنام الزامر أفاق المعتصم فى علته التى مات فيها فركب فى الزلال فى دجلة وأنا معه فمر بازاء منازله فقال يازنام ازمر لى

يامنزلا لم تبل أطلاله * حاشى لاطلالك أن تبلى
لم أبك أطلالك لكننى * بكيت عيشى فيك اذولى
والعيش أولى مابكاه الفتى * لابد للمحزون أن يسلى

قال فمازلت أزمرله هذا الصوت وأكرره وقد تناول منديلا بين يديه فما زال يبكى فيه وينتحب حتى رجع الى منزله اه ولما احتضر جعل يقول ذهبت الحيل ليست حيلة حتى أصمت ثم مات ودفن بسامرا

واستعمل المعتصم على مصر فى خلافته نصر بن كيدر السعيدى سنة تسع عشرة ثم ولى المظفر بن كيدر ثم ولى موسى بن أبى العباس الحنفى ثم ولى مالك بن كيدر سنة أربع وعشرين ومائتين وبقى أميرا عليها فى خلافة الواثق بالله الى سنة تسع وعشرين ومائتين كما سيأتى ذكره فى محله

ومات فى خلافة المعتصم يعقوب بطرك الاسكندرية بعد اقامته بطركا عشر سنين وقيل عشر سنين وثمانية أشهر فأقيم بعده سيماون وهو سمعان حادى خمسيهم وفى أيام يعقوب البطرك المذكور خفت الشدة وزال البأس عن المسيحيين فعمرت ديارات القبط وعاد رهبانهم الى مواطنهم وعمرت كنيسة بيت المقدس لمن يرد اليها من الحاج من نصارى مصر وقدم على يعقوب المذكور ديونوسيس بطرك انطاكية زائرا فأكرم وفادته ولبث طويلا ثم عاد الى كرسيه ومات أيضا سمعان البطرك بعد أن أقام سنة وقيل سبعة أشهر وستة عشر يوما وقيل غير ذلك وكان راهبا من رهبان دير أبو مقار فخلى كرسى البطريكية بعده سنة وسبعة وعشرين يوما ثم أقيم بعده يوساب وهو يوسف ثانى خمسيهم وأصله من رهبان دير أبو مقار أيضا وكان تقديمه فى سنة سبع وعشرين ومائتين بدير أبو مقار بوادى هبيب وهى السنة التى مات فيها الخليفة المعتصم بن هرون الرشيد كما تقدم

(الفصل التاسع)

(فى خلافة هرون الواثق بالله)

ثم قام بالامر بعد المعتصم ابنه هرون الواثق بالله بويع له بالخلافة بسر من رأى التى

هى مدينة السامرة يوم موت أبيه المعتصم سنة سبع وعشرين ومائتين هجرية * أى سنة احدى وأربعين وثلثمائة ميلادية وتقدمت البيعة الى بغداد واستقرله الأمر ببغداد وغيرها وكان واسع المعروف متعطفا على أهل بيته محبا للرعية ولكنه سلك مسلك أبيه وعمه فى القول بخلق القرآن على انه فى سنة ثلاثين ومائتين لما كانت الفدية بين المسلمين والروم على نهر اللامس على مسيرة يومين من طرسوس بعد ماوقع بين الفريقين من الحروب الهائلة أمر الواثق خاقان خادم الرشيد الذى كان الفداء على يديه يومئذ أن يسأل أسرى المسلمين واحدا فواحدا فمن قال منهم بخلق القرآن وان الله سبحانه وتعالى لايرى فى الآخرة بالابصار نودى به وأعطى دينارا ومن لم يقل ذلك ترك فى أيدى الروم * فلما كان فى يوم عاشوراء أتت الروم ومن معهم من الاسرى وكان الامر بين الفريقين فكان المسلمون يطلقون أسيرا والروم أسيرا فيلتقيان وسط الجسر ومازالوا حتى فرغوا قيل وكانت عدة أسارى المسلمين أربعة آلاف وأربعمائة وستين والصبيان ثمانمائة ومائة من أهل الذمة فلما فاض الخبر بما فعله الواثق من اكراه الناس على القول بخلق القرآن أكبروا هذا الامر وأعظموه جدا فخرج على الواثق لذلك أحمد بن نصر أحد الفقهاء وقام معه آخر اسمه هرون السراج وآخر اسمه طالب وغيرهما ودعوا الناس الى أحمد بن نصر فبايعه خلق على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وفرقوا الاموال فى الناس دينارا لكل واحد ففشا أمره وعلم فأرسل الواثق من قبض على أحمد بن نصر المذكور وعلى طالب ومن نحا نحوهما وأرسلوا الى الواثق فى سامرا قيل فجلس لهم مجلسا عاما حضر فيه أحمد بن أبى دواد فلم يسأله الواثق عن خروجه بل سأله عن خلق القرآن فقال هو كلام الله ثم سأله عن رؤية الله عزوجل فى الآخرة فقال جاءت بها الاخبار الصحيحة ونصيحتى أن لايخالف حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل الواثق العلماء حوله فقالوا باستباحة دمه فدعا الواثق بالصمصامة وهو سيفه المشهور فانتضاه ومشى اليه وضربه على حبل عاتقه ثم على رأسه ثم وخزه فى بطنه ثم أمر سيما الدمشقى بان يحز رأسه فحزها ونصبه ببغداد وصلب شلوه عند بابها فزالت الفتنة واختفى أمرها * وكان الواثق محبا للنظر مكرما لاهله مبغضا للتقليد وأهله محبا للاشراف على علوم الناس وآدابهم ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة والمتطببين فجرى بحضرته أنواع من العلوم فى الطبيعيات وما بعد ذلك من الالهيات فقال لهم الواثق قد أحببت أن أعلم كيفية ادراك معرفة الطبيب ومأخذ أصوله أذلك من الحس أم من القياس والسنة أم يدرك من جهة العقل أم علم ذلك وطريقه يعلم عندكم من جهة السمع كما يذهب اليه جماعة من أهل الشريعة وقد كان ابن بختيشوع وابن ماسويه وميخائيل فيمن حضر وقيل ان حنين بن اسحق وسلمويه فيمن حضر فى هذا المجلس فقال قائل منهم * زعم طوائف من الاطباء وكثير من متقدميهم أن الطريق الذى يدرك به الطب هو التجربة فقط وحدّوه بان يتكرر الحس على محسوس واحد فى أحوال متغايرة فيوجد بالحس فى آخر الاحوال كما يوجد فى أولها والحافظ لذلك المجرب وزعموا أن

التجربة ترجع الى مباد أربعة هن لها أوائل ومقدمات وبها علت وصحت واليها تنقسم التجربة فصارت بذلك أجزاء لها فزعموا أن قسما من تلك الاقسام طبيعي وهو ماتفعله الطبيعة في الصحيح والمريض من العرق والرعاف والاسهال والقيء التى تعقب فى المشاهدة منفعة أوضررا وقسما اراديا وهو مايقع من قبل النفس الناطقة وذلك كمثل منام يراه الانسان وهو أن يرى كأنه عالج مريضا به علة مشاهدة معقولة بشئ من الاشياء معروف فيبرأ ذلك المريض من مرضه أو يخطر مثل ذلك بباله فى حال فكره فيتردد ويغلب ظنه بعطبه فيجربه بان يفعله كما يرى فى منامه فيجده كما يرى أو يخالف ذلك فيفعله مرارا فيجده كذلك وقسما هو نقل وهو على ثلاثة أقسام اما أن ينقل الدواء الواحد من مرض الى مرض يشبهه وذلك كالنقلة من ورم الحمرة الى الورم المعروف بالنملة واما من عضو الى عضو يشبهه وذلك كالنقلة من السفرجل الى الزعرور فى علاج انطلاق البطن وكل ذلك لايعمل به عندهم الا بالتجربة وذهب طائفة أخرى منهم الى أن الحيلة فى تقريب أمر صناعة الطب وتسهيلها أن ترد أشخاص من العلل ومولداتها الى الاصول الحاصرة الجامعة لها اذا كان لاغاية لتولدها وأن يستدل على الدواء من نفس الطبيعة والمرض الحاضر الموجود فى الحال والوقت دون الاسباب الفعالة التى عدمت ودون الازمان والأوقات والاسباب والعادات ومعرفة طبائع الاعضاء وحدودها الى آخر ماقال مما لاموضع هنا لايراده * قال المسعودى * وللواثق أخبار حسان مما كان فى أيامه من الاحداث وما كان يجرى من المباحثة فى العقليات والسمعيات فى جميع الفروع والاصول مما لايسع المقام شرحها

واعتل الواثق فصلى بالناس يوم النحر أحمد بن أبى دواد وكان قاضى القضاة يومئذ فدعا فى خطبته للواثق فقال اللهم اشفه مما ابتليته قيل وكان الواثق مؤثرا لكثرة الجماع فقال لطبيبه اصنع لى دواء لذلك فقال الطبيب ياأمير المؤمنين لاتهدم بدنك بهذا الفعل واتق الله فى نفسك فقال لابد من ذلك فأمر الطبيب أن يؤخذ لحم سبع فيغلى عليه سبع غليات بخل خمر ويتناول منه عند الشراب وزن ثلاثة دراهم ولايتجاوز هذا القدر فأمر بذبح سبع فذبح وطبخ لحمه وصار يتنقل منه على شرابه فلم يكن الا قليل حتى استسقى فأجمع رأى الاطباء على أن لادواء له سوى أن ينزل بطنه ثم يترك فى تنور قد سجر بحطب زيتون حتى يصير جمرا ثم يلج فيه ففعل ذلك ومنع من الماء ثلاث ساعات فجعل يستغيث ويطلب الماء فلم يسقوه فصار فى جسده نفاطات مثل البطيخ ثم أخرجوه فجعل يقول ردونى فى التنور والا مت فردوه فسكن صياحه ثم انفجرت تلك النفاطات وقطر منها ماء فأخرج من التنور وقد اسود جلده ومات بعد ساعة قيل ولما احتضر جعل يقول

الموت فيه جميع الناس تشترك * لاسوقة منهم يبقى ولاملك
ماضر أهل قليل فى مفاقرهم * وليس يغنى عن الملاك ماملكوا

ثم أمر بالبسط فطويت وألصق خده بالارض وجعل يقول يامن لايزول ملكه ارحم من

قد زال ملكه * فلما مات غطوه بثوب واشتغل الناس بالبيعة للمتوكل فجاء جرذ من البستان فاستل عينيه وذهب بهما ولم يعلموا به حتى غسلوه وهذا من أغرب ماسمع * قال صاحب حياة الحيوان * حكى أن ذلك له سبب وهو أن أحمد بن محمد الواثق قال كنت أمرض الواثق اذ لحقته غشية فما شككت أنه قد مات فقال بعضنا لبعض تقدموا فما جسر أحد منا فتقدمت أنا فلما أردت أن أضع اصبعى على أنفه فتح عينيه فكدت أن أموت فزعا وتأخرت الى خلفى فعلقت قبيعة السيف بالعتبة وذعرت فاندق السيف فكاد أن يدخل فى لحمى فخرجت وطلبت سيفا غيره ثم رجعت فوقفت عنده فوجدته مات بلاشك فشددت لحيته وغمضته وأخذ الفراشون تلك الفرش الثمينة ليردوها الى الخزانة وترك وحده فى البيت فقال لى أحمد بن أبى دواد القاضى إنا نشتغل بعقد البيعة فاحفظه حتى يدفن فرجعت وجلست عند الباب فسمعت بعد ذلك حركة أرعبتنى فدخلت فاذا بجرذ قد جاء فاستل عينيه فأكلهما فقلت لااله الاالله هذه العين التى فتحها من ساعة فعثرت واندق سيفى هيبة لها اهـ * ومات الواثق بسر من رأى فى رجب سنة اثنتين وثلاثين ومائتين هجرية أى سنة تسع وستين وثمانمائة للميلاد وهو ابن ست وثلاثين سنة وأشهر وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وكان أبيض مليحا يعلوه اصفرار حسن اللحية فى عينه نكتة عالما أديبا جيد الشعر شجاعا مهيبا حازما فيه جبروت كابيه

واستعمل على مصر فى خلافته عيسى بن منصور حيث أعاده اليها ثانية بعد خلع مالك ابن كيدر فى أخريات سنة تسع وعشرين ومائتين وبقى أميرا عليها الى خلافة جعفر المتوكل فى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين كما سيأتى ذكره فى محله

(الفصل العاشر)

(فى خلافة جعفر المتوكل على الله)

ثم قام بالامر بعد الواثق أخوه جعفر المتوكل على الله بويع له بالخلافة بسر من رأى التى هى سامرا يوم موت أخيه الواثق بعهد منه فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين للهجرة أى سنة ست وأربعين وثمانمائة للميلاد وذلك أنهم كانوا أتوا بمحمد ولد الواثق ليبايعوه خلافا للعهد فألبسوه قلنسوة سوداء وكان حدثا صغيرا فلما رأوه على هذا الحال عدلوا عن رأيهم وأحضروا جعفرا أخا الواثق بن المعتصم وبايعوه وأخلوا عن ولده محمد المذكور ولقبوا جعفرا بالمتوكل وكان عمره يوم بويع ستا وعشرين سنة وأول من سلم عليه بالخلافة أحمد بن أبى دواد وألبسه الطويلة وعممه وقبل بين عينيه وقال له السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله

وبركاته فلما استقرت به الخلافة رفع المحنة بخلق القرآن وأظهر السنة وأمر بنشر آثار صاحب الشريعة قال ابن خلكان فى ترجمته انه قال ركبت الى دار الواثق فى مرضه الذى مات فيه لاعوده فجلست فى الدهليز أنتظر الاذن فبينما أنا جالس اذ سمعت النياحة عليه واذا بايداخ ومحمد بن عبد الملك الزيات يأتمران فى أمرى فقال نقتله فى التنور وقال ايداخ بل ندعه فى الماء البارد حتى يموت ولا يرى عليه أثر القتل فبينماهما على ذلك اذ جاء أحمد بن أبى دواد القاضى فدخل وحدثهما كلاما لاأعقله لما دخلنى من الخوف وشغل القلب باعمال الحيلة فى الهرب فبينما أنا كذلك واذا بالغلمان يتعادون ويقولون انهض يامولانا فلم أشك أنى داخل لأبايع ولد الواثق ثم ينفذ فىّ ماقدر فلما دخلت بايعونى فسألت عن الحال فأعلمت أن ابن أبى دواد كان السبب فى ذلك ثم ان المتوكل قتل ايداخ بالماء البارد وابن الزيات فى التنور وهذا من أغرب الاتفاق وعجيب الظفر ومن العجب أيضا أن محمد بن عبد الملك الزيات هو الذى صنع التنور ليعذب فيه الناس فعذبه الله فيه * انتهى

وكان المتوكل شديد البغض لعلى بن أبى طالب وذريته فأمر فى سنة ست وثلاثين ومائتين بهدم قبر الحسين بن علىّ وهدم ماحوله من المنازل والدور وأن يبذر ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من اتيانه فنادى بالناس فى تلك الناحية من وجدناه عند قبر الحسين بعد ثلاثة أيام حبسناه فى المطبق فخاف الناس وهربوا وتركوا زيارته وخرب وزرعوا موضعه فلم يبق له أثر وكان للمتوكل نديم اسمه عبادة المخنث فكان اذا حضر عند المتوكل فى مجلس شراب يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه وهو أصلع ثم يرقص بين يدى المتوكل والمغنون يغنون قد أقبل الاصلع البطين خليفة المسلمين يريدون بذلك علىّ بن أبى طالب فانه كان كذلك والمتوكل يشرب ويضحك ففعل ذلك يوما والمنتصر حاضر فأومأ الى عبادة يتهدده فسكت عبادة خوفا منه فقال المتوكل ماحالك ياعبادة فقام وأخبره فقال المنتصر ياأمير المؤمنين ان الذى يحكيه هذا الكلب ويضحك منه الناس انما هو ابن عمك وشيخ أهل بيتك وبه فخرك فكل أنت لحمه اذا شئت ولاتطعم هذا الكلب وأمثاله منه فقال المتوكل للمغنين غنوا جميعا

غار الفتى لابن عمه * رأس الفتى فى حرامه

قيل فكان ذلك من الاسباب التى استحل بها المنتصر قتل المتوكل وقيل ان الذى أغراه على بغض علىّ وأهل بيته انما هم جماعة ممن اشتهروا بالتعصب والبغض لعلى * قال صاحب الكامل منهم علىّ بن الجهم الشاعر الشامى من بنى شامة بن لؤى وعمرو بن فرخ الرخجى وأبو السمط من ولد مروان بن أبى حفصة من موالى بنى أمية وعبد الله بن محمد بن داود الهاشمى المعروف بابن أترجة وكانوا يخوفونه من العلويين ويشيرون عليه بابعادهم والاعراض عنهم والاساءة اليهم ثم حسنوا له الوقيعة فى أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم فى الدين ولم

يبرحوا به حتى ظهر منه ما كان فغطت هذه السيئة جميع حسناته وكان من أحسن الناس سيرة ومنع الناس من القول بخلق القرآن الى غير ذلك من المحاسن اه

وفى خلافة المتوكل جاءت الروم الى دمياط فى ثلثمائة مركب حربية مع ثلاثة من كبار البحر وأرسوا على مقربة من دمياط واتفق قبل وصولهم أن عنبسة بن اسحق الضبى الذى كان يومئذ على معونة مصر لما حضر العيد أرسل فى طلب جميع الجند الذين بدمياط الى مصر فساروا منها فجاءها الروم وهى خالية فدخلوها وأعملوا فى أهلها القتل وأحرقوا وسبوا ودمروا جامعها وأخذوا مابها من سلاح وكراع وغيرذلك وسبوا من النساء المسلمات والمسيحيات زهاء ستمائة امرأة وأوقروا سفنهم من ذلك وكان عنبسة قد حبس بشر بن الاكشف بدمياط لامر نقمه عليه فلما أحس بشر بدخول الروم الى البلد كسر قيوده وخرج فقاتلهم وتبعه فى ذلك جماعة وسارت الروم الى اشتوم (تنيس) وكان عليه سور وبابان من حديد قد بناه المعتصم فى خلافته فنهبوا مافيه من السلاح والمتاع وأخذوا البابين وأقبلوا راجعين ولم ينل منهم أحدا * وفى خلافته قامت الفتنة بين البجاة أهل النوبة وأهل مصر وقد كان بينهما هدنة من أيام الفتح وكان فى بلاد البجاة معادن الذهب يؤدون منها الخمس الى مصر فامتنعوا أيام المتوكل وقاموا على من كان من أهل مصر بتلك المعادن فقتلوه فكتب صاحب البريد بذلك الى المتوكل فاستشار فى غزوهم فقالوا له انهم أهل ابل وشاء وان بين بلادهم وبلاد المسلمين مسيرة شهر ولابد فيها من الزاد وان فنيت الازواد هلك الجند فأمسك عنهم وخاف أهل الصعيد من شرهم فولى المتوكل محمد بن عبدالله القمى على اسوان وقفط والاقصر واسنا وأرمنت وأمره بحرب البجاة وكتب الى عنبسة بن اسحق الضبى عامل مصر يومئذ بتجهيز العساكر معه فسيره فى عشرين ألفا من الجند والمتطوعة وحملت المراكب من القلزم دقيقا وتمرا وأدما الى سواحل بلاد البجاة فلما انتهوا الى حصونهم وقلاعهم زحف عليهم ملكهم واسمه على بابا فى أضعاف جند القمى على المهارى وطاول على بابا عسكر القمى كى تفنى أزوادهم فيهلكون بلا حرب ولا قتال فلما جاءت المراكب بالمؤنة وفرق القمى فى أصحابه ناجزهم البجاة الحرب وكانت ابلهم نفورة فأمر القمى جنده باتخاذ الاجراس بخيلهم ثم حملوا عليهم فانهزموا وأثخن فيهم قتلا حتى استأمنوا على أداء الخراج عما مضى ولما يأتى

وكانت أيام المتوكل أحسن الايام وأنضرها من استقامة الملك وشمول الناس بالامن والعدل ولم يكن المتوكل يوصف فى عطائه وبذله بالجود ولا بتركه وامساكه بالبخل ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بنى العباس ظهر فى مجلسه اللعب والمضاحك والهزل مما قد استفاض فى الناس تركه الا المتوكل فانه السابق الى ذلك والمحدث له وأحدث أشياء من نوع ماذكر اتبعه فيها الكثير من خواصه وأكثر رعيته فلم يكن فى وزرائه والمتقدمين من كتابه وقواده من يوصف بجود أو افضال أويتعالى عن مجون وطرب وكان الفتح بن خاقان

التركى مولاه أغلب الناس عليه وأقربهم منه وأكثرهم تقدما عنده ولم يكن الفتح المذكور مع هذه المنزلة من الخلافة ممن يرجى فضله أو يخاف شره ولما كانت سنة خمس وثلاثين ومائتين هجرية عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة وهم محمد ولقبه المنتصر بالله وأبو عبد الله محمد وقيل طلحة وقيل الزبير ولقبه المعتز بالله وابراهيم ولقبه المؤيد بالله وعقد لكل منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهد والآخر أبيض وهو لواء العمل وأقطع كلا منهم اقطاعا محدودا وطير الاخبار بذلك الى الآفاق فزاد الناس فى تعظيمهم وصارت المواكب تغدو وتروح على أبوابهم

وخرج الجند فى خلافته وكادوا يشقون عصا الطاعة لولا ما استعمله من الدهاء والحيلة قال سعيد بن نكيس كنت واقفا بين يدى المتوكل فى مضربه بدمشق اذ سمعت الجند واجتمعوا وضجوا يطلبون الأعطية ثم خرجوا الى تجريد السلاح والرمى بالنشاب وأقبلت أرى السهام ترتفع فى الرواق فقال لى يا أبا سعد ادع لى رجاء الحضارى فدعوته فقال له يا رجاء أما ترى ما خرج اليه هؤلاء فما الرأى عندك فقال يا أمير المؤمنين قد كنت مشفقا فى هذا السفر من مثل هذا فاشرت بما أشرت من تأخيره فقال المتوكل اليه وقال دع ما مضى وقل الآن مما حضر برأيك فقال يا أمير المؤمنين لتوضع الأعطية فقال له فهذا ما أرادوا وفيه مع ما خرجوا اليه ما يعلم قال يا أمير المؤمنين مر بهذا فان الرأى بعده فأمر عبد الله بن يحيى بوضع الأعطية فيهم فلما خرج المال وبدئ بانفاقه دخل رجاء فقال مر الآن يا أمير المؤمنين بضرب الطبل للرحيل الى العراق فانهم لا يأخذون مما أخرج اليهم شيأ ففعل ذلك فترك الناس الاعطية حتى ان المعطى ليتعلق بالرجل ليعطيه رزقه فلا يأخذه * قال سعيد وقد كان الاتراك رأوا انهم يقتلون المتوكل بدمشق وكان حالا بها فلم يمكنهم فيه حيلة بسبب بغا الكبير فدبروا فى ابعاده عنه وطرحوا فى مضرب المتوكل وهو بدمشق الرقاع يقولون فيها ان بغا دبر أن يقتل أمير المؤمنين والعلامة فى ذلك أن يركب فى يوم كذا فى خيله ورجله فيأخذ عليه أطراف عسكره ثم يأخذ جماعة من الغلمان العجم يدخلون عليه فيفتكون به فقرأ المتوكل الرقاع فبهت مما تضمنته ودخل فى قلبه من بغا كل مدخل وشكا الى الفتح ذلك وقال له فى أمر بغا والاقدام عليه وشاوره فى ذلك فقال يا أمير المؤمنين ان الذى كتب الرقاع قد جعل للامر دلائل فى وقت بعينه من ركوب الرجل الاطراف من العسكر وتوكيله بنواحيه فبعد ذلك يتبين الأمر وأنا أرى أن تمسك فان صح هذا الدليل نظرنا كيف نفعل وان بطل ما كتب به فالحمد لله وأقبلت بعد ذلك الرقاع تطرح فى كل وقت على جهة النصح والصدق فلما علموا بما علم به الخليفة وتمكن به ما عندهم من الأمر كتبوا رقاعا فطرحوها فى مضرب بغا يقولون فيها ان جماعة من الغلمان والاتراك قد عزموا على الفتك بالخليفة فى عسكره ودبروا ذلك واتفقوا عليه وتعاقدوا على أن يأتوه من نواحى كذا ونواحى كذا فالله الله الا ما احترست لامير المؤمنين وحرسته فى هذه الليلة من هذه المواضع

وحصنتها بنفسك ومن تثق به فانا قد نصحنا وصدقنا وأكثروا طرح الرقاع بهذا المعنى والتوكيد فى حراسة الخليفة فلما وقف بغا عليها وتتابعت عليه لم يأمن أن يكون ما كتب اليه فيها حقا مع ما كان وقف عليه من الامر قبل ذلك فلما كانت الليلة التى ذكروها جمع جيوشه وأمرهم بالركوب بالسلاح وركب بهم الى المواضع التى ذكرت فأخذها على المتوكل وحرسها واتصل الخبر بالمتوكل فلم يشك أن ما كتب له حق فأقبل يتوقع من يوافيه فيفتك به وسهر ليلته وامتنع عن الأكل والشرب فلم يزل على تلك الحال الى الغداة وبغا يحرسه والأمر عند المتوكل على خلاف ذلك وقد اتهم بغا واستوحش من فعله فلما عزم المتوكل على الانصراف قال له يابغا قد أبت نفسى مكانك منى ورأيت أن أقلدك هذا الصقع وأقر عليك ما كان لك من رزق وجاه ونزل ومعونة وكل سبب فقال أنا عبدك ياأمير المؤمنين فافعل ماشئت وأمرنى بما أحببت فخلفه بالشام وانصرف فاحدث الموالى عليه ماأحدثوا فلم يعلم المتوكل وجه الحيلة ولم يعرف كل واحد منهما الحيلة فى ذلك الى أن تمت الحيلة وذلك انه لما عزم بغا الصغير على قتل المتوكل دعا بباغر التركى وكان قد اصطنعه واتخذه وملأ عينه من الصلات وكان مقداما أهوج فقال له ياباغر أنت تعلم محبتى لك وتقديمى اياك وايثارى لك واحسانى عليك وانى قد صرت عندك فى حد من لا يعصى له أمر ولا يخرج عن محبسه وأريد أن آمرك بشئ فعرفنى كيف قلبك فيه فقال أنت تعلم كيف أفعل فقل لى كيف شئت حتى أفعله قال ان ابنى فارسا قد أفسد على عملى وعمل على قتلى وسفك دمى وقد صح عندى ذلك منه قال فتريد منى ماذا قال أريد أن يدخل على غدا فالعلامة بيننا أن أضع قلنسوتى فى الارض فاذا أنا وضعتها فى الارض فاقتله قال نعم ولكن أخاف أن يبدو لك أو تجد فى نفسك على قال قد آمنك الله من ذلك فلما دخل فارس حضر باغر ووقف موقف الضارب فلم يزل يراعى بغا أن يضع قلنسوته فلم يفعل وظن أنه نسى فغمزه بعينه أى افعل قال لا فلما لم ير العلامة وانصرف فارس قال له بغا اعلم أنى فكرت فى أنه حدث وانه ولدى وقد رمت أن أستخلصه هذه المرة فقال له باغر أنا قد سمعت وأطعت وأنت أعلم وما دبرت وقدرت عليه فيه صلاحه ثم قال له وههنا أمر أكبر من ذلك وأهم فعرفنى كيف تريد أن تكون فيه قال له قل ماشئت حتى أفعله قال أخى وصيف قد صح عندى أنه يدبر على وعلى رفقائى وان مكاننا قد ثقل عليه وانه عول على أن يقتلنا ويفنينا وينفرد بالامر قال فماذا تريد أن يصنع به قال افعل هذا فانه يصير الى غدا فالعلامة أن أنزل عن المصلى الذى يكون معى قاعدا عليه فاذا رأيتنى نزلت عنه فضع سيفك عليه واقتله قال نعم فلما صار وصيف الى بغا حضر باغر وقام مقام المستعد فلم ير العلامة حتى قام وصيف وانصرف قال فقال له بغا ياباغر انى فكرت فى أنه أخى وانى قد عاقدته وحلفت له فلم أستجرئ أن أفعل مادبرته ووصله وأعطاه ثم أمسك عنه مدة مديدة ودعابه فقال ياباغر قد حضرت حاجة أكبر من الحاجة التى قدمتها فكيف قلبك قال قلبى على ما تحب فقل ماشئت حتى أفعله فقال هذا المنتصر قد صح عندى أنه على ايقاع التدبير

عليّ وعلى غيري حتى يقتلنا وأريد أن أقتله فكيف ترى نفسك فى ذلك ففكر باغر فى ذلك ونكس رأسه وقال هذا لايجيء منه شئ قال وكيف قال يقتل الابن والأب باق اذن لايستوى لكم شئ ويقتلكم أبوه كلكم به قال فما ترى عندك قال نبدأ بالاب أوّلا فنقتله ثم يكون أمر الصبي أيسر من ذلك فقال له ويحك ويفعل هذا ويتهيأ قال نعم أفعله وأدخل عليه حتى أقتله فجعل يردد عليه فيقول لاتفعل غير هذا ثم قال له فادخل أنت فى أثرى فان قتلته والا فاقتلنى وضع سيفك عليّ وقل أراد أن يقتل مولاه فعلم بغا حينئذ أنه قاتله وتوجه له فى التدبير فى قتل المتوكل وكانت الوحشة قائمة بين المتوكل وابنه المنتصر على ما تقدم بيانه فعمل المنتصر مع بغا على قتل أبيه المتوكل والتخلص منه فبينما المتوكل فى قصره يشرب مع ندمائه وقد سكر اذ دخل عليه بغا الصغير وأمر الندماء بالانصراف ولم يبق عنده الا الفتح ابن خاقان فاذا الغلمان الذين عينهم المنتصر لقتله قد دخلوا عليه وبأيديهم السيوف فهجموا فقال الفتح بن خاقان ويلكم أمير المؤمنين ثم رمى بنفسه عليه فقتلوهما معا ثم خرجوا الى المنتصر فسلموا عليه بالخلافة * ذكر عن عليّ بن يحيي المنجم أنه قال كنت أقرأ على المتوكل قبل قتله بأيام كتابا من كتب الملاحم فوقفت على موضع فيه ان الخليفة العاشر يقتل فى مجلسه فتوقفت من قراءته فقال مالك فقلت خير قال لابد من أن تقرأه فقرأته وحدث عن ذكر الخلفاء فقال ليت شعرى من هذا الشقى المقتول * قال أبو الوارث قاضى نصيبين رأيت فى النوم آتيا وهو يقول

يانائم العين فى جثمان يقظان * مابال عينك لاتبكى بتهتان

أما رأيت صروف الدهر مافعلت * بالهاشميّ وبالفتح بن خاقان

فأتى البريد بعد أيام بقتلهما * وكان قتل المتوكل فى شوال سنة سبع وأربعين ومائتين للهجرة وعمره نحو أربعين سنة وكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام وكان أسمر رقيقا مليح العينين خفيف اللحية ليس بالطويل فيه قصف وانهماك على اللهو والمفاكهة ولكنه أحيا السنة وأمات بدعة القول بخلق القرآن وكان قد عزم على خلع ولده المنتصر من ولاية العهد وتقديم ابنه المعتز عليه لفرط محبته لامه وأخذ يؤذيه ويتهدده ان لم يخلع نفسه واتفق مصادرته لوصيف وبغا فعملا مع المنتصر على قتله كما تقدم * حدث البحترى قال اجتمعنا ذات يوم مع الندماء فى مجلس المتوكل فتذاكرنا أمر السيوف فقال بعض من حضر بلغنى ياأمير المؤمنين أنه وقع عند رجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له مثيل فأمر المتوكل بكتاب الى عامله بالبصرة يطلبه بشرائه بما يبلغ فنفذت الكتب على البريد وورد جواب عامل البصرة ان السيف اشتراه رجل من أهل اليمن فأمر المتوكل بالبعث الى اليمن يطلب السيف وابتياعه فنفذت الكتب بذلك قال البحترى فبينما نحن عند المتوكل اذ دخل عليه عبيد الله والسيف معه وعرّفه أنه ابتيع من صاحبه باليمن بعشرة آلاف درهم فسرّ بوجوده وحمد الله على ما سهل من أمره واقتضاه فاستحسنه وتكلم كل واحد منا بما يحب وجعله تحت

ثنى فراشه فلما كان من الغداة قال للفتح اطلب لى غلاما تثق بشجاعته ونجدته أدفع له هذا السيف ليكون واقفا به على رأسى لايفارقنى فى كل يوم ما دمت جالسا قال فلم يستتم الكلام حتى أقبل باغر التركى فقال الفتح ياأمير المؤمنين هذا باغر التركى قد وصف لى بالشجاعة والبسالة وهو يصلح لما أراده أمير المؤمنين فدعا به المتوكل فدفع اليه السيف وأمره بما أراد وقدّم أن يزاد فى مرتبه وأن يضعف له الرزق قال البحترى فوالله ماانتضى ذلك السيف ولا خرج من غمده من الوقت الذى دفع اليه الافى الليلة التى ضربه فيها باغر به قال ولقد رأيت من المتوكل فى الليلة التى قتل فيها عجبا وذلك أننا تذاكرنا أمر الكبر وما كانت تستعمله الملوك من الجبروت فجعلنا نخوض فى ذلك وهو يتبرأ منه ثم حوّل وجهه الى القبلة فسجد وعفر وجهه بالتراب خضوعا لله عز وجل ثم أخذ من ذلك التراب فنثره على لحيته ورأسه وقال انما أنا عبد الله وان من صار الى التراب لحقيق أن يتواضع ولا يتكبر قال البحترى فتطيرت له من ذلك وأنكرت مافعله من نثر التراب على رأسه ولحيته ثم قعد للشراب فلما عمل فيه غنى من حضره من المغنين صوتا استحسنه ثم التفت الى الفتح فقال يافتح مابقى أحد سمع هذا الصوت من مخارق غيرى وغيرك ثم أقبل على البكاء قال البحترى فتطيرت من بكائه وقلت هذه ثانية فانا فى ذلك اذ أقبل خادم من خدم قبيحة ومعه منديل وفيه خلعة وجهت بها اليه قبيحة فقال له الرسول ياأمير المؤمنين تقول لك قبيحة انى استعملت هذه الخلعة لأمير المؤمنين واستحسنتها ووجهت بها لتلبسها قال فاذافيه دراعة حمراء لم أر مثلها قط ومطرف خز أحمر كأنه دبيق من رقته قال فلبس الخلعة والتحف المطرف قال فانى على ذلك اذ تحرك المتوكل فيه وقد كان التف عليه المطرف فجذبه جذبة فخرقه من طرفه الى طرفه قال فأخذه ولفه ودفعه الى خادم قبيحة الذى جاءه بالخلعة وقال قل لها احتفظى بهذا المطرف عندك ليكون كفنا لى عند وفاتى فقلت فى نفسى انا لله وانا اليه راجعون انقضت والله المدة قال وسكر المتوكل سكرا شديدا وكان من عادته أنه اذا تمايل عند سكره أن يقيمه الخدم الذين عند رأسه فبينما نحن كذلك ومضى من الليل ثلاث ساعات اذأقبل باغر ومعه عشرة نفر من الاتراك وهم متلثمون والسيوف فى أيديهم تبرق فى ضوء تلك الشموع فهجموا علينا وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر وآخر معه من الاتراك على السرير فصاح بهم الفتح ويلكم مولاكم فلما رآهم الغلمان ومن كان حاضرا من الجلساء والندماء تطايروا على وجوههم فلم يبق أحد فى المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمانعهم قال البحترى فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف الذى كان المتوكل دفعه اليه على جانبه الايمن فقدّه الى خاصرته ثم ثناه على جانبه الايسر ففعل مثل ذلك وأقبل الفتح يمانعهم عنه فبعجه واحد منهم بالسيف الذى كان معه فى بطنه فأخرجه من متنه وهو صابر لاينتحى ولايزول قال البحترى فما رأيت أحدا كان أقوى نفسا ولاأكرم منه ثم طرح بنفسه على المتوكل فماتا جميعا فلفا فى البساط الذى قتلا فيه وطرحا ناحية فلم يزالا على حالتهما فى ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت

الخلافة للمنتصر فأمر بهما فدفنا جميعا وقيل ان قبيحة كفنته بذلك المطرف الممزق بعينه اه
وكان أوتامش غلام الواثق مع المنتصر فكان المتوكل يبغضه لذلك وكان بغا الصغير توحش من المتوكل فكان المنتصر يجتذب قلوب الاتراك اليه وأوتامش يساعده على ذلك وكان عبيدالله ابن خاقان الوزير والفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر مائلين الى المعتز بن المتوكل وكانا قد أوغرا قلب المتوكل على ولده المنتصر فكان المتوكل لايبعد أحدا من الاتراك الا اجتذبه المنتصر اليه حتى استمال قلوب الاتراك وكثير من الفراغنة والاشروسية الى أن كان من الامر ماتقدم وقال البحترى فى غدر المنتصر بأبيه وفتكه به من قصيدة له

أكان ولىّ العهد أضمر غدره * فمن عجب أن ولى العهد غادره
فلا ملك الباقى تراث الذى مضى * ولا حملت ذاك الدعاء منابره

واستعمل المتوكل على مصر فى خلافته هرثمة بن النضر الجبلى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ثم ولى ابنه حاتم فى السنة فأقام شهرا وصرف ثم ولى على بن يحيى سنة أربع وثلاثين وصرف ثم ولى أخوه اسحق بن يحيى الجبلى سنة خمس وثلاثين ثم ولى عبد الواحد بن يحيى مولى خزاعة سنة ست وثلاثين ثم ولى عنبسة بن اسحق الضبى سنة ثمان وثلاثين ثم عزله وولى يزيد بن عبدالله من الموالى سنة اثنتين وأربعين وبقى الى خلافة المعتز بالله فعزله وولى مكانه من سيأتى ذكرهم فى محله ان شاء الله

ومات فى خلافة المتوكل يوساب بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثمان عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة وفى أيام يوساب هذا قدم الى مصر يعقوب مطران الحبشة وقد كانت نفته زوجة النجاشى لامر نقمته عليه وأقاموا عوضه أسقفا آخر فبعث النجاشى يطلب من البطرك اعادته وشدد فى ذلك فبعث به اليه وبعث أيضا عدة أساقفة الى افريقية وفى أيامه مات بطرك أنطاكية الذى كان قدم الى مصر فى السنة الخامسة عشرة من بطريكيته وفى أيامه أيضا أى فى سنة خمس وثلاثين ومائتين أمر المتوكل الخليفة أهل الذمة يعنى القبط بلبس الطيالسة العسلية وشد الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب وعمل كرتين فى مؤخر السرج وعمل رقعتين على لباس الرجال مخالفة للون الثوب قدر كل واحدة منهما أربع أصابع ولون كل واحدة منهما غير لون الاخرى ومن خرجت من النساء لبست ازارا عسليا * ولم يقف المتوكل عند هذا الحد من الشدة والجبروت حتى منعهم أيضا من لبس المناطق وهدم البيع المحدثة ورسم بأخذ العشر من المنازل وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب ونهى أن يستعان بهم فى أعمال السلطان وأن لا يعلم أحد منهم مسلما وكانوا يومئذ هم أصحاب المعارف والعلوم على اختلافها وأن لايظهروا فى عيد الشعانين صليبا ولاأن يشعلوا فى الطريق نارا وأن تسوى قبور موتاهم بالارض حتى لايظهر لها رسم وكتب بذلك جميعه الى الآفاق ولما كانت سنة تسع وثلاثين ومائتين هجرية أمر أيضا بأن يلبس الرجل منهم دراعتين عسليتين على الدراريع والاقبية وبالاقتصار فى مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين

وغير ذلك من صنوف الشدائد والبلايا مما لايسعنا ايراده هنا * ولما مات يوساب البطرك في خلال هذه المحن والبدع الغريبة خلا الكرسي بعده ثلاثين يوما ثم أقيم قسيس بدير بوحنس اسمه ميخائيل وهو المعروف أيضا بخائيل ثالث خمسيهم وأصله راهب بالدير المذكور وكان من الحوادث في أيامه ماسيذكر في محله

(الفصل الحادي عشر)

(في خلافة محمد المنتصر بالله)

ثم قام بالامر بعد المتوكل ابنه محمد المنتصر بويع بالخلافة في الليلة التي قتل فيها أبوه وبويع له من الغد البيعة العامة وذلك في شهر شوال سنة سبع وأربعين ومائتين للهجرة أي نحو سنة احدى وستين وثمانمائة للميلاد فلم تطل مدته ولم يتمتع بالملك وكانت بيعته بالقصر المعروف بالجعفري الذي أحدث بناءه المتوكل وهو ابن خمس وعشرين سنة وقيل ست وعشرين

ذكر عن أبي عثمان سعيد الصغير أنه قال * لما كانت الليلة التي قتل فيها المتوكل كنا في الدار مع المنتصر فكان كلما خرج الفتح خرج معه واذا رجع قام لقيامه واذا ركب أخذ بركابه وسوى عليه ثيابه في سرجه وكان اتصل بنا الخبر أن عبيد الله بن يحيي قد أعد قوما في طريق المنتصر ليغتالوه عند انصرافه وكان المتوكل قد أسمعه وأحفظه ووثب عليه فانصرف غضبان وانصرفنا معه الى داره وكان واعد الاتراك على قتل المتوكل اذا ثمل من النبيذ قال فلم ألبث اذ جاءني رسوله أن احضر فقد جاءت رسل أمير المؤمنين الى الأمير ليركب قال فوقع في نفسي ما كنا سمعنا من اغتيال المنتصر فركبت في سلاح وعدة وجئت باب المنتصر فاذاهم يموجون واذا واجن قد جاءه فأخبره أنهم قد فرغوا من المتوكل فركب فلحقته في بعض الطريق وأنا مرعوب فرأى مني ذلك فقال ليس عليك بأس أمير المؤمنين قد شرق بقدح شربه فمات رحمه الله تعالى فشق علينا ومضينا ومعنا أحمد بن الخصيب وجماعة من القواد حتى دخلنا القصر ووكل بالأبواب فقلت له يا أمير المؤمنين لا ينبغي أن تفارقك مواليك في هذا الوقت قال أجل وكن أنت خلف ظهري فأحطنا به وبايعه من حضر وكل من جاء يوقف حتى جاء سعيد الكبير فأرسله خلف المؤيد وقال امض أنت الى المعتز حتى يحضر فأرسلني فمضيت وأنا آيس من نفسي ومعي غلامان لي فلما صرت الى باب المعتز لم أجد به أحدا من الحرس والبوابين فصرت الى الباب الكبير فدققته دقا عنيفا فأجبت بعد مدة من أنت فقلت رسول أمير المؤمنين المنتصر فمضى الرسول وأبطأ وخفت وضاقت علي الأرض ثم فتح الباب وخرج بيدون

الخادم وأغلق الباب ثم سألنى عن الخبر فأخبرته أن المتوكل شرق بكأس شربه فمات لساعته وأن الناس قد اجتمعوا وبايعوا المنتصر وقد أرسلنى لأحضر الأمير المعتز ليبايع فدخل ثم خرج فأدخلنى على المعتز فقال لى ويلك ما الخبر فأخبرته وعزيته وقلت تحضر وتكون فى أول من يبايع وتأخذ بقلب أخيك فقال حتى نصبح قال فما زلت به أنا و بيدون حتى ركب وسرنا وأنا أحدثه فسألنى عن عبيد الله بن يحيى فقلت هو يأخذ البيعة على الناس والفتح قد بايع فأيس وأتينا باب الخير ففتح لنا وصرنا الى المنتصر فلما رآه قربه وعانقه وعزاه وأخذ البيعة عليه ثم وافى سعيد الكبير بالمؤيد ففعل به مثل ذلك فأصبح الناس وأمر المنتصر بدفن المتوكل والفتح ولما أصبح الناس شاع الخبر فى الماخورة وهى مدينة المتوكل وفى أهل سامرا بقتل المتوكل فتوافى الجند والشاكرية بباب العامة والجعفرية وغيرهم من الغوغاء والعامة وكثر الناس وتسامعوا وركب بعضهم بعضا وتكلموا فى أمر البيعة فخرج اليهم عتاب بن عتاب وقيل زرافة فوعدهم عن أمير المؤمنين المنتصر فأسمعوه فدخل عليه فأعلمهم فخرج المنتصر وبين يديه جماعة من المغاربة فصاح بهم وقال خذوهم فدفعوهم فتفرقوا وقد مات منهم ستة أنفس

ولما استقام له أمر الخلافة اجتمع أحمد بن الخصيب ووصيف وبغا وهم يومئذ أصحاب الرأى فى دولة المنتصر بالله وتآمروا على خلع المعتز والمؤيد ابنى المتوكل من ولاية العهد خوفا منهما لامور كانت بينهم وتعاهدوا على ذلك ووكلوا جماعة الاتراك بالعمل فجدّوا فى ذلك وألحوا على المنتصر وقالوا لابد من خلعهما من الخلافة ومبايعة ولدك عبد الوهاب ولم يزالوا به حتى أجابهم وسير الى المعتز والمؤيد من أحضرهما بعد أربعين يوما من خلافته وجعلا فى دار فأحس المعتز بما وراء ذلك وعلم أنهم انما أتوابهما للخلع فكلم أخاه المؤيد فى ذلك فقال المؤيد لا أظن أن أمير المؤمنين يفعل ذلك فبينماهما على هذا الحال اذ دخل عليهما جماعة من قواد المنتصر يطلبون منهما الخلع فقال المؤيد السمع والطاعة وقال المعتز لا أخلع نفسى أبدا فان أردتم القتل فشأنكم فأعلموا الخليفة بذلك ثم عادوا وهم أشدّ مما كانوا عليه وقالوا لابد من الخلع وقبضوا على المعتز بعنف وأدخلوه بيتا وأغلقوا عليه الباب فلما رأى المؤيد ذلك خشى العاقبة وصاح فى وجوههم ويلكم يا كلاب تفعلون بمولاكم هذه الفعال خلوا عنه ودعونى واياه حتى أكلمه فسكتوا عنه وسألوا المنتصر فى ذلك فأذن له فدخل عليه المؤيد وقال يا جاهل كيف تأبى الخلع وأنت تعلم أنهم نالوا من أبيك وهو هو ما نالوا ويحك لا تراجعهم فقال المعتز وكيف أخلع وقد جرى فى الآفاق فقال هذا الامر كان سبب قتل أبيك وهو يقتلك لا محالة فان كان فى سابق علم الله أنك تلى الخلافة يوما لتلين فقال أفعل فخرج المؤيد وقال قولوا لأمير المؤمنين انه أجاب الى الخلع فذهبوا وعادوا ومعهم كاتب فجلس وقال للمعتز اكتب بخطك خلعك فامتنع فقال المؤيد للكاتب هات قرطاسك أملل علىّ ماشئت فأملى عليه كتابا الى المنتصر يعلمه فيه ضعفه عن هذا الامر وأنه لا يحل له أن يتقلده وكره أن

يأتم المتوكل بسببه اذ لم يكن موضعا له ويسأله الخلع ويعلمه أنه قد خلع نفسه وأحل الناس من بيعته ثم ناول الورقة المعتز وقال له اكتب فأبى فقال اكتب ويلك فكتب وخرج الكاتب عنهما فلم يكن بأسرع من أن دعاهما المنتصر فدخلا عليه فأجلسهما وقال هذا كتابكما فقالا نعم يا أمير المؤمنين فقال لهما وطوائف الترك وقوف بين يديه أترانى خلعتكما طمعا فى أن أعيش حتى يكبر ولدى وأبايع له والله ماطمعت فى ذلك ساعة قط واذا لم يكن لى فى ذلك طمع فوالله لأن يليها بنو أبى أحب الىّ من أن يليها بنو عمى ولكن هؤلاء الترك وأومأ اليهم بين قائم وقاعد ألحوا علىّ فى خلعكما وشددوا فى ذلك فخفت ان لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتى عليكما فما ترانى صانعا اذن أقتله فوالله ماتفى دماؤهم كلهم بدم بعضكم فكانت اجابتهم الى ماسألوا أسهل علىّ وأقرب الى المصلحة فقبلا يده فضمهما الى صدره ثم انهما أشهدا على أنفسهما القضاة وبنى هاشم والقواد ووجوه الناس وغيرهم بالخلع وكتب بذلك المنتصر الى محمد بن عبد الله بن طاهر والى غيره * حكى عن أبى العباس محمد بن سهل قال كنت أكتب لعتاب بن عتاب على ديوان جيش الشاكرية فى خلافة المنتصر فدخلت الى بعض الاروقة فاذا هو مفروش ببساط سوسجرد ومسند ومصلى ووسائد بالحمرة والزرقة وحول البساط دارات فيها أشخاص ناس وكتابة بالفارسية وكنت أحسن القراءة بالفارسية واذا عن يمين المصلى صورة ملك وعلى رأسه تاج كانه ينطق فقرأت الكتابة فاذا هى صورة شيرويه القاتل لابيه ابرويز الملك ملك ستة أشهر ثم رأيت صور ملوك شتى ثم انتهى بى النظر الى صورة عن يسار المصلى عليها مكتوب صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك قاتل ابن عمه الوليد بن يزيد ابن عبد الملك ملك ستة أشهر فعجبت من ذلك واتفاقه عن يمين مقعد المنتصر وعن شماله فقلت لاأرى أنه يدوم ملكه أكثر من ستة أشهر فكان والله كذلك فخرجت من الرواق الى مجلس وصيف وبغا وهما فى الدار الثانية فقلت لوصيف أعجز هذا الفراش أن يفرش تحت أمير المؤمنين الا هذا البساط الذى عليه صورة يزيد بن الوليد قاتل ابن عمه وصورة شيرويه قاتل أبيه ابرويز وعاشا ستة أشهر بعد ماقتلا فجزع وصيف من ذلك وقال علىّ بأيوب بن سليمان النصرانى خازن الفرش فمثل بين يديه فقال له وصيف لم تجد مايفرش فى هذا اليوم تحت أمير المؤمنين الا هذا البساط الذى كان تحت المتوكل ليلة الحادثة وعليه صورة ملك الفرس وغيره وقد كان ناله آثار الدماء قال سألنى أمير المؤمنين المنتصر عنه وقال مافعل البساط فقلت عليه آثار دماء فاحشة وقد عزمت أن لاأفرشه من ليلة الحادثة فقال لم لاتغسله وتطويه فقلت خشيت أن يشيع الخبر عند من يرى ذلك البساط من أثر الحادثة فقال ان الامر أشهر من ذلك يريد قتل الاتراك لابيه المتوكل فطويناه وبسطناه تحته فقال وصيف وبغا اذا قام أمير المؤمنين من مجلسه فخذه وأحرقه بالنار فلما قام أحرق بحضرة وصيف وبغا فلما كان بعد أيام قال المنتصر لايوب بن سليمان افرش ذلك البساط فقال وأين ذلك البساط فقال وماالذى كان من أمره قال ان وصيفا وبغا أمرانى باحراقه فسكت المنتصر ولم يعد فى أمره

شيا

شيأ الى أن مات * وكان خلع المنتصر لاخويه المعتز وابراهيم من ولاية العهد بعده فى سنة ثمان وأربعين ومائتين هجرية وقد كان المتوكل أخذ لهم العهد فى كتب كتبها وشروط اشترطها وأفرز لكل واحد منهم جزأ من الاعمال رسمه له وجعل ولى عهده والتالى للملكه محمدا المنتصر وتالى المنتصر وولى عهده المعتز وتالى المعتز وولى عهده ابراهيم المؤيد وأخذت البيعة على الناس بذلك وفرق فيها أموالا وعم الناس بالجوائز والصلات وتكلم فى ذلك الخطباء ونطقت به الشعراء وكان من الاعمال المشهورة فلم تلبث أن زالت وانطوى خبرها وخرج فى أيام المنتصر بناحية اليمن والبوازيج والموصل أبو العمود الشادى فحكم واشتد أمره فيمن انضاف اليه من المحكمة من ربيعة وغيرهم من الاكراد فسرح اليه المنتصر جيشا عليهم سما التركى فكانت له مع الشادى حروب فأسر الشادى وأتى به المنتصر فجاد عليه بالعفو وأخذ عليه العهد وخلى سبيله * أخبر أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد قال رأى بعض الكتاب فى المنام فى الليلة التى استخلف فى صبيحتها المنتصر كأن قائلا يقول

هذا الامام المنتصر * والملك الحادى عشر

وأمره اذا أمر * كالسيف مالاقى بتر

وطرفه اذا نظر * كالدهر فى خير وشر

وأظهر المنتصر الانصاف فى الرعية فمالت اليه قلوب الخاصة والعامة مع شدة الهيبة منها له واستوزر أحمد بن الخصيب ثم ندم على ذلك ونفى عبد الله بن خاقان وذلك أن ابن الخصيب ركب ذات يوم فتظلم اليه متظلم بقصة فأخرج رجله من الركاب فزج بها فى صدر المتظلم فقتله فتحدث الناس بذلك وقال بها بعض الشعراء يومئذ * حكى عن أبى العباس أحمد بن محمد بن موسى بن الفرات قال كان أحمد بن الخصيب سيء الرأى فى والده وكان عاملا له فجاءنى مخبر من خدم الخاصة فقال ان الوزير قد ندب لاعمالكم فلانا وقد أمره فى والدك بكل مكروه وأن يصادره على جملة من المال غليظة ذكرها فقعدت وعندى بعض أصدقائنا من الكتاب أبادر بالكتاب الى والدى بذلك فاشتغلت عن جليسى الكاتب فاتكأ على الوسادة وغفا فانتبه مرعوبا وقال قد رأيت رؤيا عجيبة رأيت أحمد بن الخصيب واقفا فى هذا الموضع وهو يقول يموت الخليفة المنتصر الى ثلاثة أيام * قال قلت له الخليفة فى الميدان يلعب بالصولجان وهذه الرؤيا ضرب من البلغم والمرار * وقد قدمنا الطعام فاستتممنا الكلام حتى دخل علينا داخل فقال رأيت الوزير بدار الخاصة غير مسفر الوجه وانى سألت عن سبب ذلك فقيل لى ان الخليفة المنتصر انصرف من الميدان وهو عرق فدخل الحمام ونام فى الباذهنج فضربه الهواء وركبته حمى هائلة فدخل عليه أحمد بن الخصيب فقال ياسيدى أنت متفلسف وحكيم الزمان تنزل من الركوب تعبا فتدخل الحمام ثم تخرج عرقا فتنام فى الباذهنج فقال له المنتصر أتخاف أن أموت رأيت فى المنام البارحة آتيا أتانى فقال لى تعيش خمسا وعشرين سنة فعلمت أن ذلك بشارة فى المستقبل من عمرى وانى أبقى

فى الخلافة هذه المدة قال فمات فى اليوم الثالث فنظروا فاذا هو قد استوفى خمسا وعشرين سنة * وفى رواية ان المنتصر ضربته الريح يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الاول ومات مع صلاة العصر لخمس ليال خلون من ربيع الآخر وصلى عليه أحمد بن محمد المستعين وكان أول خليفة من بنى العباس أظهر قبره وذلك أن أمه حبشية سألت ذلك فأذن لها وأظهرته بسامرا وقيل أيضا ان الطيفورى الطبيب سمه فى مشرط حجمه به وقد كان عزم على تفريق جمع الاتراك فأخرج وصيفا فى جمع كثير الى غزاة الصائفة بطرسوس ونظر يوما الى بغا الصغير وقد أقبل فى القصر وحوله جماعة من الاتراك فأقبل على الفضل بن المأمون فقال قتلنى الله ان لم أقتلهم وأفرق جمعهم بقتلهم المتوكل على الله فلما نظر الاتراك الى مايفعل بهم وما قد عزم عليه وجدوا منه الفرصة وقد شكا ذات يوم حرارة فأراد الحجامة فخرج له من الدم ثلاثمائة درهم لما كان فى المبضع من السم وشرب شربة بعد ذلك فخلت قواه * ويقال ان السم كان فى مبضع الطبيب حين فصده * وذكر ابن أبى الدنيا عن عبد الملك بن سليمان بن أبى جعفر قال رأيت فى نومى المتوكل والفتح بن خاقان وقد أحاطت بهما نار وقد جاء محمد المنتصر فاستأذن عليهما فمنع الوصول ثم أقبل المتوكل علىّ فقال ياعبد الملك قل لمحمد بالكاس الذى سقيتنا تشرب قال فلما أصبحت غدوت على المنتصر فوجدته محموما فواظبت على عيادته فسمعته فى آخر علته يقول عجلنا فعوجلنا فمات من ذلك المرض وذلك فى سنة ثمان وأربعين ومائتين وكانت خلافته ستة أشهر وأياما وعمره ستا وعشرين سنة وقيل خمسا وعشرين وأمه رومية وكان مربوعا سمينا أعين أقنى الانف مليحا مهيبا كامل العقل يحب الخير سخيا أديبا عفيفا وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق وكثرة الانصاف وحسن المعاشرة بما لم يسبقه خليفة الى مثله قيل ولما احتضر أنشد يقول

وما فرحت نفسى بدنيا أخذتها * ولكن الى الرب الكريم مصيرى

وكان محبا لعلى بن أبى طالب وأولاده فأمر الناس بزيارة قبر علىّ والحسين وأمّن العلويين وكانوا فى خوف أيام أبيه وأطلق وقوفهم وردّ لهم كثيرا مما أخذ منهم ومن كلامه والله ماعز ذو باطل ولو طلع القمر من جبينه ولاذل ذو حق ولو اتفق العالم عليه

ومات فى أيامه ميخائيل بطرك المتأصلين بعد أن أقام سنة وقيل سنة وخمسة أشهر ودفن بدير أبو مقار وهو أول بطرك دفن بالدير المذكور فخلا الكرسى بعده أحدا وثمانين يوما ثم أقيم بعده شماس بدير أبو مقار اسمه قسيما وهو قزمان رابع خمسيهم وأصله من مدينة سمنود باقليم الغربية وكان جليل القدر متواضعا ووقع من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(الفصل)

(الفصـــــل الثـــانى عشر)

(فى خلافة أحمـــد المستعين بالله)

ثم قام بالامر بعد المنتصر ابن عمه أحمد المستعين بالله بن محمد المعتصم بويع له بالخلافة ليلة الاثنين لست خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين هجرية أى سنة اثنتين وستين وثمانمائة للميلاد وعمره اذ ذاك ثمان وعشرون سـنة * قال أصحاب التاريخ * لما مات المنتصر اجتمع غلمانه ومواليه ومماليكه وبينهم بغا الصغير وبغا الكبير وأوتامش وغيرهم من كبار المماليك واتفقوا على أن لايولوا الخلافة أحدا من أولاد المتوكل خوفا على أنفسهم من أولاد المتوكل وشدد أحمد بن الخصيب فى ذلك فاستحلفوا قواد الترك والمغاربة والاشروسية على ذلك وأجمعوا على أحمد بن محمد بن المعتصم كى لاتخرج الخلافة من ولد مولاهم المعتصم فبايعوه فى الليلة المذكورة فلما كان يوم الاثنين سار المستعين الى دار العامة فى زىّ الخلافة وسار ابراهيم بن اسحق بين يديه بالحربة واصطف له بعض الجند صفين وحضر الدار أصحاب المراتب العالية من العباسيين والطالبيين وغيرهم فبينما هم على هـذا الحال إذ جاءت صيحة من ناحية الشارع والسوق واذا نحو من خمسين فارسا قالوا انهم من أصحاب محمد بن عبد الله ابن طاهر ومعهم جماعة من أخـلاط الناس والغوغاء والسوقة وشهروا السلاح وصاحوا النفير يامنصور وشـدوا على من كان هناك من الجنـد واختلط بعضهم ببعض فحمل عليهـم الجند فهزموهم حتى أدخلوهم أحـد الدروب وتبعوهم فقتل جماعة من الفريقـين ثم تفرقوا وقد كانت البيعة تمت للمستعين وانصرف من حضر من جماعة الاتراك والهاشميين وغيرهم فدخل الغوغاء والمنتهبة دار العامة فانتهبوا ما كان فى خزانتها من الاسلحة والسـيوف والتروس وغير ذلك فأدركهم بغا فى طائفة من الترك فقتل منهم خلقا وأجلاهم عن الخزانة واشـتد القتال بين الفـريقـين ثم تفرقوا وطـيروا الخـبر بالبيعة الى الآفاق فبايعوا جميعا * ولما قامت الفتنة وخرجت الغوغاء وانتهبوا دار العامـة همّ الاتراك بقتـل المعتز والمؤيد فمنعهم أحمد بن الخصيب من ذلك وأشار بحبسهما فحبسوا فى الجوسق ووكل بهما فلم تتم على ابن الخصيب سنة حتى غضب عليه المستعين واستصفى ماله ومال ولده ونفاه الى اقريطش ثم كادت الامور تعتل ونظام الخلافة يختـل اذ ظهرت الفتنة ببغداد وسامرا وقامت الغوغاء وانضم اليهـم بعض الجنود ففتحوا الحبوس وأخرجوا من بها فبعثوا فى طلبهم طائفـة من الموالى فوثب العـامة بهم فهزموهم فرسم الخليفة بركوب بغا وأوتامش ووصـيف وعامة الترك فقتـلوا من العامة جماعة وصارت العامة تضرب بالاحجار وما زالوا بهم حتى فرقوهم وانقضت الفتنة * واستوزر المسـتعين بالله أبا موسى أوتامش المذكور فعلت كلمتـه واتسعت شهرته وأباح له الخليفـة

التصرف فى بيت المال وأطلق يده فأخذ وادخر والموالى تنظر الى الاموال تؤخذ وهم فى ضيق وشدة فثاروا على أوتامش وانضم اليهم جماعة من العامة وزحفوا اليه وهو فى الجوسق مع المستعين فأراد الهرب فلم يمكنه فاستجار بالمستعين فلم يجره وأقاموا على ذلك يومين ثم دخلوا الجوسق وأخذوا أوتامش فقتلوه وقتلوا كاتبه ونهبوا داره فأخذوا منه أموالا كثيرة وتحفا وثيابا فاخرة فلما قتل أوتامش استوزر المستعين أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد ثم وقعت بين بغا الصغير وأبى صالح المذكور وحشة فهرب أبو صالح الى بغداد واستوزر المستعين محمد بن الفضل الجرجرائى بعده

وظهر بالكوفة أبو الحسن يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن عبد الله بن اسماعيل ابن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب الطيار فخشى المستعين أمره وسير اليه من قتله وحمل رأسه الى بغداد فأمر بصلبه فضج الناس من ذلك لما كان فى نفوسهم من المحبة له لانه استفتح أموره بالكف عن الدماء والتورع عن أخذ شئ من أموال الناس وأظهر العدل والانصاف قيل وكان خروجه لذل نزل به وشدة لحقته ومحنة نالته من المتوكل وطوائف الترك ودخل الناس الى محمد بن طاهر يهنؤنه بالفتح وهم مع ذلك فى ضجر من مقتل أبى الحسن يحيى ودخل عليهم أبو هاشم الجعفرى وهو داود بن القاسم بن اسحق بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بينه وبين جعفر الطيار ثلاثة آباء ولم يكن يعرف فى ذلك الوقت أقعد نسبا فى آل أبى طالب وسائر بنى هاشم وقريش منه وكان ذا زهد وورع ونسك وعلم صحيح العقل سليم الحواس منتصب القامة فقال لابن طاهر ايها يا ابن طاهر وخرج من داره وهو يقول يا بنى طاهر

فذل الحياة وعز الممات * وكلا أراه طعاما وبيلا
فان كان لابد من واحد * فسيرى الى الموت سيرا جميلا

فلما أحس ابن طاهر بما وراء نصب الرأس من قيام الفتنة وخروج الناس أمر بانزالها قال بعض الكتاب وكان قتل يحيى عند الناس من أكبر الكبائر فجزعت عليه النفوس جزعا كثيرا ورثاه القريب والبعيد وحزن عليه الصغير والكبير * ولما كانت سنة تسع وأربعين ومائتين هجرية عقد المستعين لابنه العباس على مكة والمدينة والبصرة والكوفة وعزم على البيعة له ولكن منعه من ذلك صغر سنه فطلب عيسى بن فرخا نشاه وهو وزير المستعين يومئذ من أبى النصر الشاعر أن يقول فى ذلك شعرا يشير فيه بالبيعة له فقال فى ذلك قصيدة طويلة منها هذه الابيات

بك الله حاط الدين وانتاش أهله * من الموقف الدحض الذى مثله يردى
فول ابنك العباس عهدك انه * له موضع واكتب الى الناس بالعهد
فقد كان يحيى أوتى العلم قبله * صبيا وعيسى كلم الناس فى المهد

وخرج

وخرج فى سنة خمسين ومائتين بالرى محمد بن جعفر بن الحسن ودعا للحسن بن زيد صاحب طبرستان وكانت له حروب بالرى مع أهل خراسان من المسودة فأسر وحمل الى نيسابور الى محمد بن عبد الله بن طاهر فمات فى محبسه قبل حتف أنفه * ثم ظهر بها أيضا أى بالرى أحمد بن عيسى بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب ودعا الى الرضا من آل محمد وحارب محمد بن طاهر بالرى وقام معه ناس كثير ثم انهزم عن الرى وسارعنها الى مدينة السلام فدخلها ولم تكد تسكن الفتنة حتى ظهر أيضا بقزوين الكركى وهو الحسن بن اسمعيل بن أحمد بن عبدالله بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وهو من ولد الاوسط وقيل ان اسم الكركى الحسن بن أحمد بن محمد بن اسماعيل بن محمد بن عبدالله بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب فسير المستعين لقتاله جماعة ومعهم موسى وبغا فرحل الكركى الى الديلم ثم وقع فى قبضة الحسن بن زيد الحسنى فأهلكه وخرج كذلك بالكوفة الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب فسرح اليه محمد بن عبد الله بن طاهر جيشا من بغداد فانكشف الحسين واختفى لترك أصحابه له وتخلفهم عنه وذلك سنة احدى وخمسين ومائتين

واشتدّ الخليفة المستعين فى غضون هذه الحوادث على باغر التركى أحد كبار الاتراك الذين فى خدمته لاسباب نعمها عليه لاموضع لايرادها هنا فانقبضت نفس باغر من الخليفة وأصر على قتله وجعل يدبر الحيلة فى ذلك وكاشف جماعة من الترك الذين كانوا معه فى قتل المتوكل على مافى خاطره فوافقوه ومنوه فانكشف الى المستعين أمرهم وماخفى من سرهم فعاجل باغرا وأركب عليه جماعة من خواصه ومواليه فقبضوا عليه وحبسوه فى حمام ثم قتلوه وبلغ الخبر طوائف الترك فوثبوا على اصطبل الخليفة فانتهبوه وركبوا مافيه من الخيول وغيرها وحصروا الجوسق وشددوا فى الحصار فانحدر المستعين الى بغداد فى حراقة ومعه بغا ووصيف وشاهك الخادم وأحمد بن صالح بن شيرزاد ودليل فلما علم الترك بانحداره انعطفوا نحو دار دليل ودور أهله وجيرانه فانتهبوا مافيها ومنعوا الناس من الانحدار الى بغداد وشددوا فى المنع فلم يجسر أحد على الانحدار ثم وصل الى بغداد جميع القواد وكبار الجند وجلة الكتاب والعمال وبنى هاشم وغيرهم فأغضب جماعة الترك فعل المستعين فاختاروا منهم وفدا فدخلوا عليه وألقوا أنفسهم بين يديه وجعلوا مناطقهم فى أعناقهم تذللا وخضوعا وسألوه الصفح عنهم فأغلظ عليهم فى القول وقال انما أنتم أهل بغى وفساد واستقلال للنعم ألم ترفعوا الىّ فى أولادكم فألحقتهم بكم وهم نحو من ألفى غلام وفى بناتكم فأمرت بتصييرهنّ فى عداد المتزوجات وهنّ نحو من أربعة آلاف وغير ذلك كله أجبتكم اليه وأدررت عليكم الارزاق فعملتم آنية الذهب والفضة ومنعت نفسى لذتها وشهوتها وأنتم تزدادون شغبا وفسادا فعادوا وتضرعوا وسألوه العفو فقال قد عفوت فارجعوا الى سامرا وأنظر أنا فى أمرى فانصرفوا آيسين منه وأخبروا من وراءهم بماجرى وزاد بغضهم له وحرضوا بعضهم على خلعه والبيعة للمعتز ولد أخيه وكان هو والمؤيد

فى حبس الجوسق وعليهم من يحرسهم كما تقدم فساروا فى جمع عظيم وأخرجوا المعتز من الحبس وقد طال شعره وتغيرت أحواله فأخذوا من شعره وأصلحوا حاله وبايعوه بالخلافة فأمر للناس برزق عشرة أشهر للبيعة فلم يجدوا من المال مايكفى فأعطوا شهرين وذلك فى يوم الاربعاء لاحدى عشرة ليلة خلت من المحرّم سنة احدى وخمسين ومائتين وركب من ذلك اليوم الى دار العامة فأخذ البيعة على الناس وخلع على أخيه المؤيد وعقد له عقدين أسود وأبيض فكان الاسود لولاية العهد بعده والابيض لولاية الحرمين وتقلدهما وأتت الكتب فى سامرا بخلافة المعتز بالله من سائر الامصار وأرّخت باسم جعفر بن محمد الكاتب وأحدر أخاه أبا أحمد مع عدّة من الموالى لحرب المستعين الى بغداد فكان أول حرب جرت بينهم ببغداد بين أصحاب المعتز والمستعين وهرب محمد بن الواثق الى المعتز بالله ولم تزل الحروب بينهم وبين أهل بغداد للنصف من صفر من هذه السنة واشتدّت الحرب بينهم فكانت أمور المعتز تقوى وحالة المستعين تضعف والفتنة قائمة فلما رأى محمد بن عبدالله بن طاهر ذلك كاتب المعتز وجنح اليه ومال الى الصلح على خلع المستعين وعلمت العامة ببغداد بما قد عزم عليه محمد بن عبدالله من خلع المستعين فثارت منكرة لذلك متحيزة الى المستعين ناصرة له فما زال محمد بن عبدالله بالمستعين حتى أظهره على أعلى قصره فخاطبته العامة وعليه البردة فأنكر مابلغهم من خلعه وشكر محمد بن عبدالله بن طاهر ثم التقى محمد بن عبدالله وأبو أحمد الموفق بالشماسية فاتفقا على خلع المستعين على أن له الامان ولاهله وولده وماحوت أيديهم من أملاكهم وعلى أنه ينزل مكة هو ومن يشاء من أهله وأن يقيم بواسط العراق الى وقت مسيره الى مكة فكتب له المعتز على نفسه شروطا أنه متى نقض شيأ من ذلك فالله ورسوله منه براء والناس فى حل من بيعته وعهودا غير هذه لايسعها هذا المقام قيل وقد خذل المعتز بعد ذلك لمخالفتها حين عالج فى نقضها فخلع المستعين نفسه من الخلافة وذلك يوم الخميس لثلاث خلون من المحرّم سنة اثنتين وخمسين ومائتين فكان له مذ وافى مدينة السلام الى أن خلع سنة كاملة وكانت خلافته مذ تقلد الامر على مابيناه آنفا الى أن زال عنه ثلاث سنين وثمانية أشهر وثمانية وعشرين يوما فقال بعض الشعراء فى خلعه

خلع الخليفة أحمد بن محمد * وسيقتل التالى له أو يخلع
ويزول ملك بنى أبيه ولاترى * أحدا تملّك منهم يتمتع
ايها بنى العباس ان سبيلكم * فى قتل أعبدكم سبيل مهيع
رقعتم دنياكم فتمزقت * بكم الحياة تمزّقا لا يرقع

وقال البحترى الشاعر ومحمد بن مروان بن أبى الجنوب وغيرهما فى خلعه أبياتا كثيرة كلها حكم أضربنا عن ايرادها هنا * وأحدر الى دار حسن بن وهب ببغداد وجمع بينه وبين أهله وولده ثم أحدر الى واسط وقد وكل به أحمد بن طولون التركى وذلك قبل ولايته مصر

وعلم بحز محمد بن عبدالله بن طاهر عن قيامه بأمر المستعين حين استجار به وخذلانه إياه وميله الى المعتز ﷺ ولما كان من الامر ماتقدم من خلع المستعين انصرف أبوأحمد الواثق من بغداد الىسامرا فخلع عليه المعتز وتوجه ووشحه بوشاحين وخلع على من كان معه من القواد وقدم على المعتز عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أخو محمد بن عبد الله بالبردة والقضيب والسيف وبجوهر الخلافة ومعه شاهك الخادم وكتب محمد بن عبدالله الى المعتز فى شاهك المذكور ان من أثاثك بارث رسول الله صلى الله عليه وسلم لجدير أن لاتخفر ذمته * واستتب الامر الى المعتز وانطلقت كلمته واتسعت وجعل المعتز يتوقع الغدر بأخيه المستعين والايقاع به * فلما كان فى شهر رمضان من السنة أى سنة اثنتين وخمسين ومائتين بعث المعتز سعيد بن صالح الحاجب الى واسط ليغتال المستعين ويوقع به وكان حين خلع من الخلافة سير به اليها مع جملة من أحزابه فسار اليه سعيد ونزل واسطا وما زال يراقب الفرص حتى مال عليه وقتله واحتز رأسه وحمله الى المعتز وترك جثته ملقاة على الطريق حتى تولى دفنها جماعة من العامة وقيل فى موته غير ذلك * ووصلت الرأس الى المعتز وهو يلعب بالشطرنج فقيل له هذا رأس المخلوع فقال ضعوها حتى أفرغ من الدست فلما فرغ نظر اليه وأمر بدفنه

(الفصل الثالث عشر)

(فى خلافة المعتز بالله بن جعفر المتوكل)

ثم قام بالامر بعد المستعين ابن عمه محمد المعتز بالله وهو الزبير بن جعفر المتوكل وأمه أم ولد يقال لها قبيحة ويكنى أبا عبدالله وله من العمر يومئذ ثمان عشرة سنة بويع له بالخلافة لما خلع المستعين نفسه وذلك فى يوم الخميس لليلتين خلتا من المحرم وقيل لثلاث خلون منه سنة اثنتين وخمسين ومائتين هجرية أى سنة ست وستين وثمانمائة ميلادية وبايعه القواد والموالى والشاكرية وأهل بغداد وخطب له فى المسجد الجامع ببغداد فى الجانبين وكان على وزارته جعفر بن محمد ثم صرفه واستوزر جماعة فكانت بعد ذلك تخرج الكتب باسم صالح بن وصيف التركى كأنه مرسوم بالوزارة وما زال على هذا الحال يدبر الامر حينا فلما كان بعد ذلك بقليل أنهى الى المعتز أن أخاه المؤيد يدبر عليه وانه قد احتال على جماعة من الموالى لينصروه فقبض على المؤيد فى الحال وحبسه وحبس معه أخاه أبا أحمد وهما لاب وأم وطولب المؤيد بأن يخلع نفسه من ولاية العهد فلم يقبل فضرب أربعين عصا الى ان أجاب وأشهد على نفسه بذلك * ثم اتصل بالمعتز أيضا أن جماعة من الترك اجتمع رأيهم على اخراج المؤيد من حبسه والانتصار له فأكبر المعتز هذا الامر وخشى عاقبته وجعل يدبر على هلاك المؤيد فلما كان يوم الخميس لثمان بقين من رجب سنة اثنتين وخمسين ومائتين أخرج المؤيد وأحضر القضاة

والفقهاء فرأوه ولا أثر فيه ثم أمر بعد ذلك فأدرج فى لحاف مسموم وشد طرفاه حتى مات فيه وضيق فى حبس أبى أحمد فكان بين دخوله سامرا وما لقى بها من الاكرام وبين حبسه ستة أشهر وثلاثة أيام ثم شخص المعتز الى البصرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان بعد قتل المؤيد بخمسين يوما ورتب اسمعيل بن قبيحة وهو أخو المعتز لابيه وأمه مكان المؤيد فى ولاية العهد * واجتمع بعد ذلك بايام سائر قواد الموالى على المعتز فسألوه الرضا عن وصيف وبغا وكانا على ماهما عليه من الذل والضيق فأجابهم الى ذلك كارها وكانت هذه حيلة منهم للايقاع به لما نقموه عليه فلما كان رجب سنة خمس وخمسين ومائتين دخلوا عليه فى عدة وافرة بغير استئذان وجعلوا يقرعونه بذنوبه ويوبخونه على اعمال الحيلة على افنائهم وقتل كبارهم واصطناعه للمغاربة والفراغنة دونهم وقد كانوا أحسوا منه بذلك وطالبوه بالاموال وكان المدبر لهذه الفتنة صالح بن وصيف مع قواد الترك فلج المعتز وأنكر أن يكون قبله شئ من المال وقد كانوا يطلبون خمسين ألف دينار وأرسل المعتز الى أمه أن تعطيه ذلك القدر فأرسلت تقول ما عندى شئ وقد كان عندها من المال والنفائس والجواهر الثمينة شئ كثير للغاية * فلما رأى الاتراك أنهم لم يحصل لهم من المعتز ولا من أمه شئ وليس فى بيت المال شئ اتفقت كلمتهم وكلمة المغاربة والفراغنة على خلعه فجلس على بابه جماعة منهم بالسلاح وأرسلوا اليه أن اخرج الينا فامتنع واعتذر بأنه تناول دواء فأمر صالح أن يدخل عليه بعضهم فدخلوا وجروه برجله الى باب حجرته وضربوه بالدبابيس ومزقوا ثيابه وأوقفوه فى الشمس فى صحن الدار فكان لشدة حرارتها يرفع رجلا ويضع أخرى وكان بعضهم يلطمه على وجهه ويقول له اخلعها وهو يتقى بيديه ثم أدخلوه الى حجرته وأشهدوا عليه جماعة بالخلع وبعثوا الى مدينة السلام فى طلب محمد بن الواثق الملقب بالمهتدى وقد كان المعتز نفاه اليها واعتقله فيها فأتى به فى يوم وليلة الى سامرا فتلقاه الاولياء فى الطريق ودخل الجوسق فأعلموه بأنهم سيبايعونه فى الحال وسألوه الموافقة على ذلك فامتنع وقال لا أقبل البيعة حتى أرى المعتز وأسمع كلامه فأتى بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل فلما رآه محمد بن الواثق وثب اليه وعانقه وأجلسه بجانبه على السرير وقال له يا أخى ما هذا الامر فقال المعتز أمر لا أطيقه ولا أقوم به ولا أصلح له فأراد المهتدى أن يتوسط فى أمره ويصلح الحال بينه وبين مقدمى الاتراك فقال المعتز لا حاجة لى فيها ولا يرضونى لها فقال المهتدى فانا فى حل من بيعتك قال أنت فى حل وسعة فلما جعله فى حل من بيعته حوّل وجهه عنه فأقيم من حضرته وردّ الى محبسه فقتل فى محبسه بعد أن خلع بستة أيام تسلمه صالح بن وصيف ومنعه من الطعام والشراب ثلاثة أيام ثم أنزله فى سرداب وأطبقه عليه حتى مات ثم أخرجه وأشهد عليه أن لا أثر به وقيل أيضا انه بعد خلعه بخمسة أيام أدخله الحمام ومنعه الماء حتى عاين التلف ثم أتوه بماء مالح فشربه فسقط ميتا وذلك فى رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وكان عمره ثلاثا وعشرين سنة فكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وقيل وثلاثة وعشرين يوما وكان عمره كله أربعا وعشرين

سنة وكان أبيض أسود الشعر كثيفه حسن العينين والوجه أحمر الوجنتين حسن الجسم طويلا فصيحا كبير المعرفة واسع الدراية والخبرة له فى الفصاحة وحسن الالقاء كلام كثير يدل على مبلغ علمه ۞ وهو أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب وكان من سبقه من الخلفاء من بنى العباس وكذلك جماعة من بنى أمية لا يركبون الا بالحلية الخفيفة من الفضة والمناطق واتخاذ السيوف والسروج واللجم فلما ركب المعتز بحلية الذهب اتبعه الناس فى ذلك وفشت هذه العادة بينهم ثم تغالى فيها الخلفاء والسلاطين من بعده وبالغوا جدا

واستعمل المعتز على مصر فى خلافته أحمد بن مزاحم بن خاقان سنة ثلاث وخمسين ومائتين وهو طاغية جبارا عسوفا فولى الشرطة أرجوز التركى وكان أرجوز هذا أكبر وبلا منه وأشد عسفا وجورا فأكثر من الارهاب والتشديد على الرعية وبالغ فى ايذاء الناس بطرق وأنواع مختلفة ومنع النساء من الدخول الى الحمامات ومن زيارة قبور الاموات والولولة فى الجنازات وضيق على المخنثين والنوائح وحبسهم وأكثر من الاحداثات والبدع الغريبة * فلما كانت سنة أربع وخمسين ومائتين منع من الجهر بالبسملة فى الصلاة بالجامع وكان أهل مصر يجهرون بها منذ الاسلام الى ذلك الحين وأخذ أهل الجامع بتمام الصفوف فكان الموكل بذلك رجل من العجم يقوم وبيده السوط الى مؤخر المسجد وأمر أهل الحلق بالتحول عن القبلة قبل اقامة الصلاة ومنع من المساند التى كان المصليون يستندون اليها ومن الحصر التى كانت للمجالس بالمساجد ورسم بأن تصلى التراويح فى رمضان خمس تراويح وكان أهل مصر يصلونها ستا الى أن منعهم من ذلك فى تلك السنة ومنع من التثويب ورسم بالاذان يوم الجمعة فى مؤخر المسجد وأن يغلس بصلاة الصبح * ونادى مناديه أن لايشق ثوب على ميت أو يسود وجه أو يحلق شعر أو تصيح امرأة أو تولول فمن فعل شئ من ذلك عوقب وعاقب على ذلك وشدد فيه وكبر عسفه وظلمه فضاق خناق الناس وابتهلوا الى الله تعالى وما زالوا على هذا الحال معه حتى مات مزاحم وتولى بعده الولاية باكيالك التركى وقيل باكيال فالتمس باكيال من يستخلفه بمصر لقيامه هو بخدمة ركاب الخليفة * وقد كانت العادة أن من يتولى ولاية كمصر أوغيرها من العمالات الكبيرة من الامراء والكبراء فلا يأتيها بل يبقى فى خدمة الركاب ويوليها من يشأ من مواليه أوصنائعه أو غيرهم ممن يثق به * فأشير على باكيال المذكور بأحمد بن طولون فولاه اياها فكان من أمره وسعد أحواله واقبال الدنيا عليه بحذافيرها وظهور دولته ما سيذكر فى ترجمته فى وصل بعد

﴿فى ترجمة أحمد بن طولون ۞ وفى ظهور دولته بديار مصر﴾

هو أبو العباس أحمد بن طولون كان أبوه من الاتراك الذين أهداهم نوح ابن أسد السامانى عامل بخارى الى المأمون بن هرون الرشيد فى سنة مائتين هجرية ويقال الى الرشيد فى سنة

تسعين ومائة وولد ابنه أحمد هذا فى سنة أربع عشرة وقيل سنة عشرين ومائتين ثم مات طولون فى سنة ثلاثين وقيل سنة أربعين ومائتين هجرية * وحكى ابن عساكر عن بعض مشايخ مصر أن طولون لم يكن أبا أحمد ولكنه تبناه وأمه جارية تركية يقال لها هاشم * وكان الترك قد طلبوا منه أن يقتل الخليفة المستعين لما سيروه معه الى واسط مبعدا فأبى وقال والله لا تجارأت على قتل أولاد الخليفة فلما جاء مصر قال لقد وعدنى الترك ان قتلت المستعين أن يولونى واسطا نخفت الله ولم افعل فعوضنى ولاية مصر والشام وسعة الاحوال * وكان سبب ولايتـه على مصر وظهور دولته أنه لما تولى الخلافة المعتز بالله بن جعفر المتوكل استعمل على ديار مصر مزاحم بن خاقان أحد مقـدمى الترك فى دولة المعتز وكان مزاحم هـذا طاغيـة جبارا فولى الشرطة أرجوز التركى فكان أرجوز أشـد ويلا وأكبر عسفا وجورا فأكثر من الارهاب والتهـديد وبالغ فى ايذاء الناس ومنع النساء من الدخول الى الحمامات وزيارة قبور الاموات وغير ذلك من البدع والاحداث الغريبة كما سيأتى بيان ذلك فى موضعه فلما مات وولى مكانه الامـير باكباك وقيل باكيال واتصل به خبر ما يفعله أرجوز من الجور والعسف التمس من يستخلفه بمصر فاشير عليه بأحمد بن طولون لما ظهر عنه من حسن السيرة وطيب السريرة فولاه مصر وسرحه اليها وكان بها ابن المدبر على الخراج وقد تحكم فى البلد وأحدث الاحداثات الغريبة وكان قهرمانا من دهاة الرجال وأبالسة الكتاب فضرب على الناس الضرائب الكثيرة وقرر المغارم الفادحـة وابتدع بدعا صارت سنة من بعده مرعية الى يومنا هذا منها أنه أحاط بالنطرون ومنع الناس منه بعد أن كان مباحا * وقرر على الكلا الذى ترعاه الماشية مالا سماه المراعى وقرر على مايطعمه الله من صيد البحر أيضا مالا سماه المصائد فانقسم مال مصر من حينئذ الى قسمين خراجى وهلالى فالخراجى مايؤخذ فى كل سـنة من الارض التى تزرع حبوبا ونخيلا وكروما وفاكهـة وما شاكل ذلك والهلالى قسمه الى قسمين سماهما المرافق والمعاون وهو ما يؤخذ على الضرائب المحدثة كالمراعى والمصائد ونحوهما فكانت هذه المغارم وقرا ثقيلا على الناس فكثر بغضهم لابن المدبر وجعلوا يدبرون له المكائد ويتربصون الفرص للبطش به فلما أحس منهم بذلك جعل فى خاصته نحوا من مائة غلام هندى ممتازين وزججهم بالسلاح فكانوا فى خدمته لايفارقونه فى حله وترحاله * فلما قدم أحمد بن طولون الى مصر واستقر به منصب النيابة كف يد ابن المدبر واستولى على البلد وكان باكيال قد استعمل أحمد على مصر وحدها دون باقى الاعمال كالاسكندرية ورشيد والصعيد الاعلى فلما قتل باكيال وصارت مصر الى ليارجوج التركى وكان بين ليارجوج وأحمد بن طولون مودة متأكدة استعمله على ديار مصر جميعها وكان المتولى على الاسكندرية يومئذ عيسى بن دينار فأقره ابن طولون على ولايتها ونزلت هى وغيرها من بقية الثغور تحت حكم ابن طولون فلما تم له أمر ذلك قدم عليه ابن المدبر فى حاشيته وغلمانه ومعه شـقير الخادم غلام قبيحة أم أمير المؤمنين المعتز وهو يومئذ على البريد فنظر ابن طولون واذا بين يدى ابن المدبر مائة غلام لهـم خلق

حسن

حسن وطول أجسام وبأس شديد وعليهم أقبية ومناطق ثقال عراض وبأيديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقمعة من الفضة وهم يقفون بين يديه فى حافتى مجلسه اذا جلس ويركبون بين يديه اذا ركب فيصير له بهم هيبة وجلالة فى صدور الناس فداخل ابن طولون شئ من ذلك وكبرت هذه النعمة فى عينيه وحسد ابن المدبر عليها * وقدّم اليه ابن المدبر الهدايا النفيسة والتحابى الثمينة استجلابا لرضاه فلم يقبلها وردها على ابن المدبر فنظر ابن المدبر الى شقير وقال ان هذه لهمة عظيمة ومن كانت هذه همته لايؤمن على طرف من الاطراف وخافه ابن المدبر وخشى عاقبة التقرب منه وكره المقام معه فى مصر ثم اجتمع بشقير الخادم وتناجيا فى أمر ابن طولون وكتبا الى الخليفة المعتز يطلبان خلع ابن طولون عن مصر فلم يكن الا أيام حتى بعث ابن طولون الى ابن المدبر يقول له * قد كنت أعزك الله أهديت لنا هدية وقع الغنا عنها ولم يجز أن يغتنم مالك كثره الله فرددناها توفيرا عليك ونحب أن تجعل العوض منها الغلمان الذين رأيناهم بين يديك فانا اليهم أحوج منك * فقال ابن المدبر لما بلغته الرسالة هذه أخرى أعظم مما تقدم قد ظهرت من هذا الرجل اذ كان يرد الاموال والاعراض ويستهدى الرجال ويثابر عليهم ثم لم يجد ابن المدبر بدا من أن يبعث بالغلمان كارها فزالت بعد ذلك هيبة ابن المدبر وكبرت هيبة ابن طولون وخافه الناس وجعل ابن المدبر يدبر الحيلة على خلع ابن طولون ويكاتب الخليفة فى ذلك وأحمد يعلم بالامر ويكتمه عن ابن المدبر حتى انقضت خلافة المعتز بالله

وظهرت كلمة ابن طولون واتسعت شهرته فأضيفت اليه نيابة الشام والعواصم والثغور وافريقية فعمد الى الفتح ففتح أنطاكية وعدة مدن أخرى وطالت ولايته فرتب الامور وأحكم السياسة وأمن الطرق ووسع أبواب الخير فكانت ظاهرة بينة وابتنى بالقاهرة جامعه المشهور والبيمارستان والعين التى أنشأها بالمعافر وقد وقعت عند جميع أهله وجيرانه أحسن موقع لانهم فى حاجة زائدة الى الماء * قيل وكان السبب فى انشائه اياها أنه ركب يوما فمر بمسجد الاقدام وحده وتقدم عسكره وقد كدّه العطش وكان فى المسجد خياط فقال ياخياط أعندك ماء فقال نعم وأخرج له ركوة صغيرة وقال اشرب ولا تمدّ يعنى لاتشرب كثيرا فتبسم أحمد بن طولون وشرب فمدّ فيه حتى شرب أكثرها ثم ناوله اياها وقال يافتى سقيتنا وقلت لاتمد فقال نعم أعزك الله موضعنا هنا منقطع وأنا أخيط بشئ حتى أجمع ثمن راوية فقال له أو الماء عندكم ههنا معوز فقال نعم قال الراوى فمضى أحمد بن طولون ولما رجع الى داره قال علىّ بالخياط الذى فى مسجد الاقدام فجاؤا به فلما رآه أحمد قال له سر مع المهندسين حتى يخطوا عندك موضع سقاية ويجروا الماء وهذه ألف دينار خذها ثم ابتدأ بالانفاق وأجرى على الخياط فى كل شهر عشرة دنانير وقال له بشرنى ساعة يجرى الماء فيها فجدّوا فى العمل فلما جرى الماء أتاه مبشرا فخلع عليه وحمله واشترى له دارا يسكنها وأجرى عليه الرزق السنوى بكثرة قال بعض أهل التاريخ وكان قد أشير عليه بأن يجرى الماء من عين أبى خليد المعروفة

بالنعش فقال هذه العين لاتعرف الا بأبى خليد وانى أريد أن أستنبط بئرا فعدل عن العين الى الشرق فاستنبط بئره هذه وبنى عليها القناطر وأجرى الماء الى الفسقية التى بقرب درب سالم وتولى بناء هذه السقاية قبطى من أقباط مصر حسن الهندسة حاذق ماهر قيل انه دخل على ابن طولون عشية من العشايا فقال له اذا فرغت مما تحتاج اليه فاعلمنى لنركب اليها فنراها فقال يركب الامير اليها فى غد فقد فرغت وتقدم المهندس المذكور فرأى موضعا بها يحتاج الى قصرية جير وأربع طوبات فبادر الى عمل ذلك وأقبل ابن طولون يتأمل العين فاستحسن جميع ما شاهده فيها ثم أقبل الى الموضع الذى فيه قصرية الجير فوقف بالاتفاق عليها فلرطوبة الجير غاصت يد الفرس فيه فكبا بأحمد ولسوء ظنه قدر أن ذلك لمكروه أراده به المهندس فأمر به فشق عنه ماعليه من الثياب وضربه خمسمائة سوط وأمر به الى المطبق فوضع فيه وانصرف ابن طولون وأقام المهندس بالمطبق الى أن أراد ابن طولون بناء جامعه فقدر له ثلاثمائة عمود فقيل له ما تجدها أو تنفذ الى الكنائس فى الارياف والضياع فتحمل ذلك فأنكره ولم يختره وتعذب قلبه بالفكر فى أمره وبلغ المهندس القبطى وهو بالمطبق الخبر فكتب الى ابن طولون يقول أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد الا عمودى القبلة فسر ابن طولون بذلك وأحضر القبطى وقد طال شعره حتى تدلى على وجهه وقال له ويحك ماتقول فى بناء الجامع فقال أنا أصوره للامير حتى يراه عيانا بلا عمد الا عمودى القبلة فأمر بأن تحضر له الجلود فأحضرت وصوره له فأعجبه واستحسنه وأطلق القبطى وخلع عليه وأطلق له للنفقة عليه مائة ألف دينار وقال له أنفق وما احتجت اليه بعد ذلك أطلقناه لك فوضع البناء يده فى الموضع الذى هو فيه وهو المعروف بجبل يشكر فكان ينشر من الحجر ويعمل الجير ويبنى الى أن فرغ من جميعه وبيضه وخلقه وعلق عليه القناديل بالسلاسل الحسان الطوال وفرش فيه الحصر وحمل اليه صناديق المصاحف ونقل اليه القراء والفقهاء وصلى فيه وتصدق بصدقات عظيمة وأجاز المهندس بعشرة آلاف دينار وأجرى عليه الرزق الواسع الى أن مات

وذهب ابن طولون فى يوم الجمعة الى الجامع فلما رقى الخطيب أبو يعقوب البلخى المنبر وخطب دعا للخليفة وولده ونسى أن يدعو لأحمد بن طولون ونزل عن المنبر فأشار أحمد الى نسيم الخادم أن اضربه خمسمائة سوط فذكر الخطيب سهوه وهو على مراقى المنبر فعاد وقال بعد الحمدلة والديباجة ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما اللهم وأصلح الامير أبا العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين وزاد فى الشكر والدعاء له بقدر الخطبة ثم نزل فنظر أحمد الى نسيم أن اجعلها خمسمائة دينار قال القضاعى وذكر أن السبب فى بنائه يعنى فى بناء ذلك الجامع أن أهل مصر شكوا اليه ضيق الجامع يوم الجمعة من جنده وسودانه فأمر بانشاء الجامع المذكور بجبل يشكر بن جديلة من لخم فابتدأ فى بنائه فى سنة ثلاث وستين ومائتين وفرغ منه سنة خمس وستين ومائتين * وقيل ان

أحمد بن طولون قال انى أريد أن أبنى بناء ان احترقت مصر بقى وان غرقت بقى فقيل له يبنى بالجير والرماد والآجر الاحمر المشوى بالنار الى السقف ولا يجعل فيه أساطين رخام فانها لاصبر لها على النار فبناه هذا البناء وكان من أمره واعادة ترميمه فى أيام دولة خليل بن قلاون ما كان مما لا موضع هنا لذكره

وبعد أن تم بناء السقاية رسم فكانت تفتح طول النهار لمن كشف وجهه للاخذ منها ولمن كان له غلام أو جارية والليل للفقراء والمساكين واتخذ لها مستغلا فيه فضل وكفاية لصالحها ثم بلغه أن قوما لا يستحلون شرب مائها * قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم الفقيه كنت ليلة فى دارى اذ طرقت بخادم من خدام أحمد بن طولون فقال لى الامير يدعوك فركبت مذعورا مرعوبا فعدل بى عن الطريق فقلت أين تذهب بى فقال الى الصحراء فأيقنت بالهلاك وقلت للخادم الله الله فىّ فانى شيخ كبير ضعيف مسن فتدرى ما يراد منى فارحمنى فقال احذر أن يكون لك فى السقاية قول وسرت معه واذا بالمشاعل فى الصحراء وأحمد بن طولون راكب على باب السقاية وبين يديه الشموع فنزلت وسلمت عليه فلم يرد علىّ فقلت أيها الامير ان الرسول قد أعيانى وكدنى وقد عطشت فيأذن لى الامير فى الشرب فأراد الغلمان أن يسقونى فقلت أنا آخذ لنفسى فاستقيت وهو يرانى وشربت وزدت فى الشرب حتى كدت أنشق ثم قلت أيها الامير سقاك الله من أنهار الجنة فلقد أرويت وأغنيت ولا أدرى ما أصف أطيب الماء فى حلاوته وبرده أم صفاءه أم طيب ريح السقاية قال فنظر الىّ وقال أريدك لامر وليس هذا وقته فاصرفوه فصرفت فقال لى الخادم أصبت فقلت أحسن الله جزاءك فلولاك لهلكت وكان مبلغ ما أنفق على هذه العين فى بنائها ومستغلها أربعين ألف دينار ثم كان من أمر ابن طولون ماسيذكر فى محله فى خلافة المهتدى ومن جاء بعده من الخلفاء

ومات فى خلافة المعتز قسيما بطرك المتأصلين بعد أن أقام سبع سنين وقيل سبع سنين وخمسة أشهر فخلا الكرسى بعده أحدا وخمسين يوما وفى أيام هذا البطرك أمر نوفل قيصر الروم بمحو الصور من الكنائس لامور فبعث اليه قسيما وناظره حتى ألحمه ورجع به الى حسن الاعتقاد فرسم باعادة الصور الى ما كانت عليه فلما مات قسيما أقيم بعده سانوتيو أو هو شنوده خامس خسيهم وبلده البتانون وكان راهبا بدير أبى مقار ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

(الفصل الرابع عشر)

(فى خلافة جعفر المهتدى بالله بن هرون)

ثم قام بالامر بعد المعتز ابن عمه جعفر بن هارون الواثق بن المعتصم ولقب بالمهتدى

وقيل ان اسمه محمد ويلقب بأبي اسحق بويع له بالخلافة قبل الظهر من يوم الاربعاء لليلة بقيت من رجب الفرد سنة خمس وخمسين ومائتين هجرية أى سنة ثمان وستين وثمانمائة ميلادية وأمه أم ولد رومية يقال لها قرب ويكنى بأبي عبدالله وله يومئذ سبع وثلاثون سنة وقيل تسع وثلاثون ولما استقر به المنصب أخرج الملاهى وحرم سماع الغناء والشراب وأمر بنفي المغنيات وطرد الكلاب والسباع وألزم نفسه الاشراف على الدواوين والجلوس للناس وازالة المظالم وتغيير المنكرات وقال انى أستحى من الله أن لايكون فى بنى العباس مثل عمر بن عبد العزيز فى بنى أمية وكان صالح بن وصيف بعد خلع المعتز وقتله قد خرج هاربا فلم يهتد له على محل فلما كان لثلاث بقين من المحرم زعم المهتدى ان امرأة دفعت الى سيما الشرابى كتابا وقالت ان فيه نصيحة وان منزلها بمكان كذا وطلبت المرأة فلم توجد ودعا المهتدى القواد وسليمان بن وهب فأراهم الكتاب فزعم سليمان أنه خط صالح بن وصيف فقرأه على القواد فاذا فيه انه مستخف بسامرا وانما استتر طلبا للسلامة وابقاء الموالى وطلبا لانقطاع الفتن وذكر ما صار اليه من أموال الكتاب ويدل فيه على قوة نفسه فلما فرغوا من قراءته جعل المهتدى يحث الجماعة على الصلح مع ابن وصيف والاتفاق والنهى عن التباغض والتباين فاتهمه الاتراك بأنه يعلم بمكان ابن وصيف ويميل اليه وطال بينهم وبينه الاخذ والرد فلما كان الغد اجتمعوا بدار موسى بن بغا واتفقوا على خلع المهتدى وكان بينهم الامير باكيال فقال لهم ويحكم انكم قتلتم ابن المتوكل وهو فتى حسن الوجه سخى الكف فاضل النفس وتريدون اليوم قتل هذا وهو مسلم تقى يصوم ولا يشرب النبيذ من غير ذنب والله لئن قتلتم هذا لالحقن بخراسان لأشيع أمركم هنالك فاتصل خبر ذلك الى المهتدى فتحول من مجلسه وهو متقلد سيفه وقد لبس ثيابا نظافا وتطيب وأمر بادخالهم عليه فدخلوا فقال لهم بلغنى ما أنتم عليه ولست كمن تقدمنى مثل المستعين والمعتز والله ماخرجت اليكم الا وأنا متحنط وقد أوصيت الى أخى بولدى وهذا سيفى والله لاضربن به ما استمسك قائمه بيدى والله لئن سقط منى شعرة ليهلكن وليذهبن أكثركم كم هذا الخلاق على الخلفاء والاقدام والجراءة على الله سواء عليكم من قصد الابقاء عليكم ومن كان اذا بلغه هذا منكم دعا بالنبيذ فشربه مسرورا بمكروهكم حتى تعلمون أنه وصل الى شئ من دنياكم أما انكم لتعلمون أن بعض المتصلين بكم أيسر من جماعة من أهلى وولدى سوأة لكم يقولون انى أعلم بمكان صالح وهل هو الا رجل من الموالى فكيف الاقامة معه اذا ساررتكم فيه واذا أبرمتم الصلح فيه كان ذلك ما أنفذه لجميعكم وان أبيتم فشأنكم واطلبوا صالحا وأما أنا فما أعلم مكانه فعند ذلك علت ضوضاء القوم وقالوا له احلف لنا على ذلك فقال أما اليمين فنعم ولكنها تكون بحضرة بنى هاشم والقضاة غدا اذا صليت الجمعة فلم يتم شئ من ذلك وقد اشتد بغض الترك له وهموا بخلعه فمنعهم من ذلك خوف الاضطراب وقلة الاموال فأتاهم مال من فارس عشرة آلاف

ألف درهم وخمسمائة ألف درهم وانتشر الخبر بين العامة أن القوم قد اتفقوا على خلع المهتدى والفتك به وانهم قد أرهقوه فجعلوا يكتبون الرقاع ويرمونها فى الطرق والمساجد مكتوبا فيها يامعشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهى لعمر بن الخطاب أن ينصره الله على عدوه ويكفيه مؤنة ظالمه وتتم النعمة عليه وعلى هذه الامة ببقائه فان الاتراك قد أخذوه بأن يخلع نفسه وهو يعذب منذ أيام وصلى الله على سيدنا محمد * واشتد الاتراك على المهتدى وبالغوا فى اهانته حتى يخلع نفسه فلم يفعل وظهر بابك التركى ومن معه بشق عصا الطاعة والخروج على الخليفة فأمر الخليفة بقتله فقتل فهاج الترك ووقع الحرب بينهم وبين المغاربة أنصار الخليفة واشتد الحال وطالت أيام القتال فقتل من الفريقين أربعة آلاف على رواية بعض أصحاب التاريخ وخرج المهتدى والمصحف فى عنقه وهو يدعو الناس الى نصرته على الترك ومعه طوائف المغاربة وبعض العامة فحمل عليهم طيبغا أخو بابك فهزمهم ومضى المهتدى وهومهزوم والسيف فى يده وقد جرح جرحين حتى دخل دار محمد بن يزداد فتجمع الترك وهجموا على الدار وأخذوه أسيرا وحمله أحمد بن خاقان وجعلوا يصفعونه ويقولون اخلعها وهو لايفعل فسلم الى رجل فوطئ مذاكيره حتى قتله وقيل مات بالخناجر ومنهم من روى أنه جعل بين لوحين عظيمين وشد بالحبال الى أن مات وقيل قتل خنقا وقيل كبس عليه بالبسط والوسائد حتى مات فلما مات داروا به ينوحون ويبكون عليه وندموا على ما كان منهم من قتله لما تبينوه من نسكه وقتل وله من الولد سبعة عشر ذكرا وست بنات قيل وكان قد ذهب فى أمره الى القصد والدين فقرب العلماء ورفع من منازل الفقهاء وعمهم ببره وكان يقول يابنى هاشم دعونى حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز فى بنى أمية وقلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب وأمر باخراج آنية الذهب من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم وعمد الى الصور التى كانت فى المجالس فحيت وذبح الكباش التى كان يناطح بها بين يدى الخلفاء والدولك وقتل السباع المحبوسة ورفع بسط الديباج وكل فرش لم ترد الشريعة باباحته وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها فى كل يوم عشرة آلاف درهم فأزال ذلك وجعل لمائدته وسائر مؤنته فى كل يوم نحو مائة درهم قيل وكان يواصل الليل بالنهار فى التهجد والعبادة وأنه لما قتل أخرج رحل من الموضع الذى كان يأوى اليه فأصيب له سفط مقفل فتوهموا أن فيه مالا أوجوهرا فلما فتح وجدوا فيه جبة صوف وغل وقيل جبة شعر فسألوا من كان يخدمه فقال كان اذا جن الليل لبسها وغل نفسه وكان يركع ويسجد الى أن يدركه الصباح رحمه الله

وعرضت على المهتدى يوما دفاتر خزائن الكتب فاذا على ظهر كتاب منها هذه الابيات قالها المعتز بالله وكتبها بخطه

انى عرفت علاج الطب من وجعى * وما عرفت علاج الحب والخدع

جزعت للحب والحمى صـــبرت لها * انى لاعجب من صـبرى ومن جزعى
من كان يشـــغله عن إلفه وجع * فليس يشغلنى عن حبكم وجـــعى
وما أمـــــلّ حبيبى ليتنى أبدا * مع الحبيب وياليت الحبيب مـــعى

فقطب وجه المهتدى بالله وقال حدث وسلطان الشباب وكان كثيرا ماينشد البيت الاول من هذا الشعر * وقال عبد الله بن ابراهيم الاسكافى جلس المهتدى للظالم فاستعداه رجل على ابن له فأمر باحضاره فأحضر وأقامه الى جانب خصمه ليحكم بينهما فقال الرجل للمهتدى والله ياأمير المؤمنين ما أنت الا كما قيل

حكمتموه قاضيا بينكم * أبلج مثل القمر الزاهـــر
لايقبل الرشوة فى حكمه * ولا يبالى بغـبن الخاسر

فقال المهتدى أما أنت أيها الرجـل فأحسن الله مقالتك وأما أنا فما جلست حتى قرأت ونضع الموازين القسط ليوم القيامـة الآية * قال فما رأيت باكيا أكثر من ذلك اليوم وقال أبو العباس بن هاشم بن القاسم الهاشمى كنت عنـد المهتدى بعض عشايا شهر رمضان فقمت لانصرف فأمرنى بالجلوس فجلست حتى صـلى المهتـدى بنا المغـرب وأمر بالطعام فأحضر وأحضر طبق خـلاف عليـه رغيفان وفى اناء ملح وفى آخر زيت وفى آخر خـل فدعانى الى الأكل فأكلت مقتصرا ظنا منى أنه يحضر طعاما جيـدا فلما رأى أكلى كذلك قال أما كنت صائما فقلت بلى فقال أفلست تريد الصوم غدا قلت وكيف لا وهو شهر رمضان فقال كل واستوف عشاءك فليس ههنا غـير ماترى فعجبت من قوله وقلت ولم ياأمير المؤمنين قد أسبـغ الله عليـك النعـمة ووسع رزقه فقال ان الامر على ماوصفت والحـمد لله ولكنى فكرت فى أنه كان من بنى أمية عمر بن عبد العزيز فغرت لبنى هاشم أن لا يكون فى خلفائهم مثـله وأخـذت نفسى بما رأيت اهـ ومات ولم يستكمل الاربعين سنة وكان موته فى سـنة ست وخمسـين ومائتين هجرية فكانت خلافتـه أحـد عشر شهرا وخمسة عشر ليـلة ودفن بسامرا وقيل كان مولده فى سنة ثمان عشرة ومائتين للهجرة

وفى خلافته كانت الامور قد انتظمت لاحمـد بن طولون بمصر واتسعت شهرته وبسط يده على مشرق الارض ومغـربها مع ما انضاف الى مصر من الديار الشاميـة وأنطاكيـة والجزيرة فلما كانت أخريات سنة ست وخمسين ومائتين هجرية خرج على ابن طولون ابراهيم الصوفى عامـل اقليم اسنا بالصعيد الاعلى وبالغ فى العصيان وأكثر من الشـدّة وبسط يده على سائر بلاد ذلك الصـقع وعاث وظلم وقتـل من لم يطعـه فأنفـذ ابن طولون طائفـة من العسكر لقتاله فاجتمع الفريقان واقتتـلا فكانت الدائرة على أصحاب ابن طولون فانحـدروا الى اخميم مدحورين فسير اليهـم ابن طولون نجـدة فقاتلت الصوفى وشـدّت فى قتاله حتى ظفـرت وقهرت لقومـه ومزقت شملهـم كل ممزق ففر ابن الصوفى فى نفـر من أصحابه وسار فى عرض البرّية طلبا للنجاة واختـفى أمره وانقطع ذكره ولم يكد يخـفى خبره ويتناسى

الناس

الناس فتنته حتى خرج أيضا ابن شيخ على أعمال فلسطين والأردن واستبد بها بعد موت أبيه أحمد بن عيسى بن شيخ الشيبانى وقد كان أبوه يتقلد جند تلك الانحاء وطمع ابن شيخ المذكور فى الاستقلال بملك الشامات والتغلب عليها وأكثر أصحابه من الارجاف ووردت الاخبار الى ابن طولون بأنه يريد ديار مصر ليأخذها وقد خرج والامور مضطربة ببغداد والفتنة قائمة بين الاتراك والمغاربة وعامة أهل بغداد فلم يهم ابن طولون ذلك ولا أحله محلا واتفق أن أرسل ابن المدبر صاحب خراج مصر سبعمائة وخمسين ألف دينار حملا من مال مصر الى بغداد فقبض ابن شيخ عليها وفرقها فى أصحابه فتقوت بها قلوبهم واشتدت عزيمتهم وطمعوا فى المحال من التغلب والفوز وتأهبوا للنزول على مصر وأخذها من ابن طولون ثم كان من أمر الفريقين بعد ذلك ما كان مما سيذكر ان شاء الله فى خلافة أبى القاسم أحمد المعتمد بن المتوكل حسب ترتيب حوادث كل خلافة وزمن وقوعها

(الفصل الخامس عشر)

(فى خلافة أبى القاسم احمد المعتمد على الله بن المتوكل)

ثم قام بالامر بعد المهتدى ابن عمه أحمد المعتمد على الله بن المتوكل على الله بن المعتصم بالله بويع له بالخلافة يوم قتل ابن عمه المهتدى بسامرا سنة ست وخمسين ومائتين هجرية أى سنة تسع وستين وثمانمائة ميلادية فكان له اسم الخلافة فقط ولأخيه الموفق بن المتوكل تدبير الملك وما زال كذلك الى أن مات الموفق فقام بتدبير الملك بعده ابنه أحمد المعتضد وغلب على عمه المعتمد كما كان أبوه غالبا عليه قيل فكان المعتمد يطلب الشئ الحقير فلا يناله ولم يكن له سوى الاسم فضاق به الحال واشتد عليه الامر يوما فقال فى ذلك متوجعا

أليس من العجائب أن مثلى * يرى ما قل ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا * وما من ذاك شئ فى يديه

وكانت أيام المعتمد كلها حروبا هائلة وكروبا مستمرة وخروج الكثير من الخوارج مثل يعقوب بن الليث الصفار وصاحب الزنج وغيرهما وقد بالغ جماعة الكتاب فى عدد من قتل فى هذه الحروب والفتن فكانوا بين مكثر ومقلل فأما المكثر فكان يقول انه أفنى من الناس مالا يدركه العد ولا يقع عليه الاحصاء ولا يعلم ذلك الا علام الغيوب فيما فتح من هذه الامصار والبلدان والضياع وأباد أهلها والمقلل يقول أفنى من الناس خمسمائة ألف ألف وكلا الفريقين يقول فى ذلك ظنا وحدسا اذ كان شيأ لم يدرك ولم

يضبط وكان ممن تم خروجه فى أيامه واستفحل أمره بتاتا ابن شيخ فانه استبدّ بحكم الشامات وقطع الحمل عن بغداد فسير اليه المعتمد حسينا الخادم فكلمه فى ذلك فاعتذر فأعطاه حسين عهده على أرمينية ليقيم الدعوة للمعتمد وكان قد بالغ فى الامتناع فأجابه الى ذلك بعد أمور وأخذ العهد وأقام الدعوة ولبس السواد الذى هو زى العباسيين ظنا منه أن الشام تكون بيده فلم يلبث على ذلك طويلا حتى أنفذ المعتمد أماجور التركى وقلده دمشق وأعمالها فسار اليها فى ألف رجل فلما قرب منها أنهض عيسى اليه ولده منصورا فى عشرين ألف مقاتل فلما التقوا انهزم عسكر منصور وقتل منصور فوهن عيسى وسار الى أرمينية من طريق الساحل فخلا الجو لأماجور التركى وولى دمشق وجعل يتصرف فى الامور على ما يهواه وكان الخليفة المعتمد قد أرسل الى أحمد بن طولون فى مناجزة ابن شيخ وقتاله حتى يظفر به وسير الى ابن المدبر أن يطلق النفقة لابن طولون فتجهز ابن طولون وخرج فى عسكر عظيم وجنائب ومواهى وطبول وغير ذلك واستخلف على ديار مصر أخاه موسى فبينما هو فى طريقه اذ جاءه مرسوم الخليفة بالعودة الى مصر وأن أماجور قد ولى قتال ابن شيخ فعاد أحمد بن طولون ودخل القاهرة فى شعبان من هذه السنة ٠

وداخل قلب ابن طولون من حب الاستبداد بملك مصر وشق عصا طاعة العباسيين ما أقلقه وعظمت رغبته فى ذلك فجعل يشيد الحصون ويبنى القلاع وينشئ المعاقل ويكثر من الكراع وآلات القتال وابن المدبر صاحب خراج مصر يحفظ له كل ذلك وكان ابن طولون الى هذا الحين يسكن خارجا عن سور الفسطاط فى دار الامارة التى كانت لمن سلف من الامراء وهى فى ضاحية العسكر وكانت ضاحية العسكر فيها الاسواق والبنيات العظيمة والطرق الواسعة فلم تكف موالى وغلمان وأتباع ابن طولون وضاقت بأدواته وآلات حربه فصعد يوما الى المقطم ونظر الى ما حوله فرأى بين ضاحية العسكر وبين المقطم فضاء لاشئ فيه من البناء الا بعض المدافن لليهود والنصارى فاختارها للبناء قيل ورسم بحرث المدافن ونبشها واختط فى موضعها قصرا عظيما وميدانا وتقدم الى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لانفسهم حوله ففعلوا فاتصل بناؤهم الى عمائر الفسطاط فلما رأى ابن طولون كثرة البناء أعجبه وأمر بقطع القطائع وسمى كل قطيعة منها باسم من سكنها فكانت لغلمان النوبة قطيعة مفردة تعرف بهم ولغلمان الروم قطيعة مفردة وللفراشين قطيعة وكذلك لغيرهم من بقية الموالى والاتباع * وابتنى كذلك القواد مواضع متفرقة فزادت القطائع ضخامة وتشعبت فيها الطرق والمسالك وبنيت المساجد العظيمة والافران والحمامات والطواحين واختص كل سوق منها باسم مخصوص فكان منها سوق الشوايين وسوق البقالين وصارت من هذا الحين هذه القطائع مدينة عظيمة آهلة للغاية فكانت غلمان ابن طولون تضرب فى الميدان بالصوالجة ثم عاد بعد حين فسمى القصر والميدان باسم الميدان وعمل له أبوابا لكل

باب اسم فكان منها باب الميدان ومن هذا الباب كان يدخل ويخرج معظم الجيش وباب
الصوالجة وباب الخاصة ولم يدخل منه الا خاصة ابن طولون وباب الجبل لأنه مما يلى
المقطم وباب الحرم ولايدخل منه الا النساء والخصيان وباب الدرمون قال بعض الكتاب
وهذا كان يجلس عنده حاجب أسود ضخم الجثة يتقلد جنايات السود الرجالة فقط ويقال له
الدرمون وباب دعاج وكان يجلس عنده حاجب اسمه دعاج وباب الساج لانه عمل من خشب
الساج وباب الصلاة وهو فى الطريق الموصل الى الجامع ويسمى أيضا بباب السباع لأنه
كان عليه صورة سبعين من الجص وكانت جميع هذه الابواب تفتح فى يوم عيد أو يوم
عرض الجيش أو يوم صدقة وما عدا هذه الايام لاتفتح الا فى أوقات معلومة على ترتيب مقرر
معلوم وكان للقصر مجلس يشرف منه ابن طولون يوم العرض و يوم الصدقة لينظر من يدخل
ومن يخرج وكان الناس يدخلون من باب الصوالجة ويخرجون من باب السباع وكان
على باب السباع مجلس يشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع لدى حركات الغلمان
وتأهبهم وتصرفهم فى حوائجهم وكان يشرف منه أيضا على البحر وعلى باب مدينة الفسطاط
وما يلى ذلك فكان منتزها حسنا للغاية * ولما تم تأهب ابن طولون واستعداده للاستبداد
بملك مصر وشاع خبر ذلك خافه أماجور صاحب الشام وخشى عاقبة جواره وقيل بل
حسده فكانت تأتى الى أماجور الاخبار تترى بعزم ابن طولون على قتاله وأخذ الشام منه
فسير الى الخليفة المعتمد من يخبره بخبر ابن طولون ويحذره من شره ويقول انه اذا ترك وشأنه
ولم يعاجله الخليفة استفحل أمره واستعصى اخضاعه وتبعه فى ذلك غيره من الولاة والعمال
فأرسل الخليفة الى ابن طولون يقول تنح عن مصر عاجلا الى سامرا واستخلف عليها من
تشاء من أصحابك فهم ابن طولون أن يفعل ذلك وجعل يتأهب للخروج فنعه من ذلك أحد
خواصه وأعلمه بما يبطنه له الخليفة ففطن ابن طولون للامر وسير الى سامرا أحمد الواسطى
أحد خواصه وكبار دواوينه ومعه من الهدايا النفيسة والتحف الثمينة لوزير الخليفة ما يجل
عن الوصف وأوصاه بأن يبالغ فى استمالة الوزير وفى استرضائه فلما وصل ابن الواسطى الى
سامرا تمثل بين يدى الوزير ودفع اليه الهدايا فأعجبته جدا وسر بها سرورا عظيما ومال الى
ابن طولون وأحبه وكلم الخليفة فى أمره واستماله اليه واسترضاه عنه فعفا الخليفة عما سلف
من ابن طولون ورسم بتجديد الولاية له على مصر وأجاز له حمل نسائه وأولاده الى مصر وقد
كانوا الى ذلك الحين فى سامرا وعاد ابن الواسطى ومعه كتب ابن المدبر وشقير الخادم التى كانا
يبعثان بها الى الوزير بالوشاية فى حق ابن طولون فجعل ابن طولون من هذا الحين يدبر على
الفتك بهما فلم تكن الا أشهر حتى هلك شقير الخادم ففرح ابن طولون بموته وجعل يكيد
لابن المدبر فأرسل ابن المدبر الى أخيه وهو على خزائن الخلافة يومئذ يعلمه بما هو عليه من
الشدة والخوف ويسأله أن يوليه خراج الشام والرحيل عن مصر خوفا من بطش ابن طولون
فعلم ابن طولون بذلك وأن ابن المدبر سائر عنه الى الشام فخفف عنه فجعل ابن المدبر يحسن

السيرة معه و يتقرب اليه ويلاطفه وزوج ابنتــه لخمارويه بن أحمد ووهب لها جميع ماله فى ديار
مصر من دور ومزارع واقطاعات ثم جاءه مرسوم الخليفة بعد ذلك بقليل بالجــلاء عن مصر
فرحل عنها الى الشام وتولى أمور خراجها وخلا الجو لابن طولون فبسط يده على مشرق البلاد
ومغربها وأبطل بعض المغارم والمكوس واستشار ابن دسومة عبدالله أمــين متولى الخراج
يومئذ فى ازالة الخراج الهلالى وهو ماكان يؤخذ على المصائد والمراعى ونحوهما مما أحــدث
ابن المدبر وكانت قيمته يومئــذ مائة ألف دينار فقال أيها الامــير ان الدنيا والآخرة ضرتان
والحازم من لايخلط بينهما والمفرط من خاط بينهما فتتلف أعماله و يبطل سعيه وأفعال الامير
أيده الله الخير وتوكله توكل الزهاد وليس مثله من ركب خطة لم يحكمها ولو كنا نثق بالنصر
دائما طول العمر لما كان شئ عندنا أكثر من التضييق على أنفسنا فى العاجل معاداة الآجل
ولكن الانسان قصــير العمر كثير المصائب مــدفوع الى الآفات وترك الانسان ما قد أمكنه
وصار فى يده تضييع ولعل الذى حماه من نفسه يكون سعادة لمن يأتى من بعده فيعود ذلك
توسعة لغيره بما حرمه هو ويجتمع للامير أيده الله بما قد عزم على اسقاطه من الهلالى فيضبط
به الامير أيده الله أمر دنياه وهذه طريقة أمور الدنيا واحكام أمور الرياسة والسياسة وكل
ما عنّ للامير من أمر غير هذا فهو مفســد لدنياه وهذا رأيى والامــير أيده الله على ماعساه
يراه * وكان ابن دسومة هــذا طاغية شيطانا من شياطين جباة الاموال وكان يكره أن ابن
طولون يزيل هذه البدعة فأشــغل قلب ابن طولون كلامــه وقال سننظر ان شاء الله تعالى
ونام ليلته تلك وهو مشغول البال بمقالة ابن دسومة قيل فرأى فى منامه رجلا من اخوانه
الزهاد فى طرسوس يقول ليس فيما أشار به عليك ابن دسومة مصلحة ومن ترك شيأ لله عزوجل
عوّضه الله خيرا منه فأمض ما كنت عزمت عليه فأصبح وقد طير الخبر الى الآفاق بازالة ذلك
الخراج ففرح الناس ومدحوه

ولما كانت سنة تسع وخمسين ومائتين هجرية عاد ابن الصوفى العلوى وظهر بمصر وقد كان
ظهر فى ســنة ست وخمســين وهرب الى الواحات واختــفى خبره فــدعا الناس لنفسه فتبعه
خلق عظيم وسار بهم الى الاشمونين فاهتم ابن طولون بأمره وسير اليه جيشا كبيرا ومقدمه ابن
أبى الغيث فوجده قد صعد الى لقاء ابن أبى عبد الرحمن العمرى وكان العمرى هــذا قد ظهر
بالنوبة وهو عبدالحميد بن عبدالعزيز بن عبــدالله بن عمر بن الخطاب وكان سبب ظهوره بمصر
أن البجاة الذين هم أهل النوبة أقبلوا يوم العيد فنهبوا وقتلوا وعادوا غانمين وفعلوا ذلك مرات
فخرج هذا العمرى غضبا لله وللمسلمين وكمن لهــم فى طريقهــم فلما عادوا يشنون الغارة خرج
عليهم وقتل مقدّمهم وأثخن فيمن كان معــه من القوم ودخل بلادهم فنهبها وأعــل فى أهلها
السيف ثم تابع عليهم الغارات وسبى وأفحش فى القتل حتى أدّوا له الجزية ولم يكونوا قبــل
ذلك أدّوها لأحد ولا دانوا الى ملك من الملوك فظهرت كلمة العمرى واتسعت شهرته فلما لاقاه
العــلوى اقتتلا قتالا عنيفا فانجلت الواقعة عن انهزام العلوى فولى منهزما الى أسوان فعاث

فيها وقطع كثيرا من نخلها وعلم بان ابن أبى الغيث قائد عسكر ابن طولون يطلبه أيضا فولى هاربا الى عيذاب وعبر البحر الى مكة وتفرق أصحابه فى أرض الله الواسعة فلما وصل مكة بلغ خبره الى واليها فقبض عليه وسجنه ثم سيره الى ابن طولون فأمر به فطيف به فى البلاد ثم سجنه أياما كثيرة ثم أطلقه فرجع الى المدينة فأقام بها الى أن مات * وصعد ابن أبى الغيث بمن معه من العسكر ومن جاء نجدة من ابن طولون لقتال العمرى أيضا حيث علم بقلة أصحابه بعد قتاله للعلوى فلما التقى الفريقان تقدم العمرى وقال لابى الغيث مقدم عسكر ابن طولون ان ابن طولون لايعرف خبرى على حقيقته فانى لم أخرج للفساد ولم يتأذ بى مسلم ولا ذمى وانما خرجت طالبا للجهاد فاكتب الى الامير أحمد وعرّفه كيف حالى فان أمرك بالانصراف فانصرف وان أمرك بغير ذلك كنت معذورا فلم يجبه أبو الغيث الى ذلك وقاتله وكان العمرى من القوة وكثرة اللوم على غير ما كان يظنه أبو الغيث فشدّ فى قتال أبى الغيث حتى هزمه شر هزيمة ورجع من بقى من عسكره الى مصر وأخبروا بحال العمرى فقال ابن طولون كنتم أنهيتم حاله الىّ فانه نصر عليكم ببغيكم وتركه فلما كان بعد مدة وثب على العمرى غلامان من غلمانه فقتلاه وحملا رأسه الى أحمد بن طولون فسألهما عن سبب قتله فقالا أردنا التقرب من الامير أيده الله فأمر بقتلهما فقتلا وأمر برأس العمرى فغسل وكفن ودفن * ولم تكد تخمد فتنة ابن الصوفى العلوى والعمرى حتى خرج آخر اسمه أبو نوعة ودعا الناس لنفسه فانضم اليه خلق عظيم فسار بهم فى عرض البلاد فقتل وسبى وأراق الدماء فسير اليه ابن طولون طائفة من الجند فقاتلها وظفر بها وكاد يمزقها تمزيقا فأنجدها ابن طولون فقهرته وظفرت به وعادت غانمة

ولما كانت سنة احدى وستين ومائتين هجرية عصى أيضا على ابن طولون أهل برقة فأخرجوا أميرهم محمد بن الفرج الفرجانى فسير اليهم ابن طولون جيشا وعليه غلامه لؤلؤ وأمره بالرفق بهم وترك الشدة فان عادوا الى الطاعة فبها ونعمت والا فالسيف حتى يؤدّوها صاغرين فسار لؤلؤ حتى نزل على برقة وحاصرها وفعل ما أمره به ابن طولون فطمع أهل برقة فى عسكر ابن طولون وخرجوا يوما على بعض العسكر وهم نازلون على باب البلد فأوقعوا بهم وقتلوا منهم فأرسل لؤلؤ الى ابن طولون فى أمرهم فرسم له بالجد فى قتالهم فنصب عليهم المجانيق وجدّ فى قتالهم فطلبوا الامان فأمنهم ففتحوا له أبواب البلد فدخل وقبض على جماعة من رؤسائهم وضربهم بالسياط وقطع أيدى بعضهم وأخذ معه جماعة منهم وعاد الى مصر واستعمل على برقة عاملا فلما دخل لؤلؤ القاهرة بعسكره خلع عليه ابن طولون خلعة فيها طوقان من ذهب فوضعهما فى عنقه وركب فى موكب حافل وأمامه الغنائم والأسرى وطاف المدينة فكان يوما مشهودا * واتفق أن مات فى هذه السنة أيضا أماجور مقطع دمشق فتولى ابنه مكانه وجاء الخبر بذلك الى ابن طولون فتاقت نفسه الى أخذ الشام وضمها الى ديار مصر فكتب الى ابن أماجور يذكر له أن الخليفة المعتمد على الله قد أقطعه الشام وسائر

الثغور ويسأله النزول على حكمه فأجابه ابن أماجور بالسمع والطاعة اذ كان يرى أن لا قبل له
على مخالفته فسار ابن طولون فى عسكر عظيم الى الشام واستخلف بمصر ولده العباس فلقيه
ابن أماجور بالرملة فأقره عليها وسار الى دمشق فملكها وأقر قوّاد أماجور على أقطاعهم وسار
الى حمص فملكها وملك كذلك حماة وحلب وكان المتولى على أنطاكية يومئذ سيما الطويل
فراسله ابن طولون يدعوه الى طاعته ليقره على ولايته فامتنع فعاوده فلم يطعه فسار اليه
وحاصر أنطاكية وشدّد فى حصارها وكان سيما المذكور سيئ السيرة مع أهل البلد فكاتبوا
ابن طولون ودلوه على عورة البلد فنصب عليه المجانيق وقاتله فملك البلد عنوة والحصن الذى
له فركب سيما وقاتل قتالا شديدا حتى قتل ولم يعلم به أحد فاجتاز بجثته بعض قوّاده فعرفها
فحمل رأسه الى ابن طولون فساءه قتله ورحل عن أنطاكية الى طرسوس فدخلها وعزم على
المقام بها وملازمة الغزاة فلم يتمكن من ذلك لغلاء الاسعار وقلة المأكول بها وقد ضاقت
البلد عنه وعن عسكره فركب أهلها اليه بالخيم وقالوا له قد ضيقت بلدنا وأغليت أسعارنا
فاما أقمت فى عدد يسير واما رحلت عنا وأغلظوا له فى القول وشغبوا عليه فقال ابن طولون
لاصحابه لتنهزموا من الطرسوسين وترحلوا عن البلد ليظهر للناس وخاصة العدو أن ابن طولون
على بعد صيته وكثرة عسكره لم يقدر على أهل طرسوس وانهزم عنهم ليكون أهيب لهم فى
قلب العدو وعاد الى الشام فأتاه الخبر أن ولده العباس الذى استخلفه بمصر قد شق عصا الطاعة
وأخذ الاموال وسار الى برقة مشاققا لابيه فلم يهمه ذلك ولم يزعجه وقضى أشغاله وحفظ أطراف
بلاده وترك عسكرا بحرّان وكذلك بالرقة مع غلامه لؤلؤ وكانت حرّان يومئذ لمحمد بن أتامش
وكان بطلا شجاعا مقداما فأخرجه ابن طولون عنها وهزمه شر هزيمة فاتصل خبر ماجرى له
بأخيه موسى بن أتامش وكان بطلا كذلك شديد المراس فجمع عسكرا عظيما وسار نحو حرّان
وبها عسكر ابن طولون ومقدمهم أحمد بن جيعويه فلما اتصل به خبر مجيء موسى بن أتامش
أقلقه ذلك وأزعجه ففطن له رجل من الاعراب يقال له أبو الاغر فقال أيها الامير أراك مفكرا
منذ أتاك خبر ابن أتامش وماهذا محله فانه طياش قلق ولوشاء الامير أن آتيه به أسيرا لفعلت
فغاظه قوله وقال قد شئت أن تأتى به أسيرا قال فاضمم الىّ عشرين رجلا أختارهم قال افعل
فاختار عشرين رجلا وسار بهم الى عسكر موسى فلما قاربهم كمن بعضهم وجعل بينهم وبينه
علامة اذا سمعوها ظهروا ثم دخل المعسكر فى الباقين فى زى الاعراب وقارب مضارب موسى
وقصد خيلا مربوطة فأطلقها هو وأصحابه فيها فنفرت وصاح هو ومن معه من الاعراب وأصحاب
موسى غارون وقد تفرق بعضهم فى حوائجهم فانزعج العسكر وركبوا وركب موسى فانهزم
أبو الاغر من بين يديه فتبعه حتى أخرجه من المعسكر وجازبه الكمين فنادى أبو الاغر بالعلامة
التى بينهم فثاروا من النواحى وعطف أبو الاغر على موسى فأسروه فأخذوه وساروا به الى
ابن جيعويه فسيره الى ابن طولون فاعتقله وعاد الى مصر وجعل يدبر الحيلة للقبض على ولده
العباس فعلم أنه انما خرج عن الطاعة باغراء جماعة من أصحابه وقد حسنوا له أخذ الاموال

والخروج

والخروج الى برقة ففعل ذلك ووصل برقة فى ربيع الاول من السنة فأرسل اليه أبوه يلاطفه ويستعطفه فلم يرجع وخاف من كان مع العباس من ابن طولون فأشاروا على العباس بقصد افريقية فسار اليها وكاتب وجوه البربر فأتاه بعضهم وامتنع بعضهم وكتب الى ابراهيم ابن الاغلب يقول ان أمير المؤمنين الخليفة المعتمد على الله قد قلدنى أمر افريقية وأعمالها وسار حتى أتى حصن لبدة ففتحه أهله له فعاملهم أسوأ معاملة ونهبهم فمضى أهل الحصن الى الياس بن منصور والناقوسى مقدّم الاباضية واستغاثوا به فكبر هذا الامر عليه وأعظمه جدا وسار فى لموم عظيمة لقتال العباس وكان ابراهيم بن الاغلب قد سير الى عامل طرابلس جيشا عظيما ورسم له بقتال العباس أيضا فالتقى الجمعان واقتتلا قتالا عنيفا قاتل فيه العباس بيده فلما كان الغد وافاهم الياس بن منصور الاباضى فى اثنى عشر ألفا من الاباضية فاجتمع هو وعامل طرابلس على قتال العباس فقتل من أصحاب العباس خلق عظيم وانهزم شر هزيمة وكاد يسقط فى يد الياس ونهبوا سواده وجميع ما حمله من مصر فعاد الى برقة وهو فى أسوء حال * وجاء الخبر الى مصر بانهزامه فاغتم أبوه غما شديدا وسير اليه عسكرا لما علم بسلامته فقاتلوه قتالا صبر فيه الفريقان فانهزم العباس ومن معه وكثر القتل فى أصحابه وأخذ العباس أسيرا وحمل الى أبيه فحبسه فى حجرة فى داره الى أن قدم باقى الأسرى من أصحابه فلما تكاملوا أتى بهم بين يدى ابن طولون وبينهم العباس فأمر ابن طولون ولده العباس أن يقطع أيدى أعيانهم وأرجلهم ففعل ولم يتأخر خوفا من أبيه فلما فرغ من ذلك نظر اليه أبوه نظرة الاسف ووبخه وذمه وقال هكذا يكون الرئيس والمقدّم لقد كان الاجدر بك أن تلقى بنفسك بين يدىّ وتطلب الصفح عنك وعنهم فيكون أعلى لمحلك من القلوب وتكون قد قضيت حقهم فيما أعانوك وفارقوا أوطانهم لاجلك ثم أمر به فضرب مائة مقرعة ودموعه تجرى على خدّه رقة لولده ثم ردّه الى الحجرة واعتقله

وأما الخليفة المعتمد على الله فانه بايع بالخلافة لابنه جعفر وسماه المفوّض الى الله وكان المعتمد قد آثر اللذة فغلبت عليه وغلب أخوه أبو أحمد الموفق على الامور كلها كما تقدّم ثم لم يلبث أن حصر المعتمد وحبسه فكان أول خليفة قهر وحجر عليه ووكل به فلما اشتدّ به الحال وزاد به الضيق هرب وسار الى حديثة الموصل فسير أبو أحمد الموفق صاعدا الى سامرا وكتب الى اسحق بن كنداج فردّه من الموصل واستفحل أمر الخلاف بين المعتمد وأخيه الموفق فتطرق الخلل الى مقام الخلافة وكادت تزول هيبتها وتنفصم عروتها وتحرك عقيب ذلك أيضا بسواد الكوفة قوم يعرفون بالقرامطة وتمذهبوا بمذهب دعاهم اليه رجل كان قدمرض بقرية من سواد الكوفة فأخذه رجل من أهل القرية اسمه كرميتة ومعناه باللغة النبطية أحمر العين فلما عوفى من مرضه دعا باسمه ثم اختصر الى أن قالوا قرمط ثم كان من قرمط هذا أنه دعا قوما من السواد والبادية ممن لايدينون بشئ الى دينه فأجابوه اليه * قال بعض الكتاب والمعروف من مذهبهم وتعليمهم أنه جاء بكتاب فيه * بسم الله الرحمن الرحيم يقول الفرج بن

عثمان وهو من قرية يقال لها نصرانة انه داعية المسيح وهو عيسى وهو الكلمة وهو المهدى وهو أحمد بن محمد بن الحنفية وهو جبريل * وذكر أن المسيح تصوّر بجسم انسان وقال له انك الداعية وانك الحجة وانك الناقة وانك الدابة وانك يحيى بن زكريا وانك روح القدس وعرفه أن الصلاة أربع ركعات ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان بعد غروبها وان الاذان فى كل صلاة أن يقول المؤذن الله أكبر ثلاث مرات أشهد أن لااله الا الله مرتين أشهد أن آدم رسول الله أشهد أن نوحا رسول الله أشهد أن ابراهيم رسول الله أشهد أن موسى رسول الله أشهد أن عيسى رسول الله أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله * كل ذلك مرة وأن القبلة الى بيت المقدس والجمعة يوم الاثنين لايعمل فيها شئ وأن يقرأ فى كل ركعة الاستفتاح المنزل على أحمد بن محمد بن الحنفية وهو * الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه المنجد لاوليائه بأوليائه قل ان الاهلة مواقيت للناس ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام وباطنها لاوليائى الذين عرّفوا عبادى سبلى اتقونى ياأولى الالباب أنا الذى لاأسأل عما أفعل وأنا العليم الحكيم وأنا أبلو عبادى وأمتحن خلقى فمن صبر على بلائى ومحنتى واختيارى أدخلته فى جنتى وأخلدته فى نعمى ومن زال عن أمرى وكذب رسلى أخذته مهانا فى عذابى وأتممت أجلى وأظهرت أمرى على ألسنة رسلى * أنا الذى لم يعل علىّ جبار الا وضعته ولا عزيز الا أذللته وبئس الذى أصرّ على أمره ودام على جهالته وقال ان نبرح عليه عاكفين وبه موقنين أولئك هم الكافرون * ثم يركع * ومن شرائعه أن يصام يومان فى السنة وهما المهرجان والنيروز وحرّم النبيذ وحلل الخمر ومنع أكل ذى ناب وذى مخلب وقال لاغسل بعد جنابة والوضوء كوضوء الصلاة وغير ذلك من الاحكام والنواهى

وبلغت سيطرة الموفق وتصرفه فى أمور الخلافة مبلغا عظيما جدا فعلت شهرته وكبرت هيبته فجعل يدس الدسائس بين عمال ابن طولون فى الشامات وغيرها رجاء أن يفسد عليه الامر لما علمه من تقربه الى الخليفة المعتمد وتقرب الخليفة اليه ودس الى لؤلؤ غلام ابن طولون وفى يده يومئذ حمص وقنسرين وحلب وديار مضر من الجزيرة فخرج عن طاعة مولاه وسار الى بالس فنهبها وكاتب الموفق فى المسير اليه واشترط شروطا فأجابه الموفق اليها وكان بالرقة فسار الى الموفق ونزل قرقيسا وبها ابن صفوان العقيلى فحاربه وأخذها منه وسلمها الى أحمد ابن مالك بن طوق وسار الى الموفق فوصل اليه وهو يقاتل الخبيث العلوى وجاء الخبر بذلك الى ابن طولون فأهمه جدا وأكبره للغاية وجعل يدبر على الموفق وكاتب المعتمد سرا فى أمر الموفق ومايفعله وكان المعتمد قد ضجر وصغرت نفسه مما يلاقيه من الموفق اذلم يكن له من الخلافة غير اسمها ولا ينفذ له توقيع لا فى قليل ولا فى كثير وكان الحكم كله للموفق والاموال تجبى اليه فكتب المعتمد الى ابن طولون يعلمه بمقدمه عليه بمصر فأشار عليه ابن طولون باللحاق به ووعده النصرة وسير عسكرا الى الرقة ينتظر وصول المعتمد اليهم فاغتنم المعتمد غياب

الموفق عنه فسار في جمادى الاولى ومعه جماعة من القواد فأقام بالكحيل يتصيد فلما صار الى علي اسحق بن كنداجيق وكان عامل الموصل وعامة الجزيرة وثب ابن كنداجيق بمن مع المعتمد من القواد فقبض عليهم وهم نيزك وأحمد بن خاقان وخطارمش فقيدهم وأخذ أموالهم ودوابهم وكان قد كتب اليه صاعد بن مخلد وزير الموفق في ذلك فقبض عليهم وحملهم مع المعتمد حتى أدخلهم سامرا وعلم الموفق بما جرى فاشتد بغضه لابن طولون ووهب لاسحق بن كنداجيق سائر البلاد التي كانت تحت حكم ابن طولون فامتد ملك ابن كنداجيق الى أطراف افريقية واتسعت كلمته وعلم ابن طولون بالامر فجعل يكيد للموفق وجمع اليه القضاة والعلماء بدمشق وكلمهم في أمر الخليفة المعتمد ومايقاسيه من الشدائد وكيف يغلب الموفق عليه ويبسط يده على جميع الامور فلم يترك له من الخلافة الا الاسم فتقررت القاعدة بينهم على أن يذكر الخطيب كل ذلك عند صلاة كل جمعة ويدعو الله الى نصرته ويلعن الموفق فعلم الموفق بالخبر فأكبره وأعظمه جدا وتقدم الى الخليفة المعتمد في لعن ابن طولون على المنابر فأجابه الى ذلك كارها فصاروا يلعنونه على منابر العراق باللهم العنه لعنا يفل حده ويتعس جده واجعله مثلا للغابرين انك لاتصلح عمل المفسدين * واشتد البغض بين الفريقين وجعل كل يتربص الفرص للايقاع بصاحبه ثم عادا فتواددا وتحابا وتناسيا مافات فعادت الامور بين مصر ودار الخلافة الى سابق مجراها وفرح الخليفة المعتمد على الله بذلك لميله الى ابن طولون وايثاره على الموفق ولم يكن ليطمئن قلب ابن طولون بعقد الصلح مع الموفق وزوال الوحشة من بينهما حتى جاءه الخبر بخروج بزماز وشقه عصا الطاعة فسار من فوره في عسكر الى طرسوس لقتاله وارجاعه الى الطاعة فلما بلغ أذنة كاتبه وراسله يستميله فلم يلتفت بزماز الى ذلك فسار اليه ابن طولون ونازله وحصره فخرق بزماز نهر البلد على معسكر ابن طولون فكادوا يهلكون جميعا فرحل ابن طولون مغيظا حنقا وكان الزمان شتاء وأرسل الى بزماز يقول انى لم أرحل الاخوفا أن تخرق حرمة هذا الثغر فيطمع فيه العدو وعاد الى أنطاكية ولبث بها أياما وطلب لبنا فأتوه بشئ من لبن الجواميس فأكثر منه فأصابته هيضة فأشار عليه طبيبه سعيد بن شيوفيل النصراني بالحمية أياما فلم يمتثل فكبرت الهيضة حتى صارت ذربا وكان الطبيب يعالجه وهو يأكل مايشاء سرا فلم ينجع الدواء واشتدت علته واستعصت فكر راجعا الى مصر محملا على أعناق الرجال ووصل الى الفرما فأنزلوه في حراقة في النيل فصعدت به الى الفسطاط وقد اشتدت علته فجعل يتصدق على الفقراء والمساكين وخرج العلماء والمشايخ و بطرك المتأصلين الى المقطم يدعون الله و يبتهلون اليه في شفاء ابن طولون فلما كان يوم الاحد عاشر ذى القعدة سنة سبعين ومائتين هجرية توفى فكانت امارته نحو ست وعشرين سنة وكان حازما عاقلا كثير المعروف والصدقة متدينا وعمل كثيرا من أعمال البر ومصالح الخلق وترك من الاموال عشرة آلاف ألف دينار ومن العبيد المزججين بالسلاح سبعة آلاف وبغير سلاح أربعة وعشرين ألفا وشيأ كثيرا جدا من الخيل والبغال والجمال ودواب الحمل وكان يجلس للنظر

فى مظالم الرعية بنفسه ويتصدق فى كل شهر بشئ كثير من المال وكان من تولى توزيع صدقاته ابراهيم بن قراطغان فدخل عليه يوما وقال أيد الله الأمير انى أقف فى المواضع التى تفرق فيها الصدقات فتخرج لى الكف المخضوبة نقشا والمعصم الرائع فيه الحديدة والكف فيها الخاتم فقال ابن طولون ويحك كل من مد اليك يده فأعطه فهذه والله هى اللطيفة المستورة التى ذكرها الله سبحانه فى كتابه فقال يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف فاحذر أن تردّ يدا امتدت اليك * ومات عن ثلاثين ولدا ذكرا وثلاث عشرة أنثى وحزن عليه الخليفة المعتمد وبكاه * وكان أحمد قد عهد بالولاية من بعده الى ابنه خمارويه فتولاها فى ثانى يوم موت أبيه فى ذى القعدة وله من العمر يومئذ عشرون سنة ولقب بأبى الجيش خمارويه وجعل يتصرف فى الأمور على أحسن ما يكون من الرفق بالرعية والنظر فى الظلامات ونصرة الضعيف على القوى فأحبته الرعية ومالت اليه القلوب فلم يكن ليستقر به منصب الولاية حتى طمع فى أملاك مصر اسحق بن كنداجيق صاحب الموصل والجزيرة وكلم ابن الساج صاحب الشام فى الخروج معه على خمارويه وأخذ البلاد منه فأجابه ابن الساج الى ذلك وكاتبا الموفق بالله فى ذلك فرسم لهما بقصد البلاد ووعدهما انفاذ الجيوش فجمعا وقصدا ما يجاورهما من البلاد فاستوليا عليه وأعانهما نائب خمارويه بدمشق ووعدهما بالانحياز اليهما فرحل من بالشام من نواب خمارويه الى أنطاكية وحلب وحمص وعصى متولى دمشق المذكور واستولى ابن كنداجيق على تلك الانحاء وجاء الخبر الى خمارويه بمصر بما جرى فأكبره جدا ورسم الى من كان بدمشق من العساكر بالزحف على ابن كنداجيق واجلائه عن البلاد فطاولهم ابن كنداجيق حتى يأتيه المدد من العراق فهجم الشتاء على الفريقين وأضر بأصحاب خمارويه ضررا عظيما فتفرقوا فى المنازل بشيرز ووصل المدد من العراق الى عسكر ابن كنداجيق وعليهم أبو العباس أحمد بن الموفق وهو المعتضد بالله فسار بهم ابن كنداجيق مجدّا الى عسكر خمارويه بشيرز فلم يشعروا حتى كبسهم بالمنازل ووضع السيف فيهم فقتل منهم خلقا وفرّ من بقى الى دمشق فساق ابن الموفق خلفهم بعسكره فجلوا عنها الى الرملة فملك ابن الموفق دمشق ودخلها فى شعبان سنة احدى وسبعين ومائتين وأقام عسكر خمارويه بالرملة وسيروا الخبر بما جرى الى خمارويه فهاله الأمر وأزعجه وخرج من فوره من مصر فى عسكر عظيم الغاية يريد الشام فلم يصل اليها حتى جاءه الخبر بوقوع الخلاف بين محمد بن أبى الساج واسحق بن كنداجيق وقد كانا على اتفاق فى الخروج عن طاعة خمارويه وكان سبب الاختلاف بينهما أن ابن أبى الساج نافر اسحق فى الأعمال وأراد أن يتقدم عليه فلم يرض اسحق بذلك وامتنع عليه فأرسل ابن أبى الساج الى خمارويه فى طلب الطاعة والرجوع الى خدمة خمارويه فأجابه خمارويه الى ذلك فخطب له ابن أبى الساج بقنسرين وسير ولده ديوداد الى خمارويه رهينة فمال اليه خمارويه وأرسل اليه مالا كثيرا له ولقواده وطلبه فحضر اليه ببالس ثم عبر ابن أبى الساج الفرات الى الرقة فلقيه ابن كنداجيق واقتتلا قتالا عنيفا فكانت الدائرة على ابن كنداجيق

وعبر

وعبر خمارويه الفرات ونزل الرقة ومضى ابن كنداجيق منهزما الى قلعة ماردين فحصره ابن أبي الساج فيها ثم سار عنها فخرج ابن كنداجيق من ماردين نحو الموصل فلقيه ابن أبي الساج وكان قد كمن له فانهزم وعاد فارا الى ماردين وقوى ابن أبي الساج وظهر أمره واستولى على الجزيرة والموصل وخطب لخمارويه فيها ثم لنفسه بعده وما زال على هذا الحال الى أن كانت سنة خمس وسبعين ومائتين خالف ابن أبي الساج وخرج عن طاعة خمارويه واستبد بالامر وقطع الخطبة لخمارويه فى أعماله كلها ووردت الاخبار بذلك الى خمارويه فسار عن مصر فى عسكر عظيم يريد الشام فلاقاه ابن أبي الساج عند ثنية العقاب بقرب دمشق واقتتلا قتالا شديدا فانهزمت ميمنة خمارويه وأحاط باقى عسكره بابن أبي الساج ومن معه فمضى منهزما واستبيح معسكره فأخذت دوابه وآلات حربه وجميع مافيه وكان ابن أبي الساج قد ترك بحمص شيأ كثيرا من الأموال والكراع وخمارويه يعلم بذلك فسير خمارويه الى حمص عسكرا فسبقوا ابن أبي الساج اليها ومنعوه من دخول البلد واستولوا على جميع ماله هنالك فمضى منهزما الى حلب ومنها الى الرقة فتبعه خمارويه بعسكره ففارق الرقة فعبر خمارويه الفرات فى أثر ابن أبي الساج فلم يدركه فسير خلفه اسحق بن كنداجيق فى عسكر عظيم وكان قد رضى خمارويه عن اسحق المذكور فكان بين اسحق وبين ابن أبي الساج أمور قد أضربنا عن ايرادها هنا خوف الاطالة .

ولما كانت سنة ثمان وسبعين ومائتين هجرية مات الموفق فقام المعتضد بأمور الناس فى التدبير مكان أبيه الناصر وهو الموفق وخلع جعفر المفوّض بن المعتمد من ولاية العهد وقيل بل بايعه الناس بولاية العهد بعد المفوّض بن المعتمد وخطب له يوم الجمعة بعد المفوض وذلك لسبع ليال بقين من صفر واجتمع عليه أصحاب أبيه وتولى ما كان أبوه تولاه وجعل يتصرف كما يحب ويختار فأقام اسمعيل بن بلبل فى الوزارة بعد شغب كثير كان فى مدينة السلام ثم لم يلبث أن قيد اسمعيل بن بلبل ووجه الى العباس بن أبي عبد الله بن سليمان بن وهب فأحضره وخلع عليه وردّ اليه أمر كتابته وذلك يوم الثلاثاء لثمان بقين من صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين ولم يزل اسمعيل بن بلبل يعذب بأنواع العذاب وجعل فى عنقه غلا فى رمانة حديد والغل والرمانة مائة وعشرون رطلا وألبس جبة صوف قد صبغت فى ودك الاكارع وعلق معه رأس كلب ميت فلم يزل على ذلك حتى مات فى جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين ومائتين ودفن بغله وقيوده وأمر المعتضد بضرب جميع الآنية التى كانت فى خزانته فضربت وفرقت فى الجند

وخرج الخليفة المعتمد على الله يوما فى المحرم افتتاح سنة تسع وسبعين وجلس للقواد واستدعى القضاة والوجوه وأرباب الدولة فلما تكامل مجلسهم أعلمهم أنه خلع ابنه المفوض الى الله جعفرا من ولاية العهد وعهد بها للمعتضد بالله أبى العباس أحمد بن الموفق فأكبروا هذا الامر وأعظموه وشهدوا على المفوض أنه قد تبرأ من العهد وأسقط اسمه من السكة

والخطبة والطرز وغير ذلك فلم ينقض شهر رجب من هذه السنة حتى مرض المعتمد ومات ليلة الاثنين لاحدى عشرة ليلة بقيت منه وكان سبب موته أنه شرب يوما على الشط ببغداد شرابا كثيرا وتعشى فأكثر أيضا فمات ليلا فأحضر المعتضد القضاة وأعيان الناس فنظروا اليه وحمل الى سامرا فدفن بها وكان عمره خمسين سنة وكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وستة أشهر ذكره ابن الأثير * وقال المسعودى فى كتابه مروج الذهب * وقد كان المعتمد قعد للغداء واصطبح يوم الاثنين لاحدى عشرة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين فلما كان عند العصر قدم الطعام فقال ياموشكيره للوكل به مافعلت الرؤس بأرقابها وقد كان قدّم من الليل أن يقدّم له رأسا جملين وقد فصل فيهما رقابهما فقدمتا وكان معه على المائدة رجل من ندمائه يعرف بقف الملقم ورجل آخر يعرف بخلف المضحك فأول من ضرب بيده الى الرؤس الملقم فانتزع أذن واحدة منها وأما المضحك فانه يقتلع اللهازم والاعين فأكلوا وأكل المعتمد وأتموا يومهم فأما الملقم صاحب اللقمة الأولى فانه تهرى فى الليل وأما المضحك فانه مات قبل الصباح وأما المعتمد فانه أصبح ميتا وقد لحق بالقوم ودخل اسمعيل بن حماد القاضى على المعتضد وعليه السواد فسلم عليه بالخلافة وكان هو أول من سلم عليه بها وحضر الشهود منهم أبو عوف والحسين بن سالم وغيرهم من العدول حتى أشرفوا على المعتمد ومعهم بدر غلام المعتضد يقول هل ترون به من بأس أو أثر مات فجأة وقتلته مداومته على شرب النبيذ فنظروا اليه فاذا ليس به من أثر فغسل وكفن وحمل فى تابوت أعدّ له الى سامرا فدفن بها وذكروا أيضا أن سبب موته أنه سقى نوعا من السم فى شرابهم الذى كانوا يشربونه وهو نوع يقال له البيش يحمل من بلاد الهند وجبال الترك والتبت وربما وجد فى سنبل الطيب وهو ألوان ثلاثة

ومات فى خلافة المعتمد سانيوتيو بطرك الاسكندرية بعد أن أقام احدى عشرة سنة فأقيم بعده خائيل وهو سادس خمسيهم واشتدّ أحمد بن طولون فى أيامه على خائيل المذكور شدّة بالغة وألزمه بحمل عشرين ألف دينار * وكان سبب ذلك أن أسقفا اسمه سكا كانت بكنيسة الاسكندرية قد زاغ عن الأمانة المستقيمة وظهرت له تعاليم جديدة فاستتابه خائيل البطرك المشار اليه فلم يتب فنهاه فلم ينته فخلعه وأبعده عن الكنيسة فمضى الأسقف المذكور الى ابن طولون ووشى فى حق البطرك وبالغ فى الوقيعة فيه وقال لابن طولون ان لدى البطرك من الأموال والتحف والنفائس مالا يدخل تحت الحصر وكان ابن طولون فى ذلك الحين فى حاجة الى المال للنفقة على العسكر الذاهب الى الشام لردّ الخوارج فسير ابن طولون فى الحال فى طلب خائيل البطرك فلما تمثل بين يديه طلب منه عشرين ألف دينار نقرة فاعتذر البطرك وقال من أين يكون لى هذا المال وأنا انما أعيش من صدقات أهل البر وحسنات ذوى البيوتات فشدّد ابن طولون فى الطلب وبالغ فى التشديد ثم أمر بخائيل البطرك فألقوه فى السجن هو وتلميذه ابن المنذر فمضى عليهما حول وهما معتقلان وكان لابن طولون ديوانى اسمه موسى وله ولدان هما

يوحنا وابراهيم فتقدما الى ابن طولون فى كفالة البطرك فى وفاء المال المطلوب بشرط الافراج عنه ليتمكن من جمعه فأجابهما ابن طولون الى ذلك وأطلق البطرك وتلميذه وضرب للوفاء أجلا فجعل خائيل يبيع جميع متاع الكنائس الموقوفة عليها وباع كذلك أرض الحبش بظاهر الفسطاط والكنيسة الكائنة بجوار المعلقة من قصر الشمع لليهود وهى باقية فى تصرفهم الى هذا اليوم وقرر الديارية على كل واحد من القبط قيراطا فى السنة فلم يقم مع هذا كله الا بنصف المقرر عليه فانكمش فى كنيسة العذراء بالمعلقة فعاد ابن طولون وقبض عليه وألقاه فى السجن فلم يمض على ابن طولون بعد ذلك الا أيام قلائل حتى مات وخلفه ابنه خمارويه وكان خمارويه يعلم بأصل الفتنة وأن خائيل البطرك برىء مما اتهم به فأطلق سبيله وكف عن مطالبته بشئ بعد الذى أداه فعدّ عمل خمارويه هذا حسنة من حسناته الكثيرة

(الفصل السادس عشر)

(فى خلافة ابى العباس احمد المعتضد بالله بن الموفق)

ثم قام بالامر بعد المعتمد ابن أخيه أبو العباس أحمد المعتضد بالله بن الموفق بالله بويع له بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه عمه المعتمد على الله وهو يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين للهجرة أى نحو سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة للميلاد * فلما أفضت الخلافة اليه واستوثق له الامر سكنت الفتنة وصلحت شؤن البلاد فارتفعت الحروب ورخصت الأسعار وهدأ الهرج وسالمه كل مخالف ودانت له الأمور وانفتح له الشرق والغرب وأديل اليه أكثر المخالفين له والمنابذين لطاعته وأقر عبيد الله بن سليمان على وزارته ومازال عبيد الله وزيرا حتى مات فاستوزر بعده القاسم ابنه وولى غلامه بدرا الشرطة ومحمد بن الشاه بن مالك الحرس

وفى السنة التى تولى الخلافة فيها المعتضد قدم الحسن بن عبد الله المعروف بابن الجصاص رسولا من مصر لخمارويه بن أحمد بن طولون ومعه هدايا كثيرة وأموال جليلة فوصل الى المعتضد فخلع عليه وعلى سبعة نفر معه ثم سعى فى تزويج ابنة خمارويه المسماة قطر الندا من على المكتفى فقال المعتضد انما أراد أن يتشرف بنا وأنا أزيد فى تشريفه أنا أتزوجها فتزوجها وتولى ابن الجصاص أمرها وحمل جهازها فيقال انه حمل معها جواهر لم يجتمع مثلها عند خليفة قط فاقتطع ابن الجصاص بعضه وأعلم قطر الندا أن ما أخذ مودع لها عنده الى وقت حاجتها اليه فبات والجوهر عنده فكان ذلك سبب غناه واستغلاله قيل وكان ما كان لابن الجصاص من بعد ذلك فى أيام المقتدر من المحن والقبض عليه وما أخذ منه من الأموال

بهذا السبب وغيره * وحمل المعتضد صداق قطر الندا وهو بمدينة بلد الى أبي الجيش وكان الصداق ألف ألف درهم وغير ذلك من المتاع والطيب ولطائف الصين والهند والعراق وكان مما خص به أبا الجيش فى نفسه وحباه به بدرة من الجوهر الثمين فيها در وياقوت وأنواع من الجوهر ووشاح وتاج واكليل وقيل قلنسوة وكردف وكان وصولهم الى مصر فى رجب سنة ثمانين ومائتين وانحدر المعتضد من مدينة بلد والموصل بعد أن عمل ماوصفنا الى مدينة السلام فى البحر * فلما اطمأن قلب أبي الجيش خمارويه بمصاهرة الخليفة المعتضد عكف على اللهو والترف فبنى القصور العالية والميادين الفسيحة وأقبل على قصر أبيه فزاد فيه وجعل ميدانه بستانا وغرس فيه أنواع الرياحين والشجر المطعم العجيب وأنواع الورد والزعفران والنخيل والأعناب وكسا أجسام النخيل بالنحاس المذهب وجعل بين النحاس وأجسام النخيل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر وغرس فيه الريحان على نقوش وأشكال غريبة وكتابات مكتوبة يتعاهدها البستانى بالمقراض حتى لاتزيد ورقة على ورقة وبنى فى البستان برجا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الاقفاص وسرح فيه من أنواع القمارى والدباسى والزينات وكل طائر مستحسن حسن الصوت وسرح فى البستان من الطير العجيب مثل الطاوس ودجاج الحبش ونحوها وعمل فى داره مجلسا سماه بيت الذهب قد طلى حيطانه كلها بالذهب المحلول باللازورد على أحسن نقش وجعل فى حيطانه صورا بارزة من خشب مصنوع على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتى تغنينه بما عليهن من الحلى والزينة والثياب بألوانها ولم يعرف ملك قط تقدم خمارويه فى عمل مثل هذا البستان * واشتكى يوما الى طبيبه مما يلاقيه من الارق فأشار عليه بالتغميز فأنف من ذلك فأشار بعمل بركة من زئبق فعملها خمسين ذراعا فى خمسين وملأها من الزئبق وجعل فى أركان البركة سككا من الفضة الخالصة وجعل فى السكك زنانير من حرير فى حلق من الفضة وعمل فراشا من أدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة وتشد زنانير الحرير التى فى حلق الفضة بسكك الفضة وينام على هذا الفراش فلايزال هذا الفراش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق مادام عليه * ولم يمض على مصاهرة أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون للمعتضد سوى نحو عامين حتى ذبح أبو الجيش فى دمشق فى ذى القعدة سنة اثنتين وثمانين وقد كان بنى فى سفح الجبل أسفل من دير مروان قصرا وكان يشرب فيه فى تلك الليلة وعنده طغج التركى وكان الذى تولى ذبحه غلاما من خدمه وحمل أبو الجيش فى تابوت الى مصر فلما وصلها أخرج من التابوت وجعل على السرير وذلك على باب مصر وخرج ولده الأمير جيش وسائر الامراء والأولياء وتقدم القاضى أبو عبيد الله محمد بن عبدة المعروف بالعبدانى وصلى عليه وذلك فى الليل * حكى أبو بشر الدولابى عن أبى عبد الله المنجارى وكان شيخا من أهل العراق وكان يقرأ فى دور آل طولون ومقابرهم أنه بات فى تلك الليلة مع من يقرأ عند القبر وقد

قدّم أبو الجيش ليدلى فى القبر ونحن نقرأ وجماعة من القراء سبعة سورة الدخان فأحدر من السرير ودلى فى القبر وانتهينا من السورة فى هذا الوقت الى قوله عز وجل * خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق انك أنت العزيز الكريم * قال فخفضنا أصواتنا وأذعرنا حياء ممن حضر اهـ

وكانت مدة ولاية خمارويه اثنتى عشرة سنة وثمانية عشر يوما فقام بالامر بعده ولده جيش تولى الملك ثانى يوم وفاة أبيه فلم تستقم له الامور وشاغب القوّاد عليه لحداثة سنه واحتقره الجند وكادت تخرج عليه عمال البلاد الشامية وغيرها من بقية العمالات التابعة لمصر وعصاه ابن طغج بن جف والى الشام ولم يبايع له وكان سبب ذلك أنه لما ولى اجتمع اليه الاحداث والسفل فأخلد الى استماع أقوالهم فأفسدوا بينه وبين قوّاده وأصحابه فجعل يذمهم جهارا ويظهر العزم على استبدالهم ثم قطع أعطية بعضهم وأخذ نعمهم فلما اشتدّ بهم الحال اتفقوا على قتله وأن يقيموا عمه بدله فبلغه خبر ذلك فلم يقدر على كتمانه وأطلق لسانه فيهم نفارقه بعضهم وساروا الى بغداد وتقدموا الى الخليفة المعتضد فخلع عليهم وأحسن اليهم وبقى الجند على خلافهم لابن خمارويه وأحاطوا بقصره يوما يريدون خلعه وشددوا فى الطلب فسألهم كاتبه علىّ بن أحمد المردانى أن ينصرفوا يومهم ذلك فانصرفوا فأرسل ابن خمارويه فى الحال جماعة فقبضوا على اثنين من عمومته وقتلوهما وأصبح الجند وقد اجتمعوا حول القصر يريدون خلعه فلما تكامل حضورهم رمى بالرأسين اليهم فهاجوا وماجوا وهجموا على القصر ودخلوا على ابن خمارويه فقتلوه ونهبوا داره وعاثوا فى البلد فنهبوا ماقدروا على نهبه ثم أحرقوها فكان المنظر مرعبا والخطب شديد اللغاية ثم أتوا بأخيه هرون وولوه الامرة فكانت ولاية جيش تسعة أشهر لاغير * وجعل هرون يتصرف فى الامور فغلب عليه هواه ولم يمض على ولايته الا القليل حتى افتتن الناس وظهر بغضهم له فاختل نظام الدولة وانعكست الامور على هرون وطمع الولاة والعمال فى الاستقلال وبلغ المعتضد خبر هذا كله فتاقت نفسه الى استرداد سائر المدن والبلدان التى كان ابن طولون قد ضمها الى ديار مصر وسار فى عسكر عظيم أولا الى أجيدة فأطاعه صاحبها محمد بن أحمد بن عيسى بن شيخ وعاهده على الوفاء ثم سار عنها الى قنسرين فملكها ووردت الأخبار بذلك الى هرون فكاد يسقط فى يده وسير الى المعتضد يستعطفه ويسترضيه بعد أمور وعهود وجعل يعمل على تسكين القلاقل والفتن جهد الاستطاعة فلم يتم له كل ما أراد وكان من أمره ما سيذكر فى خلافة المكتفى بالله بن المعتضد

ولما كانت سنة اثنتين وثمانين ومائتين أمر المعتضد بالكتابة الى جميع الأعمال والبلاد كلها بترك افتتاح الخراج فى النيروز الفارسى وتأخير جمع الخراج الى الحادى عشر من حزيران وسماه بالنيروز المعتضدى وأنشئت الكتب بذلك من الموصل والمعتضد يومئذ بها قالوا وانما أراد بذلك الترفيه على الناس والرفق بهم وكتب أيضا الى جميع البلدان برد الفاضل من سهام المواريث الى ذوى الارحام وأبطل دوان المواريث ففرح الناس بذلك

ومـدحوه ثم نزل فى سـنة ثلاث وثمانين ومائتين الى تكريت وسار الحسـن بن حمدان فى الاولياء لحرب هرون الشارى فكانت بينهم حروب عظيمة كانت للحسن بن حمدان عليه فأتى به الى المعتضد أسيرا بغير أمان ومعه أخوه فدخل المعتضد بغداد وقد نصبت له القباب وزينت له الطرقات وعبى المعتضد جيوشه بباب الشماسـية على أحسن مايكون من التعبية وأكمل هيئة ثم خلع على الحسن بن حمـدان خلعا شرفه بها وطوّقه بطوق من ذهب وخلع على جماعة من فرسانه ورؤساء أصحابه وأهله وشهرهم فى الناس كرامـة لما كان من فعلهم وحسن بلائهم ثم أمر بالشارى فاركب فيلا وعليـه دراعة ديباج وعلى رأسـه برنس خز طويل وخلفه أخوه على جمل وعليه دراعـة ديباج وبرنس خز وسيرهم فى أثر الحسـن بن حمدان وأصحابه ثم دخل المعتضـد فى أثره عليه قباء أسود وقلنسوة محدودة على فرس ضاف وعن يساره أخوه عبد الله الموفق وخلفه بدر غلامـه وأبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب وزيره وابنه القاسم بن عبد الله فأكثر الناس من الدعاء له وتكاثف الناس فى منصرفهم من الجانب الشرقى الى الجانب الغربى فانخسف بهـم كرسى الجسر الأعلى وسقط على زورق مملوء ناسا فغرق فى هذا اليوم نحو من ألف نفس ممن عرف دون من لم يعرف واستخرج الناس من دجلة بالكلاليب والغواصة وارتفع الضجيج وكثر الصراخ من الجانبين فبينما الناس على هذا الحال من الصراخ والعويل اذ أخرج بعض الغواصة صبيا عليه حلى فاخرة من ذهب وجـوهر فبصربه شيخ من المنظارة طرار فجعـل يلطم وجهه حـتى دمى أنفه ثم تمرغ على التراب وأظهر أنه ابنـه وجعـل يقول ياسـيدى لم تمت اذ أخرجوك صحيحا سويا لم يأكلك السمـك ولم تمت حبيبى اذ كلت عينى بك مرة قبل الموت وأخذه فحمله على حمار ثم مضى به فما برح القوم الذين رأوا من الشيخ مارأوا حـتى أقبل رجـل معروف باليسار مشهور من التجار حين بلغه الخبر وهو لايشك الا أن الصبى فى أيديهم وليس يهمه ما كان عليه من حلى وثياب وانما أراد أن يكفنه ويصـلى عليه ويدفنه فأخبره الناس بالخبر فبقى هو ومن معه من التجار متحيرين مبهوتين وسألوا عنـه واستبحثوا فاذا لاعين ولا أثر وعرف تواّبوا هـذا الجسر هذا الشيخ المحتال فأيأسوا أبا الغريق منه وذكروا أنه شيخ قد أعياهم أمره وحيرهم كيده وانه بلغ من حيله وخبثه ودهائه أنه أتى يوما من أول الصباح الى باب بعض العدول الكبار المشهورين بالرياسـة واليسار ومعه بجرة فارغة على عاتقـه وفاس وزنبيل فقام فى ثوب خلق ولم يتكلم حتى وضـع الفاس فى الدكاكين التى على باب ذلك العـدل فهدمها وجعل ينتقى الآجر ويعزله فسمع ذلك العدل بهدمها ووقع الفأس والهدم فخرج لينظر فاذا الشيخ دائب بهدم دكاكينه التى على باب داره فقال ياعبـد الله أىّ شئ تصنع ومن أمرك بهـذا فجعل الشيخ يعمل عمله ولا يلتفت الى العدل ولايكلمه فاجتمع الجيران وهما فى المحاورة فأخذوا بيد الشيخ فوكزه هذا ودفعه هـذا فالتفت اليهـم فقال ويلكم أى شئ تريدون منى أما تستحيون تعبثون بى وأنا شيخ كبير فقالوا مالنا والعبث بك ويحك من أمرك بهـذا قال ويحكم أمرنى

صاحب

صاحب الدار فقالوا هـذا صاحب الدار يكلمك قال لا والله ماهـذا صاحب الدار فلما سمعوا كلامه وغفلته رحموه وقالوا هـذا مجنون أو مخدوع خدعه بعض جيران هذا العدل ممن قد حسده على ماأنعم الله تعالى به عليه وهم الذين حملوا هـذا الشيخ على هذا الفعل فلما منعوه من الهدم مضى الى الجرة التى جاء بها وقـد كان وضعها الى جانب الباب فأدخـل يده فيها كأنه قد خبأ ثيابه فيها فصرخ وبكى فلم يشك العدل أن محتالا خدعه وأخذ ثيابه فقال وأى شئ ذهب لك قال قميص جديد اشتريته أمس وملحفة لبيتى وسراويل فرقوا له جميعا ودعاه العدل فكساه ووهب له دراهم كثـيرة ووهب له الجيران دراهم كثيرة وانصرف غانما وهـذا الشيخ كان يعرف بالعقاب ويكنى بأبى الباز وله أخبار عظيمة وحيل عجيبة * قال بعض الكتاب وهذا الشيخ هو الذى احتال للمتوكل حين بايعه بختيشوع الطبيب أنه ان سرق من داره شئ يعرفه فى ثلاث ليال ذكرت من ذلك الشهر فعليـه أن يحمل الى خزانة أمير المؤمنين عشرة آلاف دينار وان خرجت هذه الليالى ولم يتم عليه ماذكر فله الضيعة المعين ذكرها فى المبايعة فأتى بهذا الشيخ فى عنفوان شبابه الى المتوكل فضمن للمتوكل أن يأخـذ من دار بختيشوع شيأ لاينكره وقد كان بختيشوع حرس داره وحصنها فى هذه الليالى فاحتال العقاب المـذكور بحيل لطيفة الى أن سرق بختيشوع نفسه وجعله فى صندوق وأتى به المتوكل فى خبر ظريف وانه رسول لعيسى بن مريم نزل الى بختيشوع بشمع أسرجـه وتخليط عمـله وبنج فى طعام اتخذه وأطعمه الحراس لداره فى تلك الليلة الى آخر القصة مما لاحاجة لايرادها هنا

وكان المعتضد حازما كيسا كثير الحساب حكى عبد الله بن حمدون وكان من ندماء المعتضد وخاصته وممن كان يأنس به فى الخلوة انه أمر أن ينقص من مرتب حشمه ومن كان يجرى عليه من الاتراك من كل رغيف أوقية وان يبتدأ بأمر خبزه لان للوصائف عددا من الرغفان فيها ثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك قال ابن حمدون فتعجبت من ذلك فى أول أمره ثم تبينت القصـة فاذا انه يتوفر من ذلك فى كل شهر مال عظيم * وتقدم الى خازنه أن يختار له من الثياب التسترية والدبيقية أحسنها لتقطيعها لنفسه وكان مع ذلك قليل الرحمة كثير الاقدام سفا كا للدماء شديد الرغبة فى أن يمثل بمن يقتله وكان اذا غضب على القـائد النبيل والذى يختصـه من غلمانه أمر أن تحفـر له حفرة ثم يدلى على رأسـه فيها ويطرح التراب عليه ونصفه الاسفل ظاهر على التراب ويداس التراب فلا يزال كذلك حتى تخرج روحه من دبره وذكر من عـذابه أنه كان يأخـذ الرجـل فيكتف ويقيـد ويؤخـذ القطن فيحشى فى أذنه وخيشومه وفيه وتوضع المنافخ فى دبره حتى ينتفخ ويعظم جسمه ثم تسد دبره بشئ من القطن ثم يفصد وقد صار كالجمل العظيم من العرقين المعروفين فوق الحاجبين فتخرج النفس من ذلك الموضع وربما كان يوضع الرجـل فى أعـلى السطح مجردا موثقا ويرمى بالنشاب حـتى يموت واتخـذ المطامير وجعـل فيها أصناف العذاب وجعل عليها الحرمىّ المتولى لعـذاب الناس ولم يكن له رغبة الا فى النساء والبناء فانه أنفق على قصره المعروف بالثريا أربعمائة ألف دينـار وكان طول قصره المعروف بالثريا ثلاثة فراسخ

وممـا ذكر من حزمه فى الأمور وحيله وصبره أنه أطلق يوما من بيت المـال لبعض الرسوم فى الجند عشر بدر فحملت الى منزل صاحب عطاء الجيش ليصرفها فيهم فنقب منزله فى تلك الليلة وأخذت العشر بدر فلما أصبح الصباح نظر الى النقب ولم ير المـال فأمر باحضار صاحب الحرس وكان على الحرس يومئذ مؤنس العجلى فلما أتاه قال له ان هذا المـال للسلطان والجند ومتى لم تأت به أو بالذى نقبه وأخذ المـال ألزمك أمير المؤمنين غرمه فجدّ فى طلبه وطلب اللص الذى جسر على هذا الفعل فسار الى مجلسه وأحضر التوابين والشرط * والتوّابون هم شيوخ من أنواع اللصوص الذين كبروا وتابوا فاذا جرت حادثة علموا من فعلها فدلوا عليـه وربمـا قاسموا اللصوص ما سرقوه * فتقـدم اليهـم فى الطلب وتهددهم وأوعدهم وطالبهم فتفرق القوم فى الدروب والأسواق والغرف والمواخير ودكاكين الرواسين ودور القمـار فما لبثوا أن أحضروا رجلا نحيفا ضعيف الجسم رث الملابس هين الحالة فقالوا ياسيدى هـذا صاحب الفعلة وهو غريب من غير هذا البلد وأطبق القوم كلهم على أنه صاحب النقب ولص المـال فأقبل عليه مؤنس العجلى فقال ويلك من كان معك ومن أعانك وأين أصحابك ماأظنك تقدر على عشر بدر وحدك فى ليلة ما كنتم الا عشرة وأقل ذلك خمسة فأقرّ لى بالمـال ان كان مجتمعا وعلى أصحابك ان كان المـال قد قسم فما زاده على الانكار شيأ فأقبل يترفق به ويعده أن يثيبه ويرزقه ويعظم جائزته ويعده بكل جميل على رده والاقرار به ويتوعده بكل مكروه على جحوده وانكاره فلما غاظه ذلك وأنكره ويئس من اقراره أخذ فى عقوبته ومساءاته فضربه بالسوط والقـلوس والمقارع والدرة على ظهره وبطنه وقفاه ورأسه وأسفل رجليه وكعابه وعضله حتى لم يكن للضرب فيـه موضع و بلغ به ذلك الى حالة لايعـقل فيها ولا ينطق فلم يقر بشئ فبلغ ذلك الخليفة المعتضد فأرسل فأحضر صاحب الجيش فقال له ماصنعت فى المـال فأخبره الخبر فقال له ويلك تأخذ لصا قد سرق من بيت المـال عشر بدر فتبلغ به الموت والتلف حتى يهلك الرجل ويضيع المـال فأين حيل الرجال فأتى به وقد حمل فى جل فوضع بين يديه وقد عقـل فسأله فأنكر فقال له ويلك انومت لم ينفعك وان برئت من هذا الضرب لم أدعك تصل اليه فلك الأمان والضمـان على ماتصلح به حالتك ونحمـد به أمرك فأبى الا الانكار فقال علىّ بأهـل الطب فأحضروا فقال خذوا هذا الرجل اليكم فعالجوه بأرفق العلاج وواظبوا عليه بالمراهم والغذاء والتعاهد واجتهدوا أن تبرئوه فى أسرع وقت فأخذوه اليهم وأخرج مالا مكان المـال وأمر بتفريقه على الجنـد فيقال انه برئ وصلح فى أيام يسيرة ثم واظبوا عليـه بالطعام والشراب والوطاء والطيب حتى صح وقوى جسمه وظهـر لونه ورجعت اليه نفسه ثم ذكر به فأمر باحضاره فلما حضر بين يديه سأله عن حاله فدعا وشكر وقال أنا بخير ما أبقى الله أمير المؤمنين ثم سأله عن المـال فعاد الى الانكار فقال له ويلك لست تخلو من أن تكون أخذته وحدك كله أو وصـل اليك بعضه فان كنت أخذته كله فانك تنفقه فى أكل وشرب ولهو ولا أظنـك تفنيـه قبل موتك وان مت فعليك وزره وان كنت أخذت بعضه سمحنا لك به فأقر على أصحابك فانى أقتلك ان

لم

لم تقر ولا ينفعك بقاء المال بعدك ولا يبالى أصحابك بقتلك ومتى أقررت دفعت اليك عشرة آلاف درهم وأخذت لك من أصحاب الجسر مثل ذلك ورسمتك من التوابين وأجريت لك فى كل شهر عشرة دنانير تكفيك لاكلك وشربك وكسوتك وطيبك وتكون عزيزا وتنجو من القتل وتتخلص من الاثم فأبى الا الانكار فاستحلفه بالله وأظهر له مصحفا فحلف عليه فقال انى سأظهر على المال فان أنا ظهرت عليه بعد هذه اليمين قتلتك ولم أستبقك فأبى الا الانكار فقال له فضع يدك على رأسى واحلف بحياتى فوضع يده على رأسه وحلف بحياته أنه ماأخذه وانه مظلوم متهم وان التوابين قد تبرؤا به فقال له المعتضد فان كنت قد كذبت قتلتك وأنا برىء من دمك قال نعم فأمر باحضار ثلاثين أسود بحيث يراهم ويرونه وأمرهم أن يتناوبوا فى ملازمته فأتت عليه أيام وهو قاعد لايتكئ ولا يستلق ولا يضطجع وكلما خفق خفقة وجئ فكه ووقع رأسه حتى اذا ضعف وقارب التلف أمر باحضاره فأعاد عليه ما كان خاطبه به واستحلفه بالله وبغير ذلك من الايمان فحلف على ذلك كله وعما لم يستحلفه به أنه ماأخذ المال ولايعرف من أخذه فقال المعتضد لمن حضر قلبى يشهد أنه برىء وأن مايقول حق وأن التوابين قد عرفوا صاحبه وقد أثمنا فى هذا الرجل وسأله أن يجعله فى حل ففعل ثم أمر باحضار مائدة عليها طعام وأحضر بارد الشراب وأمره بالجلوس والأكل والشرب فأقبل يأكل ويشرب ويحث على الاكل ويلقم ويعاد الشراب عليه ويكرر حتى لم يبق للاكل والشرب موقع ثم أمر ببخور وطيب فبخر وطيب وأتى له بحشية ريش فوطئ له ومهد فلما استلق واستراح وغفا أمر بازعاجه وسرعة ايقاظه فحمل من موضعه حتى أقعد بين يديه وفى عينيه الوسن فقال له حدثنى كيف صنعت وكيف نقبت ومن أين خرجت والى أين ذهبت بالمال ومن كان معك قال ماكنت الاوحدى وخرجت من النقب الذى دخلت منه وكان مقابل الدار حمام له كوم شوك يوقد به فأخذت المال ورفعت ذلك الشوك والقش والقصب فوضعته تحته وغطيته وهو هنالك فأمر برده الى فراشه فردوه وأضجعوه عليه ثم أمر باحضار المال فأحضر عن آخره وأحضر مؤنس الحجلى وأحضر الوزير والجلساء وقد غطى المال بالبساط ناحية من المجلس ثم أمر بايقاظ اللص وقد اكتفى من النوم وذهب عنه الوسن فقال له بحضرة الجميع مثل قوله الأول فجحد وأنكر فأمر بكشف البساط وقال له ويلك أليس هذا المال ألست فعلت كذا وكذا وأخذ يصف له ما كان حدثه به ثم أمر فقبض على يديه ورجليه وأوثق ثم أمر بمنفاخ فنفخ فى دبره وأتى بقطن فحشى فى أذنيه وفمه وخيشومه وأقبل ينفخ وخلى عن يديه ورجليه من الوثاق وأمسك بالايدى وقد صار كأعظم مايكون من الزقاق المنفوخة وقد ورم سائر أعضائه وعظم جسمه وعيناه قد امتلأتا وبرزتا فلما كاد أن ينشق أمر بعض الأطباء فضربه فى عرقين فوق الحاجبين وهما فى الجبين فأقبلت الريح تخرج منهما مع الدم ولها صوت وصفير الى أن خمد وتلف وكان ذلك أعظم مارؤى فى ذلك اليوم من العذاب

ولما كثرت مظالم المعتضد وكثر سفكه للدماء قيل انه ظهر له شخص فى صور مختلفة فى داره فكان تارة يظهر فى صورة راهب ذى لحية بيضاء وعليه لباس الرهبان وتارة يظهر شابا حسن الوجه ذا لحية سوداء بغير تلك البزة وتارة يظهر شيخا أبيض اللحية ببزة التجار وتارة يظهر بيده سيف مسلول وضرب بعض الخدم فقتله فكانت الابواب تؤخذ وتغلق فيظهر له أين كان فى بيت أوصحن أوغيره وكان يظهر له فى أعلى الدار التى بناها فأكثر الناس القول فى ذلك واستفاض الأمر واشتهر فى خواص الناس وعوامهم والقول فى ذلك على حسب ماكان يقع لكل واحد منهم فمن قائل ان شيطانا مريدا أصمد له يظهر فيؤذيه ومنهم من يقول ان بعض مؤمنى الجن رأى ماهو عليه من المنكر وسفك الدماء فظهر له رادعا وعن المنكر زاجرا ومنهم من رأى أن ذلك من بعض خدمه كان قد هوى بعض جواريه فاحتال بحيلة فلسفية من بعض العقاقير الخاصة يضعها فى فمه فلا يدرك بحاسة البصر وكل ذلك ظن وحسبان فلما اشتد أمر ذلك على المعتضد أحضر المعزمين وقد كبر قلقه واستوحش وحار عليه أمره فقتل وغرق جماعة من خدمه وجواريه وضرب وحبس جماعة منهم وعمل أعمالا لايسعنا ذكرها هنا لشناعتها

ومات المعتضد لاربع ساعات خلت من ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين فى قصره المعروف بالحسنى بمدينة السلام وقيل ان وفاته كانت بسم دسه اليه اسماعيل بن بلبل قبل قتله اياه فكان يسرى فى جسده ومنهم من ذكر أن جسمه تحلل فى مسيره فى طلب وصيف الخادم ومنهم من رأى أن بعض جواريه سمته فى منديل أعطته اياه يتنشف به وقيل غير ذلك مما لم نذكره هنا وقد كان أوصى أن يدفن فى دار محمد بن عبد الله ابن طاهر فى الجانب الغربى من الدار المعروفة بدار الرخام فلما اعتراه الغشى ووقع للموت شكوا فى وفاته فتقدم الطبيب الى بعض أعضائه لجسه فأحس به وهو على ما به من السكرات فأنف من ذلك وركله برجله فقلبه أذرعا فيقال ان الطبيب مات منها ومات المعتضد من ساعته وسمع ضجة وهو على ما به من الحال ففتح عينه وأشار بيديه كالمستفهم فقال له مؤنس الخادم ياسيدى الغلمان قد ضجوا عند القاسم بن عبيد الله فاطلقنا لهم العطاء فقطب وجهه وهمهم فى سكرته فكادت أنفاس الجماعة أن تخرج من هيبته وحمل الى دار محمد ابن عبد الله بن طاهر فدفن بها * قال صاحب مروج الذهب وللمعتضد أخبار وسير وحروب وسير فى الارض غير ماذكر وكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر ويومين قيل ولما حضرته الوفاة أنشد

تمتع من الدنيا فانك لاتبقى * وخذ صفوها ماان صفت ودع الرنقا
ولا تأمنن الدهر انى أمنته * فلم يبق لى خلا ولم يرع لى حقا
قتلت صناديد الرجال ولم أدع * عدوا ولم أمهل على طغيه خلقا
وأخليت دار الملك من كل نازع * فشردتهم غربا ومزقتهم شرقا

فلما

فلما بلغت النجم عزا ورفعة * وصارت رقاب الخلق أجمع لى رقا
رمانى الردى سهما فأخمد جرتى * فها أنا ذا فى حفرتى عاجلا ألقى
ولم يغن عنى ماجمعت ولم أجد * لذى الملك والأحياء فى حسنها رفقا
فياليت شعرى بعد موتى ما ألقى * الى نعم الرحمن أم ناره ألقى

وكان المعتضد أسمر نحيف الجسم معتدل الخلق قد وخطه الشيب وكان شهما شجاعا مقداما ذا عزم وفيه شح مهيبا عند أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن الظلم خوفا منه وبعد موته تولى الخلافة بعده ولده أبو محمد على المكتفى بالله

(الفصل السابع عشر)

﴿فى خلافة أبى محمد على المكتفى بالله بن المعتضد﴾

ثم قام بالامر بعد المعتضد ابنه أبو محمد على المكتفى بالله بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل بن المعتصم بويع له بالخلافة يوم مات أبوه وهو يوم الاثنين لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين هجرية أى سنة احدى وتسعمائة للميلاد وأخذ له البيعة القاسم بن عبيد الله والمكتفى يومئذ بالرقة وله من العمر نيف وعشرون سنة فلما وصله الخبر أخذ البيعة على من عنده من الاجناد ووضع لهم العطاء وسار الى بغداد ووجه الى النواحى من ديار ربيعة ومضر ونواحى العرب من يحفظها وكان وصوله الى مدينة السلام يوم الاثنين لسبع ليال بقين من جمادى الاولى سنة تسع وثمانين ومائتين وكان دخوله اليها فى البحر ونزل قصر الحسنى على دجلة وخلع على القاسم بن عبيد الله ولم يخلع على أحد من القواد وفى اليوم الذى دخل فيه مدينة السلام قتل عمرو بن الليث الصفار قتله صبرا صافى الحرمى وكان أمر قتله من أغرب الامور وذلك أنه لما قبض على عمرو المذكور فى أيام المعتضد وأودع فى السجن مدة مرض المعتضد قد ذكره المعتضد عند امتناعه من الكلام واحتضاره فأشار بيديه يريد صافيا الحرمى فلما حضر اليه أمره بقتل عمرو المذكور بالايماء والاشارة بان وضع يده على رقبته وعلى عينه يعنى بذلك أذيم الاعور فلم يفعل ذلك صافى لعلمه بقرب وفاة المعتضد وكره قتل عمرو المذكور فلما دخل المكتفى مدينة السلام سأل القاسم بن عبيد الله الوزير عنه فقال هو حى يرزق فسر بذلك وأراد الاحسان اليه لانه كان يكثر من الهدية اليه لما كان بالرى فكره الوزير ذلك فبعث اليه من قتله وعلم المقتدر عما جرى فأكبر الامر وأعظمه جدا وكان دائما يذكر هذه الفعلة للقاسم ولاينساها * ولم تستقر الخلافة بالمكتفى حتى أمر بهدم المطامير التى كان المعتضد اتخذها لعذاب الناس وأطلق من كان

محبوسا فيها وأمر برد المنازل التى كان المعتضد اتخـذها لموضع المطامير الى أهلها وفرق فيهم أموالا فمالت قلوب الرعية اليـه وكثر الداعى له بهذا السبب وغلب عليه القاسم بن عبيد الله وفاتك مولاه فكان بعـد ذلك لايعمل الا بمشورتهما * وجاءته الكتب تترى من أهـل مصر والشام يشكون مايلقون من القرمطى من القتل والسبى والتخريب وقد كان عاث هو وأصحابه فى سائر البلاد وأفحش فى القتل واراقة الدماء بلا رحمة ولا شفقة وحصر دمشق وضيق عليها فجاءت اليها النجدة من مصر و بغداد وسير المصريون لقتاله بيدرا القائد وغيره من كبار القواد فقاتلوا شيخا مقـدم القرامطة وشـددوا فى قتاله وألحوا فقتـل على باب دمشق وأحرق وقتل خلق كثـير من القـرامطة وتفرق من بقى منهـم ثم عادوا فاجتمعوا على الحسـين أخى شيخ المـذكور فسمى نفسـه أحمـد وكنى بأبى العباس ودعا النـاس فأجابه أكثر أهـل البوادى وغيرهم فاشتدت شوكته وجعـل عوّه على الناس وأظهر شامة فى وجهه وزعم أنها آية وسار بجيوشه الى دمشق فخافه أهلهـا وصالحوه على خراج دفعوه اليـه وانصرف عنهم ثم سار الى أطراف حمص فأخـذها وخطب له على منابرهـا وتسمى المهدى أمير المؤمنـين وأتاه ابن عم له اسمه عيسى المهـدى فلقبـه المدثر وعهد اليـه وزعم انه المدثر المذكور فى القرآن ولقب غـلاما من أهـله المطوّق وقلده قتل أسرى المسلمين ثم سار الى حماة ومعرّة النعمـان وغيرهما فقتـل وسبى وأحرق وخرّب وقتـل النساء والصبيان ثم سار الى بعلبك فقتل عامة أهلها فلم يبق منهـم الا اليسير ثم سـار الى السلمية فمنعـه أهلها ثم صالحهم وأعطاهـم الامان ففتحوا له بابها فبدأ بقتـل من فيها من الهاشميـين وكانوا جماعـة ثم قتل البهائم والصبيان بالمكاتب ثم خرج منهـا وليس بهـا عـين تطرف وسار فيمـا حـولها من القرى يسـبى و يقتـل ففضج الناس وعجوا الى الله تعالى وخاف الخليفـة المكتفى شر العاقبة فجهز فى رمضان من السـنة أى سنة ست وتسعين ومائتين جندا عظيمـا وخرج بهم من بغـداد فى الشهر بعينه وجعـل طريقـه على الموصل وقدم بين يديه أبا الاغر فى عشرة آلاف رجـل فنزل قريبا من حلب فكبسهم القرمطى صاحب الشامة فقتل منهم خلقا كثيرا وسلم أبو الاغر فدخل حلب فى ألف رجل فسبقه القرمطى الى باب حلب فقاتله أبو الاغر بمن بقى معه وأهـل البلد فرجع عنهم وما اسـتهل شوّال حتى وصـل بدر مولى ابن طولون فى عسكره وانقض على القرمطى وقاتله قتـالا شديدا فانهزم القرمطى وقتل من أصحابه خلق كثـير ومضى من سـلم منهم نحو البادية فوجه الخليفة المكتفى فى أثرهم الحسين بن حمدان وجماعة من القواد فلم يدركهم وما زال الحال هكذا الى مستهل سنة سبع وتسعين ثم شدد المكتفى فى قتال القرمطى وولى محمد بن سليمان الكاتب أمر حربه ورسم له بمناهضـة القرمطى فسار اليه محمد فى عسكر الخليفة فلاقاه على مقربة من حماة فسير اليهم القرمطى جماعة من أصحابه وبقى هو فى جماعة ومعه أمواله وسواد عسكره فالتحمت الحرب بين الفريقين واشتدّت فانهزمت القرامطة وقتـل منهم مقتلة عظيمة وتمزق من بقى وفرّ الى البوادى فتبعهم أصحاب الخليفـة فلما رأى القرمطى ماحـل بأصحابه

ركب هو وابن عمه المسمى بالمدثر والمطوق صاحبه وغلام له رومى وسار يريد الكوفة عرضا فى البرية فلما وصل الى الدالية من أعمال الفرات نفد ما كان معهم من الزاد والعلف فوجه بعض أصحابه الى الدالية المعروفة بابن طوق ليشترى لهم مايحتاجون اليه فلما صار فى سوق البلد أنكروا حاله فسألوه عن أمره فكتمه فرفعوه الى متولى تلك الناحية فسأله عن خبره فأعلمه أن القرمطى صاحب الشامة خلف رابية هنالك مع ثلاثة نفر فسير اليهم الوالى من قبض عليهم ثم وجه بهم الى المكتفى بالرقة ورجعت الجيوش بعد أن قتلوا وأسروا وفى يوم الاثنين لاربع بقين من المحرم أدخل صاحب الشامة الرقة على جمل ظاهر للناس وبين يديه المدثر والمطوق ثم سار من هنالك مع الخليفة المكتفى الى بغداد فادخل اليها على فيل وأصحابه على الجمل فأودعوهم السجن حتى قدم محمد بن سليمان الكاتب فى عسكره ومعه جماعة من أعيان القرامطة ورؤسهم فأمر الخليفة بقطع أيديهم وأرجلهم وقطع أعناقهم وضرب صاحب الشامة ألفى سوط وقطعت يداه وكوى فغشى عليه وأخذوا حطبا ووضعوا فيه نارا ووضعوه على خواصره فجعل يفتح عينه ويغمضها فلما خافوا موته ضربوا عنقه ورفعوا رأسه على خشبة فكبر الناس لذلك كثيرا وفرحوا بموته فرحا عظيما

وكان هرون بن خمارويه لما عاقد الخليفة المعتضد وعاهده على الولاء والطاعة أيام خلافته خوفا من زحفه على أملاك مصر ونزعها منه جعل يراقب الفرص ليتخلص من ربقة تلك العقود فلما ظهر القرمطى صاحب الشامة وكان من أمر خروج الخليفة المكتفى ومعه محمد بن سليمان الكاتب فى مقدمة عسكره وظهر أمر ابن الكاتب واتسعت كلمته بعد ظفره بالقرمطى عمد هرون بن خمارويه الى استمالة ابن الكاتب سرا وأوعز الى بدر الحمامى غلام أحمد بن طولون وفائق أحد أصحابه وهما بدمشق أن يكاتبا ابن الكاتب فى ذلك ويدعوانه الى قصد البلاد بالعساكر فكتبا اليه ووعداه بالمساعدة على أخذها فكتم ابن الكاتب أمر ذلك ولما عاد الى بغداد أنهاه الى الخليفة المكتفى فكاد الخليفة يتميز غيظا وأمر ابن الكاتب بالعود وسير معه الجنود والاموال ووجه دميانة غلام بازمار أيضا وأمره بركوب البحر الى مصر ودخول النيل وقطع الوارد عنها فسار دميانة ووصل اليها وشدد فى حصار المدينة وضيق على أهلها وزحف اليهم محمد بن سليمان فى عسكره فى البر حتى صار على مقربة من مصر وكاتب من بها من القواد فكان أول من طلب الامان بدر الحمامى وهو مقدمهم فانحلت عقدتهم وانفشلوا جميعا وتتابع المستأمنة من القواد فلما رأى ذلك هرون بن خمارويه خرج فيمن معه لقتال محمد بن سليمان فكانت بينهم وقائع كثيرة واتفق فى هذه الاثناء أن وقع بين عسكر هرون خلاف وعظم شرهذا الخلاف فاقتتلوا فخرج هرون يسكنهم فرماه بعض المغاربة بمزراق فقتله فلما قتل استقدموا عمه شيبان وولوه مكان هرون فبذل المال للجند فأطاعوه واجتمعوا عند كلمته وحاربوا معه فأتتهم كتب بدر الحمامى يدعوهم الى الامان فأجابوه الى ذلك ووصل الخبر الى محمد بن سليمان بما جرى فسار الى

مصر فأرسل اليه شيبان يطلب الامان فأجابه فخرج اليه ليلا ولم يعلم به أحد من الجند فلما أصبحوا لم يجدوه فى داره فقيل ان محمد بن سليمان الكاتب قبض عليه وقتله وقيل بل هرب فى أرض الله واسعة الفضاء ودخل ابن الكاتب مصر واستولى على دور آل طولون وأموالهم وقبض عليهم جميعا وهم بضعة عشر رجلا فقيدهم وسجنهم واستقصى أموالهم وكتب بالفتح الى الخليفة المتوكل فأمره باشخاص آل طولون وأسبابهم وجميع متاعهم من مصر والشام الى بغداد وأن لايترك منهم أحدا ففعل وقد عاث أصحابه وأفسدوا وأحرقوا وقتلوا من السودان سكان قطائع ابن طولون خلقا عظيما للغاية وولى معونة مصر عيسى النوشرى فبادت من ذلك اليوم دولة بنى طولون وخلت منهم الديار وعفت الآثار وتعطلت منهم المنازل وحل بهم التنكيل والذل فرثاهم الشعراء وبكاهم الناس كثيرا فممن رثاهم من الشعراء المعاصرين أحمد بن اسحق الجفر واسماعيل بن أبى هاشم ومحمد بن طسويه وسعيد القاص وأحمد بن محمد الحبيشى وأحمد بن يعقوب فما قاله القاص من قصيدة طويلة هذه الابيات

جرى دمعه مابين سحر الى نحر * ولم يجر حتى أسلمته يد الصبر
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى * يبيت على جمر ويضحى على جمر
تتابع أحداث يضيعن صبره * وغدر من الايام والدهر ذو غدر
أصاب على رغم الانوف وجدعها * ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر
وفقد بنى طولون فى كل موطن * أمرّ على الاسلام فقدا من القطر
وكان أبو العباس أحمد ماجدا * جميل المحيا لايبيت على وتر
كأن ليالى الدهر كانت لحسنها * واشراقها فى عصره ليلة القدر

الى أن قال

ترى أثرا لم يبق من يستطيعه * من الناس فى بدو البلاد ولا حضر
وقام أبو الجيش ابنه بعد موته * كما قام ليث الغاب فى الاسل السمر
أتته المنايا وهو فى أمن داره * فأصبح مسلوبا من النهى والامر

الى أن قال

فمن يبك شيأ ضاع من بعد أهله * لفقدهم فليبك حزنا على مصر
ليبك بنى طولون اذ بان عصرهم * فبورك من دهر وبورك من عصر

ثم ظهر بعد ذلك بقليل رجل يعرف بالخلنجى وهو من قواد آل طولون وكان تخلف عن محمد بن سليمان فاستمال جماعة من المصريين وقاموا معه وخالفوا على السلطان وكثر جمعه وعلت كلمته وعجز النوشرى عن رده فسار النوشرى الى الاسكندرية ودخل الخلنجى مصر وجعل يتصرف فى الامور فكتب النوشرى الى الخليفة المكتفى بالخبر وطلب منه النجدة فسير اليه الجنود مع فاتك التركى مولى المعتضد وبدر الحمامى فساروا فى شوال ووصلوا الى نواحى مصر وتقدم أحمد بن كيغلغ فى جماعة من القواد فلقيهم الخلنجى بالقرب

من العريش فى جيش عظيم فاقتتلوا فانتصر عليهم الخلنجي وهزمهم شرهزيمة فطلبوا من الخليفة بعض القواد فسير اليهم جماعة منهم واتصلت الاخبار بقوة الخلنجي فبرز المكتفى الى باب الشماسية ببغداد ليسير الى مصر واهتم لذلك جدا ونادى بالتأهب للسير فبينما هو على هذا الحال اذ جاء كتاب من فاتك فى شعبان يذكر أنه هو والقواد جدوا فى قتال الخلنجي فكانت بينهم حروب كثيرة قتل فيها خلق كثير وان آخر حرب كانت بينهم قتل فيها معظم أصحاب ابراهيم الخلنجي وانهزم الباقون وظفروا بهم وغنموا عسكرهم وهرب الخلنجي فدخل فسطاط مصر فاستتر بها عند رجل من أهل البلد فدخلوا المدينة فدلوا عليه فأخذوه ومن استتر عنده وألقوهم فى الحبس فكتب المكتفى الى فاتك فى حمل الخلنجي ومن معه الى بغداد وعاد المكتفى فدخل بغداد وأمر برد خزائنه وآلات حربه وكانت قد سارت فبلغت تكريت فوجه فاتك بالخلنجي الى بغداد فدخلها هو ومن معه فى شهر رمضان من السنة فأمر المكتفى بحبسهم ورجع النوشرى الى مصر فأقام واليا عليها خمس سنين وشهرين وخمسة عشر يوما ومات سنة سبع وتسعين ومائتين أى فى خلافة المقتدر بالله كما سيأتى بيانه فى محله

ولما كانت سنة خمس وتسعين ومائتين هجرية مرض المكتفى بالله وثقل به مرضه الى شهر ذى القعدة فتوفى فى ثالث عشره وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة وقيل اثنتان وثلاثون سنة فكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوما وكان ربعة جميلا رقيق البشرة حسن الشعر وكنيته أبو محمد ودفن بدار محمد بن طاهر وكان يحب على بن أبى طالب ويميل الى ذريته * يحكى أن يحيى بن على الشاعر أنشده بالرقة قصيدة يذكر فيها فضل أولاد العباس على أولاد على فقطع المكتفى عليه انشاده وقال يا يحيى كأنهم ليسوا بنى عم ماأحب أن يخاطب أهلنا بشئ من ذلك وان كانوا خلفاء ولم يسمع القصيدة ولاأجازه عليها * قال بعض أصحاب التاريخ ولكنه لم يمض على خلافته قليل حتى تبدلت طباعه وتغيرت أحواله وركب متن هواه فسلك مسالك أبيه ومالت نفسه الى الايذاء والعبث بحقوق الرعية وأمر أن يتخذ له قصر بناحية الشماسية بازاء قطربل فأخذ بهذا السبب ضياعا كثيرة ومزارع كانت فى تلك النواحى بغير ثمن من ملاكها فكثر الداعى عليه فلم يستتم ذلك البناء حتى توفى وكان هذا الفعل مشاكلا لفعل أبيه المعتضد فى بناء المطامير وكان وزيره القاسم بن عبيد الله عظيم الهيبة شديد الاقدام سفاكا للدماء وكان الكبير والصغير على رعب منه لايعرف أحد منهم لنفسه نعمة معه وكانت وفاة القاسم المذكور عشية الاربعاء لعشر خلون من شهر ربيع الآخر سنة احدى وتسعين ومائتين وله نيف وثلاثون سنة قيل وكان ممن قتله القاسم بن عبيد الله المذكور عبد الواحد بن الخليفة الموفق وكان معتقلا عند مؤنس فبعث اليه حتى أخذ برأسه فى أيام المكتفى وقد كان المعتضد يعزه ويميل اليه ميلا شديدا اذ لم يكن لعبد الواحد المذكور همة فى خلافة ولاطموح الى رياسة بل كانت همته فى اللعب مع الاحداث وقد كان المكتفى أخبر عنه انه أرسل عدة من غلمانه

الخاصة فوكل به من يراعى خبره وما يظهر من قوله اذا أخذ الشراب منـه فسمع منه وقد طرب وهو ينشد شعر العتابى حيث يقول

تـلوم على ترك الغناء بأهـله * طوى الدهرعنهامن طريف وتالد
رأت حولها النسوان يمشين حلقة * مقلدة أجيادها بالقـلائد
يسرك أنى نلت مانال جعـفر * من الملك أومانال يحيى بن خالد
وان أمير المؤمنـين أغصـنى * مغصهما بالمـرهفات البـوارد
ذرينى تجئنى ميتتى مطمئنـة * ولم أتجشم هـول تلك الموارد
فان نفيسات الامور مشـوبة * بمستودعات فى بطون الاساود
وان الذى يسموالى درك العـلا * ملقى بأسـباب الردى والمكايد

فقال له بعض ندمائه وقـد أخـذ منـه الشراب ياسيدى أين أنت مما تمثـل به يزيد ابن المهلب

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجـد * حياة لنفسى مثل أن أتقـدما

فقال له عبد الله مه لقـد أخطأت الغرض وأخطأ ابن المهلب وأخطأ قائل هـذا البيت وأصاب أبو فرعون التيمى حيث يقول قال النديم حيث يقول ماذا قال قال

ومابى شئ فى الوغى غـير أننى * أخاف عـلى فخارتى أن تحطما
فلو كنت مبتاعا من السوق مثلها * لدى الروع ماباليت أن أتقدما

فلما انتهى ذلك الى المكتفى ضحك وقال قـد قلت للقاسم ليس عمى عبـد الواحـد ممن تسمو همته الى الخلافة هـذا قول من ليس له همة غير فرجه وجوفه وأمرد يعانقه وكلاب يهارش بها وكباش يناطح بها وديوك يقاتل بها أطلقوا لعمى كذا وكذا فـلم يزل القـاسم المذكور بعبد الواحـد حتى قتله كما تقدم وقد كان المكتفى لما أن مات القاسم وتبـين قتله لعبد الواحد أراد نبش القاسم من قبره وضربه بالسوط وحرقه بالنار وقيل غير ذلك

ومات فى أيامـه أيضا خائيل بطرك الاسكندرية فكانت مدته نحو خمس وعشرين سـنة ووقع فيها من الحوادث والمحن شئ كثير جدا أضربنا عن ايراده هنا فخلا الكرسى بعده أربع عشرة سنة الى سـنة احدى وثلاثين وثلاثمائة هجرية أى نحو سنة خمس وسبعين وتسعمائة ميلادية اشتدّ فيها الخطب على المتأصلين وعظمت نكايتهم ثم قدّموا غبريال كما سيأتى بيان ذلك فى خلافة المتقى بالله ابراهيم بن المقتدر بن المعتضد واحترقت فى خلال هذه الفترة أيضا كنيسة القيامة الكبرى بالاسكندرية فى يوم الاثنين السادس شوّال سنة ثلاثمائة أى نحو سنة أربع وأربعين وتسعمائة ميلادية وهى التى كانت هيكل زحل قبل المسيحية وكانت من بناء قلوبطره ملكة مصر وهى معظمة عند المسيحيين فلم يبق منها حجر على حجر

(الفصل الثامن عشر)

(في خلافة أبي الفضل جعفر المقتدر بالله)

ثم قام بالامر بعد المكتفي بالله أخوه أبو الفضل جعفر المقتدر بن المعتضد بويع له بالخلافة في يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين هجرية أى نحو سنة سبع وتسعمائة ميلادية وكان له يوم بويع ثلاث عشرة سنة * قال أصحاب التاريخ وكان السبب في ولاية أبي الفضل جعفر المقتدر المذكور أنه لما ثقل المرض بالمكتفي فكر العباس ابن الحسن وزير المكتفي يومئذ فيمن يصلح للخلافة بعد المكتفي وكان الذين يتولون الدواوين أربعة هم أبو عبد الله بن محمد وداود بن الجراح وأبو الحسن محمد بن عبدان وأبو الحسن على ابن محمد بن الفرات فكان اذا ركب العباس بن الحسن الوزير المذكور سار في ركابه أحد الاربعة ليوصله الى دار الخلافة فسأل الوزير يوما ابن الجراح فيمن يصلح للخلافة بعد المكتفي فقال عبد الله بن المعتز وأخذ يصفه بالعقل وأصالة الرأى مع الوقار والحشمة ثم استشار أبا الحسن بن الفرات فى ذلك أيضا فلم يبد رأيا فألح عليه فقال فليتق الله الوزير ولا يولى الخلافة الا من قد عرفه واطلع على جميع أحواله ولا ينصب بخيلا يضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ولا طماعا يشره في أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم ولا قليل الدين لا يخاف العقوبة والآثام ولا يرجو الثواب فيما يفعله ولا يولى من عرف نعمة هذا وبستان هذا وضيعة هذا وفرس هذا ومن قد لقى الناس ولقوه وعاملهم وعاملوه ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم وخرجهم فقال الوزير صدقت ونصحت فمن تشير قال أصلح الموجودين جعفر بن المعتضد قال ويحك هو صبي قال ابن الفرات ولكنه ابن المعتضد ولم نأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج الينا ثم استشار الوزير أيضا ابن عيسى فيمن يولى الخلافة فلم يذكر له أحدا فأعجب الوزير رأى ابن الفرات ومال الى تولية أبي الفضل جعفر فلما مات المكتفي بايعوا أبا الفضل ولقبوه المقتدر بالله واستقرت به الخلافة فاستصغره الوزير وجعل يتصرف هو في الأمور ثم عزم على خلعه وتقليد الخلافة لابى عبدالله محمد بن المعتمد وكان حسن السيرة جميل الوجه والعمل فراسله في ذلك وبقى الامر مستورا ليتمكن الوزير من التغلب على غلمان المعتضد ان همّ بخلع المقتدر * واتفق أن وقعت منازعة بين أبي عبد الله المذكور وبين ابن عمرويه صاحب الشرطة بسبب ضيعة مشتركة بينهما فأغلظ له ابن عمرويه فغضب ابن المعتمد غضبا شديدا وأغمى عليه وأفلج في المجلس فحمل الى بيته في محفة فمات في اليوم الثاني فأراد الوزير البيعة لابى الحسين بن المتوكل فمات أيضا بعد خمسة أيام وأبى الله الا أن يتم الأمر للمقتدر فلما كانت سنة ست وتسعين ومائتين استمال الوزير العباس بن

الحسن الى رأيه جميع القواد والقضاة والكتاب فتعاهدوا على خلع المقتدر والبيعة لابن المعتز وأرسلوا الى ابن المعتز فى ذلك فأجابهم على أن لايحصل حرب ولا سفك دم فوافقوه على ذلك وجعلوا يتأهبون وعاد المقتدر فتودد الى العباس الوزير ورأى العباس أمره صالحا مع المقتدر فاحجم عن خلعه وتزلف اليه فلما آنس منه ذلك جماعة القواد قاموا عليه وقتلوه وقتلوا معه فاتكا المعتضدى وأصبحوا وقد خلعوا المقتدر وبايعوا ابن المعتز وساروا الى المقتدر ليقتلوه فلم يتمكنوا من ذلك فاحضروا ابن المعتز ولقبوه المرتضى بالله وأجلسوه على كرسى الخلافة فاستوزر محمد بن داود بن الجراح وقلد علىّ بن عيسى الدواوين فكتب الكتب الى الآفاق من أمير المؤمنين المرتضى بالله أبى العباس عبد الله بن المعتز بالله * وسير الى المقتدر من يلزمه بالانتقال الى دار ابن طاهر التى كان مقيما فيها لينتقل هو الى دار الخلافة فطلب الامهال الى الليل وعاد الحسين بن حمدان يطلب المقتدر ليقتله وأحاط بدار الخلافة فقاتله الخدم والغلمان والرجالة من وراء الستور عامة النهار فانصرف عنهم ولما دخل الليل أخذ ماله وعياله وانصرف عن بغداد الى الموصل ولم يبق مع المقتدر من القواد أحد سوى مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال وحاشية دار الخلافة وقد صمموا على قتل ابن المعتز قبل قتلهم فجهزهم المقتدر بالاسلحة والدروع وركبوا فى السميريات وأصعدوا فى الماء يريدون مقرّ ابن المعتز فلما رآهم من عند ابن المعتز على هذا الحال هالهم أمرهم وكثرتهم وخافوا وهربوا على وجوههم قبل أن يصلوا اليهم وعلم ابن المعتز بذلك فركب ومعه وزيره محمد بن داود وهربا وغلام له ينادى بين يديه يامعشر العامة ادعوا لخليفتكم السنى البربهارى * قال بعض الكتاب وانما نسب هذه النسبة لان الحسين بن القاسم بن عبيد الله البربهارى كان مقدم الحنابلة والسنة من العامة ولهم فيه اعتقاد عظيم فأراد استمالتهم بهذا القول * وسار ابن المعتز ومن معه نحو الصحراء وكان يظن أن الجند الذين بايعوه يقومون لنصرته ويتبعونه حيث سار فلم يلحقه منهم أحد فلما خذل ابن المعتز نزل عن دابته ومعه غلام وانحدر الى دار أبى عبد الله الجصاص مستجيرا به واختفى محمد بن داود فى داره واختفى كل من بايع ابن المعتز فبرز ابن عمرويه وجمع أصحابه ونادى بشعار المقتدر تدليسا فقام عليه العامة وقاتلوه وسبوه فاختفى وتفرق أصحابه

وتقوت عزيمة المقتدر بعد ذلك فقلد الشرطة مؤنسا الخازن فخرج مؤنس بالعسكر وقبض على وصيف بن صوارتكين وغيره من أصحاب الفتنة فقتلهم وقتل القاضى المثنى أحمد بن يعقوب وأرسل المقتدر الى ابن الفرات وكان مختفيا وقلده الوزارة وخلع عليه وفتشوا على المعتز فدلهم غلام لابن الجصاص أنه عند مولاه ومعه جماعة فكبست دار ابن الجصاص وأخذ ابن المعتز منها وحبس الى الليل وعصرت خصيتاه حتى مات ولف فى زلى وسلم لاهله ونهبت أموال ابن الجصاص وقتل محمد بن داود وزير ابن المعتز ونفى على بن عيسى الى واسط وسيرت العساكر من بغداد فى طلب الحسين بن حمدان فلم يظفروا به فعادوا فكتب الوزير

الى أبي الهيجاء أخي الحسين بن حمدان وهو الأمير على الموصل يومئذ يأمره بطلب الحسين والاتيان به الى بغداد فسار خلفه وتبعه الى حيث سار فكانت بينهما وقائع وأمور يطول شرحها ثم تقدم أبو الهيجاء الى الوزير في طلب العفو عن الحسين بن حمدان فأجابه الوزير الى ذلك وعفا المقتدر عنه وعن آخرين ودخل الحسين بغداد وقام بها الى أن ولى قم فسار اليها

وجعل ابن الفرات الوزير يتصرف في الأمور فبسط العدل والاحسان وأخرج الارزاق والاموال للعباسيين والطالبيين وفرق الاموال في القواد وأرضاهم وصرف عنهم ما يكرهون فمالوا اليه وأحبوه * ومما حكى عن مكارم أخلاق ابن الفرات المذكور أنه كان بينه وبين سليمان بن الحسن بن مخلد مودة وصحبة قديمة فلما دانت للخليفة المقتدر الأمور بعد قتل ابن المعتز واستوزر ابن الفرات عثر ابن الفرات على كتب البيعة لابن المعتز فتأملها فاذا هي بخط سليمان لقرابة كانت بينه وبين ابن الجراح فلم يظهر عليها المقتدر وكتم أمرها عنه وأحسن الى سليمان وقلده المناصب العالية فلما تمكن وظهرت كلمته سعى بابن الفرات الى المقتدر وكتب بخطه مطالعة تتضمن ذكر أملاك الوزير وضياعه ومستغلاته وما يتعلق بأسبابه وأخذ الرقعة ليوصلها الى الخليفة المقتدر فلم يتهيأ له ذلك وجاء دار الوزير والرقعة معه فسقطت من كمه فظفر بها بعض الكتاب فأعطاها للوزير فلما قرأها تعجب جدا وقبض على سليمان وجعله في زورق وأحدره الى واسط ووكل به هناك وصادره في جميع أمواله ثم أراد العفو عنه فكتب اليه * نظرت أعزك الله في حقك عليّ وجرمك اليّ فرأيت الحق موفي على الجرم وتذكرت من سالف خدمتك ما عطفني عليك وثناني اليك وأعادني لك الى أفضل ما عهدت وأجمل ما ألفت * ثم أطلق له عشرة آلاف درهم وعفا عنه وأكرمه واستعمله ولم تطل وزارة ابن الفرات هذا حتى وشى به الوشاة عند الخليفة المقتدر فقبض عليه واستصفى أمواله وهتك حرمته واعتقله ووكل به ونهبت دور أصحابه ومن يتعلق به ووقعت الفتنة ببغداد لقبضه ولقي الناس شدة عظيمة ثلاثة أيام ثم سكنوا وكانت مدة وزارته هذه ثلاث سنين وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما وتولى الوزارة بعده أبو علي محمد بن يحيى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان فرتب أصحاب الدواوين وتولى الأمور وجعل يتصرف فيها ولكنه لم يفلح لانه كان ضجورا ضيق الصدر مهملا لقراءة كتب العمال وجباية الاموال وكان يظهر التواضع ويتقرب من العامة والخاصة وكان اذا رأى جماعة من العامة أو غيرهم يصلون جماعة نزل عن دابته وصلى معهم واذا سأله أحد حاجة دق صدره وقال نعم وكرامة فسماه الناس دق صدره وقصر في اطلاق الاموال للجند والقواد فتفرقوا عنه وانحط قدر الوزارة واستصغرها الناس وكان أولاده كثيرو التحكم عليه فكانوا يأخذون الرشاوى ويسألونه قضاء حاجات الراشين لهم فقال فيه بعض الشعراء

وزير قد تكامل فى الرقاعه * يولى ثم يعزل بعد ساعه
اذا أهل الرشا اجتمعوا لديه * فخير القوم أوفرهم بضاعه
وليس يلام فى هذا بحال * لان الشيخ أفلت من مجاعه

ثم زاد الامر به حتى تحكم أصحابه فكانوا يطلقون الاموال ويفسدون الاحوال فانحلت عقدة الوزارة وضعف أمرها وخرجت الممالك وطمع العمال فى الأطراف فلما زاد الحال أحضر الخليفة الوزير ابن الفرات من محبسه فجعله عنده فى بعض الحجر مكرما فكان يعرض عليه مطالعات العمال وغير ذلك من الاعمال وأحسن اليه ثم عزل الخاقانى وسلم الوزارة لعلى ابن عيسى والى مكة فأحسن التصرف وأصلح الأمور ورتب الاشغال وأطلق الاموال وعمر المساجد وفرشها ورتب لها المرتبات وأبطل بعض المكوس والمغارم التى أحدثها الخاقانى ثم خلعه وأعاد ابن الفرات ثم خلعه

ولما كانت سنة ثلاثمائة هجرية جهز المهدى صاحب المغرب عسكرا عظيما من افريقية وسيرهم مع ولده أبى القاسم الى الديار المصرية يريد غزوها وسلخها عن أملاك الخليفة المقتدر فساروا الى برقة واستولوا عليها وانحدروا منها الى مصر فملكوا الاسكندرية ومدينة الفيوم ومابينهما وتصرف أبو القاسم فيما نزل عليه من البلاد وضيق على أهلها وجباهم وزاد فى المغارم والمكوس فسير اليه الخليفة المقتدر بالله مؤنسا الخادم فى جيش عظيم فحاربهم وطالت الحرب بينهم ومازالت سجالا حتى أجلاهم مؤنس عن مصر فعادوا الى المغرب مهزومين فلم تكن الا سنة سبع وثلاثمائة حتى أعاد المهدى ابنه أباالقاسم الى مصر فى جيش ضخم للغاية فوصل الى الاسكندرية فى ربيع الآخر فخرج عامل المقتدر عنها هاربا ودخلها القاسم وأقام بها المرابطين من أصحابه وانحدر الى مصر فدخل الجيزة وملك الاشمونية ومدنا كثيرة من الصعيد الأوسط وكتب الى أهل مكة يدعوهم الى الدخول فى طاعته فلم يقبلوا منه وورد بذلك الاخبار الى بغداد فسير المقتدر مؤنسا الخادم فى جيش لقتال أبى القاسم فوقعت بينهما عدة وقائع وقدم من المغرب ثمانون مركبا لنجدة أبى القاسم بن المهدى فأرست بالاسكندرية وعليها سليمان الخادم ويعقوب الكتامى وهما من أشجع قواد صاحب المغرب وأعرفهم بفنون الحرب فخشى الخليفة المقتدر العاقبة وأمر فسيروا الى الاسكندرية مراكب طرسوس وعدتها خمسة وعشرون مركبا وفيها النفط والعدد ومقدمها أبو اليمن فالتقت بمراكب صاحب المغرب واقتتلوا على رشيد قتالا عنيفا فظفر أصحاب مراكب المقتدر وأحرقوا كثيرا من مراكب صاحب المغرب وهلك أكثر من فيها من الجند وأسر منهم خلق وبينهم سليمان الخادم ويعقوب ومات سليمان بالحبس بمصر وحمل يعقوب الى دار السلام ثم هرب منها وعاد الى افريقية وطالت أيام الحرب بين مؤنس الخادم وأبى القاسم بن المهدى ووقع الوباء فى عسكر أبى القاسم فمات منهم كثير فعاد من سلم الى افريقية وتبعهم عسكر مصر حتى أبعدوهم وسكنت الفتنة واطمأنت القلوب

وكثر عزل الخليفة المقتدر للوزراء وكبار الدولة وقواد الجند فكان يعزل الواحد منهم ويولى غيره ثم لايلبث أن يخلعه ويولى غيره وهكذا حتى ضجر أصحابه وكرهوه وقامت الوحشة بينه وبين مؤنس الخادم ونوزك صاحب الشرطة وبعض قواده فتآمروا على خلعه من الخلافة والبيعة لأخيه القاهر بالله محمد بن المعتضد فخرج مؤنس فى عسكره وخرج معه بقية المشاغبين وأحاطوا بدار الخلافة فتفرق من كان بها مع المقتدر وهرب جميع الخدم والاتباع والوزير أبو على بن مقلة ودخل مؤنس الدار وأخرج المقتدر ووالدته وخالته وخواصه من الجوارى وأولاده من دار الخلافة وحملوا الى دار مؤنس فاعتقلوا بها وأحضروا محمد بن المعتضد وبايعوه بالخلافة ولقبوه القاهر بالله وأحضروا القاضى أبا عمر عند المقتدر ليشهد عليه بالخلع فأشهد عليه القاضى بالخلع فقام ابن حمدان وقال للمقتدر ياسيدى يعز على أن أراك على هذه الحال وقد كنت أخافها عليك وأحذرها وأنصح لك وأحذرك عاقبة تقرب الخدم والنساء منك فتؤثر أقوالهم على قولى وكأنى كنت أرى هذا وبعد فنحن عبيدك وخدمك ودمعت عيناه وعينا المقتدر بالله وشهد الجماعة على المقتدر بالخلع وأودعوا الكتاب بذلك عند القاضى أبى عمر فكتمه ولم يظهره لأحد وأخرج مؤنس الخادم على بن عيسى من الحبس ورتب أبا على بن مقلة فى الوزارة وأضاف الى نازوك مع الشرطة حجبة الخليفة وكتب بذلك الى الآفاق ونهبت دار الخليفة وأخرجوا من قبر لوالدة المقتدر قد بنته لنفسها ستمائة ألف دينار فحملت الى دار الخلافة وكان خلع المقتدر فى النصف من المحرم ثم سكنت الحال وبطل النهب وقد كان عم بغداد كلها وتطاولت أيدى العامة الى فعل مالا خير فيه * ولما تم لنازوك أمر حجبة الخليفة أمر الرجالة المصافية بخلع خيامهم من دار الخلافة وأمر أصحابه أن يقيموا بمكانهم فعظم ذلك على المصافية وتقدم نازوك الى خلفاء الحجاب أن لا يمكنوا أحدا من الدخول الى دار الخليفة الا من له مرتبة فلما كان يوم الاثنين سابع عشر المحرم بكر الناس الى دار الخلافة ليروا موكب الخليفة الجديد فامتلأت المراحات والرحبات والطرق وشاطئ دجلة بالناس وكثر الزحام واختلط الناس بعضهم ببعض وحضر الرجالة المصافية شاكى السلاح يطالبون بحق البيعة وجوامك سنة وكان الحامل لهم على ذلك غيظهم مما فعله بهم نازوك صاحب الشرطة والحجابة من خلع خيامهم واخراجهم من دار الخلافة ثم صاحوا وارتفعت زعقاتهم فسمع بها نازوك فخاف أن يقع بينهم وبين أصحابه فتنة وقتال فتقدم الى أصحابه وأمرهم أن لا يتعرضوا لهم ولا يقاتلوهم فزاد شغبهم وهجموا يريدون صحن الدار فلم يمنعهم أصحاب نازوك فدخلوا جميعا وبأيديهم السلاح ووصلت أصواتهم الى مجلس القاهر بالله وعنده أبو على بن مقلة الوزير ونازوك وأبو الهيجاء بن حمدان فقال الخليفة لنازوك اخرج الى أولئك القوم فسكنهم وطيب قلوبهم فخرج اليهم وهو مخمور قد شرب طول ليلته فتقدم اليه الرجالة ليشكوا حالهم ويطلبوا مالهم من الجوامك فلما رآهم يقصدونه وبأيديهم السيوف خافهم على نفسه فهرب فطمعوا

فيه وتبعوه فانتهى به الهرب الى باب مسدود فأدركوه عنده فقتلوه بالسيوف وقتلوا خادمه وصاحوا يامقتدر * يامنصور * فهرب كل من كان فى الدار من الوزير والحجاب وسائر الطبقات وبقيت الدار فارغة فحملوا نازوك وصلبوه هو وخادمه أمام دجلة ثم ساروا الى دار مؤنس وهم فى ضجة شديدة وزعقات متتابعة وطالبوه بالمقتدر وغلمانه وأراد أبو الهيجاء بن حمدان أن يخرج من الدار فتعلق به القاهر وقال أنا فى ذمامك فأخذ بيده وهمّا بالخروج فوجدا الابواب مغلقة ورأى الظاهر كثرة الجمع فاشتدّ خوفه وحار فى أمره واختفى فى بستان الدار ودخل بعض الخدم فقتلوا أبا الهيجاء واحتزوا رأسه وحملوها واشتدّت زعقات الرجالة المصافية على مؤنس الخادم فقال وما ذا تريدون قالوا نريد المقتدر بالله الساعة فأمر بتسليمه اليهم فلم يقبل المقتدر الخروج وخاف على نفسه وامتنع فدخلوا عليه وحملوه وأخرجوه فحمله الرجالة على رقابهم حتى أدخلوه دار الخلافة فسأل عن أخيه القاهر وابن حمدان فقيل له هما حيان فكتب لهم أمانا بخطه وأمر خادما بالسرعة بكتاب الامان لئلا يحدث على أبى الهيجاء حادث فجىء له برأس أبى الهيجاء فأسف عليه كثيرا وأحضروا اليه القاهر فأدناه منه وأجلسه بجانبه وقبل جبينه وقال له يا أخى قد علمت أن لاذنب لك وأنك قهرت ولو لقبوك بالمقهور لكان أولى من القاهر والقاهر يقول يا أمير المؤمنين نفسى نفسى اذكر الرحم التى بينى وبينك فقال له المقتدر لا بأس عليك ولا تخف وأقسم له الايمان فسكن خوفه واطمأن قلبه وأخرجوا رأس نازوك ورأس أبى الهيجاء وشهرا ونودى عليهما هذا جزاء من عصى مولاه وأحضر المقتدر أبا علىّ بن مقلة وأعاده الى وزارته وكتب الى الآفاق بما تجدد له وسكنت الفتنة وأطلق للجند أرزاقهم وزادهم وأتم أعطياتهم قالوا وأمن مؤنسا الخادم ولم يفعل به شيأ لان ارجاع المقتدر الى منصب الخلافة بعد خلعه كان بارشاد مؤنس وتدبيره * وجعل الخليفة المقتدر يتصرف فى الأمور ويعزل ويولى فى الوزراء وأصحاب الرتب العالية ولم يقلع عما كان فيه حتى وقعت الوحشة بينه وبين مؤنس الخادم بسبب ذلك وحقد مؤنس على المقتدر وناواه الشر وجعل يراقب الفرص حتى فرغ بيت المال ولم يبق فيه مايسدّ طلبات الجند وأرزاقهم فأشار عليهم مؤنس بالخروج وطلب أرزاقهم فخرجوا جميعا وشغبوا وطلبوا من الخليفة المال فخاف وأراد أن ينحدر الى واسط ويكاتب العساكر من جهة البصرة والاهواز وفارس وكرمان وغيرها ويترك بغداد لمؤنس وأصحابه الى أن يجتمع به العسكر ويعود الى قتاله فردوه عن ذلك وزينوا له البقاء والخروج بمن عنده من الجند لقتال مؤنس وأصحابه فخرج كارها وبين يديه الفقهاء والقراء معهم والمصاحف مشهورة وعليه البردة والناس حوله فوقف على تل عال بعيد عن المعركة فأرسل قواد أصحابه يسألونه التقدم وأكثروا الرسل وهو واقف فلما ألحوا عليه تقدم من موضعه فانهزم أصحابه قبل أن يقترب منهم ولقيه على بن بليق وهو من أصحاب مؤنس فترجل وقبل الارض وقال له الى أين تمضى

ارجع فلعن الله من أشار عليك بالحضور فأراد الرجوع فلقيه قوم من المغاربة والبربر
فتركه علىّ معهم وسار عنه فشهروا عليه سيوفهم فقال ويحكم أنا الخليفة فقالوا قد عرفناك
ياسفلة أنت خليفة ابليس تبذل فى كل رأس خمسة دنانير وفى كل أسير عشرة دنانير وكان
قبل هزيمة أصحابه نادى مناديه بذلك ثم ضربه أحد المغاربة بسيفه على عاتقه فسقط على
الارض وذبحه بعضهم قيل ان على بن بليق هو الذى غمز عليه فقتلوه ورفعوا رأسه على
خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذوا جميع ماعليه حتى سراويله وتركوه مكشوف العورة
الى أن مرّ به رجل من الاكرة فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفن وأخفى قبره وكان
قتله وقت صلاة العصر يوم الاربعاء لثلاث ليال بقين من شوال سنة عشرين وثلاثمائة هجرية
أى نحو سنة أربع وستين وتسعمائة ميلادية وكان وزيره يومئذ أبا الفتح الفضل بن جعفر
ذكر أن الفضل المذكور أخذ الطالع فى وقت ركوب المقتدر بالله الى الواقعة التى قتل
فيها فقال له المقتدر أىّ وقت هو قال وقت الزوال فقطب المقتدر وأراد أن لايخرج فلم
يقدر على ذلك فكان آخر العهد به من ذلك الوقت * قال بعض الكتاب وهذا دليل القائلين
أن كل سادس من بنى العباس مخلوع مقتول * قلت فكان السادس منهم محمد بن هارون
مخلوع والسادس الآخر المستعين والسادس الآخر المقتدر بالله وهو ثامن عشرهم وكانت
خلافته أربعا وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وستة عشر يوما وله من العمر ثمان
وثلاثون سنة وخمسة عشر يوما وقيل غير ذلك * وكان كثير الطاعة والانقياد الى
النساء والخدم يأخذ بأقوالهم ويعمل بمشورتهم * قال صاحب النشوان وغيره ان صافيا مولى
المقتدر قال مشيت يوما بين يدى المعتضد يعنى أبا المقتدر بالله وهو يريد دار الحرم فلما بلغ
باب دار المقتدر وقف وتسمع وتطلع من خلل فى الستر فاذا هو بالمقتدر وله اذ ذاك خمس
سنين أونحوها وهو جالس وحوله قدر عشرة وصائف من أترابه فى قدر سنه وبين يديه طبق
فضة فيه عنقود عنب فى وقت فيه العنب عزيز جدا والصبى يأكل عنبة واحدة ثم يطعم الجماعة
عنبة عنبة على الدور حتى اذا بلغ الدور اليه أكل واحدة مثل ما أكلوا حتى فنى العنقود
والمعتضد يتميز غيظا ثم رجع ولم يدخل الدار فرأيته مهموما فقلت يامولاى ما سبب ما فعلت
فقال ياصافى والله لولا العار والنار لقتلت هذا الغلام اليوم يعنى المقتدر فان فى قتله صلاحا
للامة فقلت يامولاى ماشأنه وأىّ شئ عمل أعيذك بالله يامولاى من هذا فقال ويحك أنا
أبصر بما أقول أنا رجل قدسست الأمور وأصلحت الدنيا بعد فساد شديد ولابد من موتى
وأنا أعلم بعدى لايختارون أحدا على ولدى وأنهم سيجلسون ابنى عليا يعنى المكتفى وما أظن
عمره يطول للعلة التى به يعنى الخنازير التى كانت فى حلقه فيتلف عن قريب ولا يرى الناس
اخراجها عن ولدى ولايجدون بعده أمثل من جعفر يعنى المقتدر وهو صبى وله من الطبع
والسجايا هذا الذى رأيته من أنه أطعم الوصائف مثل ما أكل وساوى بينه وبينهن فى شئ
عزيز فى العالم والشح على مثله فى طباع الصبيان غالب فتحتوى عليه النساء لقرب عهده

بهن فيقسم ماجمعته من الاموال كما قسم العنب ويذر ارتفاع الدنيا فتضيع الثغور وتعظم الأمور وتخرج الخوارج وتحدث الاسباب التى يكون منها زوال الملك عن بنى العباس رأسا فقلت يامولاى يبقيك الله حتى ينشأ فى حياتك ويصير كهلا فى أيامك ويتأدب بأدبك ويتخلق بأخلاقك ولا يكون هذا الذى ظننت فقال ويحك احفظ عنى ما أقول لك فانه كما قلت قال ومكث يومه مهموما مغموما وضرب الدهر ضربانه ومات المعتضد وولى المكتفى ولم يطل عمره فمات وولى المقتدر فكانت الصورة كما قال مولاى المعتضد بعينها فكنت كلما ذكرت قوله أعجبت منه فوالله لقد وقفت على رأس المقتدر وهو فى مجلس لهو فدعا بالأموال فأخرجت اليه ووضعت البدر بين يديه فجعل يفرقها على الجوارى والنساء ويلعب بها ويمحقها ويهبها ففكرت قول مولاى المعتضد اه

واستعمل المقتدر على مصر فى خلافته أبا منصور تكين الخاص ثم صرفه فى سنة ثلاث وثلاثمائة وولى ذكاء أبا الحسن ثم صرف وأعيد تكين ثم صرف سنة تسع وولى هلال ابن بدر ثم صرف فى سنة احدى عشرة وولى أحمد بن كيغلغ ثم صرف من عامه وأعيد تكين الخاص فأقام الى أن مات سنة احدى وعشرين وثلاثمائة فى خلافة القاهر بن أحمد المعتضد كما سيذكر فى محله

(الفصل التاسع عشر)

(فى خلافة القاهر بالله محمد بن احمد المعتضد)

ثم قام بالامر بعد المقتدر أخوه أبو منصور محمد بن أحمد المعتضد بالله بويع له بالخلافة ببغداد لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلاثمائة هجرية أى نحو سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ميلادية ولقب بالقاهر وكان الذى أشار بالبيعة له أبو يعقوب اسحق بن اسمعيل النوبختى ومازال بمؤنس الخادم حتى استماله الى ذلك فأحضروه وبايعوه وكان مؤنس يخافه ويعرف شره فلما تمت له استحلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه بليق ولعلى بن بليق وأخذوا خطه بذلك تحرزا من بطشه وأرسل القاهر الى فارس فى طلب ابن مقلة فحضر فاستوزره واستحجب على بن بليق وجعل يتصرف فى الامور فأحضر والدة المقتدر وطالبها بما عندها من الاموال فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترف بشئ من المال والجوهر فضربها أشد مايكون من الضرب وعلقها برجلها وضرب المواضع الغامضة من بدنها فحلفت أنها لم تملك غير ماأطلعته عليه وقالت لو كان عندى مال لما أسلمت ولدى للقتل ثم صادر جميع حاشية المقتدر وأصحابه وحل جميع أوقاف والدة المقتدر وباعها وقد كانت موقوفة على البر والخير وشدد

فى البحث على أولاد المقتدر فكبس أعوانه الدور وفتشوها وأزعجوا الناس ومازالوا حتى عثروا على أبي العباس الراضى وهرون وعلى والعباس وابراهيم والفضل فحملوهم الى دار الخلافة فصودروا على مال كثير ثم وكل بهم من يناظرهم واشتد القاهر بالله على أصحاب المراتب فى دولته وأهل الوظائف فى بابه ولاسيما مؤنس الخادم وابن مقلة وابن بليق فكبر عليهم الامر وخشوا العاقبة فأوعز مؤنس الى أصحابه أن يأتوه بأخبار القاهر ووكل ابن بليق على دار القاهر أحمد بن زيرك وأمره بالتضييق على القاهر وتفتيش كل من يدخل الى الدار ويخرج منها وأن يكشف وجوه النساء المتنقبات وان وجد مع أحد رقعة دفعها الى مؤنس الخادم ففعل ذلك وبالغ فى التشديد وأخرجوا من كان محبوسا فى دار الخلافة وبينهم والدة الخليفة المقتدر فأخذها ابن بليق وتركها عند والدته وقد اشتدت بها علتها من ضرب القاهر فماتت فى جمادى الآخرة وكانت مكرمة مرفهة فدفنت فى تربتها بالرصافة فاضطرب القاهر من ذلك وعلم بأن ذلك انما هو برأى مؤنس وابن مقلة فأخذ فى تدبير الحيلة وقد تمكن من القاء الفتنة بين الاحزاب ومازال حتى افتتنوا وتفرق عن مؤنس أصحابه من طوائف الجند الذين كان معتمده عليهم ثم قبض على مؤنس وحبسه فى دار الخلافة وأراد القبض على ابن مقلة فاختفى فقلد الخليفة الوزارة أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيدالله وختم على دور مؤنس الخادم وابنه ودور ابن مقلة وأحمد بن زيرك والحسن بن هرون وجميع من كان له يد فى المشاغبة ونقل دوابهم ووكل بنسائهم وأمر باحراق دار ابن مقلة فأحرقت ونهبت دور أتباعهم ونادى على المستترين منهم واباحة مال من أخفاهم وهدم داره واجتهد فى طلب أحمد بن المكتفى فظفر به فبنى عليه حائطا وهو حى فمات وقد كانوا على عزم البيعة له وخلع المقتدر قبل ظهور أمرهم بأيام

ولما طال على مؤنس الحبس دس الى أصحابه من يحرضهم على الخروج على الخليفة والنداء بشعار مؤنس فثاروا وتبعهم سائر الجند وشغبوا وأحرقوا روشن دار الوزير أبى جعفر وقالوا لانرضى الا باطلاق مؤنس فلما عظم شغبهم دخل القاهر على علىّ بن بليق فأمر به فذبح واحتز رأسه فوضعوه فى طشت ثم مضى القاهر والطشت يحمل بين يديه حتى دخل على بليق فوضع الطشت بين يديه وفيه رأس ابنه فلما رآه بكى وأخذ يقبله ويرتشفه فأمر به القاهر فذبح أيضا وجعل رأسه فى طشت وحمل بين يدى القاهر حتى دخل على مؤنس فوضعهما بين يديه فلما رأى الرأسين تشهد واسترجع ولعن قاتلهما فقال القاهر جروا برجل الكلب الملعون فجروه وذبحوه وجعلوا رأسه فى طشت وأمر بالرؤس فطيف بها فى جانبى بغداد ونودى عليها هذا جزاء من يخون الامام ويسعى فى فساد دولته ثم أعيدت ونظفت وجعلت فى خزانة الرؤس كما هى العادة فى مثل هذه الاحوال عند الخلفاء * وكثر عسف القاهر بالله وسفكه للدماء ونكثه للعهود والايمان التى حلفها الى كبار العسكر الساجية وغيرهم من الذين قاموا لنصرته فأبغضوه وعملوا على خلعه وزادت رغبتهم فى ذلك بظهور علىّ بن مقلة بينهم

والاجتماع بهم ليلا تارة فى زى أعمى وتارة فى زى مكدى وتارة فى زى امرأة ويغريهم به ويخوفهم من شره ويذكر لهم غدره ونكثه وشره وخبثه وبالغ فى تحذير سيما كبير العسكر الساجية وتخويفه حتى بادروا جميعا وهموا بخلعه فجمع سيما جميع العسكر الساجية وأعطاهم العدّة والسلاح وتحالفوا مع العسكر الحجرية أيضا على أن يكونوا جميعا على قلب رجل واحد وقتل من خالف منهم فاتصل ذلك بالقاهر ووزيره الخصيبى فأعملا الحيلة على افساد أمرهم فلم يفلحا فلما كان يوم الاربعاء لست خلون من جمادى الاولى اجتمع الساجية والحجرية ومقدمهم سيما وزحفوا الى دار الخلافة ووكل سيما بأبوابها من يحفظها وبقى هو على باب العامة وهجموا على الدار من سائر الابواب وكان القاهر نائما مخمورا قد شرب أكثر ليلته فلما علا الضجيج وتتابعت زعقات الجند استيقظ مخمورا وطلب بابا يهرب منه فقيل له ان الابواب جميعها مشحونة بالرجال فهرب الى سطح حمام ودخل الجند فلم يجدوه فأخذوا الخدم وسألوهم عنه فدلوهم عليه فقصدوه فوجدوه وبيده السيف فاجتهدوا به فلم ينزل لهم فتلاينوا له فلم يقبل منهم وقال من صعد الىّ قتلته فأخذ أحدهم سهما وقال ان نزلت والا وضعته فى نحرك فنزل حينئذ اليهم فأخذوه وساروا به الى الحبس فحبسوه ثم سملوا عينيه وهرب وزيره الخصيبى ولبث القاهر معتقلا الى أن تمت البيعة لابى العباس أحمد بن المقتدر بالله ثم كان من أمره ماسيذكر فى محله ان شاء الله

وكان القاهر كثير التقلب سريع الغضب شديد البطش سفاكا للدم فخافه الناس وخشوا سطوته واتخذ حربة عظيمة يحملها فى يده اذا سعى فى الدار ويطرحها بين يديه فى حال جلوسه ويباشر الحرب بها لمن يريد قتله وكان قليل التثبت فى أمره * قال محمد بن علىّ العبدى الخراسانى الاخبارى وكان القاهر به آنسا قال خلا بى يوما فقال أصدقنى أوهذه وأشار الىّ بالحربة فرأيت والله الموت عيانا بينى وبينه فقلت أصدقك يا أمير المؤمنين فقال لى انظر يقولها ثلاثا فقلت نعم يا أمير المؤمنين قال عما أسألك عنه ولا تغيب عنى شيأ ولا تحسن القصة ولا تسجع فيها ولا تسقط منها شيأ قلت نعم يا أمير المؤمنين قال أنت علامة بأخبار بنى العباس من أخلاقهم وشيمهم من أبى العباس فمن دونه فقلت على أن لى الامان يا أمير المؤمنين قال ذلك لك قال قلت أما أبو العباس السفاح فكان سريعا الى سفك الدماء واتبعه عماله فى المشرق والمغرب فى فعله واستنوا بسيرته مثل محمد بن الاشعث بالغرب وصالح بن علىّ بمصر وحازم بن جذيمة وحميد بن قحطبة وكان مع ذلك بحرا سمحا وصولا جوادا بالمال وسلك من ذكرنا ممن كان فى عصره سبيله وذهبوا مذهبه مؤتمين به * قال وأخبرنى عن المنصور قلت الصدق يا أمير المؤمنين قال الصدق قلت كان والله أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس ابن عبد المطلب وبين آل أبى طالب وقد كان قبل ذلك أمرهم واحدا وكان أوّل خليفة قرّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى المنجم وأسلم على يديه وهو أبو هؤلاء النوبختية وابراهيم الفزارى المنجم صاحب القصيدة فى النجوم وغير ذلك من علوم النجوم

وهيئة الفلك وعليّ بن عيسى الاسطرلابى المنجم وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات الاعجمية الى العربية منها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السندهند وترجمت له كتب ارسطاطاليس من المنطقيات وغيرها وترجم له كتاب المجسطى لبطليموس وكتاب الارثماطيقى وكتاب اقليدس وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية وخرجت الى الناس فنظروا فيها وتعلقوا الى علمها * وفى أيامه وضع محمد بن اسحق كتاب المغازى والسير وأخبار المبتدا ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة ولا مصنفة وكان أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم فى مهماته وقدّمهم على العرب فاتخذت ذلك الخلفاء من بعده من ولده فسقطت وبادت العرب وزال بأسها وذهبت مراتبها وأفضت الخلافة اليه وقد نظر فى العلوم وقرأ المذاهب وارتاض فى الآراء ووقف على النحل وكتب الحديث فكثرت فى أيامه روايات الناس واتسعت عليهم علومهم

قال القاهر قد قلت فأحسنت وعبرت فبينت فأخبرنى عن المهدى كيف كانت خلافته قلت كان سمحا سخيا كريما جوادا فسلك الناس فى عصره سبيله وذهبوا فى أمرهم مذهبه واتسعوا فى مساعيهم وكان من فعله فى ركوبه أن يحمل معه بدر الدنانير والدراهم فلا يسأله أحد الا أعطاه وان سكت ابتدأه المفرّق بين يديه وقد تقدّم بذلك اليه وأمعن فى قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم فى أيامه واعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته لما انتشر من كتب مانى وابن ديصان ومرقيون مما نقله عبدالله بن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية الى العربية وما صنف فى ذلك ابن أبى العرجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن اياس من تأييد المذاهب المنانية والديصانية والمرقونية فكثرت بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم فى الناس * وكان المهدى أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم وأقاموا البراهين على المعاندين وأزالوا شبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكين * وشرع فى بناء المسجد الحرام ومسجد النبى صلى الله عليه وسلم على ما هما عليه الى هذه الغاية وبنى بيت المقدس وقد كان هدمته الزلازل * قال فأخبرنى عن الهادى على قصر مدّته كيف كانت أخلاقه وشيمه * قلت كان جبارا عظيما وأول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والاعمدة المشهورة والقسىّ الموترة فسلكت عماله طريقه ويمموا منهجه وكثر السلاح فى عصره * قال لقد أجدت فى وصفك وبالغت فيما ذكرت من قولك فأخبرنى عن الرشيد كيف كانت طريقته * قلت كان مواظبا على الحج والغزو واتخاذ المصانع والآبار والبرك والقصور فى طريق مكة وأظهر ذلك بها وبمنى وعرفات ومدينة النبى صلى الله عليه وسلم فعم الناس احسانه مع ماقرن به من عدله ثم بنى الثغور ومدّن المدن وحصّن فيها الحصون مثل طرسوس وأذنة وعمر المصيصة ومرعش وأحكم بناء الحرب وغير ذلك من دور السبيل والمواضع للمرابطين واتبعه عماله وسلكوا طريقته وتبعته رعيته مقتدية بعمله مستنة بامامته فقمع الباطل وأظهر الحق وأنار الاسلام وبرز على سائر الامم وكان أحسن الناس

فى أيامه فعلا أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور لما أحدثته من بناء دور السبيل بمكة واتخاذ المصانع والبرك والآبار بمكة وطريقها المعروف الى هذه الغاية وما أحدثته من الدور للتسبيل بالثغر الشامى وطرسوس وما أوقفت على ذلك من الوقوف وما ظهر فى أيامه من فعل البرامكة وجودهم وافضالهم وما اشتهر عنهم من أفعالهم وكان الرشيد أول خليفة لعب بالصولجان فى الميدان ورمى بالنشاب فى البرجاس ولعب بالاكرة والطبطاب وقرب الحذاق فى ذلك فعم الناس ذلك الفعل وكان أول من لعب بالشطرنج من خلفاء بنى العباس والنرد وقدم اللعاب وأجرى عليهم الرزق فسمى الناس أيامه لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها أيام العروس وله كثير مما يتجاوز النعت ويتفاوت فيه الوصف * قال القاهر فأراك قد قصرت فى تفصيل أم جعفر فلم ذلك قلت يا أمير المؤمنين ميلا الى الاختصار وطلبا للايجاز قال فتناول الحربة وهزها فرأيت الموت الاحمر فى طرفها ثم برق عينيه مع ذلك فاستسلمت وقلت هذا ملك الموت ولم أشك أنه يقبض روحى فأهوى بها نحوى فزغت منه فاسترجع وقد أخطأتنى فقال ويلك أبغضت ما فيه عيناك ومللت الحياة قلت ما هو يا أمير المؤمنين قال أخبار أم جعفر زدنى منها قلت نعم يا أمير المؤمنين كان من فعلها وحسن سيرتها فى الجد والهزل ما برزت فيه عن غيرها فأما الجد والآثار الجميلة التى لم يكن فى الاسلام مثلها مثل حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز فانها حفرتها ومهدت الطريق لمائها فى كل خفض ورفع وسهل وجبل ووعر حتى أخرجتها من مسافة اثنى عشر ميلا الى مكة فكان جملة ما أنفق عليها مما ذكر وأحصى ألف ألف وسبعمائة ألف دينار وما قدمت ذكره من المصانع والدور والبرك والآبار بالثغور والحجاز وانفاقها الألوف على ذلك دون ما كان فى وقتها من البذل وما عم أهل الفاقة من المعروف والخصب وأما الوجه الثانى مما تتباهى به الملوك فى أعمالهم وينعمون به فى أيامهم ويصونون به دولهم ويدوّن فى أفعالهم وسيرهم فهو أنها أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر وصنع لها الرفيع من الوشى حتى بلغ الثوب من الوشى الذى اتخذ لها خمسين ألف دينار وهى أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجوارى يختلفون على الدواب فى جهاتها ويذهبون فى حوائجها برسائلها وكتبها وأول من اتخذ القباب الفضة والآبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشى والسمور والديباج وأنواع الحرير من الاحمر والاصفر والاخضر والازرق واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر وشمع العنبر وتشبه الناس فى سائر أفعالهم بأم جعفر ولما أفضى الأمر الى ولدها يا أمير المؤمنين قدم الخدم وآثرهم ورفع منازلهم ككوثر وغيره من خدمه فلما رأت أم جعفر شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه وعممت رؤسهن وجعلت لهن الطرر والاصداغ والاقفية وألبستهن الاقبية والقراطق والمناطق فبانت قدودهن وبرزت أردافهن وبعثت بهن اليه فاختلفن بين يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه اليهن وأبرزهن للناس من الخاص والعام واتخذ الناس من الخاصة والعامة الجوارى المطمومات وألبسوهن الاقبية والمناطق وسموهن

الغلاميات

الغلاميات * فلما سمع القاهر ذلك الوصف ذهب به الفرح والطرب والسرور ونادى بأعلى صوته ياغلام قدح على وصف الغلاميات فبادر اليه جوار كثيرة قدّهن واحد توهمتهن غلمانا بالقراطق والاقبية والطرر ومناطق الذهب والفضة فأخذ الكأس بيده فأقبلت أتأمل صفاء جوهر الكاس ونورية الشراب وشعاعه وحسن أولئك الجوارى والحربة بين يديه وأسرع فى شربه فقال هيه قلت نعم ياأمير المؤمنين ثم أفضى الأمر الى المأمون فكان فى بدء أمره لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره يستعمل النظر فى أحكام النجوم وقضاياها و ينقاد الى موجباتها ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كاردشير بن بابك واجتهد فى قراءة الكتب القديمة وأمعن فى دراستها وواظب على قراءتها فتفنن فى فهمها وبلغ درايتها فلما كان من الفضل بن سهل ذى الرياستين ما اشتهر وقدم العراق فانصرف عن ذلك كله وأظهر القول بالتوحيد والوعد والوعيد وجالس المتكلمين وقرب اليه كثيرا من الجدليين والنظارين كأبى الهذيل وأبى اسحق وابراهيم بن سيار النظام وغيرهم ممن وافقهم وخالفهم وألزم مجالسه الفقهاء وأهل المعرفة من الادباء وأقدمهم من الامصار وأجرى عليهم الارزاق فرغب الناس فى صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل ووضع كل فريق منهم كتبا ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله وكان أكثر الناس عفوا وأشدهم احتمالا وأحسنهم مقدرة وأجودهم بالمال الرغيب وأبذلهم للعطايا وأبعدهم عن التساقه واتبعه وزراؤه وأصحابه فى فعله وسلكوا سبيله وذهبوا مذهبه * ثم المعتصم فانه ياأمير المؤمنين سلك فى النحلة رأى أخيه المأمون وغلب عليه حب الفروسية والتشبه بالملوك الاعاجم فى الآلة ولبس القلانس والشاشيات فلبسها الناس اقتداء بفعله وائتماما به فسميت المعتصميات وعم الناس افضاله وأمنت به السبل فى أيامه وشمل احسانه * ثم هرون بن محمد الواثق فانه اتبع ديانة أبيه وعمه وعاقب المخالف وامتحن الناس وكثر معروفه وأمر القضاة فى سائر الامصار أن لايقبلوا شهادة من خالفه وكان كثير الأكل واسع العطاء سهل الانقياد متحببا الى رعيته * ثم المتوكل ياأمير المؤمنين فانه خالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد ونهى عن الجدل والمناظرة فى الآراء وعاقب عليه وأمر بالتقليد وأظهر الرواية للحديث فحسنت أيامه وانتظمت دولته ودام ملكه وغير ذلك ياأمير المؤمنين مما اشتهر من أخلاقه * فقال القاهر قد سمعت كلامك وكأنى مشاهد للقوم على ماوصفت معاين لهم فيما ذكرت ولقد سرنى ماسمعت منك ولقد فتحت أبواب السياسة وأخبرت عن طرق الرياسة قال المحدث ثم أمر لى بجائزة عجل لى عطاءها فى وقتها ثم قال لى اذا شئت فقم فقمت وقام على أثرى بحربته فخيل لى والله أنه يرمينى بها من ورائى ثم عطف نحو دار الخدم فما مضت الا أيام يسيرة حتى كان من أمره ما ظهر اه

قال ابن البطريق فى تاريخه وكان القاهر قد ارتكب أمورا قبيحة لا يسمع بمثلها فى الاسلام وذكر منها طرفا طويلا أضربنا عن ايراده هنا * وحكى أن رجلا قال صليت فى جامع المنصور ببغداد فاذا أنا بانسان عليه جبة غابية وقد ذهب وجهها وبقى بعض

قطن بطانتها وهو يقول أيها الناس تصدّقوا عليّ بالامس كنت أمير المؤمنين وأنا اليوم من فقراء المسلمين فسألت عنه فقيل لى انه القاهر بالله اه قلت وفى هذه الحكاية تذكرة وعبرة والله ليس بظلام للعبيد

واستعمل القاهر بالله على ديار مصر فى خلافته بعد موت تكين الخاص سنة احدى وعشرين وثلاثمائة محمدا ابنه وصير اليه بتنفيذ الولاية واستقرارها فخرج عليه الجند وشقوا عصا الطاعة فقاتلهم محمد بن تكين واشتدّت الفتنة وكادت تعم البلاد وكثر شغب الغوغاء وتطاولت أيديهم الى النهب والسلب وذهب الامن وكثر الخوف وانكمش الناس بمصر أياما حتى ظفر محمد بالخوارج وأرجع الاحزاب الى الطاعة فلم تستقر به الولاية حتى صرف وولى أبو بكر محمد بن طغج الملقب بالاخشيد ثم صرف من عامه وأعيد أحمد بن كيغلغ الى أن صرف سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة فى خلافة الراضى بالله كما سيذكر فى محله ان شاء الله

(الفصل العشرون)

(فى خلافة أبى العباس أحمد الراضى بالله بن المقتدر)

ثم قام بالامر بعد القاهر ابن أخيه أبو العباس أحمد الراضى بالله بن المقتدر بن المعتضد بويع له بالخلافة يوم خلع عمه القاهر سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة هجرية أى سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ميلادية فاستوزر علىّ بن مقلة وأطلق كل من كان فى حبس القاهر وكان قبل توليته محبوسا هو ووالدته فى حبس القاهر فأخرجوه وأجلسوه على سرير الخلافة يوم الاربعاء لست خلون من جمادى الاولى ولقبوه بالراضى بالله وبايعه القواد والناس وجعل يتصرف فى الامور واستقدم علىّ بن عيسى وأخاه عبد الرحمن وأدناهما منه وأخذ بمشورتهما وهم باعطاء الوزارة الى علىّ فامتنع لشيخوخته وأشار بابن مقلة فاستحضر ووليها بعد أن أرسل يؤمّنه فأحسن ابن مقلة التدبير وأعاد الامن الى ربوع الخلافة وضم اليها المشاغبين والخوارج وزاد فى تمكين صلاتها مع الروم وغيرهم * ولم يمض الا القليل حتى ظهر ابن رائق وغلب على الراضى وتمكن من مسند الخلافة فصارت الكلمة له فلم يبق للوزير ابن مقلة من الامر شئ فوقعت الوحشة بينه وبين ابن رائق واستحكم الخلاف فجعل ابن مقلة يدبر على هلاك ابن رائق وهم باجراء ذلك فمنعه منها ظهور فتنة الحنابلة ببغداد وذلك أن جماعة الحنابلة قويت شوكتهم وعظمت عصابتهم فجعلوا يبالغون فى اظهار عقيدتهم ويسوقون الناس كرها الى احترام شيعتهم والعمل بقولهم فكانوا يكبسون دور العامة وقواد الجند فان وجدوا نبيذا أراقوه وان وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا

الناس فى بيعهم وشرائهم ومنعوا مشى الرجال مع النساء والصبيان فاذا رأوا أحدا من الناس مع امرأة أو صبى سألوه عن الذى معه من هو فأخبرهم والا ضربوه وخرجوا يوما على صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة وكادوا يبطشون به جهارا فاضطربت بغداد من فعالهم وضج الناس فركب بدر الخرشنى وهو صاحب الشرطة المذكور ونادى فى جانبى بغداد فى أصحاب أبى محمد البربهارى بان لا يجتمع من الحنابلة اثنان ولا يناظرون فى مذهبهم ولا يصلى منهم امام الا اذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم فى صلاة الصبح والعشاءين فلم يفد فيهم وزاد شرهم وكثر تعرضهم للناس وعظمت فتنتهم واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون المساجد وكانوا اذا مر بهم شافعى المذهب أغروا به العميان فيقومون عليه ويضربونه حتى يكاد يموت فخاف الراضى شر العاقبة وأخرج توقيعه بما يقرأ على الحنابلة وهو ينكر عليهم فعلهم ويقبح عليهم اعتقاد التشبيه وغيره فكان منه قوله * انكم معاشر الحنابلة تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم الرذلة على هيئته وتذكرون الكف والاصابع والرجلين والنعلين المذهبين والشعر القطط والصعود الى السماء والنزول الى الدنيا تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ثم طعنكم على خيار الائمة ونسبتكم شيعة آل محمد صلى الله عليه وسلم الى الكفر والضلال ثم استدعاؤكم المسلمين الى الدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن وانكاركم زيارة قبور الائمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذى شرف ولا نسب ولا سبب برسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرون بزيارته وتدعون له معجزات الانبياء وكرامات الاولياء فلعن الله شيطانا زين لكم هذه المنكرات وما أغواه واعلموا أن أمير المؤمنين يقسم بالله قسما جهدا اليه يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقكم ليوسعنكم ضربا وتشريدا وقتلا وتبديدا وليستعملن السيف فى رقابكم والنار فى منازلكم ومحالكم اه فخافوا عند ذلك وانكمشوا ولم يحركوا يومئذ ساكنا فلما سكنت الحال عاد ابن مقلة الى مشاغبة ابن رائق وكاتب الخليفة الراضى فى أمر هلاك ابن رائق وحبب له ذلك فوافقه أولا ثم خالفه وأظهر خطه الى ابن رائق ثم أمر به فقطعت يده ثم عولج فبرئ فعاد يكاتب الراضى ويطلب الوزارة ويقول ان قطع يده لم يمنعه من عمله وكان يشد القلم على يده المقطوعة ويكتب واستوزر الراضى بعده عبد الرحمن بن عيسى وسلم اليه ابن مقلة فصادره حتى استصفى ماله وخلع بعد بدر الخرشنى من الشرطة فلم تطل أيام عبد الرحمن وظهر عجزه وعدم فلاحه فضاق عليه أمر الوزارة واستعفى فلما ظهر عجزه الى الخليفة الراضى ووقوف أمور الخلافة قبض عليه فصادره على مائة ألف دينار وصادر أخاه عليا بسبعين ألف دينار وكان ابن مقلة يدعو على من ظلمه وقطع يده فأوصلوا خبره الى الراضى والى ابن رائق فأمرا بقطع لسانه ثم نقلوه الى محبس ضيق وألقوه فيه فأصابه ذرب فى الحبس ولم يكن معه من يخدمه فآل به الحال الى أن كان يستقى الماء من البئر بيده اليسرى ويمسك الحبل بفيه وما

زال على هـذا الحال من الشـدة والضيق حتى مات ودفن بدار الخليفة ثم ان أهـله نبشوه ودفنوه فى داره ثم نبش ونقل الى دار أخرى * قال بعض الكتاب ومن العجب أنه ولى الوزارة ثلاث دفعات ووزر لثلاث خلفاء وسافر ثلاث سفرات اثنتين منفيا الى شيراز وواحدة فى وزارته الى الموصـل ودفن بعـد موته ثـلاث مرات وخص به من خـدمه ثلاث وهو من عجيب الاتفاق

وكان القاهر قد عمد الى كثير من الأموال عند قتله لمؤنس الخادم وبليق وابنه على وغيرهم فغيبها كما تقـدم القول فلما قبض عليـه وسملت عيناه وأفضت الخلافة الى الراضى وطولب القاهر بالأموال أنكر أن يكون عنده شئ من ذلك فأوذى وعذب بأنواع من التعذيب وكل ذلك لايزيده الا انكارا فأخـذه الراضى وقربه وأدناه وطالت مجالسته اياه واكرامه له وأعطاه حق العمومة والسن والتقدم فى الخلافة ولاطفه وأحسن اليه غاية الاحسان وكان للقاهر فى بعض الحصون بستان من ريحـان وغرس من النارنج قد حمل اليه من البصرة وعمان مما حمل من أرض الهند قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره كالنجوم من أحمر وأصفر وبين ذلك أنواع الغروس والرياحـين والزهر وقد جعـل مع ذلك فى الصحن أنواع الاطيار من القمارى والدبابى والشحارير والببغا مما قـد جلب اليـه من الممالك والأمصار وكان القاهر كثير الشرب كما تقـدم فكان يشرب فى ذلك البسـتان ويجلس كثيرا فى تلك المجالس فلما أفضت الخلافة الى الراضى اشتد شغفه بذلك الموضع فكان يداوم الجلوس والشرب فيـه ثم ان الراضى رفق بالقاهر وأعلـمه بما هو فيه من مطالبة الرجال بالأموال والحاجـة اليها ولا شئ قبله منها وسأله أن يسعفه بما عنده منها اذ كانت الدولة له وأن يدبر تدبيره ويرجع فى كل الأمور الى قوله وحلف له بالايمان الاكيدة أن لايسعى فى قتله ولا الاضرار به ولا بأحد من ولده فأنعم له القاهر بذلك وقال ليس لى مال الا فى بستان النارنج فسار به الراضى الى البستان وسأله عن الموضع فقال له القاهر قـد حجب بصرى فلست أعرف موضعه ولكن مر بحفره فانك تظهر على المـوضع ولا يخـفى عليـك فكان ذلك لحفر البسـتان وقلع تلك الأشجار والغروس والازهار حتى لم يبـق منه موضع الاحفره وبولغ فى حفره فلم يجد شـيئا فقال له القاهر وهل عندى من المال شئ وانما كانت حسرتى بجلوسك فى هذا الموضع وتمتعك به وكان لذتى من الدنيا فتأسفت على أن يتمتع به غيرى فتأسف الراضى على ماتوجه عليه من الحيلة فى أمر ذلك البستان وندم على قبوله منه وأبعد القاهر فلم يكن يدنو منه خوفا على نفسه أن يتناول بعض أطرافه

وضعفت أمور الراضى واضطربت واختل نظام الخلافة فاستدعى بالامير محمد بن رائق فجعله أمير الامراء وفوض اليه تدبير المملكة وخلع عليه وأعطاه اللواء فبطل من ذلك اليوم أمر الوزارة ببغـداد ولم يبق الا اسمهـا فقط والحكم للامراء والملوك المتغلبين اذ كان ملك الخلافة جميعه فى أيديهم وهم ملوك الارض فكان كل من حصل فى يده بلد ملكه وما نع عنه

فاصبحت

فأصبحت البصرة وواسط والاهواز فى يد عبد الله البريدى وأخويه وفارس فى يد عماد الدولة ابن بويه والموصل وديار بكر وديار ربيعة وديار مضر فى يد بنى حمدان ومصر والشام فى يد الاخشيد بن طغج والمغرب وافريقية فى يد المهدى والاندلس فى يد بنى أمية وخراسان وما والاها فى يد نصر بن أحمد الساماني واليمامة وهجر والبحرين فى يد أبى طاهر القرمطى وطبرستان وجرجان فى يد الديلم ولم يبق فى يد الراضى وابن رائق الا بغداد وما والاها فبطلت دواوين المملكة ونقص قدر الخلافة وضعف ملكها واختلت الأمور كافة وتقهقر مسند الخلافة كما سيذكر فى محله ان شاء الله

ومات الراضى ليلة السبت خامس عشر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة هجرية بعلة الاستسقاء وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة وشهورا فكانت خلافته ست سنين وعشرة أشهر وكان أديبا شاعرا ظريفا وله أشعار حسان منها

يصفرّ وجهى اذا تأمله * طرفى ويحمرّ وجهه خجلا
حتى كأنّ الذى بوجنته * من دم جسمى اليه قد نقلا

ومنها أيضا

كل صفو الى كدر * كل أمر الى حذر * ومصير الشباب للـ * ـموت فيه أو الكبر
درّ درّ المشيب من * واعظ ينذر البشر * أيها الآمل الذى * تاه فى لجة الغرر
أين من كان قبلنا * درس العين والاثر * سيردّ المعاد من * عمره كله خطر
رب انى ذخرت عنـ * ـدك أرجوك مدخر * انى مؤمن بما * بين الوحى فى السور
واعترافى بترك نفـ * ـعى وايثارى الضرر * رب فاغفر لى الخطيـ * ـئة يا خير من غفر

وكان حاضر الذاكرة حادّ الذهن لا يغيب عن معرفته شئ من أحوال المملكة يحب المناظرة والبحث فى أخبار القدماء ومن ذلك ماذكر الصولى قال * قال الراضى ما كان السبب فى لبس المأمون الخضرة ورفعه السواد ثم لبسه السواد بعد ذلك قلت هو ما أخبرنا به محمد بن زكريا العلائى قال حدثنا يعقوب بن جعفر بن سليمان قال لما قدم المأمون بغداد اجتمع الهاشميون الى زينب بنت سليمان بن علىّ وكانت أقعد ولد العباس نسبا وأكرمهم بيتا فسألوها أن تكلم أمير المؤمنين فى تغييره الخضرة فضمنت لهم ذلك وجاءت الى المأمون فقالت يا أمير المؤمنين انك على برّ أهلك من ولد علىّ بن أبى طالب أقدر منك على برّهم لنا من غير أن تزيل سنة من مضى من آبائك فدع لباسك الخضرة ولا تطمعن أحدا فيما كان منك فقال لها ياعمتى ما كلمنى أحد فى هذا المعنى بكلام أوقع من كلامك ولا أقصد لما أردت لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى فولى الأمر أبو بكر فقد عرفت ما كان من أمره فينا أهل البيت ثم وليها عمر فلم يتعدّ فيها فعل من تقدّمه ثم وليها عثمان فأقبل على بنى أمية وأعرض عن غيرهم ثم آل الأمر الى علىّ بن أبى طالب من غير صفو كصفوها لغيره بل مشوبة بالأكدار فولى مع ذلك عبد الله بن العباس البصرة وولى عبيد الله بن العباس اليمن

وولى قثم البحرين وما أحد منهم الا ولاه فكانت هذه فى أعناقنا حتى كافأنه فى ولده بما فعلت ولا يكون بعد هذا الا ما تحبون قال ثم رجع الى لبس السواد وللمأمون يا أمير المؤمنين شعر يشاكل معنى ماذكرت من هذا الخبر وهو قوله

ألام على شكر الوصى أبى الحسن * وذلك عندى من عجائب ذا الزمن
خليفة خير الناس والاول الذى * أعان رسول الله فى السر والعلن
ولولاه ما عدّت لهاشم إمرة * وكانت على الايام تقضى وتمتهن
فولى بنى العباس ما اختص غيرهم * ومن فيه أولى بالتكرم والمنن
فأوضح عبدالله بالبصرة الهدى * وفاض عبيد الله جودا على اليمن
وقسم أعمال الخليفة بينهم * فلا زلت مربوطا بذا الشكر مرتهن

وكان الراضى كثير الاستعمال للطيب حسن الهيئة سخيا جوادا فلم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه فى كل يوم الا بصلة أو خلعة أو طيب وكانوا عدّة ندماء منهم محمد بن يحيى الصولى وابن حمدون النديم وغيرهما فعوتب على كثرة افضاله على من يحضره من الجلساء فقال أنا أستحسن فعل أمير المؤمنين أبى العباس لأنه كانت فيه فضائل لاتكاد تجتمع فى أحد لايحضره نديم ولا مغن ولا قينة فينصرف الابصلة أو كسوة قلّت أو كثرت وكان لايؤخر احسان محسن لغد ويقول العجب من انسان يفرح انسانا فيتعجل السرور ويؤخر ثواب من سره تسويفا وعدة فكان أبو العباس فى كل ليلة أويوم يقعد لشغله ولا ينصرف أحد ممن حضره الا مسرورا ونحن وان لم تتأت لنا الامور كتأتيها لمن سلف فانا نواسى جلساءنا واخواننا ببعض ماحضرنا * وكان لايستكثر على أحد من ندمائه ما يصل اليه على طول الايام حتى كان بعضهم ربما يتأخر عن الحضور لما يترادف عليه من فضله وختم الخلفاء فى عدّة أمور فنها أنه آخر خليفة له شعر يدوّن وآخر خليفة خطب كثيرا على المنبر وآخر خليفة جالس الجلساء ووصل اليه الندماء وآخر خليفة كانت له نفقة وجوائز جمة وكانت عطاياه وجراياته وخزائنه ومطابخه ومجالسه وخدمه وحجابه على ترتيب الخلفاء المتقدّمين

واستعمل على مصر فى خلافته بعد أحمد بن كيغلغ الذى صرفه فى سنة ثلاث وعشرين محمد بن طغج الاخشيدى وقد أصبحت ديار مصر فى يد ابن طغج المذكور لتغلب جميع العمال على ما بأيديهم من البلاد كما تقدّم ذكر ذلك فأقام محمد بن طغج فى مصر الى أن مات فى ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة فى خلافة المستكفى بالله كما سيأتى ذكر ذلك فى محله

(وصـــل)

(فى مبـدإ الدولة الاخشيدية وفى كيفية ظهورها)

لما عظم حب الخليفة المعتصم بن هرون للاتراك وكثر اعتماده عليهم جعـل يأتى بهـم من البلاد البعيـدة و يبـذل فى ذلك الاموال الطائلة فيوليهـم المناصب العاليـة والوظائف السامية ويجند منهم الجند و يولى القواد و يكثر من نعمته عليهم وعلى بنيهم و بناتهم و يفضلهم على سائر الغلمان والاتباع وقـد عـلم بأن فى فرغانة جماعة من الترك موصوفـين بالبأس والشجاعـة والتـدرب على الحرب والقتـال و بينهـم شاب اسمه جف من أولاد ملوكهم فسير فى طلبهم فجاؤا وجاء جف المذكور معهـم فلما رآه المعتصم مال اليـه وأحبه وأدناه من بابه وأقطعـه اقطاعا بسرمن رأى وما زال فى نعمـة وافرة الى أن مات ببغـداد سـنة سبع وأربعين ومائتـين هجرية فخرج أولاده فى طلب العيش والاسترزاق واتصل أحدهـم وهو طغج بلؤلؤ غلام أحـد بن طولون بمصر فمال اليه لؤلؤ واستخدمه على مصر وأقام على هذا الحال حينا ثم انحاز الى أحمد بن كنداج فلم يزل معه الى أن مات أحمد بن طولون ووقع الصلح بين ابنه خمارو يه و بين ابن كنداج ونظر خمارو يه الى طغج فأعجبه فأخـذه من ابن كنداج وقربه اليه وقدّمـه على سائر من معه ثم قلده دمشـق وطبرية وما زال على نعمة من خمارو يه حتى قتـل خمارويه فلحق طغج بالخليفة المكتفى فاحبه وخلع عليـه خلعة الرضا وكان وزير الخليفة يومئـذ العباس بن الحسن فطلب من طغج أن يجرى معـه مجرى التذلل كغيره من أرباب المنـاصب فأكبر طغج هذا الأمر وأعظمه فأغرى به الخليفة المكتفى فحبسه وحبس معه ابنه أبا بكر محمـدا فما زال طغج معتقلا حتى مات بالسجن وبقى أبو بكر محمـد مسجونا أياما ثم ذكره الخليفة المكتفى فأطلقه وخلع عليه فجعل هو وأخوه عبد الله يرصدان العباس بن الحسـن الوزير ليأخذا بثار أبيهما حتى تمكنا من قتله وخرجا الى الشام فى سـنة ست وتسعين ومائتين هجرية وقيل هرب طغج الى الشام وأخوه عبد الله الى ابن أبى الساج وأقام أبو بكر محمـد متغربا فى البرية حولا كاملا ثم اتصـل بأبى منصور تكين الجزرى فكان من أعاظم المقربين اليـه ومن كان عليهم معتمده وولاه عمـل عمـان وجبـل الشراة فأحسن السـيرة وأخلص لابى منصور السريرة فسـيره سرية الى قوم قطعوا طريق الحاج فقـاتلهـم حتى ظفر بهـم ومزق شملهم وأسرمنهم جماعـة وفتح الطريق للحجاج وكان ممن سار مـع الحج فى تلك السنة امرأة من دار الخليفة المقتدر يقال لها العجوز فلما عادت حدّثت المقتدر عما رأت من أبى القاسم محمد فأنفـذ اليه خلعا وزاد فى رزقه ولبث أبو بكر محمـد فى صحبة تكين الى ان كانت سـنة ست عشرة وثـلاثمائة هجرية فارقه لاسـباب وسار الى الرملة

فجاءته كتب الخليفة المقتدر بالولاية عليها فتولاها وأقام يتصرف فيها الى سنة ثمان عشرة وثلاثمائة هجرية فكتب اليه المقتدر بولاية دمشق فسار اليها ولم يزل بها الى أن ولاه القاهر بالله ولاية مصر فى رمضان سنة احدى وعشرين وثلاثمائة بعد موت تكين ولى على الصلات ولم يدخلها أميرا عليها الا فى ولايته الثانية ودعى له فيها على المنابر وهو بدمشق اثنين وثلاثين يوما وقيل ثلاثين يوما ثم صرف عنها وولى مكانه ابن كيغلغ من قبل الراضى بالله بن المقتدر وصرف عنها ثم وليها أبو بكر محمد فدخلها أميرا فى رمضان سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وقد ضم اليه البلاد الشامية والجزيرة والحرمين وغير ذلك وقيل كان على مصر فقط كل أيام الراضى والذى ضم اليه ماذكر من البلاد المتقى أخو الراضى وزاد فى نعمته واضاف الى ألقابه «الاخشيد» والاخشيد لقب ملوك فرغانة وهو من أولادهم كما تقدم ومعناه ملك الملوك وكان هذا اللقب عند ملوك فرغانة ككسرى عند فارس وقيصر عند الروم ودعى له بهذا اللقب على المنابر واشتهر به حتى نسب اليه ورثته المعروفون بالدولة الاخشيدية وتعرف أيضا بدولة بنى طغج وقد اكتسب شهرة واسعة وعم ذكره الآفاق وهابه الملوك وتقربوا منه وهادوه وتوادوا اليه وخرج من صلبه ملوك على ديار مصر عرفوا بالدولة الاخشيدية فهو الامير أبو بكر محمد بن طغج بن جف بن يلتكين وقيل بلكتكين بن فوران بن فورى بن خاقان الفرغانى الاصل صاحب سرير الذهب ويقال له فى بعض التواريخ إخشيذ بالذال المعجمة ثم كان من أخباره وحوادث أيامه ما سيذكر فى محله ان شاء الله

(الفصل الحادى والعشرون)

(فى خلافة أبى اسحاق ابراهيم المتقى لله بن المقتدر)

ثم قام بالامر بعد الراضى ابن أخيه أبو العباس ابراهيم المتقى لله بن المقتدر بن المعتضد بويع له بالخلافة فى العشرين من ربيع الاول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة هجرية أى سنة أربعين وتسعمائة ميلادية وعرضت عليه ألقاب فاختار منها المتقى لله وبايعه الناس كافة فصلى بالناس وصعد على سرير الخلافة وسير الخلع واللواء الى بجكم بواسط وكان بجكم هذا واسع الكلمة كبير الشهرة فلما ارتقى منصب الصدارة لم يبق للخليفة معه سوى الاسم فقط وغلب أبو الوفا تورون التركى على مابقى من الامر للخليفة وظل حال المتقى هكذا مابين بجكم وأبى الوفا تورون حتى خرج بجكم يوما يتصيد فبلغ نهر جور فسمع أن هنالك أكرادا لهم مال وثروة فشرهت نفسه الى أخذ المال فقصدهم فى قلة من أصحابه فهرب الاكراد من بين يديه ورمى هو أحدهم فلم يصبه فرمى آخر فأخطأه أيضا وكان سهمه لايخيب فأتاه غلام من

الاكراد من خلفه وطعنه فى خاصرته فقتله لاربع بقين من رجب فلما قتل بجكم تفرقت جنوده وانحدر الديلم منهم الى أبى عبد الله البريدى وكان قد خرج عن طاعة الخليفة وكانوا منتخبين ليس فيهم حشو ولا دخيل فقوى بهم وعظمت شوكته فترفعوا الى واسط وعلم الخليفة المتقى بحالهم فأرسل اليهم يأمرهم بأن لايصعدوا فقالوا نحن محتاجون الى مال فان أنفذ لنا منه شئ تربصنا فأنفذ اليهم مائة ألف وخمسين ألف دينار فلم يقنعوا بخافهم واستمال اليه جماعة الاتراك وبعض أجناد بغداد القدماء وبذل فيهم مالا قدره أربعمائة ألف دينار وجعل عليهم سلامة الطولونى مقدما فاصلحوا حالهم ودبروا أمرهم وبرزوا مع المتقى الى نهر ديالى ووصل البريدى من واسط الى بغداد فاختلف عند وصوله جماعة الاتراك واستأمن بعضهم اليه وسار بعضهم الى الموصل واختفى سلامة الطولونى وخاف أهل بغداد فهمّ الكثير منهم الى الخروج خوفا من البريدى وعسفه وظلمه ودخل الى بغداد فلقيه الوزير أبو الحسن والقضاة والكتاب وأعيان الناس وكان معه عدة سفن كثيرة فانفذ اليه المتقى يهنئه بسلامته وأظهر له اللين والتلطف عليه لينكف وأنفذ اليه طعاما وغيره عدة ليال وجعل يخاطبه بالوزير ثم أنفذ البريدى الى المتقى يطلب خمسمائة ألف دينار ليفرقها فى الجند فامتنع من ذلك فارسل اليه يتهدده ويذكره ماجرى على المعتز والمستعين والمهتدى وترددت الرسل فانفذ اليه تمام خمسمائة ألف دينار ولم يلق البريدى الخليفة المتقى مدة مقامه ببغداد فلما صار اليه المال انصرفت أطماع الجند عن الخليفة الى البريدى وناوءه الشر وعادت مكيدته عليه فشغبوا وكان الديلم قد قدّموا على أنفسهم كورتكين الديلمى وقدم الاتراك تكينك التركى غلام بجكم فاتفقوا معا على الايقاع بالبريدى ونهب ماعنده فساروا الى مقره وتبعتهم العامة فقطع البريدى الجسر ووقعت الحرب فى الماء ووثب العامة بالجانب الغربى من بغداد على أصحاب البريدى فهرب هو وأخوه وابنه أبو القاسم وأصحابه وانحدروا الى واسط فنهبت داره ودور قواده فدخل كورتكين على الخليفة المتقى وأخبره بخبر البريدى وما جرى عليه ففرح بذلك وقلده امارة الامراء وخلع عليه فتاقت نفس كورتكين الى التفرد بالامر فقبض على تكينك التركى وغرّقه وتفرد بالامر فعلت كلمته وطغت جماعة الديلم وزاد شرهم فاخرجوا الناس من دورهم وسكنوا هم فيها فشكا الناس منهم الى كورتكين فلم يلتفت اليهم فثارت العامة ومنعت الخطيب من الصلاة وقاموا على جماعة الديلم فاقتتلوا قتالا عنيفا فقتل من الفريقين جماعة كثيرة ولما كثر شر الديلم واتسعت كلمة كورتكين ضاقت أمور المتقى لله وحار وكتب الى ابن رائق بدمشق يستقدمه الى بغداد ليوليه امارة الامراء مكان كورتكين فجمع اليه ابن رائق جماعة كثيرة من الاتراك وكان فيهم من القواد توزون وفشتكين وغيرهما وسار بهم من دمشق بعد أن استخلف أبا الحسن أحمد بن علىّ بن مقاتل فلما علم كورتكين بقدومه خرج من بغداد الى عكبرا ووصل اليه ابن رائق فوقعت الحرب

بينهـم واتصلت عـدة أيام ثم سار ابن رائق من عكبرا ليـلا مع عسكره فاصبح ببغـداد دخلها من الجانب الغربى وعبر من الغد الى الخليفة المتقى فلقيه وركب معه فى دجلة ثم عاد فلحقه فى ثانى يوم كورتكين بجيوشه من الجانب الشرقى ثم دخل بغـداد فأيس ابن رائق من ولايتها وخاف شر العاقبة فامر بحمل أثقاله والعود الى الشام وترك الخليفة وكورتكين وشأنهما فلما شاع هذا الخبر أخذ الناس أيضا فى رفع أثقالهم يريدون الخروج عن بغـداد ثم ان ابن رائق عزم أن يناوش كورتكين وأصحابه شيأ من قتال قبل مسيره فرسم لطائفة من عسكره أن يعبروا دجـلة ويأتوا الاتراك من ورائهم وركب هو سميرية وركب معه جماعة من أصحابه فى عشرين سميرية ووقفوا يرمون الاتراك بالنشاب ووصـل أصحابه وصاحوا من خلفهم واجتمعت العامة مع أصحاب ابن رائق يضجون فظـن كورتكين أن العسكر كبس عليه من خلف ومن أمام فانهزم هو وأصحابه شر هزيمة واختفى كورتكين ورجم العامة أصحابه بالآجر والاحجار فقوى أمر ابن رائق وأخـذ من استأمن اليـه من الديلم فقتلهـم عن آخرهم وكانوا زهاء أربعمائة فلم يسـلم منهم غـير رجل واحد اختفى بين القتـلى وحمل معهم وألقى فى دجلة فنجا وعاش طويلا وقتـل جميع الاسرى من القواد وكانوا بضعة وعشرين رجلا فخلع عنـد ذلك المتقى على ابن رائق وجعـله أمير الامراء وبث ابن رائق العيون حول كورتكين حتى قبض عليـه واعتقله فى دار الخليفـة وكان البريدى فى غضون هـذه الحوادث بواسط فاستعظم أمر ابن رائق وحسده فأخر عنه حمـل المال فكاتبـه ابن رائق فى ذلك فلم يرسـل شـيأ فانحـدر ابن رائق الى واسـط فهرب بنو البريدى الى البصرة ثم عادوا وضمنوا بقايا واسط وعاد ابن رائق الى بغـداد فخرجت عليـه الجنود وفيهـم توزون وغيره من القواد فلم يقـدر على ردهـم فتركوه ورحلوا الى ابن البريدى بواسط وتحزبوا اليـه ففرح بقدومهـم وقوى بهـم وعزم على الشخوص الى دار السـلام ثم لم يلبث أن سير الى بغـداد جيشا عظيما من الاتراك والديلم ومقـدمه أخوه أبو الحسين البريدى فلما أحس ابن رائق بقـدومهم تحصـن بدار الخليفـة ورمم سورها ونصب عليـه المنجنيقات والعرادات وحصـن دجلة وحرك العامة للقتال وجند منهم جماعة فثاروا فى بغداد وأحرقوا ونهبوا وأخـذوا الناس ليـلا ونهارا قبـل أن تصل جيوش ابن البريدى وخرج المتقى لله وابن رائق وتبعهـما أصحابهما فاقتتـلوا مع البريدى وأصحابه فانهزم أهل بغـداد واستولى أصحاب البريدى على دار الخليفـة وهرب المتقى وابنـه الامير أبو منصور فى نحو عشرين فارسا ولحق بهـما ابن رائق فى جيشـه فساروا جميعا نحو الموصـل وقتـل أصحاب البريدى من وجدوه فى دار الخليفة من الحاشـية فنهبوها ونهبوا دور الحرم وكثر النهب وعم بغـداد ليلا ونهارا وأخذوا كورتكين من حبسه وأنفذه أبو الحسين بن البريدى الى أخيه عبد الله البريدى بواسط فكان آخر العهد به * واشتد البلاء على أهل بغداد وعظم الامر

ووقع الغلاء وعزت الاقوات وأخذ القوى بالضعيف ووقعت الفتن بين الناس فضجوا وعجوا وابتهلوا الى الله

ولما عظم أمر البريدى وأراد الشخوص من واسط الى دار السلام فى جيوشه وعرف الخليفة المتقى ما وراء ذلك أنفذ الى ناصر الدولة بن حمدان يستمده على البريدى فأرسل أخاه سيف الدولة علىّ بن عبد الله بن حمدان نجدة له فى جيش عظيم فلقى المتقى وابن رائق فى تكريت منهزمين فسار معهما الى الموصل ففارقها صاحبها ناصر الدولة وعبر الى الجانب الشرقى من دجلة وكان بينه وبين ابن رائق وحشة قديمة وكان كل منهما يضمر للآخر السوء فترددت الرسل بينهما على الصلح فاصطلحا وعبر الأمير أبو منصور بن المتقى وابن رائق يسلمان على ناصر الدولة فنثر الدنانير والدراهم على ولد المتقى فلبثا عنده برهة فلما أراد الانصراف ركب ابن المتقى وأراد ابن رائق الركوب فقال له ناصر الدولة تقيم اليوم عندى لنتحدث فيما نفعله فاعتذر ابن رائق بابن المتقى فألح عليه ابن حمدان فاستراب ابن رائق من الحاحه وجرّ بكمه من يده فقطعه وأراد الركوب فشب به الفرس فسقط فصاح ابن حمدان بأصحابه اقتلوه وألقوه فى دجلة * وأرسل ابن حمدان الى المتقى يقول انه علم بأن ابن رائق أراد أن يغتاله ففعل به ذلك فرد عليه المتقى ردا جميلا ورسم اليه بالحضور لديه فسار اليه فخلع عليه المتقى ولقبه ناصر الدولة وجعله أمير الامراء وخلع على أخيه أبى الحسين علىّ ولقبه سيف الدولة * وجاء الخبر الى الاخشيد صاحب مصر بموت ابن رائق ففرح وسار من مصر الى دمشق فى عسكر كثيف يريد أخذها من خليفة ابن رائق فلما وصلها استأمن اليه خليفة ابن رائق وتسلمها الاخشيد فبسط يده على ماجاورها مضافا ذلك الى ديار مصر وطال مكث ابن البريدى ولومه ببغداد وزاد عسفه وظلمه وجوره فكرهته العامة وكانت لاتنكف عن مشاغبته ففارقه الجند وانضموا الى الخليفة المتقى لله وابن حمدان فكثرت جموعهما وقويت عزيمة الخليفة فزحفوا جميعا الى بغداد فهرب ابن البريدى واضطرب العامة ببغداد ونهب الناس بعضهم بعضا ودخل المتقى الى بغداد ومعه بنو حمدان فى جيوش عظيمة فأقام بها والكلمة لبنى حمدان ثم لتورون وغيره من كبار الاتراك وعظماء الديلم والخليفة فى أيديهم كالآلة الصماء فلما ضاقت عليه المذاهب خرج من بغداد الى الموصل وأرسل الى الاخشيد محمد بن طغج متولى مصر يشكو حاله ويستقدمه فأتاه من مصر ووصل اليه وهو بالرقة فأكرمه المتقى وأجله ووقف الاخشيد وقوف الغلمان ومشى بين يدى المتقى وحمل اليه هدايا عظيمة وكذلك لوزيره أبى الحسين بن مقلة وسائر الاصحاب وتقدم الى المتقى فى أن يسير معه الى مصر والشام ويكون بين يديه فلم يفعل لخوفه من الرجوع الى بغداد وحذره من توزون التركى وغدره وقال له يا أمير المؤمنين أنا عبدك وابن عبدك وقد عرفت الاتراك وغدرهم فلا تأمن على نفسك فلم يقبل فقال له فأقم هنا وأنا أمدك بالمال والرجال فلم يقبل المتقى وصمم على الرجوع الى دار السلام وكان قد أنفذ رسلا الى توزون فى الصلح فتم الصلح وحلف توزون

على الطاعة لأمير المؤمنين فانحدر المتقى من الرقة فى الفرات الى دار السلام لاربع بقين من المحرم سنة ثلاث وثلاثين وعاد الاخشيد الى مصر فلما وصل المتقى الى هيت أقام بها وأنفذ من يجدد اليمين على توزون فعاد وحلف وسارعن بغداد ليلتقى مع المتقى فالتقى معه بالسندية فنزل توزون وقبل الارض وقال ها أنا قد وفيت بيمينى والطاعة لك ثم وكل به وبالوزير وبالجماعة وأنزلهم فى مضربه مع نساء المتقى وأنفذ رسله الى دار ابن طاهر ليحضروا المستكفى فلما حصل فى المضرب قبض على المتقى وسمل عينيه فصاح وصاح من عنده من النساء والخدم فأمر توزون بضرب الدبادب حول المضرب لئلا تظهر أصواتهم فخفيت أصواتهم وعمى المتقى لله وانحدر توزون من الغد الى دار السلام ومعه المتقى ووزيره ابن مقلة وقاضيه أحمد بن عبد الله بن اسحق فكانت خلافة المتقى لله ثلاث سنين وخمسة أشهر وثمانية عشر يوما وكان خلعه فى يوم السبت لعشر بقين من صفر وبقى الى أن مات سنة سبع وسبعين وثلثمائة

ولما امتنع المتقى من المسير مع الاخشيد الى ديار مصر ومن البقاء فى الرقة تحول عنه الاخشيد الى دمشق فجرى للخليفة ما جرى ووصل الاخشيد الى دمشق وولى عليها الحسين بن لؤلؤ ثم صرفه من عامه الى نيابة حمص وولى على دمشق يانس المؤنسى وعاد الى مصر فدخلها فى جمادى الاولى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ثم ورد عليه الخبر بخلع المتقى ومبايعة المستكفى فأسف لذلك جدا وكان من أمره بعد ذلك ماسيذكر فى خلافة المستكفى

وفى سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة أى فى خلافة المتقى المذكور قدّم المتأصلون غبريال بطركا للاسكندرية بعد الفترة التى خلا فيها المنصب البطريكى وقدرها أربع عشرة سنة كما تقدم الكلام على ذلك فكان غبريال هذا سابع خمسيهم وأصله راهب من دير أبى مقار وهو من أهل المنوفية وقد أخذت فى أيامه الديارية على النساء والرجال تخلصا من طلبات ابن طغج الاخشيد وفرارا من الشدة التى نالتهم جميعا بسبب ذلك فحصل منها شئ كثير جدا وعم لذلك الضيق وكثرت الكوارث وبلغت الشدّة الى حد لا يطاق

(الفصل الثانى والعشرون)

(فى خلافة المستكفى بالله بن المكتفى)

ثم قام بالامر بعد المتقى ابن عمه أبو العباس عبد الله المستكفى بالله بن المكتفى بالله على ابن المعتضد بالله بويع له بالخلافة بالسندية يوم خلع المتقى لله سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة هجرية أى سنة أربع وأربعين وتسعمائة ميلادية وهو يوم السبت لثلاث خلون من صفر حكى أبو العباس التميمى الرازى وكان من خواص توزون قال كنت أنا السبب فى البيعة

المستكفى وذلك أنه دعانى ابراهيم بن الزو يبندار الديلمى فضيت اليه فذكر لى أنه تزوّج الى قوم وأن امرأة منهم قالت له ان هـذا المتقى قد عاداكم وعاديتموه وكاشفكم ولا يصفو قلبه لكم وههنا رجل من أولاد الخلفاء من ولد المكتفى وذكرت عقله وأدبه ودينـه تنصبونه للخلافة فيكون صنيعتكم وغرسكم ويدلكم على أموال جليلة لايعرفها غيره وتستريحون من الخوف والحراسة قال فعلمت أن هذا الأمر لا يتم الا بك فدعوتك له فقلت أريد أن أسمع كلام المرأة فجاءنى بها فرأيت امرأة عاقلة جزلة فذكرت لى نحوا من ذلك فقلت لابد أن ألقى الرجل فقالت تعود غدا الى ههنا حتى أجمع بينكما فعدت اليها من الغد فوجدته قد أخرج من دار ابن طاهر فى زى امرأة فعرفنى نفسه وضمن اظهار ثمانمائة ألف دينار منها مائة ألف لتوزون وذكر وجوهها وخاطبنى خطاب رجل فهم عاقل ورأيتـه يتشيع قال فأتيت توزون فأخبرته فوقع كلامى بقلبه وقال أريد أن أبصر الرجل فقلت لك ذلك ولكن اكتم أمرنا من ابن شيرزاد فقال أفعل وعدت اليهم وأخبرتهم بالذى ذكر ووعدتهـم حضور توزون من الغد فلما كان ليلة الأحد لأربع عشرة خلت من صفر مشيت مع توزون مستخفين فاجتمعنا به وخاطبه توزون وبايعـه تلك الليلة وكتم الأمر فلما وصل المتقى قلت لتوزون لما لقيـه أنت على ذلك العزم قال نعم قلت فافعله الساعة فانه ان دخل الدار بعد عليك مرامه فوكل به وسمله وجرى ماجرى وبويع المستكفى بالخلافة يوم خلع المتقى وأحضر المتقى فبايعه وأخـذ منه البردة والقضيب وصارت تلك المرأة قهرمانة المستكفى وسمت نفسها علم وغلبت على أمره كله واستوزر المستكفى أبا الفرج محمد بن علىّ الشارى فلم يكن له من الوزارة الا الاسم فقط والكلمة لابن شيرزاد وحبس المتقى وخلع المستكفى بالله على توزون خلعة وتاجا اه

فلما كان يوم الاثنين انحدر المستكفى فى الماء راكبا فى الطراد المسمى الغزالة وعليه قلنسوة طويلة محدودة يقال انها كانت لابيه المكتفى بالله وعلى رأسه توزون التركى ومحمد ابن محمد بن يحيى شيرزاد وجماعة من غلمانه وسلم اليه المتقى ضريرا وأحمد بن يحيى القاضى مقبوضا عليه وحضر بعد ذلك جميع القضاة مع الهاشميين فبايعوا له وجلس للناس وسأل عن القضاة وكشف عن أمور شهود الحضرة فأمر باسقاط بعضهم وقبول بعضهم لاشياء كان قد علمها منهم قبل الخلافة واستتابة بعضهم من الكذب فامتثل القضاة ما أمر به من ذلك واستقضى على الجانب الشرقى محمد بن عيسى المعروف بابن أبى موسى الحنفى وعلى الجانب الغربى الحسن بن أبى الشوارب الأموى الحنفى فتطيرت من ذلك العامة وقالت يومئذ الى ههنا انتهى سلطانه وانتهى فى الخلافة أمره ونهيه * وما دخلت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة حتى مرض توزون التركى وانقطع بداره فى بغداد أياما ثم مات ففرح الخليفة المستكفى بخبر موته وظن رجوع الامر والكلمة اليه فكانت مدة امارة توزون على ما قاله أصحاب التاريخ سنتين وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما

ولما مات توزون كان ابن شيرزاد بناحية بهيت لتخليص أموالها فلما جاء الخبر عزم على عقد الامارة لناصر الدولة ابن حمدان فاضطربت الاجناد لذلك وعقدوا الرياسة عليهم لابن شيرزاد فحضر الى بغداد ونزل خارجها فخرج اليه جميع الجند واجتمعوا عليه وحلفوا ووجه الى الخليفة المستكفى بالله ليحلف له فأجابه الى ذلك وحلف له بحضرة القضاة والعدول ودخل اليه ابن شيرزاد فأكرمه وأجله وخرج فزاد فى مرتبات الجند زيادة عظيمة فضاقت الأموال عليه وعز نوالها فأرسل الى ناصر الدولة مع أبى عبد الله محمد بن أبى موسى الهاشمى وهو بالموصل يطالبه بالمال ويعده برد الرياسة اليه فأنفذ له خمسمائة ألف درهم وشيأ من الاقوات كثيرا ففرقها فى العسكر فلم تكف فقسط الاموال على العمال والكتاب والتجار وغيرهم لأرزاق الجند وظلم الناس ببغداد وكثرت طلبانه فظهر اللصوص وارتفع الأمن وكثر العسف والعربدة فهرب التجار وأصحاب الاموال وجعل يعزل ويولى الولاة والعمال فاستعمل ينال كوشه على واسط والشكرى على تكريت فاما ينال فانه كاتب معز الدولة بن بويه واستقدمه الى بغداد وحلف له بالطاعة اليه ان هو قدم على بغداد وكان ابن بويه يومئذ بالاهواز فسار منها الى بغداد فى جمع عظيم فلما شاع خبر قدومه اضطرب الناس فى بغداد واختفى المستكفى بالله وابن شيرزاد أياما ثم تردّدت الرسل بين المستكفى وبين ابن بويه فظهر وعاد الى دار الخلافة ببغداد ووصل عز الدولة فى جموعه فدخل من باب الشماسية واجتمع بالخليفة المستكفى وبايعه وحلف له المستكفى وخلع عليه ولقبه فى ذلك اليوم معز الدولة ولقب أخاه عليا عماد الدولة ولقب أخاه الحسن ركن الدولة وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم وجعل يتصرف فى الامور كما يشاء ورتب للمستكفى بالله كل يوم خمسة آلاف درهم وأمّن ابن شيرزاد فظهر وحضر الى بغداد ولقى معز الدولة فولاه الخراج وجباية الاموال

ولما سكنت الامور واطمأنت الخواطر أولمت علم قهرمانة المستكفى وليمة عظيمة دعت اليها جماعة من قواد الديلم والاتراك ولم تعلم معز الدولة بخبرها فاستعظم معز الدولة ذلك منها واتهمها بأنها انما فعلت ذلك لتأخذ عليهم البيعة للمستكفى فيزيلون معز الدولة عن منصبه وجعل من ذلك اليوم يعمل على خلع المستكفى ويدبر الحيلة على الايقاع به فلما كان ثانى عشرى جمادى الآخرة حضر معز الدولة والناس عند الخليفة ثم حضر رجلان من نقباء الديلم يصيحان فتناولا يد المستكفى بالله فظن أنهما يريدان تقبيلها فمدها اليهما فجذباه عن سريره وجعلا عمامته فى حلقه فنهض عند ذلك معز الدولة وخرج من الدار وساق الرجلان المستكفى بالله ماشيا الى دار معز الدولة فاعتقل بها واضطرب الناس ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شئ وأخذت علم القهرمانة فقطع لسانها فكانت مدة خلافة المستكفى بالله سنة واحدة وأربعة أشهر كان فيها مغلوبا على أمره مع توزون وابن شيرزاد حدّث أبو اسحق ابراهيم بن اسحق المعروف بابن الوكيل وهو ممن كان فى خدمة

المستكفى قال كان المستكفى فى سائر أوقاته فازعا وجلا من المطيع أن يلى الخلافة ويسلم اليه فيحكم فيه بما يريد فكان صدره يضيق لذلك فيشكو الامر فى بعض الاوقات الى من كان يألفه من ندمائه فيشجعونه ويهونون عليه أمر المطيع الى أن قال لهم فى بعض الايام قد اشتهيت أن نجتمع فى مكان كذا وكذا فنتذاكر فى أنواع الأطعمة وما قال الناس فى ذلك منظوما فاتفق معهم على ذلك فلما كان فى اليوم الذى حضروا أقبل المستكفى فقال هاتوا ما أعده كل واحد منكم فقال بعضهم أبياتا طوالا فى وصف سلة سكابج كوامخ فأمر المستكفى أن تحضر هذه الجونة بعينها على ما وصفها القائل ثم قال آخر وآخر والمستكفى يأمر باحضار كل ما يجرى فى وصفه ما يمكن احضاره قال أبو اسحق فلم أر المستكفى منذ ولى الخلافة أشد سرورا منه فى ذلك اليوم وأجاز جميع من حضر من الجلساء والندماء والملهين ثم أحضر ما حضره فى وقته من عين وورق عند ضيق الأمر عليه فوالله ما رأيت له بعد ذلك يوما مثله حتى قبض عليه أحمد بن بويه الديلمى وسمل عينيه اه

وبقى المستكفى معتقلا فى دار معز الدولة بن بويه الى أن مات فى سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة وهو ابن ست وأربعين سنة وكان أبيض حسن الوجه قد وخطه الشيب * ولما قبض عليه بويع بعده للمطيع لله

وكان لما ولى المستكفى الخلافة أرسل الى محمد بن طغج الاخشيد فأمره على ولاية مصر والشام فلم يحفل بذلك لعلمه أن أركان دولته ثابتة لاتتزعزع فلما كانت سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وقعت بينه وبين سيف الدولة منافرة واشتدت شدة بالغة ثم اصطلحا على أن يكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحمص وباقى بلاد الشام للاخشيد ولتوكيد الصلح بينهما تزوج سيف الدولة بنت أخى الاخشيد ولكن لم يلبثا طويلا على هذا الحال حتى وقع النفور بينهما ثانية فجهز الاخشيد جيشا عظيما لقتال سيف الدولة وسيره مع خادمه كافور وأبى شجاع فاتك المجنون ثم خرج الاخشيد خلفهم فى شعبان من السنة واستخلف أخاه أبا المظفر وسار حتى لقى سيف الدولة بقنسرين فحاربه وقهره وفرق جموعه وأخذ منه حلب ثم بلغه خلع المستكفى فعاد الى دمشق وكان من أمره بعد ذلك ما سيذكر فى خلافة المطيع

(الفصل الثالث والعشرون)

﴿ فى خلافة أبى الفضل المطيع لله بن المقتدر ﴾

ثم قام بالامر بعد المستكفى ابن عمه أبو الفضل المطيع لله بن المقتدر بن المعتضد بويع

له بالخـلافة لسبع بقـين من شعبان سـنة أربع وثلاثين وثلثمائة هجرية أى سنة خمس وأربعين وتسعمائة ميلادية وهو يوم خلع ابن عمه المستكفى بالله وله من العمر يومئذ أربع وثلاثون سنة وأحضر المستكفى عنده فسلم عليه بالخلافة وأشهد على نفسه بالخلع وقد سمل معز الدولة عينيـه وأعماه كما تقـدم فلم يكن للطيع من الخـلافة الا الاسم فقط فقـد ازداد أمر الخلافة إدبارا وزالت حرمتها أو كادت على يدى معز الدولة بن بويه فلم يبق فى يد المطيع لا أمر ولا نهى ولا خـلافة تعرف ولا وزارة تذكر واختـل النظام واستخف الديلم بمقام الخـلافة فكانوا يقولون ان العباسـيين قد غصبوا الخلافة وأخـذوها من مستحقيها وكانوا يتشيعون ويغالون فى التشيع فلم يبق عندهم وازع دينى يحثهم على الطاعة * قال صاحب الكامل حـتى لقـد بلغـنى أن معز الدولة استشار جماعـة من خواص أصحابه فى اخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوى أو لغيره من العلويين فكلهم أشار عليه بذلك ما عدا بعض خواصه فانه قال ليس برأى فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لقتلوك فأعرض عن ذلك قال فهذا كان من أعظم الاسباب فى زوال أمرهـم ونهيهم مع حب الدنيا وطلب التفرد بها اه

ونزع معز الدولة من الخليفة العراق بأسره وما والاه فلم يبق مع الخليفة منه شئ البتة الا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجـة الخـلافة فاشـتد الحال على المطيع وعظم الخطب ولبث على هذا الحال طويلا وكان معز الدولة اذا أراد غزو جهة حمل معه الخليفة المطيع ليوهم الناس أنه انما يحارب للخليفة ومعه والامر على عكس ذلك واشتد فى التشيع للعلويين فأمر أصحابه ببغداد فكتبوا على المساجد ما هذه صورته * لعن الله معاوية بن أبى سفيان ولعن من غصب فاطمة رضى الله عنها فدكا ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السـلام ومن نفى أبا ذر الغفارى ومن أخرج العباس من الشورى اه فأغضب ذلك الخليفة ولكنه كان محكوما عليه لا يقـدر على المنع فلما كان الليـل محا الكتابة بعض الناس فغضب معز الدولة وأراد اعادة ما محى فأشار عليـه الوزير أبو محمـد المهلبى بأن يكتب مكان ما محى لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يذكر أحدا فى اللعن الا معاوية ففعل ذلك * وسار معز الدولة فى سنة ست وخمسين الى واسط فجهز فيها الجيوش لمحاربة عمران بن شاهين صاحب البطائح فلما هم بالمسير ابتدأ به مرض الاسهال وقوى عليه فأحجم عن الخروج الى ابن شاهين وسار الى بغداد وخلف أصحابه ووعدهم أن يعود اليهم فلما وصل الى بغداد اشتد به مرضه فلما أحس بالموت عهد الى ابنه عز الدولة بختيار وأظهر التوبة وتصدق بأكثر ماله وأعتق مماليكه ورد شيأ كثيرا على أصحابه مما كان قد اغتاله ثم مات ودفن بمقابر قريش فكانت امارته احدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا ويومين فجعل ابنه بختيار

يتصرف فى الامور فأساء السيرة وجار وظلم وصرف عنه كبار الترك والديلم وأبغض صغارهم وضيق على الخليفة المطيع وطالبه بمال كثير فاعتذر وقال من أين لى ذلك ولم يبق لى من حكم البلاد سوى الاسم والخطبة فان شئتم أن أعتزل فعلت فلم يقبل منه وتهدده فبذل له المطيع أربعمائة ألف درهم واحتاج الى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك وبلغ فساد الامور الى حد لايطاق فكثر ادلال الجند على بختيار واطراحهم لجانبه وشغبهم عليه ومطالبتهم له بالارزاق والجوامك المتأخرة وقد قلت عنده الاموال وتعذر عليه تسكين خواطر الجند ولم يجد ديوانه ووزيره جهة يحتال منها بشئ فسار الى الموصل بهذا السبب فلم يفتح عليه فسار منها الى الاهواز ليتعرض الى متوليها ويأخذ منه مالا وتخلف عنه سبكتكين التركى أحد كبار الجند الاتراك ولم يسر معه فلما وصل الى الاهواز لاقاه متوليها وخدمه وقدم له الطاعة وحمل له أموالا جليلة المقدار وبختيار يفكر فى طريق يأخذه به فاتفق أنه جرت فتنة بين الاتراك والديلم سببها مضاربة بين غلام تركى وآخر ديلمى فاتصل خبر ذلك بأصحاب كل واحد منهما فقام بعضهم على بعض واقتتلوا فقتل منهم خلق كثير وخرجوا الى ظاهر البلد فاجتهد بختيار فى تسكين الفتنة فلم يفلح فاستشار جماعة الديلم فى ذلك وفيما يفعله وكان أذنا يتبع كل قائل فأشاروا عليه بالقبض على كبار الاتراك لتصفو له البلاد فمال الى ذلك وقبض على جميع كبارهم وقيدهم وأطلق الديلم فى الاتراك فقتلوا ونهبوا أموالهم وهرب الاتراك ولحقوا بسبكتكين وكان بختيار قد دبر الحيلة للنقض على سبكتكين أيضا فلم يفلح وظهرت حيلته فركب سبكتكين عند ذلك فيمن جاءه من الاتراك وحصروا دار بختيار يومين ثم أحرقها ودخلها وأخذ ابنى عز الدولة ووالدتهما ومن كان معهما وسيرهم الى واسط فانحدر معهم الخليفة المطيع لله فاسترجعه سبكتكين ورده الى داره واستولى على ما كان لبختيار جميعه ببغداد ونزل الاتراك فى دور الديلم وتتبعوا أموالهم وأخذوها وثارت العامة من أهل السنة ينصرون سبكتكين لانه كان سنيا فخلع عليهم وجعل لهم العرفاء والقواد فتقووا وثاروا بالشيعة وحاربوهم فكانت كأنها حرب دينية وسفكت بينهم الدماء وأحرقت الدور وزال الامن وكثر السلب والنهب فى الليل والنهار واشتد البلاء وعظمت الفتنة وما زالت نارها تتأجج حتى تم الامر لسبكتكين فجعل يتصرف ثم لم يلبث أن آنس من الخليفة المطيع الكره له وكان المطيع به مرض الفالج وقد ثقل لسانه وتعذرت الحركة عليه فدعاه سبكتكين الى أن يخلع نفسه من الخلافة ويسلمها الى ابنه الطائع ففعل وأشهد على نفسه بالخلع ثالث عشر ذى القعدة سنة ثلاث وستين وثلثمائة فكانت خلافته تسعا وعشرين سنة وخمسة أشهر الا أياما وكان وطىء الجانب كثير الصدقات حسن الاخلاق

ولما سار الاخشيد من حلب الى دمشق بعد انتصاره على سيف الدولة وورد الخبر اليه بخلع المستكفى وبيعة المطيع كما تقدم لبث بها أياما فمرض واشتدت علته ومات يوم الجمعة لثمان بقين من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة فحملوا تابوته الى بيت المقدس

فدفن هنالك وكانت ولادته فى سنة ثمان وستين ومائتين هجرية ببغداد بشارع باب الكوفة وكان ملكا حازما متيقظا حسن التدبير عارفا بالحروب مكرما للجند شديد البطش ذا قوة عظيمة لايكاد أحد يجر قوسه وله هيبة فى قلوب الرعية وكان متجملا فى مركبه وملبسه فكان موكبه يضارع موكب الخليفة وبلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف وعدد جيوشه أربعمائة ألف وكان يكره سفك الدماء شديد التحرز على نفسه فكانت تحرسه مماليكه بالمناوبة واذا نام حرسه ألف مملوك وعاش ستين سنة وقيل ستا وستين وخلف عدة ذكور ولما مات تولى الملك بعده ابنه أبو القاسم آنوجور الاخشيد فى ثانى يوم وفاة أبيه ولاه الخليفة المطيع على سائر ما كان لابيه مع حداثة سنه وجعل مدبر مملكته كافورا الخادم الاسود فكان آنوجور مغلوبا على أمره ليس له من الملك سوى الاسم والكلمة لكافور فكان كافور يطلق لآنوجور فى كل سنة أربعمائة ألف دينار ويتصرف بما يبقى واتسعت كلمة كافور وهابه الناس فآنس من أبى بكر محمد بن علىّ بن مقاتل صاحب خراج مصر وحشة فقبض عليه فى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة وخلعه وولى مكانه محمد بن على الماردانى * وسار آنوجور الى دمشق ولبث بها ماشاء ثم رحل عنها الى مصر فلم يستقر به المقام حتى جاء الخبر باستيلاء سيف الدولة على دمشق وضمها الى أملاكه فأكبر هذا الامر وأعظمه وكر راجعا الى دمشق فى عسكر عظيم ومعه عمه الحسن بن طغج وكافور الخادم وقصدهم سيف الدولة فى عسكر وجموع كثيرة فالتقوا بالرملة فى يوم الجمعة ولم يهتم بنو حمدان بلقاء عسكر آنوجور وجعلوا يطغون فى ذلك اليوم فى أرباض البلاد فاستغنم كافور الخادم فرصة غيابهم وزحف على معسكرهم بخيله ورجله وكبسهم من كل صوب وحدب وغنم مؤنتهم وذخيرتهم وسائر متاعهم ففر سيف الدولة هاربا الى الشام فتبعه كافور فى عسكره فانهزم الى حلب ثم الى الرقة فلما تم النصر لعسكر آنوجور عادوا الى ديار مصر وبينماهم عائدون جاءهم الخبر بخروج غلبون متولى الريف ونزوله على ديار مصر وتغلبه على الكثير من البلاد فأسرع آنوجور فى المسير ودخل مصر فى قلة فهرب غلبون وعادت الامور الى ما كانت عليه وسير كافور جيشا خلف أصحاب غلبون فأجلوهم عن سائر بلاد مصر وعادوا ظافرين غانمين وما زال آنوجور على حاله حتى مات فى ذى القعدة سنة تسع وأربعين وثلثمائة فكانت مدة ملكه أربع عشرة سنة وعشرة أيام ودفن ببيت المقدس عند أبيه * فقام بالامر بعده أخوه علىّ الملقب بأبى الحسن فلم يكن له من حظ الملك فى جانب كافور الخادم غير ما كان لاخيه آنوجور وبقى مغلوبا على أمره * وفى أيامه قصر النيل فى زيادته سنتين متواليتين فحصل بسبب ذلك غلاء شديد ثم قحط تسع سنوات فاشتد الحال بالناس شدة بالغة وكثر الخطف والنهب وعاث اللصوص فى مصر وبقية البلاد وأفسدوا فارتفع الامن وعم الخلل وكاد الناس يفتتنون فتنة كبرى

ووقع بين أبى الحسن الاخشيد وكافور الخادم منافرة وعظمت فشاغب بعضهما بعضا أياما كانت أشد هولا على الرعية من الغلاء والقحط وقطع الطرق ثم تصالحا وما زال كافور يتصرف

فى

فى الصغير والكبير من الامور ولا كلمة لابى الحسن على حتى مات سنة خمس وخمسين وثلثمائة هجرية فاستقر الملك باسم كافور وصار يدعى له على المنابر بالديار المصرية والشامية والحجاز فلم تطل أيامه ومات بمصر فى جمادى الاولى سنة سبع وخمسين وثلثمائة فكانت مدة تصرفه منفردا سنتين وأربعة أشهر * وكان عاقلا ذا رأى وتدبير واسع المعرفة كبير السياسة كيسا حازما كثير التبصر فى العواقب * قال الذهبى كان كافور هذا خصيا حبشيا اشتراه الاخشيد من بعض أهل مصر بثمانية عشر دينارا ثم تقدم عنده لعقله ورأيه الى أن صار من كبار القواد ثم لما مات استاذه صار اتابك ولده آنوجور وكان صبيا فغلب كافور على كافة الامور وصار الاسم للولد والدست لكافور ثم استقل بالامر ولم يبلغ أحد من الخصيان مابلغ كافور ومدحه المتنبى بقوله

قواصد كافور توارك غيره * ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا انسان عين زمانه * وخلت بياضا خلفها ومآقيا

وهجاه بقوله

من علم الاسود المخصى مكرمة * أقومه البيض أم آباؤه الصيد
وذاك أن الفحول البيض عاجزة * عن الجميل فكيف الخصية السود

قال محمد بن عبد الملك الهمدانى كان بمصر واعظ يقص على الناس فقال يوما فى قصصه انظروا الى هوان الدنيا على الله تعالى فانه أعطاها لمقصوصين ضعيفين ابن بويه ببغداد وهو أشل وكافور عندنا بمصر وهو خصى فرفع اليه قوله وظنوا أنه يعاقبه فتقدم اليه بخلعة ومائة دينار وقال لم يقل هذا الا لجفائى له فكان الواعظ يقول بعد ذلك فى قصصه ما أنجب من ولد حام الا ثلاثة لقمان وبلال المؤذن وكافور * قال أبو جعفر مسلم بن عبيد الله بن طاهر العلوى كنت أساير كافورا يوما وهو فى مركب خفيف فسقطت مقرعته من يده فبادرت بالنزول وأخذتها من الارض ودفعتها اليه فقال أيها الشريف أعوذ بالله من بلوغ الغاية ما ظننت أن الزمان يبلغنى حتى يفعل بى هذا وكاد يبكى فقلت أنا صنيعة الاستاذ ووليه فلما بلغ باب داره ودعته وسرت فاذا أنا بالبغال والجنائب بمراكبها وقال أصحابه أمر الاستاذ بحمل هذا اليك وكان ثمنها يزيد عن خمسة عشر ألف دينار اه ولكافور أخبار أخرى كثيرة أضربنا عن ايرادها هنا * ولما مات كافور ولى المصريون مكانه أبا الفوارس أحمد بن على بن الاخشيد وهو يومئذ ابن اثنتين وعشرين سنة وكان بالشامات التابعة لمصر حسين بن الاخشيد فلما وصل أهل الشام خبر موت كافور الخادم وولاية أبى الفوارس أحمد لم يرضهم ذلك وولوا عليهم حسينا المذكور ولكنه لم يلبث حتى قام عليه القرامطة وانتزعوا منه البلاد فجاء هاربا الى مصر وفى نفسه نزعها من يد أبى الفوارس فلم تساعده الايام على نوال ذلك وخانته الاقدار ولم يتم على ولاية أبى الفوارس حول

كامل حتى أتى جوهر القائد لجيوش المعز لدين الله المهدى المغربى صاحب افريقية فانتزعها منه كما سيذكر تفصيل ذلك فى محله

ومات فى خلافة المطيع أيضا غبريال بطرك المتأصلين فكانت مدته احدى عشرة سنة كابد فيها من البلايا والمحن ما لايطاق فأقاموا بعده قسيما أو هو قزمان ثامن خمسيهم فلبث اثنتى عشرة سنة ومات وفى أيامه أحرق المسلمون كنيسة مريم بدمشق الشام ونهبوا مافيها من الاوانى وغيرها وكانت قيمتها كثيرة ونهبوا كذلك ديرا للنساء بجوارها وقتلوا وسبوا ونهبوا كنائس النسطورية والمتأصلين ولم يبقوا فيها شيأ فكانت أيامه كلها شدائد فلما مات أقيم بعده مكاريوس أو هو مقار تاسع خمسيهم وهو راهب من دير أبى مقار وأصله من شبرى ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله

(وصـــــل)

(فيما قاله أصحاب التاريخ فى أصل الفاطميين وفى ظهور دولتهم بديار مصر وفى اعتبارنا لهم ملوكا عليها لا خلفاء كما يدعون)

قال أصحاب التاريخ قد كان مبدأ ظهور هذه العائلة ببلاد المغرب سنة ست وتسعين ومائتين هجرية وقد أجمعوا على هذا وعلى أن عدد من ملك منهم أربعة عشر نفرا منهم ثلاثة ظهروا بالمغرب وماتوا أولهم أبو محمد عبيد الله فقيل هو محمد بن عبدالله بن ميمون بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب * قال بعضهم ومن ينسب هذا النسب يجعله عبد الله بن ميمون القدّاح الذى ينسب اليه القداحية وقال آخرون بل هو عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل الثانى بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد ابن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب فيكون أبو محمد عبد الله هذا على مقتضى القول الاول أو عبيدالله على مقتضى القول الثانى رأس هذه العائلة ومؤسسها وقد اختلفوا فى صحة نسبه فقال هو وأصحابه القائلون بامامته ان نسبه صحيح على ماذكرهنا ولم يرتابوا فيه قال صاحب الكامل وذهب كثير من العلويين العالمين بالانساب الى موافقتهم أيضا ويشهد بصحة هذا القول ما قاله الشريف الرضى

ما مقامى على الهوان وعندى * مقول صارم وأنف حمىّ
ألبس الذل فى بلاد الاعادى * وبمصر الخليفة العلوىّ
من أبوه أبى ومولاه مولا * ى اذا ضامنى البعيد القصىّ
لف عرقى بعرقه سيد النـ * ـاس جميعا محمد وعلىّ

ان ذلى بذلك الجـــدّعــز * وأوامى بذلك الربـــع رىّ

قال وانما لم يودعها فى بعض ديوانه خوفا ولا حجة بما كتبه فى المحضر المتضمن القـدح فى أنسابهم فان الخوف يحمل على أكثر من هـذا قال وسألت جماعة من أعيان العلويين فى نسبه يعنى فى نسب محمد أبى عبيد الله هذا فلم يرتابوا فى صحته اه وذهب آخرون الى غير هذا المذهب فقالوا بل ان نسبه مدخول ليس بصحيح وانه كان يهوديا وكذلك كتبوا فى الايام القادرية محضرا يتضمن القدح فى نسبه ونسب أولاده ووقع عليه جماعـة من العلويين وغيرهم أن نسبه الى أمـير المؤمنين علىّ بن أبى طالب غـير صحيح وكان ممن كتب فيـه من العـلويين المرتضى وأخوه الرضى وابن الطحاوى وابن الأزرق العـلويون ومن غيرهـم ابن الاكفانى وابن الخرزى وأبو العباس الابيوردى وأبو حامـد والكشفلى والقـدورى والصيمرى وأبو الفضل النسوى وأبو جعفر النسفى وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة وزعم القائلون بصحة نسبه أن العلماء ممن كتب فى ذلك المحضر انما كتبوا خوفا وتقية وأن نسبه الى علىّ صحيح لامراء فيه * وأما من رفع نسبه الى الحسين بن محمد القداح ثم تغالوا حتى قالوا انه لم يكن من ولد الحسين المذكور ولكنه ابن لامرأة يهودية كان قد أحبها الحسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القـداح فقـد اعتمدوا فى ذلك على ما رواه أهل التاريخ ونقـلة الكتاب من أخبار أيام القدّاح جد هذه العائلة وكيفية ظهوره أنه لما ظهرت كلمة أبى عبد الله الشيعى يعـنى ابن ميمون القدّاح وكثرت أحزابه وانتشرت حواشيه فى بلاد أفريقية جعل يغرى الناس بأبى مضر ويعيبه ويسفه أحلامـه وما زال حتى فشت دعوته بين سائر وزراء زيادة الله صاحب افريقية فمالوا اليه وأحبوا نصرته فلما كاد يتم له ذلك مات عبدالله ميمون المذكور وظهر ولده فجعلوا يقولون انهم من ولد عقيل بن أبى طالب ولكنهم لم يجسروا على الظهور بين الناس فكانوا يخفون أشخاصهم ولبثوا على هذا الحال حينا وكان ولده أحمد هو المشار اليه منهم فتوفى وخلف ولده محمدا وكان محمد هذا هو الذى يكاتبه الدعاة فى البلاد فتوفى محمـد وخلف أحمد والحسين فسار الحسـين الى سلمية من أرض حمص اذ كان له بها ودائع وأموال من ودائع جـده عبـد الله القـدّاح ووكلاء وغلمان وبقى ببغـداد من أولاد القـدّاح أبو الشلغلغ وكان الحسـين يدّعى أنه الوصى وصاحب الامر والدعاة باليمن والمغرب يكاتبونه ويراسـلونه فى أمور الشـيعة كلها * واتفق أنه جرى فى مجلسه يوما حديث النساء بسلمية وجمال بعضهن فوصفوا له امرأة رجـل يهودى حداد مات عنها زوجها وهى فى غاية الحسـن والجمال وأن لهـا ولدا من الحـداد يماثلها فى الجمال فمال الى زواجها فتزوج بها وأحبها وحسـن موقعها معـه وأحب ولدها وأدّبه وأحسـن تعليمه وكان اسمه عبيـد الله فتعلم العـلم وصارت له نفس عظيمة وهمة كبـيرة ثم مات الحسـين فقال بعض علماء زمانه من أهل سلميـة انه مات عن غـير ولد فعهد الى ابن اليهودى الحـداد وهو عبيـد الله هذا

وعرّفه أسرار الدعوة من قول وفعل ودله على مواضع الدعاة وأعطاه الاموال والعلامات وتقدّم الى أصحابه بطاعته وخدمته وانه الامام والوصى وزوّجه ابنة عمه أبى الشلغلغ الذى نزل ببغداد وهذه دعوة أبى القاسم الابيض العلوى وغيره قالوا وجعل لنفسه أى عبيد الله المذكور نسبا وهو عبيد الله بن الحسين بن علىّ بن محمد بن علىّ بن موسى بن جعفر بن محمد ابن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب * وبعض العلماء بالانساب يقولون بل هو أى عبيدالله المهدى من ولد القدّاح جاءه من زوجة اليهودى الحداد وظهرت كلمة عبيدالله المذكور وعرفه الدعاة واجتمعوا حوله فبذل الاموال وأكثر من الاعطية وشاع خبره عند الناس أيام المكتفى العباسى فطلبه فهرب هو وولده أبوالقاسم نزار الذى ولى بعده وهو يومئذ غلام وخرج معه خواصه ومواليه يريد المغرب وعليها زيادة الله فلما انتهى الى مصر لبث بها مستترا بزى التجار وكان العامل على مصر يومئذ عيسى النوشرى فأتته الكتب من الخليفة بصفته وحليته والامر بالقبض عليه وعلى كل من يشبهه وكان بعض المقربين من مجلس عيسى النوشرى متشيعا فأخبر عبيدالله بخبر القبض عليه وأشار عليه بالانصراف فرحل عن مصر مع أصحابه ومعه من الاموال شئ كثير فأوسع النفقة على من صحبه وفرق عيسى النوشرى الرسل فى طلب المهدى المذكور وعلم بخروجه فخرج خلفه فى عسكر فلحقه وقد نزل ببستان فلما رآه لم يشك فيه فقبض عليه ووكل به فلما حضر الطعام دعاه ليأكل فأعلمه أنه صائم فرق له وقال له أعلمنى بحقيقة حالك حتى أطلقك فخوفه بالله تعالى وأنكر حاله وما زال يعظ النوشرى ويخوفه الله ويتلطفه حتى رق له وأطلقه وخلى سبيله وقيل انه أعطى النوشرى مالا جزيلا حتى أطلقه وعلم أصحاب النوشرى بما جرى فرجعوا على النوشرى باللوم وعنفوه على اطلاقه فندم وسير خلفه سرية من العسكر وكان المهدى لما لحق بأصحابه رأى ابنه أبا القاسم قد ضيع كلبا كان يصيد به وهو يبكى عليه فعرّفه عبيده أنهم تركوه فى البستان الذى كانوا فيه فرجع المهدى فى طلب الكلب حتى دخل البستان ومعه جماعة من غلمانه فرآهم النوشرى فسأل عنهم فقيل فلان قد عاد بسبب كذا وكذا فقال النوشرى لاصحابه قبحكم الله أردتم أن تحملونى على قتل هذا الرجل حتى آخذه فلو كان يطلب مايقال أو كان مريبا لكان يطوى المراحل ويخفى نفسه ولا كان رجع فى طلب كلب وتركه

واتسعت شهرة أبى عبيد الله بعد ذلك وكثرت جموعه فتقوّت بهم عزيمته وكان فى غضون هذه الحوادث قد عاث أبو عبدالله الشيعى بالمغرب وأكبر الدعوة الى المهدى عبيدالله بن القدّاح وقتل ونهب وفتح عدّة بلاد من افريقية مثل ميلا وسطيف وطبنة ومدينة بلزمة ودار ملوك ومدينة تيجس وباغاية وأنكجان ومجانة وتيفاش ومسكيانة وتبسة ومدبرة ومرمجنة والقصرين وقسطيلة وغير ذلك من المدن والبلدان وأخرج أبوعبيدالله العمال الى تلك البلاد وطلب أهل الشر والفساد فقتلهم وأمر أن يجمع ما كان لزيادة الله من الاموال والسلاح وغير ذلك وكان زيادة الله قد هرب الى ديار مصر فاجتمع له شئ كثير وفيه كثير من الجوارى لهن مقدار

وحظ من الجمال فوكل بهن امرأة صالحة كانت لزيادة الله ولم ينظر الى واحدة منهن ولما استقر بالقيروان وحضرت الجمعة أمر الخطباء باقامة الخطبة فيها وفى رقادة فخطبوا ولم يذكروا أحدا وأمر بضرب السكة ولم ينقش عليها اسم ولكنه جعل مكان الاسم من وجه * بلغت حجة الله * ومن الوجه الآخر * تفرق أعداء الله * ونقش على السلاح * عدة فى سبيل الله ورسم الخيل على أفخاذها * الملك لله * وأقام على ما كان عليه من لبس الدون الخشن والقليل من الطعام الغليظ وبتغلب أبى عبدالله على هذه المدن والامصار زال ملك بنى الاغلب وملك بنى مدرار من أفريقية وكان قد مضى على ملكهم ثلاثون ومائة سنة وهم منفردون علك سلجماسة وزال كذلك ملك بنى رستم من تاهرت ولهم ستون ومائة سنة تفردوا بتاهرت * وجاء عبيدالله المهدى وولده أبو القاسم بدعوة من أبى عبدالله الشيعى فدخل القيروان بعد أمور أضربنا عن ايرادها هنا وأبو عبد الله الشيعى ورؤساء كتامة مشاة بين يديه وولده خلفه ونزل بقصر من قصور رقادة وأمر يوم الجمعة بذكر اسمه فى الخطبة فى البلاد ولقب بالمهدى أمير المؤمنين وجلس بعد الجمعة رجل يعرف بالشريف ومعه الدعاة وأحضروا الناس بالعنف والشدة ودعوهم الى مذهبهم فمن أجاب أحسن اليه ومن أبى حبس فلم يدخل فى مذهبهم الا القليل وقتل كثير ممن لم يوافقهم على قولهم وقسم على وجوه كتامة أعمال أفريقية ودون الدواوين وجبى الاموال واستقرت قدمه ودانت له أهل البلاد وقتل أبا عبد الله الشيعى وأخاه أبا العباس لامور لاموضع لذكرها هنا * وتاقت نفسه الى فتح الديار المصرية وضمها الى مملكته الواسعة فاستشار جماعة من قواده فى ذلك فأشاروا عليه بالفتح وهونوا عليه الامر وكشفوا له عما أصاب الخلافة العباسية من الوهن وما هى عليه من قرب الزوال * فلما كانت سنة احدى وثلثمائة هجرية جهز المهدى جيشا عظيما وسيره من افريقية مع ولده أبى القاسم الى الديار المصرية فقصد برقة واستولى عليها فى ذى الحجة وسار الى مصر فلكوا الاسكندرية وساروا منها الى الفيوم فلكها وصار فى يده أكثر ما جاورها من البلاد فضيق عليها وشدد على أهلها ووردت الاخبار بذلك الى الخليفة المقتدر بالله العباسى فأكبرها وأعظمها جدا وسير لخلاص البلاد مؤنسا الخادم فى جيش عظيم فالتقى بأبى القاسم وجيوشه واقتتلوا قتالا عنيفا فظفر بهم مؤنس وهزمهم شر هزيمة فعادوا الى المغرب مهزومين وعلم المهدى بما جرى لهم فجيش جيشا آخر وسيره مع قائد من قواده يقال له حباسة الى الاسكندرية فى البحر فنزل عليها وقاتلها وتغلب عليها ثم سار منها الى مصر ونزل بين مصر والاسكندرية وجاء الخبر بذلك الى المقتدر فأرسل مؤنسا الخادم فى عسكر الى مصر لقتال حباسة وأمده بالسلاح والمال فسار اليها فالتقى العسكران فى جمادى الاولى فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل من الفريقين خلق كثير وجرح خلق واشتد القتال وتعددت الوقائع وجد أصحاب مؤنس فى قتال المغاربة حتى هزموهم شر هزيمة وتبعوهم بالقتل والاسر فكان مبلغ القتلى على ما قاله صاحب الكامل سبعة آلاف مع الاسرى وهرب الباقون وكانت هذه الواقعة فى سلخ جمادى الآخرة من

السنة أى سنة اثنتين وثلثمائة وعادوا الى المغرب فلما وصلوا الى المغرب قتل المهدى حباسة أمير تلك الجيوش ومع ذلك لم تفتر للمهدى عزيمة ولم يتحول عن عزمه من أخذ مصر عنوة واشتد عليه هذا الامر وأقلقه جدّا فلما كانت سنة سبع وثلثمائة جهز المهدى جيشا عظيما تحت رئاسة ابنه أبى القاسم وسيّره الى مصر فوصل الى الاسكندرية فى ربيع الآخر من السنة فرحل عامل المقتدر عنها لعدم قدرته على القتال فدخلها أبو القاسم وسار الى مصر فدخل الجيزة وملك الاشمونين وكثيرا من الصعيد ووردت الاخبار بذلك الى الخليفة المقتدر فبعث مؤنسا الخادم فى شعبان لردّ أبى القاسم وجنوده عن البلاد فحصل بينه وبين أبى القاسم عدّة وقعات ووصل من أفريقية ثمانون مركبا نجدة لابى القاسم وعليها سليمان الخادم ويعقوب الكتامى وهما أشجع قواد المهدى وجاء الخبر بذلك الى الخليفة المقتدر بالله فأمر بأن تسير مراكب طرسوس اليهم فسارت خمسة وعشرون مركبا وفيها النفط والعدد ومقدّمها أبو اليمن فالتقت السفن بالسفن واقتتلوا على رشيد فظفر أصحاب مراكب المقتدر وأحرقوا كثيرا من مراكب أفريقية وهلك أكثر أهلها وأسر منهم كثير وفى الاسرى سليمان الخادم ويعقوب فقتل من الاسرى كثير وأطلق كثير ومات سليمان فى الحبس بمصر وحمل يعقوب الى بغداد ثم هرب منها وعاد الى افريقية واشتد مؤنس الخادم قائد جيوش المقتدر بالله وألح فى قتال أبى القاسم ومن معه حتى ظفر به وقهره فجاءه مرسوم الخليفة بالتشريف ولقب المظفر ووقع الوباء أيضا فى عسكر أفريقية وكذلك الغلاء فمات منهم كثير من الخلق والخيل فعاد من سلم الى أفريقية وسار عسكر مصر فى أثرهم حتى أجلوهم عن البلاد

فلما كانت سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة هجرية مات أبو محمد عبيد الله المهدى فى ربيع الاول فأخفى ولده أبو القاسم خبر موته سنة لتدبير كان له وكان يخاف أن يختلف الناس عليه اذا علموا بموته وكان عمر المهدى لما توفى ثلاثا وستين سنة وكانت خلافته منذ دخل رقادة ودعى له بالامامة الى أن مات أربعا وعشرين سنة وشهرا وعشرين يوما * فقام بالامر بعده ابنه أبو القاسم محمد وكان أبوه قد عهد اليه ولقب بالقائم بأمر الله فلما استتب له الامر ودانت له المملكة هم بفتح ديار مصر فجيش جيشا عظيما وسيّره اليها مع خادمه زيدان وبالغ فى النفقة عليه فدخلوا الاسكندرية وكان المتولى على ديار مصر فى هذا الحين محمد الاخشيد فأخرج لقتالهم جنودا فقاتلوهم وهزموا المغاربة وقتلوا فيهم وأسروا خلقا وعاد المغاربة مغلوبين وبقى الحال فى سكون والقائم لا يبدى حراكا الى أن كانت سنة أربع وثلاثين وثلثمائة مات القائم بأمر الله لثلاث عشرة مضت من شوال * فقام بالامر بعده ابنه اسمعيل وتلقب بالمنصور بالله وكتم خبر موت أبيه لسبب الفتنة القائمة وخروج المدعوّ أبا يزيد وكان المنصور شهما شجاعا حسن التدبير فضبط أركان الملك وأحسن تدبير البلاد فبلغت شهرته مبلغا عظيما وما زال يتصرف حتى مات سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة للهجرة بالمهدية فكان ثالث من ظهر ومات من هذه العائلة بالمغرب * فقام بالامر بعده ولده المعز لدين الله أبو تميم معد وهو أول ملوكهم

الاحد

الاحد عشر بديار مصر فلما تمت له البيعة وصفت له الامور تاقت نفسه الى فتح ديار مصر والتغلب عليها وقد طمع فيها * وكان لما مات كافور الاخشيدى لم يبق بمصر من تجتمع القلوب عليه فاختلفت عند ذلك كلمة أهل البلاد وتفرقت أهواؤهم وافتتنوا أوكادوا وأصابهم فى ذلك الحين غلاء شديد ثم قحط ثم وباء أفنى من الخلق ما لايكاد يدخل تحت الحصر فلما بلغ ذلك المعز أبا تميم طمع فى فتحها وكثرت رغبته فى ذلك فجهز القائد أبا الحسن جوهرا غلام والده المنصور وهو رومىّ فى مائة ألف مقاتل فبرز جوهر الى رمادة وبين يديه أكثر من ألف صندوق من المال وصار المعز يخرج اليه فى كل يوم وأطلق يده فى بيت ماله يحكى أن المعز خرج يوما الى معسكر جوهر فقام جوهر بين يديه وقد اجتمع القواد وكبار القوم الذين خرجوا مع الجيش فنظر المعز اليهم وقال والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ووالله لتدخلن ديار مصر بالوردية من غير حرب ولتنزلن فى خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا وأمر المعز بافراغ الذهب فى هيئة الارحية وحملها مع جوهر على الجمال ظاهرة وأمر أولاده واخوته وولى عهده أن يسيروا فى ركاب جوهر وهو راكب وكتب الى سائر عماله يأمرهم اذا قدم عليهم جوهر أن يترجلوا مشاة فى خدمته فانحدر جوهر بجيوشه ونزل برقة فتقدم اليه صاحبها بخمسين ألف دينار ذهبا فداء من ترجله ومشيه فى ركابه فرده جوهر عليه وقال لابد من العمل بما أمر به أمير المؤمنين فمشى صاغرا وكان خروج جوهر من القيروان فى رابع عشر ربيع الاول سنة ثمان وخمسين وثلثمائة فهنأه الشعراء يوم خروجه وودعه كبار الدولة وبالغوا فى تعظيمه * ومدحه محمد بن هانئ الشاعر بقصيدة منها هذه الابيات

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع * وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غداة كأن الافق سدّ بمثله * فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر اذ ودعت كيف أودّع * ولم أدر اذ شيعت كيف أشيع

الى أن قال

اذا حل فى أرض بناها مدائنا * وان سار عن أرض غدت وهى بلقع
تحل بيوت العز حيث محله * وجم العطايا والرواق المرفع
رحلت الى الفسطاط أول رحلة * بأيمن فأل بالذى أنت تجمع
فان يك فى مصر ظماء لمورد * فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ووصل جوهر بمن معه من الجيوش الى مصر فلما اتصل خبر وصوله هربت العساكر الاخشيدية على وجوههم فنزل بالجيزة فى سابع عشر شعبان من السنة فخرج الناس للقائه واجتمع سائر الامراء وبينهم الوزير جعفر وجماعة من الاعيان وعبروا النيل الى الجيزة والتقوا بالقائد ونادى مناديه فنزل الناس كلهم الا الشريف والوزير فترجلوا وسلموا عليه واحدا واحدا والوزير عن شماله والشريف عن يمينه ثم دخل بجيوشه البلد من وقت الزوال بسلاحهم وعددهم وكراعهم وطبولهم وبنودهم ونزلوا فيما هو موضع القاهرة اليوم

ثم سار الى الفسطاط ونزل فيه بعسكره وخطب للمعز يوم الجمعة على منابر مصر وسائر أعمالها وأمر أن يزاد عقيب الخطبة « اللهم صل على محمد المصطفى وعلى على المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا اللهم صل على الائمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين » وأمر المؤذنين بجامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون أن يؤذنوا بحى على خير العمل فشق ذلك على الناس ولكنهم ما استطاعوا له ردا وشرع فى بناء القاهرة للجند والقصرين والجامع الأزهر وأرسل بشيرا الى المعز يبشره بفتح مصر واقامة الدعوة له بها ويطلبه اليها وقد بدأ ببناء القاهرة فى سنة تسع وخمسين وثلثمائة للهجرة فلم تأت سنة احدى وستين حتى تم بناؤها * قال بعض الكتاب وقد كانت البقعة التى ابتنى فيها القاهرة والقصرين والجامع بقعة رملية فيما بين الفسطاط وعين شمس لاشئ فيها الا بعض البساتين منها بستان الاخشيد شرقى الخليج وميدان الاخشيد ودير للنصارى من أهل البلاد كان يسمى دير العظام فيه بئر لايزال باقيا يعرف بئر الجامع الاقمر وتسميه العامة بئر العظمة وكان فى تلك البقعة أيضا موضع يعرف بقصير الشوك ثم عرف بعد بناء القاهرة بقصر الشوك

ولما استقر بجوهر المقام بمصر وثبتت قدمه سير جعفر بن فلاح الكتامى الى الشام فى عسكر عظيم فبلغ الرملة وبها أبو محمد الحسن بن عبد الله بن طغج فقاتله فى ذى الحجة من السنة أى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة واشتد ابن فلاح فى قتاله وألح فكانت بين الفريقين حروب كان الظفر فيها لابن فلاح وأسر ابن طغج وغيره من كبار القواد وسيرهم الى جوهر القائد بمصر فبعث بهم جوهر الى المعز بافريقية ودخل ابن فلاح الرملة عنوة فقتل ونهب وسبى ثم أمن من بقى من أهلها وجبى منهم الخراج وسار الى طبرية فرأى ابن ملهم قد أقام الدعوة للمعز لدين الله فسار عنها الى دمشق فامتنع عليه أهلها وقاتلوه فقاتلهم وألح فى قتالهم حتى ظفر بهم وملك البلد ونهب بعضه وأقام الخطبة للمعز يوم الجمعة لايام خلت من المحرم سنة تسع وخمسين وقطعت الخطبة العباسية * قال صاحب الكامل * وكان بدمشق الشريف أبو القاسم بن أبى يعلى الهاشمى وكان جليل القدر نافذ الحكم فى أهلها فجمع أحداثها ومن يريد الفتنة وثار بهم فى الجمعة الثانية وأبطل الخطبة للمعز لدين الله وأعاد خطبة المطيع لله ولبس السواد وعاد الى داره فقاتله جعفر بن فلاح ومن معه قتالا شديدا وصبر أهل دمشق ثم افترقوا آخر النهار فلما كان الغد تزاحف الفريقان واقتتلوا ونشبت الحرب بينهما وكثرت القتلى من الجانبين ودام القتال فعاد عسكر دمشق منهزمين والشريف ابن أبى يعلى مقيم على باب البلد يحرض الناس على القتال ويأمرهم بالصبر وواصل المغاربة الحملات على الدماشقة حتى ألجؤهم الى باب البلد ووصل المغاربة الى قصر حجاج ونهبوا ما وجدوا فلما رأى ابن أبى يعلى الهاشمى والاحداث ما لقى الناس من المغاربة خرجوا من البلد ليلا فأصبح الناس حيارى فدخل الشريف الجعفرى وكان قد خرج من البلد الى جعفر

ابن فلاح فى الصلح فاعاده وأمره بتسكين الناس وتطييب قلوبهم ووعدهم الجميل ففعل ما أمره وتقدم الى الجند والعامة بلزوم منازلهم وأن لا يخرجوا منها الى أن يدخل جعفر بن فلاح البلد ويطوف فيه ويعود الى عسكره ففعلوا ذلك قال فلما دخلت المغاربة البلد عاثوا فيه ونهبوا قطرا منه فثار الناس وحملوا عليهم ووضعوا السيف فيهم فقتلوا منهم جماعة وشرعوا فى تحصين البلد وحفر الخنادق وعزموا على اصطلاء الحرب وبذل النفوس فى الحفظ وأحجمت المغاربة عنهم ومشى الناس الى الشريف أبى القاسم بن أبى يعلى فطلبوا منه أن يسعى فيما يعود بصلاح الحال ففعل ودبّر الحال الى أن تقرر الصلح يوم الخميس لست عشرة خلت من ذى الحجة سنة تسع وخمسين وثلثمائة وكان الحريق قدأتى على عدة كثيرة من الدور وقت الحرب * وأدخل صاحب الشرطة جعفر بن فلاح البلد يوم الجمعة فصلى مع الناس وسكّنهم وطيب قلوبهم وقبض على جماعة من الاحداث فى المحرم سنة ستين وثلثمائة وقبض على الشريف أبى القاسم بن أبى يعلى الهاشمى المذكور وسيره الى مصر واستقر أمر دمشق للمعز لدين الله اهـ * وجاء الخبر بما وقع بدمشق من القتل والنهب الى الحسين بن أحمد بن بهرام القرمطى صاحب القرامطة وأن ابن فلاح ملك البلد وقتل ابن طغج فاهمه هذا الخبر وأقلقه هو وأصحابه وأزعجهم جدّا وذلك لانه كان قد تقرر بينهم وبين ابن طغج أن يحمل اليهم ابن طغج المذكور ثلثمائة ألف دينار نقرة فى كل سنة فلما ملك ابن فلاح الشام علموا أن المال يفوتهم فعزموا على قصد الشام وأرسل صاحبهم الحسين بن أحمد بن بهرام القرمطى الى عز الدولة بختيار يطلب منه المساعدة بالسلاح والمال فأجابه الى ذلك فساروا الى دمشق فى ذى القعدة من السنة فى عدة عظيمة وبلغ خبرهم الى جعفر بن فلاح فاستهان بهم ولم يحترز منهم فلم يشعر بهم حتى كبسوه بظاهر دمشق وقتلوه ونهبوا أمواله وسلاحه ودوابه وملكوا دمشق وأمنوا أهلها وساروا الى الرملة فاستولوا على جميع ما بينها وبين دمشق فلما سمع من بها من المغاربة خبرهم ساروا عنها الى يافا فتحصنوا بها وملك القرامطة الرملة وساروا الى مصر وتركوا على يافا من يحصرها فلما وصلوا الى مصر اجتمع معهم خلق كثير من العرب والجند والاخشيدية والكافورية فاجتمعوا بعين شمس واجتمع عسكر جوهر القائد وخرجوا اليهم فاقتتلوا غير مرة كان الظفر فى كل وقعة للقرامطة وحصروا المغاربة حصرا شديدا وخرج المغاربة يوما من مصر وحملوا على ميمنة القرامطة فانهزم من بها من العرب وتلك القوم وقصدوا سواد القرامطة فنهبوه فاضطروا الى الرحيل وعادوا الى الشام فنزلوا الى الرملة وحاصروا يافا وضيقوا على من بها فسير جوهر من مصر نجدة الى أصحابه بيافا ومعهم ميرة فى خمسة عشر مركبا فخرجت مراكب القرامطة عليها فأسروا مراكب جوهر كلها ولم ينج منها غير مركبين فغنمهما الروم ثم كان بعد ذلك من أمرهم ماسيذكر فى محله

ولما وصل البشير الى المعز لدين الله وبشره بفتح الديار المصرية واقامة الدعوة له بها وطلبه اليها فرح فرحا لا يوصف وسار من افريقية يريد الديار المصرية فكان أول مسيره أواخر شوال

من السنة أى سنة احدى وستين وكان أول رحيله من المنصورية فأقام بسردانية وهى قرية قريبة من القيروان ولحقه بها رجاله وعماله وأهل بيته وجميع ما كان له فى قصره من أموال وأمتعة وغير ذلك حتى ان الدنانير سبكت وجعلت كهيئة الطواحين وحمل كل طاحونتين على جمل وسار عن سردانية بعد مقام أربعة أشهر الى طرابلس ومعه جيوشه وحواشيه ثم رحل عنها الى مصر ونزل على برقة ومعه محمد بن هانئ الشاعر الاندلسى وكان عند ما خرج المعز من القيراوان يريد مصر مدحه ابن هانئ المذكور بقصيدة طويلة مطلعها

تقول بنو العباس هل فتحت مصر * فقل لبنى العباس قد قضى الامر

فأصبحوا وقد رأوا ابن هانئ المذكور ملقى على جانب البحر قتيلا ولم يدروا من قتله وكان قتله أواخر رجب من سنة اثنتين وستين وثلثمائة وكان من الشعراء المجيدين قال أهل الانتقاد ولكنه غالى فى مدح المعز حتى كفره العلماء فن ذلك قوله

ماشئت لاماشاءت الاقدار * فاحكم فأنت الواحد القهار

وقوله * ولطالما زاحمت تحت ركابه جبريلا * قال صاحب الكامل ومن ذلك ما ينسب اليه ولم أجدها فى ديوانه قوله

حل برقادة المسيح * حل بها آدم ونوح

حل بها الله ذو المعالى * فكل شئ سواه ريح

ورقادة اسم مدينة بالقرب من القيروان الى غير ذلك قال وقد تأول ذلك من يتعصب له والله أعلم اه ووصل المعز لدين الله الى الاسكندرية أواخر شعبان من السنة وأتاه أهل مصر وأعيانها فلقيهم وأكرمهم وأحسن اليهم وخطب بالاسكندرية خطبة بليغة وكان ممن سار للقائه قاضى مصر أبو طاهر الذهلى فجلس الى جنبه فسأله المعز هل رأيت خليفة أفضل منى فقال لم أر أحدا من الخلائق سوى أمير المؤمنين فقال له أحججت قال نعم قال وزرت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم قال وقبر أبى بكر وعمر قال القاضى فتحيرت ماذا أقول ثم نظرت فاذا ابنه قائم مع كبار الامراء فقلت شغلنى عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم كما شغلنى أمير المؤمنين عن السلام على ولى العهد ونهضت اليه وسلمت عليه فأفسح المجلس الى غيرى * وسار من الاسكندرية الى مصر فدخلها خامس رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة وأنزل عساكره مصر والقاهرة فى الديار وبقى كثير منهم فى الخيام ونزل هو بالقصرين فكانت أول حكومة انتهت اليه أن امرأة لكافور الاخشيدى تقدمت اليه فذكرت له أنها كانت أودعت رجلا من اليهود الصواغ قباء من لؤلؤ منسوجا بالذهب وأنه جحد ذلك فاستحضره وقرره فأنكر اليهودى فأمر أن يفتش فوجدوا القباء قد جعله فى جرة ودفنها فى الارض فدفعه المعز اليها فتقدمت اليه وعرضته عليه فأبى أن يقبله منها ورده عليها فاستحسن منه الحاضرون ذلك وامتدت مملكة المعز لدين الله من حلب الى بلاد المغرب الى مكة كما كانت دولة الخلفاء العباسيين فى أيامه ممتدة أيضا من بغداد وسائر الممالك الشرقية الى العراق وأعمالها

ولما

ولما كان أصحاب التاريخ على اختلاف فى أصل نسب هذه العائلة أعنى بها الفاطمية وقد أكثروا القول فى ذلك وأطالوا الكلام واحتج كل فريق بحجة واستمسك بشئ من الادلة على صحة دعواه ولم تكن لتنقطع أيضا الى هذا الحين الخلافة من العباسيين وكان القائم بأمرها أمير المؤمنين الخليفة العباسى المطيع لله أبوالفضل ابن الخليفة المقتدر يدعون له على المنابر فى بغداد وسائر الممالك الشرقيــة والعراقين وأعمـالها وقد ورد فى حديث صاحب الشريعة الاسلامية النهى عن التعدد فى الائمة قوله ﷺ اذا بويع لخليفتين فاقتلوا أحدهما ﷺ وكانت خـلافة الفاطميين لم تظهر لانقراض الخلفاء العباسيين ولالفقدان صلاحيتهم لحماية البيضة الاسلامية ولا لتعطيل وقع فى الاحكام الشرعية المتعلقة بالامامة بل كان ظهورها بظهور جوهر الرومى قائد المعز المغربى المذكور وتغلبه على ديار مصر بعد موت كافور الاخشيدى واختلاف كلمة أهل البلاد يومئذ فضلا عمـا قد كان أصابهم من الغلاء والقحط والوباء الشديد الذى لم يبق ولم يذر فلذلك رأيت أن لا أتحول عن تتبع سنى الخلافة العباسية بذكر مدة كل خليفة وما وقع فيها من الحوادث وجعلها مبدأ كل مدة حتى تنقطع تماما اما بقيام من هو أحق بالخلافة وأولى بالامامة وهذا بعيد لاسبيل اليه بعد انقراض العباسيين كما قاله المحققون من أهل السنة واما بتغلب من هو أصلح لحماية البيضة الاسلامية وأقدر على تنفيذ الاحكام الشرعيــة المتعلقة بالامامة وهذا ليس ببعيد اذا كان المراد من الامامة فى عرف المتأخرين اختيـار الاصلح للامة كما فعل جمهور المهاجرين السابقين من العقبات الثلاث وأصحاب الهجرتين والقبلتين وأهل بدر وبينهم عمر بن الخطاب من اختيارهم لابى بكر الصديق ومبايعته بالخلافة دون سعد بن عبادة سيد قبيلة الاوس الذى اختاره الانصار والخزرجيون من الانصـار ودون علىّ بن أبى طالب ابن عم صاحب الشريعة وزوج ابنته فاطمة الزهراء وحينئذ نرجع فى التاريخ اليه ونتبع فى ذكر الحوادث سنى خـلافته وهكذا من يأتى بعــده من الخلفاء الى ماشاء الله * وأما المعز لدين الله بن المهـدى عبيد الله المغربى رأس هؤلاء الفـاطميين بديار مصر فقـد حسبناه فى عداد من ملك قبله من المـلوك لفتحها على يد جوهر قائد جيوشه وكذلك من يقوم بعــده من ولده الى أن يورثها الله من يشاء من عباده ولذلك فانى ذاكر هنا حوادث أيامهم واحـدا فواحدا فى قلب مدة كل خليفة من الخلفاء العباسيين كمن سبقهم من النواب والملوك الى أيام كافور الاخشيدى حتى لايلتبس الامر على القارئ بتعدد الخلفاء فيفوته الغرض والله الهادى الى الصواب

(الفصل الرابع والعشرون)

(فى خلافة أبى بكر بن عبد الكريم الطائع لله)

ثم قام بالامر بعد المطيع ولده عبد الكريم أبو بكر الطائع لله بويع له بالخلافة يوم خلع أبوه نفسه من الخلافة سنة ثلاث وستين وثلثمائة هجرية أى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة ميلادية وعمره يومئذ سبع وأربعون سنة فلم يل الخلافة من بنى العباس من هو أكبر منه سنا * قال صاحب رأس مال النديم * ولم يتقلد الخلافة من أبوه حى سوى الطائع لله والصديق رضى الله عنه وكلاهما اسمه أبو بكر اه تولى الخلافة وليس له منها سوى الاسم فقط لكن تقدم من العباسيين والامر يومئذ لابن بويه وغيره من الاتراك وكان ابن بويه هذا واسع الهيبة عالى الكلمة لم يبق للخليفة الطائع من مراسم الخلافة وأبهتها شيأ الا وحازه لنفسه فكان الخليفة يخافه جدا ويحترز من قربه الى بغداد ويعمل فى السر على اعلاء كلمة بختيار وتحبب الجند اليه وتزوج بابنة بختيار لتعظم بذلك شوكته وتكبر هيبته فاحس عضد الدولة بن بويه بما وراء ذلك وكتب الى عز الدولة بختيار المذكور يدعوه الى طاعته وأن يسير عن العراق الى أى جهة أرادها وكان بختيار يومئذ على العراق فاستشار بختيار أصحابه فى ذلك فاختلفوا عليه فكتب الى عضد الدولة بالاجابة الى ما يطلب وانما يريد المساعدة بما يحتاج اليه من مال وسلاح فاجابه عضد الدولة الى ذلك وأنفذ اليه خلعة وتجهز بختيار بما أنفذه اليه عضد الدولة وخرج من بغداد عازما على قصد الشام وسار عضد الدولة فدخل بغداد وخطب له بها * قال أصحاب التاريخ ولم يكن قبل ذلك يخطب لاحد بها وضرب على بابه ثلاث نوب ولم تجر بذلك عادة من تقدمه وأمر أن يلقى الوزير أبو طاهر بن بقية وزير عز الدولة بختيار بين قوائم الفيلة لتقتله وكان قد طلبه من عز الدولة قبل جلائه عن بغداد فسلمه اليه بعد أن قلع عينيه فداسته الفيلة حتى قتلته ثم صلب على رأس الجسر فرثاه أبو الحسين بن الانبارى بمرثية لم يسمع فى مصلوب مثلها وهى

علو فى الحياة وفى الممات * لحق أنت احدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا * وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا * وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء * كمدهما اليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الارض عن أن * يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا * عن الاكفان ثوب السافيات

لعظمك فى النفوس تبيت ترعى * بحـــراس وحفـاظ ثقـات
وتوقـد حولك النـيران قوم * كذلك كنت أيام الحياة
ركبت مطية من قبـل زيد * علاها فى السنين الماضيات
وتلك قضـــية فيها تأس * تباعد عنك تعيير العـداة
ولم أر قبـل جذعك قط جذعا * تمكن من عناق المكرمات
أسأت الى النوائب فاستثارت * فأنت قتيـل ثأر النائبات
وكنت تجيرنا من صرف دهر * فعاد مطالبا لك بالـترات
وصير دهرك الاحسان فيـه * الينا من عظيم السيآت
وكنت لمعشر سعدا فلما * مضيت تفـرقوا بالمنحسات
غليـل باطن لك فى فؤادى * حقيـق بالدموع الجاريات
ولو أنى قـدرت عــلى قيام * بفرضك والحقوق الواجبات
ملأت الارض من نظم القوافى * ونحت بها خلاف النائحات
ولكنى أصـبر عنك نفسى * مخافة أن أعـد من الجناة
ومالك تربة فأقـول تسـقى * لانك نصب هطل الهاطلات
عليك تحيـــة الرحمن تترى * برحمات غــواد دائمات

قوله زيد عـلاها فى البيت التاسع يعنى زيد بن على بن الحسـين بن على بن أبى طالب لما قتـل وصلب بأمر هشام بن عبـد الملك بن مروان * وبقى ابن بقيـة المذكور مصلوبا الى أيام صمصام الدولة فأنزل ودفن وسار بختيار يريد الشام ليتخذها مقرا له وسار معـه ابن ناصر الدولة بن حمـدان أخو أبى تغلب بن حمدان صاحب الموصـل فلما صار عن معهـما بعكبرا حسن ابن حمدان الى بختيار المسير الى الموصل لكثرة أموالها وأطمعـه فيها وقال انها خير من الشام وأسهل مأخذا فمال بختيار الى ذلك وسار نحوها فلما وصـل الى تكريت أتته رسـل أبى تغلب تسأله المصالحة وأن يقبض على أخيه حمدان ويسلمه اليـه واذا فعل سار بنفسه مع عساكره اليه وقاتل معه عضد الدولة وأعاد بغداد الى ملكه فأجابهـم بختيار الى ذلك وقبض على ابن حمدان وسلمه الى رسـل أبى تغلب فحبسه فى قلعـة وسار بختيار الى الموصـل والتقى بأبى تغلب وساروا جميعا نحو العراق وكانت جند أبى تغلب زهاء العشرين ألفا فلما جاء الخبر بذلك الى عضد الدولة قام من بغداد فى جيش عظيم وسار نحوهما فالتقوا بقصر الجص على مقربة من تكريت واقتتلوا قتالا عنيفا فهزمهما شر هزيمة وأسر بختيار وأحضر عنده وقتل من أصحابه خلق كثير واستقر ملك عضد الدولة بعد ذلك ببغـداد ثم سار الى الموصـل فملكها وملك ما يليها فهرب أبو تغلب ومعـه نساؤه وأولاد بختيار فسير عضـد الدولة الجند فى طلبه فلم يدركوه وصار ينتقل من بلد الى بلد والجند فى أثره حتى أعياهـم القبض عليه ثم سار الى دمشق ومعه نساؤه يريد النزول عند العزيز صاحب مصر فلم يمكنه

عامل دمشق من الدخول فوقعت بينه وبين أصحاب العزيز وقائع كثيرة انكشفت عن هزيمته وأسروه فقطعوا رأسه وبعثوا به الى العزيز بمصر فشهره

وصفت الأمور لعضد الدولة فعمد الى عمارة بغداد وكانت قد تخربت بتوالى الفتن فرمم مساجدها وأسواقها وأدرّ الاموال على الائمة والعلماء والقراء والغرباء والضعفاء الذين يأوون الى المساجد وألزم أصحاب الدور الخراب بعمارتها وجدد مادثر من الأنهار وأعاد حفرها وأطلق مكوس الحجاج وأصلح الطريق من العراق الى مكة وأطلق الصلات لاهل البيوتات والشرف والضعفاء والمجاورين بمكة والمدينة واطمأنت قلوب الناس بعد تراكم الفتن وتوالى المحن وأجرى الجرايات على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسّابين والاطباء والحسّاب والمهندسين وأذن لوزيره نصر بن هارون وكان نصرانيا ببناء الديارات وعمارة البيع واطلاق الاموال للفقراء من النصارى فأحبه الناس ومالوا اليه كثيرا واتسعت شهرته وعظم ملكه فكان له العراق وكرمان وعمان وخوزستان والموصل وديار بكر وحوران وصبيح وهو أوّل من سمى ملكا فى الاسلام ومال اليه الخليفة الطائع كرها وتزوج ابنته وكان غرض عضد الدولة من تزويج ابنته للطائع أن تلد له ذكرا فيجعله ولى عهده فتكون الخلافة فى ولد لهم فيه نسب وكان الصداق مائة ألف دينار فزفت اليه ومعها من الجواهر والحلىّ شئ لايحصى وما زال عضد الدولة يتصرف فى الأمور ويفتح الفتوحات العظيمة ويغزو ويقاتل كل من خالفه حتى وافته منيته فى شوال سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة وكان به الصرع مات ببغداد وحمل الى مشهد أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب فدفن به وكانت ولايته ببغداد خمس سنين ونصفا قيل ولما احتضر جعل يقول ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه ولم ينطلق لسانه بغير هذه الآيات * ومما يحكى عنه أنه خرج يوما الى بستان له متنزها فقال ما أطيب يومنا هذا لو ساعدنا فيه الغيث فجاء المطر فى الوقت فأنشد يقول

ليس شرب الراح الا فى المطر * وغناء من جوار فى السحر
ناعمات سالبات للنهى * ناغمات فى تضاعيف الوتر
بارزات الكاس من مطلعها * ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها * ملك الأملاك غلاب القدر
سهل الله له بغيته * فى ملوك الأرض ما دار القمر
وأراه الخير فى أولاده * ليساس الملك منهم بالغرر

قيل فلم يفلح بعد هذه الابيات وعوجل بقوله غلاب القدر * فلما مات قام بالامر بعده ولده الامير صمصام الدولة فخلع عليه الخليفة الطائع لله وقلده ما كان بيد أبيه ولم تستقر به الولاية حتى قام عليه أخوه شرف الدولة وقبض عليه واعتقله وأحاط بدوره وأمواله ببغداد وجعل هو يتصرف فى الامور حتى اعتل وانقطع عن الناس فأشار عليه نحرير الخادم بقتل

أخيه صمصام الدولة فكان يعرض عن كلامه فلما اشتدت علته ألح عليه نحرير وقال له ان الدولة معه على خطر فان لم تقتله فاسمله فأرسل فى ذلك محمدا الشيرازى الفراش فمات شرف الدولة قبل أن يصل الفراش الى حيث صمصام الدولة فتأخر الفراش عن سمله واستشار أبا القاسم العلاء بن الحسن الناظر فى ذلك فأشار عليه بسمله فسمله فكان صمصام الدولة يقول ما أعمانى الا العلاء لانه أمضى فىّ حكم سلطان قد مات

وتوفى شرف الدولة مستهل جمادى الآخرة وحمل الى مشهد أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب فدفن به فكانت امارته سنتين وثمانية أشهر وكان عمره ثمانيا وعشرين سنة وخمسة أشهر وكان قد سير ولده أبا علىّ الى بلاد فارس وأصحبه بالخزائن والعدد والعسكر الكثير من الاتراك فلما اشتدّت علته وأيس أصحابه منه دخل عليه كبارهم يسألونه أن يولى أحدا فقال أنا فى شاغل عما تدعوننى اليه فقالوا له مر أخاك بهاء الدولة أبا نصر أن ينوب عنك الى أن تعافى لئلا تثور فتنة فقال لكم ذلك فاستدعى أخاه وكلمه فى ذلك فتوقف بهاء الدولة وامتنع عن قبول الوكالة ثم أجاب فلما مات شرف الدولة جلس بهاء الدولة فى المملكة وقعد للعزاء وركب الطائع لله الخليفة الى العزاء فتلقاه بهاء الدولة وقبل الارض بين يديه فخلع عليه الطائع خلع السلطنة وجعل يتصرف فى الامور فكان قليل الحظ سيئ الطالع كثير شغب الجند عليه وقتال بعضهم لبعض وطلبهم للجماكى والمرتبات وما زالت الاحوال فى اختلال والجند فى تمرد وخروج حتى كانت سنة احدى وثمانين وثلثمائة هجرية فعظم شغب الجند عليه وظهرت الفتنة وطالبوه بالجماكى وقد قلّت عنده الأموال فقبض على وزيره سابور واستصفى ماله فلم يغن عنه ذلك شيأ وكان أبو الحسين المعلم قد غلب على بهاء الدولة وحكم فى مملكته فحسّن له القبض على الخليفة الطائع لله وأطمعه فى ماله وهوّن عليه ذلك فمال بهاء الدولة الى ذلك وأرسل الى الطائع وسأله الاذن فى الحضور فى خدمته ليجدد العهد به فأذن له بذلك وجلس له على عادة الخلفاء فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير فلما دخل قبل الأرض وجلس على كرسى فدخل بعض الديلم كأنه يريد يقبل يد الخليفة فجذبه فأنزله عن سريره والخليفة يقول إنا لله وإنا اليه راجعون وهو يستغيث ولا يلتفت اليه وأخذوه وأخذوا ما فى داره من الذخائر وشاع خبر القبض عليه فافتتن الناس ونهب بعضهم بعضا وكان من جملتهم الشريف الرضىّ فبادر بالخروج فسلم وقال أبياتا من جملتها

من بعد ما كان رب الملك مبتسما * الىّ أدنوه فى النجوى ويدنينى
أمسيت أرحم من قد كنت أغبطه * لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى * ياقرب ماعاد بالضراء يبكينى
هيهات أغتر بالسلطان ثانية * قد ضل ولاج أبواب السلاطين

ولما وصلوا بالطائع الى دار بهاء الدولة عقد لحضوره مجلسا وأشهد عليه بالخلع فخلع

كارها فكانت خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وستة أيام وكان أبيض مربوعا حسن الجسم وكان أنفه كبيرا جدا وكان شديد القوة كثير الاقدام

وامتدت أيام المعز لدين الله العلوى الى خلافة الطائع لله فلما دانت له الامور وتمت عليه نعمة الله تحركت القرامطة وتاقت نفس مقدمهم حسن بن أحمد الى غزو ديار مصر واستخلاصها من المعز لدين الله فسار فى سنة ثلاث وستين وثلثمائة هجرية من الاحساء فى جموع كثيرة الى ديار مصر لحصرها ووردت الاخبار بذلك الى المعز فأكبر هذا الامر وأعظمه جدا وكتب الى حسن بن أحمد القرمطى كتابا يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته وأن الدعوة واحدة وأن القرامطة انما كانت دعوتهم اليه والى آبائه من قبله ووعظه وبالغ فى تهديده فلما وصل كتاب المعز الى حسن بن أحمد كتب جوابه * وصل كتابك الذى قل تحصيله وكثر تفصيله ونحن سائرون اليك على أثره والسلام * وسار حتى نزل على عين شمس بعسكره وأنشب القتال وبث السرايا فى البلاد ينهبونها فكثرت لذلك جموعه وجاءه من طوائف العربان خلق كثير * قال صاحب الكامل وكان ممن أتاه حسن بن الجراح الطائى أمير العرب بالشام ومعه جمع عظيم فلما رأى المعز كثرة جموعه استعظم ذلك وأهمه وتحير فى أمره ولم يقدم على اخراج عسكره لقتاله فاستشار أهل الرأى من نصحائه فقالوا ليس حيلة غير السعى فى تفريق كلمتهم والقاء الخلف بينهم ولا يتم ذلك الا بابن الجراح فراسله المعز واستماله وبذل له مائة ألف دينار ان هو خالف على القرمطى فأجابه ابن الجراح الى ما طلب منه فاستحلفوه لخلاف انه اذا وصل اليه المال المقرر انهزم بالناس فاحضروا المال قال فلما رأوه استكثروه فضربوا أكثرها دنانير من صفر وألبسوها الذهب وجعلوها فى أسافل الاكياس وجعلوا الذهب الخالص على رؤسها وحمل اليه فأرسل الى المعز أن يخرج فى عسكره يوم كذا ويقاتلونه وهو فى الجهة الفلانية فانه ينهزم ففعل المعز ذلك فانهزم وتبعه العرب كافة فلما رآه الحسن القرمطى منهزما تحير فى أمره وثبت وقاتل بعسكره الا أن عسكر المعز طمعوا فيه وتابعوه بالحملات عليه من كل جانب فارهقوه فولى منهزما واتبعوا أثره وظفروا بعسكره فأخذوا من فيه أسرى وكانوا نحو ألف وخمسمائة أسير فضربت أعناقهم ونهب ما فى المعسكر وجرد المعز القائد أبا محمد ابراهيم بن جعفر فى عشرة آلاف رجل وأمره باتباع القرامطة والايقاع بهم فأتبعهم وتثاقل فى سيره خوفا أن ترجع القرامطة اليه قال وأما هم فانهم ساروا حتى نزلوا أذرعات وساروا منها الى بلدهم الاحساء ويظهرون أنهم يعودون اه وما زال القائد أبو محمد ابراهيم بن جعفر سائرا بمن معه من العسكر حتى دخل دمشق وكان المعز ولى القائد ظالم ابن موهوب العقيلى عليها قبل وصول أبى محمد اليها بقليل فخرج ظالم للقاء أبى محمد مسرورا بقدومه لانه كان مستشعرا من عود القرامطة اليه وطلب منه أن ينزل بعسكره بظاهر دمشق فنزل ولم يستقر به المقام حتى تطاولت أيدى أصحابه بالعبث والفساد وقطع الطريق فاضطرب الناس وكادوا يفتتنون واتفق أن صاحب الشرطة أخذ انسانا من أهل البلد

فقتله

فقتله فثار به الغوغاء والاحداث وخرجوا عليـه وقتلوا أصحابه وكادت الفتنة تعم البلاد فجعل ظالم يدارى الناس ويهوّن عليهم واتصل عبث أصحاب أبى محمد بالقرى فنزح أهلها وفارقوها ودخلوا البلد وهـم يضجون من جور المغاربة فلما كان منتصف شوال من السـنة قامت الفتنة بين أهل دمشق والمغاربة عسكر المعز وعظمت وجرى بين الفريقين قتال شديد ودام الحال على ذلك من القتل والنهب وحرق الدور وتخريب القرى الى ربيع الآخر سنة أربع وستين وثلثمائة الى أن جاء مرسوم المعز لدين الله الى أبى محمد بالعزل والتخلى عن قيادة من كان معه من الجند فاعتزل المنصب وورد مرسوم المعز الى القائد ريان الخادم والى طرابلس يأمره بالمسير الى دمشـق لمشاهـدة حالها وكشف أمور أهلها بعـد الذى ذاقوه من هـذه الحروب والمحن وأن يصرف القائد أبا محمود عنها فسار ريان الى دمشق وكشف الامر فيها وكتب به الى المعز وتقدم الى القائد أبى محمود بالانصراف فسار فى جماعة قليلة من العسكر الى الرملة وبقى الامر كذلك الى أن ظهر الفتكين أبو منصور التركى بظاهـر دمشـق يريد غزوها وأخذها من المعز لدين الله والفتكين هذا من موالى معز الدولة بن بويه قد كان خرج على مولاه بختيار بن معـز الدولة وعصاه وقاتل مولاه بختيار فهزمـه بختيار ومزق جوعـه فهرب فى جماعة قليـلة من أصحابه وكلهـم أهل نجـدة وقوة ودوّخ بعض مدن الشام وما زال وقـد هابه العرب وتخوّفوا منه حتى نزل على دمشق يريد غزوها وكان نزوله عليها فى إبان ظهور الفتنة وتغلب الاحـداث عليها حتى لم يبـق للاعيـان معهـم حكم ولا للسلطان عليهم طاعة فلما وافاها خرج اليه أشرافها وشيوخها وأظهروا له الفرح بقدومـه وسألوه أن ينزل عندهم ويملك بلدهم ويزيل عنهم سمة المصريين فأجابهم الى ذلك واستحلفهم على الطاعة والمساعدة وحلف لهم على الحماية وكف الاذى عنهم منه ومن غـيره ثم دخل البلد بمن معه من الجند وأزال عنـه ريان عامل المعز لدين الله وقطع خطبـة المعز وخطب للخليفة الطائع لله وقمع أهـل العسف والفسـاد فهابه الناس وخافوه جدا وكانت العرب قد استولت على سواد البلد وما يتصل به فأوقع بهم وقتـل كثيرا منهم فأذعنوا له وقد ظهرت لهم شجاعتـه وعزة نفسـه وكتب الى المعز لدين الله يداريه ويظهر له الطاعة فدحـه المعز وأرسـل يستقدمه عنـده ليخلع عليه ويوليـه من جانبه فتخوّف الفتكين من ذلك وامتنع من المسير فتجهز المعز وجمع العساكر لقصده فلم يتم له ذلك حيث وافته منيته وهو على قدم المسير فمات فى سابع عشر ربيع الآخر سـنة خمس وستين وثلثمائة وله من العمر خمس وأربعون سنة وستة أشهر تقريبا * قال صاحب الكامل وكان سبب موته أن ملك الروم بالقسطنطينية أرسل اليه رسولا كان يتردد اليه بافريقيـة فخلا به بعض الايام فقال له المعز أتذكر اذ أتيتنى رسولا وأنا بالمهـدية فقلت لك لتـدخلن علىّ وأنا بمصر مالكا لها قال نعم قال وأنا أقول لك لتدخلن علىّ بغداد وأنا خليفـة فقال له الرسول ان أمنتنى على نفسى ولم تغضب قلت لك ما عندى فقال له المعز قل وأنت آمن قال بعثنى اليك الملك ذلك العام

فرأيت من عظمتك فى عينى وكثرة أصحابك ما كدت أموت منه ووصلت الى قصرك فرأيت عليه نورا عظيما غطى بصرى ثم دخلت عليك فرأيتك على سريرك فظننتك خالقا فلو قلت لى انك تعرج الى السماء لتحققت ذلك ثم جئت اليك الآن فما رأيت من ذلك شيأ أشرفت على مدينتك فكانت فى عينى سوداء مظلمة ثم دخلت عليك فما وجدت من المهابة ما وجدته ذلك العام فقلت ان ذلك كان أمرا مقبلا وانه الآن بضد ما كان عليه قال فأطرق المعز وخرج الرسول من عنده وأخذت المعز الحمى لشدة ما وجد واتصل مرضه حتى مات فكانت ولايته ثلاثا وعشرين سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام منها مقامه بمصر سنتان وتسعة أشهر والباقى بافريقية وهو رأس العائلة الفاطمية بديار مصر وكان شهما حازما مغرى بالنجوم لا يعمل الا بأقوال المنجمين قال له منجمه ان عليه قطعا فى وقت كذا وأشار عليه بعمل سرداب يختفى فيه الى أن يجوز ذلك الوقت ففعل ما أمره وأحضر قواده وكبار دولته فقال لهم ان بينى وبين الله عهدا أنا ماض اليه وقد استخلفت عليكم ولدى نزارا يعنى العزيز فاسمعوا له وأطيعوا ثم نزل السرداب فكان أحد المغاربة اذا رأى سحابا نزل عن دابته وأومأ بالسلام اليه ظنا منه أن المعز فيه فغاب سنة ثم ظهر وبقى مدة ثم مرض وتوفى فستر ابنه العزيز خبر موته الى عيد النحر من السنة فصلى بالناس وخطبهم ودعا لنفسه وعزى بأبيه

وكان المعز عالما فاضلا جوادا شجاعا حسن التدبير عهد فى أيامه الى يعقوب بن يوسف بن كلس خراج مصر وجميع وجوه الاموال والحسبة والاعشار وجميع مايضاف الى ذلك من سائر الاعمال وقد كان يعقوب هذا يهوديا من بغداد جاء الى مصر فى أيام كافور الاخشيدى وأسلم بها فعرفه كافور وقربه من مجلسه وولاه بعض المناصب العالية فظهرت كلمته واتسعت شهرته وما زال الى أن دخل جوهر مصر فعرف يعقوب المذكور وأقره على ما بيده من الاعمال حتى قلده المعز الخراج وضم اليه عسلوج بن الحسن وكتب لهما المعز سجلا بذلك فجلسا فى جامع ابن طولون واتخذاه دارا للامارة والنداء على الضياع وسائر وجوه الاموال فحضر الناس للقبالات وطالبا بالبقايا من الاموال على المتقبلين أى الملتزمين والمالكين والعمال واستقصيا الطلب ونظرا فى المظالم فكثرت موارد الاموال وزيد فى الضياع وكثر الناس وتكاثفوا وحسنت أحوال البلاد ودرت الارزاق وعم الاخذ والعطاء سائر البلاد وبقى يعقوب على هذا الحال من النقض والابرام فى أمور السلطنة حتى مات المعز * يحكى عن المعز أنه لما كان قادما الى ديار مصر وخرج الناس للقائه اجتمع به أناس من الاشراف وفيهم عبدالله بن طباطبا فتقدم اليه وقال الى من ينتسب مولانا فقال سنعقد مجلسا نجمعكم فيه ونسرد عليكم نسبنا ان شاء الله فلما استقر بالمعز المقام فى قصره بالقاهرة جمع الناس فى مجلس عام وجلس بهم وقال هل بقى من رؤسائكم أحد قالوا لم يبق معتبر فسل نصف سيفه وقال هذا نسبى * وبذر عليهم شيأ كثيرا من الذهب وقال وهذا حسبى * فقالوا جميعا سمعنا وأطعنا ويقال انه كان شاعرا ومن شعره هذه الابيات

لله ماصــــنعت بنا * تـلك المحاجر بالمعاجر
أمضى وأقضى فى النفو * س من الخناجر فى الحناجر
ولقد تعبت ببينكم * تعب المهاجر فى الهواجر

ولما استقر بالعزيز الملك بعد أبيه المعز أطاعه العسكر واجتمعوا عند كلمته وكان هو يدبر الامور منذ مات أبوه الى أن أظهر خبر موته وأقر ابن كاس على مابيده وفوّض اليه النظر فى سائر الامور وبالغ فى اطلاق يده فعلت كلمة ابن كاس فأحكم نظام المملكة ورتب الدواوين وجعل منها ماهو للاموال والخراج والمستغلات ومنها ماهو للجيش والانشاء والسجلات وجعل فيها الكتاب ورؤساء الكتاب والامناء وكان يجلس للنظر بنفسه فى الظلامات ويخاطب الخصوم ويوقع على الرقاع وما زال على هذا الحال من بسـط الكلمة والتصرف فى سائر الامور حتى مات فى سنة ثمانين وثلثمائة هجرية * وعاد الفتكين الى الظهور فى أيام العزيز ووالى الهجمات على سائر الشامات التابعة لديار مصر فاهتم العزيز لذلك وسـير جوهرا القائد فى جيش عظيم لقتال الفتكين ووردت الاخبار بذلك الى الفتكين فتحصن فى دمشق وملأها بالمؤن والذخيرة فزحف عليه جوهر بعسكره ونزل بظاهر دمشق وبنى على معسكره سورا وحفر خندقا عظيما فقاتله الفتكين بمن معه من الرجال وألح فى قتاله فكانت بينهـم سجالا وما زال جوهر يوالى الهجمات على حصون البلد حتى قلّت الاقوات فى البلد واختل أمر الفتكين وكاد يسقط فى يده ثم عاد فتقوى وجاء الخـبر الى جوهر القائد بخروج القرمطى أحمد وزحفـه الى دمشق فخاف جوهر وقد كانت أمواله قلّت وهلك أكثر جنوده ودوابه فراسل الفتكين فى طلب الصلح على شروط معلومة فأجابه الفتكين اليها فرحل جوهر عن دمشق يريد القاهرة فلحقه القرمطى بمن معه وجعل يتخطف مؤخرة عسكر جوهر حتى دخل جوهر الرملة فأرسل القرمطى بسرية فاقتتلت مع جوهر فى واقعة كبيرة قتل فيها جماعة من الفريقين وفرّ جوهر الى عسـقلان فلحقه الفتكين أيضا فى عسكر وحاصر عسقلان فسير جوهر الى العزيز فى طلب النجدة وأرسل الى الفتكين فى طلب الصلح وأن تقرر قاعدته على مال يحمله اليه وأن يخرج من تحت سيفه فأجابه الفتكين الى ذلك وعلق سيفه على باب عسـقلان فخرج جوهر ومن معه من تحته وساروا الى القاهرة فوجدوا العزيز قد برز فى عسكر عظيم يريد المسير لقتال الفتكين فساروا معه حتى التقى الجمعان واشتبك القتال فلم تكن غـير ساعـة حتى انهزم جيش الفتكين وانتصر العزيز نصرة عظيمة فطلب الفتكين فاذا هو قد فر على فرس فقبض عليه أحد العرب وجاء به الى العزيز وعمـامتـه فى عنقـه فأمر به فطيف به على العساكر على جـمل فجعل العسكر يلطمونه ويهزون لحيتـه * وسار بالفتكين وجميع الاسرى يريد القاهرة فدخلها فى أبهـة وتجمل زائد والغنائم أمامه والاسرى خلفه ثم رق الى الفتكين فاستخدمه ومن معه وأحسن اليه غاية الاحسان وأنزله فى دار وواصله بالعطاء والخلع حتى قال الفتكين يوما لقد احتشمت من ركوبى مع مولانا العزيز بالله وتطرقى اليه بما غمرنى من فضله واحسانه فلما بلغ ذلك العزيز

قال لعمه حيدر ياعم والله انى أحب أن أرى النعم عنـد الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضـة والجوهر ولهـم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عنـدى وما زال الفتكين يتقلب فى نعم العزيز حتى مات فى سـنة اثنتـين وسبعين وثلثمـائة هجرية وعظمت دولة العزيز بالله وكبر سـلطانه فقلت الفـتن فى أيامه الا ما كان منها ضد النصارى ودرت الارزاق وهبطت الاسعار وعم الاخذ والعطاء سائر البـلاد وما زال يتصرف مع هيبة ووقار حتى وافته منيته فى خلافة القادر بالله أبى العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر كما سيذكر فى محله

ومات فى أيام الخليفة الطائع لله مكاريوس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام عشرين سنة قام فى خلالها المسلمون فى بيت المقدس على كنيسة القيامة فأحرقوها ونهبوا ما فيها وأخذوا منها ماقدروا عليه حتى لم يبق فيها شئ يذكر ثم اشتد مسلمو مصر على من بها من القبط أهل البلاد شدة بالغة فنهبوا أكثر دورهم وخربوا عدة كثيرة من منازلهم وضيقوا عليهـم وطالت أيام هذه الشدة حتى كادت تعم سائر البلاد ثم زالت فأقام المتأصلون بعـد موت مكاريوس المذكور تاوفانيوس وهو سـتوهم وأصله من مدينة الاسكندرية وكان عالما تقيا محبا للخير ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

(الفصل الخامس والعشرون)

(فى خلافة أبى العباس أحمد القادر بالله بن اسحق)

ثم قام بالامر بعد الطائع لله أبو العباس أحمـد القادر بالله بن اسحق بن المعتضد بويع له بالخلافة ليلة خلع الطائع لله سنة احدى وثمانين وثلثمـائة هجرية أى سنة احدى وتسعين وتسعمـائة ميلادية وعمره يومئذ أربع وأربعون سنة * قال أصحاب التاريخ * لما قبض على الطائع لله واعتقل فى دار بهاء الدولة ذكر بهاء الدولة من يصلح للخـلافة وتكلم مع أصحابه فى ذلك فاتفقوا على القادر بالله وهو أبو العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر بن المعتضد هذا وكان بعيدا عن دار السـلام خوفا من الطائع فأرسل بهاء الدولة فى طلبـه فشغب جماعـة الديلم ببغداد ومنعوه من الخطبة فقيل على المنبر * اللهـم أصلح عبدك وخليفتـك القادر بالله ولم يذكروا اسمه تسكينا للفتنة فلما وصل الرسل الى حيث القادر بالله دخلوا عليـه وهو يحكى مناما رآه تلك الليلة وهو ماحكاه هبة الله بن عيسى كاتب مهذب الدولة * قال كنت أحضر عند القادر بالله كل أسـبوع مرتين فكان يكرمنى فدخلت عليـه يوما فوجدته قد تأهب تأهبا لم تجر به عادته ولم أر منه ما ألفته من اكرامـه واختلفت بى الظنون فسألتـه عن

سبب ذلك فان كان لزلة منى اعتذرت عن نفسى فقال بل رأيت البارحة فى منامى كأن نهركم هذا نهر الصليق قد اتسع فصار مثل دجلة أضعافا فسرت على حافته متعجبا منه ورأيت قنطرة عظيمة فقلت من حدث نفسه بجعل هذه القنطرة على هذا البحر العظيم ثم صعدتها وهى محكمة فبينا أنا عليها أتعجب منها اذ رأيت شخصا قد تأملنى من ذلك الجانب فقال أتريد أن تعبر فقلت نعم فمد يده حتى وصلت الى فأخذنى وأعبرنى فهالنى فعله قلت من أنت قال على بن أبى طالب وهذا الامر صائر اليك ويطول عمرك فيه فأحسن الى ولدى وشيعتى قال المحدث فما انتهى القادر الى هذا القول حتى سمعنا صياح الملاحين وغيرهم وسألنا عن ذلك واذا هم الواردون اليه لاصعاده ليتولى الخلافة فخاطبته بامرة المؤمنين وبايعته وقام مهذب الدولة بخدمته أحسن قيام وحمل اليه من المال وغيره مايحمله كبار الملوك للخلفاء وشيعه فسار القادر بالله الى بغداد فلما وصل الى جبل انحدر بهاء الدولة وأعيان الناس لاستقباله وساروا فى خدمته فدخل دار الخلافة ثانى عشر رمضان وبايعه بهاء الدولة والناس وخطب له ثالث عشر رمضان فلم تستقر به الخلافة حتى أعاد لها بهجتها وجدد ناموسها وعظم حرمتها وألقى الله هيبته فى قلوب الخلق فأطاعوه أحسن طاعة وأتمها

ولما كانت سنة اثنتين وثمانين فى رجب سلم بهاء الدولة الطائع لله الى القادر بالله فأجله وأكرمه وأنزله حجرة من خاص حجره ووكل به من ثقات خدمه من يقوم بخدمته وأحسن ضيافته فكان الطائع يطلب الزيادة فى الخدمة كما كان أيام الخلافة فكان القادر بالله يأمر له بذلك ويلاطفه * حكى عنه أن القادر بالله أرسل اليه يوما طيبا فقال الطائع من هذا يتطيب أبو العباس يعنى القادر فقالوا نعم فقال قولوا له عنى فى الموضع الفلانى كندوج فيه مما كنت أستعمله فليرسل الى بعضه ويأخذ الباقى لنفسه ففعل ذلك وأرسل اليه يوما القادر بالله عدسية فقال ماهذا فقالوا عدس وسلق فقال أوقد أكل أبو العباس من هذا قالوا نعم قال قولوا له عنى لما أردت أن تأكل عدسية لم اختفيت فما كانت العدسية تعوزك ولم تقلدت هذا الامر فأمر حينئذ القادر أن تفرد له جارية من طباخاته تطبخ له مايلتمسه كل يوم فأقام على هذا الى أن توفى * وكاتب القادر بالله الملوك فى ارجاع الخطبة لبنى العباس ففعلوا الا القليل جدا وبايع لولده أبى الفضل بولاية العهد وأحضر حجاج خراسان وأعلمهم بذلك ولقبه الغالب بالله قال أصحاب التاريخ وكان سبب البيعة لولده المذكور أنه كان بنصيبين رجل من ولد الواثق بالله أمير المؤمنين اسمه أبو عبدالله بن عثمان الواثقى فجاء أبو عبدالله هذا الى بغداد وأقام بها أياما ثم سار عنها الى خراسان وعبر النهر الى هرون بن أيلك بقرا خاقان ومعه الفقيه أبو الفضل التميمى فأكرم هرون وفادتهما فأخبره أبو الفضل أنه رسول من عند الخليفة القادر بالله الى هرون يأمره بالبيعة الى أبى عبدالله بن عثمان المذكور فانه ولى عهده فأجابه خاقان الى ذلك وبايعه وخطب له فى بلاده وأنزله منزلا رحبا وجعل ينفق عليه فلما بلغ ذلك القادر بالله عظم عليه جدا وراسل خاقان فى الامر فلم يلتفت خاقان لقوله ولا صغى لرسالته فلبث القادر

يعلل النفس حتى مات هرون خاقان وولى بعده أحمد قراخاقان فكاتب أحمد المذكور فى أمر أبى عبد الله بن عثمان وبالغ فى الطلب فأجابه أحمد الى ماطلب وأمر بابعاد ابن عثمان فبادر القادر بالبيعة لولده أبى الفضل بولاية العهد وجاء ابن عثمان الى بغداد متنكرا فعرف بها وطلبه القادر فهرب الى البصرة ثم الى فارس وكرمان ثم الى بلاد الترك مستنجدا فلم يتم له ما أراد وراسل الخليفة الملوك بطلبه فضاقت عليه الارض وسار الى خوارزم وأقام بها ثم فارقها فأخذه عين الدولة محمود بن سبكتكين فحبسه فى قلعة الى أن مات بها

ومرض القادر بالله وانقطع فأرجف الناس بموته فبلغه ما يتحدث به الناس فجلس لهم جلوسا عاما وأذن للخاصة والعامة فوصلوا اليه فلما اجتمعوا قام الصاحب أبو القاسم وقال ان خدم مولانا أمير المؤمنين داعون له باطالة البقاء وشاكرون لما شملهم من نظره لهم وللمسلمين باختيار الامير ولده بولاية العهد فقال الخليفة للناس قد أذنا بالعهد له فلما عهد اليه ألقيت الستارة وقعد أبو الفضل على السرير الذى أقاموه له وخدمه الحاضرون وهنؤه ودعى له على المنابر يوم الجمعة لتسع بقين من جمادى الاولى سنة احدى وعشرين وأربعمائة فلما كان شهر ذى الحجة من السنة المذكورة مات أمير المؤمنين القادر بالله وعمره ست وثمانون سنة وعشرة أشهر فكانت خلافته احدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوما وكان حليما كريما خيرا يحب الخير وأهله ويأمر به وينهى عن الشر ويبغض أهله وكان حسن الاعتقاد صنف فيه كتابا على مذهب السنة وكان يخرج من داره فى زى العامة ويزور قبور الصالحين واذا وصل اليه حال أمر فيه بالحق * قال القاضى حسين بن هرون كان بالكرخ ملك أى عقار ليتيم وكان له قيمة جيدة فأرسل الىّ ابن حاجب النعمان وهو حاجب القادر يأمرنى أن أفك عنه الحجر ليشترى بعض أصحابه ذلك الملك فلم أفعل فأرسل يستدعينى فقلت لغلامه تقدمنى حتى ألحقك وخفته فقصدت قبرا معروفا ودعوت الله أن يكفينى شره وهناك شيخ فقال لى على من تدعو فذكرت له ذلك ووصلت الى ابن حاجب النعمان فأغلظ لى فى القول ولم يقبل عذرى فأتاه خادم برقعة ففتحها وقرأها فتغير لونه ونزل من الشدة فاعتذر الىّ ثم قال كتبت الى الخليفة قصتى فقلت لا وعلمت أن ذلك الشيخ كان الخليفة * قيل وكان يقسم طعامه فى كل ليلة لثلاثة أقسام فقسم كان يتركه بين يديه وقسم يرسله الى جامع الرصافة وقسم يرسله الى جامع المدينة يفرق على المقيمين فيهما فاتفق أن الفراش حمل ليلة الطعام الى جامع المدينة ففرقه على الجماعة فأخذوا الا شابا فانه رده فلما صلوا المغرب خرج الشاب وتبعه الفراش فوقف على باب فاستطعم فاطعموه كسرات فأخذها وعاد الى الجامع فقال له الفراش ويحك ألا تستحى ينفذ اليك خليفة الله الطعام حلالا فترده وتخرج وتأخذ من الابواب فقال والله مارددته الا لانك عرضته علىّ قبل المغرب وكنت غير محتاج اليه فلما احتجت طلبت فعاد الفراش فأخبر الخليفة بذلك فبكى وقال له راع مثل هذا واغتنم أخذه وأقم الى وقت الافطار * وقال أبو الحسن الابهرى أرسلنى بهاء

الدولة

الدولة الى القادر بالله فى رسالة فسمعته ينشد

سبق القضاء بكل ماهو كائن * والله ياهذا لرزقك ضامن
تعنى بما يفنى وتترك ما به * تعنى كأنك للحوادث آمن
أوما ترى الدنيا ومصرع أهلها * فاعمل ليوم فراقها ياخائن
واعلم بأنك لاأبالك فى الذى * أصبحت تجمعه لغيرك خازن
ياعامر الدنيا أتعمر منزلا * لم يبق فيه مع المنية ساكن
الموت شئ أنت تعلم أنه * حق وأنت بذكره تتهاون
ان المنية لاتؤامر من أتت * فى نفسه يوما ولا تستأذن

قال فقلت الحمد لله الذى وفق أمير المؤمنين لانشاء مثل هذه الابيات فقال بل لله المنة اذ ألزمنا بذكره ووفقنا لشكره ألم تسمع قول الحسن البصرى فى أهل المعاصى هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم اه وكان القادر أبيض طويل اللحية كبيرها يخضبها الشيبه وكان دائم التهجد كثير الصدقات

ومات فى خلافته أى سنة ست وثمانين وثلثمائة هجرية العزيز أبو منصور نزار صاحب مصر مات فى بلبيس بعد مرض طويل بالقولنج والحصاة وله من العمر اثنتان وأربعون سنة وبضعة أشهر وكانت خلافته احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وخمسة عشر يوما فحمل الى القاهرة ودفن فى تربة القصر وكان العزيز جميلا كثير العفو محبا للخير أسمر طويلا أصهب الشعر عريض المنكبين واستوزر عيسى بن نسطور القبطى فكان عيسى هذا حسن التدبير والسياسة على الهمة عاقلا رزينا مهيبا واسع الكلمة فمن حلم العزيز وحبه للعفو أنه كان بمصر شاعر اسمه الحسن بن بشر الدمشقى وكان كثير الهجاء فهجا يعقوب بن كلس وزير العزيز وكاتب الانشاء أبا نصر عبد الله الحسين القيروانى فقال

قل لابى نصر صاحب القصر * والمتأتى لنقض ذا الامر
انقض عرا الملك للوزير تفز * منه بحسن الثناء والذكر
وأعط وامنع ولا تخف أحدا * فصاحب القصر ليس فى القصر
وليس يدرى ما ذا يراد به * وهو اذا ما درى فما يدرى

فشكاه ابن كلس الى العزيز وأنشده الشعر فقال له هذا شئ اشتركنا فيه فى الهجاء فشاركنى فى العفو عنه ثم ان الدمشقى المذكور قال وعرض بالفضل القائد بهذه الابيات

تنصر فالتنصر دين حق * عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا * وعطل ماسواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا الـ * ـعزيز ابن وروح القدس فضل

فشكاه أيضا الفضل الى العزيز فامتعض منه الا أنه قال اعف عنه فعفا عنه ثم دخل

الوزير على العزيز فقال لم يبق للعفو عن هذا معنى وفيه غض من السياسة ونقص لهيبة الملك فانه قد ذكرك وذكرنى وذكر ابن زبارج نديمك وسبك بقوله

زبارجى نديم * وكاسى وزير * نعم على قدر الكلب يصلح الساجور

فغضب العزيز وأمر بالقبض عليه فقبض عليه لوقته ثم بدا للعزيز اطلاقه فأرسل اليه يستدعيه وكان للوزير عين فى القصر ينقل له الاخبار فأخبره بذلك فأمر بقتله فقتل فلما وصل رسول العزيز فى طلبه أراه رأسه مقطوعا فعاد اليه فأخبره فاغتم له * وكان للعزيز محاسن أخرى وهو أول من اتخذ وزيرا أثبت اسمه على الطرز وقرن اسمه باسمه وأول من رمى من العلويين بالنشاب وأول من اتخذ منهم الاتراك واستخدمهم وجعل منهم القواد وأول من ركب من العلويين بالذؤابة الطويلة وضرب بالصولجان ولعب بالرمح وأول من اتخذ الحمير لركوبه اياها وأول من أقام الطعام فى جامع القاهرة لمن يحضر فى رجب وشعبان ورمضان

ولما مات ولى بعده ابنه أبو علىّ منصور الحاكم بأمر الله بعهد من أبيه ولى وعمره احدى عشرة سنة وستة أشهر وأوصى العزيز أرجوان الخادم به فكان يتولى أمر داره ويدبر أمور مملكته وهو الذى أخذ له البيعة على الناس ولم يمض على ولايته الا القليل حتى ظهر بمصر ابن عمار شيخ كتامة وسيدها وعلت كلمته فتمكن من أمور السلطنة وأمر ونهى وحكم البلاد ولقب بأمير الدولة قال أصحاب التاريخ وهو أول من لقب فى دولة العلويين المصريين بهذا اللقب ولما بسط يده على جميع الامور أشار عليه أصحابه بقتل الحاكم بأمر الله واستخلاص البلاد لنفسه والاستقلال بملكها فلم يقبل ذلك احتقارا للحاكم واستصغارا لسنه وطغت كتامة وتجبرت وتطاولت أيديهم الى أموال الناس والعبث فى البلاد وأخذ النساء وأرجوان الخادم لا يقدر على منعهم وهو مقيم مع الحاكم فى قصره يحرسه فلما ضاقت على أرجوان المذاهب كتب الى منجوتكين وهو يومئذ بدمشق يشكو اليه من فعال ابن عمار وأصحابه ويستنهضه الى نجدة الحاكم بأمر الله فجهز منجوتكين جيشا وسار به من دمشق الى مصر فعلم ابن عمار بخبره وخشى العاقبة فأظهر أن منجوتكين قد عصى على الحاكم وحضر الى مصر ليخلعه من السلطنة ونادى فى جنده بالخروج لقتال منجوتكين فخرجوا وتقدمهم أبو تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامى والتقوا بعسقلان واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم منجوتكين وأصحابه وقتل منهم خلق كثير وأسر منجوتكين وحمل الى مصر فأبقى عليه ابن عمار وأطلقه وولى على الشام أبا تميم الكتامى بدل منجوتكين المذكور فسار الى طبرية واستعمل على دمشق أخاه عليا فامتنع الناس عليه فأرسل اليهم أبو تميم يتهددهم ان هم أصروا على عدم الطاعة فخافوا وأذعنوا فدخل البلد فأحرق وقتل وعاد الى معسكره وقدم عليهم أبا تميم فأحسن اليهم وأطلق المسجونين واستعمل أخوه علىّ على طرابلس بدل دمشق وخلع عنها جيش بن الصمصامة الكتامى فساءه ذلك ومضى الى مصر واجتمع بارجوان وحبّب اليه العمل على خلع

الحسن بن عمارة فمال الى ذلك وانتهز فرصة غياب كتامة عن مصر مع أبي تميم الا القليل منهم فدس أرجوان الى المشارقة أن يفتكوا بمن بقي من كتامة بمصر وبابن عمار معهم فبلغ ذلك ابن عمار فعمل على الايقاع بارجوان وشكر العضدى فأخبرهما عيون لهما على ابن عمار بذلك فاحتاطا ودخلا قصر الحاكم باكين واستدعوا كبار المشارقة وفرقوا فيهم الأموال فثاروا على ابن عمار ومن معه من كتامة وشدوا فى قتالهم فانهزم ابن عمار وأصحابه واختفى فتقوت عزيمة ارجوان وفرح بهذا الظفر وأخرج الحاكم بأمر الله وأجلسه وجدد له البيعة وكتب الى وجوه القواد والناس بدمشق بالايقاع بأبى تميم فلم يشعر الا وقد هجموا عليه ونهبوا خزائنه فخرج هاربا وقتلوا من كان معه من كتامة فعادت الفتنة بدمشق واضطربت الأمور وعصى أهل صور والرملة وغيرهما فسير أرجوان لقتالهم جيشا عظيما وظفر بهم وأرجعهم الى الطاعة وظفر بأبى تميم فكان ذلك أول فتح حصل على يد أرجوان

وما زال أرجوان يدبر الأمور ويمهد العقبات ويثبت سلطنة الحاكم بأمر الله ويفتح الفتوحات الكبار مثل برقة وطرابلس الغرب وغيرهما ويبالغ فى خدمة الحاكم حتى كانت سنة تسع وثمانين فثقل مكانه على الحاكم وأبغضه وأراد التخلص منه فقتله وكان أرجوان هذا خصيا أبيض حسن التدبير صائب الرأى وكان له وزير قبطى اسمه فهد بن ابراهيم وكان فهد هذا عاقلا حسن السياسة فاستوزره الحاكم ومال اليه وأحبه كثيرا وعلت كلمة الحاكم بأمر الله فسير الجيوش للغزو واشتد على القواد وكبار القبائل بمصر وأكثر فيهم القتل فخرج عليه الوليد المعروف بأبى ركوة وخرج معه كبار القبائل وأكثر القواد قال بعض أصحاب التاريخ فى سبب خروجه على الحاكم مانصه * كان أبو ركوة اسمه الوليد وانما كنى أبا ركوة لركوة كان يحملها فى أسفاره سنة الصوفية وهو من ولد هشام بن عبد الملك بن مروان ويقرب فى النسب من المؤيد هشام بن الحكم الاموى صاحب الاندلس ولما استولى المنصور بن أبى عامر على المؤيد وأخفاه عن الناس تتبع أهله ومن يصلح منهم للملك فقتل البعض وهرب البعض وكان أبو ركوة ممن هرب وعمره يومئذ يناهز العشرين سنة وقصد مصر وأقام بها وكتب الحديث ثم رحل الى مكة واليمن وعاد الى مصر ودعا بها الى القائم فأجابه بنو قرة وغيرهم قالوا وسبب استجابتهم له أن الحاكم بأمر الله كان قد أسرف فى مصر فى قتل القواد وحبسهم وأخذ أموالهم وصارت القبائل معه فى ضنك وضيق ويودون خروج الملك من يده وكان الحاكم فى الوقت الذى دعا فيه أبو ركوة بنى قرة قد آذاهم وحبس منهم جماعة من أعيانهم وقتل بعضهم فلما دعاهم أبو ركوة انقادوا له وكان بين بنى قرة وبين زناتة حروب ودماء فاتفقوا على الصلح ومنع أنفسهم من الحاكم فقصد بنى قرة وفتح مكتبا يعلم الصبيان الخط وتظاهر بالدين والنسك وأمهم فى صلواتهم وشرع فى دعوتهم الى مايريد فأجابوه وبايعوه واتفقوا عليه وعرفهم حينئذ نفسه وذكر لهم أن عندهم فى الكتب أن يملك مصر وغيرها ووعدهم ومناهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا فاجتمع بنو قرة وزناتة

على بيعتـه وخاطبوه بالامامة وكانوا بنواحى برقـة فلما سمع الوالى ببرقـة خـبره كتب الى الحاكم ينهيه اليه ويستأذنه فى قصـدهم واصلاحهم فأمره بالكف عنهـم واطراحهم ثم ان أبا ركوة جمعهم وسار الى برقة واستقر بينهم أن يكون الثلث من الغنائم له والثلثان لبنى قرة وزناتة فلما قاربها خرج اليه واليها فالتقوا فانهزم عسكر الحاكم وملك أبو ركـوة برقة وقوى هو ومن معـه بما أخـذوا من الاموال والسلاح وغيرهما ونادى بالكف عن الرعية والنهب وأظهر العـدل وأمر بالمعروف فلما وصـل المنهزمون الى الحاكم عظم عليه الامر وأهمته نفسه وملكه وعاود الاحسان الى الناس والكف عن أذاهم وندب عسكرا نحو خمسة آلاف فارس وسـيّرهـم وقـدّم عليهـم قائدا يعرف بإينال الطويل فبلغ ذات الحمام وبينها وبين برقة مفازة فيها منزلان لايلقى السالك الماء الافى آبار عميقة بصعوبة وشدة فسيّر أبو ركوة قائدا فى ألف فارس وأمرهم بالمسير الى إينال ومن معه ومطاردتهم قبل الوصول الى المنزلين المـذكورين وأمرهم اذا عادوا أن يغوّروا الآبار ففعلوا ذلك وعادوا وحينئذ سار أبو ركوة فى عساكره واقيهـم وقد خرجوا من المفازة على ضعف وعطش فقاتلهم واشـتد القتال فحمل إينال على عسكر أبى ركوة فقتـل منهم خلقا كثـيرا وأبو ركوة واقف لايحمل هو ولا عسكره فاستأمن اليه جماعة كثيرة من كتامة لما نالهم من الأذى والقتل من الحاكم وأخذوا الامان لمن بقى من أصحابهم ولحقهم الباقون فحمل حينئذ بهم على عساكر الحاكم فانهزمت وأسر إينال وقتل وأسر أكثر عسكره وقتل منهم خلق كثير وعاد الى برقة وقد امتلأت أيديهم من الغنائم وانتشر ذكره وعظمت هيبته وأقام ببرقة وترددت سراياه الى الصعيد وأرض مصر وقام الحاكم من ذلك وقعد وسقط فى يده وندم على مافرط وفرح جند مصر وأعيانها وعلم الحاكم ذلك فاشتد قلقه وأظهر الاعتذار عن الذى فعله وكتب الناس الى أبى ركوة يستدعونه وممن كتب اليه الحسين بن جوهر المعـروف بقائد القواد فسار حينئذ من برقة الى الصعيـد وعلم الحاكم فاشـتد خوفه وبلغ الأمر به كل مبلغ وجمع عساكره واستشارهم وكتب الى الشام يستدعى العساكر فجاءته ففرق الاموال والدواب والسلاح وسيرهم وهم اثنا عشر ألف رجل بين فارس وراجل سوى العرب واستعمل عليهم الفضل بن عبد الله فلما قاربوا أبا ركوة لقيهم فى عساكره ورام مناجزة المصريين والفضل يناجز ويدافع ويراسل أصحاب أبى ركوة يستميلهم ويبذل لهم الرغائب فأجابه قائد كبير من بنى قرة يعرف بالماضى وكان يطالعه بأخبار القوم وما هم عازمون فيدبر الفضل أمره على حسب مايعلمه منه وضاقت الميرة على العساكر فاضطر الفضل الى اللقاء فالتقوا واقتتلوا بكوم شريك فقتل بين الفريقين قتلى كثيرة ورأى الفضل من جمع أبى ركوة ما هاله وخاف المناجزة فعاد الى عسكره وراسل بنو قرة العرب الذين فى عسكر الحاكم يستدعونهم اليهم ويذكرونهم أعمال الحاكم بهـم فأجابوهم واستقر الامر على أن يكون الشام للعرب ومصر لابى ركوة ومن معـه وتواعدوا ليـلة يسـير فيها أبو ركـوة الى الفضل فاذا وصل اليه انهزمت العرب ولايبقى دون مصر مانع فكتب الماضى الى الفضل

بذلك فلما كانت ليلة الميعاد جمع الفضل رؤساء العرب ليفطروا عنده وأظهر أنه صائم وطاولهم الحديث وتركهم فى خيمة واعتزلهم ووصى أصحابه بالحذر ورام العرب العود الى خيامهم فعللهم وطاولهم ثم أحضر الطعام وأحضرهم فأكلوا وتحدثوا وسير الفضل سرية الى طريق أبى ركوة فلقوا العسكر الوارد من عنده فاقتتلوا ووصل الخبر الى العسكر فارتج وأراد العرب الركوب فمنعهم وأرسل الى أصحابهم من العرب فأمرهم بالركوب والقتال ولم يكن عندهم علم بما فعل رؤساؤهم فركبوا واشتدّ القتال ورأى بنو قرة الأمر على خلاف ما قرروه ثم ركب الفضل ومعه رؤساء العرب وقد فاتهم ماعزموا عليه فباشروا الحرب وغاصوا فيها وورد لابى ركوة مدد من أصحابه فلما رآه الفضل ردّ أصحابه وعاد الى المدافعة وجهز الحاكم عسكرا آخر نحو أربعة آلاف فارس وعبروا الى الجيزة فسمع أبو ركوة بهم فسار مجدّا فى عسكره ليواقعهم عند مصر وضبط الطرق لئلا يسمع الفضل ولم يمكن الماضى أن يكاتبه بذلك فساروا وأرسل اليه من الطريق يعرّفه الخبر وقطع أبو ركوة مسير خمس ليال فى ليلتين وكبسوا عسكر الحاكم بالجيزة وقتلوا نحو ألف فارس وخاف أهل مصر ولم يبرز الحاكم من قصره وأمر الحاكم من عنده من العساكر بالعبور الى الجيزة ورجع أبو ركوة فنزل عند الهرمين ثم انصرف من يومه وكتب الحاكم الى الفضل كتابا ظاهرا يقول فيه ان أبا ركوة انهزم من عساكرنا ليقرأ على القواد وكتب اليه سرا يعلمه بالحال فأظهر الفضل البشارة بانهزام أبى ركوة تسكينا للناس ثم سار أبو ركوة الى موضع يعرف بالسبخة كثير الاشجار وتبعه الفضل وكمن أبو ركوة بين الاشجار وطارد عسكر الفضل ورجع عسكره القهقرى ليطمعوا عسكر الفضل ويخرج الكمين اليهم فلما رأى الكمناء رجوع أبى ركوة ظنوها الهزيمة لاشك فيها فولوا يتبعونهم فركبهم أصحاب الفضل وعلوهم بالسيوف فقتل منهم ألوف كثيرة وانهزم أبو ركوة ومعه بنو قرة وساروا الى حللهم فلما بلغوها ثبطهم الماضى عن المقام معه فقالوا له قد قاتلنا معك ولم يبق فينا قتال فخذ لنفسك وانج فسار الى النوبة فلما بلغ الى حصن يعرف بحصن الجبل للنوبة أظهر أنه رسول من الحاكم الى ملكهم فقال له صاحب الحصن الملك عليل ولا بد من استخراج أمره فى مسيرك اليه وبلغ الفضل الخبر فأرسل الى صاحب القلعة بالخبر على حقيقته فوكل به من يحفظه وأرسل الى الملك بالحال وكان ملك النوبة قد توفى وملك بعده ولده فأمر بأن يسلم الى نائب الحاكم فتسلمه رسول الفضل وسار به فلقيه الفضل وأكرمه وأنزله فى مضاربه وحمله الى مصر فاشهر بها وطيف به وكتب أبو ركوة الى الحاكم رقعة يقول فيها يامولانا الذنوب عظيمة وأعظم منها عفوك والدعاء حرام ما لم يحلله سخطك وقد أحسنت وأسات وما ظلمت الانفسى وسوء عملى أوبقنى وأقول

فررت فلم يغن الفرار ومن يكن * مع الله لم يعجزه فى الأرض هارب
ووالله ماكان الفرار لحاجة * سوى فزع الموت الذى أنا شارب

وقـد قادنى جرمى اليـك برمـتى * كما خرميتا فى رحا المـوت سارب
وأجمـع كل النـاس أنك قاتـلى * فيارب ظن ربه فيـك كاذب
وما هـو الا الانتقام وينتهى * وأخـذك منه واجب لك واجب

ولما طيف به ألبس طرطورا وجعل خلفه قرد يصفعه وكان معلما بذلك ثم حمل الى ظاهر القاهرة ليقتل ويصلب فتوفى قبل وصوله فقطع رأسه وصلب وبالغ الحاكم فى اكرام الفضل الى حد أنه عاده فى مرضة مرضها دفعتين فاستعظم النـاس ذلك ثم انه عمل على قتل الفضل لما عوفى فقتله

وصفت الأمور للحـاكم فكثر شره وكبر ظلمـه وعظم افساده وطغيانه فكان لايستقر على أمر من الأمور وكان له فى كل ساعـة شأن قيل انه ابتنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ وبالـغ فى اتقانهـا وتعزيزها ثم عاد فقتلهـم جميعا وخربهـا وألزم الناس باغـلاق الاسواق نهارا وفتحها ليـلا فامتثلوا ذلك دهرا طويلا حتى اجتاز مرة بشيخ يعمل النجارة فى أثناء النهار فوقف عليه وقال ألم نهكم عن هذا فقال ياسـيدى أما كان الناس يسهرون لما كانوا يتعيشون بالنهار فهذا من جملة السهر فتبسم وتركه وأعاد الناس الى أمرهم الاول وكان يعمـل الحسبة بنفسه فيـدور فى الاسواق على حمار له وكان لا يركب الا حمارا فمن وجده قد غش فى معيشته أمر عبدا أسود معه اسمه مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى وكان قـد منع النساء من الخروج من بيوتهـن وأن لايطلعن من الطاقات أو الاسطحـة ومنع الخفافين من عمل الأخفاف ومنعهن من دخول الحمامات وقتل خلقا من النساء على مخالفة ذلك وهدم بعض الحمامات عليهن ومنع من طبخ الملوخيـة والقرع وله رعونات كثيرة للغاية لاتدخل تحت الحصر فابغضه النـاس وكتبوا له الاوراق بالشتم له ولاسلافه فى صور قصص حتى عملوا صورة امرأة من ورق بخفها وازارها وفى يدها قصة فيها من الشتم شئ كثير فلما رآها ظنها امرأة فـذهب من ناحيتها وأخـذ القصة من يدها فلما رأى ما فيها غضب وأمر بقتلها فلما تحققها من ورق ازداد غضبا الى غضبه وأمر العبيد من السود أن يحرقوا مصر وينهبوا ما فيها من الاموال ويسبوا النساء ففعلوا وقاتلهم أهل مصر قتالا عنيفا ثلاثة أيام والنار تعمل فى الدور والسبى فى النساء واجتمع الناس فى الجامع ورفعوا المصاحف ولجؤا الى الله تعالى واستغاثوا به وما انجلى الحـال حتى احـترق من مصر نحو ثلثها ونهب نحو نصفها وسبيت نساء كثـيرة وفعل بهن الفاحشة العظمى واشـترى الرجال من سبى لهم من النسـاء والحريم من أيدى العبيد قال ابن الجوزى وزاد ظلم الحاكم وعنّ له أن يدعى الربوبية فصار الناس اذا رأوه يقولون ياواحد ياأحد يامحيى يامميت اه

وأنزل بالنصارى شدائد لم يعهدوا مثلها من قبل وذلك أنه لما تمكن الكثير منهم من أعمال الدولة وصاروا الوزراء حسدهم المسلمون واتهموهم بالمكايدة ووشوا بهم عند الحـاكم بأمر الله فغضب جدًا وكان لايملك نفسـه اذا غضب فقبض على عيسى بن نسطور القبطى وهو

اذ ذاك فى رتبة الوزارة فضرب عنقه جهارا وقبض على فهد بن ابراهيم كاتب الاستاذ برجوان وضرب عنقه وشدّد على النصارى وألزمهم بلبس ثياب الغيار وشدّ الزنانير على أوساطهم ومنعهم من عمل الشعانين وعيد الصليب والتظاهر بما كانت عليه عادتهم فى الاعياد والمواسم من الاجتماع وقبض على جميع ما هو محبس للكنائس والديارات وأدخله فى الديوان وكتب الى عماله كلهم بذلك وأحرق خلقا كثيرا ومنعهم من شراء العبيد والاماء وهدم الكنائس التى بخط راشدة ظاهر مدينة مصر وأخرب كنائس المقس خارج القاهرة وأباح مافيها للناس فانتهبوا منها مايجل عن الوصف وهدم دير القصير وأنهب العامة مافيه ومنعهم من عمل الغطاس على شاطئ النيل بمصر المحروسة وأبطل مايعمل فيه من الاجتماع وألزم الرجال منهم بتعليق الصلبان من الخشب التى زنة كل صليب منها خمسة أرطال فى أعناقهم ومنعهم من ركوب الخيل ورسم لهم أن يركبوا البغال والحمير بسروج ولجم غير محلاة بل من جلود سود ومنع من ضرب الجرس فى القاهرة ونبّه أن لا يركب أحد من المكارية ذميا ولا يحمل نوتىّ مسلم أحدا من أهل الذمة وأن تكون ثيابهم وعمائمهم شديدة السواد وركب سروجهم من خشب الجميز وأن يعلق اليهود كذلك فى أعناقهم خشبا مدوّرا زنة الخشبة منها نحو الخمسة أرطال وهى ظاهرة فوق ثيابهم وزاد فى الجور والعسف فهدم مابقى من الكنائس وأباح مافيها وما هو محبس عليها للناس نهبا واقطاعا فهدمت بأسرها ونهب جميع أمتعتها وأقطع أحباسها وبنى فى مواضعها المساجد وأذن بالصلاة فى كنيسة مارى شنوده بمصر وأحيط بكنيسة المعلقة فى قصر الشمع وأكثر العامة من رفع القصص يطلبون بها هدم كنائس أعمال مصر ودياراتها فلم يردّ قصة منها الا وقد وقع عليها باجابة رافعها الى ما سأل فأخذوا أمتعة الكنائس والديارات وباعوها بأسواق مصر من أوانى الذهب والفضة وغير ذلك وتصرفوا فى أحباسها ووجدوا بكنيسة مارى شنودة مالا جليلا وكذلك فى كنيسة المعلقة من المصاغ وثياب الديباج شيأ كثيرا جدّا ثم كتب الى ولاة الاعمال بتمكين المسلمين من هدم الكنائس والديارات فعم الهدم والتخريب فيها من سنة ثلاث وأربعمائة هجرية حتى ذكر بعض أصحاب التاريخ أن الذى هدم لغاية أخريات سنة خمس وأربعمائة بمصر والشام وأعمالهما من الهياكل التى بناها الروم نيف وثلاثون ألف بيعة ونهب مافيها من آلات الذهب والفضة وقبض على أوقافها

وألزم النصارى أن تكون الصلبان فى أعناقهم اذا دخلوا الحمام وألزم اليهود أن تكون فى أعناقهم الاجراس اذا دخلوا الحمام ثم ألزم الاثنين معا بخروجهم كلهم من أرض مصر الى بلاد الروم فاجتمعوا بأسرهم تحت القصر من القاهرة واستغاثوا وصاحوا بطلب العفو حتى أعفوا من النفى وفى خلال هذه الاحن أسلم كثير من النصارى وضربتهم يد الشتات فتمزقوا أوكادوا وأسكن اليهود فى حارة زويلة وتهدّدهم بالقتل ان لم يسلموا فخافوا وأسلم منهم عدد غفير ثم أمرهم بالرجوع الى دينهم فارتد منهم فى يوم واحد سبعة آلاف ثم عاد فأمر بهدم معابدهم

فهدمت ثم أمر باعادتها لهم فأعيدت وادعى الالوهية فكان يكتب له * بسم الحاكم الرحمن الرحيم * ثم انه ادعى علم الغيب فكان يقول ان فلانا قال فى بيته كذا وكذا ودخل له كذا وكذا وكان ذلك باتفاق اعتمده مع العجائز اللواتى كن يدخلن بيوت الامراء وغيرهم ويخبرنه بما جرى ثم كان من أمره أن تعدّى شره الى أخته الاميرة سيدة الملك فاتهمها بالفاحشة وتهدّدها بالقتل وقد كانت من أفضل وأزكى نساء عصرها فأخذت فى تدبير الحيلة على قتله فأرسلت الى أحد كبار قوّاد الحاكم وهو الامير سيف الدين بن الدواس تقول انى أريد أن ألقاك وسارت اليه ليلا وقالت له قد جئت اليك فى أمر تحفظ فيه نفسك ونفسى وأنت تعلم ما يجرى من أخى من سفك الدماء وخراب البلاد وقد صمم على قتلك وقتلى وأخاف أن الناس يثورون به فيهلك هو ونحن وتنقلع هذه الدولة فقال وما الحيلة فى أمره قالت الرأى عندى أن ترسل اليه غلمانا يقتلونه عند خروجه الى جبل المقطم فى غد وليس معه غلام الا الركابى وصبى وينفرد بنفسه فاذا قتل نقيم ولده وتكون أنت وزيره ومدبر دولته وأزيد فى اقطاعك مائة ألف دينار * ومضت سيدة الملك الى قصرها فلما كان الغد خرج الحاكم على عادته وانفرد بنفسه بالجبل المذكور فعمد ابن الدواس الى عشرة من العبيد السود وأعطى كل واحد منهم خمسمائة دينار ومضوا الى الجبل وقتلوه وأتوا به الى أخته ليلا فدفنته فى دارها وكان عمره ستا وثلاثين سنة وتسعة أشهر وولايته خمسا وعشرين سنة وعشرين يوما وكان قتله ليلة الاثنين لثلاث بقين من شوال سنة احدى عشرة وأربعمائة هجرية وبقى الناس على رسمهم يخرجون كل يوم يلتمسون رجوعه الى سلخ شوال * فلما كان ثالث ذى القعدة خرج مظفر الصقلبى صاحب المظلة وغيره من خواص الحاكم ومعهم القاضى فبلغوا حلوان ودخلوا فى الجبل فبصروا بالحمار الذى كان عليه راكبا وقد ضربت يداه بسيف فأثر فيهما وعليه سرجه ولجامه فاتبعوا أثره فانتهوا به الى البركة الى شرقى حلوان فرأوا ثيابه وهى سبعة قطع صوف مزررة بحالها لم تحل وفيها أثر السكاكين فعادوا ولم يشكوا فى قتله واجتمع الجند على سيدة الملك أخت الحاكم يسألون عن سبب عدم رجوع الحاكم ففرّقت فى قوّادهم الاموال وأصبحت وقد ألبست أبا الحسن عليا بن أخيها الحاكم أفخر الملابس وكان الجند قد اجتمعوا حول القصر ليعلموا ما جرى على الحاكم فلم يلبثوا أن خرج أبو الحسن وهو صبى والوزير بين يديه فصاح ياعبيد الدولة مولاتنا تقول لكم هذا مولاكم أمير المؤمنين فسلموا عليه ثم قبل ابن الدواس الارض بين يديه وكذلك القواد الذين أرسلت اليهم الاموال ودعوا له فتبعهم الباقون ومشوا معه ولم يزل راكبا فنزل ودعا الناس من الغد فبايعوه ولقب الظاهر لاعزاز دين الله وسير الكتب الى البلاد بمصر والشام بأخذ البيعة وجمعت سيدة الملك الناس ووعدتهم وأحسنت اليهم ورتبت الامر ترتيبا حسنا وجعلت الامر بيد ابن الدواس وبالغت فى تعظيمه ثم انها قالت له اننا نريد أن نرد جميع أحوال المملكة اليك ونزيد فى اقطاعك ونشرفك بالخلع السنية فاختر يوما يفعل فيه ذلك وشاع هذا الخبر بين الناس وتحدثوا به كثيرا

ثم

ثم أحضرته وأحضرت جميع القواد الى قصرها فلما انتظم بهم المقام أمرت الغلمان فأغلقوا الابواب وأرسلت الى ابن الدواس غلاما ومعه السيف وقالت له اذا وقفت على رأس ابن الدواس فقل للقوّاد ان هذا قاتل مولاكم الحاكم ثم اضربه بالسيف ففعل ذلك وقتله فلم يختلف رجلان وجعلت تتصرف فى الامور بنفسها فأحسنت التدبير واتسعت كلمتها وقامت هيبتها عند الناس واستقامت الامور على يديها وعاشت بعد الحاكم أربع سنين لاراد لكلمتها

وكان للحاكم بأمر الله المذكور وزير اسمه حمزة كان عظيم الدهاء واسع العلم غزير المادة قد وضع للحاكم مذهبا مخصوصا هو من مذاهب الباطنيين وقيل بل من اعتقادات القرامطة وقيل هو دين مستقل لاعلاقة له بشئ من الاديان الأخرى فظهر الدين المذكور واشتهر أوائل القرن الخامس للهجرة المحمدية فتبعه خلق كثير جدا و بالغ أصحابه فى اخفاء أمره وكتمان سره وغلق جميع أبواب الوصول اليه ومع ذلك فقد اجتهد أهل التاريخ وكتّاب الاخبار من السلف فى الحصول على معرفة ما يمكن معرفته من تلك الاسرار وفاز بعضهم بالاطلاع على بعض المؤلفات والرسائل فى ذلك الحين وبحثوا وفتشوا فوجدوا من الكتب والرسائل الخاصة بهذا الدين عدّة منها كتاب المشاهد والاسرار التوحيدية وكتاب الرد على النصيرية وهو يتضمن ستا وعشرين رسالة والرسالة المعروفة بالشافية لنفوس الموحدين الممرضة لقلوب المقصرين الجاحدين والرسالة المعروفة بالرسالة الموسومة بالاسرار ومجالس الرحمة للاولياء الابرار وأخرى اسمها الرسالة الموسومة بمجالس الرحمة * قال بعض الكتاب ويظن أن الكتب عندهم سبعة لان عدد سبعة هو من الاعداد المقدّسة عندهم قالوا لان السموات سبع وكذلك الارضون والسيارات وأيام الاسبوع والعناصر والائمة عندهم والناطقون وغير ذلك فقد وجد فى أحد كتبهم المار ذكرها هذه العبارة * الجزء الاول من السبعة الاجزاء * وفى كتاب آخر ما نصه فوضعت هذا الكتاب وهو الجزء الاوّل من السبعة الاجزاء يشتمل على فرائض فرضها مولانا ذو المنة والاحسان وأنطق بها عبده قائم الزمان يتلو بعضها بعضا ويوضح فى العقل أنها فرض وفى كل كتاب ذكر فرض مايجب أن يفرض واسقاط مايجب أن يسقط وينقض * قال العلامة البستانى فى كتابه دائرة المعارف ولهم عدّة كتب أخرى محفوظة بدار الكتب فى بلاد الفرنسيس والانجليز والمكتبة الباباوية وغيرها وتشتمل هذه الكتب على عدّة رسائل أو فصول لكل رسالة أو فصل منها عنوان مخصوص وكلها تعاليم وردود على بعض المارقين من دينهم أو المخالفين لتعاليمهم وجلها بل كلها تنسب الى حمزة المذكور الملقب عندهم بالعقل

فمن قواعد دينهم هذا ماجاء فى كتبهم ان الله واحد وهو الكائن الوحيد الذى تجب عبادته وألوهيته لاتدركها العقول فهى غير قابلة للتحديد والتعريف وقد ظهر للبشر عدّة مرار فى ناسوته ثم ظهر لهم أخيرا باسم الحاكم فعمل من الاعمال ما لايدركه العقل البشرى وأعماله كلها حكمة وأسرار غريبة للغاية ثم اختفى فلا يظهر الابعد مجيئه الأخير لتأييد دين التوحيد

ومعاقبة الجاحدين ويقول حمزة أيضا ان الله هو الابدى السرمدى القديم المولى المملوء كرامة والسيد الرحيم وهو واحد لايشابه الكائنات فى شئ وهو يفوق جدا التعيين بالاعداد والمشابهات عظيم فلا زوجة له ولا ولد تعجز الناس طرّا عن استيفاء وصفه فالاعين التى تراه لاتدركه وجوهره لايدرك بالتأمل فالالوهية له وحده دون غيره ولا سبيل الى وصفه بالاوصاف الموافقة للكائنات المخلوقة فيتجانس مع المتجانسين فالعقول والتصورات تعجز عن ادراكه تعالى عن الكيف والاين فلا تدركه الاعين ولا تنسب اليه الحركة والراحة فهو واحد ولكن وحدته ليست كالتى يدركها البشر فهو البداية والنهاية وتنزه عما اعتقده به الناس خطأ وعما نسب اليه مما لايليق الا بمخلوقاته والادراك البشرى يقصر عن فهم أعماله فتخرس الالسن اذ لم تجد لمستخدمها سبيلا الى توحيد باريها * وعندهم ان الله الرحمن الرحيم اسم يدل على بعض وزراء دين التوحيد قال حمزة المذكور كيف توصف وحدة من لاحدود له ولا بداية ولا أصل ولا نهاية فان أقدم الاشياء أى وزراء الدين والانفس تقرّ أنه خالقها والكائنات الاخيرة كالاجساد تقرّ أن وجودها جديد فهو ملك الملوك الذى لايعرف ولا يحدّد بلسان قلم فالحمد لك يامن امتزت بالعظمة والقدرة المتعالى عن جميع البشر بالجود والملكوت الذى كنت موجودا فى كل دهر وزمان ومكان فلا تشبه البشر ولا يقدر مخلوق أن يحددك أنت المنزه عن كل تشبيه ووصف مع الايمان والاعتقاد الثابت الذى لايتزحزح فى بداية وجودى ونهايته من صميم القلب وعلى رؤس الاشهاد أنك الاله الخالق القادر الفريد الوحيد الغير القابل الزيادة بالاعداد ولا بالكميات ولا الاسباب والاحساب فأنت الخالق الفريد موجد الكائنات المنزه عن النظير القادر الذى لا كائن له قدرة عليك الغالب ولا ملجأ ولا مجير منك الا بنفسك الحاكم المولى الذى لايخضع لحكم أحد تفعل ماتشاء وتأمر بما تشاء بامرك العالى الممجد عن مقارنة الاصوات واللغات * قال العلامة المشار اليه فهذا هو توحيد الموحدين مترجما عن اللغات الاجنبية لتعذر الحصول على كتبهم الاصلية ويقولون ان للحاكم لاهوتا وناسوتا فلاهوته ثابت عندهم باعماله التى تفوق ادراك جميع البشر وبحكمته العظمية جدا وقد دوّنوا فيها سؤالات وجوابات ومنها مايتعلق بظهور الحاكم وهى

سؤال ماهى كيفية ظهور مولانا الحاكم وفى أى زمان ظهر

جواب فى سنة أربعمائة للهجرة

س كيف ظهر

ج بالتظاهر بانه من الفاطميين بستر الوهيته

س لماذا ستر لاهوته

ج لنقصان الاعتبار وقلة الاصحاب

س فى أى سنة ظهر لاهوته

ج فى السنة الثامنة بعد أربعمائة للهجرة

س كم سنة أظهر لاهوته

ج ثمان سنوات وأخفاه فى السنة التاسعة لانها كانت زمان تجارب وأسرار وأظهره ثانية فى بداية السنة العاشرة وأثناء السنة الحادية عشرة ثم أخفاه فى بداية السنة الثانية عشرة فلا يظهر بعد ذلك الا يوم الدين

س كيف كان الوزراء يحيون الحاكم عند مثولهم لديه

ج كانوا يقولون بصوت منخفض السلام عليك يامولانا ومرجعه اليك لان السلام لك ودينك مقر السلام فالبركات والعظمات لك يامولانا العالى صاحب المجد والشرف

س ماذا ينبغى أن تفهم مما جاء فى رسالة خمار بن جيش السليمانى العكاوى الذى هو أخو مولانا المعظم

ج انمولانا أظهر نفسه بحيث أوهم الناس أنه ابن أبيه فعلا فظن خمار أن مولانا أخوه مع أنه لم يكن كذلك الا بحسب الظاهر فازداد ضلال خمار وكان ضلاله موجبا لصدور أمر مولانا بقتله

س ماهو معنى ركوب مولانا الحيردون سروج

ج الحمار رمز الى الناطق فركبه مولانا دلالة على ابطال الناموس وغيره

. . . وهنا وضع المترجم أسفارا استقباحا لترجمة ماجاء بعد كلمة وغيره عملا بادب التحرير

س الى ماذا يرمز الثوب الصوف الاسود الذى كان مولانا يلبسه

ج انه ثوب حداد يرمز الى التجارب التى يمتحن بها عباده بعده

ولهم غير ذلك من الاسئلة والاجوبة التى لاعلاقة لها بمعتقدهم ويقولون فى الوهية الحاكم انها ثابتة باعماله وقد ذكر حمزة وزيره المذكور تلك الاعمال فى الرسالة المسماة السيرة المستقيمة وقال فيها ماحصله * لوكانت أشجار الارض كلها أقلاما والبحر حبرا وأضيف اليه سبعة بحور لما كانت كافية لتدوين جميع كلمات الله ﷻ والله هنا اسم انسانية الحاكم ﷻ قال فأقتصر على ذكر أمور قليلة العدد غزيرة النفع للتأمل المعترف بوحدة مولانا المستحق التعظيم الذى تفوق قدرته ادراك البشر فاول عمل قام به قتله لبرجوان وابن عمار مع أن برجوان كان متسلطا على الشرقية كلها وابن عمار على الغربية فقتلا كانهما كلبان بلا تحاش ولاخوف من قيام الفتنة بين الجند والعسكر وهذا أمر لايأتيه أكبر ملوك العالم بأسره وكذلك قتله لرؤساء قطاعته ولم يبال قط بأولادهم وأصحابهم وكان يسرى ليلا بين أولادهم وعيالهم ولا سيف معه ولاخنجر ولما أثار أبو ركوة الوليد بن هشام الفتنة خرج مولانا المعظم فلاقى حسن بن علوان ليلا فى خمسمائة فارس فوقف بينهم بغير سلاح وسأل كلا منهم عن مراده ثم دخل البستان وليس معه أحد غير غلام والمؤذنين قال ولما ظهرت فتنة المفرج كان الناس ينتظرون دخوله مصر هو وأصحابه وتسلمه عرش السلطنة فكان مولانا يخرج على عادته ويسير نحو الطريق

التى كان يؤمل دخول المفرج منها حتى وقع الخلاف بين زعماء الفتنة وعاد حسين بن جعفر الحسينى الى مكة خوفا من أن المفرج يوقع به وهذا أيضا مما لايقدر على فعله أىّ ملك من ملوك الارض وكان مولانا يخرج فى حمارة الحر فى الغبار دون مبالاة و أصحابه يكادون يهلكون مما يعانونه وهو لايظهر العرق على وجهه مع أنه كان يبل أثواب أصحابه حتى ظاهرها وهذه من الادلة المثبتة لالوهية الحاكم عندهم * وذكر حمزة فى هذه الرسالة أيضا أمورا أخرى يضيق المقام دون ايرادها كلها ويقولون ان لاهوته لايفارق ناسوته أبدا بل هما متلازمان أما ما يتعلق بناسوت الحاكم وما جاء فيه من قولهم فيعرف من الأسئلة والأجوبة الآتية وهى

سؤال كم مرة ظهر مولانا الحاكم بالناسوت

جواب ظهر عشر مرات باسماء بشرية وهى علىّ والبارى والمؤئل والقائم والمعز والعزيز وأبو زكريا والمنصور والحاكم

س أين وقع الظهور أو الكشف الاول

ج فى الهند فى مدينة اسمها تشماتشن

س أين ظهر البار أو البارى

ج فى فارس فى مدينة اسمها أصبهان ﷺ واسم الله عند الفرس بار خداى ﷺ وعلىّ ظهر فى اليمن والمؤئل فى المغرب وكان ظهوره كأنه رجل صاحب ألف جمل والقائم ظهر فى مدينة المهدية بالمغرب أيضا ثم جاء مصر وبنى بابا اسمه رشيدية وأبو زكريا والمنصور ظهرا فى المنصورية

ومما كتبه حمزة بشأن ناسوت الحاكم وظهوره أن الظهور تم عدة مرات فى القدم ولكنه لم يكن الدور الناسوتى وورد فى كتاب لحمزة أيضا مامحصله * اننا نظهر لكم فى كتاب آخر أسماء مولانا الناسوتية التى اتخذها لنفسه عند ظهوره فى الارض منذ خلق العقل الى زمن ظهور آدم الصفاء وعبادة الملائكة له وهى مدة سبعين دورا وبين كل دور سبعون أسبوعا وكل أسبوع سنة وكل سنة ألف سنة من سنى هذا الزمان وأبين لكم الاسماء أيضا التى اتخذها العقل وجنده فى تلك الادوار واسم كائناته كما أن اسم هذا الجيل هو الانسانى أو البشرى وقال فى كتابة أخرى اننى أبين لكم الاسم الذى اتخذته فى كل من تلك الادوار والاسم الذى كان للروح المضاد المدعو ابليس

وحمزة عندهم هو ظهور العقل وعند ظهوره بين البشر سمى آدم الصفاء وكان له وزيران فعصيا فسمى أحدهما آدم العاصى والثانى آدم الناسى وأنه عند ماظهر العقل المرة الاولى ظهر أيضا ناسوت الاله باسم البار أو البارئ * وكتب أيضا فى بعض كتاباته يقول ﷺ وقالوا الحاكم جل ذكره بار خداى يعنون بذلك ﷺ الله ﷺ عبد مولانا جل ذكره قال بعض الكتاب ومراد

حزة من هذه العبارة هو أن أسماء الخالق سبحانه وتعالى الواردة فى الكتب الدينية هى كلها عندهم أسماء وزراء الحاكم فاسم الله تعالى اسم لاحد وزراء الحاكم وقال أيضا ۞ قد كان مولانا فى زمن شنغيل فى ظاهر الامر يسمى ناسوته من حيث العالم البشرى بالبار أو البارئ فيقول الناس عند ذكرهم الحاكم «الحاكم بار خداى» والعرب تقول «الحاكم الله» قال وهذا لايوافق فان «الله» اسم الوزير الاول يعنى للحاكم ولكن «بار خداى» معناه الاله الاعلى أواله الآلهة فهذا الاسم يوافق لمولانا أكثر من الاسم الاول قال وأما محمد بن اسمعيل فاسمه فى تلك الكتب الناطق السابع وهو الثانى من الأئمة الذين هم سلف الخلفاء الفاطميين وفى أيام الثالث منهم ظهر الناسوت يعنى الحاكم باسم أبى زكريا وظهر فى أيام الامام الرابع باسم علىّ الاعلى فابو زكريا لم يكن ملكا فى هذا العالم ثم ظهر العقل معه باسم قارون وفى آخر أيامه عند ماكبر وشاخ سمى بديار اليمن بالمهدى ثم ظهر أيضا النفس باسم أبى سعيد الملطى فلما كان الظهور الثالث يعنى للحاكم باسم الموئل كان فى بلاد تدمر وفى الايالات المشرقية وكان ظهوره فى شخص تاجر * وجاء فى كتاب حزة المسمى بالنقض الخفى أن الناطقين سبعة وهم آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى المسيح ومحمد وسعيد وهو عبد الله الخليفة الاوّل الفاطمى الملقب بالمهدى وهو أبو القائم أعظم الوزراء * أما ماجاء عن وزراء الحاكم فى كتبهم وهم الذين لقبوهم بألقاب مختلفة كالسابق والناطق وغير ذلك قولهم ۞ وقد نظرنا الى السابق والتالى والناطق والاساس والامام والحجة والقائم فرأيناهم كلهم عبيدا مزدوجين فعرفنا بان المعبود سواهم وعرفنا بتوفيق مولانا عز ذكره أن الهاء المشار اليها هى الخاتمة أى خاتمة الله وتمامه واللامين والالف خلف تالية وهو آخرهم ورابعهم وتمام القدرة به لانه لايقال لاحد من الحدود يعنى الوزراء ما قيل له وهو المهدى الذى وقع عليه هذ الاسم الاعظم بقوله أبو القاسم ولايجوز أن يقع هذا الاسم الاعلى أعظم الحدود ونهايتهم كما أن الهاء نهاية لاإله الا الله

وقد عمل حزة للدخول على الحاكم دستورا بعث به الى أبى عبد الله محمد بن وهّاب قال فيه ما محصله ۞ لاتحضر لديه مالم تدع اليه ولا تكلمه الا مجيبا وتقول بصوت منخفض جدا السلام فليأت السلام منك يا مولانا وليرجع اليك فانه لك وديتك مقام السلام أنت المبجل المجد يا سيدنا المتعالى لك المجد والكرامة * واياك ان ترفع صوتك ولا تحرك يديك ولا تومئ بعينيك ولا ترفع رأسك * وكان الناس يسجدون بين يديه و يقبلون الارض فاذا قابله أحد وهو راكب نزل عن مركوبه فاذا تقدم للسلام عليه سلم عليه من الجهة اليمنى واذا رفعوا له قصة كانت أسطرها فردية أى لا تكون زوجية وأن يكون كلام الناس معه بالفرد وعندهم أن هذه الامور كلها رموز فى الدين التوحيدى لابد من العمل بموجبها وعندهم أن الحاكم لم يمت بل غاب عن الناس الى ساعة معلومة وهى القيامة التى

يعبّرون عنها بفوز الدين التوحيـدى ومن الاسئلة والاجوبة الآتية يعـلم بعض الشئ من معتقدهم فى ذلك

سؤال ماذا نفهم يوم الدينونة

جواب هو اليوم الذى يلبس فيه مولانا ناسوته ويدين الناس بالسيف الدينونة القوية

س كيف يتم ذلك ومتى

ج لا يعـلم أى متى يكون ذلك غـير انه لا بد من ظهور علامات أوليـة تعرف بها الساعة

س ما هى هذه العلامات الاولية

ج هى تصرف ملوك الوقت فى الرعية على هوى أنفسهم وتسلط المسيحية

س فى أى شهر يتم ذلك

ج فى شهر جمادى أو رجب حسابا هجريا

س ماذا ترك مولانا عند غيبته

ج ترك سجلا معلقا فى باب الجامع سماه بالسجل المعلق

وكان ملخص ما فى السجل المذكور هذه العبارة الآتية ۞ بسم الله الرحمن الرحيم * ان الاحسـان فى الاسـتقبال هو للذين حادوا عن السـبل المعوجة وابتعـدوا عن حماقـة الجهال وكان ايمانهم حقيقا الذين يؤمنون بالله تعالى وولاته وشهدائه عنـد الناس ونوابه فى الارض الذين سـلم اليهـم أمـير المؤمنـين أمور مخـلوقاته وكذلك الاحسان للذين لا يخالطون الا الابرار الذين يخافون الله والذين يؤمنون باليوم الآخر ايمانا صحيحا قلبيا خاليـا من الشـك والريب والله سـبحانه لايحرم أهـل الخير وفاء على البر جزاء ما يستحقون وما العداوة والبغضاء الا للاشرار والعصاة والابالسة والخـدّاعين والـكذابين الذين يقاومون الحق وللمرائين الذين ينكرون اليوم الآخر وقد حق غضب الله عليهم وعلى الذين يسلكون السـبل المعوجة ۞ ثم يلى هـذا تعظيم الله سبحانه وتعالى والصـلاة والسـلام على النبى محمد وعلى آله وصحبـه * ثم يأخذ كاتب ذلك السجل فى تعنيف الموحدين وتوبيخهم على الاهمال والتغافل والجهل الذى وقعوا فيه ويحذرهم من سوء العاقبة ويذكرهـم بما حصلوا عليه من المنافع الزمنية والروحية من لدن الحاكم رحمة منه ومنة حيث أنعم عليهم بجميع الحقوق الشرعية التى تؤهلهم للتصرف فى أنفسهم وفى مقتنياتهم على أنهم لا يستحقون شيأ من ذلك ويستلفتهم الى ما نالوه من الهبات الوافرة والعطايا الجزيلة من الذهب والفضة وجياد الخيل والماشية والاقطاعات وغـير ذلك وكيف ان الحاكم رفع أمرهـم وأعلى مقامهم الى درجات العز والرفاهيـة ووسع سلطانهـم شرقا وغربا فى السهول والجبال وفى البحر والبر حتى صاروا ملوكا وسلاطين تحمل اليهـم الجزية من كل صوب ودرب ويقول ان مامنحهم

اياه

اياه من المنح الروحية انما هو تعزيز لشريعة الاسلام وتوحيد دعائم بنيانها واقامة شعائرها بتزيين المساجد وتوسيع المعابد وضرب صنوف الرق والمذلة على جميع اليهود والنصارى لاكراههم على اعتناق الاسلام دينا وانشاء مدرسة للفقه والتوحيد * الى أن قال فى السجل المذكور * واعلموا معشر الموحدين أن ما نلتموه من الهبات الروحية وفزتم بالحصول عليه فهو نتيجة ولائه وصداقته مع الامم الخارجية وهما علة مجدكم وشرفكم فى هذا الحين مع أعلى السعادة والسلامة الابدية وهذه النعم انما هى لازدياد كنود الانسان وازدياد ذنوبه فوان كان أعداء الله وأمير المؤمنين لم يحاربوا الله وأمير المؤمنين خوفا منه ورهبة الا أن بعضهم حارب البعض الآخر واقتتلوا عاصين على الله عابثين بحرمة الدين مستخفين بمقام الامير مستصغرين الايمان فأراقوا الدماء وتعدوا على أعراض الناس فتضاربوا وضرب دينهم وضرب بهم نائب الله أمير المؤمنين فغضب الله سبحانه لذلك وغضب أمير المؤمنين من صنعهم وخروجهم عن الطاعة فخرج لذلك أمير المؤمنين من بينكم لان الله سبحانه وتعالى قال لست بمعاقبهم حتى تخرج من بينهم فغضب نائب الله يدل على غضب الله سبحانه وقد ظهرت لكل ذى عينين علامات غضب الامام حيث أغلق أبواب أمته وأبطل مجالس الحكمة وأخرج من قصره مكاتب القواد والعبيد ومنع جميع الناس من التسليم عليه ومنع الجلوس على المقاعد حول قصره المقدس وامتنع عن اقامة الصلاة مع الجماعة فى الاعياد والمواسم وشهر رمضان ومنع المؤذنين من الاذان ومنع أن يقال له مولانا وأن لاتقبل الارض بين يديه وأن لا ينزل الناس عن حميرهم وخيولهم اذا مروا به ولبس الصوف من ألوان مختلفة ومنع حاشيته وعبيده من السير فى ركابه وامتنع من اقامة الحدود وغير ذلك والناس عن كل هذه العلامات غافلون فلذلك خرج أمير المؤمنين الذى هو نائب الله من بينهم وترك جميع المخلوقات وشأنها جزاء ما فعلوه * فهلموا أيها الناس هلموا قائمين فى بداية السبيل الذى سلكه أمير المؤمنين عند غيبته وتشبهوا به أنتم وبنوكم مطهرين قلوبكم من الاهواء وأحسنوا النية أمام صاحب الكائنات وارجعوا اليه بقلوبكم واستغفروا ليمنّ عليكم بارجاع نائبه ولا يخرج أحدكم مفتشا عن أمير المؤمنين ولا سائلا عما جرى ولا تنقطعوا عن الصلاة فى مدخل تلك الطريق قائلين هنا نسكن وهنا نقيم فاذا حلت ساعة الرحمة ظهر نائب الله بينكم باختياره وارادته فقوموا بذلك فى الليل والنهار قبل حلول اليوم الآخر وساعة الدينونة وقفل أبواب الرحمة والانتقام من العصاة اه وجاء فى آخر السجل المذكور ما معناه قد كتبه عبد أمير المؤمنين فى ذى القعدة سنة احدى عشرة وأربعمائة مع الامر بأن لا يمنع أحد من قراءته ولا استنساخه وحرم كل من يقدر على نسخه ولم يفعل قلت ولا غرابة من تسمية صاحب هذا السجل للحاكم فى هذه المرة باسم أمير المؤمنين ونائب الله تعالى لان سجله هذا كان مكتوبا للعالم بأسره فالتزم فى تحريره جانب التستر والمواربة ومع ذلك فانه لا يبعد تفسير كل كلمة منه بحسب تعاليم دين الموحدين فاسم الله

سبحانه وتعالى عندهم ليس هو الا اسم لا هوت الحاكم ونائب الله وأمير المؤمنين هو اسم ناسوته * ولما غاب الحاكم وانقطع خبره عن أصحابه خاف زعماء دينه من الفتنة وردة أصحابهم فكتبوا لهم رسالة فى بداية السنة الثانية عشرة والاربعمائة للهجرة يطمنونهم ويمنونهم بالامانى البعيدة ولكى يباعدوا بينهم وبين السقوط فى الخطا من جرى توهم ظهور اللاهوت بعد الغيبة فى جسم آخر وفى تلك الرسالة ما محصله الى الموحدين المؤمنين بوحدة مولانا سعيد يوم الدين خضعوا وسلموا لكل ما يأمر به مولانا من نحوكم وأيقنوا أنه سيعيد أنفسكم وأنفس جميع البشر وقد اعترفتم بوحدته وتعهدتم بأن لا تكونوا عبيدا لسواه فاحذروا الشكوك واخشوا الله ولا تخشوا الناس واتكلوا على حماية العالى ولا تخافوا الا ممن لا قدرة لاحد خلافه فاذا جاءت الشدّة وظهر الاضطهاد ظهر ثابت الايمان منكم اخوانى انكم على يقين أن مولاكم لا تخلو منه الديار فان لم تبصره أعينكم فما ذلك الا لتفاقم خطوبكم وكثرة ذنوبكم فافقهوا * قال بعض الكتاب والمراد من كلمة الدار هنا تجرد الحاكم فى ثلاث من السنين وهى سنة ثمان وأربعمائة وعشر وأربعمائة واحدى عشرة وأربعمائة للهجرة * وعندهم أن ظهور الحاكم بعد تلك الغيبة تسبقه علامات مختلفة منها كشف ستر معلم الاديان الكاذبة منذ الدهور القديمة ومنها تهافت الناس قاطبة على الآثام والفجور والفساد والآراء الكاذبة ومنها ظهور الخادع الذى هو المسيخ الدجال وله مخادع اسمه الحد غشاش فيحارب زمان القيامة بيت الامامة ويقاتل حتى ينكسر وينهزم ويكون لخبر انهزامه ضجة فى أرض الاقباط ويعقبها زلزلة تهدم بنيان الفسطاط وظهور مخادع أخر فى مدينة الفسطاط ومن علامات اليوم الاخير عندهم خراب مدينة حلب بجيوش المسيخ الدجال الذى يخرج منها ويقال يومئذ ان خداع زمان القيامة الحد غشاش قد خرج من حلب فى يوم نحس وقد اجتمع الروم حول رايته فلا بد وأن يلقى تلك المدينة فى ويل وحرب ومن العلامات أيضا خراب جميع مساجد الشام بالزلزال وضعف الايمان ووقوع الموحدين فى شدّة عظيمة للغاية وبلوغ النصرانية أوج الاعالى وغير ذلك مما لايسعنا ايراده هنا

ومن الامور الاساسية فى الدين التوحيدى عندهم معرفة وزراء الحاكم واحدا فواحدا الى قسمين ويجعلون لهم خمس رتب فالوزراء الاولون خمسة الوزير الاول حمزة ويقال له العقل والثانى اسمعيل بن محمد التيمى ويقال له النفس والثالث أبو عبد الله محمد بن الوهاب القريشى ويقال له الكلمة والرابع أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السمورى ويقال له السابق والخامس أبو الحسن علىّ بن أحمد الملقب بهاء الدين ويقال له التابع وأما الوزراء الثانويون فهم أيوب بن علىّ ويقال له الجد ورفاع بن عبدالوارث ويقال له الفتح ومحسن بن علىّ ويقال له الخيال وأما غير هؤلاء فدعاة ونقباء وغير ذلك ۞ وورد فى كتبهم عن الوزراء الخمسة الموحدين العظام ما نصه فريدان خمسة أحرف دليل على خمسة حدود النفسانيين والنورانيين والروحانيين والجرمانيين والجسمانيين وهو ذو معة العقل الكلى

النفسانى

النفسانى وذو معة النفس الروحانى والجناح الربانى والاعين الباب الاعظم وهو السابق والتالى معدن العلوم ومنه ابتناؤها اه وكتب حمزة الى أبى الحسن علىّ بن أحمد الملقب بالمقتنى وبهاء الدين ما صورته الى رابع الحدود النفسانيين وتالى الروحانيين تالى السابق الفضل الشيخ المقتنى بهاء الدين اه

أما أصل هؤلاء الوزراء فهم كما ذكره حمزة فى رسالته المسماة كشف الحقائق حيث قال ما معناه ﷺ واعلم أن البارئ خلق من نوره الشعشانى شخصا كاملا وهو الارادة التى هى سيد جميع الاشياء وسماه العقل فكان كامل النور والقوة جمعت فيه الصفات الخمس الاصلية وضمن فيه كامل ما هو كائن وجعله امام الائمة فى جميع الأزمنة والأجيال وهو السابق الحقيقى لانه سبق الجميع بالاعتراف بوحدة الخالق والعقل كائن يدرك ويقع تحت الحواس فيأكل ويشرب وليس كما قال عنه السابقون لا يدرك وهو أوّل الكائنات التى خلقها تعالى وسماه أيضا علة العلل وهذا العقل تام العمل حكيم فى السكون قادر فى الحركة وهو نقطة البيكار يحكم على الارضيات والسمويات وبه شرف الانسان ومجده فى الزمنيات والروحيات وأوّل ماخلق الله العقل وقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال وعزتى وجلالى ما خلقت أجل منك شيأ بك آخذ وبك أعطى وبك أحاسب وبك أعاقب فلما سمع العقل كلام البارى نظر الى نفسه فرأى أن ليس له مثيل ولا نظير فظن أنه لايكون له منازع ولكن مولانا جل ذكره أخرج من طاعته العصيان ومن نوره الظلام ومن دعته الكبرياء ومن حكمته الجهل وهى صفات أربع رديئة مضادة للصفات الاربع الحسنة وهى العقل وصفاته وهى توقد العقل وقوة النور وراحة التواضع وبرودة الحكمة ورطوبة المادة فكل آلة روحية آلة مضادة تقاوم العقل وتعصيه فأدرك العقل أن ذلك انما هو تجربة من الخالق له تأديبا على ظنه فى نفسه الكمال فاعترف بضعفه واستغفره وسأله بأن يجعل له معينا على الضد المخالف وخليفة ينوب عنه عند المؤالف ليستغنى به عن مخاطبة الضد ومشاكلة الند فأجاب وخلق نفس الوزير ذى مصة من العقل وهو التابع الخاضع له وجعل له نصف ما للعقل فكان كالانثى والعقل كالذكر ولذلك يكون للذكر حظ الانثيين وجميع الوزراء أولاد هذين الكائنين فالذكر هو العقل والانثى النفس والوزير المسمى الكلمة هو تحت السابق والنفس تحت الكلمة والعقل فوق الجميع وهو روح الوزراء وسابق جميع القدماء ونور فى الظلام يعنى بذلك (حمزة) الذى هو العقل قالوا وأما الارواح الضدية التى خرجت من نور العقل وجاءت النفس متوسطة بين نور العقل وكلام الضد لان النفس حاصلة على نور العقل فتسمع كلامه وتنتفع بأوامره ولكنها تشترك فى ظلام الضد الحادث فتعرف حيله ومكره وخداعه وهو ذولين لانه فى الاصل من نور العقل وما هو الا ظلام وظلم بالنسبة اليه ولكنه لين بالنسبة الى خشونة العالم والكلمة أخرجت من العقل لمعاونته ومعاونة النفس على الضد وصدر السابق من النفس وقامت الكلمة عن اليمين

والسابق عن اليسار فأمسى الضد مخاطبا بالعقل والنفس والكلمة والسابق فحاول أن يفلت من تحتهم فسمى بالحائر حيث حار فى نفسه ثم سمى بابليس لانه خرج من العقل دون ارادته لكن ليس له أب لانه جاء على غير ارادة أبيه فهو ضد الاولاد الناموسيين أى الموحدين الذين هم أولاد العقل وهو النور وأمهم الرحمة وهى النفس اه

ولحمزة أسماء كثيرة فى كتبهم وهى لحالته الروحية المجردة عن الشخص الذى ظهر به للناس ومنها * السابق الحقيقى * وذو مصة * والارادة * والعقل الكلى * والعقل * وقائم الزمان * والباب * والامام * والآمر * وعلة العلل * والوزير الثانى يسمى روحيا أيضا بالنفس * والنفس الكلى * والمشيئة * وذو مصة * والتالى * وحجة الامام * وداعى الامام * والوزير الثالث يسمى كذلك الكلمة * والجناح * والجناح الربانى * وداعى القائم * وسفير القدرة * وصاحب السعادة * والكلام * والوزير الرابع يسمى السابق * والصغير * والباب السابق * وباب حجة القائم * والباب الاعظم * والجناح الايمن * ويسمى الوزير الخامس أيضا بالتابع * والتالى * والجناح الايسر * ورابع الحدود * وآخر الحدود * ولهم أسماء غير ماذكر أيضا وينسبون التعاليم الآتية الى حمزة للدلالة على نفسه وهى

سؤال كم مرة ظهر حمزة وماذا كانت أسماؤه

جواب قد ظهر فى جميع الادوار من آدم الى النبى محمد أى سبع مرات (كذا فى الاصل الذى أخذنا عنه)

س ما هى الاسماء التى كانت له

ج كان اسمه فى زمان آدم شطنيل وفى زمان نوح فيثوغوروس وفى أيام ابراهيم داود وفى أيام موسى شعيا وكان المسيح الحقيقى فى أيام يسوع وكان اسمه العازر أيضا وفى أيام الهجرة كان اسمه سلمان الفارسى وفى أيام سعيد كان اسمه صالحا

س من أين عرفنا شرف قائم الحق حمزة بن علىّ علينا سلامه

ج من شهادته بنفسه لنفسه حيث قال فى رسالة التحذير والتنبيه * انا أصل مبدعات المولى وأنا صراطه والعارف بأمره وانا الطور والكتاب المسطور والبيت المعمور وانا صاحب البعث والنشور النافخ فى الصور وانا امام المتقين وأنا صاحب النعم وأنا الناسخ للشرائع ومبطلها وأنا مهلك العالمين وأنا النار الموقدة التى تطلع على الافئدة

س من هو نقطة البيكار

ج حمزة بن علىّ

س ماذا نفهم بالطريق المستقيم

ج حمزة بن عليّ الذى يسمى أيضا قائم الحق وامام الزمان والعقل والسابق والنبى الكريم وعلة العلل

س من هو قائم الزمان

ج هو حمزة بن عليّ

س ما ذا تقول عن الانجيل الذى هو فى أيدى النصارى

ج هو حقيقى وفيه كلام المسيح الحقيقى الذى كان يسمى فى أيام صاحب الهجرة سلمان الفارسى وهو حمزة بن عليّ

س من هو الذى قام من القبر ودخل والابواب مقفلة حيث كان التلاميذ مجتمعين

ج هو المسيح الحى الابدى وهو حمزة عبد مولانا الحاكم

وقد اختفى حمزة هذا بعد اختفاء الحاكم وغيبته عن الناس فلم يعلم له خبر صحيح فقال بهاء الدين الذى هو المقتنى فى غيبة حمزة المذكور ما معناه عند ما غاب المعبود * يعنى الحاكم * امتنع قائم الزمان عن الوجود اه

وكان بعد وظائف الوزراء الخمسة عندهم على أيام الحاكم ثلاث رتب أخرى للذين تعلقوا بخدمة دين التوحيد عندهم ويعرفون بالدعاة والمأذونين والمكاسرين الذين يسمون عندهم أيضا النقباء * قال حمزة ما معناه * يصح للداعى أن يسير للدعوة مأذونا ومكاسرا وقال عن الدعاة * انهم دعاة الاجلال البائنيون بالكشف لدعاة الاعور الدجال المتفاضلون بتصوير الحقائق وهم من أذن لهم بالكسر والجبر وبعدهم النقباء المنزهون عن الكذب الذين يعرفون حقوق وزراء الحق * قالوا ومن أعمال الدعاة أنهم يدعون الناس الى الاعتراف بالوحدانية والمأذونون يخضعون للدعاة وعليهم القيام بتنفيذ أوامرهم ولا يعلم من كتبهم شيأ عن المكسرين وربما كان المقصود من اسمهم انهم يكسرون الاعتقادات القديمة الراسخة فى عقول الناس ويهدونهم الى التمسك بالدين التوحيدى * ومن اعتقاداتهم ان الله قال للدنيا كونى فكانت على الحالة التى عليها الآن ذكورا واناثا وشيوخا وشبابا كهولا وأطفالا آلاف الالف وجعلهم يتوهمون أن لهم آباء وأجدادا وأمهات وجدات فكان كل منهم يتوهم أن أباه فلان بن فلان وزاروا القبور فرأوا العظام وكان يقول هذا هو ذا قبر والدى وذاك هذا قبر أمى وهلم جرا وكان كل انسان عارفا بعمله وصنعته وحرفته فتوهموا أنه منقول عن زيد وعمرو على أن ذلك لم يكن غيروهم وتخيل لجهل قوة البارى * قالوا ثم أخذت الانفس تنتقل من جسد الى جسد بموت الجسد الاوّل ويبقى هذا مدى الدوران * وفيها ان الله سبحانه وتعالى معلم كل حرفة وعمل وعندهم أن أهل التنزيل هم المسلمون وأهل التأويل هم النصارى وقد وضعوا فى سؤالات وجوابات وهى

سؤال ما هو اسم المسلمين

جواب اسمهم التنزيل

س ما هو اسم المسيحيين

ج اسمهم التأويل الذين أوّلوا كلام الانجيل والمسلمون سموا بالتنزيل لانهم يعتقدون أن القرآن أنزل من السماء

س كيف يدين الحاكم أصحاب الاديان الاجنبية عن التوحيد

ج ينقسمون الى أربعة أقسام وهم المسيحيون واليهود والكفرة والموحدون

س كيف تنقسم هذه الاقسام

ج أما النصارى فهم النصيرية والمتأولة وأما اليهود والمسلمون والكفرة فهم الذين تركوا دين مولانا الحاكم

س ما هو قصدنا من مدح الانجيل

ج ان قصدنا انما هو تمجيد اسم الحاكم بأمر الله وهو حمزة نفسه لانه هو الذى علم الانجيل والانجيل مبنى على حكمة الهيئة ومعناه الرمزى يدل على الدين التوحيدى

س ماذا تقول عن الشهداء الذين يعظم المسيحيون بسالتهم و يكثرون عددهم

ج نقول ان حمزة لم ير من الموافق الاعتراف بهم ولذلك رفضهم ولو شهد بهم جميع المؤرخين

س اذا قالوا لنا ان حقيقة دينهم مؤسسة على أدلة وبراهين أقوى من كلام حمزة وأثبت منه فماذا يكون جوابنا وبأى شئ عرفنا جودة حمزة بن علىّ

ج بشهادته لنفسه عند ما قال أنا أوّل خلق المولى

س ما ذا تقول عن الانجيل الذى فى أيدى النصارى

ج هو حقيقى لانه يتضمن كلام المسيح الحقيقى الذى كان اسمه فى أيام محمد سلمان الفارسى وهو حمزة بن على والمسيح غير الحقيقى هو المولود من مريم فانه ابن يوسف

س أين كان المسيح الحقيقى عند ما كان المسيح غير الحقيقى مع التلاميذ

ج كان معهم وكان من تلاميذه وفاه بكلام الانجيل وعلم المسيح بن يوسف وأراه ماذا ينبغى أن يفعل ليكون عمله منطبقا على ناموس الدين المسيحى فكان يصغى اليه ويلتفت ثم انه خالف بعد ذلك المسيح الحقيقى فألقى بغضه فى قلوب اليهود فقاموا عليه حينئذ وصلبوه

س ماذا جرى بعد الصلب

ج دفن فأتى المسيح الحقيقى وأخذه من القبر وخبأه فى البستان ثم أذاع بين الناس أن المسيح قام من بين الاموات

س لماذا فعل ذلك

ج لانشاء الدين المسيحى وليحافظ الناس على التعاليم التى علمهم اياها

س لماذا فعل هذا كله وخدع الغير المؤمنين

ج فعل ذلك ليتمكن الموحدون من الاستتار بالدين المسيحى بحيث لا يعلم أحد بهم
س من هو الذى نهض من القبر ودخل المكان الذى كان التلاميذ فيه والابواب مقفلة
ج هو المسيح الحى الذى لا يموت وهو حمزة عبد مولانا الحاكم
س من الذى أذاع الانجيل
ج متى ومرقس ولوقا ويحنا وهم النساء الاربع
س كيف لم يعرف النصارى الدين التوحيدى
ج لم يشأ الله ذلك وهو الحاكم بأمر الله * والله هنا اسم لحمزة
س كيف يمكن ان الله يستحسن الضرر ويرضى عن عدم الايمان
ج قد جرت عادة مولانا أن يعرف البعض ويعرض عن البعض
س اذا كان الوقوع فى عدم الايمان هو منه فلماذا يجازون عليه
ج يجازون لاظهاره نفسه لهم وهم لا يطيعونه
س كيف يطيعون رجلا قدخدع حيث كانت الاشياء مجهولة عنده كما ورد ابسنا عليهم ومكرنا بهم
ج لا يجب أن يحاسبوا على ذلك ولا يصح أن يطلب الى الحاكم تبيين أسباب تصرفه بعبيده

وكانوا يعتبرون الديانة النصرانيـة ويجلونها فقد عنونوا احدى رسائلهم الموسومة بالمسيحية للمقتنى بهذه العبارة ﴿ الى جميع من تقرب الى اللاهوت بحقيقة القربان وتمسك به من كل أهل الحق من قسيس و بطرك ومطران ﴾ ومن مذهبهم أيضا الاشتراكيـة أى انهم جميعا اخوة بعضهم لبعض ومن المقرر عندهـم ذب القوى منهم عن الضـعيف والذود عنه جهد الاستطاعة وحمل كل فرد منهم لسلاحه ليلا ونهارا للدفاع عند الحاجة فقـد قال حمزة ما معناه أطلب اليكم أن يذب بعضكم عن بعض فانكم جميـعا اخوة فاذا فعلتم ذلك كمل ايمانكم واقضوا حاجات بعضكم الدينيـة والعالمية واقبلوا عـذر بعضكم بعضا وكونوا أعداء من يخدعونكم وزوروا المرضى منكم وأحسنوا الى المساكين * وقال بهاء الدين اياكم وأن يحاكم بعضكم بعضا فان ذلك مجلبة للبوار * ولهم مباد وأصول وشرائط كثيرة لا يسعنا ايرادها هنا اكتفاء بهـذا القدر نقلا عن أصدق الكتاب وأدقهم تتميما للفائدة * وأقام الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله يتصرف فى الملك ويدبر أموره على ما يشاء حتى كان من أمره ما سيذكر فى خلافة القائم بأمر الله

ومات فى خلافة القادر بالله توفانيوس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام أربع سنين وفى رواية أربع سنين وستة أشهر فقدم المتأصلون بعده مينا وهو حادى ستيهم وأصله من مدينة جولا وكان راهبا بدير أبو مقار فأقام احدى عشرة سنة ومات فخلا الكرسى بعده سنة وقيل أقام سبع عشرة سـنة فأقيم بعده أفرام أو هو ابراهام السريانى ابن زرعة وهو ثانى ستيهم

فاقام ثلاث سنين وقيل ثلاث سنين وستة أشهر ومات مسموما من بعض كبار كتاب القبط على ما شاع يومئذ وسببه منعه من التسري فخلا الكرسي بعده ستة أشهر وكان ورعا تقيا كثير البر محبا للفقراء غيورا على الدين جاهد جهادا عظيما فى ابطال التسري وقد كان شائعا قبله قيل وظهرت على يديه عجائب كثيرة وآيات عديدة والله سبحانه وتعالى أعلم بالحقائق وفى أيام ابراهام هذا بنيت عدة كنائس مما هدم بسبب الفتن المتتابعة والاحن المترادفة وكانت أيامه كلها هدوّا وطمأنينة فلما مات أقيم بعده فيلوثاوس وهو ثالث ستينهم وكان راهبا بدير أبو مقار ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

(الفصل السادس والعشرون)

(فى خلافة أبي جعفر عبدالله القائم بامر الله بن القادر بالله)

ثم قام بالامر بعد القادر بالله ولده أبو جعفر عبد الله القائم بامر الله جددت له البيعة وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد سنة احدى وعشرين كما تقدم القول واستقرت الخلافة له وذلك سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة هجرية أي سنة ثلاثين وألف ميلادية قال أصحاب التاريخ وأول من بايع له الشريف أبو القاسم المرتضى وأنشده

فاما مضى جبل وانقضى * فمنك لنا جبل قد رسا
واما فجعنا ببدر التمام * فقد بقيت منه شمس الضحى
لنا حزن فى محل السرور * وكم ضحك فى خلال البكا
فيا صارما أغمدته يد * لنا بعدك الصارم المنتضى

وهى طويلة للغاية وأرسل القائم بأمر الله قاضى القضاة أبا الحسن الماوردي الى الملك أبي كاليجار ليأخذ له البيعة ويخطب له فى بلاده فاجاب الى ذلك وخطب له فى بلاده وأرسل اليه هدايا جليلة وأموالا كثيرة فلم تستقر بالقائم الخلافة حتى قامت الفتنة ببغداد بين السنية والشيعة قال أصحاب التاريخ وكان سبب ذلك ان الملقب ۞ بالمذكور ۞ أظهر العزم على الغزاة واستأذن الخليفة فى ذلك فأذن له وكتب له دستورا من دار الخلافة وأعطى علما فاجتمع له الفيف من الناس فسار واجتاز بباب الشعير وطاف الحراني وبين يديه الرجال بالسلاح فبينما هم على هذا الحال من التطواف اذ تحرك جماعة منهم وصاحوا بذكر أبي بكر وعمر وقالوا هذا يوم معاوى فتبعهم الجميع وصاحوا كذلك فنافرهم أهل الكرخ ورموهم وثارت الفتنة ونهبت دور اليهود لانهم قيل عنهم انهم أعانوا أهل الكرخ فلما كان الغد اجتمع السنيّة من الجانبين ومعهم جمع من الترك وقصدوا الكرخ فأحرقوا وهدموا الاسواق وأشرف

اهل

أهل الكرخ على خطر عظيم للغاية وسئل الخليفة فى ذلك فانكره انكارا شديدا ونسب اليهم تخريق علامته التى مع الغزاة فركب الوزير عند ذلك يريد تلافى الامر قبل استفحاله فوقعت فى صدره آجرة فسقطت عمامته واشتد الحال واتسع الخرق وقتل من أهل الكرخ جماعة وأحرق وخرب فى تلك الفتنة عدة أسواق كبيرة وعمائر واسعة وقتل العامة الكلالكى وهو صاحب العونة وأحرقوه ووقع القتال فى أصقاع البلد من الجانبين واقتتل أهل الكرخ ونهبوا الاسواق وقطع الجسر ليفرق بين الناس وأظهر الجند كراهة الملك جلال الدولة وأرادوا قطع خطبته ففرق فيهم المال وحلف لهم الايمان الغلاظ فسكنوا ثم أعادوا الشكوى الى الخليفة منه وطلبوا أن يأمر بقطع خطبته فلم يجبهم الى ذلك فامتنع حينئذ جلال الدولة من الجلوس للناس وضرب النوبة أوقات الصلوات وانصرف الطبالون لانقطاع الجارى لهم ودامت هذه الحال الى عيد الفطر فلم يضرب بوق ولا طبل ولا أظهرت الزينة وزاد الاختلاط وما دخلت سنة ست وعشرين وأربعمائة حتى انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد وزالت هيبتها أو كادت وعم الخلل وارتفع الامن حتى ان بعض الجند خرجوا الى قرية على مقربة من بغداد فلقيهم جماعة من الاكراد فأخذوا منهم دوابهم فذهبوا الى مراح الخليفة فنهبوا أشياء من ثمرته وقالوا للعاملين فيه أنتم عرفتم حال الاكراد ولم تعلمونا فبلغ الخليفة الحال فعظم عليه جدا ولم يقدر جلال الدولة على أخذ أولئك الاكراد لعجزه وشدة وهنه واجتهد فى تسليم الجند الى نائب الخليفة فلم يمكنه ذلك فتقدم الخليفة الى القضاة بترك القضاء والى الشهود بترك الشهادة والى الفقهاء بترك الفتوى فلما رأى جلال الدولة ذلك سأل أولئك الاجناد ليجيبوه الى أن يحملهم الى ديوان الخليفة ففعلوا فلما وصلوا الى دار الخلافة أطلقوا وعظم أمر طائفة العيارين من الجند فصاروا يأخذون أموال الناس ليلا ونهارا ولا مانع يمنعهم لان الجند لا يحمون الا عن السلطان ونوابه والسلطان عاجز عن قهرهم وانتشر كذلك العرب فى البلاد فعاثوا ونهبوا وقطعوا الطرق وبلغ النهب الى أطراف بغداد وأخذوا ثياب النساء فكانت فتنة شديدة ومحنة كبرى

وكان فى أيام القائم بامر الله أى سنة ثلاثين وأربعمائة قيام دولة السلاطين السلجوقية وانقراض دولة بنى بويه فكانت مدة ملكهم مائة سنة وسبعا وعشرين سنة ذكر ذلك ابن البطريق فى تاريخه فى حوادث سنة ست وأربعين وفى أيامه أيضا أى فى سنة ست وستين وأربعمائة غرق الجانب الشرقى وبعض الغربى من بغداد * قال أصحاب التاريخ وسببه أن دجلة طغى ماؤه وارتفع كثيرا وانفتح القورج عند المسناة المعزية وجاء فى الليل سيل عظيم وطفح الماء من البرية وهبت ريح شديدة جدا وجاء الماء الى البيوت من فوق وفاض من البلاليع والآبار بالجانب الشرقى فهدم البيوت وسقطت على ما بها من الخلق فمات خلق كثير فكثر الصياح من كل صوب وحدب وترك الناس بيوتهم وهم يضجون ويعجون الى الله وقام الخليفة يتضرع ويدعو الله وعليه البردة وبيده القضيب واشتد الكرب بالناس وكبر

خوفهم وتهدم أكثر المقابر بالجانب الشرقي ومعظم الاسوار ودخل الماء من شبابيك البيمارستان العضدى وكانت شدة بالها من شدة * قال بعض الكتاب ومن عجيب ما يحكى فى هذا الغرق أن الناس كانوا قد أنكروا كثرة المغنيات والخور فقطع بعضهم أوتار عود مغنية كانت عند أحد العسكر فثار به ذلك الجندى فضربه فأجمعت عند ذلك العامة وعلت الضوضاء وكان ممن اجتمع مع العامة كثير من الائمة منهم أبو اسحق الشيرازى واستغاثوا الى الخليفة وطلبوا هدم المواخير والحانات وألحوا فى ذلك فوعدهم الخليفة بأنه سيكاتب السلطان فى ذلك فسكتوا وتفرقوا وقد لازم الكثير من الصالحين الدعاء بكشفه فاتفق أن غرقت بغداد ونال الخليفة والجند من ذلك أمر عظيم وعمت مصيبته كافة الناس فرأى الشريف أبو جعفر بن موسى بعض الحجاب الذين كانوا يقولون للناس نحن نكاتب السلطان فى أمر الحانات والمغنيات ونسعى فى تفريق الخلق وينتهرهم ويقول لهم اسكتوا الى أن يرد الجواب فقال له أبو جعفر قد كتبنا يا رجل وكتبتم فجاء جوابنا قبل جوابكم يعنى أنهم شكوا ما حل بهم الى الله تعالى فأجابهم بالغرق قبل ورود جواب السلطان اه ومع ما كان عليه الخليفة القائم من رقة الجانب وحسن السيرة وطيب الاخلاق والميل الى قضاء حوائج الخلق فانه كان مغلوبا على أمره لا كلمة له البتة ولا رأى ولا صوت مع السلجوقيين بعد بنى بويه فكانوا اذا رأوا منه انحرافا عنفوه وهددوه وشددوا فى المراقبة عليه فكانت دار الخلافة كلها عيونا وأرصادا للسلطان وما زال الحال هكذا حتى مات الخليفة سنة سبع وستين وأربعمائة لعشر ليال مضت من شعبان فكانت خلافته أربعا وأربعين سنة وثمانية أشهر وقيل خمسا وأربعين سنة وفى رواية أنه خلع ثم أعيد الى الخلافة ثانية ولكن أصحاب التاريخ لم تذكر شيأ من ذلك * قال صاحب الكامل وسبب موته أنه كان قد أصابه ماشرا فافتصد ونام منفردا فانفجر فصاده وخرج منه دم كثير ولم يشعر واستيقظ وقد ضعف وسقطت قوته فأيقن بالموت فأحضر ولى العهد ووصاه بوصايا وأحضر المنقبين وقاضى القضاة وغيرهم مع الوزير أبى جهير وأشهدهم على نفسه أنه جعل ابن ابنه أبا القاسم عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله ولى عهده فلما مات غسله الشريف أبو جعفر بن أبى موسى الهاشمى وصلى عليه المقتدى بأمر الله وكان عمره ستا وسبعين سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام * وكان القائم مليح الوجه أبيض مشربا بحمرة حسن الجسم ورعا دينا زاهدا عالما قوى اليقين كثير الصبر ميالا للعدل قال محمد بن على بن عامر الوكيل دخلت يوما الى المخزن فلم يبق أحد الا أعطانى قصة فامتلأت أكمامى منها فقلت فى نفسى لو كان الخليفة أخى لأعرض عن هذه كلها فألقيتها فى بركة والقائم ينظر ولا أشعر فلما دخلت اليه أمر الخدم باخراج الرقاع من البركة فأخرجت ووقف عليها ووقع فيها بأغراض

أصحابها ثم قال لى ياعامى ماحملك على هذا فقلت خوف الضجر منها فقال لاتعد الى مثلها فانا ما أعطيناهم من أموالنا شيأ انما نحن وكلاء

ومات فى خلافته أبوالحسن على الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله وكان موته فى سنة سبع وعشرين وأربعمائة وعمره ثلاث وثلاثون سنة وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وسبعة عشر يوما وكان جميل السيرة حسن السياسة منصفا للرعية الا أنه كان مشتغلا بلذاته محبا للدعة والراحة ففوض الأمور الى وزيره أبى القاسم على بن أحمد الجرجانى لمعرفته باخلاصه وكفايته ولما مات ولى ابنه أبوتميم معد ولقب المستنصر بالله ومولده بالقاهرة سنة عشر وأربعمائة فكان من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى خلافة المقتدى بأمر الله

* ومات فى خلافة القائم أيضا فيلوثاوس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام أربعا وعشرين سنة وقامت فى أيام فيلوثاوس طائفة الملكية على المتأصلين أهل البلاد الذين هم قبط مصر فأخذوا منهم كنيسة السيدة المعروفة بكنيسة البطرك كرها وتسلمها ارسانيوس بطرك الملكية قهرا فقامت لذلك الفتنة بين الفريقين واشتد الخلاف وكثر الاخذ والرد وطال الحال على ذلك أياما وكادت الفتنة تبلغ مبلغا عظيما لولا الخطوب المتتابعة والكروب المتراكمة فترك المتأصلون الامر الى حين آخر * ولما مات فيلوثاوس المذكور أقيم بعده زخريس أوهو زخرياس رابع ستيهم وكان قسيسا بمدينة الاسكندرية فوقع له من البلايا والمحن ماسيذكر فى محله

(الفصل السابع والعشرون)

(فى خلافة أبى القاسم المقتدى بامر الله بن محمد بن القائم بامر الله)

ثم قام بالامر بعد القائم بأمر الله ولد ولده أبو القاسم عبد الله المقتدى بأمر الله بويع له بالخلافة يوم موت جده القائم بأمر الله سنة سبع وستين وأربعمائة هجرية أى سنة أربع وسبعين وألف ميلادية وحضر مؤيد الدولة بن نظام الملك والوزير فخر الدولة بن جهير وابن عميد الدولة والشيخ أبو اسحق وأبو نصر بن الصباغ وبقية النقباء وغيرهم من رجال الدولة والاماثل فبايعوه * قال بعض الكتاب وكان أول من بايعه الشريف أبو جعفر بن أبى موسى الهاشمى وذلك أنه كان قد تولى غسل القائم فلما فرغ منه قام وبايع المقتدى وأنشده

* اذا سيد منا خلا قام سيد * ثم ارتج عليه فقال المقتدى * قؤول بما قال الكرام فعول *

ولم يكن للقائم من أعقابه ذكر سوى المقتدى فان الذخيرة أبا العباس محمد بن القائم توفى

أيام أبيـه ولم يكن له غيره فتحقق الناس انقراض نسله وانتقال الخـلافة من البيت القادرى الى غيره وتوقعوا اختـلال الاحوال بعـد القائم لان من عـدا البيت القادرى من العباسيين كانوا يخالطون العامة فى البلـد و يجرون مجرى السوقة فاذا ولى أحدهـم بحكم الضرورة لم يكن له ذلك القبول ولا تلك الهيبـة التى هى لآل البيت القـادرى وكان للذخـيرة أبى العباس ولد القـائم جارية اسمهـا أرجوان وكان يلم بهـا فلما مات ورأت ما نال القـائم من المصيبة بانقراض عقبـه ذكرت أنهـا حامل فتعلقت النفوس بذلك فولدت بعد موت سيدها أبى العباس لسـتة أشهر ذكرا فسموه المقتـدى واشتد فرح القائم وعظم به سروره وبالغ فى الاشفاق عليـه والمحبة له * قال بعض الكتاب فلما كانت حادثة الباسرى (وهى طويلة أضربنا عن ايرادها هنا) كان للمقتـدى المذكور أربع سـنين تقريبا فأخفاه أهله وحمله أبو الغنائم بن المحلبان الى حرّان فلما عاد القائم الى بغـداد بعد قيام الفتنة واختـلاف أمورها بسبب الباسرى المـذكور أعيد المقتدى اليـه فلما بلغ الحلم جعـله ولى عهـده واستقرت بالمقتـدى الخلافة فأقر فخر الدولة بن جهـير على الوزارة بوصية من جده القـائم وسير عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهـير الى السلطان ملكشاه ليأخذ له البيعة وأرسل معه من أنواع الهدايا مايجل عن الوصف

ووردت الاخبار الى المستنصر بالله العـلوى صاحب مصر بموت القائم وولاية المقتـدى ففرح بذلك وظن بلوغ مافى نفسه وكتب الى صـاحب مكة ابن أبى هاشم يسأله أن يعيد له الخطبـة بمكة وكانت قد انقطعت وعادت الى العباسـيين وأرسل له هدية سنية للغاية ورسالة يقول فيها ان أيمانك وعهودك كانت للقائم وللسلطان ألب أرسـلان وقـد ماتا فاخطب لى فخطب له بمكة وقطع خطبة المقتدى فكانت مدة الخطبة العباسية بمكة أخيرا أربع سـنين وخمسة أشهر ثم أعيـدت فى ذى الحجة سـنة ثمان وستين فلم يتم للمستنصر هـذا الامر حتى سار الاقسيس من دمشق الى ديار مصر مع جيش عظيم يريد أخذها من المستنصر وكان قد أخذ دمشق بعد حروب أضربنا عن ايرادها هنا فحاصر مصر بعد وصوله اليها وأطال الحصار وشدد وضيق ولم يبق الا أن يملكها فاجتمع أهلهـا مع ابن الجوهرى الواعظ فى الجامع وبكوا وتضرعوا وابتهلوا الى الله تعالى فاستجاب الله لهم فلما خرجوا لقتال الاقسيس المذكور انهزم من غير قتال وعاد على أقبح صورة بغـير سبب فوصـل الى دمشق وقد تفـرق أصحابه فرأى أهلها قد صانوا مخلفيه وأمواله فشـكرهم ورفع عنهم الخراج تلك السنة وأتى بيت المقـدس فرأى أهله قد قبحوا على أصحابه ومخلفيه وحصروهم فى محراب داود عليه السـلام فلما قارب البلد تحصن أهله منه وسبوه فقاتلهم حتى فتح البلد عنوة ونهب وقتل من خلقها كثيرا جدا حتى أعمـل السيف فيمن التجأ الى المسجـد الاقصى وكف عمن كان عنـد الصخرة وحـدها قال صـاحب الكامل هكـذا يقول الشاميون هـذا الاسم اقسيس والصحيح أن اسمـه أتسز وهو اسم تركى قال وقـد ذكر بعض مؤرخى الشام ان أتسز هـذا لما وصـل الى ديار

مصر جعل أمير الجيوش بدرب العسكر واستمد العرب وغيرهم من أهل البلاد فاجتمع معه خلق كثير واقتتلوا فانهزم أتسز وقتل أخ له وقطعت يد أخ آخر وعاد منهزما الى الشام فى نفر قليل من عسكره فوصل الرملة ثم سار منها الى دمشق * وقال آخرون ولما وصل أتسز الى بلاد مصر ونزل بظاهر القاهرة أساء أصحابه السيرة فى الناس وظلموا وعاثوا وأفسدوا وفعلوا الافاعيل القبيحة فأرسل عظماء القرى جماعة فتقدموا الى المستنصر بالله العلوى يشكون اليه ما نزل بهم فأعاد الجواب بأنه عاجز عن دفع هذا العدو فقالوا نحن نرسل اليك من عندنا الرجال المقاتلة يكونون معك ومن ليس له سلاح تعطيه من عندك سلاحا وعسكر هذا العدو قد أمنوا وتفرقوا فى البلاد فنثور بهم فى ليلة واحدة ونقتلهم وتخرج أنت اليه فيمن اجتمع عندك من الرجال فلا يكون له بك قوة فأجابهم الى ذلك وأرسلوا اليه الرجال وثاروا كلهم فى ليلة واحدة بمن عندهم فأوقعوا بهم وقتلوهم عن آخرهم ولم يسلم منهم الامن كان عنده فى عسكره وخرج اليه العسكر الذى كان عند المستنصر العلوى بالقاهرة فلم يقدر على الثبات قبلهم فولى منهزما وعاد الى الشام مذعورا فتبعه العساكر المصرية وتقدمهم نصر الدولة وما زالوا خلفه وهو يجد فى السير حتى دخل دمشق فلحقوه وحصروا دمشق وضيقوا عليها فأرسل اقسيس الى تاج الدولة تتش يستنصر به فسار الى نصرته فلما سمع المصريون بقربه أجفلوا من بين يديه شبه المنهزمين وخرج صاحب دمشق يلتقيه عند سور البلد وكأنه ندم على الاستنجاد به فاغتاظ تاج الدولة من ذلك حيث لم يبعد فى تلقيه وعاتبه فاعتذر الاقسيس بأمور لم يقبلها تاج الدولة وقبض عليه فى الحال وقتله ودخل دمشق بمن معه من الجنود وملكها وأخذ يتصرف فى أمورها فأحسن السيرة فى أهلها وعدل فيهم وذلك سنة احدى وسبعين وأربعمائة كما رواه ابن الهمذانى وغيره من العراقيين * وأما الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقى صاحب تاريخ دمشق فقد قال ان تاج الدولة تتش المذكور كان تملكه لدمشق فى سنة اثنتين وسبعين ولما كان شهر ربيع الاول سنة ثمان وسبعين وصل أمير الجيوش فى عساكر مصر الى الشام فحصر دمشق وضيق عليها وبها صاحبها تاج الدولة تتش وما زال يقاتلها ليلا ونهارا حتى أعياه أمرها ولم يظفر منها بشئ فرحل عنها عائدا الى مصر واتسعت كلمة تتش فملك حمصا وغيرها من سواحل الشام وأخذ منها ما كان بيد صاحب مصر فسير أمير الجيوش بدرا وزير المستنصر عسكرا عظيما الى تلك الاطراف فقاتلوها قتالا عنيفا حتى رجعت الى الطاعة وقرر أمير الجيوش أمورها وجعل فيها الامراء وولى مدينة صور أميرا اسمه منير الدولة الجيوشى فلم تستقر به الولاية حتى عصى وخرج عن طاعة المستنصر فركب عليه أمير الجيوش فى عسكره وكان أهل صور قد أنكروا على منير الدولة عصيانه على سلطانه فلما وصل أمير الجيوش بالعسكر المصرى الى صور وأحاطوا بالبلد وقاتلوها ثار أهلها ونادوا بشعار المستنصر وأمير الجيوش وسلموا البلد فهجم العسكر المصرى بغير مانع ولا مدافع ونهبوا ما فى البلد من مال ومتاع وأسر منير الدولة ومن معه

من أصحابه وجاءوا الى مصر فقتلوا عن آخرهم

وكانت أمور البلاد فى قلق واضطراب بسبب المجاعة العظيمة التى لم يسمع بمثلها من قديم الزمان * قال أصحاب التاريخ اشتدت المجاعة بمصر فى هذه الايام أعنى فى أيام المستنصر بالله العلوى حتى أكل الناس بعضهم بعضا وكان الكلب يباع بخمسة دنانير والقط بثلاثة دنانير واشتد الغلاء وعظم البلاء على الناس حتى شوهد فى كثير من الاحيان أن مابقى من الكلاب كانت تدخل الدور وتأكل الاطفال وهم فى المهود وآباؤهم وأمهاتهم ينظرون اليهم ولا يقدرون على النهوض لخلاصهم من شدة الجوع وكان الرجل يسرق ابن جاره ويذبحه ويأكله ولا ينكر عليه ذلك قالوا وكان فى مصر حارة بها عشرون دارا كل دار يساوى ثمنها نحو ألف دينار يقال انها بيعت كلها بطبق خبز فسميت من ذلك الوقت بحارة الطبق وخرجت امرأة يوما الى السوق وبيدها عقد من الجوهر فقالت من يأخذ منى هذا العقد ويعطينى عوضه قمحا فلم تجد من يأخذه منها فالتفتت الى العقد وقالت اذا كنت لا تنفعنى وقت الحاجة فلا حاجة لى بك وألقته على الارض وسارت مغضبة * ويقال ان وزير المستنصر ركب بغلة يوما الى دار المستنصر فلما نزل عنها أخذها غلمانه وأكلوها ولم يتركوا منها الا المشامش والجلد وكان الرجل يمشى من جامع ابن طولون الى باب زويلة ولا يرى فى وجهه انسانا الا نادرا ولبث الحال على هذا الوصف أياما كثيرة مات فيها من الناس والبهائم وبقية الحيوانات مالا يكاد يدخل تحت الحصر وارتفع النيل على عادته وعم الاراضى وهبط ولم يوجد من يزرع الارض سنة * وكثرت الفتن فى البلاد وعظمت نارها مابين الاتراك جند السلطنة والسودان أتباع المستنصر وغلمانه الذين عليهم معتمده وقد كانوا كثيرى العدد والعدد ولهم الكلمة النافذة والقول المطاع وكانت والدة المستنصر تجنح اليهم لانها كانت سوداء مثلهم وتحب ظهورهم على جماعة الاتراك واتفق أن المستنصر خرج يوما الى بركة عميرة التى هى بركة الحج على عادته ومعه جماعة من أصحابه وطائفة من السود وأخرى من الاتراك فنزلوا هنالك يتعاطون الخمر فأفرط أحد الاتراك فى شربها حتى سكر وقام وبيده سيفه فأهوى به على أحد السود من أولئك الغلمان فصاح الاسود فى وجه التركى وقام بقية الغلمان عليه فقتلوه بسيوفهم وانقضى ذلك اليوم وعاد المستنصر الى القاهرة فدخل عليه جماعة من كبار الاتراك وقالوا ان كان قتل صاحبنا باغرائك فالسمع والطاعة والا فالسيف يحكم بيننا وبين السود فأنكر المستنصر ذلك وحلف انه لم يأمر بقتل صاحبهم فخرجوا من فورهم لقتال السود فاجتمع الفريقان واقتتلوا فى الازقة والحارات فى القاهرة ومصر قتالا عنيفا حتى جرى الدم فيها ثم افترقوا على أن القاتل يسلم الى جماعة الاتراك وبقيت الاحقاد كامنة فى قلوب الفريقين حتى قدم الاتراك عليهم ناصر الدولة أحد كبار القواد المخلوعين فجمع كلمتهم وأحسن تدبير شؤنهم وجعل يتأهب لقتال السود فرأى جماعة السود أن لا قبل لهم على قتال الاتراك فنزلوا الى الصعيد الاعلى فانضم اليهم كثير من العربان والمصريين فقويت

قلوبهم وكثرت جموعهم وانحدروا الى القاهرة والاسكندرية وقاتلوا الاتراك وأوقعوا بهم فى كوم شريك فكانت الدائرة على السود وقد مات منهم خلق كثير وغرق منهم جماعة فى النيل قال بعض الكتاب فكان من قتل وغرق منهم زهاء ثلاثين ألفا ومات مقدمهم المدعو أبا سعيد وكان من المقربين عند والدة المستنصر فكبر عليها هذا الامر جدا وأحزنها وكثر عبث السود فى القاهرة ومصر وسائر القرى والبلاد وعم الخطب واستفحل أمر الفتنة وطالب الاتراك المستنصر بما لهم من الجوامك والمرتبات وألحوا فى الطلب وركبوا على المستنصر وهددوه فاعتذر لنفاد ما فى يده وطاولهم فلم يقنعوا وكانوا لايتكفون عن مطالبته كل قليل من الزمان فسقط فى يده وخرج يوما هائما على وجهه حتى دخل جامع عمرو بن العاص بفسطاط مصر وأقام به يريد خلع نفسه وترك أشغال الملك لمن يتولاه فلم يفلح وأعاده رجال دولته وألحوا عليه بالبقاء وعاد الاتراك والسود الى الفتنة وخروج بعضهم على بعض فاقتتلوا ثانية عند الجيزة أياما كثيرة كانت الحرب بينهم سجالا ثم دارت الدائرة على السود فأوقع بهم الاتراك ومزقوا شملهم كل ممزق فترفعوا الى الصعيد الاعلى وعاد الاتراك الى القاهرة ومعهم مقدمهم ناصر الدولة وقد صغرت مهابة المستنصر فى أعينهم فطالبوه بالزيادة فى رواتبهم وما زالوا به حتى بلغت أربعمائة ألف دينار نقرة فى كل شهر بعد أن كانت ثمانيا وعشرين ألفا فاشتد خوف المستنصر من ناصر الدولة وأصحابه وكبرت طيرته فكان لايرتاح فى أكله ولا شربه ولا نومه حتى فى صلاته وكذلك كان وزراؤه فخلعوا أنفسهم من منصب الوزارة ومع ذلك كان الاتراك لاينكفون عن مطالبته بالمال فأخرج كل ما كان فى قصره من الذخائر الثمينة والتحف الغالية التى كانت لأجداده وباعها لهم بأبخس الاثمان وقد كانت شيأ كثيرا جدا من الحلى والاحجار الكريمة والاوانى من الذهب والفضة والقماش والرياش والسروج المحلاة بالياقوت والزمرد والمرجان والسيوف الهندية مما لايكاد يدخل تحت الحصر فلما استصفوا مافى قصره أخذوا أيضا ما كان فى قبر أجداده من التحف والنفائس ونهبوا ما كان فى خزانة الكتب من الكتب النفيسة * قال بعض أصحاب التاريخ وعددها عشرون ألف مجلد فاقتسموها بينهم وسيروا الى ابن المحترق حاكم الاسكندرية بشئ كثير منها وكان يزعم أنه يخصه فلما بلغوا بالكتب بلدة أبيار خرج عليهم جماعة من عربان قبيلة لواتة فنهبوها واتخذوا لهم من جلود بعضها أحذية وأحرقوا بعضها وتركوا بعضها ملقى فى بعض الدروب فانهالت عليه الرمال حتى صار تلا عظيما فكان يعرف بتل الكتب وكثر عبث جماعة الاتراك وازداد طغيان ناصر الدولة وعسفه فكتب اليه المستنصر يوما يقول لما تقربت منا وتطلبت حمايتنا حميناك وأوسعناك هبات وخيرات فكافأتنا بالعقوق وما زادك حلمنا الا سحقة فألقيت عصا الشقاق فى جيوشنا وتواطأت مع ذويك على دمارنا فالآن اخرج من عاصمتنا ونحن نضمن لك الامان ونأذن لك بأن تحمل معك من ثروتك ماشئت الى حيث شئت وان لم تذعن الى ذلك فالعقاب ان شاء الله شديد فلم يلتفت اليه ناصر الدولة فكبر الامر

على المستنصر وجمع اليه قواد المغاربة وأمراء كتامة ومن استمالهم من قواد الاتراك وبينهم
الامير دكوز صهر ناصر الدولة وكان نافذ الكلمة واسع الهيبة وكلهم فى أمر ناصر الدولة
وما يأتيه جماعة الاتراك فى كل يوم من الجور والعسف وهدم أركان السلطنة وجدد عليهم
بيعته فبايعوه وحلفوا الايمان فتسلل عند ذلك أصحاب ناصر الدولة وتفرقوا عنه الا
القليل فخرج الى الجيزة ليدبر الحيلة فى ذلك فثار أصحاب المستنصر وانتهبوا بيت ناصر
الدولة وسائر بيوت أصحابه وقتلوا منهم خلقا كثيرا وعم القتل والنهب وخرج المستنصر بالله
راكبا على فرس فى درعه وآلة حربه وأمامه الطبول الحربية وحوله القواد وكبار العسكر
والاعلام تخفق على رأسه ونادى مناديه بالامان والطاعة الى السلطان فتوافد الاتراك زمرا
ومرّوا من تحت العلم الكبير وصاحوا بطلب الامان وجاء جماعة من كبار قواد ناصر الدولة
وفعلوا كذلك وكثرت الغوغاء وارتفعت أصواتهم بالدعاء للسلطان فلما رأى ناصر الدولة
ماحل بأصحابه وأيقن أنه مأخوذ لامحالة فرّ هاربا فى نفر من خواصه الى الاسكندرية وتحصن
بها وجعل يدس الدسائس ويبعث البعوث الى ما جاورها من المدن والبلدان لحمل أهلها على
الخروج عن طاعة المستنصر وخلع بيعته والمبايعة الى الخليفة القائم بأمر الله العباسى
واستمال اليه جماعة من عربان أولاد على وأمدّهم بالمال فطافوا يحرضون الناس على
الخروج فأفلحوا قليلا فانحدر عند ذلك ناصر الدولة الى القاهرة مع من وافقه يريد حصارها
وأخذها من المستنصر وأحرق كل مامر به من المدن والقرى والمزارع وعاث وأفسد حتى
أحاط بسور القاهرة ونصب عليه المنجنيقات وجعل يقاتل من بها أياما ثم تقررت قاعدة
الصلح بينه وبين المستنصر بالله على أن يكون بيد ناصر الدولة ما كان له من قبل بشرط
الطاعة وحسن الولاء للمستنصر فأقام ناصر الدولة حينا لايحرك ساكنا وقد علم بما آلت اليه
حالة المستنصر بالله من الضنك والفاقة وذهاب نعمته حتى لم يبق عنده من حطام الدنيا غير
سجادة قديمة وبعض أثواب بالية لاتستر عورته وثلاثة عبيد فأعظم ناصر الدولة هذا الحال
جدّا ورتب الى المستنصر فى كل يوم مائة دينار ينفقها فى حاجات بيته وكف عن مشاغبته
وما زال ناصر الدولة على حاله من بسطة اليد والتصرف فى سائر الامور حتى دخل عليه
يوما دكوز صهره وهو جالس فى ايوانه مع أخيه فخر العرب فقتلهما واحتز رأسهما وحملهما
الى المستنصر بالله فقويت عند ذلك عزيمة المستنصر بالله وتجددت آماله ونشط الى ارجاع
سلطانه واعلاء كلمته فسير الى بدر الجمالى صاحب الشام يستقدمه الى مصر ليوليه سائر
ماوراء بابه وألح عليه فى ذلك فأجاب طلبه وسار بدر فى جماعة كثيرة من أصحابه ذوى البأس
والنجدة حتى جاؤا عكا وركبوا السفن فلم تكن الا أيام حتى بلغوا مصر ونزلوا مابين تنيس
ودمياط وسير بدر الى الشيخ سلمان عظيم البحيرة يعلمه بحضورهم فخرج اليه فى جمع عظيم
وساروا جميعا نحو القاهرة فلما وصلوا الى قليوب سير بدر الى المستنصر بالله يلزمه بالقبض على
دكوز قبل دخولهم القاهرة فقبض عليه فى الحال وسجنه فى خزانة البنود فدخل بدر القاهرة

يوم الاربعاء سادس عشرى جمادى الاولى سنة سبع وستين وأربعمائة ولم يكن عند مقدّم الاتراك علم بقدمه فما منهم الا من أضافه فلما انقضت ضيافتهم أعدّ لهم وليمة فى داره وبيّت مع أصحابه ان القوم اذا جنهم الليل فلا بدّ أن يحتاجوا الى الخلاء فمن قام منهم الى الخلاء فاقتلوه ووكل بكل واحد واحدا من أصحابه وأقطعه جميع ما تركه المقتول من دار ومتاع واقطاع فعاد القوم اليه وظلوا نهارهم عنده وباتوا ليلتهم تلك فما طلع النهار حتى استولى أصحابه على جميع دور من قتلوا وشاع الخبر بذلك ففرح المستنصر بالله وخلع على بدر بالطيلسان المقوّر وقلده وزارة السيف والقلم فصارت القضاة والدعاة وسائر أرباب الدولة رهن أمره وزيد فى ألقابه لقب أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين وارتفعت كلمة بدر الجمالى واتسعت شهرته فتتبع المفسدين بالقتل والتشريد فلم يبق منهم أحدا وقتل من أماثل البلاد وقضاتهم ووزرائهم جماعة وسار الى الوجه البحرى فى جند وخدم وأتباع فأسرف فى قتل أصحاب الفتنة والخوارج من لواتة على عهد ناصر الدولة واستصفى أموالهم وأخرب دورهم ثم سار الى مدينة الاسكندرية فقتل بها من قتل وشرد من شرد حتى دامت الامور الى المستنصر بالله وعاد الى مصر ظافرا غانما ثم سار الى الصعيد لقتال جهينة والثعالبة وكانوا قد أفسدوا فقتل منهم وسبى وغنم من الاموال مالا يكاد يدخل تحت الحصر فصلح بما غنمه حال ذلك الصعيد بعد فساده * فلما دانت للمستنصر الامور وبعدت كلمته قدم عليه الحسن بن صباح رئيس الطائفة الاسماعيلية فى زى تاجر واجتمع به وخاطبه فى اقامة الدعوة له بأرض العجم بأسرها فأجابه الى ذلك فعاد الحسن ودعا الناس اليه سرا ثم أظهر الدعوة فتبعه خلق عظيم وكثرت لومه فقاتل بهم وملك القلاع والحصون وقال للمستنصر من امامى بعدك فقال له ابنى نزار وكان نزار أكبر أولاد المستنصر والاسماعيلية يقولون بامامة نزار الى هذا الحين ثم كان من أمر الاسماعيلية وظهورهم وقتالهم ما سيتلى عليك فى محله * وتزايدت محبة بدر للرعية ورفقه بحالهم بعد الذى ذاقوه على عهد ناصر الدولة فأباح الارض لمن يزرع بغير مال ثلاث سنوات فترفهت حال الفلاحين واتسعت المزارع وأخصبت الارض وكثرت غلاتها فدرت الارزاق وهبطت الاسعار وشبع الجائع وأكل الفقير وامتلأت مخازن الاغنياء وراجت التجارة فهرع التجار الى مصر والقاهرة وجاؤها من كل صوب وحدب وعم الامن سائر الانحاء وبلغ خراج مصر على يديه ثلاثة آلاف ألف ومائة ألف دينار عينا وأقام البنايات العظيمة وبنى دار الوزارة الكبرى وسماها الدار الافضلية فكانت مقره ومقر كل من يلى امرة الجيوش وبقيت كذلك الى أن انتقل الامر للايوبيين وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مع حشمة ووقار قال علقمة بن عبد الرزاق العليمى قصدت بدرا الجمالى بمصر فرأيت أشراف الناس وكبراءهم وشعراءهم على بابه قد طال مقامهم ولم يصلوا اليه فبينما أنا كذلك اذ خرج بدر يريد الصيد فخرجت فى أثره ثم أقمت الى أن رجع من صيده فلما قاربته وقفت على نشز من الارض

وأومأت برقعة فى يدى وأنشأت أقول

نحن التجار وهـذه أعـلاقنا * درّ وجـود يمينـك المبتاع
قلب وفتشهـا بسمعـك انما * هى جوهـر تختاره الاسماع
كسـدت علينا بالشآم وكلما * قـل النفاق تعطل الصـناع
فأتاك يحملها اليـك تجارها * ومطيهـا الآمال والاطمـاع
حـتى أناخوها ببابك والرجا * مـن دونك السمسار والبياع
فوهبـت مالم يعطه فى دهـره * هـرم ولا كعب ولا القعـقاع
وسبقت هذا الناس فى طلب العلا * فالناس بعـدك كلهـم أتباع
يابدر أقسم لو بك اعتصم الورى * ولجوا اليك جميعهـم ما ضاعوا

وكان على يد بدر بازىّ فألقاه وانفرد عن الجيش وجعل يستعيد الابيات وهو ينشدها الى أن استقر فى مجلسه ثم قال لجماعة غلمانه وخاصته من أحبنى فليخلع على هـذا الشاعر فخرجت من عنـده ومعى سبعون بغـلا تحمل الخلع والتحف وأمر لى بعشرة آلاف درهم فخرجت من عنده وفرقت كثيرا من ذلك على الشعراء اهـ

وطالت أيام بدر وعظمت نعمتـه وما زال يتصرف فى الامور ولا كلمة فوق كلمتـه حتى وافته منيته فى سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية وله من العمر ثمانون سـنة فكانت أيام حكمه زهاء عشرين سنة يقال انه قتل فى خلالها من الخلائق ما لا يكاد يدخـل تحت الحصر ومع ذلك فقد كان محبوبا مطاع الكلمة وافر الحرمة فحزن عليه المستنصر حزنا عظيما وحزن عليه أهـل مصر والقاهرة كافـة وأقام المستنصر مكانه ابنـه الافضـل وولاه سائر ما وراء بابه فانطلقت كلمته واتسعت هيبته وظل يتصرف فى الامور حتى مات المستنصر بالله فى ثامن عشر ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية وله من العمر سبع وستون سنة وخمسة أشهر * ولما مات المستنصر ولى بعده ابنه أبو القاسم أحمـد المستعلى بالله وكان المستنصر قد عهد بالخلافة من بعده الى أكبر أولاده نزار فخلعه الافضل بن بدر الجمالى من ولاية العهـد وبايع المستعلى بالله المـذكور * قال أصحاب التاريخ وكان سبب ذلك أن الافضل ركب مرة أيام المستنصر ودخـل دهليـز القصر من باب الذهب راكبا ونزار خارج والمجاز مظلم فلم يره الافضل فصاح به نزار انزل ياأرمنى كلب عن الفرس ما أقل أدبك فحقدها عليـه فلما مات المستنصر خلعـه خوفا منـه على نفسه وبايع المستعلى فهرب نزار الى الاسكندرية وبهـا ناصر الدولة افتكين فبايعـه أهـل الاسكندرية وسموه المصطفى لدين الله فخطب الناس ولعن الافضل بن الامير بدر الجمالى وأعانه أيضا القـاضى جلال الدولة بن عمار قاضى الاسكندرية فسار اليـه الافضـل فى جيش عظـيم وحصره بالاسكندرية فعاد عنـه مقهورا ثم زاد فى عسكره وسار اليه فحصره وأخذه وأخذ أفتـكين فقتله وتسلم المستعلى أخاه نزارا فبنى عليه حائطا فمات وقتل القـاضى جـلال الدولة بن عمـار ومن أعانه على الخروج

ولما

ولما كان الخامس عشر من المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة مات الخليفة الامام المقتدى بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة بن القائم بأمر الله أمير المؤمنين فجأة وكان قد رفع اليه تقليد السلطان بركيارق ليعلم ما فيه وكان السلطان بركيارق المذكور قد جاء الى بغداد وأرسل الى الخليفة يطلب الخطبة لنفسه فأجيب الى ذلك وخطب له ولقب ركن الدين وحمل الوزير عميد الدولة الخلع الى بركيارق فلبسها وعرض التقليد على الخليفة ليعلم عليه فقرأه وتدبره وعلم ما فيه ثم قدم اليه طعام فأكل وغسل يديه وهو على أكمل حال وأحسن هيئة فى نفسه وجسمه وبين يديه قهرمانته شمس النهار فقال لها ماهؤلاء الاشخاص الذين دخلوا بغير اذن فالتفتت فلم تر أحدا ثم نظرت اليه فرأته قد تغير وجهه واسترخت يداه وانحلت قواه وسقط الى الارض فظنت أنه قد غشى عليه فاذا هو قد مات فأمسكت عن البكاء واستدعت الوزير أبا منصور فبكيا ثم أحضرا أبا العباس أحمد المستظهر بن المقتدى وكان قد عهد اليه أبوه فعزياه وهنآه بالخلافة ثم جهز المقتدى وصلى عليه ابنه المستظهر بالله ودفن وكان عمره ثمانيا وثلاثين سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام وكانت خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر غير يومين وكانت أيامه كثيرة الخير واسعة الرزق وعظمت الخلافة على يديه وكان السلطان بركيارق مصمما على اخراجه قبل موته من بغداد الى البصرة تخلصا منه اذ كانت حرمته وافرة وهيبته عظيمة جدا والقلوب مجمعة على طاعته وكان قوى النفس عظيم الهمة من رجال بنى العباس

(الفصل الثامن والعشرون)

((فى خلافة المستظهر بالله أبى العباس أحمد))

ثم قام بالامر بعد المقتدى بأمر الله ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد بويع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية أى سنة أربع وتسعين وألف ميلادية بايعه الوزير ثم ركب الى السلطان بركيارق وأعلمه الحال وأخذ بيعته للمستظهر بالله فلما كان اليوم الثالث من موت المقتدى جلس المستظهر للعزاء فحضر عز الملك بن نظام الملك وزير بركيارق وأمراء السلطان وجميع أرباب المناصب العالية والقضاة والعلماء فجلسوا فى العزاء وبايعوا وكان للمستظهر بالله لما بويع ست عشرة سنة وشهران ليس الا

ولما استقرت به الخلافة جعل يتصرف فى الامور فلم يكن له من حظها ما كان لأبيه المقتدى بأمر الله لشدة السلطان بركيارق وبسطة يده على جميع الأمور وكراهته لاتساع نفوذ الخلافة وكانت أحوال سلطنة بركيارق مع ذلك فى غاية الضعف والانحلال لتغلب

الفرنجـة على الكثير من بلاده وفتحها عنوة اذ كانوا الى سـنة أربع وثمانين وأربعمائة قد ملكوا من بلاد الاسلام عـدة مدن وتطرفوا الى أطراف افريقية فملكوا منها جزيرة سيسيليا التى كانت فى يد الفاطميين بعـد نزعها من أيدى الغالبـين الذين هـم قـدماء الفرنسيس وذلك أنه لما كثر شغب أهـل هاته الجزيرة وانقسم بعضهـم على بعض واسـتعصى على المعز لدين الله العـلوى اصلاح ماأفسـده عماله أكـثر من العزل والتوليـة فى عمالها وشـدد فى مراقبتهـم وتبعـه فى ذلك من أتى بعـده من ذريتـه فلم يفلحوا أيضا وتفاقـم الخطب وتطاولت أيدى الفرنجـة الى دس الدسائس واغراء من بالجـزيرة من المسيحيـين الى الخروج وشق عصا الطاعـة وكان المسلمون من أهـل الجزيرة أيضا قـد انقسموا الى حزبين مختلفـين وشطرين متخاصمين وكان مقدم أحـد الحزبين رجـلا يقال له ابن تمامة وهو من عظماء القوم وكبارهم فخرج فى أصحابه لقتال الفريق الثانى فانتشبت الحرب بينهما ثم انجلت عن هزيـمة ابن تمامة ومن معه ففر هاربا الى كاتان وكانت الى هذا الحين فى يد الفرنجة فأكرم صاحبها وفادته وأمده بالعدة والرجال وعلم الفريق الثانى بما آلت اليـه حال ابن تمامة فطلبوا المدد من صاحب افريقية فأمدهم فكانت بين الفريقين حرب هائلة وكان ممن خرج مع ابن تمـامة للقتال القمص دوجر فى طائفة عظيمة من الفرنسيس فأبلى هذا القمص فى عسكر افريقية بلاء حسنا وانتصر ابن تمامة وانهزم من كان فى تلك الجزيرة من المسلمين فدخلها دوجر وجعل يتصرف بدهاء وحكمة وما زال بأهلها حتى بايعوه سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة هجرية وخرجت من يد العـلويين كخروج غـيرها من بقيـة المـدن والبلدان ومازال دوجر يدبر أمرها ويتصرف فى ملكها حـتى مات سـنة خمس وتسـعين وأربعمائة هجرية فقام بالامر بعده ابنه ولقب دوجر الثانى فزاد فى عمارتها وبالغ فى تحسين أحوالها حتى زهت وغنيت وكثرت خيراتها وتنعم أهلها براحة العيش بعد العناء والشدة وفى سـنة تسعين وأربعمائة خرج الفرنجة أيضا الى بلاد الشام وساروا فى جيش عظيم للغـاية وقصدوا انطاكيـة وصاحبها يومئـذ آباغبسيان وكان أهل انطاكية من المسلمـين والنصارى فخاف آباغبسيان أن تغدر به النصارى وتخـذله فلما علم بقرب الفرنجة أخرج المسلمـين من أهلها ليس معهم غيرهم وأمرهم بحفر خندق حول البلد ثم أخرج من الغد النصارى لعمل الخندق أيضا ليس فيهم أحد من المسلمين فعملوا فيه الى العصر فلما أرادوا دخول البلد منعهم وقال لهم أنطاكية لكم فلا بد وأن تهبوها لى حتى أنظر ما يكون منا ومن الفرنجـة فقالوا ومن يحفظ أبناءنا ونساءنا قال أنا أخلفكم فيهم فساروا الى عسكر الفرنجة فقبلهم ريشارد ملك الفرنجة وأنزلهم منزلا رحبا وحاصر ريشارد بعسكره البلد تسـعة أشهر وظهر من شجاعـة آباغبسيان وجودة رأيه وحزمه مالم يشاهـد من غيره فلما طال مقام ريشارد على انطاكيـة راسـل الذى كان على برج الوادى من أبراج البلد واسمـه بروزبه وبذل له أموالا واقطاعا فلما تقرر الأمر بينهما أفرج لعساكر ريشارد عن البرج فتقدموا من ناحيته وتسلق جماعة

كثيرة منهم بالحبال ومازالوا يتسلقون حتى زادت عدتهم عن الخمسمائة ثم ضربوا البوق وكان ذلك عند السحر والجند والحراس نيام فاستيقظ آياغبسيان وسأل عن الحال فقيل ان هذا البوق من القلعة ولاشك أنها قد ملكت فدخله الرعب وأمر بباب البلد ففتح وخرج هاربا فى ثلاثين غلاما على وجهه وخرج نائبه أيضا من باب آخر ودخل عسكر ريشارد البلد فنهبوا وقتلوا من فيه من المسلمين وملكوه فلما سمع ملوك الاسلام بما جرى على انطاكية اجتمع منهم قوام الدولة كربوقا ودقاق بن تتش وطغتكين أتابك وجناح الدولة صاحب حمص وأرسلان تاش صاحب سنجار وسلمان بن ارتق وغيرهم من الأمراء وتحالفوا على استخلاص انطاكية من يد ريشارد وساروا فى جموع كثيرة نحو انطاكية فما اقتربوا منها حتى وقع الخلاف بينهم وأساء كربوقا السيرة مع من معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم وانفرد بالكلمة ظنا منه أنهم يقيمون معه على هذا الحال فأضمروا له السوء وعقدوا النية على خذلانه اذا التقوا بجيوش الفرنجة فلما أحاطوا بانطاكية خرجت جيوش الفرنجة لقتالهم وضربوا مصفا عظيما فوقع الخوف فى قلوب المسلمين وانهزموا شر هزيمة ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم وانهزم كربوقا وتبعهم الفرنجة فقتلوا منهم خلقا كثيرا وغنموا ما فى العسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والاسلحة فكان شيأ لايكاد يدخل تحت الحصر * ولما وردت الأخبار الى مصر بهزيمة الترك عن انطاكية وضعفهم وتفرق كلمتهم طمع أبو القاسم المستعلى بالله صاحب مصر فى استخلاص بيت المقدس من تاج الدولة تتش وكان قد أقطعه للأمير سقمان بن ارتق فسير اليه عسكرا ومقدمهم الافضل بن بدر الجمالى أمير الجيوش فحصروه وبه الامير سقمان وايلغازى ابنا أرتق وابن عمهما سونج وابن أخيهما ياقوتى ونصب عليه الأفضل نيفا وأربعين منجنيقا فهدم مواضع من سوره وقاتلهم أهل البلد فدام القتال والحصار نيفا وأربعين يوما وملكوه بالامان وأحسن الأفضل أمير الجيوش المصرية الى سقمان وايلغازى ومن معهما وأجزل لهم العطاء وسيرهم فساروا الى دمشق ثم عبروا الفرات فأقام سقمان ببلد الرها وسار ايلغازى الى العراق واستناب الأفضل فى بيت المقدس رجلا يعرف بافتخار الدولة فبقى فيه ۞ ولما فرغ ريشارد من قتال المسلمين على انطاكية وأخذها سار بعسكره ومن معه من أمراء الفرنجة الى عكا وحاصروها أياما كثيرة فلم يقدروا عليها فساروا عنها الى بيت المقدس وحصروه نيفا وأربعين يوما ونصبوا عليه برجين أحدهما من ناحية صهيون فقوى عليه المسلمون وأحرقوه وقتلوا كل من به فلم يفرغوا من احراقه حتى أتاهم المستغيث بان المدينة قد ملكت من الجانب الآخر ودخل الفرنجة البلد وركب الناس السيف ولبث الفرنجة أسبوعا يقتلون فيه المسلمين واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام فبذل لهم الفرنجة الأمان فسلموا اليهم ووفى لهم الفرنجة وخرجوا ليلا وقتل الفرنجة بالمسجد الاقصى ما يزيد عن سبعين ألفا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم

وزهادهم وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم وأخذوا تنورا من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامى وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا نقرة ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا وغنموا منه مالا يقع عليه الاحصاء رواه صاحب الكامل وكانت شدة عظيمة للغاية على المسلمين وتمكن الفرنجة من البلاد واستثبت أقدامهم ولم يقدر المسلمون على ردهم لتفرق كلمة سلاطينهم واختلاف أهواء أمرائهم فقال أبوالمظفر الابيوردى فى هذا المعنى أبياتا

مزجنا دماء بالدموع السواجم * فلم يبق منا عرضة للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه * اذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فهيا بنى الاسلام ان وراءكم * وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
أتهويمة فى ظل أمن وغبطة * وعيش كنوار الخميلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها * على هفوات أيقظت كل نائم
واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم * ظهور المذاكى أوبطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم * تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قدأبيحت ومن دمى * توارى حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبا * وسمر العوالى داميات اللهازم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة * تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها * ليسلم يقرع بعدها سن نادم
سللن بأيدى المشركين قواضبا * ستغمد منهم فى الطلى والجماجم
يكاد لهن المستجن بطيبة * ينادى بأعلى الصوت يا آل هاشم
أرى أمتى لايشرعون الى العدا * رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى * ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الاعاريب بالاذى * ويغضى على ذل كماة الاعاجم

ومنها

فليتهم اذ لم يذودوا حمية * عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وان زهدوا فى الاجر اذحمس الوغا * فهلا أتوه رغبة فى الغنائم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى * فلا عطسوا الا باجدع راغم
دعوناكم والحرب ترنو ملحة * الينا بالحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية * تطيل عليها الروم عض الاباهم
فان أنتم لم تغضبوا بعد هذه * رمينا الى أعدائنا بالجرائم

فاستعظم المستعلى صاحب مصر ماتم على أهل القدس واغتم له ورسم الى الافضل أمير الجيوش بقتال الفرنجة واستخلاص بيت المقدس منهم فحشد الافضل جيشا عظيما وسار الى

عسقلان

عسقلان وأرسل الى الفرنجة ينكر عليهم مافعلوا ويتهددهم بالقتال فأعادوا الرسول بالجواب ورحلوا على أثره بخيلهم ورجلهـم وطلعوا على المصريين عقب وصول الرسول ولم يكن عند المصريين خـبر بوصولهم ولا من حركتهـم ولم يكونوا على أهبة القتال فلما أحسوا بهم نادوا فى الجنـد بالخروج وكثر النداء بركوب الخيل فأعجلهم الفرنجة فهزموهم وقتلوا منهم خلقا وغنموا مافى المعسكر من مال وسلاح وغير ذلك وانهزم الافضل ودخل عسقلان وهرب الكثير من جنده فاختفوا فى شجر جميز كان هناك كثيرا فأحرق الفرنجة بعض الشجر فمات من كانوا فيه وأعملوا السيف فيمن خرج منهم ثم عاد الافضل فى نفر قليل من خواصه وأتباعه الى مصر ونازل الفرنجة عسـقلان وضايقوها فبـذل لهم أهلها قطيعـة اثنى عشر ألف دينار وقيل عشرين ألف دينار فعادوا الى بيت المقدس ظافـرين غانمـين وعظم أمرهـم فملكوا أكثر سواحل الشام وغيرها مما لاعلاقة له بنا هنا * وانكف المستعلى عن قتالهم بعد هزيمة الافضل أمير جيوشه عند عسقلان واهلاكهم لعسكره وكذلك تشاغل عنهم السلطان بركيارق بقتال أخيه السلطان محمد وغيره من الامراء الذين خرجوا عن طاعته ومزقوا سلطنته لاسيما طائفة الباطنية الذين هم الاسماعيلية أصحاب الحسن بن الصباح الذى تقدم ذكر خـبر حضوره الى المستنصر صاحب مصر ومخاطبته اياه فى اقامة الدعوة له بأرض العجم بأسرها وجعلهم نزار ولده امامهم بعـد المستنصر المذكور فقد كان عظم شرهم وكبر أمرهم وخافهم الامراء والعظماء والقواد والجنود وتبعوا طريقتهم صاغرين وانبثت تعاليمهم فى أكثر المدن فظفروا بها وأقاموا القلاع والحصون وجندوا الاجناد وكادت تعم دعوتهم المشرق بأسره * وحيث قد وعدنا بأن نأتى على ذكر حال هذه الشيعة مفصلا فى محله * وهذا محله الآن * فها نحن نتلو عليك ماقاله أصحاب التاريخ وأجمعوا عليه من أحوال هؤلاء الشيعة التى كانت تسمى قبلا بالقرامطة قالوا كان ابتداء ظهور دعوتهم الاخيرة التى اشتهرت بالباطنية والاسماعيلية فى أيام السلطان ملك شاه وكان أول ماانكشف من أمرهم أنه اجتمع منهم ثمانية عشر رجلا فصلوا صـلاة العيد فى ساوة على طريقتهم الشيعية ففطن بهـم أصحاب الشحنة وانكشف لهم بعض ماخفى من أمرهم فقبض عليهم واعتقلوا أياما ثم أفرج عنهم بشفاعة بعض الوجوه والاعيان فكان ذلك أول اجتماع لهم ظاهر للناس ولما أطلقوا من الحبس أقاموا بساوة يدعون الناس ويكاشفون بعضهم ثم ساروا الى أصبهان يدعون أيضا فكان ممن دعوهم مؤذن من أهل ساوة كان مقيما بأصبهان فلم يجبهم الى دعوتهم فخافوا أن ينم عليهم فقتلوه فكان أول قتيل لهم وأول دم أراقوه فبلغ خبر قتـله نظام الملك فأمر بأخـذ من يتهم بقتـله فوقعت التهمة على نجار اسمه طاهر فقتل ومثـل به وجروا برجـله فى الاسواق فكان أول قتيـل منهـم وكان والد طاهر هـذا واعظا أتى بغداد مع السلطان بركيارق سـنة ست وثمانين وأربعمائة هجرية فحظى منـه ثم قصد البصرة فولى القضاء بها ثم توجه فى رسالة الى كرمان فقتله العامة فى الفتنة التى جرت وقالوا انه باطنى وتقوى الباطنية واشـتد أزرهم بمن انضم الى شـيعتهم من العظماء والقوّاد

وظهور دعوتهم فتمكنوا من قتل نظام الملك فكان لفعلهم هذا أثر مهم للغاية وكان أول فتكة مشهورة لهم ولذلك كانوا يقولون قتل نظام الملك منا نجارا فقتلناه به ثم نزلوا ببلد عند قاين وبها مقدمهم فاجتمعوا عنده فتقووا به فاجتازت بهم قافلة عظيمة من كرمان الى قاين فخرج عليهم المقدم المذكور ومعه أصحابه ومن اجتمع اليه من الباطنية فقتل أهل القفل جميعهم ولم ينج منهم الا رجل تركمانى فوصل الى قاين فاخبر بالقصة فتسارع أهلها مع القاضى الكرمانى يريدون قتالهم فلم يفلحوا ورجعوا عنهم وفشا مذهبهم بين جند السلطان بركيارق وتقوى به كثير منهم وزاد أمرهم فصاروا يتهددون من لا يوافقهم بالقتل فصار يخافهم من يخالفهم حتى انه لم يتجاسر أحد لا أمير ولا مقدم على الخروج من منزله الا حاسرا فيلبس تحت ثيابه درعا حتى ان الوزير الاغر أبا المحاسن كان يلبس زردية تحت ثيابه واستأذن السلطان بركيارق خواصه فى الدخول عليه بسلاحهم وعرفوه خوفهم ممن يقاتلهم فأذن لهم فى ذلك وأشاروا على السلطان أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافى أمرهم

ولما مات السلطان ملكشاه وقد تمكنوا من قتل نظام الملك عظم أمرهم واشتدت شوكتهم وقويت أطماعهم واجتمعوا فى أصبهان بعد أن كانوا متفرقين واتخذوا أصبهان مقرا وعظم شرهم فصاروا يسرقون من قدروا عليه من مخالفيهم ويقتلونهم وقد فعلوا ذلك بخلق كثير وزاد الامر وكثر خوف الناس فكان الرجل اذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد تيقن أهله قتله وقعدوا للعزاء فتحذر الناس وصار لاينفرد أحد خوفا من فتك الباطنية ودعا أحدهم جارا له الى مذهبهم فلم يقبل فأخذه وأخفاه فقام أهله للنياحة عليه فأصعده جماعة من الباطنية الى سطح داره من غير أن يشعر به أحد وأروه أهله كيف يلطمون ويبكون عليه فنظر اليهم وهو لايقدر أن يتكلم خوفا منهم واشتد الحال بالناس فى أصبهان وهاجر الكثير من أهلها فرارا من فعال هؤلاء الطغاة واتفق أن رجلا بأصبهان دخل فى دار صديق له فرأى فيها ثيابا ومداسات وملابس لم يعهدها فداخلته الظنون وخرج من عنده وأخبر الناس بما رآه فكشف الناس عنها فعلموا أن صاحب الدار من الباطنية وأن الملابس هى من ملابس الناس الذين قتلهم الباطنية فثاروا جميعا يبحثون عمن قتل ويستكشفون فظهروا على الدروب التى تسكن فيها تلك الطائفة وعلموا انهم كانوا اذا اجتاز بهم انسان أخذوه الى دار منها وقتلوه وألقوه فى بئر فى الدار قد صنعت لذلك وكان على باب درب من دروبهم رجل أعمى فاذا اجتاز به انسان يسأله أن يقوده خطوات الى باب الدرب فيفعل ذلك فاذا دخل الدرب قبض عليه وسلمه الى جماعة منهم فيقتلونه فلما انكشف أمرهم وعلم الناس بما هم عليه قاموا قومة رجل واحد وتجرد للانتقام منهم أبو القاسم مسعود بن محمد الخجندى الفقيه الشافعى وانضم اليه لفيف الاهالى بالاسلحة وأمر بحفر أخاديد وأوقد فيها النيران وجعل العامة يقبضون على الباطنية جماعات وفرادى فيلقونهم

فى

فى النار وأوقفوا جماعة يشعلون النيران وسموا أحدهم مالكا فقتلوا منهم خلقا كثيرا وتفرق من بقى واختفى وكذلك ثار بهم جاولى سقاو وصاحب البلاد التى بين رامهرمز وأرجان وذلك لانهم لما ملكوا القلاع والحصون بخوزستان وفارس وغيرهما وكثر شرهم وقطعوا الطريق بتلك البلاد وقتلوا وسبوا وفعلوا ما لاخير فيه اتفق جاولى المذكور مع جماعة من صناديد أصحابه على أن يظهروا الشغب عليه ويخرجوا عن طاعته ويفارقوه ويقصدوا الباطنية ففعلوا وأظهروا أنهم معهم وعلى مذهبهم فأقاموا عندهم حتى وثقوا بهم ثم أظهر جاولى أن الامراء من بنى برسق يريدون قصده وأخذ بلاده وأنه عازم على مفارقتها لعجزه عن ردهم وأنه يريد همذان فلما شاع هذا الخبر وسار قال من عند الباطنية من أصحابه لهم الرأى اننا نخرج الى طريقه ونأخذه وما معه من الاموال فساروا اليه فى ثلثمائة من أعيانهم وصناديدهم فلما التقوا ثار من معهم من أصحاب جاولى عليهم و وضعوا السيف فيهم فلم يفلت منهم سوى ثلاثة نفر صعدوا الى الجبل وهربوا وغنم جاولى مامعهم من دواب وسلاح وغير ذلك وركب عليهم أيضا السلطان بركيارق وقتل منهم خلقا كثيرا للغاية فكادت تضعف شوكتهم وتزول هيبتهم وانكفوا عن أفاعيلهم فقل أذاهم واطمأنت قلوب الناس واستراحت واختفى كبارهم وتتبعهم بركيارق فكان لايظفر بأحد منهم الا قتله وشهره

وأقام المستعلى يدبر الامور بمصر الى أن مات سنة خمس وتسعين وأربعمائة لسبع عشرة خلت من شهر صفر فكانت سلطنته سبع سنين وقريبا من شهرين فولى بعده ابنه أبو على المنصور بويع له فى اليوم الذى مات فيه أبوه وله خمس سنين وشهر وأربعة أيام ولقب الآمر بأحكام الله ولم يكن ممن ولى قط أصغر منه ومن المستنصر فقام بتدبير دولته الافضل بن أمير الجيوش أحسن قيام وأخلص فى خدمته غاية الاخلاص ۞ قال ابن يسر فى تاريخه لما توفى المستعلى أحضر الافضل أبا على وبايعه بالخلافة ونصبه مكان أبيه ولقبه بالآمر بأحكام الله وكان له من العمر خمس سنين وشهر وأيام فكتب ابن الصيرفى الكاتب السجل بانتقال المستعلى وولاية الآمر وقرئ على رؤس كافة الاجناد والامراء وأوله من عبد الله ووليه أبى على الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين بن الامام المستعلى بالله الى كافة أولياء الدولة وأمرائها وقوادها وأجنادها ورعاياها شريفهم ومشروفهم وأميرهم ومامورهم مغربيهم ومشرقيهم أحمرهم وأسودهم كبيرهم وصغيرهم بارك الله فيهم * سلام عليكم فان أمير المؤمنين يحمد اليكم الله الذى لااله الا هو ويسأل أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين وسلم تسليما ۞ أما بعد ۞ فالحمد لله المنفرد بالثبات والدوام الباقى على تصرم الليالى والايام القاضى على أعمار خلقه بالتقضى والانصرام الجاعل نقض الامور معقودا بكمال الاتمام جاعل الموت حكما يستوى فيه جميع الانام ومنهلا لايعصم من ورده كرامة نبى ولا امام والقائل معزيا لنبيه ولكافة أمته كل من عليها فان و يبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام الذى استدعى الأئمة لهذه الامة ولم

تخل الارض من أنوارهم لطفا بعباده ونعمه وجعلهم مصابيح الشبه اذا غدت داجية مدلهمه
لتضيء للمؤمنين سبل الهداية ولايكون أمرهم عليهم غمه يحمده أمير المؤمنين حمد شاكر
على مانقله فيه من درج الامامه ونقله اليه من ميراث الخلافه صابرا على الرزية التى
أطار هجوعها الالباب والفجيعة التى أطال طروقها الاسف والاكتآب ويسأله أن يصلى
على جدّه محمد خاتم أنبيائه وسيد رسله وأمنائه ومجلى غياهب الكفر ومكشف عمائه الذى
قام بما استودعه الله من أمانته وحمله على أعباء رسالته ولم يزل هاديا الى الايمان داعيا
الى الرحمن حتى أذعن المعاندون وأقر الجاحدون وجاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون
فحينئذ أنزل الله عليه اتماما لحكمته التى لايعترضها المعترضون ثم انكم بعد ذلك لميتون
ثم انكم يوم القيامة تبعثون صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه وأبناء أمير المؤمنين علىّ بن
أبي طالب الذى أكرمه الله بالمنزلة العلية وانتخبه للامامة رأفة بالبرية وخصه بغوامض
علم التنزيل وجعل له مبرة التعظيم مزية وقطع بسيفه دابر من زل عن القصد وضل عن
سواء السبيل وعلى الأئمة من ذريتهما العترة الهادية من سلالتهما آبائنا الابرار المصطفين
الأخيار ما تصرفت الاقدار وتوالى الليل والنهار وأن الامام المستعلى بالله أمير المؤمنين
قدس الله روحه كان ممن أكرمه الله بالاصطفاء وخصه بشرف الاجتباء ومكن له فى بلاده
فامتدت أفياء عدله واستخلفه فى أرضه كما استخلف أباه من قبله وأيده بما استرعاه أباه
بهدايته وارشاده وأمدّه بما استحفظه عليه من مواد توفيقه واسعاده ذلك هدى الله يهدى
به من يشاء من عباده فلم يزل لاعلام الدين رافعا ولشبه المضلين دافعا ولراية العدل
ناشرا وللدين عامرا وللعدو قاهرا الى أن استوفى المدة المحسوبة وبلغ الغاية الموهوبة
فلو كانت الفضائل تزيد فى الاعمار أو تحمى من ضروب الاقدار أو تؤخر ما سبق تقدمه
فى علم الواحد القهار لحمى نفسه النفيسة كريم مجدها وشريف محتدها وكفاها خطير
منصبها وعظيم هيبتها ووقتها أفعالها التى تستقى من منبع الرساله وصانتها خلالها التى
ترتقى الى مطلع الجلاله لكن الاعمار محررة مقسومه والآجال مقدرة معلومه والله تعالى
يقول وبقوله يهتدى المهتدون ولكل أمة أجل فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا
يستقدمون فأمير المؤمنين يحتسب عند الله هذه الرزية التى عظم أمرها وفدح وجرح
خطبها وقرح وغدت له القلوب واجفه والآمال كاسفه ومضاجع السكون منفضه
ومدامع العيون مرفضه فانا لله وإنا اليه راجعون صبرا على بلائه وتسليما لامره وقضائه
واقتداء بمن أثنى عليه فى الكتاب انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أوّاب وقد كان الامام
المستعلى بالله قدّس الله روحه عند نقلته جعل لى عهد الخلافة من بعده وأودعنى ماحازه
من أبيه عن جده وعهد الىّ أن أخلفه فى العالم وأجرى الكافة فى العدل والاحسان
على منهجه القائم وأطلعنى من العلوم على السر المكنون وأفضى الىّ من الحكمة بالغامض
المصون وأوصانى بالعطف على البرية والعمل فيهم بسيرته المرضية على علمى بما جبلنى الله

عليه

عليه من الفضل وخصنى به من آثار العدل وانى فيما استرعيته سالك على منهاجه عامل بموجب الشرف الذى عصب الله فى تاجه وكان مما ألقاه الىّ وأوجبه علىّ أن أعلى محل السيد الاجل الافضل من قلبه الكريم وما يجب اليه من التبجيل والتكريم وان الامام المستنصر بالله كان عند ما عهد اليه ونص بالخلافة عليه أوصاه أن يتخذ هذا السيد الاجل خليفة وخليلا ويجعله للامامة زعيما وكفيلا ويحفظ به أمر النظر والتقرير ويفوّض اليه تدبير ما وراء السرير وانه عمل بهذه الوصية حذوا على تلك الامانة النبوية وأسند اليه أحوال العساكر والرعية وناط أمر الكافة بعزمته الماضية وهمته العلية فكان قلمه بالسداد يرجف ولا يجف وسيفه من دماء ذوى العناد يكف ولا يكف ورأيه فى حسم مواد الفساد يرسخ ولا يخف فأوصانى أن أجعله لى كما كان له صفيا وظهيرا وأن لا أستر عنه فى الامور لاصغيرا ولا كبيرا وأن أقتدى به فى ردّ الاحوال الى تكاليفه واسناد الاسباب الى تدبيره والينا حوط نازل الخطب ومنتقله الى غير ذلك مما استودعنى اياه وألقاه الىّ من النص الذى يتضوّع نشره ورياه نعمة من الله قضت لى بالسعد العميم ومنذ شهرت بالفضل المتين والحظ الجسيم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم فنعزوا معاشر الاولياء والامراء والقواد والاجناد والرعايا والخدام حاضركم وغائبكم ودانيكم وقاصيكم عن الامام المنقول الى جنات الخلود واستبشروا بامامكم هذا الامام الحاضر وابتهجوا بكريم نظره المطلع لكم كواكب السعود ولكم من أمير المؤمنين أن لا يغمض جفنا عن مصابكم وأن يتوخى ما عاد بمیامنكم ومناجحكم وأن يحسن السيرة فيكم ويدفع أذى من يعاديكم ويتفقد مصلحة حاضركم وباديكم ولامير المؤمنين عليكم أن تعتقدوا موالاته بخالص الطويه وتجمعوا له فى الطاعة بين العمل والنيه وتدخلوا فى البيعة بصدور منشرحه وآمال منفسحه وضمائر نقية وبصائر فى الولاء قوية وأن تتقدموا بشروط بيعته وتنهوا بفروض نعمته وتبذلوا الطارف والتالد فى حقوق خدمته وتتقربوا الى الله سبحانه وتعالى بالمناصحة لدولته وأمير المؤمنين يسأل أن تكون خلافته كافلة بالاقبال ضامنة ببلوغ الآمال وأن يجعل دعتها دائمة بالخيرات وقسمتها نامية على الاوقات ان شاء الله تعالى اهـ

ولم تكد تستقر الولاية بالآمر بأحكام الله حتى كثر عبث الفرنجة بالاملاك المصرية وتطاولت أيديهم الى ايذاء المسلمين فأنفذ الافضل أمير الجيوش بمصر سعد الدولة الطواشى مملوك أبيه الى الشام فى جيش عظيم لحرب الفرنجة وردعهم فلقيهم بين الرملة ويافا فتصافوا واقتتلوا قتالا عنيفا وطال القتال ثم حمل الفرنجة حملة صادقة على المسلمين فانهزموا شر هزيمة ومات سعد الدولة تحت سنابك الخيل * قال بعض الكتاب وكان المنجمون يقولون لسعد الدولة انك تموت تحت سنابك الخيل فكان يتحرّز من ركوب الخيل حتى ولى بيروت وأرضها مفروشة بالبلاط فقلعه خوفا أن تزلق فرسه فيسقط فلم ينفعه الحذر عند

نزول القدر وملك الفرنجة خيمه وجميع ما للمسلمين وشردوا من بقى منهم فلما رجع المستنفرون الى مصر غضب الافضل وسير ابنه شرف المعالى فى جمع كثير فالتقوا هم والفرنجة بيازور بقرب الرملة فانهزم الفرنجة وتفرقوا وسار شرف المعالى بن الافضل من المعركة ونزل على قصر بالرملة وبه جماعة من كبار الفرنجة فقاتلهم خمسة عشر يوما حتى أخذهم أسرى وحمل منهم جماعة الى مصر ثم اختلف أصحاب شرف المعالى وتفرقت أهواؤهم فنهم من أراد المسير الى بيت المقدس لاستخلاصه من الفرنجة ومنهم من أراد المسير الى يافا وأخذها وبقوا على هذا الخلاف أياما فبينما هم كذلك اذ وصل الى الفرنجة المدد فاجتمعوا وساروا الى عسقلان وبها شرف المعالى فقاتلوه ومن معه فلم يصبر على قتالهم فقفل منها راجعا الى مصر بمن بقى من أصحابه فأحزن ذلك ابن الافضل وسير رجلا يقال له تاج العجم فى البر وهو من كبار مماليك أبيه وجهز معه أربعة آلاف فارس وسير فى البحر رجلا يقال له القاضى ابن قادوس فى عمارة حربية الى يافا ونزل تاج العجم على عسقلان فاستدعاه ابن قادوس اليه ليتفقا على كيفية القتال فلم يجبه الى ذلك ولا أرسل اليه أحدا فراجعه فلم يقبل فأشهد عليه ابن قادوس قاضى عسقلان وشهودها وأعيانها وسير الخبر بما وقع الى ابن الافضل أمير الجيوش فأرسل ابن الافضل من قبض على تاج العجم وأرسل رجلا يلقب بجمال الملك فأسكنه عسقلان وجعله مقدم العسكر فلم يقدر على استخلاص ما بأيدى الفرنجة من السواحل والمدن الشامية فقد كانوا استولوا الى هذا الحين على فلسطين ويافا وارسوف وقيسارية وحيفا وطبرية ولاذقية وانطاكية ما عدا بيت المقدس ولهم بالجزيرة الرها وسروج والرقة وقلعة جعبر وجبيل وعسقان من الشام وبيروت وطرابلس وبانياس وصيدا وكان السلطان بركيارق كلما سمع بفوز الفرنجة وأخذهم لبلاد المسلمين زادت همومه وعظم حزنه وجد فى حشد الجنود والاكثار من معدات القتال فاذا همّ بالخروج لحربهم عاقته العوائق وحالت دون عزمه الموانع وما زال حتى مرض وهو بأصبهان ونقل به مرضه فسار منها فى محفة طالبا بغداد فلما وصل الى بروجرد ضعف عن الحركة فأقام بها أربعين يوما فاشتد مرضه وأيس من نفسه فخلع الأمر على ولده ملكشاه وعمره يومئذ أربع سنين وثمانية أشهر وأحضر جماعة الامراء وكبار قواده وأعلمهم بما فعله وأخذ عليهم العهد بالطاعة لولده ومساعدته على حفظ السلطنة فحلفوا وتعهدوا فأمرهم بالمسير الى بغداد فساروا فلما كانوا على اثنى عشر فرسخا من بروجرد وصلهم خبر موته وكان بركيارق قد تخلف على عزم العود الى أصبهان فعاجلته منيته فرجع جماعة منهم وحملوا تابوته الى أصبهان ودفن بها * ووصل السلطان ملكشاه بن بركيارق الى بغداد فخرج وزير الخليفة وأصحاب الوظائف للقائه وكان وصوله فى خمسة آلاف فارس فخطبوا له ولقبوه بألقاب جده ملكشاه ولم تستقر به السلطنة حتى علم السلطان محمد أخو بركيارق بخبر موت بركيارق فسار فى جيش عظيم يريد بغداد وحمل الناس بها على البيعة له فلما وردت الاخبار بذلك الى الامير

اياز وزير ملكشاه الوصى عليه من قبل أبيه بركيارق خاف كثيرا وجمع اليه كبار الجند وقواد بركيارق وأعلمهم بخبر مجىء السلطان محمد ورغبته فى أخذ الملك من ابن أخيه ملكشاه واستحلفهم على الطاعة لملكشاه فحلفوا فلما وصل السلطان محمد فى عسكره ونزل بالجانب الغربى من بغداد نقض بعض القواد العهد وأظهروا الميل الى السلطان محمد فخاف الوزير اياز وأسرع الى تقرير الصلح مع السلطان محمد وتسليم السلطنة اليه وترك منازعته فيها فعبر الى عسكر السلطان محمد واجتمع به وسلم اليه مقاليد السلطنة فأمنه هو وجميع الامراء والقواد وضم اليه ولد أخيه ملكشاه ودخل السلطان محمد الى بغداد فى موكب حافل ولبث بها أياما حتى رتب أمورها وأحكم نظامها وسار عنها الى أصبهان وجعل يتصرف فى الامور ويقاتل الفرنجة على ما أخذوه من بلاد المسلمين حتى وافته منيته فى الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة احدى عشرة وخمسمائة * وكان لما اشتد به مرضه أحضر ولده محمودا وقبله وبكى كل واحد منهما وأمره بالخروج والجلوس على تخت السلطنة وأن ينظر فى أمور الناس وعمره اذ ذاك قد زاد على أربع عشرة سنة فقال ياأبت انه يوم غير مبارك يعنى من طريق النجوم فقال له صدقت يابنى ولكن على أبيك وأما عليك فمبارك بالسلطنة فخرج وجلس على التخت بالتاج والسوارين فلم يمض على السلطان محمد اليوم الثانى من جلوس ابنه حتى مات فجمعوا الامراء وقرئت عليهم وصيته الى ولده محمود يأمره فيها بالعدل والاحسان وكان السلطان محمد عادلا حسن السيرة شجاعا أطلق المكوس والضرائب فى جميع البلاد فأحبه الناس كثيرا واجتمعوا على طاعته اثنتى عشرة سنة

ولما تمت البيعة للسلطان محمود ودبر دولته الوزير الرئيس أبو منصور أرسل الى الخليفة المستظهر بالله يطلب أن يخطب له ببغداد فخطب له فى يوم الجمعة ثالث عشر المحرم سنة اثنتى عشرة وخمسمائة فلم يتم على الخليفة المستظهر بالله بعد الخطبة للسلطان محمود ببغداد الا ثلاثة أشهر وبضع أيام حتى مات بعلة التراقى وكان عمره احدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما ومضى فى خلافته ثلاثة سلاطين خطب لهم بالحضرة وهم تاج الدولة تتش بن ألب ارسلان والسلطان بركيارق ومحمد ابنا ملكشاه * قال بعض الكتاب ومن غريب الاتفاق أنه لما توفى السلطان ألب ارسلان توفى بعده القائم بأمر الله ولما توفى السلطان ملكشاه توفى بعده المقتدى بأمر الله ولما توفى السلطان محمد توفى بعده المستظهر بالله وكان الخليفة المستظهر بالله لين الجانب كريم الاخلاق محبا للخير وأهله كثير البر والاحسان لايرد مكرمة تطلب منه وكانت أيامه أيام سرور للرعية فكأنها من حسنها أعياد وكان حسن الخط جيد التوقيعات جيد الشعر فمن شعره

أذاب حر الهوى فى القلب ما جمدا * لما مددت الى رسم الوداع يدا

وكيف أسلك نهج الاصطبار وقد * أرى طرائق فى مهوى الهوى قددا

قد أخلف الوعد لما أن شغفت به * من بعد ما قد وفى دهرى بما وعدا
ان كنت أنقض عهد الحب فى خلدى * من بعــــد هذا فلا عاينته أبدا

وكانت أيامه عند الرعية كأنها أعياد فكان اذا بلغــه ذلك فرح به وسره واذا تعرض سلطان أو نائب الى أذى أحد بالغ فى الانكار والزجر عنه فلما مات تولى الخلافة بعده ولده أبو منصور الفضل ولقب المسترشد بالله

ومات فى خــلافة المستظهر بالله أيضا زخرياس بطرك الاسكندرية بعـد أن أقام ثمانيا وعشرين سنة صرفها فى الشدائد العظيمـة والبلايا الكثيرة واعتقـل ثلاثة أشهر وضربت عليـه المغارم الفادحــة وأخــذت منه الاموال الكثيرة وأمر به يوما فألقى الى السبـاع هو وسوسنه النوبى فـلم تضرهما باذن الله تعالى فأخـذت السلطان يومئـذ اخاذة من الخوف فصرفهما وانكف عنهـما ورسم بالكف عن إيذاء النصارى فانكفوا عنهم حينا ولما مات خــلا الكرسى بعده أربعة وسبعين يوما ثم أقيم بعده سانوتيو أو هو شنوده خامس سنيهم من بلدة تلبانة وكان راهبا بدير أبو مقار وكان عالما كبيرا واماما خطيرا وله مناقب كثيرة ومكارم لاتعد ووقع من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(الفصل التاسع والعشرون)

(فى خلافة ابى منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر بالله)

ثم قام بالامر بعد المستظهر بالله ولده المسترشد بالله أبو الفضل بن أبى العباس أحمد بن المستظهر بالله بويع له بالخلافة يوم موت أبيه بعهد منه سنة احدى عشرة وخمسمائة هجرية أى سنة سبع عشرة ومائة وألف ميلادية وكان سن المسـترشد يومئذ سبعا وعشرين سـنة وبايعه أخواه ابنا المستظهر وهما أبو عبد الله محمد وأبو طالب العباس وعمومته بنو المقتدى بأمر الله وغيرهم من القضاة والامراء والائمة والاعيان وكان المتولى لاخذ البيعـة القاضى أبو الحسن الدامغانى وكان نائبا عن الوزارة فأقره المسترشد بالله عليها * قال أصحاب التاريخ ولم يأخذ البيعـة قاض غير هذا وأحمد بن أبى دواد فانه أخـذها للواثق بالله والقاضى أبو علىّ اسمعيل بن اسحق أخـذها للمعتضد بالله ثم ان المسـترشد عزل قاضى القضاة عن نيابة الوزارة واستوزر أبا شجاع محمـد بن الربيب أبا منصور وزير السلطان محمود ولما اشتغل النـاس بالبيعة للمسـترشد بالله ركب أخوه الامير أبو الحسن بن المسـتظهر بالله سفينة ومعه ثلاثة نفر وانحـدر الى المدائن وسار منها الى دبيس بن صـدقة بالحلة فأكرمه دبيس وأخبره بموت المستظهر بالله وأقام له الاقامات الكثيرة فلما علم المسترشد بالله خبره أهمه ذلك وأقلقه

وخشى عاقبته فأرسل الى دبيس يطلب منه اعادة أبى الحسن ويشدد فى ذلك فأجابه بأننى عبد الخليفة وواقف عند أمره ومع هذا فان أبا الحسن استذم بى ودخل منزلى فكيف أكرهه على الرجوع وكان رسول المسترشد فى ذلك الى دبيس نقيب النقباء شرف الدين على ابن طراد الزينبى فقصد الامير أبا الحسن وكلمه فى عوده وضمن له عن الخليفة كل ما يريد فأجاب الى العود وقال اننى لم أفارق أخى لشر أراده وانما الخوف منه حملنى على مفارقته فاذا أمننى قصدته وتكفل دبيس باصلاح الحال بنفسه والمسير معه الى بغداد فعاد النقيب وأعلم الخليفة بالحال فأجاب الى ماطلب منه ثم حدث من الاسباب والرواجف ماأخر الحال وأقام الامير أبو الحسن عند دبيس الى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ثم سار عن الحلة الى واسط فانضم اليه كثير من الناس وكبر جمعه وأتت الاخبار الى الخليفة بذلك فتكدر جدا وركب الامير أبو الحسن على مدينة واسط فملكها وخيف جانبه فتقدم الخليفة المسترشد بالله بالخطبة لولى عهده ولده أبى جعفر المنصور وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة فخطب له ببغداد وكتب الى الآفاق بالخطبة له وأرسل الى دبيس بن مزيد فى معنى الامير أبى الحسن وانه الآن قد فارق جواره ومديده الى بلاد الخليفة وزاحمه على سلطانه وما يتعلق به ورسم اليه بقصده ومعاجلته قبل قوته فأرسل دبيس العساكر اليه ففارق واسط وقد تحير هو وأصحابه فضلوا عن الطريق ووصلت عساكر دبيس فصادفوهم عند الصلح فنهبوا أثقاله وهرب الاكراد من أصحابه والأتراك وعاد الباقون الى دبيس وبقى الامير أبو الحسن فى عشرة من أصحابه وهو عطشان وبينه وبين الماء خمسة فراسخ وكان الوقت قيظا فأيقن بالتلف وتبعه بدويان فأراد الهرب منهما فلم يقدر فأخذاه وقد اشتد به العطش فسقياه وحملاه الى دبيس فسيره الى بغداد وحمله الى الخليفة بعد أن بذل له عشرين ألف دينار فحمل الى دار العزيزة وكان بين خروجه عنها وعوده اليها أحد عشر شهرا

ولما أدخلوه على المسترشد بالله انكب على قدميه فقبلهما فقام المسترشد وقبله وبكيا وأنزله دارا حسنة كان يسكنها قبل أن يلى الخلافة وحمل اليه الخلع والتحف العظيمة وطيب نفسه فاطمأن وزالت عنه الوساوس وأخلص لاخيه المحبة وجعل المسترشد يتصرف فى الامور فلم تكد تستقر به الخلافة حتى خرج عليه دبيس وخلع طاعته فكانت بينهما حروب كثيرة خرج فى احداها الخليفة بنفسه ومعه العلماء والقضاة والمشايخ وهو متجمل بعمامة سوداء وجبة سوداء وشاش وعلى كتفه البردة وبيده القضيب وكان ينادى يا آل هاشم الغزاة الغزاة والعامة والعسكر ينادون يامنصور يامنصور فانكشفت الحروب المذكورة عن هزيمة دبيس وموت أصحابه وعظم أمر الخليفة وظهرت كلمته وهابه الامراء وحسدوه وعظمت شوكة نوابه فاتفق أن وقعت بين نوابه وبين برنقش الزكوى نفرة وطالت أيامها فأرسل اليه الخليفة يتهدده ان هو أطال العناد معهم فخاف برنقش على نفسه وسار عن بغداد الى السلطان محمود بهمذان وشكا اليه مما يفعله نواب الخليفة وحذره جانب الخليفة وأعلمه أنه قد قاد

العسكر ولقى الحروب وقويت نفسه فان لم تعاجله قصد العراق ودخلها فيزداد قوة وجمعا
ويمنعك عن نفسه وحينئذ يتعذر عليك ما هو الآن بيده فمال السلطان الى مقالته وسار
نحو العراق وأشاع الخبر بذلك فأرسل الخليفة يعلمه بما عليه البلاد من الضعف والوهن بسبب
غارات دبيس وافساد عسكره فيها وان الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والاقوات لهرب
الاكرة عن بلادهم ويطلب منه أن يتأخر هذه الدفعة الى أن ينصلح حال البلاد ثم يعود اليها
فلا مانع له عنها وبذل له على ذلك مالا كثيرا فلما سمع السلطان محمود هذه الرسالة قوى عنده
ما قرره الزكوى برتقش وأبى أن يجيب الى التأخير وصمم العزم وسار اليها مجدا فلما بلغ الخليفة
الخبر عبر هو وأهله وحرمه ومن عنده من أولاد الخلفاء الى الجانب الغربى مظهرا للغضب
والانتزاح عن بغداد ان قصدها السلطان محمود فلما خرج من داره بكاه الناس بكاء عظيما
فلما علم السلطان بذلك اشتد عليه وبلغ منه كل مبلغ فأرسل يستعطف الخليفة ويسأله
العود الى داره فأعاد الجواب أنه لابد من عودك هذه الدفعة فان الناس هلكوا بشدة الغلاء
وخراب البلاد وأنه لايرى فى دينه أنه يزداد مابهم وهو يشاهدهم فان عاد السلطان والا رحل
هو الى العراق كيلا يشاهد ما يلقى الناس بمجىء العسكر فغضب السلطان لقوله ورحل نحو
بغداد وأقام الخليفة بالجانب الغربى فلما حضر عيد الاضحى خطب فى الناس وصلى بهم فبكى
الناس لخطبته وأرسل عفيفا الخادم وهو من خواصه فى عسكر الى واسط ليمنع عنها نواب
السلطان فأرسل السلطان اليه عماد الدين زنكى بن آقسنقر وكان له حينئذ البصرة فلما وصل
عفيف الى واسط سار اليه عماد الدين يحذره القتال ويأمره بالانتزاح عنها فأبى ولم يفعل فعبر
اليه عماد الدين واقتتلوا فانهزم عسكر عفيف وقتل وأسر منهم خلق كثير وتغافل عن عفيف
حتى نجا لمودّة كانت بينهما * وجاء الخبر الى الخليفة بما جرى فجمع السفن جميعها اليه وسد
أبواب دار الخلافة سوى الباب الغربى وأمر حاجب الباب ابن الصاحب بالمقام عليه لحفظ
الدار ولم يبق من حواشى الخليفة بالجانب الشرقى سواه ووصل السلطان فى عسكره الى
بغداد ونزل بباب الشماسية ودخل بعض عسكره الى بغداد ونزلوا فى دور الناس فشكا الناس
ذلك الى السلطان فرسم باخراجهم وبقى فيها من له دار وبقى السلطان يراسل الخليفة بالعود
ويطلب الصلح وهو يمتنع فكان يجرى بين العسكرين مناوشة والعامة من الجانب الغربى
يسبون السلطان أفحش سب ثم ان جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة ونهبوا
التاج وحجر الخليفة فضج أهل بغداد من ذلك واجتمعوا ونادوا الغزاة فأقبلوا من كل ناحية
فلما رآهم الخليفة خرج من السرادق والشمسية على رأسه والوزير بين يديه وأمر بضرب
الكؤسات والبوقات ونادى بأعلى صوته يال هاشم وأمر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر الناس
دفعة واحدة وكان له فى الدار ألف رجل مختفون فى السرادب فظهروا وعسكر السلطان
مشتغلون بالنهب فأسر منهم جماعة من الامراء ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة
من الامراء ودار عزيز الدين المستوفى ودار الحكيم أوحد الزمان الطبيب وقتل منهم خلق

كثير

كثير في الدروب وعبر الخليفة الى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد وأمر بحفر الخنادق فحفرت بالليل وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ووقع الغلاء عند العسكر واشتد الامر فكان القتال عليهم كل يوم عند أبواب البلد وعلى شاطئ دجلة وعزم عسكر الخليفة على أن يكبسوا عسكر السلطان فلم يتم لهم ذلك اذ غدر بهم أبو الهيجاء الكردى صاحب اربل وخرج كانه يريد القتال فانضم الى عسكر السلطان وترك الخليفة وكان السلطان قد أرسل الى عماد الدين بواسط يأمره أن يحضر بنفسه ومعه المقاتلة في السفن وعلى الدواب في البر فجمع كل سفينة بالبصرة ليشحنها بالرجال المقاتلة وأكثر من السلاح وأصعد فلما قارب بغداد أمر كل من معه في السفن وفي البر بلبس السلاح واظهار ماعندهم من الجلد والنهضة فسارت السفن في الماء والعساكر في البر على شاطئ دجلة وقد انتشروا وملؤا الارض برا وبحرا فرأى الناس منظرا عجيبا كبر في أنفسهم وملأ صدورهم فركب السلطان والعسكر الى لقائهم فنظروا مالم ينظروا مثله وعظم عماد الدين في أعينهم وعزم السلطان على قتال بغداد حينئذ والجد في ذلك برا وبحرا فلما رأى الخليفة المسترشد بالله الامر على هذه الصورة وقد خرج الامير أبو الهيجاء من عنده بمن معه من العسكر خاف شر العاقبة وأجاب الى الصلح وترددت الرسل بينه وبين السلطان محمود فاصطلحا واعتذر السلطان مما جرى وكان السلطان حليما جدا يسمع سبه باذنه فلا يعاقب عليه فعفا عن أهل بغداد جميعهم * وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان باحراق بغداد فلم يفعل وقال والله لاتساوى الدنيا مثل هذا الفعل وأقام ببغداد الى رابع شهر ربيع سنة احدى وعشرين وحمل الخليفة من المال كل ما استقرت القاعدة عليه وأهدى للسلطان سلاحا وخيلا وغير ذلك واستمرت الأمور بين صفاء وكدر وخروج وعصيان لاتستقر على حال من الاحوال والخليفة المسترشد يعالجها بالصبر والكياسه ويلبس لكل أمر منها لبوسه لعل الله يأتيه بالفرج القريب

وكما كانت الحال على ذلك بين الخليفة والسلطان محمود كانت بين الآمر بأحكام الله صاحب مصر وبين أمرائه وقواده وجنوده وأهل البلاد اذ قد ساءت سيرته وقبح تصرفه وكثر أخذه للناس بالشبهات فجار وظلم وأراق الدماء بغير موجب ولا سبب فاختل نظام البلاد وعاث فيها المفسدون في البر والبحر وسلبوا وقتلوا وأحرقوا وارتفع الامن وتعطلت الزراعات وكادت تقل الاقوات فاتفق جماعة على قتله وجعلوا يراقبون الفرص فلما كان اليوم الثانى من شهر ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة علموا بعزمه على الخروج الى منتزهه بالروضة فكمنوا له في الطريق فخرج في ثلاثة من قومه فوثبوا عليه بالسيوف فأثخنوه وقيل ان الذين قتلوه هم الباطنية باغراء بعض قواده فكانت ولايته تسعا وعشرين سنة وخمسة أشهر وعمره أربع وثلاثون سنة وهو العاشر من ولد المهدى عبيد الله * قال بعض الكتاب وكبر حبه في آخر أيامه للنساء واشتد شغفه بهن فكان له معهن كل يوم شأن

وحكى له يوما عن جارية من عرب البادية وأنها من الجمال والكمال والرقة ومعرفة ضروب الشعر والأدب على جانب عظيم فشغف بحبها وحمله عشقه الى التزيى بزى العرب وخرج يتلمس أخبار أهلها حتى نزل على حيهم وما زال يتحيل حتى رآها فأخذت بمجامع قلبه ووقعت منه موقعا عظيما فطلبها من أهلها فأجابوه الى زواجها فلما صارت فى قصره استوحشت فقالت له يوما مالى ولهذه القصور العالية فهلا أرجعتنى الى مضربى فتزيل عنى وحشتى قيل فبنى لها الهودج بالجزيرة على النيل وهو من غرائب البناء وكانت تحب ابن عم لها يعرف بابن مياح فكتبت له يوما هذه الأبيات

يا ابن مياح اليك المشتكى * مالكم من بعد كم قد ملكا
كنت فى حيى حرا مطلقا * نائلا ماشئت منكم مدركا
فأنا الآن بقصر مؤصد * لا أرى الا حبيسا ممسكا
كم تثنينا بأغصان اللوا * حيث لا نخشى علينا دركا
وتلاعبنا برملات الحمى * حيثما شاء طليق سلكا

فلما وصلت اليه هذه الابيات كتب يقول

بنت عمى والتى غذيتها * بالجوى حتى علا واحتنكا
بحت بالشكوى وعندى ضعفها * لو غدا ينفع منها المشتكى
مالك الامر اليه يشتكى * هالك وهو الذى قد أهلكا
شأن داود غدا فى عصرنا * مبديا بالتيه ماقد ملكا

فبلغت هذه الابيات الآمر فقال والله لولا انه أساء الادب فى البيت الرابع لرددتها الى حيه وزوجته بها

ولما قتل الآمر لم يكن له ولد بعده فظهر غلام أرمنى من غلمانه وتغلب على البلاد لاختلال الحال واستحوذ على الامور ثلاثة أيام ورام أن يتأمر فحضر الوزير أبو علىّ أحمد ابن الافضل بن بدر الجمالى أمير الجيوش وأقام الحافظ لدين الله أبا الميمون عبد المجيد بن الامير أبى القاسم بن المستنصر بالله وبايعوه لينظر فى الامر نيابة حتى يكشف عن حمل كان للآمر فتكون الولاية فيه ويكون هو نائبا عنه فلما تم له الامر استحوذ الوزير أبو علىّ على جميع الامور دونه وحصره فى مجلس لا يدخل اليه أحد الا من يريده الوزير وخطب لنفسه على المنابر ونقل جميع الاموال من قصر الامارة الى داره وأسقط من الدعاء ذكر اسمعيل الذى هو جدّهم واليه تنسب الاسماعيلية وهو ابن جعفر بن محمد الصادق وأسقط من الأذان حى على خير العمل وأمر الخطباء أن يخطبوا له بألقاب كتبها لهم وهى ۞ السيد الافضل الاجل سيد ممالك أرباب الدول والمحامى عن حوزة الدين وناشر جناح العدل على المسلمين الاقربين والابعدين ناصر امام الحق فى حالتى غيبته وحضوره والقائم بنصرته بماضى سيفه وصائب رأيه وتدبيره أمين الله على عباده وهادى القضاة الى اتباع شرع الحق واعتماده ومرشد دعاة

المؤمنين بواضح بيانه وارشاده مولى النعم ورافع الجور عن الأمم ومالك فضيلتى السيف والقلم أبو علىّ أحمد بن السيد الاجل الافضل شاهنشاه أمير الجيوش * قال أصحاب التاريخ وكان الافضل امامىّ المذهب يكثر ذم الآمر والتناقص به فنفر منه شيعة العلويين ومماليكهم وكرهوه وعزموا على قتله فخرج فى العشرين من المحرّم سنة ست وعشرين يريد خزانة السلاح ليفرّق على الاجناد على جارى العادة فى الاعياد فسار معه عالم كثير من الرجالة والفرسان فتأذى من الغبار فأمر بالبعد عنه وسار منفردا معه رجلان فصادف رجلين بسوق الصياقلة فضرباه بالسكاكين وجاء ثالث فضربه بسكين فى خاصرته فسقط عن دابته ورجع أصحابه فقتلوا الثلاثة وحملوه الى داره فدخل عليه الحافظ وتوجع له وسأله عن الأموال فقال أما الظاهر منها فأبو الحسن بن أسامة يعرفه وكان من أهل حلب وتولى أبوه قضاء القاهرة وأما الباطن فابن البطائحى يعرفه فقالا صدق فلما مات نقل من أمواله مالا يحصى عددا وبقى السلطان فى داره أربعين يوما والكتاب بين يديه والدواب تحمل وتنقل ليلا ونهارا ووجد له من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة القليلة الوجود مالا يوجد مثله لغيره واعتقل أولاده وكان عمره سبعا وخمسين سنة وكانت ولايته بعد أبيه ثمانيا وعشرين سنة منها أيام المستنصر وجميع أيام المستعلى وأيام الآمر الى هذه السنة من أيام الحافظ * وكان الافضل المذكور حسن السيرة محبا للناس ميالا للخير عاملا على اعلاء شأن البلاد مجدّا فى عمارها ونماء ثروتها فبنى فيها المبانى العظيمة والعمائر المفيدة ووسع خلجانها وأكبر مساقى أرضها وهو الذى حفر البحر المعروف ببحر أبى المنجا فى سنة ست وخمسمائة هجرية وسماه باسم مهندسه أبو المنجا أبو شعيا اليهودى وأنشأ أيضا المرصد الكبير على مقربة من المقطم فى المكان الذى كان يعرف قبل ذلك بالجرف وله غير ذلك من الآثار النافعة * حكى انه لما قتل وظهر الظلم بعده اجتمع جماعة من الناس واستغاثوا بالسلطان وكان من جملة قولهم أنهم لعنوا الافضل بحضرة السلطان فسألهم عن سبب لعنهم اياه فقالوا عدل وأحسن السيرة ففارقنا بلادنا وأوطاننا وقصدنا بلاده لعدله فقد أصابنا بعده هذا الظلم فهو كان سبب ظلمنا فيل فأحسن السلطان اليهم وأمر بالاحسان الى الناس وكثرت الاقوال فى سبب قتل الافضل وقاتليه فقال قوم ان صاحبه الآمر بأحكام الله وضع عليه فقتله *قلت* وصوابه الحافظ لدين الله قالوا ولقد كان فى قصد الآمر أن يضع عليه من يقتله اذا دخل عليه قصره للسلام أو فى أيام الاعياد فمنعه من ذلك ابن عمه أبو الميمون عبد المجيد وقال له ان فى هذا الفعل شناعة وسوء سمعة لانه قد خدم دولتنا هو وأبوه خمسين سنة وليس منهم الا النصح لنا والمحبة لدولتنا وقد سار ذلك فى أقطار البلاد فلا يجوز أن تظهر منا هذه المكافأة الشنيعة ومع هذا فلابدّ وأن نقيم غيره مكانه ونعتمد عليه فى منصبه فيتمكن مثله أو يقاربه فيخاف أن نفعل به مثل ما فعلناه بهذا فيحذر من الدخول الينا خوفا على نفسه وان دخل علينا كان خائفا مستعدّا للامتناع وفى هذا الفعل ما يسقط المنزلة قال والرأى عندى أن تراسل أبا عبد الله البطائحى

فانه الغالب على أمر الافضل والمطلع على سره وقصده أن يوليه منصبه وطلب منه أن يدبر الامر فى قتله اذا ركب فاذا ظفرنا بمن قتله قتلناه وأظهرنا الطلب بدمه والحزن عليه فنبلغ غرضنا ويزول عنا قبح الاحدوثة ففعلوا ذلك وقتلوه وقال آخرون غير ذلك ۞ قلت ونسبة قتله الى الآمر بأحكام الله خطأ فان الآمر مات فى ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة والافضل قتل فى المحرم افتتاح سنة ست وعشرين وخمسمائة فيكون بين موت الاثنين سنة وشهران فيكون القاتل له اذا الحافظ لدين الله بن محمد ۞ ولما قتل ولى بعده أبو عبد الله بن البطائحى ولقب المأمون وتحكم فى الدولة وتصرّف واتسعت كلمته وبقى على ذلك الى سنة تسع عشرة وخمسمائة فقبض عليه وصلب هو واخوته واتسعت كلمة الحافظ بعد موت الافضل وتصرّف فى الامور واستبدّ بالملك فكثر ظلمه وكبر عسفه واشتدّ على الامراء والقوّاد شدّة عظيمة وأخذ الكثير منهم بالشبهات واشتدّ على النصارى وبالغ فى التضييق عليهم لأنهم كانوا يحبون الافضل بن بدر الجمالى وكان يثق بهم ويعمل بمشورة كبارهم لاخلاصهم فى خدمة الدولة وخلودهم الى السكون والطاعة وما زال على هذا الحال الى أن كان من أمره ماسيذكر فى محله

ولما كانت سنة تسع وعشرين وخمسمائة فى سابع عشر ذى القعدة مات الخليفة المسترشد بالله فكانت خلافته كلها خروج وعصيان وتمرّد وطغيان ولكنه كان شهما مقداما عالى الهمة واسع الدراية كبير الدربة قيل لم يل الخلافة بعد المعتضد بالله أعظم شهامة منه اذ كان شديد الهيبة وقد ضبط الامور وأحيا مجد بنى العباس وجاهد وغزا مرارا فكانت خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وقيل سبعة أو ستة أشهر ۞ روى أنه ورد اليه رسل فجلس لهم فى جماعة من أهل بيته فلما أحضروهم بين يديه هجم عليه الفداوية منهم بالسكاكين فقتلوه وقتلوا معه جماعة من أصحابه يقال ان مسعودا أخا السلطان محمود جهز عليه الفداوية المذكورين ففعلوا به ذلك وعمره يومئذ أربع وأربعون سنة وقيل خمس وأربعون فبايعوا بالخلافة بعده ولده أبا منصور جعفرا الراشد بالله

ومات فى أيامه سانوتيو بطرك الاسكندرية بعد أن أقام أربع عشرة سنة قاسى فيها من الشدائد أعظمها وفعل العمال بالنصارى من الجور والظلم مالا يكاد يدخل تحت حصر فأقام المتأصلون بعده خرسطودولو ومعناه عبدالمسيح وكان راهبا بصومعة سنجار وهو سادس ستيهم وأصله من بلدة بورا فلما استقر به المنصب قام من مدينة الاسكندرية الى مصر واتخذ كنيسة المعلقة بظاهر الفسطاط مقرا له وكان من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(الفصـــــل الثلاثون)

(فى خلافة أبى منصور جعفر الراشد بالله)

ثم قام بالامر بعد المسترشد بالله ابنه أبو منصور جعفر الراشد بالله بن المسترشد ابن المستظهر بويع له بالخلافة ثانى يوم موت أبيه فى ثامن عشر ذى القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة هجريه أى سنة أربع وثلاثين ومائة وألف ميلادية بعهد من أبيه فجعل يتصرف فى الامور سنة فلما كانت سنة ثلاثين حضر برتقش الزكوى من عند السلطان مسعود الى بغداد يطالبه بما كان استقر عليه الخليفة المسترشد من المال الى السلطان وهو أربعمائة ألف دينار كما تقدم بيان ذلك فذكر الخليفة الراشد بالله أنه لا شئ عنده وأن المال جميعه كان مع المسترشد بالله فنهب أيام الفتنة فلم يقتنع برتقش بذلك وأعاد القول فراجعه الخليفة وترددت الرسل بينهما أياما ثم علم الراشد أن برتقش يريد الهجوم على دار الخلافة وتفتيشها وأخذ ما فيها من الأموال فجمع الخليفة العساكر لمنعها وأمر عليهم كيج آبه وأعاد عمارة السور الذى تهدم من الحوادث المترادفة فلما علم برتقش بذلك اتفق هو وبك آبه صاحب الشحنة ببغداد وأعلمه أن السلطان انما يريد أن يهجم على دار الخلافة فأحس الراشد بذلك واستعد لمنعهم وركب برتقش ومعه العساكر والامراء الكبجية ومحمد بن عسكر فى نحو خمسة آلاف فارس ولقيهم عسكر الخليفة فاقتتلوا قتالا شديدا فأخرجوا عسكر السلطان الى دار السلطان فساروا الى طريق خراسان ثم انحدر بك آبه الى واسط وسار برتقش الى البندنجيين فنهب العامة دار السلطان ولم يبقوا فيها شيأ فاشتدت العداوة بين الخليفة وبين السلطان وعظمت الفتنة وكبر الامر على السلطان واستخدم الخليفة الراشد جندا كثيرا وأكثر من جمع السلاح ومعدات الحرب وتهيأ للقاء السلطان مسعود فلما جاء الخبر الى السلطان باستعداد الراشد كاتب أتابك زنكى واستماله وكذلك فعل ببرتقش فأشار أصحاب الراشد عليه بالتوقف فأقبل السلطان مسعود بجيوشه ودخل بغداد فى ذى القعدة وقيل فى ذى الحجة سنة ثلاثين فنهب دور الجند ومنع من نهب البلد واستمال الرعية اليه وأحضر القضاة والشهود فقدموا فى الخليفة الراشد بأنه صدرت عنه سيرة قبيحة من سفك الدماء المحرمة وارتكاب المنكرات وفعل مالا يجوز فعله وشهدوا عليه بذلك فحكم قاضى القضاة وهو يومئذ ابن الكرخى بخلعه فخلعوه لاربع عشرة من ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة * وكان الراشد لما دخل السلطان الى بغداد ونهب عسكره الدور هرب فى قليل من خواصه ومعه أتابك زنكى الى الموصل فطلبه السلطان مسعود فهرب الى فارس ثم دخل الى اصفهان فحاصرها وتمرض هنالك فدخل عليه جماعة من الفداوية

فقتلوه وله احدى وعشرون سنة وقيل ثلاثون سنة ووردت الأخبار بموته الى بغداد فجلسوا للعزاء به فى دار النوبة يوما واحدا فكانت خلافته أحد عشر شهرا وأحد عشر يوما

ولما خلع الخليفة الراشد على هذه الصورة وانقطعت خطبته فى بغداد وجميع أعمالها استشار السلطان مسعود جماعة من أعيان بغداد منهم الوزير على بن طراد وصاحب المخزن وغيرهما فيمن يصلح أن يلى الخلافة فقال الوزير أحد عمومة الراشد وهو رجل صالح قال من هو قال من لا أقدر أن أفصح باسمه لئلا يقتل ثم ذكر للسلطان أبا عبد الله الحسين وقيل محمد ابن المستظهر بالله ودينه وعقله وعفته ولين جانبه فحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الزينبى وصاحب المخزن ابن القشلانى وغيرهما وأمر باحضار الأمير أبى عبد الله بن المستظهر من المكان الذى كان يسكنه فأحضر وأجلس فى الميمنة ودخل السلطان اليه والوزير وتحالفا وقرر الوزير القواعد بينهما وخرج السلطان من عنده وحضر الامراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوه ثامن عشر ذى الحجة سنة ثلاثين وخمسمائة ولقب المقتفى لامر الله كما سيذكر فى محله

(الفصل الحادى والثلاثون)

(فى خلافة أبى عبد الله محمد المقتفى لأمر الله)

ثم قام بالامر بعد الراشد عمه أبو عبد الله بن محمد ولقب المقتفى لامر الله بن محمد المستظهر ابن المقتدى بويع له يوم خلع ابن عمه وهو الرابع عشر من ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة هجرية أى سنة خمس وثلاثين ومائة وألف ميلادية فلما استقرت به الخلافة أرسل اليه ابن عمه الراشد رسولا من الموصل مع رسول اتابك زنكى وهو كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزورى فأحضروه فى الديوان وسمعت رسالته عن الراشد بالله فى أمر خلع بيعته وقرروا ذلك بحضرة القضاة والشهود ثم سيرت الكتب بخلافته الى الآفاق واستوزر شرف الدين على بن طراد البرنشى ابن عم الوزير وأعاده الى منصبه وقرر كمال الدين حمزة بن طلحة على منصبه صاحب المخزن * قال بعض الكتاب فجرت الامور على أحسن نظام وأرسل السلطان مسعود بعد قليل الى الخليفة المقتفى لأمر الله فى تقرير اقطاع ليكون لخاصته فكان جوابه ان فى الدار يعنى دار الخلافة ثمانين بغلة تنقل الماء من دجلة فلينظر السلطان ما يحتاج اليه ممن يشرب هذا الماء ويقوم به فترددت الرسل فى ذلك بينهما وطال الكلام أياما كثيرة كادت تتكدر الخواطر فى خلالها وما زالوا حتى تقررت القاعدة بينهما على أن يجعل له ما كان للمستظهر بالله من الاقطاع فأجاب الخليفة الى ذلك وقال السلطان لما

بلغه قوله لقد جعلنا فى الخلافة رجلا عظيما * قلت * وهو قول يدل على زوال ما كان باقيا الى هذا الحين من بأس الخلافة وأنها صارت تحت كلمة السلطنة خاضعة لامرها

وجاءت الاخبار الى الحافظ العلوى بمصر بخلافة المقتفى بالله فلم تهمه لاشتغاله بالفتنة القائمة بالقاهرة بسبب خروج وزيره تاج الدولة بهرام النصرانى الارمنى وذلك أنه لما استوزره فى سنة تسع وعشرين وخمسمائة تمكن فى البلاد واتسعت كلمته وغلب على الحافظ واستعمل الارمن وعزل المسلمين وأساء السيرة فيهم وأهانهم هو والارمن الذين ولاهم وطمعوا فيهم ولم يكن من أهل مصر من تحركه الغيرة ولا تأخذه النخوة سوى الأمير رضوان بن الريحينى فانه لما ساءه فعل الوزير وأقلقه جمع جمعا كثيرا وقصد القاهرة فسمع به بهرام الوزير فخاف وهرب الى الصعيد بغير قتال ولا حرب وقصد مدينة اسوان فمنعه واليها من الدخول اليها وقاتله وقتل السودان من الارمن أصحابه كثيرا فلما لم يقدر على الدخول الى اسوان أرسل الى الحافظ يطلب الامان فأمنه فعاد الى القاهرة فسجن بالقصر فبقى مدة ثم لبس زى الرهبنة وترهب ولحق بأحد الديارات واستوزر الحافظ الامير رضوان المذكور ولقبه بالملك الافضل فكان أوّل وزير للمصريين لقب بالملك فجعل يتصرّف فى الامور واتسعت كلمته وكاد يتغلب على الحافظ ثم فسد ما بينه وبين الحافظ فعمل الحافظ على اخراجه فثار الناس عليه منتصف شوّال سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة فهرب من داره وتركها بما فيها فنهب الناس منها مالا يعد ولا يحصى وركب الحافظ فسكن الناس واختفى النهابون ونقل مابقى فى دار رضوان الى قصره وسار رضوان الى الشام يستنجد بالاتراك ويستنصرهم فأرسل اليه الحافظ الامير ابن مصال ليردّه بالامان والعهد أن لا يؤذيه فرجع الى القاهرة فحبسه الحافظ عنده فى القصر * وفى رواية أنه سار الى الشام وقصد صرخد فوصل اليها فى ذى القعدة ونزل على صاحبها أمين الدولة كمشتكين فأكرمه وعظمه وأقام عنده ثم سار الى مصر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ومعه جيش عظيم فقاتل المصريين عند باب النصر فهزمهم وقتل منهم جماعة كثيرة وأقام على الباب المذكور ثلاثة أيام فتفرّق منه كثير ممن كان معه فخشى العاقبة وعزم على العود الى الشام فأرسل اليه الحافظ الامير ابن مصال فرده وحبسه فى القصر وجمع بينه وبين عياله وأهله فأقام فى القصر الى سنة ثلاث وأربعين فنقب الحبس وخرج منه وقد أعدّت له خيل فهرب عليها وعبر النيل الى الجيزة فاجتمع عليه كثير من المغاربة وغيرهم فحشد منهم جمعا كبيرا وعاد الى القاهرة فقاتل المصريين عند جامع ابن طولون وهزمهم ودخل القاهرة فنزل عند جامع الاقمر وأرسل الى الحافظ يطلب منه مالا ليفرّقه على عادتهم فانهم كانوا اذا وزروا وزيرا أرسلوا اليه عشرين ألف دينار ليفرقها فأرسل الحافظ اليه عشرين ألف دينار فقسمها وكثر عليه الناس فطلب زيادة فأرسل اليه الحافظ عشرين ألف دينار ففرّقها فتفرق الناس وخفوا عنه وبقى هو فى قلة من أصحابه واذا الصوت قد وقع وعلت الضوضاء وخرج اليه جمع كثير من السودان وضعهم الحافظ عليه فحملوا على غلمانه فقتلوهم

وأعملوا السيف فيمن معه من المغاربة فقدم اليه بعض أصحابه الفرس ليركبه فلما أراد ركوبه ضرب الرجل رأسه بالسيف فقتله وحمل رأسه الى الحافظ فأرسله الى زوجته فوضع فى حجرها فألقت به وقالت هكذا يكون الرجال * ولم يستوزر الحافظ أحدا بعد موت رضوان وباشر الامور بنفسه وما زال يتصرف والامور طوع يده تارة وخارجة عنه أخرى حتى وافته منيته فى جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة هجرية فكانت سلطنته عشرين سنة الا خمسة أشهر وعمره نحوا من سبع وسبعين سنة ولم يزل فى جميعها محكوما عليه مغلوبا على أمره لا كلمة له وانما الكلمة لوزرائه حتى انه جعل ابنه حسنا وزيره وولى عهده ليتخلص بذلك من أسر الوزراء وتغلبهم عليه فلم يفلح اذ حكم عليه ابنه المذكور واستبد بالامر دونه وتجبر وظلم وقتل كثيرا من أمراء دولته وصادر الكثير منهم فكبر ذلك على الحافظ واستعظمه جدّا فسقاه سما فمات * قال أصحاب التاريخ ولم يل الامر من العلويين من أبوه غير خليفة غير الحافظ والعاضد ۞ ولما مات الحافظ ولى الامر بعده ابنه الظافر بأمر الله أبو منصور اسمعيل بن عبد المجيد الحافظ فاستوزر ابن مصال فلبث أربعين يوما يدبر الامر واتفق بعد ذلك أن خرج جماعة من السودان عن الطاعة فعاثوا وأفسدوا وعظم شرهم فخرج ابن مصال لقتالهم وردعهم فلما علم العادل بن السلار وهو بالاسكندرية بخروج ابن مصال سار الى القاهرة ونازعه فى الوزارة حتى تولاها وتمكن منها ثم سير ربيبه عباس بن أبى الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى فى عسكر لقتال ابن مصال فظفر به وقتله وعاد الى القاهرة واستقر العادل وتمكن وعلت كلمته فلم يبق للسلطان معه حكم واشتد على الامراء وأخذ بأسباب الحزم وبالغ فى التجلد فلم يغن هذا كله شيأ اذ كثر الاختلال واشتد وهن الدولة وتطاولت أيدى الطامعين الى أملاكها فأخذ الفرنجة فى أيامه عسقلان وجاءت مراكبهم الى دمياط فقاتلوا تنيس وحاصروها وضيقوا عليها أياما كثيرة ثم انصرفوا عنها وأخذ نور الدين محمود دمشق من مجير الدين أبق ومازال ابن العادل يتصرف الى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فقام عليه عباس بن أبى الفتوح بن يحيى الصنهاجى فقتله باغراء الأمير أسامة بن منقذ ووافقه على ذلك الظافر بالله وولى الوزارة بعده فكانت الوزارة فى مصر لمن غلب والعلويون وراء الحجاب والوزراء كالمتملكين لا كلمة فوق كلمتهم * قال أصحاب التاريخ وقل أن ولى الوزارة أحد بعد الأفضل أمير الجيوش الا بحرب وقتل وما شابه ذلك

وتمكن عباس من الدولة وبسط يده على الأمور وعزل وولى وجمع الأموال وهادنه الامراء وخضعت اليه العمال فى جميع الجهات وكان الامراء والاجناد يعلمون أنه انما ارتقى منصب الوزارة بفعل الامير أسامة بن منقذ حيث أغراه على قتل العادل كما تقدم فعزموا على قتل ابن منقذ وصاروا يراقبون الفرص فلما أحس ابن منقذ بما عزموا عليه خاف على نفسه وأخذ يدبر الحيلة فى فساد أمرهم فخلا بعباس وقال له كيف تصبر على

ما

ما أسمع من قبيح القول قال وما ذاك قال الناس يزعمون ان الظافر يواصل ابنك نصرا وكان نصر خصيصا للظافر وكان ملازما له ليله ونهاره وكان من أجمل الناس صورة وكان الظافر يتهم به فانزعج لذلك عباس وعظم عليه وقال كيف الحيلة قال تقتله فيذهب عنا العار فذكر الحال لولده نصر فاتفقا على قتله * وفى رواية أخرى أن الظافر أقطع نصر بن عباس المذكور قرية قليوب وهى من أعظم قرى مصر يومئذ فدخل عليه مؤيد الدولة بن منقذ وهو عند أبيه عباس فقال له نصر قد أقطعنى مولانا قرية قليوب فقال له مؤيد الدولة ما هى فى مهرك بكثير فعظم عليه وعلى أبيه وأنف من هذا الحال وشرع أبوه عباس فى قتل الظافر وأمر ابنه بذلك فحضر نصر عند الظافر يوما وقال أشتهى أن تجيء الى دارى لدعوة صنعتها ولا تكثر من الجمع فمشى معه فى نفر يسير من الخدم ليلا فلما دخل الدار قتله ومن معه وأفلت خويدم صغير اختباء فلم يره ودفن القتلى فى داره وأخبر أباه عباسا بالخبر فبكر الى القصر وطلب من الخدم الخصيصين بخدمة الظافر أن يطلبوا له اذنا فى الدخول عليه لامر يريد أن يأخذ رأيه فيه فقالوا انه ليس فى القصر فقال لابد منه وكان غرضه أن ينفى التهمة عنه بقتله وان يقتل كل من بالقصر ممن يخاف أن ينازعه فيمن يقيمه فى السلطنة فلما ألح عليهم عجزوا عن احضاره فبينما هم يطلبونه حائرين دهشين لايدرون ما الخبر اذ دخل عليهم الخويدم الصغير الذى شاهد قتله وقد هرب من دار العباس عند غفلتهم عنه وأخبرهم بقتل الظافر فخرجوا الى عباس وقالوا له سل ولدك عنه فانه يعرف أين هو لانهما خرجا جميعا فلما سمع ذلك منهم قال أريد أن أستعرض القصر لئلا يكون قد اغتاله أحد من أهله فاستعرض القصر فقتل أخوين للظافر وهما يوسف وجبريل وأجلس الفائز بنصر الله أبا القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله اسمعيل ثانى يوم قتل أبيه وله من العمر خمس سنين فحمله عباس على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايع له الناس وأخذ عباس يومئذ من القصر من الاموال والجواهر والاعلاق النفيسة ماأراد ولم يترك فيه الا مالا خير فيه * وظن عباس بعد قتله للظافر واقامة ابنه الفائز أن الامر يتم له على مايريد فكان الحال خلاف مااعتقده فان الكلمة اختلفت عليه وثار به طوائف الجند من الاتراك والسودان فكان اذا أمر أمرا لايلتفت اليه ولايسمع له قول فزالت هيبته وانحطت مرتبته فى أعين الرعية فأرسل من بالقصر من النساء والخدم الى الصالح طلائع بن رزيك وهو يومئذ فى منية ابن خصيب بالصعيد واليا عليها وعلى أعمالها ولم تكن يومئذ من الاعمال الجليلة ولكنها كانت أقرب الاعمال اليهم يشكون ماحل بهم من عباس وكان فى ابن رزيك شهامة فجمع جيشا عظيما وانحدر يريد قتال عباس فلما سمع عباس ذلك خرج من مصر الى الشام بما معه من الاموال التى لاتحصى كثرة ومن التحف والاشياء التى لاتوجد الاهناك مما كان قد أخذه من القصر فلما سار وقع به عسكر الفرنجة فى الطريق فقتلوه وأخذوا جميع ماكان معه وسار الصالح صاحب منية ابن خصيب فدخل القاهرة باعلام سود وثياب سود حزنا على الظافر والشعور التى أرسلت اليه من نساء القصر على رؤس الرماح فخلع

عليه خلع الوزارة واستقر له منصبها وأحضر الخويدم الذى شاهد قتل الظافر فأراه موضع دفنه فأخرجه ونقله الى مقابرهم بالقصر ولما قتل الفرنجة عباسا وأخذوا ما معه من الاموال وغيرها أسروا ابنه فأرسل الصالح الى الفرنجة وبذل لهم مالا وأخذه منهم فسار من الشام مع أصحاب الصالح ولم يكلم أحدا منهم كلمة واحدة الى أن رأى القاهرة فأنشد

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالى والجدود العواثر

فأدخلوه القصر ثم أخرج بعد أيام ميتا وصلب على باب زويلة واستقصى الصالح بيوت الكبار والاعيان بالديار المصرية فقبض على أهلها وأخذ أموالهم وأبعدهم عن ديارهم فنهم من هلك ومنهم من تفرق فى البلاد ومنهم من نزح الى الحجاز واليمن وغيرهما * قال بعض الكتاب وكان دخول الملك الصالح الى القاهرة بالاعلام السود والثياب السود من الفأل العجيب فانه لم يمض سوى خمسة عشر عاما حتى دخلت القاهرة الاعلام السود العباسية وأزالت الاعلام العلوية ولم يزل الفائز بنصرالله لا كلمة له والحكم للصالح بن رزيك الوزير حتى مات الفائز فى صفر سنة خمس وخمسين وخمسمائة وعمره احدى عشرة سنة فكانت سلطنته ست سنين ونحو شهرين فلما مات دخل الصالح بن رزيك القصر واستدعى خادما كبيرا وقال له من ههنا يصلح للخلافة فقال ههنا جماعة وذكر أسماءهم وذكر له منهم انسانا كبير السن فأمر باحضاره فقال له بعض أصحابه سرا لا يكون عباس الوزير أحزم منك حيث اختار الصغير للخلافة وترك الكبار واستبد بالامر فأعاد الصالح الرجل الى موضعه وأمر حينئذ باحضار العاضد لدين الله أبى محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ ولم يكن أبوه خليفة وكان العاضد يومئذ مراهقا قارب البلوغ فبايع له وزوجه الصالح ابنته ونقل معها من الجهاز مالا يسمع بمثله

وكما كانت أمور السلطنة فى مصر فى اختلال وأحوالها فى اعتلال بسبب الفتن والخطوب المتراكمة المترتبة على فعال الطامعين فى منصب الوزارة فكذلك كانت أحوال الخلافة ببغداد الى هذا الحين اذ ظهرت الفتن وعمت الاحن وقامت الحروب فى كل الجهات على ساقها واشتدت وطالت أيامها فاختل نظام الامور وتعذر تدبير الجمهور وعاث أصحاب الفساد فقتلوا ونهبوا وفعلوا مالا خير فيه وكان من الحوادث أيضا فى تلك الايام أن زاد دجلة الى حد لم يسبق له مثال فخرق الفوارج فوق بغداد وأقبل المد الى البلد فامتلأت الصحارى وخندق البلد وأفسد الماء السور ففتح فيه فتحة فوقع بعض السور عليها فسدها ثم فتح الماء فتحة أخرى وأهملوها ظنا أنها تنفس عن السور لئلا يقع فغلب الماء وتعذر سده فغرق كثير من الدروب والحارات ودب الماء تحت الارض الى الكثير من الاماكن فوقعت وأخذ الناس يعبرون الى الجانب الغربى فبلغت أجرة المعبرة عدة دنانير ولم يكن يقدر عليها لما أصاب الناس ثم نقص الماء وتهدم السور وبقى الماء الذى بداخل السور يدب حتى كثر الخراب وبقيت المحال لا تعرف وانما هى تلول وقد غرق أيضا بالجانب الغربى من دجلة جميع المقابر وانخسفت وخرج الموتى على سطح الماء فكان أمرا عظيما جدا لم يسبق له مثيل فيما غبر

ولما كانت سنة أربع وخمسين وخمسمائة مرض الخليفة المقتفى لامر الله واشتد مرضه وخاف الناس عليه ثم عوفى فضربت البشائر ببغداد وفرقت الصدقات من الخليفة ومن أرباب الدولة وغلقت الحوانيت أسبوعا وعم الفرح جميع الاهالى ثم لم يلبث أن عاوده المرض فى سنة خمس وخمسين فمات فى ثانى ربيع الاول بعلة التراقى وهو ابن ست وستين سنة فكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وقيل أربعا وعشرين وثلاثة أشهر وستة عشر يوما وقيل خمسا وعشرين سنة وكان شهما كريما حليما حسن السيرة ذا رأى وتدبير وهو أول من استبد بالحكم منفردا عن السلطان بالعراق من أول يوم الديلم الى موته وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر الى الآن الا الخليفة المعتضد وكان شجاعا مقداما مباشرا للحروب بنفسه وكان يبذل الاموال الجليلة لاصحاب الاخبار فى جميع البلاد حتى كان لا يفوته منها شئ وقد عمل لنفسه من العقيق تابوتا دفن فيه ❁ ولما مات ولى الخلافة بعده أبو المظفر يوسف المستنجد بالله

(الفصل الثانى والثلاثون)

(فى خلافة أبى المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفى لامر الله)

ثم قام بالامر بعد المقتفى لامر الله ابنه أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفى لامر الله وقد كان أبوه ولاه العهد فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة فبويع له بالخلافة بعد موت أبيه بيوم وقيل بل يوم موت أبيه سنة خمس وخمسين وخمسمائة هجرية أى سنة ستين ومائة وألف ميلادية وكان للمقتفى حظية هى أم ولده أبى علىّ وكانت تكره أبا المظفر وتتمنى تسليم الامر لولدها أبى علىّ فلما اشتد مرض المقتفى وأيست منه أرسلت الى جماعة من الامراء وبذلت لهم الاقطاعات الكثيرة والاموال الجزيلة ليساعدوها على أن يكون ولدها خليفة فقالوا وكيف الحيلة مع ولى العهد فقالت اذا دخل على أبيه قبضت عليه وكان يدخل الى أبيه كل يوم فقالوا لابد لنا من أحد من أرباب الدولة فوقع اختيارهم على أبى المعالى ابن الكيا الهراسى فدعوه الى ذلك فأجابهم على أن يكون وزيرا فقبلوا ما طلب فلما استقرت القاعدة بينهم وعلمت أم أبى علىّ أحضرت عدة من الجوارى وأعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولىّ العهد المستنجد بالله وكان للمستنجد خصى صغير يرسله كل وقت يتعرف أخبار أبيه فرأى الجوارى بايديهن السكاكين ورأى بيد أبى علىّ وأمه سيفين فعاد الى المستنجد فأخبره وأرسلت هى الى المستنجد تقول ان والدك حضره الموت فاحضر لتشاهده فاستدعى

استاذ دار عضد الدولة وأخذه معه هو وجماعة من الفراشين ودخل الدار وقد لبس الدروع وأخذ بيده السيف فلما دخل ثار به الجوارى فضرب واحدة منهن جرحها وكذلك أخرى وصاح فدخل استاذ الدار ومعه الفراشون فهرب الجوارى فأخذ أخاه أبا على وأمه فسجنهما وأخذ الجوارى فقتل منهن وأغرق

وجلس المستنجد للبيعة فبايعه أهله وأقاربه وأولهم عمه أبو طالب ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفى وكان أكبر من المستنجد ثم بايعه الوزير بن هبيرة وقاضى القضاة وأرباب الدولة والعلماء وخطب له يوم الجمعة ونثرت الدنانير والدراهم ولما استقرت به الخلافة أقر ابن هبيرة على وزارته وأصحاب الولايات على ولاياتهم وأزال المكوس والضرائب وقبض على القاضى ابن مزاحم وبئس الحاكم هو وأخذ منه مالا كثيرا وأخذ كتبه فأحرق منها فى الرحبة ما كان من علوم الفلسفة فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب اخوان الصفا وما يشا كلهما وقدم عضد الدين بن رئيس الرؤساء فكان أستاذ الدار ومكنه وتقدم الى الوزير أن يقوم له تعظيما وعزل قاضى القضاة أبا الحسن على بن أحمد الدامغانى وأقام مكانه أبا جعفر عبد الواحد الثقفى وخلع عليه وأدناه منه ۞ ووردت الاخبار الى مصر بخلافة المستنجد وموت المقتفى فلم يلتفت اليها الملك الصالح بن رزيك وزير العاضد لدين الله وأهملها كاهماله لغيرها من بقية الامور واشتغاله بالتحكم فى دولة العاضد واستبداده بالامر والنهى وجباية الاموال وعزله الولاة والعمال وتبعيده كل من كان يخشى من وثوبه حتى أبغضه الامراء والعامة وحرم القصر وتمنوا موته والخلاص من شره فأرسلت عمة العاضد لدين الله الاموال الى بعض الامراء ودعتهم الى قتله وكان أشدهم عليه فى ذلك انسان يقال له ابن الداعى فاتفقوا على قتله ووقفوا له يوما فى دهليز القصر فلما دخل ضربوه بالسكاكين على دهش منه فجرحوه جراحات مهلكة وحمل الى داره وفيه رمق فأرسل الى العاضد لدين الله يعاتبه على الرضا بقتله فأقسم العاضد أنه لا يعلم بذلك ولم يرض به فقال ان كنت لم ترض به وبريئا منه فسلم عمتك الى حتى أنتقم منها فرسم بتسليمها اليه فأخذها قهرا وقتلها ووصى بالوزارة من بعده لولده رزيك ولقب العادل فانتقل الامر اليه بعد أبيه * قال أصحاب التاريخ وكان الصالح المذكور كريما فيه أدب وله أشعار حسنة بليغة تدل على فضل غزير فمنها فى الافتخار

أبى الله الا أن يدوم لنا الدهر * ويخدمنا فى ملكنا العز والنصر
علمنا بأن المال تفنى ألوفه * ويبقى لنا من بعده الاجر والذكر
خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا * سحاب لديه البرق والرعد والقطر
قرانا اذا رحنا الى الحرب مرة * قرانا ومن أضيافنا الذئب والنسر
كما أننا فى السلم نبذل جودنا * ويرتع فى انعامنا العبد والحر

وكان لاهل العلم عنده منزلة ويرسل اليهم العطايا الكثيرة وكان اماميا لم يكن على مذهب

العلويين المصريين * وكان شديد المغالاة فى التشيع صنف كتابا فيه الرد على أهل الفساد جمع له الفقهاء وناظرهم عليه وهو يتضمن امامة علىّ بن أبى طالب والبحث فى الاحاديث الواردة فى ذلك ومن شعره فى التدين هذه الابيات

يا أمة سلكت ضلالا بينا * حتى استوى اقرارها وجحودها
ملتم الى أن المعاصى لم تكن * الا بتقدير الاله وجودها
لو صح ذا كان الاله بزعمكم * منع الشريعة أن تقام حدودها
حاشا وكلا أن يكون الهنا * ينهى عن الفحشاء ثم يريدها

قالوا ولما ولى العاضد الخلافة وركب سمع الصالح ضجة عظيمة فقال ما الخبر فقيل انهم يفرحون بالخليفة فقال كانى بهؤلاء الجهلاء وهم يقولون ما مات الاول حتى استخلف هذا وما علموا أننى كنت فى ساعة أستعرضهم استعراض الغنم وقال عمارة دخلت الى الصالح قبل قتله بثلاثة أيام فناولنى قرطاسا فيه بيتان من شعر وهما

نحن فى غفلة ونوم وللمو * ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا الى الحمام سنينا * ليت شعرى متى يكون الحمام

قال فكان آخر عهدى به * وقال عمارة أيضا ومن عجيب الاتفاق أننى أنشدت ابنه قصيدة أقول فيها

أبوك الذى تسطو الليالى بحده * وأنت يمين ان سطا وشمال
لرتبته العظمى وان طال عمره * اليك مصير واجب ومنال
تخالسك اللحظ المصون ودونها * حجاب شريف لا انقضا وحجال

قال فانتقل الأمر اليه بعد ثلاثة أيام * وكان من جملة وصية الصالح لولده العادل عند ما أشرف على التلف أن لا يغير على شاور والى الصعيد قال فاننى أنا أقوى منك وقد ندمت على استعماله ولم يمكن خلعه فلا تغيروا ما به فيكون لكم منه ما تكرهون * وشاور هذا تركى الاصل جاء الى مصر ودخل فى خدمة الصالح بن رزيك ولزمه فأقبل عليه الصالح وولاه الصعيد وهو أكبر الاعمال يومئذ بعد الوزارة * فلما استقر به المنصب ظهرت منه كفاءة عظيمة وتقدم زائد واستمال لنفسه الرعية والمقدمين من العربان وغيرهم فعسر أمره على الصالح ولم يمكنه بعد ذلك خلعه فاستدام استعماله لئلا يخرج عن طاعته فلما ولى العادل الوزارة مكان أبيه الصالح حسن له أهله عزل شاور المذكور واستعمال بعضهم مكانه وخوفوه منه ان أقره على عمله فأرسل اليه بالعزل وخالف وصية الصالح فجمع شاور عند ذلك جموعا كثيرة وانحدر بهم الى القاهرة فهرب العادل بن الصالح بن رزيك فلحقه شاور وأخذه وقتله فكانت مدة وزارته ووزارة أبيه قبله سبع سنين وشهرا وأياما وتولى شاور منصب الوزارة ولقب بامير الجيوش واستولى على جميع أموال بنى رزيك وودائعهم وخزائنهم وأخذ منها أيضا طيا والكامل ابنا شاور شيأ كثيرا وأنكر ما أخذاه * قال

بعض الكتاب ثم ظهر عليهم عند انتقال الدولة عن شاور والمصريين الى الاتراك ولم يلبث شاور فى منصب الوزارة طويلا حتى ظهر الضرغام فى جموع كثيرة للغاية وأخذ ينازع شاور فى الوزارة وظهر أمره وعلت كلمته وطال نزاعه فانهزم شاور منه الى الشام فتولى ضرغام منصب الوزارة وأمر ونهى فكان فى هذه الدولة ثلاثة وزراء العادل بن شريك وشاور صاحب الصعيد وضرغام هذا كان أحد كبار الامراء البرقية الذين أقامهم الملك الصالح ابن رزيك على عهد وزارته ويقال له ضرغام أبى الاشبال وهو يومئذ حاجب الباب فلما تمكن ضرغام هذا من الوزارة قتل الكثير من الامراء المصريين لتخلوله البلاد من المنازعين وأكثر من الأخذ بالشبهات فضعفت لذلك الدولة وانحطت شهرتها وزالت هيبتها وطمع فى أخذها الطامعون فخرجت بعد ذلك من أيديهم كما سيتلى عليك فى محله ۞ أما شاور فانه لما وصل الى الشام التجأ الى صاحبها نور الدين محمد بن زنكى واستجار به وشكا ما حل به من ضرغام فأكرم نور الدين مثواه وأحسن اليه وأنعم عليه وكان وصوله فى ربيع الاول من السنة أى سنة تسع وخمسين وخمسمائة وطلب من نور الدين أن يرسل معه عسكرا الى مصر ليعود الى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد اقطاعات العسكر ويكون شيركوه ابن شادى مقدم العسكر التى تصحبه مقيما بعسكره فى مصر ويتصرف له بأمر نور الدين واختياره فبقى نور الدين يقدم الى هذا الغرض رجلا ويؤخر أخرى فتارة تحمله رغبات قصد شاور وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الفرنجة وتارة يمنعه خطر الطريق وان الفرنجة فيه وكذلك تخوف من ابن شاور ان استقرت قاعدته ربما لا يفى له ثم قوى عزمه على ارسال الجيوش فتقدم بتجهيزها وازاحة عللها وكان هوى أسد الدين فى ذلك وميله شديدا الى المسير الى مصر وعنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالى معه بمخافة فجهز جيشا جرارا وجعل عليه الامير أسد الدين شيركوه المذكور وهو مقدم عسكره وأكبر أمراء دولته وأشجعهم وساروا وشاور فى صحبتهم وذلك فى جمادى الاولى سنة تسع وخمسين وتقدم نور الدين الى شيركوه بن شادى بان يعيد شاور الى منصبه وينتقم له ممن نازعه فيه وسار نور الدين الى طرف بلاد الفرنجة مما يلى دمشق بعسكره ليمنع الفرنجة من التعرض لاسد الدين شيركوه ومن معه فوصل أسد الدين والعساكر الذين معه الى مدينة بلبيس فخرج ناصر الدين أخو ضرغام بعسكر من مصر ولقيهم فاقتتلوا فانهزم ناصر الدين وعاد الى القاهرة خاسرا ووصل أسد الدين فنزل على القاهرة أواخر جمادى الآخرة فخرج ضرغام من القاهرة سلخ الشهر لقتال أسد الدين فقتل عند مشهد السيدة نفيسة وبقى يومين ثم حمل ودفن بالقرافة وقتل أخوه فارس المسلمين فلما تم الظفر لأسد الدين خلع على شاور مستهل رجب وأعاده الى الوزارة وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ينتظر وفاء ما قرره شاور فغدر به شاور وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضا وأرسل الى أسد الدين يأمره بالعود الى الشام فأعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاور اليه

فأرسل فى الحال أسد الدين الى نوابه فتسلموا مدينة بلبيس وحكم على اقليم الشرقية فأرسل شاور الى الفرنجة يستمدهم ويخوّفهم من نور الدين اذا ملك مصر فسارعوا الى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا فى ديار مصر وكان شاور قد بذل لهم مالا على المسير اليه فتجهزوا وساروا فلما بلغ نور الدين خبر ذلك سار بعسا كره الى أطراف بلادهم ليمنعهم عن المسير فلم يتمكن من ذلك اذ سار ملك القدس فى عسكره على عجل وكان قد وصل الى الساحل جمع كثير من الفرنجة يريدون زيارة بيت المقدس فسار جماعة منهم مع صاحب القدس فلما قاربوا مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس فأقام بها هو وعسكره وجعلها له ظهرا يتحصن بها فاجتمعت العساكر المصرية وجموع الفرنجة ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة أشهر وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضا فبينما هم على هذا الحال اذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنجة على حارم وملك نور الدين حارم ومسيره الى بانياس فأردوا العودة الى بلادهم ليحفظوها فراسلوا أسد الدين فى الصلح والعود الى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها الى المصريين فأجابهم الى ذلك لان الأقوات والذخائر قلت عليه وخرج من بلبيس فى ذى الحجة وسار الى الشام وأقام على حاله فى خدمة نور الدين ولكنه كان دائما يتحدث بمصر مولعا بها ويحب أن يقصدها وكان عنده من الحصر على ذلك كثير

فلما كانت سنة اثنتين وستين وخمسمائة تجهز للمسير الى مصر وسار فى ربيع الاول فى جيش ضخم للغاية فسيّر معه نور الدين جماعة من الامراء فكانت عدتهم يومئذ ألفى فارس وكان نور الدين كارها لذلك ولكن لما رأى من جد أسد الدين ورغبته فى المسير لم يمكنه الا أن يسيّر معه هذا الجمع خوفا من الهزيمة أو حادث يتجدد عليهم وسار أسد الدين بعسكره برا وترك بلاد الفرنجة على يمينه فوصل مصر وقصد اطفيح وعبر النيل عندها الى الجانب الغربى ونزل بالجيزة مقابل مصر ومدينة الفسطاط وأخذ يتصرف فى البلاد الغربية وأنفذ حكمه فيها وأقام على ذلك نيفا وخمسين يوما وكان شاور لما بلغه مجىء أسد الدين أرسل الى الفرنجة يستنجد بهم فأتوه على الصعب والذلول طمعا فى ملكها فترفع أسد الدين بمن معه الى الصعيد فبلغ مكانا يعرف بالبابين فتبعتهم العساكر المصرية وعسكر الفرنجة فأدركوهم بها فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة وكان أسد الدين قد أرسل الى المصريين والفرنجة جواسيس فعادوا اليه وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجدّهم فى طلبه فعزم على قتالهم الا أنه خاف من أصحابه أن تضعف قلوبهم عن القتال فى هذا المقام الخطير الذى عطبهم فيه أقرب من سلامتهم لقلة عددهم فاستشارهم فأشاروا بعبور النيل الى الجانب الشرقى والرجوع الى الشام وقالوا ان نحن انهزمنا وهو الذى يغلب على الظن فالى أين نلتجئ وبمن نحتمى وكل من فى هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عدوّ لنا فقام أمير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين بن برغش صاحب شقيق وكان شجاعا وقال

من يخاف القتل والاسر لا يخدم الملوك بل يكون فى بيته مع امرأته والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ليأخذن مالنا من الاقطاع والجامكية ولا يعود علينا جميع ما أخذناه منذ خدمنا الى يومنا هذا ويقول تأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم وتسلمون مثل مصر الى الكفار والحق بيده فقال أسد الدين هذا الرأى وبه أعمل فقال ابن أخيه صلاح الدين مثله وكثر الموافقون لهم واجتمعت الكلمة على القتال فأقام أسد الدين بمكانه حتى أدركهم المصريون والفرنجة وهو على أهبة وجعل الاثقال فى القلب يستكثر بها وجعل صلاح الدين فى القلب وقال له ولمن معه ان المصريين والفرنجة يجعلون حملتهم على القلب ظنا منهم أنى فيه فاذا حملوا عليكم فلا تصدوهم بالقتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا قدامهم بين أيديهم فاذا عادوا عنكم فارجعوا فى أعقابهم واختار هو من شجعان عسكره جمعا يثق بهم ويعرف صبرهم فى الحروب ووقف بهم فى الميمنة فلما تقاتل الطائفتان فعل الفرنجة ما ذكره وحملوا على القلب فقاتلهم من به قتالا يسيرا وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين وتبعهم الفرنجة فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنجة الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل فلما عاد الفرنجة من أثر المسلمين رأوا عسكرهم منهزما فانهزموا أيضا ولما تمت هزيمة المصريين والفرنجة سار أسد الدين بمن معه الى ثغر الاسكندرية وجبى باقى القرى على طريقه من الاموال ووصل الى الاسكندرية فتسلمها بمساعدة من أهلها سلموها اليه فاستناب بها صلاح الدين بن أخيه وعاد الى الصعيد فملكها وجبى أموالها وأقام بها حتى صام رمضان فكبر ذلك على المصريين والفرنجة واجتمعوا بالقاهرة وأصلحوا حال عسكرهم وجمعوهم وساروا الى الاسكندرية فحصروا صلاح الدين بها واشتد عليه الحصار وقل الطعام على من بالاسكندرية فصبروا على ذلك وانحدر أسد الدين من الصعيد الى الاسكندرية وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان فوصل رسل الفرنجة والمصريين يطلبون الصلح * قال بعض الكتاب وبذلوا الى أسد الدين خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد فأجاب الى ذلك واشترط على الفرنجة أن يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منها قرية واحدة فأجابوه الى ذلك واصطلحوا وعادوا الى الشام وتسلم المصريون الاسكندرية من نصف شوال من السنة ووصل أسد الدين شيركوه الى دمشق ثامن عشرى ذى القعدة ۞ أما الفرنجة فانهم اتفقوا مع المصريين بأن يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بيد طائفة من فرسانهم ليمتنع نور الدين من انفاذ عسكر اليهم ويكون لهم من دخل مصر فى كل سنة مائة ألف دينار وهذا كله استقر مع شاور اذ لم يكن للعاضد حكم ولا كلمة وقد حجب عن الأمور كلها وعاد جماعة الفرنجة بعد ذلك الى الساحل الشامى وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم وكان الكامل شجاع بن شاور أرسل الى نور الدين سرا مع بعض الامراء ينهى محبته وولاءه ويسأله الدخول فى طاعته وتعاهدوا أن يفعل

هذا وبذل مالا يحمله فى كل سنة فأجابه نور الدين الى ذلك فحمل اليه ابن شاور مالا جزيلا
وبقى الأمر على هذا الحال وشاور لايعلم بالخبر * فلما كانت سنة أربع وستين وخمسمائة
قصد أسد الدين ديار مصر ثالثة ومعه العسكر النورى فملكها وجعل يتصرف فيها * وتحرير
الخبر أنه لما تمكن الفرنجة من البلاد المصرية وجعلوا لهم شحنة فى القاهرة حكموا وتصرفوا
فى الأمور وشددوا على الرعية فضج المسلمون واستغاثوا فأرسل الفرنجة الى ملكهم
بالشام المسمى مرى وكان أشجع ملوكهم بالشام يستدعونه ليملكها وأعلموه
خلوها من ممانع وهونوا عليه أمرها فلم يجبهم الى ذلك * قال أصحاب التاريخ فاجتمع اليه
فرسان الفرنجة وذو والرأى منهم فأشاروا عليه بتملكها فقال لهم الرأى عندى أننا
لانقصدها ولا بغية لنا فيها وأموالها تساق الينا فنقوى بها على نور الدين وان نحن
قصدناها لنملكها فان صاحبها وعسكره وجميع بلاده وفلاحيها لا يسلمونها الينا و يقاتلوننا
دونها ويحملهم الخوف على تسليمها الى نور الدين ولئن صار له فيها مثل أسد الدين كانت
العاقبة شرا علينا وأجلانا ولا محالة عن الشام فلم يقبلوا قوله وألحوا عليه فى قصدها فقبل
منهم على كره وشرعوا يجهزون ويشيعون أنهم انما يريدون مدينة حمص فلما سمع نور الدين
بالخبر شرع أيضا فى جمع عساكره وأمرهم بالقدوم عليه وجد الفرنجة فى السير الى مصر
فقدموها ونزلوا مدينة بلبيس وملكوها قهرا مستهل صفر ونهبوا مافيها وقتلوا وأسروا وكان
جماعة من أعيان المصريين قد كاتبوا الفرنجة ووعدوهم أن يأخذوا بناصرهم نكاية فى شاور
وتخلصا من جوره منهم ابن الخياط وابن فرحلة فاشتد عضد الفرنجة وساروا من بلبيس
الى مصر فنزلوا على القاهرة عاشر صفر وحاصروها فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم ما فعلوه
بأهل بلبيس فحملهم الخوف على الامتناع فحفظوا البلد وقاوموا دونه وبذلوا جهدهم فى حفظه
وأمر شاور باحراق مدينة مصر تاسع صفر وأمر أهلها بالجلاء عنها الى القاهرة وأن ينهب
البلد فانتقلوا وبقوا على الطرق فى حالة تبكى الناظر ونهبت المدينة وأصبح أهلها
لا يملكون شيأ وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنجة عليهم بيوم فبقيت النار تضطرم
فيها وتحرقها أربعة وخمسين يوما فكانت شدة لم يسبق لها مثال ومنظر تتفطر منه الاكباد
واشتد الفرنجة فى الحصار فعم البلاء وكبر خوف الناس فأرسل العاضد العبيدى الى نور
الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنجة وأرسل فى الكتب شعور نسائه
وقال هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنجة فلما وصلت كتب
العاضد الى نور الدين كبر عليه الامر وشرع فى تسيير الجيوش أما الفرنجة فانهم لما علموا
بعزم نور الدين اشتدوا فى حصار القاهرة وضيقوا على أهلها وشاور هو ولى أمر العساكر
فضاق به الخناق وضعف عن ردهم فأخلد الى اعمال الحيلة وأرسل الى ملك الفرنجة
يذكره مودته وصداقته له قديما وأن هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد صاحب البلاد
وانما المسلمون لايوافقونه على التسليم اليه ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يتسلم البلاد نور الدين

فأجابه مرى الى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينار مصرية يعجل بالبعض ويمهل بالبعض فاستقرت القاعدة على ذلك فعجل لهم شاور بمائة ألف دينار وسألهم الرحيل عنها ليجمع لهم المال فرحلوا قريبا وجعل شاور يجمع لهم المال من أهالى القاهرة ومصر فلم يتحصل الامقدار خمسة آلاف دينار وذلك لان أهل مصر كانت قد احترقت بيوتهم وما فيها وما سلم من الحريق نهب وهم لايقدرون على الاقوات فضلا عن الاقساط وأما أهل القاهرة فلان أغلب أهلها الجند وغلمانهم تعذر عليهم المال وهم فى خلال ذلك يراسلون نور الدين بما أصبح الناس فيه وبذلوا له ثلث بلاد مصر وأن يكون أسد الدين مقيما عندهم فى عسكره واقطاعهم من البلاد المصرية أيضا خارج عن الثلث الذى لهم وكان نور الدين لما وصلت كتب العاضد اليه بحلب أرسل الى أسد الدين يستدعيه اليه فخرج القاصد فى طلبه فلقيه على باب حلب وقد قدمها من حمص وكانت اقطاعا له وسبب وصوله أن كتب المصريين وصلت اليه أيضا فى هذا المعنى فسار الى نور الدين واجتمع به فعجب نور الدين من حضوره فى الحال وسر بذلك وتفاءل به وأمر بالتجهز الى مصر وأعطاه مائتى ألف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة وغير ذلك وحكمه فى العسكر والخزائن فاختار من العسكر ألفى فارس وأخذ المال وجمع ستة آلاف فارس وسار هو ونور الدين الى باب دمشق فوصلها سلخ صفر ورحل الى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس ممن كان مع أسد الدين عشرين دينارا معونة غير محسوبة من جامكيته وأضاف الى أسد الدين جماعة آخرين من الامراء منهم مملوكه عز الدين جرديك وغرس الدين قلج وشرف الدين برغش وعين الدولة الياروقى وقطب الدين ينال بن حسان المنبجى وصلاح الدين يوسف بن أيوب أخى شيركوه على كره منه وسار أسد الدين شيركوه من رأس الماء مجدّا منتصف ربيع الاول فلما قارب مصر رحل الفرنجة الى بلادهم وسمع نور الدين بعودهم فسره ذلك جدا وأمر بضرب البشائر فى البلاد وبعث رسله الى الآفاق مبشرين بذلك فلما وصل القاهرة ودخل اليها اجتمع بالعاضد لدين الله فخلع عليه العاضد وعاد الى خيامه بالخلعة وفرح به أهل مصر وأجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع من ذلك لانه رأى أن العساكر كثيرة مع أسد الدين وهوى العاضد العلوى معه فلم يتجاسر على اظهار مافى نفسه وقد كان يكره بقاء أسد الدين فى مصر ويخشى منه على نفسه وشرع يماطل أسد الدين فى تقرير ماكان بذله لنور الدين من المال والاقطاع للجند وافراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم الى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه

وعزم شاور يوما على أن يعمل دعوة يدعو اليها أسد الدين والامراء الذين معه ويقبض عليهم ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الفرنجة وكان ابنه الكامل فى ذلك فنهاه وقال له والله لئن عزمت على هذا الامر لأعلمن به شيركوه فقال له أبوه لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعا فقال صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية خير من أن نقتل وقد

ملكها الفرنجة فترك شاور ما كان قد عزم عليه ورأى العسكر النورى الذين مع أسد الدين مطل شاور فخافوا شره وتكلموا فى أمره كثيرا ثم اتفق صلاح الدين يوسف بن أيوب وعز الدين جرديك وغيرهم على قتل شاور فنهاهم أسد الدين على عادته فسكتوا وهم على هذا العزم من قتله فاتفق أن قصد شاور عسكر أسد الدين كما كان يفعل كل يوم فلم يجده فى الخيام وكان قد توجه لزيارة قبر الامام الشافعى فلقيه صلاح الدين يوسف وجرديك فى جمع من العسكر فخدموه وأعلموه بان شيركوه قد انصرف لزيارة قبر الامام الشافعى فقال نمضى اليه فساروا جميعا فسايره صلاح الدين وجرديك ومازالا حتى تمكنا منه وألقياه الى الارض عن فرسه فهرب أصحابه عنه فأخذ أسيرا ولم يمكنهما قتله بغير أمر أسد الدين فتوكلا بحفظه وأعلما أسد الدين فحضر ولم يمكنه الا اتمام ما عملاه فقتل شاور ووصل الخبر بما جرى الى العاضد لدين الله العلوى فأرسل الى أسد الدين يطلب منه رأس شاور وتابع الرسل بذلك فأرسلوا رأسه الى العاضد فى السابع عشر من ربيع الآخر ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع الخلق ما أخافه على نفسه فقال لهم أمير المؤمنين يعنى العاضد يأمركم بنهب دار شاور فتفرق الناس الى الدار فنهبوها وقصد هو قصر العاضد فخلع عليه خلع الوزارة ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش فسار بالخلع الى دار الوزارة وهى التى كان بها شاور فلم ير فيها ما يقعد عليه واستقل بالامر وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع واستعمل على الاعمال من يثق به من أصحابه وأقطع البلاد لعسكره وأما الكامل بن شاور فانه لما قتل أبوه دخل القصر هو واخوته معتصمين فكان آخر العهد بهم * ذكر أن أسد الدين شيركوه حزن على شاور لانه بلغه ما كان منه مع أبيه من منعه من قتل شيركوه وما استتب الامر لشيركوه وثبتت قدماه فى منصب الوزارة حتى أتاه أجله على عجل فمات فى يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام فلما مات قام جماعة من الامراء النورية الذين كانوا معه وطلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية بعده منهم عين الدولة الياروقى وقطب الدين اينال وسيف الدين المشطوب الهكارى وشهاب الدين محمود الحارمى وهو خال صلاح الدين يوسف وكان كل واحد من هؤلاء يخطبها وقد جمع أصحابه ليغالب عليها فأرسل العاضد الى صلاح الدين وأحضره عنده وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه وكان الذى حمله على ذلك أن أصحابه قالوا له ليس فى الجماعة أضعف ولا أصغر سنا من يوسف والرأى أن يولى الوزارة فانه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من يستميلها الينا فيصير عندنا من الجند ما نمنع بهم عن البلاد ثم نأخذ يوسف أو نخرجهم فوافقهم العاضد على ذلك وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر فلم يطعه أحد من أولئك الامراء الذين يريدون الامر لانفسهم ولا خدموه وكان معه الفقيه عيسى الهكارى فسعى مع المشطوب حتى أماله الى صلاح الدين وقال له ان هذا الامر لا يصل اليك مع عين الدولة والحارمى وغيرهما ثم قصد الحارمى وقال هذا صلاح الدين هو ابن أختك وعزه وملكه لك وقد استقام له الامر

فلا تكن أول من يسعى فى اخراجه عنه ولا يصل اليك شئ فمال اليه أيضا ثم فعل هكذا بالباقين فأطاعه كلهم غير عين الدولة الياروقى فانه قال أنا لا أخدم يوسف وعاد الى نور الدين بالشام فلما استقرت بصلاح الدين الوزارة استمال اليه قلوب الناس وبذل الاموال فأحبوه وضعف أمر العاضد صاحب البلاد ولم يبق له الا الاسم ثم أرسل يوسف الى نور الدين يطلب أن يرسل اليه اخوته وأهله فأرسلهم اليه وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته وكلهم فعل ذلك وأخذ اقطاعات الامراء المصريين فأعطاها أهله والامراء الذين معهم وزادهم فازدادوا حباله وطاعة لامره وكان يوم ولاية صلاح الدين يوما مشهودا جدا * قال أبو شامة كانت الخلعة التى لبسها صلاح الدين يوم ولايته عمامة بيضاء وثوبا دمبيقيا بطراز ذهب وجبة بطراز ذهب وطيلسانا مطرزا بذهب وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار وسيفا محلى بخمسة آلاف دينار وحجرا بثمانية آلاف دينار وعليه سرج ذهب وسرسار ذهب مجوهر وفى رأسه مائتا حبة جوهر وفى قوائمه أربعة عقود جوهر وفى رأسه قبعة بذهب شديدة البياض بأعلام بيض ومع الخلعة عدة بقج وخيل وأشياء أخر ومنشور الوزارة مكتوب فى ثوب أطلس أبيض وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين قال وكان يوما مشهودا وارتفع قدر صلاح الدين بالديار المصرية واستلفت اليه القلوب وخضعت له النفوس واضطهد العاضد فى أيامه غاية الاضطهاد اه

فلما كانت سنة خمس وستين حاصر الفرنج مدينة دمياط خمسين يوما فقاتلهم صلاح الدين حتى أجلاهم وجعل صلاح الدين يأمر وينهى ويتصرف فى الامور لا رادّ لكلمته ولا أمر فوق أمره والعاضد فى قصره محجور عليه لا يعرف من أحوال البلاد شيأ ولا يدرى ماهى عليه فكان نور الدين صاحب دمشق اذا خاطب صلاح الدين يوسف لايخاطبه مع ذلك الا بالامير الاسفهلار ويكتب علامته على رأس الجواب تعظيما عن أن يكتب اسمه وكان لايفرده بكتاب بل يكتب الامير الاسفهلار صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا وأرسل نور الدين الى صلاح الدين بعد أن ضعف أمر العاضد وانحطت كلمته يأمره أن يخطب للخليفة المستنجد العباسى بمصر لان الخليفة بعث يعاتبه فى ذلك ويطلب اعادة الخطبة اليه كما كانت قبل العلويين فأخذ صلاح الدين من هذا الحين فى تذليل العاضد والتضييق عليه فى جميع أموره واشتدّ عليه شدّة بالغة فشكى العاضد من ذلك وراسل صلاح الدين وعاتبه فلم يلتفت اليه فكبر الامر على من بالقصر واتفق مؤتمن الخلافة وهو خصى كان بقصر العاضد اليه الحكم فيه والتقدم على جميع من يحويه مع جماعة من المصريين على مكاتبة الفرنجة واستدعائهم الى البلاد والتقوى بهم على صلاح الدين ومن معه وسيروا الكتب مع رجل يثقون اليه وأقاموا ينتظرون جوابه فسار ذلك القاصد الى البئر البيضاء فلقيه انسان تركمانى فرأى معه نعلين جديدين فأخذهما منه وقال فى نفسه لو كانا مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين فانه رث الهيئة وارتاب فيه وفيهما فأتى به الى

صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتب فيهما فقرأها وسكت عليه وكانت رغبة مؤتمن الخلافة
أن يحرك الفرنجة الى الديار المصرية فاذا وصلوا اليها وخرج صلاح الدين فى العسكر لقتالهم
ثار مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون بأجمعهم
يتبعون صلاح الدين فيأتون من وراء ظهره والفرنجة من بين يديه فلا تبقى لهم باقية فلما
قرأ صلاح الدين الكتاب سأل عن كاتبه فقيل انه رجل يهودى فاحضره فأمر بضربه وتقريره
فابتدأ وأسلم وأخبره بالخبر وأخفى صلاح الدين الحال واستشعر مؤتمن الدولة عما جرى
فلازم القصر ولم يخرج منه خوفا من صلاح الدين وصلاح الدين لا يظهر له شيأ من الطلب
لئلا ينكر ذلك فلما طال الامر خرج من القصر الى قرية له تعرف بالخرقانية للتنزه فلما علم
به صلاح الدين أرسل اليه جماعة فأخذوه وقتلوه وأتوا برأسه ثم عزل جميع الخدم الذين
يتولون أمر القصر واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش وهو خصى أبيض فكان لا يجرى
فى القصر صغيرة ولا كبيرة الا بأمره فغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة واجتمعوا
فزادت عدتهم على خمسين ألفا وقصدوا حرب الاجناد الصلاحية فاجتمع العسكر أيضا
وانتشبت الحرب بين القصرين وكثر القتل بين الفريقين وكاد يتم الظفر للسودان وظهرت
هزيمة الاجناد الصلاحية فأرسل صلاح الدين فى الحال الى محلة السودان المعروفة بالمنصورة
فأحرقها على أموالهم وعيالهم فلما جاءهم الخبر بذلك ولوا منهزمين فركبهم السيف وأخذت
عليهم أفواه السكك فطلبوا الامان بعد أن كثر فيهم القتل فاجيبوا الى ذلك وأخرجوا من
مصر الى الجيزة فعبر اليهم شمس الدولة أخو صلاح الدين الاكبر فى طائفة من عسكره
فأبادهم بالسيف ولم يبق منهم الا الشريد ولم يراع لهم ذمة ولا عهدا وذلك سنة أربع وستين
فكانت هذه الواقعة من الوقائع التى تمكنت بها سلطنة صلاح الدين وعلت كلمته

واشتد خوف الفرنجة بالشام من تملك أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين لمصر فقاموا
فى سنة خمس وستين وخمسمائة وكاتبوا اخوانهم بصقلية والاندلس وغيرهما يستنجدونهم
ويعرفونهم مايتجدد من ملك الترك لمصر وأرسلوا جماعة يستنهضونهم فأمدوهم بالمال والرجال
والسلاح واستعدوا للنزول على دمياط فلما عزموا على الرحيل كان أسد الدين قدمات كما تقدم وملك
صلاح الدين فاجتمعوا عليها وحصروها وضيقوا على من بها فأرسل اليها صلاح الدين العساكر
فى النيل وحشد فيها كل من عنده وأمدهم بالاموال والسلاح والذخائر وأرسل الى نور الدين
يشكو ماهم فيه من المخافة ويقول انى ان تأخرت عن دمياط ملكها الفرنجة وان سرت
اليها خلفنى المصريون فى أهلها بالشر وخرجوا عن طاعتى وساروا فى أثرى والفرنجة أمامى
فلا يبقى لنا باقية فسير نور الدين العسكر اليه أرسالا يتلو بعضهم بعضا ثم سار هو بنفسه
الى بلاد الفرنجة الشامية فنهبها وأغار عليها واستباحها فوصلت الغارات الى ما لم تكن تبلغه
قبل لخلو البلاد من ممانع فلما رأى الفرنجة تتابع العساكر الى مصر ودخول نور الدين الى
بلادهم ونهبها وتخريبها رجعوا ولم يظفروا بشئ وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما

وأخرج فيها صلاح الدين من الاموال مالا يكاد يدخل تحت الحصر * حكى انه قال مارأيت أكرم من العاضد أرسل الىّ مرة لمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها وأرسل صلاح الدين الى نور الدين والخليفة المستنجد بالله العباسى يعلمهما بأنه على عزم اعادة الخطبة الى المستنجد بديار مصر ففرح الخليفة المستنجد وأرسل الى نور الدين يستحثه على ذلك وظل المستنجد يتصرّف فى الخلافة ويدبر أمرها جهد الاستطاعة حتى وافته المنية فى الثامن من ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة هجرية يقال ان سبب موته انه مرض واشتد عليه المرض وكان قد خافه أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز القتفوى وهو حينئذ أكبر أمير فى بغداد فلما اشتدّ مرض الخليفة اتفقا ووصيا الطبيب على أن يصف له مايؤذيه فوصف له دخول الحمام فامتنع لضعفه فأدخلوه هم قهرا وأغلقوا عليه بابه فمات وقيل ان الخليفة كتب الى وزيره مع طبيبه ابن صفية يأمره بالقبض على أستاذ الدار وقطب الدين وصلبهما فاجتمع ابن صفية بأستاذ الدار وأعطاه خط الخليفة فقال له تعود وتقول انى أوصلت الخط الى الوزير ففعل ذلك وحضر أستاذ الدار وقطب الدين ويزدن وأخوه تنامش وعرض الخط عليهم فاتفقوا على قتل الخليفة فلم يكن بأسرع من أن دخل عليه يزدن ومعه قايماز الحميدى فحملاه الى الحمام وهو يستغيث وألقياه وأغلقا الباب عليه وهو يصيح الى أن مات ۞ وكان بين وزير الخليفة أبى جعفر ابن البلدى وبين أستاذ الدار وقطب الدين عداوة مستحكمة لان المستنجد بالله كان يأمر الوزير بأشياء تتعلق بهما فيفعلها فكانا يظنان انه هو الذى يسعى بهما فلما مرض الخليفة وأرجف بموته ركب الوزير ومعه الامراء والاجناد وغيرهم بالعدد فلم يتحقق عنده خبر موته فأرسل اليه عضد الدين يقول ان أمير المؤمنين قد خف ما به من المرض وأقبلت اليه العافية فخاف الوزير أن يدخل دار الخلافة بالجند فربما أنكر عليه ذلك فعاد الى داره وتفرّق عنه الناس وكان عضد الدين أستاذ الدار وقطب الدين قد استعدا للهرب لما ركب الوزير خوفا منه ان دخل الدار أن يأخذهما فلما عاد أغلق أستاذ الدار أبواب الدار وأظهروا وفاة المستنجد وأحضر هو وقطب الدين أبا محمد الحسن بن الخليفة المستنجد وبايعاه بالخلافة ولقباه المستضىء بنور الله وشرطا عليه شروطا أن يكون عضد الدين وزيرا وابنه كمال الدين استاذ الدار وقطب الدين أمير العسكر فأجابهم الى ذلك فبايعه بعد ذلك أهل بيته البيعة الخاصة يوم توفى أبوه وبايعه الناس من الغد فى التاج البيعة العامة وعلم الوزير ابن البلدى بما جرى فسقط فى يده وقرع سنه ندما على ما فرط من عوده وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضىء فمضى الى دار الخلافة فلما دخلها صرف الى موضع ثم دخل عليه جماعة فقتلوه وقطعوه قطعا وألقوها فى دجلة وأخذوا جميع ما فى داره فرأوا فيها خطوط المستنجد بالله يأمره فيها بالقبض على أستاذ الدار وقطب الدين وخط الوزير قد راجعه فى ذلك وصرفه عنه فلما وقفا عليها عرفا براءته مما كانا يظنان فيه

فندما على تفريطهما فى قتله

وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلا شهما كثير الرفق بهم شديدا على أهـل العبث والفساد والسعاية بالناس * قال صاحب الكامل بلغنى انه قبض على انسان كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لى انسانا آخر مثـله لأكف شره عن الناس ولم يطلقـه قال ورد كثيرا من الاموال الى أصحابها وقبض على القاضى ابن المرخم وقد أخذ منه مالا كثيرا فأعاده الى أصحابه وكان ابن المرخم ظالما جائرا فى أحكامه اه

ومات فى خـلافة المستنجد انوستودولو بطرك الاسكندرية فكانت مدته ثلاثين سـنة كلها احن وشدائد وكان موته بكنيسة المعلقة بقصر الشمع بفسطاط مصر فبقى الكرسى خاليا مـدّة اثنين وسبعين يوما ثم أقيم بعده كيرواس الثانى وهو سابع ستيهم كان حبيسا بصومعة سنجار واسمه يرجس من أهل اقلامه فأقام أربع عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصـفا لم يقع فيهـا من الحوادث شئ يذكر ومات بكنيسة المختار من جزيرة مصر المعروفـة بالروضـة وهو أول من عـمـل الكسوة البطريكية من ديباج أزرق وبلارية من ديباج أحمر بتصاوير ذهب وقطع الشرطونية فلم يول بعده بطركا مدة مائة وأربعـة وعشرين يوما ثم أقيم خائـل وهو ثامن ستيهم وأصله من بلدة سخا وكان حبيسا بصومعـة سنجار وكان من الحوادث فى أيامـه ماسيذكر فى محله

(الفصل الثالث والثلاثون)

(فى خلافة المستضىء بنور الله بن المستنجد)

ثم قام بالامر بعد المستنجد أبو الحسن على المسـتضىء بنور الله بويع له بالخـلافة يوم موت أبيه فى ثامن ربيع الثانى سنة ست وستين وخمسمائة هجرية أى سنة سـبعين ومائة وألف ميلادية وخطب له باليمن والديار المصرية وقد كانت الخطبة العباسية منقطعة منهامن زمن المطيع كما تقدم الكلام وكان صلاح الدين يوسف قد شرع من أيام المستنجد فى تمهيد الخطبـة لبنى العباس فقطع الاذان بحىّ على خير العمل من ديار مصر كلها وعزل قضاة مصر لانهم كانوا شيعة وولى أقضى القضاة بها صـدر الدين بن درباس الشافعى واستناب فى سائر الاعمـال شافعية فلما كانت سنة سبع وستين أمر صلاح الدين باقامة الخطبـة لبنى العباس بمصر أول جمعة من المحرم وبالقاهرة فى الجمعة الثانية فكان ذلك يوما مشهودا قالوا والعجب ان أول من خطب للمعز حـين أخـذت مصر عمر بن عبـد السميع الخطيب بجامع عمـرو

وبجامع ابن طولون فكان أول من خطب لبنى العباس هـذه النوبة شريف علوى يقال له محمد بن الحسن بن أبى الضياء البعلبكى وسير صلاح الدين الخبر بذلك الى نور الدين فأرسل نور الدين الى الخليفة المستضىء يعلمه بذلك فزينت بغداد وأغلقت الاسواق وعملت القباب وفرح المسلمون فرحا عظيما قال ابن الجوزى وقد ألفت فى ذلك اليوم كتابا سميته النصر على مصر وكتب العماد الكاتب صلاح الدين الى الملك نور الدين صاحب دمشق يبشره بذلك

قد خطبنا للمستضىء بمصر * نائب المصطفى امام العصر

فى أبيات قد أضربنا عن ايرادها هنا صفحا * وقال بعض شعراء بغداد فى ذلك أبياتا كثيرة منها

ليهنك يا مولاى فتح تتابعت * اليك به خوص الركائب توجف
أخذت به مصرا وقد حال دونها * من الترك ناس فيهم الحق يقذف
فعادت بحمد الله باسم امامنا * تتيه على كل البلاد وتشرف
ولا غرو أن ذلت ليوسف مصره * وكانت الى عليائه تتشوف
تملكها من قبضة الكفر يوسف * وخلصها من عصبة الرفض يوسف
كشفت بها عن آل هاشم سبأ * وعارا أبى الا بسيفك يكشف

وهى طويلة ۞ قال صاحب حسن المحاضرة قال أبو شامة أنشدت هذه القصيدة للخليفة قبل موته عند تأويل منام رؤى فى هذا المعنى وأراد بيوسف الثانى الخليفة المستنجد فلم يخطب الا لولده المستضىء بجرى الفأل باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب قال صاحب الكامل عند ذكر حوادث سنة سبع وستين وخمسمائة * وفى هذه السنة فى ثانى جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله أبى محمد الامام عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد بن أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله أبى على المنصور بن نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد بن المنصور بالله أبى القاهر اسمعيل بن القائم بأمر الله أبى القاسم محمد ابن المهدى بالله أبى محمد عبيد الله وهو أول العلويين من هذا البيت الذين خطب لهم بالخلافة وخوطبوا بامرة أمير المؤمنين وكان السبب فى اعادة الخطبة العباسية بمصر أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبت قدمه بمصر وأزال المخالفين له وضعف أمر الخليفة العاضد وصار يحكم فى قصره صلاح الدين ونائبه قراقوش الخصى وهو من أعيان الامراء الاسدية كلهم يرجعون اليه فكتب اليه نور الدين محمد بن زنكى يأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة المستضيئية فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليهم لميلهم الى العلويين وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم خوفا من نور الدين فانه كان يخاف أن يدخل الى الديار المصرية فيأخذها منه فكان يريد أن يكون العاضد معه حتى اذا قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه قال

فلما اعتذر الى نور الدين بذلك لم يقبل عذره وألح عليه بقطع خطبته وألزمه الزاما لا فسحة له فى مخالفتـه وكان على الحقيقة نائب نور الدين واتفق ان العاضد مرض فى هذا الوقت مرضا شـديدا فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار أمراءه فنهم من أشار به ولم يفكر فى المصريين ومنهم من خافه الا أنه لم يمكنه الا الامتثال لأمر نور الدين وكان قد دخل الى مصر انسان أعجمى يعرف بالأمير العالم رأيته أنا بالموصل فلما رأى ما هم فيه من الاحجام وأن أحدا لا يتجاسر يخطب للعباسى قال أنا أبتدئ بالخطبة له فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنـبر قبل الخطيب ودعا للمستضئ ففعلوا ذلك فلم ينتطح فيها عـنزان وكتب بذلك الى سائر بلاد مصر ففعلوا وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله ولا من أصحابه بقطع الخطبـة وقالوا ان عوفى فهو يعلم وان توفى فلا ينبغى أن نفجعه بمثـل هذه الحـادثة قبل موته فتوفى يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة * فلما توفى جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه فحفظه بهاء الدين قراقوش الذى كان رتبه قبل موت العاضد فحمل الجميع الى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيـه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثـله ومن الجواهر التى لم توجد عند غـيرهم فمنـه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالا قال أنا لا أشـك فانى رأيته ووزنته واللؤلؤ الذى لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرذ الذى طوله أربع أصابع فى عرض عقد كبير ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالتحفظ عليـه فلما رأوه ظنوه عمـل لأجل اللعب به فسخروا من العاضد فأخذه انسان فضرب به فضرط فتضاحكوا منـه ثم آخر كذلك وكان كل من ضرب عليـه يضرط فألقاه أحـدهم فكسره فاذا الطبل عمـل لاجل القولنج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك ۞ قلت وهو موضع للنظر * قال وكان فيـه من الكتب النفيسة المعدومة المثال ما لا يعد فباع بعض من فيـه من أمة وعبد وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه كأن لم يغن بالامس فسـبحان الحى الدائم الذى لا يزول ملكه ولا تغـيره الدهور ولا يقرب النقص حماه ولما اشـتد مرض العاضـد أرسل الى صـلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يمض اليه فلما توفى علم صدقه فندم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيرا بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه وانقياده وكان فى نسبه تسعة خطب لهم بالخلافة وهم الحافظ والمستنصر والظاهـر والحاكم والعزيز والمعز والمنصور والقائم والمهـدى ومنهـم من لم يخطب له بالخلافة وهو أبوه يوسف بن الحافظ وجد أبيه وهو الأمير أبو القاسم محمد بن المستنصر وبقى من خطب له بالخلافة وليس من آبائه وهم المستعلى والآمر والظافر والفائز وجميع من خطب له منهم بالخلافة أربعة عشر خليفة منهم بافريقية المهدى والقائم والمنصور والمعز الى أن سار الى مصر ومنهـم بمصر المعز المذكور وهو أول من خرج اليها من افريقيـة والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمسـتعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد

ومدة حكمهم من حين ظهور المهدى بسلجماسة فى ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين الى أن مات العاضد مائتان واثنتان وسبعون سنة وشهر تقريبا وهذا دأب الدنيا لم تسكن الا اضطربت ولم تعط الا استلبت ماوهبت ولم تحل الا وتمررت ولم تصف الا وتكدرت بل صفوها لايخلو من الكدر وكدرها قد يخلو من الصفو نسأل الله تعالى أن يقبل بقلوبنا اليه ويرينا الدنيا حقيقة ويزهدنا فيها ويرغبنا فى الآخرة انه سميع الدعاء قريب من الاجابة ۞ قال ابن خلكان سمعت جماعة من المصريين يقولون ان هؤلاء القوم يريدون العبيديين فى أوائل دولتهم قالوا لبعض العلماء اكتب لنا ألقابا فى ورقة تصلح للخلفاء حتى اذا تولى واحد منا لقبوه ببعض تلك الالقاب فكتب لهم ألقابا وآخر ما كتب فى الورقة العاضد فاتفق أن آخر من ولى منهم العاضد اه ۞ قال ابن الاثير ومن الغريب أن العاضد فى اللغة القاطع وفى الحديث لا يعضد شجرها فبالعاضد قطعت دولة بنى عبيد * قلت وزالت من ديار مصر وانمحت آثارها وقامت مكانها الدولة الايوبية

ولما وصلت البشائر الى بغداد باعادة الخطبة للخليفة العباسى كما سبقت الاشارة الى ذلك سيّر الخليفة الخلع مع عماد الدين صندل وهو من خواص الخدم والمقدمين فى الدولة لنور الدين وصلاح الدين فسار صندل الى نور الدين وألبسه الخلعة وسيّر الخلعة الى صلاح الدين بالديار المصرية والاعلام السود ثم أرسل الخليفة الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف كتاب التقليد ولم نحجم عن ايراده هنا مع طوله تتميما للفائدة قال ۞ أما بعد فان أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذى يكون لكل خطبة قيادا * ولكل أمر مهادا * ويستزيده على نعمته التى جعلت التقوى له زادا * وحملته أعباء الخلافة فلم يضق عنه طوقا ولم يأل فيه اجتهادا * وصغر لديه أمر الدنيا فما تسورت له محرابا ولا عرضت عليه جيادا * وحققت فيه قوله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا * ثم يصلى على من أنزلت الملائكة لنصره امدادا * وأسرى به الى السماء حتى ارتقى سبعا شدادا * وتجلى له ربه فلم يزغ منه بصر ولا كذب فؤادا * ثم من بعده على أسرته الطاهرة التى زكت أوراقا وأعوادا * وورثت النور المبين بلادا * ووصفت بأنها آخر الثقلين هداية وارشادا * وخصوصا عمه العباس المدعوّ له بان يحفظ نفسا وأولادا * وأن تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة لا تخاف دركا ولا تخشى نفادا * واذ استوفى القلم مراده من هذه الجمله * وأنبأ القول فيها عن فصاحته المرسله * فانه يأخذ فى انشاء هذا التقليد الذى جعله حليفا لقرطاسه * واستدام سجوده على صفحته حتى لم يكد يرفع من راسه * وليس ذلك الا قناصة فى وصف المناقب التى كثرت فحسن لها مقام الاكثار * واشتبه الطويل فيها بالاختصار * وهى التى لا يعزى واصفها الى القول المعاد * ولم يستوعر سلوك أطوادها ومن العجب وجود السهل فى سلوك الاطواد * وتلك هى مناقبك أيها الملك الناصر السيد الأجل الكبير العالم العادل المجاهد المرابط صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن

أبوب والديوان العزيز يتلوها عليك تحدثا بشكرك * ويباهى أولياءه تنويها بذكرك * ويقول أنت الذى تستكفى فتكون للدولة سهمها الصائب * وشهابها الثاقب * وكنزها الذى تذهب الكنوز وليس بذاهب * وحاضرها وقد حضرت فى نصرتها اذا كان غيرك هو الغائب * فاشكر اذا مساعيك التى أهلتك لما أهلتك * وفضلتك على الاولياء بما فضلتك * ولئن شوركت فى الولاء بعقيدة الاضمار * فلم تشارك فى عزمك الذى انتصر للدولة بسطة الانتصار * وفرق بين من أمدّ بقلبه وبين من أمدّ بيده فى درجات الامداد * وما جعل الله القاعد كالذى قال لو أمرتنا لضربنا أكبادها الى برك الغماد * وقد كفاك من المساعى أنك كفيت الخلافة أمر منازعيها * وطمست على الدعوة الكاذبة التى كانت تدعيها * ولقد مضى عليها زمن ومحراب حقها محفوف من الباطل بعرا بين * ورأيت ماراه رسول الله صلى الله عليه وسلم من السوارين اللذين أولهما كذا بين * فبمصر منهما واحد تجرى أنهارها من تحته ودعا الناس الى عبادة طاغوته وجبته * ولعب بالدين حتى لم يدر يوم جمعته من يوم أحده ولا يوم سبته * وأعانه على ذلك قوم رمى الله بصائرهم بالعمى والصمم * واتخذوه صنما ولم تكن الضلالة هنالك الا لعجل أو صنم * فقمت أنت فى وجه باطله حتى قعد * وجعلت فى جيده حبلا من مسد * وقلت ليده تبت فاصبح ولايسعى بقدم ولايبطش بيد * وكذلك فعلت بالآخر الذى نجمت باليمن ناجمته * وسامت فيه سائمته * فوضع بيته موضع الكعبة اليمانيه * وقال هذا ذو الخلصة الثانيه * فأىّ مقاميك يعترف الاسلام بسبقه * أم أيهما يقوم باداء حقه * وههنا فليصبح القلم للسيف من الحساد * ولتقصر مكانته من مكانته وقد كان له من الانداد * ولم يحط بهذه المزية الا أنه أصبح لك صاحبا * ونحر بك حتى طار نخرا كما عز جانبا * وقضى بولايتك فكان بها قاضيا لما كان حده ماضيا * وقد قلدك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمنية غورا ونجدا * وما اشتملت عليه رعية وجندا * وما انتهت اليها أطرافها برا وبحرا * وما تستنقذه من مجاوريها مسالمة وقهرا * وأضاف اليها بلاد الشام وماتحتوى عليه من المدن الممدنة * والمراكز المحصنة * مستثنيا منها ماهو بيد نور الدين اسماعيل بن نور الدين محمد رحمه الله وهو حلب وأعمالها فقد مضى أبوه عن آثار فى الاسلام ترفع ذكره فى الذاكرين * وتخلفه فى عقبه فى الفائزين * وولده هذا قد هذبته الفطرة فى القول والعمل * وليست هذه الربوة الامن ذلك الجبل * فليكن له منك جار تدنو منه ودادا كما دنا أرضا * وتصبح وهو لك كالبنيان يشدّ بعضه بعضا * والذى قدمناه من الثناء عليك رعيا تجاوزتك درجة الاقتصاد * وألقتك عن فضيلة الازدياد * فاياك أن تنظر الى سعيك نظر الاعجاب * فتقول هذه بلادنا افتتحتها بعد أن أضرب عنها كثير من الأضراب * ولكن اعلم أن الارض لله ورسوله ثم لخليفته من بعده * فلا منة للعبد باسلامه بل المنة لله بهداية عبده * وكم سلف قبلك ممن لو رام مارمته لدنا شاسعه * وأجلب مانعه *

لكن ذخره الله لك لتحظى فى الآخرة بعفازه * وفى الدنيا برقم طرازه * فألق بيـدك عن هذا القول القاء التسليم * وقل لاعلم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم * وقد قرن تقليـدك هـذا بخلعة تكون لك فى الاسـلام شعارا * وفى الرسم فخارا * وتناسب محل قلبـك وبصرك * وخـير ملابس الاولياء ما ناسب قلوبنا وأبصارنا * ومن جملتها طوق يوضع فى عنقك موضع العهد والميثاق * ويشـير اليك بأن الانعام قد أطاف بك اطافة الاطواق بالاعناق * ثم انك خوطبت بالملك وذلك خطاب يفضى لصـدرك بالانشراح * ولأملك بالانفساح * وتؤمر معـه بمدّ يدك العليـا لاتضعها الى الجناح * وهذه الثلاثة المشار اليها هى التى تكمل بها أقسام السياده * وهى التى لا مزيد عليها فى الاحسان فيقال انها الحسنى وزياده * فاذا صارت اليك فانصب لها يوما يكون فى الايام كريم الانساب * واجعـله لها عيـدا وقل هذا عيد الخلعة والتقليد والخطاب * هذا ولك عنـد أمير المؤمنين مكانة تجعله لك حاضرا وأنت ناء عن الحضور * وتضن أن تكون مشـتركة بينك وبين غيرك والضنة من شيم الغيور * وهـذه المكانة قد عرّفتـك نفسها وما كنت تعرفها * وما تقول الا أنها لك صاحبـة وأنت يوسـفها * فاحرسها عليك حراسة تقضى بتقـديمها * واعمل لها فان الاعمال بخواتيمها * واعلم أنك تقلدت أمرا يفتتن به التقى الحـلوم * ولا ينفك صاحبـه عن عهدة الملوم * وكثيرا ماترى حسناته يوم القيامة وهى منقسمة بأيدى الخصوم * ولا ينجو من ذلك الا من أخذ أهبة الحذار * وأشفق من شهادة الاسماع والأبصـار * وعلم أن الولاية ميزان احدى كفتيه فى الجنة والاخرى فى النار * قال النبى صلى الله عليه وسلم يا أبا بكر انى أحب لك ما أحبـه لنفسى لاتؤمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم فانظر الى هذا القول النبوى نظر من لم يخدع بحديث الحرص والآمال * ومثل الدنيا وقد سيقت اليك بحذافيرها أليس مصيرها الى الزوال * والسعيد من اذا جاءته قضى بها أرب الارواح لا أرب الجسوم * واتخـذ منها وهى السم دواء وقـد تتخـذ الادوية من السموم * وما الاغتباط بما يختلف على تلاشـيه المساء والصـباح * وهو كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشـيما تذروه الرياح * والله يعصم أمير المؤمنين وولاة أمره من تبعاتها التى لا بسـتهم ولابسوها * وأحصاها الله ونسوها * ولك أنت من هـذا الدعاء حظ على قـدر محلك من العناية التى جـذبت بضـبعك * ومحلك من الولاية التى بسطت من ذرعك * فخذ هذا الأمر الذى تقلدته أخذ من لم يتعقبه بالنسيان * وكن فى رعاية من اذا نامت عيناه كان قلبه يقظان * وملاك ذلك كله فى اسباغ العدل الذى جعله الله ثالث الحديث والكتاب * وأغنى بثوابه وحده عن أعمال الثواب * وقدر يوما منه بعبادة ستين عاما فى الحساب * ولم يأتمر به أمير الا زيد قوة فى أمره * وتحصن به من عدوه ومن دهره * ثم يجاء به يوم القيامـة وفى يده كتاب أمان * ويجلس على منبر من نور على يمين الرحمن * ومع هـذا فان مركبه صعب لا يستوى على ظهره الا من أمسك عنان نفسه

قبل

قبل عنانه * وغلبت لمة ملكه على لمة شيطانه * ومن أكبر فروضه أن تمحى السير السيئة التى طالت مدد أيامها * وأيس الرعايا من رفع ظلاماتها فلم يجعلوا أمدا لانحسار ظلامها * تلك السير هى المكوس التى أنشأتها الهمم الحقيره * ولا غنى للايدى الغنية اذا كانت ذات نفوس فقيره * وكلما زيدت الاموال الحاصلة منها قدرا زادها الله محقا * وقد استمرت عليها العوائد حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الموجبة فسموها حقا * ولولا أن صاحبها أعظم الناس جرما لما أغلظ فى عقابه * وقبلت توبة المرأة الغامدية عتابه * وهى أشق من يكون السواد الاعظم له خصما * ويصبح وهو مطالب بما يعلم وبما لم يحط به علما * وأنت ملمور بأن تأبى هذه الظلامات فتنهى عن اجرائها * وتلحق أسماءها فى المحو واهمالها * حتى لا يبقى لها فى العيان صورة منظوره * ولا فى الالسنة أحاديث مذكوره * واذا فعلت ذلك أزلت عن الماضى سنة سوء سنتها يداه فبادر الى ما أمرت به مبادرة من يضيق به ذراعا * ونظر الى الحياة الدنيا بعينها فرآها فى الآخرة متاعا * واحمد الله على أن قيض لك اماما مهديا يقف بك على هداك * ويأخذ بحجزتك عن خطوات الشيطان الذى هو أعدى عداك * وهذه البلاد المنوطة بنظرك تشتمل على أطراف متباعده * وتفتقر فى سياستها الى أيد متساعده * ولهذا يكثر بها قضاة الاحكام * وأولو تدبيرات السيوف والاقلام * وكل من هؤلاء ينبغى أن يفتن على الاختبار * ويسلط عليه شاهد عدل من أمانته الدرهم والدينار * فما أضل الناس شئ كحب المال الذى فرقت من أجله الاديان * وهجرت بسببه الاولاد والاخوان * وكثيرا ما يرى الرجل الصائم القائم وهو عابد له عبادة الاوثان * فاذا استعنت بأحد منهم على شئ من أمرك فاضرب عليه بالارصاد * ولا ترض بما عرفته من مبدا حاله فان الاحوال تنقل بتنقل الاجساد * واياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد * وكذلك تأمر هؤلاء على اختلاف طبقاتهم بأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر محاسبين * ويعلموا أن ذلك من دأب حزب الله الذين جعلهم الغالبين * وليبدؤا أولا بأنفسهم فيعدلوها عن هواها * ويأمروها بما يأمرون به سواها * ولا يكون ممن هدى الى طريق البر وهو عنها حائد * وانتصب لطب المرضى وهو محتاج الى طبيب وعائد * فما تنزل بركات السماء الا على من خاف مقام ربه * وألزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه * فاذا صلحت الولاة صلحت الرعية بصلاحهم * وهم لهم بمنزلة المصابيح ولا يستضئ كل قوم الا بمصابيحهم * ومما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم اخوانا فى الاصحاب وجيرانا فى الاقتراب * وأعوانا فى توزع الحمل الذى يثقل على الرقاب * فالمسلم أخو المسلم وان كان عليه أميرا * وأولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كبيرا * وليست الولاية لمن يستنجد بها كثرة اللفيف * ويتولاها بالوطء العنيف * ولكنها لمن يمال عن جوانبه * ويؤكل من أطايبه * ولمن اذا غضب لم ير للغضب عنده أثر * واذا ألحف فى سؤاله تخلق بخلق الضجر * واذا

حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم فى قسمة القول والنظر * فذلك الذى يكون صاحبه فى أصحاب اليمين * والذى يدعى بالحفيظ العليم والقوى الامين * ومن سعادة المرء أن تكون ولاته متأدبين بآدابه * وجارين على نهج صوابه * واذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانوا حسنات مثبتة فى كتابه * وبعد الوصية فان ههنا حسنة للحسنات كالأم للولد ولطالما أغنت عن صاحبها اغناء الجود * وتيقظت لنصره والعيون رقود * وهى التى تسمى لها اللالاء * ولا يتخطاها البلاء * ولأمير المؤمنين عناية يتبعها الرحمة الموضوعة فى قلبه * والرغبة فى المغفرة والرحمة لما تقدم وتأخر من ذنبه * وتلك هى الصدقة التى فضل الله بعض عباده بعزية افضالها * وجعلها سببا الى التعويض عنها بعشر أمثالها * وهو يأمرك أن تتفقد أحوال الفقراء الذين قدرت عليهم مادة الارزاق * وألبسهم التعفف ثوب الغنى وهم فى ضيق من الاملاق * فأولئك أولياء الله الذين مستهم الضراء فصبروا * وكثرت الدنيا فى يد غيرهم فما نظروا اليها اذا نظروا * وينبغى لك أن تهيئ لهم من أمرهم مرفقا * وتضرب بينهم وبين الفقر موبقا * وما أطلنا لك القول فى هذه الوصية الا اعلاما بأنها من المهم الذى يستقبل ولا يستدبر * ويستكثر منه ولا يستكبر * وهذا بعد من جهاد النفس فى بذل المال * ويتلوه جهاد العدو الكافر فى مواقف القتال * وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه بما يجعل السيف فى ملازمته أخا * وتسخو له بنفسك ان كان أحد بنفسه سخا * ومن صفاته أنه العمل المحبوب بفضل الكرامه * الذى ينمو أجره بعد صاحبه الى يوم القيامه * وبه يمتحن طاعة الخالق على المخلوق * وكل الاعمال عاطلة لا خلوق لها وهو المختص دونها بزينة الخلوق * ولولا فضله لما كان محسوبا بشطر الايمان * ولما جعل الله الجنة ثمنا وليست لغيره من الاثمان * وقد علمت أن العدو هو جارك الادنى * والذى يبلغك وتبلغه عينا وأذنا * ولتكن للاسلام نعم الجار * حتى لا يكون له بئس الجار * ولاعذر لك فى جهاده بنفسك ومالك اذا قامت لغيرك الاعذار * وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مصالحا * أو تطرق أرضه مماسيا أو مصابحا * بل يريد أن تقصد البلاد التى فى يد عدوه قصد المغير * وأن تحكم فيها بحكم الله الذى قضاه على لسان سعد فى بنى قريظة والنضير * وعلى الخصوص البيت المقدس فانه بلد السلام القديم * وأخو البيت الحرام فى الشرف والتعظيم * والذى توجهت اليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم * وقد أصبح وهو يشكو طول الوحشة فى غربتها عنه وغربته فانهض اليه نهضة تتوغل فى قرعه وتبدل صعب قياده بسمحه * وان كان له عام حديبية فأتبعه بعام فتحه * وهذه الاستزادة بعد سداد ما فى اليد من ثغر كان مهملا فحميت موارده * أو مستهدما فرفعت قواعده * ومن أهمها ما كان حاضر البحر كأنه أعمى عورته مكشوفه * وخطته مخوفه * والعدو قريب منه على بعده * وكثيرا ما يأتيه فجأة حتى يشق برقه برعده * فينبغى أن ترتب بهذه الثغور رابطة يكثر شجعانها * ويقل أقرانها *

ويكون قتالها لان تكون كلمة الله العليا لالانه يرى مكانها * وحينئذ يصبح كل منها وله من الرجال أسرار * وتعلم أهله أن نبأ السيف أمنع من نبا الاخبار * ومع هذا فلا بد له من أسطول يكثر عدده * ويقوى مدده * فانه العمدة التى تعين على كشف العماء * والاستكثار من سبايا العبيد والاماء * وجيشه أخو الجيش السليمانى فذاك يسرى على متن الريح وهذا يجرى على متن الماء * ومن صفات خيله أنها جمعت بين العوم والمطار * وتساوت أقدار خلقتها على اختلاف مدّة الاعمار * فاذا أسرعت قيل جبال متلفعة بقطع من الغيوم * واذا نظر الى أشكالها قيل أهلة غير أنها تهدى فى مسيرها بالنجوم * ومثل هذا الخيل ينبغى أن يغالى فى جيادها * ويكثر من قيادها * وتؤمر عليها أميرا يلقى البحر بمثله من سعة صدره * ويسلك طرقه سلوك من لم تقتله بجهلها ولكن قتلها بخبره * وكذلك فليكن ممن أفنت الايام تجاربه وزاحمتها مناكبه * وممن يذل الصعب اذا هو ساسه وان سيس لين جانبه * وهذا هو الرجل الذى يرأس القوم فلا يجد هزة بالرياسه * فان كان فى الساقة ففى الساق أوكان فى الحراسة ففى الحراسة * ولقد أفلحت عصابة اعتصبت من ورائه * وأيقنت بالنصر من رايته كما أيقنت بالنجح من روائه * واعلم أنه قد أخل من الجهاد بركن يقدح فى علمه وهو تمامه الذى يأتى فى آخره كما أن صدق النية تأتى فى أوله * وذلك هو قسم الغنائم فان الايدى قد تناولته بالاجحاف * وخالطت جهادها فيه بغلولها فلم ترجع بالكفاف * والله قد جعل الظلم فى تعدّى حدوده المحدوده * وجعل الاستئثار بالمغنم من أشراط الساعة الموعوده * ونحن نعوذ به أن يكون زماننا هذا شر زمان والناس به شر ناس * لا ممن يستخلفنا على حفظ أركان دينه ثم نهمل اهمال مضيع ولا اهمال ناس ۞ والذى نأمرك به أن تجرى هذا الامر على المنصوص من حكمه * وتبرئ ذمتك مما يكون غيرك الفائز بفوائده وأنت المطالب باثمه * وفى أرزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية ما يغنيهم عن هذه الاكلة التى تكون غدا نكالا وجحيما * وطعاما ذا غصة وعذابا أليما * فتصفح ماسطرناه لك من هذه الاساطير التى هى عزائم مبرمات * بل آيات محكمات * وتحبب الى الله والى أمير المؤمنين باقتفاء كلمها * وابن لك بها مجدا يبقى فى عقبك اذا أصبحت البيوت فى أعقابها * وهذا الذى ينطق عليك بأنه لم يأل فى الوصايا التى أوصاها * فانه لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها * ثم انه قد ختم بدعوات دعا بها أمير المؤمنين عند ختامه * وسأل فيها خيرة الله التى تتنزل من أبر منزلة نظامه * ثم قال انى أشهدك على ما قلدته شهادة تكون عليه رقيبة وله حسيبة فانى لم آمره الا بأوامر الحق التى فيها موعظة وذكرى * ولمن تبعها هدى ورحمة وبشرى * واذا أخذ بها فلج بحجته يوما يسأل فيه عن الحجج * ولم يختلج دون رسوله على الحوض فى جملة من يختلج * وقيل له لا حرج عليك ولا إثم اذا نجوت من ورطات الاثم والحرج والسلام اه

وفرح يوسف بهذا التقليد فرحا لا يوصف وأمر فضربوا البشائر وسيرها الى الآفاق وعملت الولائم والافراح أياما وامتدحه الشعراء وتواردت عليه التهانى من أقطار البلاد شرقا وغربا فتقوت عزيمته وثبت جأشه وتاقت نفسه الى الغزو والجهاد ومنع اغارات الافرنجة فسير جيشا الى بلاد الفرنجة الشامية وسار هو خلف الجيش حتى نزل على أعمال عسقلان فأغار عليها وعلى الرملة وهجم على ربض غزة فنهبه وأتاه ملك الفرنجة فى قلة مسرعين لرده عن البلاد فقاتلهم وهزمهم وأفلت ملك الفرنجة هاربا ثم عاد صلاح الدين يوسف الى مصر فعمل مراكب مفصلة وحملها قطعا على الجمال فى البر وقصد أيلة فجمع قطع المراكب وأنزلها فى الماء وحصر أيلة برا وبحرا وفتحها عنوة واستباح أهلها وما فيها ثم عاد غانما الى مصر فجاءت اليه الاخبار بخروج العرب بالاقاليم القبلية وانهم عاثوا وأفسدوا وقتلوا ونهبوا فسير لقتالهم أخاه تورانشاه فى عسكر كبير فقاتلهم وقهرهم وسامهم الخسف حتى دخلوا تحت الطاعة وانكفوا عن الفساد وانكمش كبارهم خوفا من صلاح الدين وبطشه واتسعت كلمة صلاح الدين وطار صيته وأجله ملوك الفرنجة وحسبوا ماوراء ظهوره واتساع كلمته وحسده نور الدين صاحب الشام وكبر عليه ظهوره * واتفق أن صلاح الدين يوسف سار عن مصر فى صفر سنة سبع وستين وخمسمائة الى بلاد الفرنجة غازيا ونازل حصون الشوبك وبينه وبين الكرك يوم ليس الا وحصرها وضيق عليها وشدد على من بها من طوائف الفرنجة ودام القتال فطلبوا الامان واستمهلوا عشرة أيام فأجابهم صلاح الدين الى ذلك فلما سمع نورالدين بما فعله صلاح الدين داخله الريب وحرك فؤاده الحسد فسار على عجل من دمشق قاصدا بلاد الفرنجة أيضا ليدخل اليها من جهة أخرى فكلم صلاح الدين يوسف أصحابه فى أمر نور الدين ومسيره الى بلاد الفرنجة فقالوا له ان دخل نور الدين بلاد الفرنجة على هذا الحال أنت من جانب ونور الدين من جانب ملكها نور الدين ومتى زال الفرنجة عن الطريق وأخذ ملكهم لم يبق لك بديار مصر مقام مع نور الدين وان جاء نور الدين اليك وأنت ههنا فلا بد لك من الاجتماع به وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما شاء ان شاء تركك أولا فقد لاتقدر على الامتناع عليه والمصلحة الرجوع الى مصر فأذعن صلاح الدين الى قولهم وأخذ برأيهم وأمر بالرحيل عن الشوبك مسرعين الى مصر ولم يأخذ من الفرنجة شيأ وكتب الى نورالدين يعتذر باختلال البلاد المصرية لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويين فيها وانهم عازمون على الوثوب بها وانه يخاف عليها اذا بعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلف بها فيخرجوهم وتعود ممتنعة وأطال الاعتذار فلما وصل كتابه الى نور الدين تغير حاله وتحرك بغضه الذى كان يكتمه على يوسف وعلم أن ذلك من يوسف حيلة ومكر وعزم على قصد مصر واخراجه عنها وجعل يتهيأ لذلك فسمع صلاح الدين بالخبر فخاف العاقبة وجمع أهله وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمى ومعهم سائر الامراء وأعلمهم بما بلغه من عزم نور الدين وحركته اليه واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة فقام تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين فقال

اذا

اذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد فوافقه غيره من أهلهم وبالغوا فى القول فتطاول عليهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه وسفه على تقى الدين وأقعده وقال لصلاح الدين أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى والله لو رأيته أنا وهذا خالك نور الدين لم نمكث الا أن نقبل بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا فما بالك بغيرنا وكل من تراه عندك من الامراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات فى سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها فان أراد سمعنا وأطعنا والرأى أن تكتب كتابا مع نجاب تقول فيه بلغنى أنك تريد الحركة الى البلاد فأى حاجة الى هذا يرسل المولى نجابا يضع فى رقبتى منديلا ويأخذنى اليك وما ههنا من يمتنع * وقام الامراء وغيرهم وتفرقوا على هذا الحال فلما خلا به أيوب قال له بأى عقل فعلت هذا أما تعلم أن نور الدين اذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه اليه وحينئذ لانقوى عليه وأما الآن فاذا بلغه ماجرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا والاقدار تعمل عملها ووالله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل ففعل صلاح الدين يوسف ما أشار به أبوه فترك نور الدين قصده واشتغل بغيره وأرسل صلاح الدين يعتذر الى نور الدين من نفسه بالحركة على ما يقرره نور الدين فاستقرت القاعدة بينهما على أن صلاح الدين يخرج من مصر ويسير نور الدين من دمشق لغزو الفرنجة فأيهما سبق صاحبه يقيم الى أن يصل الآخر اليه وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه فسار صلاح الدين من مصر فى عسكر عظيم فى شوال من السنة لان طريقه أبعد وأشق فوصل الى الكرك وحصره وأما نور الدين فانه لما وصل اليه كتاب صلاح الدين بخروجه من مصر فرق الاموال وحصل الازواد وما يحتاج اليه وسار الى الكرك فوصل الى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان فلما سمع صلاح الدين بقربه خافه هو وجميع أهله واتفق رأيهم على العود الى مصر وترك الاجتماع بنور الدين لانهم علموا أنهم ان اجتمعوا به كان عزل صلاح الدين يوسف على نور الدين سهلا فأمر صلاح الدين جنوده بالرحيل فرحلوا مسرعين وأرسل صلاح الدين الفقيه عيسى الى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على مصر وانه مريض شديد المرض ويخاف أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد من أيديهم وأرسل معه من التحف والهدايا شيأ كثيرا فجاء الرسول الى نور الدين وأعلمه بذلك فعظم عليه وعلم المراد من عود صلاح الدين وداخله ماداخله من الغيظ والكدر وعزم على قصد يوسف * ولما وصل صلاح الدين الى مصر وجد أن أباه نجم الدين أيوب قد مات وكان سبب موته أنه ركب فرسه يوما بمصر فبينما هو سائر اذ جفل الفرس فدقه بالارض دقة شديدة فحملوه الى داره فلم يلبث الا يومين ومات فحزن عليه يوسف وبكاه وأقام بمصر يفكر فيما سيكون من نور الدين بعد تركه اياه فى الكرك وعدم لقائه به فعلم أن نور الدين حانق من ذلك وأنه على عزم الحركة فزاد

خوفه وسقط فى يده وجمع أهله وكلمهم فى الامر وقال لهم ان نور الدين على عزم الدخول الى مصر فاستقر الرأى بينهم على أنهم يملكون بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى اذا وصل اليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد فان قدروا على منعه أقاموا بمصر وان عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا البلاد التى افتتحوها فجهز صلاح الدين أخاه شمس الدولة تورا نشاه فى عسكر عظيم وسيره الى بلاد النوبة فوصل الى جزيرة اسوان ثم سار منها الى قلعة ابريم فحصرها وقاتله أهلها قتالا شديدا فلم يتغلبوا عليه لانهم لم تكن لهم جنة تقيهم السهام وغيرها من آلات الحرب فسلموه القلعة فملكها تورا نشاه وأقام بها ولم ير فى البلاد شيأ يرغب فيه ويتحمل المشاق لاجله ثم شق عليه مالقيه من شظف العيش مع مباشرة الحروب ومعاناة الكروب والخطوب فترك البلاد وعاد الى مصر بما غنم من الاماء والعبيد

وظهر لصلاح الدين يوسف أن جماعة من كبار الدولة يريدون الايقاع به واعادة ذرية العلويين وذلك انه كان قد اجتمع جماعة من الشيعة منهم عمارة بن أبى الحسن اليمنى الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضى العويرس وداعى الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالهم السودان وحاشية القصر ووافقهم على ذلك جماعة من الامراء التابعين لصلاح الدين وجنده وتقررت القاعدة بينهم على استدعاء الفرنجة من صقلية ومن ساحل الشام الى مصر على شئ بذلوه لهم من المال والبلاد فاذا قصدوا مصر فان خرج صلاح الدين بنفسه لقتالهم ثاروا هم فى القاهرة ومصر وأعادوا الدولة العلوية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الفرنجة وان كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر للقتال ثاروا به وأخذوه باليد لعدم الناصر له وقال لهم عمارة وأنا قد أبعدت أخاه الى اليمن خوفا أن يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده وأرسلوا الى الفرنجة وصقلية والساحل فى ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق الا رحيل الفرنجة وكان جماعة المصريين قد أدخلوا معهم فى هذه المؤامرة زين الدين على بن نجا الواعظ والقاضى المعروف بابن نجية ورتبوا الخليفة من ذرية العلويين والوزير والحاجب والداعى والقضاة الا أن بنى رزيك قالوا يكون الوزير منا وبنو شاور والقاضى قالوا يكون الوزير منا وكلاهما من بيت الوزارة بمصر فلما علم ابن نجا الحال دخل على صلاح الدين وأعلمه حقيقة الخبر فأمره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون فعله وتعريفه مايتجدد أولا فأولا ففعل وصار يطالعه بكل ماعزموا عليه ثم وصل رسول من بلاد الفرنجة بالساحل بهدية ورسالة وهى فى الظاهر الى صلاح الدين وفى الباطن الى أولئك الجماعة وكان يرسل اليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم فأتى الخبر الى صلاح الدين من بلاد الفرنجة بما كان من سر خصومه فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق به من النصارى وداخله فأخبر الرسول بالخبر على الحقيقة فقبض صلاح الدين فى الحال على المقدمين فى هذه الحادثة منهم عمارة وعبد الصمد الكاتب

والعويرس

والعويرس وغيرهم وأمر بصلبهم فصلبوا وبقوا كذلك أياما * وقيل فى كشف أمرهم أيضا عبارة أخرى وهى انه كان بين عبد الصمد الكاتب وبين القاضى الفاضل الصلاحى مودة فكان اذا لقى القاضى يخدمه ويتقرب اليه بجهده وطاقته فلقيه يوما فلم يلتفت اليه فقال القاضى الفاضل ماهذا الا لسبب وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين فأحضر علىّ بن نجا الواعظ وأخبره بالأمر وقال أريد أن تكشف لى الامر فسعى فى كشفه فلم ير له من جانب صلاح الدين شيأ فعدل الى الجانب الآخر فكشف الحال وحضر عند القاضى الفاضل وأعلمه فقال تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهى الحال اليه فحضر عند صلاح الدين وهو فى الجامع وذكر له الحال فقام وأخذ الجماعة وقررهم فأقروا فأمر بصلبهم جميعا وكان بين عمارة وبين الفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها فلما أراد صلاح الدين صلبه قام القاضى الفاضل وخاطب صلاح الدين فى اطلاقه فظن عمارة انه يحرض على هلاكه فقال لصلاح الدين يامولانا لاتسمع منه فى حقى فغضب الفاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة انه كان يشفع فيك فندم فأخرج عمارة ليصلب فطلب أن يمر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فأغلق بابه ولم يجتمع به فقال عمارة

عبد الرحيم قد احتجب * ان الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجماعة ونودى فى أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها الى أقاصى الصعيد وأحيط بمن بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله ولم يتعرض صلاح الدين للذين نافقوا عليه من جنده ولا أعلمهم أنه علم بحالهم فكانت هذه الحادثة من أعظم الحوادث التى فاز بالخلاص منها صلاح الدين ووقف على خفى أمرها * ولم يمض بعد ذلك الا القليل حتى جاءته الاخبار بموت نور الدين محمود بن زنكى بن آق سنقر صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر ففرح بموته فرحا لايوصف * مات فى يوم الاربعاء الحادى عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسمائة بعلة الخوانيق ودفن بقلعة دمشق ثم نقل منها الى المدرسة التى أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين قيل ومن عجيب الاتفاق أنه ركب ثانى شوّال والى جانبه بعض الامراء الاخيار فقال له أحد الامراء سبحان من يعلم هل نجتمع هنا فى العام المقبل أم لا فقال نور الدين لاتقل هكذا بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهر أم لا فمات نور الدين بعد أحد عشر يوما ومات الامير المذكور قبل الحول فأخذ كل منهما بما قال *

وكان قد شرع فى التجهز للدخول الى مصر لاخذها من صلاح الدين يوسف فانه رأى منه فتورا فى غزو الفرنجة من ناحيته وكان يعلم أن مامنع صلاح الدين من الغزو سوى الخوف منه ومن الاجتماع به فان صلاح الدين يؤثر كون الفرنجة فى الطريق ليمتنع بهم على نور الدين فأرسل الى الجزيرة والموصل وديار بكر يطلب الجند للغزاة وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل والشام ويسير هو بعساكره الى ديار مصر فيخلع يوسف عنها ويخرجه هو وجميع أهله منها ويستردها لنفسه فبينما هو يتهيأ لذلك

أتاه أمر الله الذى لامرد له * قال صاحب الكامل حكى لى طبيب كان يخدم نور الدين وهو من حذاق الاطباء قال استدعانى نور الدين فى مرضه الذى توفى فيه مع غيرى من الاطباء فدخلنا اليه وهو فى بيت صغير بقلعة دمشق وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته وكان يخلو فيه للتعبد فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه فلما دخلنا ورأينا ما به قلت له كان ينبغى أن لاتؤخر احضارنا الى أن يشتد بك المرض الآن وينبغى أن تعجل الانتقال من هذا الموضع الى مكان فسيح مضىء فله أثر فى هذا المرض قال وشرعنا فى علاجه وأشرنا بالفصد فقال ابن ستين لايفصد وامتنع عنه فعالجناه بغيره فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء ومات رحمه الله ورضى عنه اه * وكان نور الدين أسمر اللون طويل القامة ليس له لحية الا فى حنكه وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيوب وملكها وكان مولده سنة احدى عشرة وخمسمائة وطبق ذكره الارض بحسن سيرته وعدله * وبموته قام ابنه الملك الصالح اسماعيل بالملك بعده وكان عمره يومئذ احدى عشرة سنة وحلف له الامراء والمقدمون بدمشق وأقام بها وأطاعه الناس بالشام وجاءت الاخبار الى صلاح الدين بولايته فخطب له بديار مصر وضربت السكة باسمه وتولى تربيته الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم وصار مدبر دولته فلم يرض به بعض الامراء بالشام وقال له كمال الدين ان صاحب مصر من أصحاب نور الدين والمصلحة أن نشاوره فى الذى نفعله ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا وهو أقوى منا لانه قد انفرد بملك مصر فلم يوافق هذا القول أغراض بعض أمراء الشام لا سيما شمس الدين محمد وخافوا أن يدخل صلاح الدين يوسف فيخرجهم فلم يمض الا القليل حتى وردت كتب صلاح الدين الى الملك الصالح يعزيه ويهنئه بالملك وأرسل اليه دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لابيه فلما سار سيف الدين غازى صاحب الموصل الى بلاد الجزيرة وملكها للاسباب التى لم نأت على ذكرها لبعدها عن غرضنا أرسل صلاح الدين يوسف الى الملك الصالح يعاتبه حيث لم يعلمه بقصد سيف الدين بلاده وأخذها ليحضر فى خدمته ويكف سيف الدين عن اطماعه وكتب أيضا الى كمال الدين والامراء يقول لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق اليه مثل ثقته بى لسلم اليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد الى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى وأراكم قد تفردتم بمولاى دونى فسوف أصل الى خدمته وأجازى انعام والده بخدمة يظهر أثرها وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده

وتمسك ابن المقدم ومن معه من الامراء بالملك الصالح وهم يراقبون الامور وكأنهم كانوا يعلمون بقصد الفرنجة بلاد مصر بناء على طلب جماعة الامراء الذين كانوا تآمروا على صلاح الدين يوسف فلم يهتموا لجوابه ولا أعاروه أذنا صاغية فلما كانت سنة سبعين

وخمسمائة

وخمسمائة سير صاحب صقلية الى الاسكندرية عمارة عظيمة عدتها مائتا سفينة تحمل الرجال وستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل وست مراكب تحمل آلات الحرب وأربعين تحمل الازواد وفيها من الرجال خمسون ألفا ومن الفرسان ألف وخمسمائة وكان المقدم عليهم ابن عم صاحب صقلية وكان وصول هذه العمارة فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين وخمسمائة على حين غفلة من أهلها فلما شوهدت أمام المدينة خاف الناس خوفا عظيما وخرجوا بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول الى البر فنعهم والى الاسكندرية من ذلك وأمرهم بملازمة السور فنزل الفرنجة الى البر مما يلى الماء والمنارة وتقدموا الى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد وسيرت الكتب فى الحال الى صلاح الدين يوسف يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال من أول النهار الى آخره ثم أعاد الفرنجة القتال فى اليوم الثانى وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات الى قريب السور ووصل فى ذلك اليوم بعض الجنود المصرية ممن كانوا فى أقطاعهم القريبة من الاسكندرية فتقوت بهم عزائم أهل البلد وفرحوا بوصولهم وأحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح أهل الاسكندرية أبواب البلد وقاتلوا الفرنج قتالا شديدا اليوم كله ثم عادوا الى البلد فدخلوه وقد قتل منهم خلق كثير ❁ وأما صلاح الدين فانه لما وصله الخبر خرج بعسكره وسير مملوكا له ومعه ثلاث جنائب ليجد السير عليها الى الاسكندرية ويبشر بوصوله وسير طائفة من العساكر الى دمياط خوفا عليها واحتياطا ووصل مملوك صلاح الدين والناس فى شدة ونادى فى البلد بمجىء صلاح الدين والعسكر مسرعين ففرح الناس بذلك وتقوت نفوسهم وعاودوا القتال وجدوا فتأخر الفرنجة وتقهقروا وقد علموا بقرب وصول صلاح الدين وأنه على ما هو عليه من نفوذ الكلمة وبعد الصيت فأقلعوا بمراكبهم وعادوا الى صقلية وكفى الله الناس شرهم * ولم يكن ليطمئن صلاح الدين يوسف برجوع مراكب الفرنجة عن الاسكندرية وكفهم عن قتال أهلها حتى جاءه الخبر من الاقاليم القبلية بخروج ❁الكنز❁ أحد المقدمين بالصعيد وأنه اجتمع اليه من أهل البلاد والغوغاء والسودان والعربان وغيرهم خلق كثير جدا فجعل صلاح الدين يتأهب لقتاله وأمر بجمع الجند وآلات الحرب وكان بالاقاليم القبلية أمير من الامراء الصلاحية فى أقطاعه وهو أخو الأمير أبى الهيجاء السمين فقام عليه الكنز المذكور وقتله ونهب أرزاقه فعظم قتله على أخيه أبى الهيجاء وكان من أكبر الأمراء وأوسعهم شهرة وأشجعهم فى الحروب فسار الى قتال الكنز وسير معه صلاح الدين جماعة من الأمراء وجيشا كبيرا فلما وصلوا الى مدينة طود قاتلوا من بها وجدوا فى قتالهم حتى ظفروا بهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا ثم ساروا بعد فراغهم من طود الى الكنز وقد عظم أمره واتسعت كلمته وخضع له معظم البلاد فقاتلوه قتالا شديدا وما زالوا يجدون فى قتاله حتى قتل هو ومن معه من الاعراب وغيرهم من السود والغوغاء وأمنت بعده البلاد وجاء الخبر بذلك الى صلاح الدين فأمر

بضرب البشائر فانه كان يخشى من استفحال أمر الكنز وقيام الاقاليم القبلية معه

ولما صفت لصلاح الدين الأمور تاقت نفسه الى الغزو والجهاد وفتح المدن والبلدان فجمع عسكرا عظيما للغاية وتأهب للخروج وبينما هو على هذا الحال اذ وردت اليه الاخبار باختلال الامور فى دمشق واضطراب الاحوال بها وتطاول أيدى الطامعين اليها وانحطاط كلمة الملك الصالح بن نور الدين صاحب الشام واستقلال الكثير من عماله بأعمالهم وخروج بعض الامراء عليه واجتماع كلمة بعض أصحاب الكلمة الذين فى خدمة الملك الصالح على استدعاء صلاح الدين يوسف ليملكوه عليهم و يسلموه جميع البلاد وكان مقدمهم فى ذلك شمس الدين بن المقدم فسر صلاح الدين بذلك وبالغ فى التأهب والاستعداد ثم حصل من الاسباب ما أوجب تأخيره فجاءته الرسل من الشام تستحثه على المسير فلم يلبث أن سار جريدة فى سبعمائة فارس ومعه القاضى الفاضل وبعض الامراء فلما وطئ أرض الشام قصد بصرى وكان بها حينئذ صاحبها وهو من جملة من كاتب صلاح الدين بالقدوم لاخذ البلاد فلما رأى قلة من كانوا مع صلاح الدين خاف على نفسه واجتمع بالقاضى الفاضل وقال ما أرى معكم عسكرا وهذا بلد عظيم لا يقصد بمثل هذا العسكر ولو منعكم من به ساعة من النهار أخذكم أهل السواد فان كان معكم مال سهل الأمر فقالوا هنا مال كثير مقدار خمسين ألف دينار فضرب صاحب بصرى على رأسه وقال هلكتم وأهلكتمونا وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار ثم سار صلاح الدين الى دمشق فما وصل خبر وصوله الى من بها من العسكر حتى خرجوا جميعا للقائه وخدموه ودخل البلد ونزل فى دار والده المعروفة بدار العقيقى وكانت قلعة دمشق بيد خادم اسمه ريحان فأحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشهرزورى وهو يومئذ قاضى البلد والحاكم فى جميع أموره من الديوان والوقف وغير ذلك وأرسله الى ريحان المذكور ليسلم القلعة اليه وقال أنا مملوك الملك الصالح وما جئت الا لانصره وأخدمه وأعيد البلاد التى أخذت منه اليه فصعد كمال الدين الى ريحان ولم يزل معه حتى سلم القلعة فصعد صلاح الدين اليها وأخذها وأخذ مافيها من الاموال وأخرجها الى دار أبيه واتسع بها ونبتت قدمه وقويت نفسه وهو مع ذلك يظهر طاعة الملك الصالح ويخاطبه بالملك والخطبة والسكة باسمه ومازال بدمشق حتى قرر أمرها واستخلف بها أخاه سيف الاسلام طغدكين بن أيوب ثم سار عنها الى مدينة حمص وكانت حمص وحماة وقلعة بعرين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة فى أقطاع الامير فخر الدين مسعود الزعفرانى ولكنه كان مغلوبا عليها لا كلمة له فيها لسوء سيرته فى أهلها وتغلب ولاة نور الدين عليها وكان بقلعة حمص وال يحفظها فراسل صلاح الدين من بحمص بالتسليم فامتنعوا فقاتلهم فملك البلد وأمن أهلها وامتنعت عليه القلعة فسار عن حمص الى مدينة حماة بعد أن وكل بحصار من فى القلعة وقطع عنهم الزاد وهو فى جميع أحواله لا يظهر الا الطاعة للملك الصالح بن نور الدين وأنه انما خرج لحفظ بلاده من الفرنجة واستعادة ما أخذه سيف الدين غازى صاحب الموصل من بلاد

الجزيرة فلما وصل الى حماة ملك المدينة وكان بقلعتها الامير عز الدين جورديك وهو من المماليك النوريه فامتنع من التسليم الى صلاح الدين فأرسل اليه صلاح الدين يعرفه ماهو عليه من طاعة الملك الصالح وانه انما يريد حفظ بلاده فاستحلفه جورديك على ذلك وسيره الى حلب فى اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح وفى اطلاق شمس الدين على وحسن وعثمان أولاد الداية وقد كانوا معتقلين بحلب فسار جورديك الى حلب واستخلف بقلعة حماة أخاه ليحفظها فلما وصل جورديك الى حلب قبض عليه كمشتكين وحبسه فلما علم أخوه بذلك خاف وسلم القلعة الى صلاح الدين فملكها

وسار صلاح الدين بعيد ذلك يريد أخذ حلب فحصرها وضيق على من بها فقاتله أهلها قتالا شديدا وركب الملك الصالح وهو صبى وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب وقال لهم قد عرفتم احسان أبى اليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم وقد جاء هذا الظالم الجاحد احسان والدى اليه يأخذ بلادى ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق فهل يرضيكم فعله وهل تطيقون الصبر على ماتكرهون ثم بكى وأعاد عليهم القول وبكى فأبكى الناس فبذلوا له الاموال والأنفس واتفقوا على القتال دونه والمنع من بلده وجدوا فى القتال وأظهروا من الشجاعة والاقدام ما أعجز صلاح الدين عن التقدم نحو البلد وأرسل سعد الدين الى سنان مقدم الاسماعيلية وبذل له أموالا كثيرة ليقتلوا صلاح الدين فأرسلوا جماعة منهم الى عسكره فلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكين صاحب قلعة برقيس فعرفهم لانه جارهم كثير الاجتماع بهم والقتال لهم فلما رآهم قال لهم ما الذى أقدمكم وفى أى شئ جئتم فقاموا عليه وضربوه بالسكاكين فجرحوه جراحات مثخنة وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه وقاتل الباقون من الاسماعيلية جماعة ثم قتلوا وتحرز صلاح الدين واشتد تحفظه وبقى محاصرا لحلب الى سلخ جمادى الآخرة سنة سبعين وخمسمائة ثم رحل عنها مستهل رجب قاصدا حمص لرد الفرنجة عنها حيث كانوا قد حضروا لنجدة أهل حلب وخلاص ما بيد صلاح الدين من البلاد الشامية فلما علم الفرنجة بوصوله اليهم رحلوا عن حمص ووصل صلاح الدين اليها فحصر القلعة الى أن ملكها وقد كانت ممتنعة عليه كما تقدم ثم سار منها الى بعلبك وكان الوالى بها من أيام نور الدين خادم اسمه يمن فحصرها صلاح الدين وهم بقتالها فأرسل اليه يمن يطلب الامان له ولمن معه فأمنهم وتسلم القلعة رابع عشرى رمضان من السنة فصار أكثر بلاد الشام بيده وعظم الأمر جدا على الملك الصالح بن نور الدين فكتب الى ابن عمه سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين ويخبره بما جرى على بلاده ويطلب أن يعبر اليه ليقصدوا صلاح الدين معا ويأخذوا البلاد منه فجمع سيف الدين عساكره وكاتب أخاه عماد الدين زنكى صاحب سنجار لينزل اليه بعساكره فيجتمعوا على المسير الى الشام فامتنع عماد الدين من ذلك وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطمعه فى الملك لانه هو الكبير فحمله الطمع على الامتناع على

أخيه فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عز الدين مسعودا فى معظم عسكره وسيّره الى الشام وجعل المقدم عليه أكبر أمرائه المدعو عز الدين محمود زلفندار وسار هو الى سنجار فحصرها وقاتلها وجدّ فى قتالها فامتنع أخوه عماد الدين بها وجد فى حفظها والذب عنها فدام الحصار عليها فبينما هو يحاصرها ويضيق على من بها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذى مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على مابيده ورحل الى الموصل وثبت قدم صلاح الدين بعد هذه الهزيمة وخافه الناس واتسعت شهرته وترددت الرسل بينه وبين سيف الدين غازى على الصلح فلم يستقر حال * هذا والملك الصالح بن نور الدين يراسل سيف الدين ويطلب حضوره اليه بعسكره ويستحلفه فكبر الامر على سيف الدين واستعظمه وسيّر عسكره مع أخيه عز الدين زلفندار الى حلب ففرح الملك الصالح بوصولهم واجتمع معهم عسكر حلب وساروا كلهم الى صلاح الدين ليحاربوه فأرسل صلاح الدين الى سيف الدين يبذل تسليم حمص وحماة وأن يقر بيده مدينة دمشق وهو فيها نائب الملك الصالح فلم يقبل ذلك وأبى الاتسليم جميع ماأخذه صلاح الدين من بلاد الشام والعود الى مصر وكان صلاح الدين فى هذه الاثناء يحشد الجنود ويكثر من معدات الحرب ويتجهز للقتال فلما سمع بامتناع سيف الدين من اجابته الى ماطلب نادى فى عسكره بالركوب فركبوا وركب وسار بهم الى عز الدين مسعود وزلفندار فالتقوا بالقرب من مدينة حماة بموضع يقال له قرون حماة * قال بعض الكتاب وكان زلفندار جاهلا بالحروب غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه الا أنه قد رزق سعادة وقبولا من سيف الدين فلما التقى الجمعان لم يثبت عسكر سيف الدين وانهزموا شر هزيمة وثبت عز الدين أخو سيف الدين بعد انهزام أصحابه فلما رأى صلاح الدين ثباته تعجب جدا وقال اما أن هذا يكون أشجع الناس أوأنه لايدرى شيأ فى الحرب وأمر أصحابه بالحملة عليه فحملوا فأزالوه عن موقفه وتمت الهزيمة على عسكر سيف الدين وتبعهم صلاح الدين بعسكره فقتل وغنم من السلاح والدواب شيأ كثيرا للغاية و وصل المنهزمون الى حلب فلحقهم صلاح الدين فى عسكره وقاتلهم عليها وحاصرها وجدّ فى حصارها وضيق وأمر بقطع خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه من السكة فى جميع بلاده * ولما طال الحصار واشتد عليهم الامر راسلوا صلاح الدين فى الصلح فتقررت القاعدة بينهم على أن يكون له مابيده من بلاد الشام ولهم مابأيديهم منها فتم الصلح على هذه القاعدة ورحل صلاح الدين بجيوشه عن حلب الى حماة فسيّر اليه الخليفة العباسى بها خلعة نفيسة للغاية مع رسوله ثم سار الى دمشق وأقام بها وقد عظم شأنه بما ملكه من بلاد الشام وبفوزه المتتابع على الملك الصالح وجميع عماله وولاته وقد ملت جنوده من طول الاقامة بأرض الشام وامتلأت أيديهم من السلب والغنائم فطلبوا العود الى بلادهم والاستراحة فأذن لهم وسار هو كذلك فى عسكر مصر ومعه الغنائم الكثيرة فلما وصل اليها خرج اليه أهله وضربت البشائر وأولم وتصدق وأكثر من الخير للناس

ولما

ولما كانت سنة خمس وسبعين وخمسمائة مات الامام المستضيء بنور الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد وكان موته فى ثانى ذى القعدة فكانت خلافته نحو سبع سنين وسبعة أشهر وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكان عادلا حسن السيرة فى الرعية كثير البذل للاموال غير مبالغ فى أخذ ماجرت العادة بأخذه وكان الناس معه فى أمن عام واحسان شامل وسكون وطمأنينة لم يروا مثلها وكان حليما محبا للعفو والصفح عن المذنبين واستوزر فى أيامه عضد الدين أبا الفرج ابن رئيس الرؤساء فلبث يتصرف فى الامور الى أن قتل فى ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة فاستوزر بعده ظهير الدين أبا بكر منصور بن نصر المعروف بالعطار وكان خيرا حسن السيرة كثير العطاء فتمكن من الخلافة وظهرت كلمته فلما مات المستضيء قام ظهير الدين المذكور بأخذ البيعة لولده الناصر لدين الله فلما تمت له البيعة صار الحكم فى الدولة لاستاذ الدار مجد الدين بن أبى الفضل بن الصاحب * قال صاحب الكامل ولم يلبث بن العطار أن قبض عليه ووكل عليه فى داره ثم نقل الى التاج وقيد ووكل به وطلبت ودائعه وأمواله وفى ليلة الاربعاء ثامن عشر ذى القعدة أخرج ميتا على رأس حمال فغمز به بعض الناس فثار به العامة فألقوه عن رأس الحمال وكشفوا سوأته وشدوا فى ذكره حبلا وسحبوه فى البلد و وضعوا بيده مغرفة كأنها قلم وغمسوها فى العذرة وصاروا يقولون وقع لنا يامولانا الى غير ذلك من الافعال الشنيعة ثم خلص من أيديهم ودفن قال هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم وأعراضهم

ومات فى خلافة المستضيء خائيل بطرك الاسكندرية فكانت مدته تسع سنين وقيل تسع سنين وثمانية أشهر وكانت وفاته بالمعلقة بمصر واتفق فى أيامه أن نقص النيل نقصا فاحشا فسيره الخليفة الى بلاد الحبشة بهدية سنية الى النجاشى فتلقاه النجاشى وأكرم وفادته وأجله كثيرا وسأله عن سبب قدومه فعرفه بنقص النيل وضرر أهل مصر بسبب ذلك قيل فأمر بفتح سد يجرى منه الماء الى أرض مصر ففتح فزاد النيل فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع واستمرت الزيادة حتى روت البلاد وزرعت ثم عاد خائيل البطرك فخلع عليه الخليفة وأحسن اليه وأكرمه جدا فلما مات أقيم بعده مقارى أو هو مكاريوس الثانى تاسع ستيهم وهو راهب من دير بو مقار وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله

(الفصل الرابع والثلاثون)

﴿ فى خلافة أبى العباس أحمد الناصر لدين الله ﴾

ثم قام بالامر بعد المستضيء ابنه أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بويع له بالخلافة

يوم وفاة أبيه فى أول ذى القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة هجرية أى سنة تسع وسبعين ومائة وألف ميلادية وعمره ثلاث وعشرون سنة وسيرت الرسل الى الآفاق لاخذ البيعة له فسير صدر الدين شيخ الشيوخ الى البهلوان صاحب همدان وأصفهان والرى وغيرها فامتنع من البيعة فراجعه صدر الدين وأغلظ عليه فى القول حتى انه قال لعسكره فى حضرته مالهذا عليكم طاعة مالم يبايع أمير المؤمنين بل يجب عليكم أن تخلعوه وتقاتلوه نخاف البهلوان وأذعن للبيعة والخطبة للناصر وسير رضى الدين القزوينى مدرس النظامية الى الموصل لاخذ البيعة فبايع صاحبها وخطب للخليفة الناصر لدين الله فى هذه السنة وجاءت الاخبار الى صلاح الدين يوسف بموت المستضىء وخلافة ابنه الناصر لدين الله فبايع له وخطب له أيضا وسير اليه الهدايا النفيسة والاعلاق الثمينة وهو بمصر ينشئ العمائر العظيمة والابنية الجسيمة فانه منذ رجوعه من الشام رسم بترميم القناطر والجسور وتطهير الترع وكانت جسور النيل قد أهملت من عهد الدولة الفاطمية فكان اذا فاض طغت مياهه فأغرقت وخربت الطرق وأفسدت الزرع فرمم مافسد منها وأقام السدود ونقل لبنائها كثيرا من حجارة الاهرام الصغيرة التى كانت حول الكبيرة بالجيزة وغيرها من أحجار المعابد والهيا كل القديمة المصرية ومهد الطريق من مصر الى الصعيد الاعلى وأنشأ القلعة بسفح المقطم المعروفة الآن بقلعة الجبل وبنى له فيها قصرا وقد كان الى هذا الحين يسكن فى دار الخليفة العبيدى ودار الوزير فجعلهما مسكنا لقواد الجيوش وأمراء الدولة من بعده ووكل بالبناء وزيره الامير بهاء الدين الاسدى الخصى وكان جليل القدر مقداما حسن السياسة والتدبير فبالغ فى العمل وأكثر من البنائين والعمال والمهندسين ونقر فى القلعة بئرا فى الصخر عميقا فيه من الماء ما يكفى حاجة الجند والمرابطين بالقلعة وهى باقية الى يومنا هذا والعامة يقولون انها البئر التى ترك فيها يوسف اخوته * قال بعض الكتاب وانما هذا البئر من عمل المصريين القدماء فانطمس بالرمال ولم تخف معالمه فاعاد بهاء الدين حفره عند بناء القلعة واهتم بهاء الدين ببناء سور حول مصر والقاهرة وقلعة الجبل طوله تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع الهاشمى وكان قد بدأ بعمارته صلاح الدين يوسف سنة ست وستين وخمسمائة على عهد العاضد العلوى ثم بطل العمل فيه بسبب الفتن والحروب فجدّ بهاء الدين فى عمارته وهدم فى تخطيطه كثيرا من المساجد والمعابد والقبور والبيوت والوكائل والعمائر الجسيمة فضج الناس من ذلك وكبر عليهم هذا الامر وحسبوه جورا وظلما من بهاء الدين فابغضوه وسموه قراقوش وكانوا يلقون الرقاع فى طريقه وكلها سب ولعن له ولاصحابه وكان اذا مر بالاسواق صاح العامة فى وجهه وقالوا ماتحل لك هذه الفعال ياظالم وهو لايلتفت اليهم ولا يؤاخذهم بشئ من ذلك وقد ألف الاسعد بن مماتى كتابا سماه الفاشوش فى أحكام قراقوش ذكر فيه من أفاعيل الجور والعسف وأنواع المظالم شيأ كثيرا وحفر بهاء الدين خندقا يمتد من باب الفتوح الى المقس وهو الخطة التى بها جامع أولاد عنان اليوم ومن الجهة الشرقية خارج

باب النصر الى باب البرقيـة وما بعده وجعـل خارج هـذا الخندق سورا آخر بابراج مبنيا بالحجارة العظيمـة وابتنى الاشوان العظيمة بمصر لحفظ الغلال التى ترد فى كل سنة من الاعمال من الاقليمين القبلى والبحرى وهى الى الآن تعرف بمخازن يوسف والناس يظنون أنها مخازن فرعون يوسف التى بناها بعد تعبير رؤياه * قال أصحاب التاريخ وقد بنى سور القاهرة ثلاث مرات بناه فى المرة الاولى جوهر القائد وفى الثانية أمير الجيوش بدر الجمالى وفى الثالثة بهاء الدين وزير صـلاح الدين يوسف فزاد فيـه بهاء الدين القدر الذى يبتـدئ من باب القنطرة الى باب الشـعرية ومن باب الشعرية الى باب البحر وابتنى مع ذلك قلعة المقس جعلها على النيل بجانب جامع المقس المعروف الآن بجامع أولاد عنان وزاد فيـه أيضا قطعة مما يلى باب النصر ممتـدة الى باب البرقيـة والى درب بطوط والى خارج باب الوزير حـتى يتصـل بسور قلعة الجبل

وبينما كان صلاح الدين يشيد العمائر ويمهد الطرق ويقيم الجسور ويصلح الترع ويسهل العـقبات بالديار المصرية جاءه الخـبر بوفاة الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب والشام مات فى رجب سـنة سبع وسبعين وخمسمائة هجرية وعمره نحو تسع عشرة سنة وكان على صغر سـنه كثير التأمل واسـع الفكر كبـير المعرفة وكان يخشى من صـلاح الدين يوسف ويعـلم أنه سيأخـذ عنه يوما ما بقى له من بلاد الشام ولذلك كان كثير الاحتياط بعيد الحسـاب فلما مرض وأيس من نفسـه أحضر الامراء وسائر الاجناد وأوصاهم بتسليم البلد الى ابن عمه عمر عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى واستحلفهم على ذلك فقال له بعضهم ان عمـاد الدين ابن عمك أيضا أحق بها وهو زوج أختك وكان والدك نور الدين يحبه ويؤثره وقد تولى تربيته بنفسه فهو أصلح للولاية وليس له غير سنجار فلو أعطيته البلد لكان أوفق وعز الدين له من البـلاد من الفرات الى همذان ولا حاجـة به الى بلدك فقـال له ان هذا لم يغب عنى ولكن قد علمتم أن صلاح الدين يوسف قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدى الآن ومـتى سلمت حلب الى عمـاد الدين يعجز عن حفظها وان ملكها صـلاح الدين لم يبق لاهلنا معـه مقام وان سلمت الى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسـنوا فعـاله وعجبوا من جودة فطنته مع شدة مرضه ولما قضى نحبه أرسل الامراء الى أتابك عز الدين يستدعونه الى حلب فسار هو ومجاهد الدين قايماز الى الفرات وأرسل الى الامراء فحضروا عنده وساروا جميعا الى حلب فدخلوها فى العشرين من شعبان وكان صلاح الدين حينئـذ بمصر * قال أصحاب التاريخ ولولا ذلك لزاحمهم عليها وقاتلهم وكان تقى الدين عمـر بن أخى صـلاح الدين يوسف بمدينة منبج فلما مر بها عز الدين ومن معـه الى حلب خاف تقى الدين وهرب من منبج الى حماة فثار أهـل حماة فاشار الامراء والقواد بحلب على عز الدين بقصد دمشق وأطمعوه فيها وفى غـيرها من البـلاد وأعلموه بمحبـة أهل الشام له ولاهل بيتـه فلم يفعل وقال بيننا يمين فلا نغدر به وأقام بحلب ما شاء ثم سار عنها الى الرقة فلم يستقر به المقام

حتى جاءته رسل أخيه عماد الدين صاحب سنجار ليطلب أن يسلم اليه حلب ويأخذ عوضا عنها مدينة سنجار فلم يجبه الى ذلك وألح عماد الدين وترددت الرسل بينهما أياما كثيرة وكله الامراء فى ذلك أيضا فسلمها اليه وأخذ بدلها سنجار وعاد الى الموصل وكان صلاح الدين يوسف لما بلغه خبر دخول عز الدين الى حلب وتصرفه فيها كبر عليه الامر جدا وخاف أن يسير منها الى دمشق وغيرها فيأخذ ما بيد صلاح الدين من البلاد الشامية فانكمش وجعل يراقب الفرص فلما بلغه ملك عماد الدين اها برز من مصر من يومه وسار الى الشام وكان خروجه فى الخامس من المحرم افتتاح سنة ثمان وسبعين * قال صاحب الكامل ومن عجيب ما يحكى من التطير انه لما برز من القاهرة أقام بخيمته ظاهر القاهرة حتى تجتمع العساكر والناس عنده وأعيان دولته والعلماء وأرباب الآداب وكلهم سودعله وسائر معه وكان كل واحد يقول شيأ فى الوداع والفراق وما هم بصدده من السفر وكان ممن حضر هذا المجلس معلم لبعض أولاد صلاح الدين وكان جالسا خلف الجالسين فأخرج رأسه من بينهم وأنشد

تمتع من شميم عرار نجد * فما بعد العشية من عرار

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه وتطير وتنكد المجلس على الحاضرين فلم يعد صلاح الدين الى مصر الى أن مات مع طول الوقت اه وسار صلاح الدين عن مصر فتبعه التجار وأهل البلاد ممن كان قصد مصر من الشام فرارا من الغلاء وغيره فجعل طريقه على أيلة فلما سمع الفرنجة بمسيره جمعوا له ليحاربوه ويصدوه عن المسير فسير الضعفاء والاثقال مع أخيه تاج الملوك بورى الى دمشق وبقى هو فى المقاتلة فشن الغارات على أطراف الكرك والشوبك فلم يخرج اليه منها أحد فسار الى دمشق فوصلها بمن معه سالما ولبث بها أياما حتى أصلح حال جنده ونظم عسكره وسار بهم الى بلاد الفرنجة فى ربيع الاول فقصد طبرية فنزل بالقرب منها وخيم فى أقحوان من الاردن فتهيأ الفرنجة وجاؤا اليه بجموعهم فنزلوا بطبرية وتأهبوا للقتال فسير صلاح الدين يوسف فرخشاه ابن أخيه الى بيان فدخلها قهرا وغنم ما فيها وقتل وسبى وعم القتل والسبي وجاءت العرب فأغارت على جفين واللجون وما جاورهما من البلدان حتى قاربوا مرج عكا وسار الفرنجة من طبرية حتى نزلوا تحت جبل كوكب فتقدم صلاح الدين اليهم وأرسل عسكره يرمونهم بالنشاب فلم يتحركوا للقتال فعاد صلاح الدين الى دمشق ولبث بها أياما ثم سار منها فعبر الفرات وملك عدة بلاد من ديار الجزيرة وأقطعها للامراء الذين كانوا فى خدمته ودخل الفرنجة دمشق فقتلوا ونهبوا وسبوا ورحلوا عنها وجاءت الاخبار بذلك الى صلاح الدين فلم يقدر على الرجوع وقد اطمأن بترك الفرنجة لها ورحيلهم عنها ثم سار الى الموصل وحاصرها فلم ينل منها وعاد عنها الى سنجار فقاتلها فخامر معه بعض الامراء الاكراد وسلم اليه الناحية التى هو بها فطرقه صلاح الدين فلما أحس شرف الدين صاحبها بذلك استكان وخضع وطلب الامان فأمنه وملك البلد صلاح الدين وسار شرف الدين ومن معه الى الموصل

وقويت عزيمة صلاح الدين بملك سنجار واطمأن على ما بيده من البلاد الشامية اذ صارت سنجار على جميع تلك البلاد كالسور واستناب بها سعد الدين بن معين الدين أتز وهو من كبار الامراء وأحسنهم سيرة وبقى صلاح الدين يوسف مشغول البال بملك حلب ونزعها من عماد الدين زنكى بن مودود وهو يراقب الفرص ويتبين انتفاعها فلما كان المحرم افتتاح سنة تسع وسبعين نزل عليها بجيش عظيم وأقام بالميدان الاخضر عدة أيام ثم انتقل منه الى جبل جوشن فنزل باعلاه وأظهر انما يريد أن يبنى مساكن له ولاصحابه وعسكره وأقام عليه أياما والقتال بين العسكرين كل يوم وعماد الدين زنكى ومن معه من العسكر النورى يجدون فى القتال ويدفعون عن البلد فلما كان فى بعض الايام جاء الى عماد الدين بعض الجنود وطلبوا منه مالا للنفقة فاعتذر بقلة المال عنده فقال له بعضهم ان من يريد أن يحفظ بلدا مثل حلب لابد له من صرف الاموال ولو باع حلى نسائه فخاف عماد الدين وحسب ما وراء ذلك فمال الى تسليم حلب الى صلاح الدين وأخذ العوض عنها وأرسل فى الحال مع الأمير طومان الياروقى وكان ممن يميل الى صلاح الدين يوسف أن يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج وجرت اليمين على ذلك * قال أصحاب التاريخ وباعها عماد الدين بابخس الاثمان أعطى حصنا مثل حلب وأخذ عوضها قرى ومزارع فنزل عنها ثامن عشر صفر وتسلمها صلاح الدين يوسف فعجب الناس كلهم من ذلك وقبحوا فعل عماد الدين حتى ان بعض عامة حلب أحضر اجانة وماء وناداه أنت لايصلح لك الملك وانما يصلح لك أن تغسل الثياب وأسمعوه المكروه * واستقر ملك صلاح الدين يوسف وسار عماد الدين الى البلاد التى أخذها فتسلمها وتقررت القاعدة بينه وبين صلاح الدين على أن عماد الدين يحضر فى خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره اذا استدعاه لايحتج بحجة وامتدح محيى الدين بن الزكى قاضى دمشق صلاح الدين يوسف بقصيدة منها

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر * مبشر بفتوح القدس فى رجب

فكان فتح بيت المقدس فى رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كما سيذكر فى محله وهو من غريب الاتفاق * قال صاحب الكامل وكان فى جملة من قتل على حلب تاج الملوك بورى أخو صلاح الدين الاصغر وكان فارسا شجاعا كريما حليما جامعا لخصال الخير ومحاسن الاخلاق طعن فى ركبته فانفكت فمات منها بعد أن استقر الصلح بين عماد الدين وصلاح الدين على تسليم حلب قبل أن يدخلها صلاح الدين فلما استقر الصلح حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده وقال له هذه حلب قد أخذناها وهى لك فقال ذلك لو كان وأنا حى ووالله لقد أخذتها غالية حيث تفقد مثلى فبكى صلاح الدين وأبكى ولما خرج عماد الدين الى صلاح الدين وقد عمل له دعوة احتفل فيها فبينماهم فى سرور اذ جاء انسان فأسر الى صلاح الدين بموت أخيه فلم يظهر هلعا ولا جزعا وأمر بتجهيزه سرا ولم يعلم عماد الدين ومن معه

فى الدعوة واحتمل الحزن وحده لئلا يتنكد ماهم فيه وكان هذا من الصبر الجميل اه
ووصلت الاخبار الى صلاح الدين يوسف بوفاة قطب الدين صاحب ماردين وتملك ابنه بعده
وهو طفل وأن الحكم الى شاه أرمن صاحب خلاط وعسكره فيها وشاه أرمن هذا خال قطب
الدين فطمعت نفس صلاح الدين فى أخذها فسار اليها فى جيش عظيم من الرجال والفرسان
ونازلها فرآها مشحونة بالرجال وبها زوجة قطب الدين المتوفى ومعها بنتان لها منه وهى
أخت نور الدين محمد صاحب الحصن فحاصر صلاح الدين البلد وشدد فى حصارها وكان المقدم
على عسكرها أمير اسمه برتقش ولقبه أسد الدين وهو من كبار قواد العسكر وأشجعهم وأعلمهم
بفنون الحرب واشتد القتال بين الفريقين شدة بالغة فلم يصل صلاح الدين الى مايريد فعدل
من القوة والحرب الى اعمال الحيلة والدهاء فراسل زوجة قطب الدين وهى بالبلد يقول لها
ان أسد الدين برتقش قد مال الينا فى تسليم البلد ونحن نرى حق أخيك نور الدين فيك بعد
وفاته ونريد أن يكون لك فى هذا الامر نصيب وأنا أزوج بناتك بأولادى ويكون ميافارقين
وغيرها لك وبحكمك ووضع أيضا من أرسل الى برتقش أن الخاتون قد مالت للمقاربة والانقياد
الى السلطان وان من بخلاط من الجند والعسكر كاتبوه ليسلموا اليه فخذ لنفسك واتفق أن
رسولا وصل من خلاط ليعلن صلاح الدين يوسف بالطاعة ففرح صلاح الدين بقدوم الرسول
وأمره بالدخول الى ميافارقين والاجتماع ببرتقش فدخل واجتمع به وقال له أنت عن
تقاتل وأنا قد جئت فى تسليم خلاط الى صلاح الدين فسقط برتقش فى يده وضعفت عزيمته
وأرسل الى صلاح الدين يطلب أن يقطعه بلدا ومالا وهو يتخلى عن البلد الى صلاح الدين
فأجابه صلاح الدين الى ذلك وتسلم البلد فلما دخل اليها وفى بوعده الى زوجة قطب الدين
وعقد نكاح بعض أولاده على بعض بناتها وأقر بيدها قلعة هناخ لتكون فيها هى وبناتها
ورتب الامور فى ميافارقين وقرر اقطاعاتها وجميع ولاياتها وأحكم قواعدها ثم سارعنها يريد
الموصل فانه كان كثير الرغبة فى أخذها من صاحبها شديد الطمع فى ذلك فسار نحوها وجعل
طريقه على نصيبين فوصل الى كفر زمار والوقت شتاء فنزلها فى عساكره وعزم على المقام بها
وقطع المدد من الغلة والاقوات عن الموصل لاضعافها فقد علم أنه لايقدر على محاربتها لمنعتها
وكثرة مابها من الجند وآلات الحرب وطال مكث صلاح الدين بعسكره فخاف عز الدين
صاحب الموصل فأرسل رسله الى صلاح الدين فى الصلح فمال صلاح الدين الى ذلك فبينما
الرسل تتردد بينهما اذ مرض صلاح الدين وسار من كفر زمار عائدا الى حوران فلحقه الرسل
بالاجابة الى ماطلب فتقرر الصلح وحلف على ذلك وكانت القاعدة أن يسلم اليه عز الدين
شهرزور وأعمالها وولاية القرابلى وجميع ماوراء الزاب من الاعمال ويخطب له على منابر بلاده
ويضرب اسمه على السكة وأرسل رسله الى عز الدين ليحلف بحضرتهم على ذلك فحلف وتسلم
البلاد التى استقرت القاعدة على تسليمها ووصل صلاح الدين الى حوران فأقام بها
مريضا وطال مرضه فأمنت الدنيا وسكنت الفتنة * وكان عند صلاح الدين

من أهله أخوه الملك العادل وهو يومئذ على حلب وولده الملك العزيز عثمان واشتد مرضه حتى أيسوا منه فحلف الناس لاولاده بالطاعة وجمع اليه الامراء وقواد الجند وجعل لكل من أولاده شيأ من البلاد معلوما وجعل أخاه العادل وصيا على الجميع وجاءه ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبة ليزوره فرأى من شدة مرضه ماأطمعه فى أخذ دمشق اذا هو مات فسار من عنده الى حمص واجتاز بحلب وأحضر جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليم البلد اليه اذا مات صلاح الدين وأقام بحمص ينتظر موته ليسير الى دمشق فيملكها وانتقل صلاح الدين من حوران الى دمشق فبلغه ماقاله ناصر الدين فلم يمض غير قليل حتى مات ناصر الدين ليلة عيد الاضحى قيل انه شرب الخمر وأكثر منه فأصبح ميتا وقيل ان صلاح الدين وضع انسانا يقال له الناصح بن العميد من دمشق فحضر عند ناصر الدين فى تلك الليلة ونادمه وسقاه سما فلما أصبحوا من الغد لم يروا الناصح المذكور فسألوا عنه فقيل انه سار من ليلته الى صلاح الدين فكان هذا مما قوى الظن * ولما مات ناصر الدين شيركوه أخذ صلاح الدين جميع اقطاعه وأعطاها لولده شيركوه وعمره اثنتا عشرة سنة قال بعض الكتاب وخلف ناصر الدين من الاموال والخيل والآلات شيأ كثيرا فحضر صلاح الدين فى حمص واستعرض تركته وأخذ أكثرها ولم يترك الا مالا خير فيه قال صاحب الكامل وبلغنى أن شيركوه بن ناصر الدين حضر عند صلاح الدين بعد موت أبيه بسنة فقال له الى أين بلغت من القرآن فقال الى قوله تعالى ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا قال فعجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه

ولما كانت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة أخرج صلاح الدين يوسف ولده الافضل عليا من مصر الى دمشق وأقطعها له وأخذ حلب من أخيه العادل وسيره مع ولده العزيز عثمان الى مصر وجعله نائبا عنه واستدعى تقى الدين منها وسبب ذلك أنه كان استناب تقى الدين بمصر وجعل معه ولده الاكبر الافضل عليا فأرسل تقى الدين يشكو من الافضل ويقول انه قدعجز عن جباية الاموال معه لانه كان حليما كريم الطبع اذا أراد تقى الدين مطالبة أحد أومعاقبته منعه فأحضر صلاح الدين ولده الافضل وكتب الى تقى الدين يقول ليس لك بعد أخذ الافضل حجة فى الخراج أو غيره وتغير عليه بسبب ذلك وظن انه انما يريد اخراج الافضل عن مصر لينفرد بها حتى يملكها اذا مات صلاح الدين وقوى هذا الخاطر عنده فأحضر أخاه العادل من حلب وسيره الى مصر ومعه ولده العزيز عثمان واستدعى تقى الدين الى الشام فامتنع من الحضور وجمع العساكر والاجناد ليسير الى المغرب الى مملوكه قراقوش وكان قد استولى على جبال نفوسة وبرقة وغيرها وكتب اليه يرغبه فى تلك البلاد فتهيأ للسفر اليه واستصحب معه الجند والعساكر وآلات الحرب فلما سمع ذلك صلاح الدين يوسف ساءه وعلم انه انأرسل اليه يمنعه لم يجبه فأرسل اليه يقول أريد أن تحضر عندى لأودعك وأوصيك بما

تفعله فلما حضر عنده منعه وزاد فى اقطاعه حماة ومنبج والمعرة وكفر طاب وميا فارقين وجبل جور بجميع أعمالها * قال صاحب الكامل بلغنى من خبير بأحوال صلاح الدين انه انما حمله على أخذ حلب من العادل واعادة تقى الدين الى الشام ان صلاح الدين لما مرض بحران أرجف بمصر انه قد مات فجرى من تقى الدين حركات من يريد أن يستبد بالملك فلما عوفى صلاح الدين بلغه ذلك فأرسل الفقيه عيسى الهكارى وكان كبير القدر عنده مطاعا فى الجند الى مصر وأمره باخراج تقى الدين والمقام بمصر فسار مجدا فلم يشعر تقى الدين الا وقد دخل الفقيه عيسى الى داره بالقاهرة وأرسل اليه يامره بالخروج منها فطلب أن يمهله الى أن يتجهز فلم يفعل وقال تقيم خارج المدينة وتتجهز فخرج وأظهر أنه يريد الدخول الى الغرب فقال له اذهب حيث شئت فلما سمع صلاح الدين الخبر أرسل اليه بطلبه فسار الى الشام فأحسن اليه ولم يظهر له شيأ مما كان لانه كان حليما كريما صبورا رحمه الله اه

ولما دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كتب صلاح الدين الى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد وكتب الى الموصل وديار الجزيرة واربل وغيرها من بلاد الشرق والى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم الى الجهاد ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهز ثم خرج من دمشق فى عسكرها فسار الى رأس الماء وتلاصقت به العساكر الشامية فلما اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الافضل عليا ثم ساروا جميعا الى الكرك وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرهما فنهبوا وخربوا وأحرقوا ثم سار منها الى طبرية فملكها وأمن صاحبتها فرحلت عنها فرتب أمورها وأحكم نظامها وسار عنها الى عكا فاستسلمت اليه ونزح الكثير من أهلها بما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا مابقى ودخل المسلمون اليها وسلم البلد بعد ذلك الى ولده الافضل وأعطى جميع مافيه من اقطاع وجناح وغير ذلك الى الفقيه عيسى وكان فيها من السلاح والاموال والمتاع وغير ذلك شئ لايكاد يدخل تحت الحصر وأقام صلاح الدين بعكا بعد ذلك عدة أيام حتى أتم تقرير جميع أمورها على قواعد مرتبة ثم ملك بيروت وجبلى وغيرهما وأجرى فيها أحكامه وأقام العمال بها على نظامه وترتيبه المألوف عنده فلما دانت له الامور فى جميع بلاد الشام الا ما كان منها بيد الفرنجة كان أمر عسقلان وبيت المقدس عنده أهم فكان كثير التحدث بحوادثهما كبير التولع بمعرفة أخبارهما وكان يقول أما عسقلان فانها على طريق مصر وأحب الاشياء عندى أن تتصل الولايات لى فلا يصعب علىّ خروج العسكر منها ودخولهم اليها وأما فتح بيت المقدس ففيه من الذكر الجميل والصيت العظيم مايبقى على مر الايام وفى أخذ البلدين فائدة للاسلام والمسلمين وعظمت رغبته وقويت نفسه بأخذ بيروت فسار منها نحو عسقلان واجتمع بأخيه العادل ومن معه من العسكر المصرى ونازلوها يوم الاحد سادس عشر جمادى الآخرة وجد فى قتالها ونصب المنجنيقات ورمى بالاحجار ليلا ونهارا وسدّ عليها جميع المسالك فانقطع المدد وقلت الأقوات وطال القتال أياما كثيرة فلم يرمن بالمدينة من الفرنجة بدا من التسليم فراسلوا صلاح الدين فى

ذلك

ذلك واشترطوا شروطا فأجابهم صلاح الدين اليها فسلموها ونزح منهم من أراد الخروج بماله وعياله ووفى لهم صلاح الدين بالامان ثم مال صلاح الدين بعسكره على ماجاور عسقلان من البلدان فأخذها وأنفذ فى جميعها أحكامه فذاع صيته واتسعت كلمته وهابه الملوك لما رأوه من انتصاره فى غزواته وفتوحاته * ولما فرغ من أمر عسقلان وماجاورها من البلدان وقد استتب له الامر فيها أرسل الى مصر فأخرج الاسطول الذى بها فى جمع من المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب فأقاموا فى البحر يقطعون الطريق على الفرنجة كلما رأوا لهم مركبا غاكسوه أوأخذوه بما فيه من غلة أو متاع وما زال على هذا الحال حتى وصل فسار صلاح الدين عن عسقلان الى بيت المقدس وكان به جمع كبير من المقاتلة والفرسان الاشداء وقد حصنوه تحصينا ونصبوا عليه المنجنيقات وتأهبوا للذب والدفاع فلما قرب صلاح الدين منه تقدم أمير من أمراء جند صلاح الدين فى جماعة من أصحابه فلقيه جمع من الفرنجة قد خرجوا من البلد ليناوشوهم القتال فقاتلوه ومن معه وقاتلهم فقتلوه وقتلوا جميع من معه فأهم المسلمين قتله وساروا حتى نزلوا على بيت المقدس فرأوا على سوره من الرجال ما هالهم وسمعوا لأهله من الجلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع * وبقى صلاح الدين يوسف خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتلها لانها كانت فى غاية المنعة فلم يجد عليها موضع قتال الا من جهة الشمال نحو باب عمود أو كنيسة صهيون فانتقل الى هذه الناحية ونزلها ونصب فى ليلة وصوله المنجنيقات فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها ورمى الفرنجة بمنجنيقاتهم وقاتلوا أشد قتال لم يره أحد من الناس وكان فرسان الفرنجة يخرجون فى كل يوم الى ظاهر البلد فيقاتلون ويبارزون فقتل من الفريقين خلق ومات من المسلمين الامير عز الدين عيسى بن مالك وهو من أكبر الامراء فى جيش صلاح الدين وكان أبوه صاحب قلعة جعبر وكان يصطلى القتال بنفسه حتى قتل وما زالوا على جد وشدة فى القتال حتى وصل المسلمون الى الخندق وجاوزوه والتصقوا بالسور ينقبونه والرماة يحمونهم والمنجنيقات توالى الرمى لتكشف الفرنجة عن الاسوار حتى يتمكن المسلمون من النقب حتى نقبوه فلما رأى الفرنجة ذلك أرسلوا الى صلاح الدين فى طلب الامان وخرج صاحب الرملة واجتمع بصلاح الدين يوسف وكلمه فى الكف عن القتال وتقرير قاعدة لتسليم البلد وقال له أيها السلطان اعلم أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير جدا لايعلمه الا الله وانما يفترون عن القتال رجاء الامان ظنا منهم أنك تجيبهم اليه فاذا رأينا أن لامناص من الموت فوالله لنقتلن أولادنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تأخذون منها دينارا ولا درهما ولا تسبون ولا تأسرون رجلا ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا وقاتلنا كم قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه وحينئذ لايقتل الرجل منا حتى يقتل أمثاله ونموت

أعزاء أو تظفر كراما فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على اجابتهم الى مايطلبون وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب مالا يدرون عاقبة الامر فيه عن أى شئ ينجلى فأجاب صلاح الدين حينئذ الى ماطلبه صاحب الرملة واستقر أن يأخذ من الرجل عشرة دنانير يستوى فيها الغنى والفقير ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين وتزن المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك الى أربعين يوما فقد نجا ومن انقضت الاربعون يوما عنه ولم يؤدها فقد صار مملوكا فبذل صاحب الرملة عن الفقراء ثلاثين ألف دينار فأجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ورتب صلاح الدين على كل باب من البلد أميرا من الامراء ليأخذوا من أهلها مااستقر عليهم فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة واقتسم أولئك الامراء الاموال وتفرقت أيدى سبأ * قال صاحب الكامل وغيره وكان على رأس قبة الصخرة بالبيت المقدس صليب كبير مذهب فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة المذكور تسلق جماعة منهم الى أعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين صعدوا صاح الناس كلهم صيحة واحدة من البلد ومن ظاهرها من المسلمين والنصارى فسمع الناس ضجة عظيمة كادت الارض أن تميد بهم لعظمها وشدتها فكان هذا الحادث من العجائب وتحدث الناس به كثيرا * ثم أمر صلاح الدين باعادة ما تخرب من الابنية الى ما كان عليه ولما كانت الجمعة الاخيرة رابع شعبان صلى المسلمون فى المسجد الاقصى صلاة الجمعة ومعهم صلاح الدين يوسف وصلى أيضا فى قبة الصخرة وكان الخطيب والامام محيى الدين بن الزكى قاضى دمشق ثم رتب صلاح الدين فيه خطيبا واماما برسم الصلوات الخمس وشرع من قام من الفرنجة فى بيت المقدس فى بيع مالا يمكنه حمله من أمتعة وذخائر وأموال وأخذ مايطيق حمله فكان مابيع شيأ كثيرا من الاسرة والصناديق والبقيات وغير ذلك فاشتراه تجار المسلمين وتركوا أيضا من الرخام الذى لامثيل له من الاساطين والالواح والفصوص وغيره شيأ كثيرا ثم ساروا ورحلوا متفرقين * قال أصحاب التاريخ وهذه المكرمة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه غير صلاح الدين يوسف رحمه الله وكفاه ذلك فخرا وشرفا

ولما شاع خبر أخذ صلاح الدين يوسف بيت المقدس وشحنه بالعساكر والاجناد والمهاجرين من المسلمين وأنه قد ولى عليه الظهير أخا الفقيه عيسى وفوض اليه تدبيره هاج النصارى وماجوا ووصل بعض المستنفرين من أهل بيت المقدس الى قسطنطينية وغيرها من البلاد الالمانية وأخبروا بما جرى ووردت كتب بابا رومية الى امبراطور الالمان وغيره من ملوك أوروبا فى هذا المعنى فهموا باعداد المقاتلين وأكثروا من جمع الاسلحة ومعدات الحرب وبالغوا فى التجهز للقتال * قال بعض الكتاب وسار بطرك بيت المقدس الى رومية فى جمع من القسوس يستنفرون الناس الى الجهاد واستخلاص بيت المقدس من يد صلاح الدين يوسف ورسموا صورة المسيح فى زى رجل عارى البدن حاسر الرأس وبجانبه آخر فى زى أعرابى وقد طعنه وأسال دمه وطافوا بهذه الصورة فى الطرق والشوارع وهم يضجون

ويبكون

ويبكون ويحثون الناس فهاج الناس وماجوا وكبر عليهم الأمر جدا وزادت حميتهم وتبعوهم وهم ينادون بالثار بالثار * وبينما كانت خواطر النصارى فى اضطراب وامبراطور الالمان يجهز المقاتلة للخروج للقتال كان صلاح الدين يوسف أيضا يجيش الجيوش ويكثر من الكراع ومعدات الحرب وهو على عزم أن يفتح مابقى من بلاد الساحل وسار الى جبلة ففتحها باغراء قاضيها وفتح ماحولها مثل انطرطوس ومرقية وأخذ حصن بكسرائيل بين جبلة ومدينة حماة وبعد أن قرر أحوال جبلة وجعل فيها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر سار عنها الى اللاذقية وكان الفرنجة قد ساروا عنها وأخلوها وصعدوا الى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما فدخل المسلمون المدينة وحصروا القلعتين وقاتلوهما وقد دخل الى الفرنجة بالقلعتين قاضى جبلة وما زال بهم حتى استأمنوا لصلاح الدين وخرب عسكر صلاح الدين مافى مدينة اللاذقية من الابنية العظيمة والعمائر الجسيمة المزخرفة المملوءة بالرخام الملون ونقلوا رخامها وشعثوا كثيرا من كنائسها التى قد غرم عليها الاموال الجليلة المقدار وبعد أن قرر أحوالها سلمها الى ابن أخيه تقى الدين عمر وسار صلاح الدين من اللاذقية الى قلعة صهيون فقاتل من بها وما زال يقاتلهم حتى سلموا اليه على قطيعة فتسلم الحصن وسلمه الى الامير ناصر الدين منكورس صاحب قلعة أبى قبيس ثم بث صلاح الدين سراياه حول صهيون فملكوا حصن بلاطنوس وحصن العيدو وحصن الجماهرتين وكان جماعة الفرنجة قدتركوها ورحلوا عنها * قال أصحاب التاريخ فاتسعت المملكة الاسلامية بتلك الناحية الا أنه كان دون الوصول اليها من البلاد الاسلامية على عقبة بكسرائيل أهوال لان الطريق السهلة كانت غير مسلوكة فان بعضها كان بيد الاسماعيلية وبعضها بيد الفرنجة فلما استسلمت الحصون المذكورة استسلمت أيضا قلعة الثغر ووجدوا قلعة بكاس خالية ليس فيها أحد من الفرنجة فأخذوها وسير صلاح الدين ولده الظاهر غازى صاحب حلب الى سرمينية فحاصرها وضيق عليها ومازال بأهلها حتى استنزلهم على قطيعة قررها عليهم فلما أنزلهم وأخذ منهم المقاطعة هدم الحصن وكان فيه وفى بقية تلك الحصون من أسارى المسلمين الجم الغفير فأطلقوا وكانت جميع هذه الحصون الى سرمينية من أعمال أنطاكية فلم يبق لها سوى القصير وبغراس ودرب ساك كما ذكره أصحاب التاريخ ثم سار صلاح الدين يوسف الى حصن برزية ونزل عليه وفتحه بعد قتال شديد دام أياما وأمن صاحب الحصن هو وعائلته ووفى له بالعهد وسيره الى أنطاكية ولبث ببرزية يومين ثم رحل عنها وأتى جسر الحديد على نهر العاصى بالقرب من أنطاكية فأقام عليه حتى وافاه من تخلف من الجند والقواد وسار عنه الى قلعة درب ساك فنزل عليها ونصب المنجنيقات وتابع الرمى عليها بالحجارة وما زال يجد فى قتالها ويزحف على الاسوار بجنده المرة بعد المرة حتى ظهر ضعف من بها من الفرنجة وعجزهم عن القتال وطلبوا من صلاح الدين الامان فأجابهم الى ماطلبوه فخرجوا وساروا الى انطاكية ولم يأخذوا من أموالهم ومتاعهم شيأ وكذلك فعل

بقلعة بغراس ولما تم له فتح بغراس عرض عسكره ليسير بمن بقى منهم الى فتح أنطاكية فرأى من ضعفهم وملالهم وانقباض نفوسهم ماخافه وأشفق منه فلبث أياما لايأمرهم بالمسير واتفق أن صاحب أنطاكية أرسل الى صلاح الدين يطلب الهدنة وأطلق كل أسير عنده من المسلمين ففرح صلاح الدين بذلك واستشار من عنده فاشاروا باجابته الى ما طلب ليعود الناس فيستريحوا ويجددوا مايحتاجون اليه فأرسل صلاح الدين الى صاحب أنطاكية بالقبول واصطلحوا مدة على ثمانية أشهر واستحلفه على حفظ الزمام لخلف له وأطلق من عنده من الاسرى فرحل صلاح الدين بعسكره عن أنطاكية الى حلب ثالث شعبان من السنة أى سنة أربع وثمانين وخمسمائة فدخلها وسارمنها الى دمشق وفرق العساكر الذين مع زنكى بن مودود وعسكر الموصل وغيرها وكانوا قد أشاروا عليه بذلك ففعل وهو يخشى العاقبة وكان صلاح الدين قبل المهادنة مع صاحب أنطاكية قد جعل على الكرك عسكرا يحصره وكان به الامير رينودى شاتيلون أحد ملوك الصليبيين فلازموا حصاره مدة طويلة حتى فنيت أزواد من به من الفرنجة وذخائرهم والملك العادل أخو صلاح الدين يشدد فى الحصار ويضيق على من به فأرسلوا اليه يطلبون الامان ويبذلون تسليم القلعة فأجابهم الى ذلك وتسلم القلعة منهم ونزلوا وتسلم أيضا مايقاربها من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيرة والسلع فاطمأنت قلوب المسلمين بأخذ ذلك الصقع وفرح صلاح الدين بفتحه فرحا عظيما وهو مع ذلك كان يقول ان العمر قصير والأجل غير مأمون وكيف أطاول الفرنجة و بيدهم الى الآن كوكب وصفد وغيرهما وأقام بدمشق الى منتصف رمضان حتى وافته الجنود والعساكر المشرقية وغيرهم ثم سار عن دمشق الى قلعة صفد فحصرها وضيق عليها ونصب المجنيقات ووالى الرمى عليها بالحجارة وكان من بها من عسكر الفرنجة قد مضى عليهم أيام كثيرة وهم يدافعون عنها ولم يأتهم شئ من المؤنة فقلت أزوادهم وضاقت نفوسهم فأرسلوا يطلبون الامان فأمنهم وتسلمها منهم فخرجوا عنها وساروا الى مدينة صور ووفى لهم صلاح الدين بالعهد ثم سار عن صفد الى كوكب فحاصرها وأرسل الى من بها من الافرنج يبذل لهم الامان ان سلموا ويتهددهم بالقتل والسبى والنهب ان امتنعوا فأبوا الا القتال فقاتلهم وجدّ فى قتالهم ونصب المجنيقات وتابع الرمى بالحجارة فلم يتمكن منها وطال مقامه عليها ثم حملوا على سورها حملة رجل حتى التصقوا به ونقبوه فلما رأى الفرنجة ذلك مالوا الى التسليم وأرسلوا الى صلاح الدين فى ذلك فأجابهم واستلم منهم الحصن فى ذى القعدة وسيرهم الى صور فانضموا الى من بها من المقاتلين وأصلحوا حالهم ورتبوا أمورهم فاشتدت شوكتهم وجاءهم المدد تباعا من صقلية وغيرها فصاروا جيشا عظيما فندم صلاح الدين على تفريطه حيث لم ينفعه ذلك واجتمع للمسلمين بفتح كوكب وصفد من حد أيلة الى أقصى أعمال بيروت فكان لايفصل بينها غير مدينة صور وقد صارت فى غاية القوة والامتناع

بما وفد عليها من جموع الفرنجة والامداد المتتابعة واجتمع لهم أيضا جميع أعمال أنطاكية سوى القصير

ولما تم لصلاح الدين أخذ صفد سار الى بيت المقدس فعيد فيه عيد الاضحى ثم سار منه الى عكا فأقام بها حتى انسلخت السنة فلما كان ربيع الاول من سنة خمس وثمانين سار الى شقيف ارنوم وهو من أمنع الحصون ليحصره فنزل بمرج عيون وأقام بها يدبر أمر جيوشه فجرت بينه وبين صاحب الحصن وهو صاحب مدينة صيدا أيضا مخابرات فى معنى القتال وفى المطاولة وترددت الرسل بينهما وكل منهما راض عما يسأل الآخر فتقررت القاعدة بينهما على تسليم الحصن فى جمادى الآخرة من تلك السنة ولبث صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الاجل المضروب بينهما ولكنه كان قلقا مضطرب البال مفكرا فى قرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين صاحب أنطاكية فسير تقى الدين ابن أخيه فيمن معه من عسكره ومن يأتى من بلاد المشرق وأمره بالنزول مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء الهدنة وكانت الاخبار عن صور تأتى اليه فى كل يوم أشكالا وكلها تدل على اجتماع الفرنجة بها وما يتصل بهم من الامداد فى البحر وتزايد جموعهم يوما عن يوم فكان منزعج الخاطر كثير الهم شديد الخوف وكان يخشى من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم الى صور وفيها الجموع المتكاثفة فتنقطع الميرة عنه وكان صاحب الشقيف فى هذه الهدنة يشترى الاقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك مما يقوى به حصنه وصلاح الدين لا يسىء به الظن * وما دخلت سنة ست وثمانين حتى تم تجهيز جموع الفرنجة وكثر عددهم وعددهم تحت راية امبراطور الالمان فسار بهم وهم لا يحصون كثرة يريد بيت المقدس وجعل طريقه على القسطنطينية فلم يمدهم صاحبها بشىء من الذخيرة ولا الازواد وخشى منهم على بلاده وكادت تقع الحرب بينهما على ذلك ثم عبروا خليج القسطنطينية واتصلوا ببلاد الملك قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن قتلش بن سلجق فلم يطؤا حدودها حتى ثارت بهم قبائل التركمان فناوشتهم القتال فلم تنل منهم فجعلوا يسايرونهم ويسرقون ما قدروا عليه وما زالوا سائرين حتى قاربوا مدينة قونية فخرج اليهم الملك قطب الدين ملك شاه بن قلج أرسلان يريد منعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد مسرعا مدحورا الى قونية فأسرعوا السير فى أثره ونازلوا قونية وجدوا فى قتالها وشددوا فأرسل اليهم قطب الدين يسألهم الجلاء عن المدينة ولهم ما يطلبون فأجابه الامبراطور الى ذلك بشرط أن يسلم اليهم جميع ما يحتاجون اليه من قوت وغيره فأتاهم بما يريدون فتزودوا وطلب منه رهائن وتسيير الكتب الى جميع بلاده بملازمة السكون والطاعة والقيام بكل ما يطلب منهم فسلم الى الامبراطور نيفا وعشرين أميرا كان يكرههم رهنا وسير الكتب الى الآفاق بامداد جيوشهم بالميرة والزاد وجميع ما يحتاجون اليه وسار امبراطور الالمان فى جموعه حتى أتى بلاد الارمن فخرج اليه صاحبها لافونة بن اصطفان بن ليون فى جماعة من كبار قومه وأحسن وفادته وقدم له من الاقوات شيأ كثيرا وكذلك العلوفات وحكم الامبراطور فى بلاده

وأظهر له الطاعة فلبث أياما ثم نادى فى جموعه بالرحيل فساروا يريدون انطاكية ونزلوا على نهر فى طريقهم ولبثوا أياما واتفق أن الامبراطور نزل يوما فى النهر ليغتسل فغرق فى مكانه فعظم ذلك على أصحابه وأحزنهم جدا وكان معه ولده فاجتمع على البيعة له جميع الامراء وكبار الجند والاحزاب وسار بهم يريد انطاكية فرأى من تحصينها وامتناعها مالا تحتاج معه الى المدد فساروا عنها يريدون عكا فمروا بجبلة ولاذقية وقد ملكهما المسلمون فقاتلوهما قتالا عنيفا حتى أخذوهما ثم ساروا الى عكا فخرج عليهم أهل حلب وغيرهم فلم ينالوا منهم ما أرادوا فكانوا يتخطفون من خلفهم وبلغوا طرابلس وأقاموا بها أياما فرتبوا أمورهم وأحكموا نظامهم وتزودوا وركبوا السفن وأقلعوا الى عكا فلما وصلوا اليها صعد الى المتترسين أمامها من جموع الفرنجة من صعد ممن يفضلون الجهاد على العود الى الاوطان وأقلع من أقلع عائدا الى أهله وولده صحبة امبراطور الالمان وكان صلاح الدين وأصحابه فى قلق وخوف ماعليه مزيد وهم يتوقعون جلاءهم عن جميع أرض الشام فى كل يوم انهم خسروا عكا وكانوا كلما علموا بقرب جموع ملك الالمان منهم ترفعوا عنهم وأخلوا لهم المسالك وبالغوا فى التحرز والالتفات * فلما سافر ملك الالمان بمن سافر معه من جموعه وقد تقوت نفوس من بالمتاريس أمام عكا من الفرنجة بمن جاءهم من المقاتلين والمتطوعة رتبوا أمورهم وخرجوا فى عدتهم وسلاحهم لقتال المسلمين وقصدوا معسكر مصر ومقدمهم الملك العادل أبوبكر بن أيوب فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المصريون وتقهقروا فتبعهم الفرنجة وأعملوا فيهم القتل ودخلوا خيامهم ونهبوا جميع أموالهم وكانت عساكر الموصل قريبة من العساكر المصرية فلما رأوا ماحل بالمصريين حملوا على الفرنجة ومقدمهم علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل وجدوا فى قتالهم وبالغوا فنالوا منهم ثم افترقوا والقتلى لاتكاد تدخل تحت الحصر فلما كان بعد يومين رأى صلاح الدين وأصحابه من تكاثر وورود المدد فى السفن والبطس الكبيرة الى من بعكا ما أذهلهم وأخافهم وأوقعهم فى حيرة ثم وصل الأمير هنرى ابن أخى ملك الفرنسيس لامه وابن أخى ملك انجلترا لأمه ووصل معه من الاموال والذخيرة وآلات الحرب شئ كثير للغاية فلم يستقر به المقام حتى حشد وجند وبذل الاموال ورتب الأمور وأحكم نظام المقاتلين من كل صنف ثم أظهر أنه يريد الخروج الى لقاء المسلمين وقتالهم فانتقل صلاح الدين بعسكره من مكانه الى الخروبة فعكف الأمير هنرى بمن معه على المتاريس ونصبوا خلفها المنجنيقات ورموا بالحجارة على البلد وتابعوا الرمى ليلا ونهارا وقويت نفوسهم واشتدت عزائمهم وجاءتهم رسائل بابا رومة بالحث والاستنهاض والمثابرة على الجهاد والجد فى القتال وأنه سير الى الآفاق يستنهض ملوك المسيحيين الى استخلاص بيت المقدس من يد صلاح الدين يوسف وأن المدد قائم عليهم برا وبحرا فلما كان حادى عشر شوال من السنة أى سنة ست وثمانين خرجوا فى عدد عظيم فهال منظرهم صلاح الدين وأصحابه وانقبضت له نفوسهم فنادى صلاح الدين بنقل الاثقال الى بلدة ميمون فنقلوها

وأرسل يستسرع حضور العساكر اليه من الاطراف فحضروا فأحكم نظامهم وجعل أولاده الافضل عليا والظاهر غازى والظافر مما يلى القلب وأخاه العادل أبا بكر فى الميمنة مع العساكر المصرية ومن انضم اليه وجعل فى الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقى الدين صاحب حماة ومعز الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه ونصب صلاح الدين خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر اليهم لمرض أصابه يومئذ فاقتتلوا قتالا خفيفا ثم عادوا الى مراكزهم وقد عرف الامير هنرى مواقف عسكر المسلمين وما لديهم من الاسلحة والكراع وغير ذلك فجعل يطاولهم ولا ينكف عن الرمى على من بعكا منهم بالحجارة تارة وبالسهام أخرى واشتد الغلاء فى عسكر صلاح الدين وقل الوارد من المؤنة لتعذر نقلها بسبب الشتاء ووقوف جماعة الفرنجة فبلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صورى فصبروا على هذا ومع ذلك فكانت تأتيهم المؤنة من البلدان القريبة على الصعب والذلول وأرسل من بعكا الى صلاح الدين يشكون الضجر والملالة والسآمة وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدما على جندها فرسم صلاح الدين باقامة البدل وانفاذه اليها واخراج من بها وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل الى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشوانى وشحنها بما تيسر من الجنود والعساكر وكانت مراكب الفرنجة قد لجأت الى صور والجزائر فرارا من عواصف الشتاء فانفتح الطريق الى عكا وتمكنت مراكب صلاح الدين من دخول المينا وتنزيل المقاتلة فدخل عكا عشرون أميرا وخرج منها ستون أميرا لاستيلاء الضجر والملل على جميع العساكر وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وانفاذهم وقلت النفقة على المقاتلين فتفرق بهذا السبب أيضا خلق كثير * قال أصحاب التاريخ وانضاف الى ذلك توانى صلاح الدين ووثوقه بنوابه واهمال النواب فانحسر الشتاء والامر كذلك وعادت مراكب الفرنجة الى عكا وانقطع الطريق وعاد الرمى بالمنجنيقات على البلد ليلا ونهارا وكان ممن دخل من الامراء الى عكا سيف الدين على بن أحمد المشطوب وعز الدين أرسل مقدم الاسدية وكان دخولهم الى عكا فى أوائل سنة سبع وثمانين فجد الفرنجة فى القتال وشددوا فى الحصار وسدوا الطرق برا و بحرا وعظم الامر على صلاح الدين وأصحابه * قال صاحب الكامل فكان حال المسلمين كما قال الله عز وجل اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار و بلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا * ووقع فى عسكر صلاح الدين بعض الموت فمات يوسف بن زين الدين على صاحب اربل وكان قد حضر فى عسكره نجدة لصلاح الدين فى جملة من حضر من الاطراف والقتال من الفرنجة قائم على ساق فى البر والبحر ووصل الى عكا فى الثانى عشر من ربيع الاول الملك فليب ملك الفرنسيس فى سفن كثيرة ومعه كثير من المقاتلة والمتطوعة فنزلت طائفة منهم الى البر ونزل الملك فليب فقابله الامير هنرى وضربت

لقدومه البشائر وعلم من فى جميع البلاد التى بيد الفرنجة بخبر قدومه ففرحوا به ولم يلبث أن قاتل من بعكا من المسلمين وألح فى قتالهم وشدد فى التضييق عليهم وكان صلاح الدين نازلا بمن معه على شفرعم فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنجة ليشغلهم بالقتال عن الزحف الى البلد فلم يكن ليقدر على ذلك واشتد الكرب على من بالبلد وتولاهم الضجر والملل وكبر خوف صلاح الدين وكاد يتولاه القنوط عند ماجاءته الاخبار أيضا بقرب وصول الملك ريشارد الملقب بقلب الاسد ملك الانجليز الى عكا فى كثير من العساكر والمقاتلين على ظهور البطس العظيمة ومراكب الحرب وكان ريشارد قد أنذر بالجهاد فسار فى عسكر عظيم من انجلترا يريد عكا ومر بجزيرة قبرص فنزل عليها ليملكها لامور بينه وبين صاحبها لاتتعلق بما نحن بصدده ووصلت بعض سفنه الى عكا ونزل من بها من المقاتلين والمتطوعين وقاتلوا المسلمين مع من يقاتلون من المسيحيين وألحوا فى القتال وأمر الملك فليب فنصبوا سبع منجنيقات وتابعوا الرمى بها على عكا ليلا ونهارا فعظم الأمر على صلاح الدين وقدم ريشارد ملك الانجليز ثالث عشر جمادى الاولى فى جموعه وقد استولى فى طريقه على جزيرة قبرص وأخذها من الروم ووصل الى مينا عكا فى خمس وعشرين قطعة كبارا مملوءة رجالا وأموالا فلما عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين أرسلوا الى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم يفدهم شيأ فخرج الامير سيف الدين على بن أحمد الهكارى المعروف بالمشطوب من البلد واجتمع بالملك فليب ملك الفرنسيس وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يطلق من به من المسلمين ويمكنهم من اللحوق بسلطانهم فلم يجبه الى ذلك وأبى الا التسليم بغير شرط فرجع المشطوب وأخبر بقية الامراء بما جرى فلما كان الليل اجتمع منهم عز الدين أرسل الاسدى وابن عز الدين جاولى وسنقر الوشاقى وغيرهم واتفقوا على الهرب فخرجوا سرا من أصحابهم ولحقوا بصلاح الدين فلما أصبح الناس ورأوا ذلك انفشلوا وازدادوا وهنا على وهنهم وضعفا على ضعفهم وأيقنوا بالعطب وأرسل صلاح الدين الى فليب فى معنى التسليم بشرط أن يطلق من أسرى النصارى بعدد ما فى عكا من المسلمين ليطلقوا هم من بعكا وأن يسلم اليهم صليب الصلبوت فلم يقنع بما بذل وأمر بتشديد القتال فشددوا وزحفوا على البلد بحدهم وحديدهم فلما صارت على وشك السقوط ظهر من بها من المسلمين على السور يحركون أعلامهم ليراها أصحاب صلاح الدين وكانت هى العلامة اذا اخترمهم أمر فضجوا بالبكاء والعويل ولكنهم لم يقدروا على نفع ولم يدفعوا عن البلد ضرا * قال بعض الكتاب فخرج المشطوب الى ملوك الفرنجة وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه وبذل لهم على ذلك مائتى ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين واعادة صليب الصلبوت مع أربعة عشر ألف دينار الى صاحب صور فأجابوه الى ذلك فسلم البلد اليهم ودخلوه فلما ملكوه غدروا وأحاطوا بمن فيه من المسلمين وأموالهم وحبوسهم وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل اليهم مابذل لهم وقال آخرون بل فتحوا البلد عنوة وأعملوا فيه السيف وأخذوا مابه

من الاموال والمتاع وأرسلوا إلى صلاح الدين فى ارسال المال والاسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم من المسلمين فطاولهم صلاح الدين فأعملوا السيف فيمن بقى من المسلمين ولم يستبقوا الا بعض الامراء والمقدمين ثم أخذوا يصلحون حال البلد ويرممون ما تهدم منها حتى عادت الى ما كانت عليه من الامتناع وأقاموا الى شعبان من السنة لايحركون ساكنا ولا يشتغلون بغير تحصين البلد وترتيب أمورهم ثم برزوا منها وساروا يريدون حيفا وكان الملك الافضل بن صلاح الدين يوسف فى طائفة من العسكر والمتطوعين يراقبون حركات الفرنجة ومعهم جماعة من الامراء وهم سيف الدين ايازكوش وعز الدين جورديك وعدة من كبار الجند فلما أحسوا بخروج الفرنجة وعلموا أنهم يقصدون حيفا كتب الملك الافضل الى أبيه صلاح الدين يعلمه بالحال ويستمده فنادى صلاح الدين فيمن معه بالمسير اليه فامتنعوا فعاودهم فامتنعوا وقد تولاهم الفشل واختلط الحال على صلاح الدين فلما أبطأ المدد على الملك الافضل وعجز عن الوقوف فى طريق الفرنجة جعل يتخطف ساقتهم فعاد ريشارد ملك انجلترا على ساقة الفرنجة فحماها وجمعهم وساروا وهم على أحسن نظام وأجمل هيئة حتى أتوا حيفا فنزلوا بها ونزل المسلمون بقربة قيمون على مقربة من حيفا فأقام الفرنجة بحيفا أياما ثم ساروا منها الى قيسارية والمسلمون يسايرونهم فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم فلم ينالوا منهم ونزل الفرنجة بها ثم قاموا من قيسارية وقد أصلحوا حالهم وساروا يريدون ارسوف وكان المسلمون قد سبقوهم اليها وتبعهم السوقة والباعة وغيرهم ممن يتبعون العساكر فى الحروب فلما اقترب الفرنجة من البلد خرج عليهم المسلمون وحملوا عليهم حملة منكرة فحملت فرسان الفرنجة على المسلمين حملة رجل واحد فولى المسلمون منهزمين لايلوى أحد على أحد واختلطوا بالسوقة فعلا الضجيج والصياح ووقع السيف على الاعناق وكثر القتل والتجأ من بقى من المنهزمين الى قلب الجيش وفيه صلاح الدين يوسف فاختل نظامه وولوا جميعا منهزمين ودخلوا شعرة كثيرة الشجر قريبة من موقفهم فظنها الفرنجة أنها مكيدة فلم يتبعوهم * قال أصحاب التاريخ فلو علم الفرنجة أنها هزيمة لتبعوهم واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون عن آخرهم وعاد الفرنجة فدخلوا أرسوف وأقاموا بها أياما ثم برزوا منها وقد رتبوا أمورهم وساروا الى يافا فنزلوها وملكوها وبثوا سراياهم فى الاطراف فعاثوا وقتلوا وتخطفوا من المسلمين خلقا كثيرا فعم الخوف وضاقت نفوس المسلمين وتفرق عن ملوك الاطراف أصحابهم والمجاهدون معهم وعظم الامر جدا على صلاح الدين يوسف ولازمه الحزن والكدر وتولاه القنوط واليأس فسار مجدا فى نفر قليل الى الرملة ولحق بأثقاله فيها وجمع اليه الامراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتدمير عسقلان وقالوا له قد رأيت ما كان منا ومنهم بالامس واذا جاؤا الى عسقلان ووقفنا فى وجوههم نصدهم عنها فلا شك أنهم يظفرون بنا وينزلون عليها فاذا كان ذلك عدنا الى مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الامر علينا لان العدو قوى ونحن قد ضعفنا وتولانا اليأس ولازمنا الملل فلم تسمح نفس يوسف بتدميرها

ونادى فيمن عنده من العساكر والمتطوعة بالدخول اليها والذب عنها فلم يجبه أحد الى ذلك
وقالوا ان أردت الذب عنها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار والا فما يدخلها منا
أحد ونحن الى الآن ماننسى ما أصاب أهل عكا فلما أيس من حفظها سار نحوها وأمر
بتخريبها فخربت وألقيت أحجارها بالبحر وهلك فيها من الاموال والذخائر شئ كثير للغاية وعفى
أثرها ثم رحل صلاح الدين عن عسقلان بعد تخريبها الى الرملة فخرب حصنها وهدم الكنيسة
الكبرى التى بها وأتلف جميع ما كان بها من الذخيرة وأما الفرنجة فانهم أطالوا المقام بيافا
وشرعوا فى عمارتها وتحصينها وأكثروا فيها من الاسلحة والكراع والمدد يتواصل بينها وبين
بقية القلاع والحصون التى بأيديهم فلما طال مكثهم بها عظم الامر على صلاح الدين
وأصحابه وقلت عندهم الاقوات واشتد بهم الضجر فترددت الرسل بين الملك العادل أبى بكر
ابن أيوب أخى صلاح الدين وبين ريشارد ملك الانكليز فى معنى الصلح أو المهادنة واجتمع الملك
العادل بملك الانكليز مرارا كثيرة وتكلموا فى المعنى وشاع يومئذ بين العسكرين أن ستقرر
القاعدة على أن ملك الانكليز يزوج ابنة عمه الاميرة جوليا من العادل ويكون القدس وما
بأيدى المسلمين من بلاد الساحل للعادل وتكون عكا وما بيد الفرنجة من البلاد لابنة عم
ريشارد الملك ثم لم تلبث أن بطلت هذه الاشاعة ولم يتم بينهما صلح ولهذه المصالحة والمصاهرة
أسباب تكلم الكتاب من الانكليز عنها كثيرا فأضربنا عن ايرادها هنا خوف الاطالة قالوا
وكان ريشارد ملك الانكليز يفعل ذلك مع الملك العادل خديعة ومكرا وأظهر ريشارد العزم
على قصد بيت المقدس فاضطرب صلاح الدين من ذلك وسار الى الرملة جريدة وترك الاثقال
بالبترون ثم عاد الى البترون وقد برز الفرنجة من يافا يريدون الرملة فى ثالث ذى القعدة
على عزم قصد بيت المقدس فاقتربوا من المسلمين وتخطفوهم وأكثروا القتل واشتد البلاء
على أصحاب صلاح الدين وعظم الخطب فكان كل ساعة يقع الصوت فى العسكر بلقاء
الفرنجة فلقوا من ذلك شدة بالغة للغاية وأقبل الشتاء وتوالت الامطار واشتد البرد
والناس فى ضنك وحرج من حمل السلاح والسهر الدائم تحرزا من الفرنجة ورأى
صلاح الدين من ملل الجند وعجزهم ماأخافه فسرحهم الى أوطانهم فلم يبق معه
الا العسكر المصرى ومقدمهم يومئذ أبو الهيجاء السمين فسار بهم صلاح الدين الى البيت
المقدس فنزلوا جميعا داخل البلد ونزل صلاح الدين بدار الاقصى بجوار بيعة قامة
ورسم بعمارة سور البلد وتجديد مارث منه فأحكموا بنيانه وعملوا خندقا عظيما خارج السور
ورتبوا الابراج وتسلم كل برج منها أمير وحصن البلد حتى صارت فى غاية الامتناع أما
الفرنجة فانهم وصلوا الى الرملة وملكوها وأقاموا بها أياما ثم ساروا منها الى البترون ثالث
ذى الحجة وقاتلوا من بها من أصحاب صلاح الدين ونالوا منهم وجدوا فى قتالهم حتى ملكوها
ورحل عنها من بقى من أصحاب صلاح الدين فنزل بها الفرنجة وأقاموا أياما وبث ريشارد
ملك الانجليز عيونه وارصاده لتأتى له بخبر مايفعله صلاح الدين بالبيت المقدس ورسم بعمارة

عسقلان وارجاعها الى أحسن ما كانت عليه وتأهب للسير الى البيت المقدس وقد رتب المقاتلين على أحسن ترتيب وكان صلاح الدين لما دخل الى البيت المقدس سير رسلا الى سنان مقدم الاسماعيلية يطلب منه أن يرسل من يقتل ملك الانجليز قبل أن يبرح من البترون ويأتى الى البيت المقدس وأن من قتل المركيز منسرات صاحب صور فله عشرة آلاف دينار فأجابه سنان الى ذلك ثم عدل عن قتل ملك الانجليز كى لايخلو الجو لصلاح الدين فتطمع نفسه فى البلاد وتكثر غزواته وعمد الى قتل المركيز منسرات وكان من كبار الملوك معرفة بالحروب وحسن السياسة وبينه وبين ريشارد عداوة ومنافسة بسبب تقدم ريشارد على جميع الملوك الصليبيين واستلامه قيادة الجيش وتصرفه فى جميع الامور بدون مشورتهم خلافا للعهد واليمين الذى كان بينهم فأرسل رجلين فى زى الرهبان فاتصلا بصاحبى صيدا والرملة وكانا مع المركيز بصور فأقاما معهما أياما كثيرة يظهران العبادة فأنس بهما المركيز وركن اليهما فلما كان فى بعض الايام سار المركيز الى أسقف البلد ولبث معه برهة ثم خرج يريد مقره فوثب عليه الباطنيان المذكوران فجرحاه جراحا بليغة وهرب أحدهما فدخل كنيسة يختفى فيها واتفق أنهم حملوا المركيز الى هذه الكنيسة ليشدوا جراحه فوثب عليه الباطنى المذكور وقتله فقبضوا عليه هو ورفيقه وقتلوهما فى الحال وعظم قتل المركيز على أصحابه جدا وظنوا أن قتله بوضع من ملك الانجليز ليخلو وجهه وينفرد بملك السواحل الشامية فولوا بعده الامير هنرى ابن أخت ملك الفرنسيس من أبيه وهو من كبار الامراء وأجودهم رأيا وأحسنهم سياسة وخبرة بالحروب وقد تولى ملك جميع بلاد الساحل الشامى بعد رجوع ريشارد الى بلاده والفراغ من هذه الحرب الصليبية

ووصل ريشارد ملك الانجليز فى عسكره الى حصن الداروم أوائل جمادى الاولى فخربه وعفى معالمه وسار الى بيت المقدس وصلاح الدين فيه فوصل بالعسكر الى بيت نوبة ثم ساروا من هنالك الى قلونية سلخ الشهر وهى على قيد فرسخين من بيت المقدس وبث سراياه فى الأطراف وطاف هو حول البيت المقدس ليرى من أين يأتيه ويقاتل من به فكبر خوف المسلمين وعظم عليهم الامر وثابروا على السهر والوقوف على السور ليلا ونهارا لايلقون عنهم السلاح وعلم الفرنجة بوصول عسكر من مصر ومعهم قفل كبير ومقدم ذلك العسكر أمير اسمه فلك الدين سليمان أخو العادل لامه ومعه عدة أمراء من المصريين فأسرى الفرنجة اليهم وأحاطوا بهم جميعا وأعملوا فيهم السيف بنواحى الخليل فانهزم الجند شر هزيمة وكثر فيهم القتل وغنم الفرنجة خيامهم وآلاتهم وجميع مالهم وهرب من نجا من الامراء والجند وصعدوا جبل الخليل فلم يتبعهم الفرنجة * قال بعض كتاب الاخبار ولو اتبعوهم نصف فرسخ لاتوا عليهم جميعا وعفوا أثرهم وبقى ملك الانكليز بعسكره حول البيت أياما كثيرة وعسكر صلاح الدين لايغفلون ولا يبارحون الاسوار

ثم ترددت الرسل بين ريشارد وصلاح الدين فى أمر الصلح والكف عن القتال وحقن الدماء ورحل ريشارد عن بيت المقدس وسار الى يافا ثم عنها الى عكا فخرج صلاح الدين فى عسكر من البيت المقدس وسار نحو يافا يريد أخذها فقاتل من بها من الفرنجة قتالا عنيفا وحاصر القلعة وشدد فى حصارها أياما واذا بريشارد قد أحاط بالبلد وقاتل صلاح الدين وهزمه وانتصر عليه ومزق شمل جوعه * قال أصحاب التاريخ وبرز ريشارد الى ظاهر المدينة فى ذلك اليوم واعترض المسلمين وحده وحمل عليهم فلم يتقدم اليه أحد وخافوا منه خوفا عظيما فوقف بين الصفين واستدعى طعاما ونزل عن فرسه وأكل فشق ذلك على صلاح الدين ونادى فى عسكره بالهجوم على الفرنجة والجد فى قتالهم فتقدم اليه بعض أمرائه ويعرف بالجناح وهو أخو المشطوب بن علىّ بن أحمد الهكارى فقال له يا صلاح الدين قل لمماليكك الذين أخذوا أمس الغنائم وضربوا الناس بالجاقات أن يتقدموا ليقاتلوا عند انتشاب نار القتال وتكون الغنائم نصيبا لهم * وكان لما دخل عسكر صلاح الدين الى يافا بعد فتحها وصار المقاتلون ينهبون ما فيها وقف جماعة من مماليك صلاح الدين على أبواب المدينة وكل من خرج من الجند ومعه شئ من الغنيمة أخذوه منه فان امتنع ضربوه وأخذوا ما معه قهرا فلما سمع صلاح الدين كلام الجناح غضب وقد أنس الغدر من الامراء ان هو أطال الحرب مع الفرنجة وراسل ملك الانجليز فى طلب الصلح وطلب التعجيل وقد عرف صلاح الدين ما عند العسكر من الضجر والملل وما قد هلك من سلاحهم ودوابهم وما نفد من نفقاتهم وقال ان لم نعجل بالصلح تأخر ملك الانجليز ومن معه من الملوك والامراء الصليبيين عن الرحيل الى أوطانهم لدخول الشتاء فنبقى هذا سنة أخرى وحينئذ يعظم الضرر على المسلمين وما زال بريشارد حتى تقررت القاعدة بينهم فى العشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وعقدوا الصلح وتحالفوا على هذه القاعدة ونادى كل فريق فى عسكره بتقرير قاعدة الصلح فاختلط العسكران وزار بعضهم بعضا وأباح صلاح الدين لطوائف الفرنجة زيارة بيت المقدس فزاروه وتفرقوا وبقى ما بيد الفرنجة من السواحل الشامية خاضعة للملك هنرى قال صاحب الكامل وكان هنرى هذا خيرا قليل الشر رفيقا بالمسلمين محبا لهم * وعاد صلاح الدين بعد ذلك الى بيت المقدس فرسم باحكام سوره وعمل به المدرسة والرباط والبيمارستان وغير ذلك ووقف عليها الوقوف ثم سار عن البيت المقدس نحو دمشق واستناب به الأمير جورديك أحد المماليك النورية فدخل دمشق فى الخامس والعشرين من شوال من السنة ففرح الناس به لطول غيبته عنهم وكان بها أولاده الصغار والظاهر والافضل والظافر فلبث بها فلما كان اليوم الخامس عشر من صفر من السنة أى سنة تسع وثمانين ركب فى طائفة من أصحابه لملاقاة الحاج ثم عاد وقد أصابته حمى شديدة ولازمته ثمانية أيام ثم مات بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء السابع والعشرين من صفر المذكور فحزن عليه الناس حزنا عظيما وغشى الملك والقلعة فى ذلك اليوم وحشة وكان كريما جوادا حسن الاخلاق

متواضعا

متواضعا صبورا على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب الناس مات وله من العمر سبع وخمسون سنة فعمل الشعراء فيه المراثى الكثيرة من ذلك قصيدة للعماد الكاتب مائتان وثلاثون بيتا أولها

شمل الهوى والملك عم شتاته * والدهر ساء وأقلعت حسناته
بالله أين الناصر الملك الذى * لله خالصة صفت نياته
أين الذى ما زال سلطانا لنا * يرجى نداه وتتقى سطواته
أين الذى شرف الزمان بفضله * وسمت على الفضلاء تشريفاته
أين الذى عنت الفرنج لبأسه * ذلا ومنها أدركت ثاراته
أغلال أعناق الورى أسيافه * أطواق أجياد الورى حسناته

الى آخر ما قال

قال ابن السبكى فى الطبقات الكبرى له يعنى صلاح الدين من الفتوحات التى خلصها من الفرنجة قلعة ايليا وطبرية وعكا والقدس والخليل والكرك والشوبك ونابلس وعسقلان وبيروت وصيدا وبيسان وغزة ولد وحصا وخورية والفولة ومغليسيسيا والطود والاسكندرية وهفوس وباماس وارسوف وقيسارية وجبيل ونبل ومملكية ومقربلا واللجون وآسمه ويافول ومجدل وبابايل والصافية وبيت نوبا والبيرون والحبيب والكرسه وبيت لحم وريحاقرا وأحصر الدير وبئرفلفيلة وصرير الزيت والوعر والهرمس وتغلبسا والغارزية وتفرع ومجدل والحار والشقيف وسيطلة التى يقال لها قبر زكريا وجبيل وكوكب وانطوطوس واللاذقية ومسكرائيل وصهيون وجبلة وقلعة العبد وقلعة الجاهيرية وبلاطنس والشغروبكاس وسرمينية وبرزية ودرب ساك وبغراس وصفد وله مضافات يطول شرحها * قال وكانت مملكته من المغرب الى تخوم العراق ومعها اليمن والحجاز وملك ديار مصر بأسرها مع ما انضم اليها من بلاد المغرب والشام بأسرها مع حلب وما والاها وأكثر بلاد ربيعة وبكر والحجاز بأسره واليمن بأسره ونشر العدل فى الرعية وحكم بالقسط وبنى المدارس والخوانق وأجرى الارزاق وهو الذى بنى قلعة الجبل المقطم التى هى دار سلاطين مصر وولاتها ولم يكن لهم قبلها الا دار الوزارة بالقاهرة وفتح من بلاد المسلمين حران وسروجه والرها والرقة والبيرة وسنجار ونصيبين وآمد وملك حلبا والمواريخ وشهرزور وحاصر الموصل الى أن دخل صاحبها تحت الطاعة وفتح عسكره طرابلس الغرب وبرقة من بلاد المغرب وكسر عسكر تونس وخطب بها لبنى العباس ولولم يقع الخلف بين عسكره الذين جهزهم الى المغرب لملك المغرب بأسره ولم يختلف عليه مع طول مدته أحد من العسكر وكان رقيق القلب جدا هذا كله من كلام ابن السبكى فى الطبقات * ومن صنائعه انه أسقط المكوس والضرائب عن الحجاج بمكة وقد كان يؤخذ منهم شئ كثير ومن عجز عن أدائه حبس فربما فاته الوقوف بعرفة وعوض أميرها المدعو مثال اقطاعا بديار مصر يحمل اليه

منه فى كل سنة ثمانية آلاف اردب غلة عونا له ولمن بعده * قال العماد الكاتب وغيره مات صلاح الدين ولم يترك فى خزائنه من الذهب سوى دينار واحد صورى وستة وثلاثين درهما ولم يترك دارا ولا عقارا ولا مزرعة ولا شيأ من أنواع الاملاك وترك سبعة عشر ولدا ذكرا وابنة واحدة وكان متدينا فى مأكله ومشربه وملبسه فلا يلبس الا القطن والكتان والصوف وكان به عرج فقال فيه ابن عينين الشاعر

سلطاننا أعرج وكاتبه * ذو عمش والوزير منحدب

وكان الخليفة المستضىء أرسل اليه فى سنة أربع وستين وخمسمائة خلعا سنية جدا وزاد فى ألقابه معز أمير المؤمنين فلما ولى الخليفة الناصر فى سنة ست وسبعين على ما تقدم بيانه أرسل اليه خلعة الاستمرار ثم أرسل اليه فى سنة اثنتين وثمانين يعاتبه على تلقيبه بالملك الناصر مع انه لقب أمير المؤمنين فأرسل يعتذر اليه بأن ذلك كان من أيام الخليفة المستضىء وانه ان لقبه أمير المؤمنين بلقب فهو لا يعدل عنه وتأدب مع الخليفة غاية الادب

ولما مات صلاح الدين يوسف بدمشق كان معه بها ولده الاكبر الافضل كما تقدم القول وكان قد حلف له العساكر جميعهم غير مرة فى حياة أبيه فلما مات أبوه استقل بملك دمشق والساحل والبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وجميع الاعمال الى الداروم وانحلت جميعها عن ملك مصر وكان بمصر أيضا ولده العزيز عثمان فاستولى عليها واستقر ملكه بها وكان ولده الظاهر غازى بحلب فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشر واعزاز وبرزية ودرب ساك ومنبج وغير ذلك وكان بحماة محمود بن تقى الدين عمه فأطاعه وصار معه وكان بحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه فأطاع الملك الافضل وكان الملك العادل أخو صلاح الدين قد صار الى الكرك فى أيام أخيه فامتنع به ولم يحضر عند أحد من أولاد أخيه وهكذا اقتسموا مملكة صلاح الدين فيما بينهم وتصرف كل واحد منهم بمصلحته وهواه * ولنضرب صفحا عن جميع من ذكر ونتتبع حوادث صاحب مصر منهم وهو ﴿الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح﴾ فقد كان من أمره بعد أن استقل بحكم البلاد ودانت له الامور أن سار فى الرعية سيرة حسنة مع العفة فى المال والغيرة حتى انه ضاق ما بيده ولم يبق فى الخزانة درهم ولا دينار فجاء اليه رجل يسعى فى قضاء الصعيد بمال فامتنع وقال والله لا بعت دماء المسلمين وأموالهم بملك الارض فأحبته الرعية ومالت اليه القلوب وأخلصت له الطاعة وجعل يتصرف فلما كانت سنة تسعين وخمسمائة تاقت نفسه الى توسيع سلطانه وتمديد ملكه فعمد الى الاغارة على سلطنة أخيه الملك الافضل على فسار الى دمشق وحصرها وبها أخوه المذكور ونزل بميدان الحصن فكبر الأمر على الافضل وأرسل الى عمه الملك العادل أبى بكر بن أيوب وهو يومئذ صاحب الديار الجزرية يستنجده وكان للافضل غاية الوثوق به والاعتماد عليه فساء الملك العادل ما فعله الملك العزيز وسار من فوره الى دمشق وصحبته الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب وناصر الدين محمد بن تقى الدين

صاحب حماة وأسد الدين شيركوه صاحب حمص وعسكر الموصل وغيرهم واجتمعوا جميعا بدمشق واتفقوا على حفظها علما منهم أن العزيز ان ملكها أخذ بلادهم وأذهب سلطانهم فلما رأى العزيز اجتماعهم علم أنه لاقدرة له على البلد فترددت الرسل حينئذ بينهم فى الصلح فاستقرت القاعدة على أن يكون بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز وتبقى دمشق وطبرية واعمالها للافضل على ما كانت عليه وأن يعطى الافضل أخاه الملك الظاهر جبلة ولاذقية وأن يكون للعادل بمصر اقطاعه الاول واتفقوا على ذلك وعاد العزيز الى مصر ورجع كل واحد من اخوته الى بلاده ولكن لم يمض على هذا الاتفاق الا سنة واحدة غير كاملة حتى نقض العزيز العهد وخرج من مصر فى عسكر عظيم الى دمشق يريد حصرها ثانية وكان سبب ذلك أن من كان عنده من مماليك أبيه صلاح الدين المعروفين بالصلاحية مثل فخر الدين جركس وقرا سنقر وقراجا وغيرهم كانوا منحرفين عن الافضل على لانه كان أخرج من عنده منهم مثل ميمون القصرى وسنقر الكبير وأيبك وغيرهم فكانوا يكرهونه لذلك وكانوا يخوفون العزيز من أخيه الافضل ويحرضونه على الاغارة على بلاده ويقولون ان لم تفعل ذلك مال الاكراد والمماليك الاسدية من عسكر مصر الى أخيك وانضموا الى عسكره فيخرجك من البلاد فصدق قولهم وعمل بمشورتهم وخرج فى سنة احدى وتسعين وخمسمائة فبلغ خبر تأهبه الى الافضل فسار من دمشق الى عمه الملك العادل فاجتمع به فى قلعة جعبر ودعاه الى نصرته وسار من عنده من حلب الى أخيه الملك الظاهر غازى فاستنجده وسار الملك العادل من قلعة جعبر الى دمشق فسبق الملك الافضل اليها ودخلها وكان الافضل لثقته به أمر نوابه بادخاله الى القلعة ثم عاد الافضل من حلب الى دمشق فأرسل مقدم الاسدية وهو سيف الدين ايازكوش وغيره منهم ومن الاكراد أبو الهيجاء السمين وغيره الى الافضل والعادل بالانحياز اليهما والكون معهما ويحضهما على الاتفاق على العزيز والخروج من دمشق ليسلموها اليهما * قال أصحاب التاريخ وكان سبب بغض هؤلاء للعزيز وميلهم الى الافضل أن العزيز لما ملك مصر مال الى طائفة المماليك الناصرية وقدمهم ووثق بهم ولم يلتفت الى هؤلاء الامراء فأنفوا من ذلك ومالوا الى أخيه وأرسلوا الى الافضل والعادل فاتفقا على ذلك أيضا واستقرت القاعدة بحضور رسل الامراء أن الافضل يملك الديار المصرية ويسلم دمشق الى عمه الملك العادل وخرجا من دمشق على ذلك فانحاز اليهما من ذكرنا فلم يمكن العزيز المقام بل عاد منهزما يطوى المراحل خوف الطلب ولا يصدق بالنجاة وتساقط أصحابه عنه الى أن وصل الى مصر وأما العادل والافضل فانهما أرسلا الى البيت المقدس وفيه نائب العزيز فسلمه اليهما وسارا بمن معهما من الاسدية والاكراد الى مصر فرأى العادل من انضمام العسكر الى الملك الافضل وميلهم اليه ما أخافه وعلم أنه أى الافضل ان أخذ مصر ربما لا يسلم اليه دمشق فأرسل حينئذ سرا الى الملك العزيز يأمره بالثبات وأن يجعل بمدينة بلبيس من يحفظها وتكفل بأنه يمنع الافضل وغيره من مقاتلة من بها فجعل العزيز

جماعة الناصرية ومقدمهم فخر الدين جركس بها ومعهم جماعة أخرى فلما وصل العادل والافضل الى بلبيس نازلوا من بها من أصحاب العزيز وعزم الافضل على مناجزتهم أو تركهم بها والرحيل الى مصر فمنعه العادل من الامرين وقال هذه عساكر الاسلام فان قتلوا فى الحرب فمن يرد العدو الكافر وما بها حاجة الى ذلك فان البلاد لك وبحكمك ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذتهما قهرا زالت هيبة البلاد وطمع فيها الاعداء وليس فيها من يمنعك عنها وسلك معه مثل هذا فطالت الايام وأرسل الى العزيز سرا وأمره بارسال القاضى الفاضل وكان مطاعا عند البيت الصلاحى لعلو منزلته عند صلاح الدين فحضر عندهما وأجرى ذكر الصلح وزاد القول ونقص وانحلت العزائم واستقر الامر على أن للافضل البيت المقدس وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والاردن وجميع مابيده ويكون للعادل اقطاعه التى كانت قديما ويكون مقيما بمصر عند العزيز قالوا وانما اختار ذلك لان الاسدية والاكراد لايريدون العزيز فهم يجتمعون معه فلا يقدر العزيز على منعه عما يريده فلما استقر الامر على ذلك وتعاهدوا عاد الافضل الى دمشق وبقى العادل بمصر عند العزيز

ولم يستقر الصلح بينهم على ماوصفنا أكثر من حول واحد حتى عاد العادل أبو بكر فأخذ دمشق من الافضل ابن أخيه صلاح الدين وذلك فى السابع والعشرين من رجب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وكان أبلغ الاسباب فى ذلك وثوق الافضل بالعادل المذكور وقد بلغ من وثوقه به أنه أدخله بلده وهو غائب عنه كما تقدم القول وخالف فيه قول أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب * وقال بعض كتاب الاخبار غير ذلك * وهو أنه لما أن سار العادل والافضل الى مصر وحاصرا بلبيس ثم اصطلحا مع العزيز صاحب مصر أقام العادل مع العزيز بمصر فلم يلبث حتى استمال العزيز اليه وقرر معه أن يخرجا معا الى دمشق ويأخذاها من الافضل وأن يسلمها اليه فسار معه الى دمشق وحصروها جميعا واستمالوا أميرا من أمراء الافضل يقال له العزيز بن أبى غالب الحمصى وكان الافضل كثير الاحسان اليه والاعتماد عليه والوثوق به فسلم اليه بابا من أبواب دمشق يعرف بالباب الشرقى ليحفظه فمال الى العزيز والعادل ووعدهما أن يفتح لهما الباب ويدخل العسكر منه الى البلد غفلة ففتحه فى اليوم السابع والعشرين من رجب وقت العصر وأدخل الملك العادل منه ومعه جماعة من أصحابه فلم يشعر الافضل الا وعمه معه فى دمشق وركب الملك العزيز ووقف بالميدان الاخضر غربى دمشق فلما رأى الافضل أن البلد قد ملك خرج الى أخيه وقت المغرب واجتمع به ودخلا كلاهما البلد واجتمعا بالعادل وقد نزل فى دار أسد الدين شيركوه وتحادثوا واتفق العادل والعزيز على أنهما يبقيان على الافضل البلد خوفا من أنه ربما جمع من عنده من العسكر وثار بهما ومعه العامة فأخرجهما من البلد وعاد الافضل الى القلعة وبات العادل فى دار شيركوه وخرج العزيز الى الخيام فبات فيها وخرج العادل من الغد الى جوسقه فأقام به وعسكره فى البلد وفى كل يوم يخرج الافضل اليهما ويجتمع

بهما فبقوا على هذا الحال أياما ثم أرسلا اليه وأمراه بمفارقة القلعة وتسليم البلد على قاعدة أن يعطى قلعة صرخد له ويسلم جميع أعمال دمشق فخرج الافضل ونزل فى جوسق بظاهر البلد غربى دمشق وتسلم العزيز القلعة ودخلها وأقام بها أياما فجلس يوما فى مجلس شرابه فلما أخذت منه الخمر جرى على لسانه أنه على عزم أن يعيد دمشق الى أخيه الافضل فنقل ذلك الى العادل فى الحال فحضر المجلس من ساعته والعزيز سكران فلم يزل به حتى سلم اليه البلد وخرج منه وعاد الى مصر وسار الافضل الى صرخد * واتفق أن خرج العزيز من القاهرة يريد الصيد فجعل ينتقل من بلد الى آخر حتى وصل الى مدينة الفيوم فرأى ذئبا فركض فرسه فى طلبه فعثر الفرس فسقط عنه ولحقته حمى فعاد الى القاهرة مريضا واشتد به مرضه فمات فى العشرين من المحرم افتتاح سنة خمس وتسعين وخمسمائة * قال أصحاب التاريخ وكان الغالب على أمره مملوك والده فخر الدين جهاركس فلما مات العزيز سير فخر الدين المذكور الى الملك العادل أبى بكر بن أيوب وهو يحاصر ماردين يستدعيه ليملكه البلاد فسار القاصد مجدا فلما بلغ الشام رأى بعض أصحاب الملك الافضل فقال له قل لصاحبك ان أخاه العزيز مات وليس فى مصر من يمنعها فليسر اليها على عجل وكان الافضل محبوبا الى الناس فلم يلتفت الى قول ذلك القاصد ولم يتحرك من صرخد حتى جاءته رسل الامراء من مصر يدعونه اليهم ليملكوه البلاد وكان سبب ذلك أن الامير سيف الدين يازكج مقدم الاسدية والفرقة الاسدية والامراء الاكراد يحبونه كثيرا وكانت المماليك الناصرية الذين هم مماليك أبيه يكرهونه فاجتمع سيف الدين مقدم الاسدية المذكور وفخر الدين جهاركس مقدم الناصرية ليتفقوا على من يولونه الملك فقال فخر الدين نولى ابن الملك العزيز فقال سيف الدين انه طفل وهذه البلاد ثغر الاسلام ولا بد من قيم بالملك يجمع العساكر ويقاتل بها والرأى أننا اذا جعلنا الملك فى هذا الطفل نجعل معه بعض أولاد صلاح الدين يدبره الى أن يبلغ أشده فان العساكر لاتطيع غيرهم ولاتنقاد لاحد غير أهل هذا البيت وجرى بين الفريقين كلام ثم اتفقا على هذا فقال جهاركس ومن يتولى القيام بذلك فأشار سيف الدين بغير الافضل لجرى بينه وبين جهاركس منازعة لئلا يتهم وينفر جهاركس عنه فامتنع من ولايته * قال بعض أصحاب الاخبار فلم يزل يذكر من أولاد صلاح الدين واحدا بعد آخر الى أن ذكر آخرهم الافضل فقال جهاركس هو بعيد عنا وكان يومئذ بصرخد مقيما بها من حين أخذت منه دمشق فقال سيف الدين نمضى الى القاضى الفاضل ونأخذ برأيه فاتفقا على ذلك وأرسل سيف الدين فى الحال القاصد وراءه فسار عن صرخد لليلتين بقيتا من صفر متنكرا فى تسعة عشر نفرا فلما قارب بيت المقدس وقد عدل عن الطريق المؤدى اليها لقيه فارسان قد أرسلا اليه من بيت المقدس فأخبراه أن من بالقدس قد صار فى طاعته فجد فى السير فوصل الى بلبيس خامس ربيع الاول ولقيه اخوته وجماعة الامراء المصريين وجميع الاعيان واتفق أن أخاه الملك المؤيد مسعودا صنع له طعاما

وصنع له فخر الدين مملوك أبيه طعاما أيضا فابتدأ بطعام أخيه ليبين حلفها أخوه أن يبدأ به فظن فخر الدين جهاركس أنه فعل هذا انحرافا عنه وسوء ظن به فاضطرب خاطره وتغيرت نيته وعزم على الهرب فحضر عند الافضل وقال ان طائفة من العربان قد اقتتلوا وان لم نمض اليهم نصلح بينهم لأدى ذلك الى فساد عظيم فأذن له الافضل فى المضى اليهم ففارقه وسار مجدا حتى وصل بيت المقدس ودخله وتغلب عليه ولحقه جماعة من الناصرية منهم قراجه الزره كش وسرا سنقر واستقدموا أيضا ميمونا القصرى صاحب نابلس وهو من المماليك الناصرية فقويت شوكتهم به واجتمعت كلمتهم على خلاف الافضل وأرسلوا الى الملك العادل وهو على ماردين يطلبونه اليهم ليدخلوا معه الى مصر ليملكوها فلم يسر اليهم لان أطماعه كانت قد قويت فى أخذ ماردين وقد عجز من بها عن حفظها حتى اذا أخذها جاءهم على الاثر ليدخل معهم مصر

أما الملك الافضل فانه بعد أن استراح من متاعب السفر سار عن بلبيس الى القاهرة فوصلها سابع ربيع الاول وعلم بهرب فخر الدين جهاركس فأهمه ذلك وترددت الرسل بينه وبين جهاركس ومن معه ليعودوا اليه فلم يزدادوا الا بعدا ولحق بهم جماعة آخرون من الناصرية أيضا فاستوحش الملك الافضل ممن بقى من الناصرية فقبض عليهم وهم شقيرة وأيبك فطيس والبكى الفارس وغيرهم وكل من هؤلاء بطل مشهور ومقدم مذكور وسجنهم وجعل الافضل يتصرف فى الامور ويقرر القواعد ويصلح الاحوال ويقضى حوائج الخلق والمرجع فى جميع الامور الى سيف الدين يازكج فكان معه ابن أخيه الملك العزيز ملكا بالاسم فقط * ولم يمض الا القليل حتى اجتمعت له الكلمة ومالت اليه القلوب وأحبه الامراء والرعية ووصل اليه رسول من عند أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب وأرسل ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد شيركوه صاحب حمص يحثانه على الخروج الى دمشق واغتنام الفرصة بغيبة العادل عنها وبذلا له المساعدة بالمال والنفس والرجال فمال الى رأيهم وبرز من القاهرة فى منتصف جمادى الاولى من سنة خمس وتسعين وخمسمائة على العزم الى دمشق وأقام بظاهر القاهرة الى ثالث رجب ثم رحل فيه وتعوق فى مسيره * قال أصحاب التاريخ ولو بادر وعجل المسير لملك دمشق بغير ممانع ولكنه تأخر فوصل اليها ثالث عشر شعبان فنزل على جسر الخشب على قيد فرسخ ونصف من دمشق وكان الملك العادل قد أرسل اليه نوابه بدمشق يعرفونه قصد الافضل لهم ففارق ماردين وخلف ولده الكامل محمدا فى جميع العساكر على حصارها وسار بجريدة يجد السير فسبق الافضل فدخل دمشق قبله بيومين وتقدم الافضل الى دمشق فى الغد وهو رابع عشر شعبان ودخل فى ذلك اليوم بعينه طائفة يسيرة من عسقلان الى دمشق من باب السلام وكان سبب دخولهم أن قوما من أجناده ممن بيوتهم مجاورة لذلك الباب اجتمعوا بأمير اسمه مجد الدين أخى الفقيه عيسى الهكارى وتحدثوا معه فى أن يقصد هو والعساكر باب السلامة ليفتحوه لهم فاراد مجد الدين

المذكور أن يختص بفتح الباب وحده فلم يعلم الافضل ولا أخذ أحدا من العسكر بل سار وحده ومعه نحو خمسين فارسا من أصحابه ففتح له الباب فدخله هو ومن معه فلما رآهم عامة البلد نادوا بشعار الافضل فاستسلم من به من العساكر والاجناد ونزلوا عن الاسوار وبلغ الخبر الملك العادل فكاد يستسلم ولكنه تماسك أما الذين دخلوا البلد فانهم وصلوا الى باب البريد فلما رأى عسكر العادل الذين كانوا بدمشق قلة عددهم وانقطاع مددهم وثبوا عليهم وأخرجوهم منه وكان الافضل قد نصب خيامه بالميدان الاخضر وقارب عسكره الباب الجديد وهو من أبواب القلعة فقدّر الله أنه أشير على الافضل بالانتقال الى ميدان الحصن ففعل ذلك فقويت نفوس من فيه وضعفت نفوس العسكر المصرى ثم ان الامراء الاكراد منهم تحالفوا فصاروا يدا واحدة يغضبون لغضب أحدهم ويرضون لرضا الآخر فظن الافضل وباقى الاسدية أنهم فعلوا ذلك لقاعدة بينهم وبين الدمشقيين فرحلوا من موضعهم وتأخروا ووصل أسد الدين شيركوه صاحب حمص الى الافضل فى الخامس والعشرين من شعبان ووصل بعده الملك الظاهر صاحب حلب وعزموا على الزحف الى دمشق فمنعهم الملك الظاهر مكرا بأخيه وحسدا له ولم يشعر أخوه الافضل بذلك أما الملك العادل فانه لما رأى كثرة العساكر وتتابع الامداد الى الافضل عظم عليه الامر فارسل الى المماليك الناصرية ببيت المقدس يستدعيهم اليه فساروا سلخ شعبان فوصل خبرهم الى الافضل فسير أسد الدين صاحب حمص ومعه جماعة من الامراء الى طريقهم فمنعوهم فسلكوا غير طريقهم فجاء هؤلاء ودخلوا دمشق فقوى العادل بهم قوة عظيمة وزال عنه ما كان يخشاه وأيس الافضل ومن معه من أخذ دمشق وخرج عسكر دمشق فكبسوا العسكر المصرى فوجدوهم قد حذروهم فعادوا عنهم خاسرين وأقام العسكر على دمشق ما بين قوة وضعف وانتصار وتخاذل حتى أرسل الملك العادل خلف ولده الملك الكامل محمد وكان قد رحل عن ماردين ونزل بمن معه بحوران فاستدعاه اليه بعسكره فسار على طريق البر فدخل الى دمشق ثانى عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة فعند ذلك رحل العسكر عن دمشق الى ذيل جبل الكسوة واستقر أن يقيموا بحوران حتى يخرج الشتاء فرحلوا الى رأس الماء وهو موضع شديد البرد فتغير العزم عن المقام واتفقوا على أن يعود كل الى بلده فلما وصل الافضل الى مدينة بلبيس نزل بها أياما فوصلته الاخبار بان عمه الملك العادل قدسار من دمشق قاصدا مصر ومعه المماليك الناصرية وقد حلفوا له على أن يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد وهو (أى العادل) المدبر للملك الى أن يكبر فساروا على هذا وكان عسكر الافضل بمصر قد تفرقوا فسار كل منهم الى اقطاعه فرام الافضل جمعهم من أطراف البلاد فأعجله الامر عن ذلك ولم يجتمع منهم الا طائفة يسيرة ممن قرب اقطاعه ووصل العادل فى عسكر عظيم فاشار بعض الناس على الافضل أن يخرب سور بلبيس ويقيم بالقاهرة وأشار غيرهم بالتقدم الى أطراف البلاد ففعل ذلك فسار عن بلبيس ونزل موضعا يقال له السايح

والتقى هو والعادل سابع ربيع الآخر سنة ست وتسعين واقتتلوا فانهزم الافضل ودخل القاهرة ليلا واتفق فى تلك الليلة موت القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى كاتب الانشاء لصلاح الدين ووزيره فحضر الافضل للصلاة عليه وسار العادل حتى نزل على القاهرة بعسكره وحاصرها وضيق عليها فجمع الافضل من عنده من الامراء واستشارهم فرأى منهم تخاذلا فارسل الى عمه فى طلب الصلح وتسليم البلاد اليه وأخذ العوض عنها وطلب دمشق فلم يجبه العادل فنزل عنها الى حوران والرها فلم يجبه أيضا فنزل الى ميافارقين وحانى وجبل جوز فأجابه الى ذلك وتحالفوا عليه وخرج الافضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر واجتمع بالعادل وسار الى صرخد ودخل العادل الى القاهرة فى اليوم المذكور

ولما ثبتت قدم الملك العادل بمصر تاقت نفسه الى الاستبداد بالملك فقطع خطبة الملك المنصور بن الملك العزيز وخطب لنفسه وصادر طوائف الجند فى اقطاعهم واعترضهم فى أصحابهم ومن عليهم من العسكر المقرر فتغيرت لذلك نياتهم وانحرفوا عليه واتفقت على ذلك كلمتهم وبينما هو على هذا الحال اذ وردت الاخبار بتأهب الفرنسيس لاخذ مدينة دمياط فلم يهتم العادل بذلك فلما كانت سنة خمس عشرة وستمائة وصلت مراكبهم الى دمياط فى صفر فارسوا على بر الجزيرة بينهم وبين دمياط النيل وبنوا عليهم سورا وجعلوا خندقا يحول بينهم وبين من يقصدهم وشرعوا فى قتال من بدمياط وعملوا آلات ومرساة وأبراجا يزحفون بها فى المراكب الى برج عظيم كان بدمياط مشحون بالرجال ليقاتلوه ويملكوه وقد نزل الكامل بن الملك العادل بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط والعسكر متصل من عنده الى دمياط ليمنع الفرنسيس من العبور الى أرضها وأدام الفرنسيس قتال البرج وتابعوه فلم يظفروا منه بشئ فيل وكسرت مرماتهم وآلاتهم ومع ذلك لازموا قتاله وبقوا على ذلك أربعة أشهر حتى ظفروا وملكوا البرج وكان منيعا مبنيا فى وسط النيل وفيه سلاسل من حديد غلاظ ممدودة من النيل الى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر الملح أن تصعد فى النيل الى ديار مصر فلما ملكوا البرج قطعوا تلك السلاسل لتدخل مراكبهم الى النيل ويتمكنوا من البر فأمر الكامل فنصبوا عوض السلاسل جسرا عظيما امتنعوا به من سلوك النيل فقاتلوا عليه أيضا قتالا شديدا حتى قطعوه فأخذ الكامل عدة مراكب كبار وملأها رملا وخرقها وغرقها فى النيل فمنعت سفن الفرنسيس من السلوك فلما رأى الفرنسيس ذلك قصدوا خليجا هناك يعرف بالخليج الازرق كان النيل يجرى فيه فحفروا ذلك الخليج وعمقوه وأجروا الماء فيه الى البحر الملح وأصعدوا مراكبهم فيه الى موضع يقال له بوره على أرض الجزيرة مقابل المنزلة التى فيها الكامل ليقاتلوه من هناك فلما صاروا فى بورة حازوه وقاتلوه فى الماء وزحفوا عليه غير مرة فلم يظفروا فلما كان شهر جمادى الآخرة من السنة أى سنة خمس عشرة وستمائة وردت الاخبار من القاهرة بموت الملك العادل فقام ولده الكامل من المنزلة الى القاهرة جريدة اذ بلغه أيضا أن أمراء الاكراد اتفقوا مع الامير عماد الدين أحمد

ابن

ابن على المشطوب على خلعه وتمليك أخيه الملك الفائز ابن الملك العادل ليصير الحكم لهم عليه وعلى البلاد وشاع الخبر بذلك بين الجند فركب كل انسان منهم هواه ونادى فيهم منادى الفشل فتركوا خيامهم وذخائرهم وأموالهم وسلاحهم ولم يأخذوا منها الا القليل جدا وتركوا من الميرة والكراع ودواب الحمل ما يجل عن الحصر ولحقوا بالكامل وأصبح الفرنسيس من الغد فلم يروا من المسلمين أحدا على شاطئ النيل وعلموا بالخبر فعبروا النيل الى دمياط فغنموا ما فى عسكر المسلمين فكان شيأ عظيما جدا واتفق أن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل وصل الى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بيومين والناس فى أمر مريج جدا وكان قد أرسل اليه يستنجده فقوى به قلبه واشتد أزره وثبت جنانه وعاد الى أشمون طناح وسير الى القاهرة من أخرج ابن المشطوب الى الشام قهرا فاتصل بالملك الاشرف وصار من جنده أما الفرنسيس فانهم لما عبروا الى أرض دمياط شرعوا فى حصارها والتضييق عليها فاجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وطغوا فى الطريق وأفسدوا وبالغوا فى الافساد فكانوا أشد على المسلمين من الافرنج وأحاط الفرنجة يومئذ بدمياط وقاتلوها برا وبحرا وعملوا عليهم خندقا يمنعهم ممن يريدهم وأداموا القتال واشتد الحال على أهلها شدة بالغة وتعذرت عليهم الاقوات وكثر القتل والجرح فيهم ودام الحصار زهاء أربعة شهور فسلموا البلد الى الفرنسيس فى عشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة قهرا وخرج منهم قوم وأقام آخرون فدخل الفرنسيس المدينة وأقاموا بها وبثوا سراياهم فى كل ما جاورها فجلا أهلها عنها وشرعوا فى عمارتها وتحصينها وبالغوا فى ذلك حتى انها صارت لا ترام الا بعد عناء شديد أما الكامل فانه أقام بالقرب من الفرنسيس فى أطراف البلاد لا يأتى عملا وكثر توارد المدد للفرنسيس من كل صوب وحدب فعظمت هيبتهم فى قلوب المسلمين وعم الخوف منهم وعاد الملك المعظم صاحب دمشق الى الشام فخرب بيت المقدس فى ذى القعدة خوفا من وصول الفرنسيس اليه وأخذه وقد خاف الناس كافة وأشرف الاسلام وأهله وبلاده على خطة خسف فى مشرق الارض ومغربها وصاروا يتوقعون البلاء فى كل يوم وأراد أهل مصر الجلاء عن البلاد الى الاقطار الحجازية والديار الشامية وغيرها فلم يتمكنوا من ذلك لوقوف العربان فى الطرق وافسادهم فى البلاد وفعلهم بالمسلمين مالم تفعله الفرنسيس من النهب والسلب وهتك الاعراض وسبى النساء والفرنسيس قد أحاطوا بهم من كل جانب وتابع الكامل كتبه الى أخويه المعظم صاحب دمشق والاشرف موسى بن العادل صاحب الجزيرة وديار أرمينية يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما فان لم يمكن فليرسلا العسكر اليه وبقى الامر كذلك مع الفرنسيس الى سنة ثمان عشرة وستمائة ثم وصل الملك الاشرف الى مصر وكان الفرنسيس قد ساروا من دمياط وقصدوا الكامل ونزلوا مقابله وبينهما خليج من النيل وهو بحر أشمون وهم يرمون بالمنجنيق والجرخ الى عسكر المسلمين وقد تيقن الناس جميعا بأنهم يملكون الديار المصرية لا محالة فلما علم الكامل

بوصول أخيه الاشرف توجه اليه ولقيه واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما أما الملك المعظم صاحب دمشق فانه قصد دمياط ظنا أن أخويه وعسكر يهما قد نزلوا بها واجتمع الاشرف بالكامل فاستقر الامر بينهما على التقدم الى خليج من النيل يعرف ببحر المحلة فتقدموا اليه فقاتلوا الفرنسيس وازدادوا قربا وتقدمت شوانى المسلمين من النيل وقاتلوا شوانى الفرنسيس وترددت الرسل بين الفريقين فى تقرير قاعدة الصلح وبذل المسلمون للفرنسيس بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة مع اللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ما عدا الكرك ليسلموا دمياط فلم يقبلوا وطلبوا ثلثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب بيت المقدس ليعمروه بها فلم يتم بينهم أمر * وبينماهم على هذا الحال من الخلاف عبر طائفة من المسلمين الى الارض التى عليها الفرنسيس فقطعوا النيل فركب الماء أكثر تلك الارض ولم يبق للفرنسيس جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فنصب الكامل حينئذ سورا على النيل عند أشمون وعبرت العساكر عليها فملك الطريق التى يسلكه الفرنسيس ان أرادوا العود الى دمياط فراسل الفرنسيس عند ذلك الكامل وخابروه فى أمر الصلح وتسليم دمياط بغير عوض وانفق فى هذه الاثناء وصول الملك المعظم صاحب دمشق ومعه عسكر جرار فاشتدت بحضوره ظهور المسلمين وتمموا الصلح على تسليم دمياط واستقرت القاعدة سابع رجب سنة ثمان عشرة وستمائة وتسلمت فى تاسع رجب المذكور فدخلها المسلمون فلم يجدوا من أهلها الا القليل فقد كانوا تفرقوا أيدى سبا ورأوها حصينة لما بذله الفرنسيس فى تحصينها

ولما رحلت جيوش الفرنسيس عن دمياط جلس الافضل للعزاء على موت أبيه الملك العادل مع طول المدة فانه مات فى سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة كما تقدم القول وحمل الى دمشق ودفن بالتربة التى أعدها لنفسه بها * قال أصحاب التاريخ وكان العادل عاقلا ذا رأى سديد ومكر شديد وخديعة صبورا حليما متواضعا وكان عمره خمسا وسبعين سنة وشهورا وملك دمشق من الافضل ابن أخيه وملك مصر منه أيضا * ومن أعجب ما رؤى فى منافاة الطوالع أنه لم يملك الافضل مملكة الا وأخذها منه عمه العادل المذكور فأول ذلك أن صلاح الدين أعطى ابنه الافضل حوران والرها وميافارقين سنة ست وثمانين بعد وفاة تقى الدين فسار اليها فلما وصل الى حلب أرسل أبوه الملك العادل بعده فرده من حلب وأخذ هذه البلاد منه ثم ملك الافضل بعد وفاة أبيه دمشق فأخذها منه ثم ملك مصر بعد وفاة أخيه الملك العزيز فأخذها أيضا منه ثم تملك صرخد فأخذها منه وهذا من غريب الاتفاق وكان العادل قد قسم البلاد فى حياته بين أولاده فجعل بمصر الملك الكامل محمدا وبدمشق والقدس وطبرية والاردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى وجعل بعض ديار الجزيرة وميافارقين وخلاط وأعمالها لابنه الملك الاشرف موسى وأعطى الرها لولده شهاب الدين غازى وأعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه فلما توفى ثبت كل فى

المملكة التى أعطاها له أبوه واتفقوا اتفاقا حسنا ولم يجر بينهم من الاختلاف شئ بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفردا من عسكره ولا يخافه ولا يظن به السوء

وحدث فى أيام الملك العادل المذكور فناء عظيم بديار مصر أهلك الكثير من الاغنياء والفقراء وحصل عقب ذلك غلاء شديد واشتد الجوع فى جميع البلاد فرحل الكثير من الناس الى دمشق والمشرق والمغرب وكان الفقراء يأكلون لحوم الكلاب والقطط والحيوانات فلما نفدت أوكادت صاروا ينبشون القبور ويأكلون جيف الاموات وبلغت بهم الشدة مبلغا عظيما حتى صاروا يخطفون الاطفال فى الاسواق من أمهاتهم فكانوا يذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم جهارا فى الشوارع * قال أصحاب الاخبار دخلت امرأة يوما على الملك العادل وهى خائفة ترجف فسألها عن حالها فقالت انى يامولاى قابلة وان قوما استدعونى فى هذا الصباح لأولد امرأة فذهبت معهم ولما كان وقت الفطور قدموا لى طعاما كثير اللحم غير أنه لايشبه اللحم المعهود فأنكرته ولم تقبله نفسى ثم وجدت بنتا صغيرة هنالك فاختليت بها وسألتها عن ذلك اللحم فقالت البنت ان فلانة السمينة دخلت لتزورنا فذبحها أبى وها هى معلقة اربا فى هذه الخزانة فاقشعر جسمى من هذا الخبر وجئت فى الحال الى تلك الخزانة ففتحتها على حين غفلة فوجدتها مملوءة من لحم تلك المرأة فجئت اليك لاعلمك بذلك وهذه قصتى فتعجب الملك العادل من كلامها وأرسل معها من هجم على تلك الدار وأخذ من فيها وهرب صاحبها وبقى مختفيا حتى أصلح أمره مع حاكم البلد بدفع ثلثمائة دينار فدية عن نفسه ۞ وكان الذين اعتادوا منهم على أكل لحم بنى آدم يصيدون الناس باصناف الحيل والمخادعة فكانوا يستجلبونهم الى بيوتهم بانواع الملاعب فيذبحونهم ويأكلونهم فوقع مرة فى أشراكهم ثلاثة أطباء أحدهم خرج معهم ولم يرجع والثانى أعطته امرأة درهمين على أن يذهب معها الى مريض فصدق كلامها وسار معها فلما توغلت به فى الازقة ومضايق الطرق فكر فى نفسه وعلم الحيلة فخاف وامتنع عنها وصاح عليها وشتمها فتركته وهربت وأما الثالث فان رجلا استدعاه الى زيارة مريض وأطمعه فى الاجرة فذهب معه وما زال يسير به من مكان الى مكان حتى أدخله دارا خربة فارتاب الطبيب منه وتوقف فى وسط الدرج وكان الرجل قد سبق وطرق الباب فخرج اليه رفيقه وهو يقول له ما هذه العاقة هل حصلت على صيد ينفع فخاف الطبيب عند سماعه هذا الكلام وخفق قلبه وأيقن بالهلاك وكان فى حائط ذلك الدرج شباك صغير يشرف على اصطبل فألقى نفسه من ذلك الشباك فجاء فى وسط الاصطبل فقام اليه صاحب الاصطبل وقال له من أنت ومن تكون فخاف خوفا عظيما وكتم أمره عنه خوفا منه أيضا فقال له الرجل صاحب الاصطبل لاباس عليك قد علمت ماحالك ولا يخفاك أن أهل هذا البيت يذبحون الناس بالاحتيال والخداع والحمد لله على سلامتك ثم أخرجه من ذلك المكان وسار معه حتى أوصله السوق قال الراوى ولولا هذا التصادف والاتفاق

لهلاك الطبيب وانقطع خبره وكانت مدة سلطنة الملك العادل سيف الدين تسع عشرة سنة كلها إحن ومحن

ولما كانت سنة اثنتين وعشرين وستمائة مات الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد ابن المستضيء بنور الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله مات فى آخر ليلة من رمضان فكانت خلافته ستا وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوما وكان عمره سبعين سنة تقريبا فلم يل الخلافة أطول مدة منه الا ماقيل عن المستنصر بالله العلوى صاحب مصر فانه ولى ستين سنة * وكان الخليفة الناصر قد بقى ثلاث سنين عاطلا عن الحركة وقد ذهبت احدى عينيه والاخرى يبصر بها ابصارا ضعيفا ثم أصابه فى آخر أيامه اسهال شديد استمر عشرين يوما مات بسببه * قال أصحاب التاريخ ولم يطلق فى طول مرضه شيأ مما كان أحدثه من الرسوم الجائرة وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالما فخرب بلاد العراق وتفرق أهله فى البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان يفعل الشئ وضده فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة فى بغداد ليفطر الناس عليها فى رمضان فبقيت مدة ثم قطع ذلك ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها وأطلق بعض المكوس التى جددها فى بغداد خاصة ثم أعادها وقصر همه على رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فأبطل الفتوة فى البلاد جميعها الا من يلبس سراويل يدعى اليه ولبس كثير من الملوك منه سراويل الفتوة وكذلك منع الطيور المناسيب لغيره الا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمى بالبندق الا من ينتمى اليه فأجاب الناس بالعراق وغيره الى ذلك * قلت فاذا كان هذا غرام الخليفة أيام خلافته كان من أعجب الامور بل من أكبر المعايب وكان ماينسبه العجم اليه من أنه هو الذى أطمع التتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك صحيحا فهو اذا الطامة الكبرى على هامة الخلافة والداهية الدهياء التى يصغر عندها كل ذنب عظيم

ومات فى أيامه مكاريوس بطرك الاسكندرية وكان يعرف بمكاريوس الثانى وكان تقدمه بدير أبو مقار وكمل بالاسكندرية ثم عاد الى مصر وأقام بها أياما ثم عاد الى دير أبو مقار ثانية فقدس به ثم جاء الى مصر فقدس فى كنيسة المعلقة وأقام ستا وعشرين سنة وأحدا وأربعين يوما ومات فخلت مصر من بطرك للتأصلين سنتين وشهرين وفى أيامه حصلت زلزلة عظيمة بالقاهرة هدمت فيها كنيسة المختار بالروضة قال بعض أهل التاريخ والصحيح أن الذى هدمها هو الافضل فانها كانت فى بستانه وكان كثير الضجر من وجودها فى بستانه فلما مات أقيم بعده غبريال المكنى بابى العلاء صاعد بن شريك الشماس بكنيسة مرقوريوس بالمعلقة وهو السبعون من بطاركة الاسكندرية وأصله من كبار الكتاب بمصر وكمل بالاسكندرية وقدس بالديارات بوادى هبيب وأقام أربع عشرة سنة ومات فخلا الكرسى بعده ثمانية أشهر ثم قدم بعده مخائيل بن التقادوسى الراهب بقلاية الدمشيرية وهو حادى سبعيهم وأصله راهب من دير أبى مقار فأقام سنة وسبعين يوما ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شئ يذكر فأقيم بعده يوحنا الخامس المكنى بأبى الفتح

بالمعلقة

بالمعلقة وكمل بالاسكندرية وهو ثانى سبعيهم وكان من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(الفصل الخامس والثلاثون)

(فى خلافة الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله)

ثم قام بالامر بعد الخليفة الناصر ابنه محمد الظاهر بأمر الله بويع له بالخلافة يوم موت أبيه فى الاول من شوال سنة اثنتين وعشرين وستمائة هجرية أى نحو سنة خمس وعشرين ومائتين وألف ميلادية ولم يكن أبوه الملك الناصر يحبه فانه بعد أن خطب له بولاية العهد على منابر العراق وغيرها من البلاد عاد فخلعه وأرسل الى الآفاق بقطع الخطبة له * قال أصحاب التاريخ وانما فعل ذلك لانه كان يميل الى ولده الاصغر علىّ فاتفق أنه مات سنة اثنتى عشرة وستمائة ولم يكن للخليفة ولد خلاف ولى العهد المذكور فاضطر الى اعادته الا أنه كان تحت الاحتياط والحجر عليه لايتصرف فى شئ ما فلما مات أبوه ولى الخلافة وأحضر الناس لاخذ البيعة وتلقب بالظاهر بأمر الله يعنى بذلك أن أباه وجميع أصحابه أرادوا صرف الامر عنه فظهر وولى الخلافة بامر الله لابسعى أحد * فلما وليها أظهر من العدل والاحسان ماأعاد به سنة العمرين وأعاد الاموال المغصوبة فى أيام أبيه وقبله وكانت شيأ كثيرا جدا وأطلق المكوس فى البلاد جميعها وأمر باعادة الخراج القديم فى جميع العراق وأن يسقط جميع ماجدده أمير الخراج بأمر أبيه وكان شيأ كثيرا وتقدم الى القاضى فى أن كل من عرض عليه كتابا صحيحا بملك يعيده اليه من غير اذنه وأقام رجلا صالحا فى ولاية الحشرى وبيت المال وكان هذا الذى أقامه حنبليا فقال اننى من مذهبى أورث ذوى الارحام فان أذن أمير المؤمنين أن أفعل ذلك وليت والا فلا فقال له أعط كل ذى حق حقه واتق الله ولا تتق سواه * وكانت العادة ببغداد أن الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة الى الخليفة بما تجدد فى دربه من اجتماع بعض الاصدقاء ببعض على نزهة أو سماع أو غير ذلك ويكتب ماسوى ذلك من كل صغيرة وكبيرة فكان الناس من هذا فى حجر عظيم فلما ولى الظاهر أتته المطالعات على العادة فأمر بقطعها وقال أىّ غرض لنا فى معرفة أحوال الناس فى بيوتهم فلا يكتب أحد الينا الا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقيل له ان العامة تفسد بذلك ويعظم شرها فقال نحن ندعو الله أن يصلح أحوالهم * ومحاسن أعماله كثيرة جدا منها انه أخرج توقيعا الى الوزير بخطه ليقرأ على أرباب الدولة فلما وصل الرسول قال أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أو نفذ مثال ثم لايبين له أثر بل أنتم الى امام فعال أحوج منه الى امام قوال فقرؤه فاذا فى أوله بعد البسملة * اعلموا

أنه ليس اهمالنا اهمالا ولا اغضاؤنا اغفالا ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا وقد عفونا لكم ماسلف من تخريب البلاد وتشريد الرعية وتقبيح الشريعة واظهار الباطل الجلى فى صورة الحق الخفى حيلة ومكيدة وتسميه الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدرا كا لاغراض انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل وأنياب أسد مهيب تتفقون بالفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناؤه وثقاته فتستميلون رأيه الى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيطيعكم وأنتم له عاصون و يوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا وبفقركم غنى وبباطلكم حقا ورزقكم سلطانا يقيل العثرة ولا يؤاخذ الا من اصر ولا ينتقم الا ممن استمر يأمركم بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم فى طاعته فان سلكتم مسالك نواب خلفاء الله فى أرضه وأمنائه على خلقه والا هلكتم والسلام ۞ وكانت أيامه قصيرة اذ مات فى الرابع عشر من رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوما * قال صاحب الكامل وكان نعم الخليفة جمع الخشوع مع الخضوع لربه والعدل والاحسان الى رعيته ولما مات وجدوا فى بيت فى داره ألوف رقاع كلها مختومة لم يفتحها فقيل له ليفتحها فقال لاحاجة لنا فيها كلها سعايات ولقصر مدة خلافته لم يقع فيها من الحوادث شئ يذكر وعمل له العزاء فى البلاد كلها لاحسانه وفضله على الرعية وولى الخلافة بعده ابنه أبو جعفر المنصور

(الفصل السادس والثلاثون)

﴿ فى خلافة المستنصر بالله أبى جعفر المنصور بن الظاهر بامر الله ﴾

ثم قام بالامر بعد الظاهر بأمر الله ابنه الاكبر أبو جعفر المنصور ولقب المستنصر بالله بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه فى الرابع عشر من رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة هجرية أى سنة ست وعشرين ومائتين وألف ميلادية فلما استقرت به الخلافة سلك فى الخير والاحسان الى الناس سيرة أبيه وأمر فنودى ببغداد بافاضة العدل وأن من كان له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته فلما كان أول جمعة أتت على خلافته أراد أن يصلى الجمعة فى المقصورة التى كان يصلى فيها الخلفاء قيل له ان المطبق الذى يسلك فيه اليها خراب لايمكن سلوكه فركب فرسا وسار الى الجامع وهو جامع القصر ظاهرا يراه الناس بقميص أبيض وعمامة بيضاء بسكاكين من حرير ولم يترك أحدا يمشى معه من أصحابه للصلاة بالموضع الذى كان يصلى فيه وسار هو ومعه خادمان وركابدار لاغير فصلى وعاد

وكذلك

وكذلك الجمعة الثانية حتى أصلح له المطبق * واهتم بمصالح الرعية وحاجات الخلق فدبر الامور وأحسن السياسة وكان محبا للرعية ميالا للعدل كثيرا الحلم كثير العفو ولكنه كان قليل الحظ اذ تحركت الفرنجة فى أيامه ولم ينكفوا عن شن الغارات على بلاد الاسلام فى البر والبحر وكانوا يبالغون جدا فى قتال المسلمين فهاله أمرهم وأزعجه وخشى العاقبة وسيّر الى الملك الكامل صاحب مصر يستنجده فتجهز الملك الكامل وجمع عسكرا جرارا وسار به الى الشام فى شوال سنة خمس وعشرين وستمائة وفى نيته التغلب عليها وأخذها فوصل الى بيت المقدس ثم سار عنه الى مدينة نابلس وأغار على تلك البلاد وكانت من أعمال دمشق وهى تابعة للملك المعظم فلما علم الملك المعظم بذلك خاف أن يقصده أيضا ويأخذ دمشق منه فأرسل الى عمه الملك الاشرف يخبره بحاله ويستنجده ويطلبه ليحضر عنده بدمشق فسار اليه جريدة فدخل دمشق فلما سمع الملك الكامل بذلك لم يتقدم اليه لان البلد كان منيعا وقد صار به من يمنعه ويحميه وأرسل اليه الملك الاشرف يستعطفه ويعرفه أنه ما جاء الى دمشق الاطاعة له وموافقة لاغراضه والاتفاق معه على منع الفرنجة عن بلاد المسلمين فأعاد الكامل الجواب يقول وأنا ماجئت لهذه البلاد الا بسبب الفرنجة فانه لم يكن فى البلاد من يمنعهم عما يريدونه وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا وأنت تعلم ان عمنا السلطان صلاح الدين فتح بيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الحسن على مدى الاعصار وممر الايام فان أخذه الفرنجة حصل لنا من سوء الذكر وقبح الاحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذى ذخره عمنا وأىّ وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى ثم انهم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه ويتعدونه الى غيره وحيث قد حضرت أنت فانا أعود الى مصر واحفظ أنت البلاد ولست بالذى يقال عنى انى قاتلت أخى أو حاصرته حاشا لله تعالى * وتأخر عن نابلس يريد الديار المصرية ونزل تل العجول فخاف الاشرف ومن بالشام قاطبة وعلموا أنه ان عاد استولى الفرنجة على البيت المقدس وغيره مما يجاوره ولا ممانع دونه فترددت الرسل وسار الاشرف بنفسه الى الكامل أخيه فحضر عنده فى ليلة عيد الاضحى ومنعه من العود الى مصر فلبثا بمكانهما وقد تم ما كان يتوقعه الملك الكامل من عودة الفرنجة فانهم وصلوا فى عدد كثير ونزلوا على السواحل الشامية وأخذوا يفسدون فيما يجاورهم من البلاد الداخلة تحت حكم الاسلام * قال بعض كتاب الاخبار ومضى اليهم وهم بمدينة صور طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة صور وأطاعوهم وصاروا معهم على المسلمين واتفق موت الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب صاحب دمشق فقوى طمع الفرنجة بموته فساروا الى عكا ونزلوا بها ورتبوا أمورهم وأصلحوا حالهم وتأهبوا للقتال فلما رأى الملك الكامل هو وأخوه الملك الاشرف مافعله الفرنجة خافا وبعثا بالرسل الى ملك الفرنجة دفعات كثيرة وتخابرا معه فى الصلح وطال الامر بين الفريقين ثم استقرت القاعدة على أن يسلموا للفرنجة بيت المقدس ومعه عدة بلاد أخرى من ملحقاته

ويكون باقي البلاد مثل الخليل ونابلس والغور وطبرية وغيرذلك بيد المسلمين فتسلمه الفرنجة ورمموا سوره وحصنوه تحصينا عظيما وذلك سنة ست وعشرين وستمائة هجرية * ولما كانت سنة خمس وثلاثين وستمائة جاءت الاخبار الى الملك الكامل صاحب مصر بموت أخيه الملك الاشرف فسار من مصر الى الشام يريد دمشق ومعه الناصر داود صاحب الكرك وهو لايشك فى أن الملك الكامل يسلم اليه دمشق لما كان قد تقرر بينهما وكان بدمشق الملك الصالح اسمعيل فاستعدّ للحصار وأرسل اليه صاحب حمص نجدة فنازل الملك الكامل دمشق وما زال يقاتلها حتى ظفر وأخرج منها الملك الصالح اسمعيل وعوّضه عنها بعلبك وما حولها مضافا الى بصرى وكان قد ورد من قبل الخليفة المستنصر محيي الدين يوسف ابن الشيخ جمال الدين بن الجوزى رسولا للتوفيق بين الكامل ومن معه فتسلم الملك الكامل دمشق لاحدى عشرة بقيت من جمادى الاولى واشتد حنق الملك الكامل على شيركوه صاحب حمص لمعاونته للصالح اسمعيل فأمر العسكر فبرزوا بقصد حمص وأرسل أيضا الى صاحب حماة وأمره بالمسير الى حمص فاشتد خوف شيركوه وتخضع للملك الكامل وأرسل اليه نساءه فدخلن على الملك الكامل فلم يلتفت اليهن وصمم على الانتقام ولكنه لم يتم له قصده اذ اخترمته المنية حتف أنفه بدمشق وكان سبب موته أنه لما دخل قلعة دمشق أصابه زكام فدخل الحمام وسكب عليه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة الى صدره وورمت معدته واشتدت به الحمى فنهاه الاطباء عن القيء وخوّفوه منه فلم يقبل وتقايأ فمات لوقته وعمره نحو ستين سنة * قال أصحاب التاريخ وكان بين موته وموت أخيه الاشرف نحو ستة أشهر وكانت وفاته لتسع بقين من رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة فكانت مدة ملكه على مصر من حين مات أبوه عشرين سنة وكان بها نائبا قبل ذلك قريبا من عشرين سنة فحكم فى مصر نائبا وملكا زهاء أربعين سنة ۞ وكان ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير أمنت الطرق فى أيامه وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه واستوزر فى أوّل ملكه وزير أبيه صفى الدين بن شكر فلما مات ابن شكر لم يستوزر أحدا بعده وكان يخرج بنفسه فينظر فى أمور الجسور عند زيادة النيل واصلاحها فعمرت فى أيامه البلاد وزاد خصبها وكثرت غلاتها ودرت أرزاقها فأحبه الرعية ومالت اليه القلوب المتباعدة عن محبة أهل هذا البيت الصالحى واتفق الامراء الذين كانوا معه بدمشق على تحليف العساكر والاجناد لولده الملك العادل أبى بكر وهو حينئذ نائب أبيه بمصر فحلف له جميع العساكر وأقاموا فى دمشق الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب نائبا عن أبى بكر بن الكامل وتقدمت الامراء الى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق وتهددوه ان هو تأخر فرحل الى الكرك وتفرقت العساكر فسار أكثرهم الى مصر وتأخر مع الجواد يونس بعضهم ومقدّمهم عماد الدين ابن الشيخ * ولما بلغ شيركوه صاحب حمص خبر موت الملك الكامل صاحب مصر فرح فرحا عظيما وحصل على ما كان يطمع نفسه فيه وأظهر سرورا ما عليه

من

من مزيد ولعب بالكرة على خلاف العادة وهو فى عشر السبعين وأرسل عسكرا فاسترجع سلمية من نواب الملك المظفر وتغلب عليها وقطع القناة الموصلة منها الى حماة فيبست بساتينها وعزم على قطع النهر العاصى عن حماة أيضا فسدّ مخرجه من بحيرة قدس التى بظاهر حمص وتجهز وركب متن هواه غير حاسب لما وراء ذلك حسابا * وكانت أعمال الكامل كلها خيرا واصلاحا قال الحافظ عبد العظيم المنذرى أنشأ الملك الكامل دار الحديث بالقاهرة وعمر القبة على ضريح الشافعى وأجرى الماء من بركة الحبش الى حوض السبيل والساقية التى على باب القبة المذكورة وأوقف غير ذلك من الوقوف على أنواع البر وله المواقف المشهورة بدمياط مع الفرنجة اه وقال ابن خلكان واتسعت المملكة للملك الكامل حتى قال خطيب مكة مرة عند الدعاء له * سلطان مكة وعبيدها * واليمن وزبيدها * ومصر وصعيدها والشام وصناديدها * والجزيرة ووليدها * سلطان القبلتين * ورب العلامتين * وخادم الحرمين الشريفين * الملك الكامل أبو المعالى ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين اه

ووردت الاخبار الى الملك الاكبر الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل وهو صاحب حصن كيفا بولاية أخيه العادل أبي بكر واتفاق كلمة الامراء والقواد على البيعة له فأهمه ذلك وأقلقه وجعل يراقب الفرص الى أن علم بعجز أخيه عن القيام بأعباء الملك واختلال أمور المملكة فتجرّد للقتال وسار فى عسكر عظيم يريد مصر ليأخذها من العادل ويتغلب عليها فبرز العادل الى بلبيس يريد قتال الملك الصالح فلم يكد يصل اليها حتى اختلفت عليه الامور وخرج عليه الجند وشقوا عصا الطاعة فقبضوا عليه واعتقلوه وأرسلوا الى الصالح أيوب فوصل اليهم فى قلة فملكوه وبايعوا له وذلك فى صفر سنة سبع وثلاثين وستمائة وسيروا الخبر بذلك الى الآفاق وأقام الصالح فى الملك وقد دانت له الامور وثبتت قدماه فأحسن السياسة والتدبير فكانت مدّة ملك العادل سنتين غير كاملتين واتسعت كلمة الملك الصالح وتصرف فى الامور وقبض على سائر الامراء والمماليك الذين ساعدوه على خلع أخيه ثم أمر بهم فقتلوا جميعا وخلع الملك الجواد يونس ومنعه من دخول مصر وتوعده بالقتل ان هو عاد اليها فسار الجواد الى جماعة الفرنجة فى عكا وحبب اليهم قتال الصالح واستخلاص البلاد منه ففرحوا به وأحسنوا وفادته وسيروه الى صاحب دمشق فى طلب التعاقد على ما فيه المصلحة لهم جميعا فتم لهم الاتفاق مع صاحب دمشق والملك المنصور ابراهيم صاحب حمص وتحالفوا على أن تسير جماعة الفرنجة الى مصر لقتال الصالح ونزع البلاد منه وأن يكون لهم فى مقابل ذلك أورشليم وطبرية وعسقلان والشقيف والصعيد وبادر الفرنجة من حينئذ فملكوا تلك الاماكن وأخذوا فى ترميم حصون عسقلان وطبرية وجعلوا يعدّون المعدات ويتأهبون للزحف على ديار مصر ووردت الاخبار بذلك الى الملك الصالح فأقلقته وكان لما تمكن جنكيزخان من شرقى آسية ودانت له الامور فيها ولم يطعه الخوارزميون كبر عليه هذا الامر وأعظمه وطردهم من آسية فجاؤا شرقى

الشامات ونزلوا هنالك فى طلب الرزق وقد علم الملك الصالح صاحب مصر بمقدمهم ذلك فأنفذ اليهم رسلا فى التحالف على قتال الفرنجة ومن تعاهد معهم على قتاله فأجابوه الى ذلك وأسرعوا فى الزحف الى أن بلغوا غزة فحاربوا الفرنجة عند أسوارها ووصلت اليهم النجدة من الملك الصالح فانهزمت الفرنجة فتبعهم الخوارزميون وعسكر مصر حتى أخذوا منهم غزة وبيت المقدس واشتدت عزيمة الملك الصالح بما ناله من الغلبة على الفرنجة فسار فى جيش عظيم الى دمشق يريد أخذها فحاصرها وألح فى قتالها حتى أخضعها لسلطانه وخرج الى حمص وحاصرها فلم ينل منها مأربا وعمد الى التقرب من الخليفة المستنصر بالله العباسى ليعظم بذلك أمره وتعلو كلمته وتنضم اليه القلوب المتباعدة عنه فأرسل اليه هدية نفيسة فلم يكد يصل رسوله بالهدية حتى جاء الخبر بموت الخليفة مات بكرة يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة هجرية فكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة الا شهرا * قال أصحاب التاريخ وكان حسن السيرة عادلا فى الرعية وهو الذى بنى المدرسة فى بغداد المسماة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقى مما يلى دار الخلافة فلما مات اتفق أرباب الدولة على تقليد الخلافة لولده عبد الله ولقبوه المستعصم وهو سابع ثلاثى الخلفاء العباسيين وآخرهم وكنيته أبو أحمد بن المستنصر بالله منصور

ومات فى أيام الخليفة المستنصر بالله يوحنا بطرك الاسكندرية بعد أن أقام تسع عشرة سنة وكان اسمه أولا يونس أبو الفتح من دير أبى حنس وكانت أيامه كلها شدائد واحنا وبلايا ومحنا تكاد أن لا تدخل تحت الحصر وقد أضربنا عن ايرادها هنا وخلا الكرسى بعد موته ثلاثة وأربعين يوما ثم أقاموا بعده مرقس بن زرعة المكنى بأبى الفرج ثالث سبعيهم وهو سريانى المحتد ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى حينه

(الفصل السابع والثلاثون)

(فى خلافة المعتصم بالله بن المستنصر بالله)

ثم قام بعد المستنصر بالله ولده المعتصم بالله أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبى جعفر ابن الظاهر محمد بن الناصر العباسى وهو آخر الخلفاء العراقيين بويع له بالخلافة فى جمادى الاولى سنة أربعين وستمائة هجرية أى سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف ميلادية فلم تستقر به الخلافة حتى أساء التدبير وانهمك على اللعب بالحمام وغير ذلك مما لا يليق بالخلافة قال أصحاب الاخبار وكان قليل الرأى ضعيف العزيمة لا حزم له ولا حرمة ولا هيبة فلما جاءت

البشائر الى الملك الصالح بخلافته أرسل اليه يطلب منه تقليدا بمصر والشام فجاءه التشريف والطوق الذهب والمركوب فلبس التشريف الاسود والعمامة والجبة وركب الفرس فى موكب حافل للغاية وأولم لامراء الدولة وكبار الجند وليمة فاخرة ولم تتم أفراحه هذه حتى ورد عليه كتاب الملك لويز ملك الفرنسيس يقول * أما بعد فانه لم يخف عليك أنى أمين الامة العيسوية كما انه لايخفى علىّ أنك أمين الامة المحمدية وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الاندلس وما يحملونه الينا من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال والنساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلى منهم الديار وأنا أرسلت لك مافيه الكفاية وبذلت لك النصح الى النهاية فلوحلفت لى بكل الايمان وأدخلت علىّ القسس والرهبان وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان لكنت راحلا اليك وقاتلك فى أعز البقاع عليك فاما أن تكون البلاد لى هدية حصلت فى يدى واما أن تكون البلاد لك والغلبة علىّ فيدك العليا ممتدة الىّ وقد عرفتك وحذرتك من عساكر فى ساحتى تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك بأسياف القضا ۞ فلما وقف الصالح على مافى الكتاب بكى واسترجع وقال للقاضى بهاء الدين زهيرا كتب الجواب فكتب بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين * أما بعد فانه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فنحن أرباب السيوف وما قتل منا فرد الا جددناه ولا بغى علينا باغ الا دمرناه ولو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الاواخر منكم والاوائل لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولا بد أن تزل بك القدم فى يوم أوله لنا وآخره عليك فهنالك تسيء الظنون وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون فاذا قرأت كتابى هذا تكون فيه على أول سورة النحل أتى أمر الله فلا تستعجلوه وتكون فيه على آخر سورة ص ولتعلمن نبأه بعد حين ونعود الى قول الله تعالى وهو أصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقول الحكماء ان الباغى له مصرع وبغيك يصرعك والى البلاء يقلبك والسلام وجاءته الاخبار بوصول المراكب الفرنساوية مشحونة بالعساكر والاجناد وهذه غزوتهم السابعة الصليبية فأهمه أمرهم وخرج من القاهرة الى المنصورة ونزل بها وشحن مدينة دمياط بالآلات العظيمة والذخائر الوافرة وجعل فيها بنى كنانة وهم موصوفون بالبسالة والاقدام وأرسل فخر الدين ابن الشيخ فى طائفة عظيمة من الجند ليكونوا قبالة الفرنسيس اذا نزلوا من مراكبهم فتقدم الفرنسيس نحو البر ونزلوا من المراكب وهجموا على المدينة يريدون أخذها وذلك فى أوائل سنة سبع وأربعين وكان مقدم الفرنسيس فى هذه الحملة الملك لويز التاسع ملك الفرنسيس فخاف فخر الدين ابن الشيخ وهاله كثرة جيوش الفرنسيس فعبر من البر الغربى الى البر الشرقى فى جماعة من المسلمين ووصل الملك لويز بعسكره الى البر الغربى لتسع بقين من صفر من السنة فلما جرى ذلك هرب أيضا بنو كنانة وأهل دمياط كافة وأخلوها

وتركوها مفتحة الابواب فملكها الفرنسيس بغير قتال واستولوا على مابها من الذخائر والسلاح فعظم الامر جدا على الملك الصالح وأمر بالقبض على من يوجد من بنى كنانة وصلبه فقبضوا عليهم وصلبوا عن آخرهم وكان الملك الصالح وهو مقيم بالمنصورة يقاسى ألم المرض وهو السل والقرحة التى كانت به فلم يقدر على الخروج للقاء عساكر الفرنسيس واشتدت به علته شدة بالغة وكان كلما سمع بظفر الفرنسيس قلق واضطرب فلما كانت ليلة الاحد لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان من السنة أى سنة سبع وأربعين وستمائة مات فكانت مدة تملكه للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما وكان عمره نحو أربع وأربعين سنة وقيل أربعين وكان مهيبا عالى الهمة عفيفا طاهر اللسان وقد جمع من المماليك الترك مالم يجتمع لغيره من أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره من مماليكه ورتب جماعة منهم حول دهليزه وسماهم (البحرية) فكان من أمرهم ماسيتلى عليك فى محله * وكان شديد البأس لايجسر أن يخاطبه أحد الا مجيبا ولا يتكلم أحد بحضرته ابتداء وكانت القصص تضعها بين يديه الخدام فيكتب بيده عليها وتخرج للموقعين وكان لايستقل أحد من أهل دولته بأمر من الامور الا بعد مشاورته وكان يحب العمارة والبناء فبنى قلعة الجزيرة التى هى الروضة واشترى ألف مملوك وأسكنهم بها وسماهم البحرية وبنى بالقاهرة المدارس الاربع بين القصرين وبنى الصالحية وهى بلدة بالشام وبنى له فيها قصورا للصيد وبنى قصرا عظيما بين مصر والقاهرة يسمى بالكبش وكان له ثلاثة أولاد أحدهم فتح الدين عمر مات فى حبس الصالح اسماعيل وكان قد مات ولده الآخر قبله ولم يبق له غير المعظم تورانشاه بحصن كيفا ومات الملك الصالح المذكور ولم يوص بالملك لاحد وكانت له جارية اسمها شجرة الدر فلما مات أخفت خبر موته وبقيت تعلم بعلامته ثم أحضرت فخر الدين ابن الشيخ والطواشى جمال الدين محسنا وهما من كبار الامراء وعرفتهما بموت السلطان فكتموا ذلك خوفا من الفرنسيس واتفقوا على أن شجرة الدر تجمع الامراء كافة وتقول لهم ان السلطان يأمركم أن تحلفوا له أولا ثم لولده الملك المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا من بعده وللامير فخر الدين بن الشيخ بأتابكية العسكر فاجتمع الامراء وحلفوا وكتب الى حسام الدين بن أبى علىّ وهو يومئذ النائب بمصر بمثل ذلك فحلف وحلفت العساكر والاجناد وجميع الكبراء بمصر والقاهرة على ذلك أيضا فى العشر الاواسط من شعبان من السنة فكانت تخرج الكتب وغيرها وعليها علامة الملك الصالح وكان الذى يكتبها خادم صغير يقال له السهيلى فلا يشك أحد فى أنها بخط السلطان * وأرسل فخر الدين ابن الشيخ قاصدا لاحضار الملك المعظم من حصن كيفا فلما جرى ذلك شاع بين الناس موت السلطان ولكن كان أرباب الدولة لايجسرون أن يتفوهوا بذلك وبلغ الخبر الملك لويز ملك الفرنسيس وهو بدمياط فسار فى طائفة عظيمة من جنوده فى مستهل رمضان يريد المنصورة فلما صار على مقربة منها لاقته عساكر المسلمين فاقتتلوا قتالا عظيما جدا مات فيه جماعة من كبار المسلمين ونزل

الفرنسيس بحر مساح ثم اقتربوا من معسكر المسلمين وكبسوهم على المنصورة بكرة الثلاثاء لخمس خلون من ذى القعدة وكان فخر الدين يوسف بن الشيخ صدر الدين بن حمويه مقدم العساكر الاسلامية فى الحمام بالمنصورة فركب مسرعا فصادفه جماعة من عسكر الفرنسيس فقتلوه فحمل المسلمون والاتراك البحرية على الفرنسيس حتى ردوهم بعد قتال عنيف للغاية أما الملك المعظم تورانشاه فانه لما وصل اليه القاصد قام من يومه من حصن كيفا ووصل الى دمشق وعيد بها عيد الفطر ووصل الى المنصورة يوم الخميس لتسع بقين من ذى القعدة سنة سبع وأربعين وستمائة فلم يستقر به المقام حتى شدد الفرنسيس فى القتال وقامت الحرب بين الفريقين برا وبحرا وحملت مراكب المسلمين على مراكب الفرنسيس فأخذت منهم عدة كثيرة واشتد الامر على الفرنسيس وقلت عندهم الاقوات وصعب لذلك عليهم المقام قبالة المسلمين فرحلوا ليلة الاربعاء لثلاث بقين من المحرم افتتاح سنة ثمان وأربعين يريدون مدينة دمياط فاقتفى المسلمون أثرهم فانحاز الملك لويز بمن معه من الملوك والامراء الى بلد هناك وطلبوا الامان فأمنهم الطواشى محسن الصالحى ثم غدر بهم وأحضرهم أسرى الى المنصورة فقيد الملك لويز وجعله فى دار كان ينزلها كاتب الانشاء فخر الدين بن لقمان * قلت وآثارها باقية الى هذا اليوم وقد تهدم أكثرها * ووكل به الطواشى صبيح المعظمى ففرح المسلمون بذلك فرحا لا يوصف وسار الملك المعظم من المنصورة الى فارسكور ونزل بها ونصب بها برجا من خشب وقرب اليه أصحابه الذين جاؤا معه من حصن كيفا واعتمد عليهم وسلم اليهم مقاليد الامور * قال كتاب الاخبار وكان أولئك الناس من الاراذل * واطرح جانب أمراء أبيه ومماليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد مانفر قلبه منه فاتفقوا جميعا على قتله وتحالفوا على ذلك فلم يشعر الا وقد هجموا عليه بالسيوف ومقدمهم ركن الدين بيبرس وضربه بالسيف فهرب الملك المعظم الى البرج الخشب الذى نصب له بفارسكور فأطلقوا فى البرج النار فخرج المعظم منه هاربا طالبا البحر ليركب فى حراقته فحالوا بينه وبين الحراقة بالنشاب فطرح نفسه فى البحر فأدركوه وأجهزوا عليه فى نهار الاثنين المذكور فكانت مدة اقامته فى الملك من حين وصوله شهرين وأياما * ولما جرى ذلك اجتمع الامراء واتفقوا على أن يقيموا شجرة الدر زوجة الملك الصالح فى المملكة وأن يكون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحى المعروف بالتركمانى أتابك العسكر وحلفوا على ذلك وخطبوا لشجرة الدر على المنابر وضربت السكة باسمها * قال أصحاب الاخبار فكان نقش السكة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل وكانت شجرة الدر قد ولدت من الملك الصالح ولدا ومات صغيرا وكان اسمه خليلا فسميت والدة خليل وكانت علامتها على التوقيع والدة خليل

ولما استقر لها الملك وقع الحديث مع لويز ملك الفرنسيس فى تسليم مدينة دمياط بالافراج عنه فتقدم لويز الى من بها من نوابه فى تسليمها فسلموها وأصعد عليها السلطان يوم الجمعة لثلاث مضين من صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة وأطلق ملك الفرنسيس فركب فى

البحر مع جنوده نهار السبت وأقلعوا الى عكا ثم عادت العساكر ودخلت القاهرة يوم الخميس
تاسع صفر وأرسل المصريون رسولا الى الامراء الذين بدمشق فى موافقتهم على مافعلوه من
تولية شجرة الدر فلم يجيبوا اليه وطال الامر بينهم أياما ثم عادوا فاتفقوا على جعل عز الدين
أيبك الجاشنكير فى السلطنة لانهم رأوا أنه اذا استقر أمر المملكة لامرأة على ما هو عليه
الحال تفسد الامور فولوا أيبك وأركبوه بالصناجق السلطانية وحملت الغاشية بين يديه يوم
السبت آخر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ولقبوه بالملك المعز * وكان اصلاح الدين
يوسف بن الملك الكامل ولد اسمه الاشرف موسى وله من العمر ثمان سنين فملكوه مع عز
الدين أيبك فخطب لهما معا وضربت السكة باسمهما وسموا الاشرف المذكور السلطان
وأبطلوا السكة والخطبة التى كانت باسم شجرة الدر فكانت مدة ملكها ثلاثة أشهر * قال
بعض كتاب الاخبار ان شجرة الدر هى التى خلعت نفسها من تخت المملكة وتزوجت بالامير
أيبك المذكور وهو أول ملوك الدولة الجركسية بالديار المصرية * فلما استقرت به السلطنة
وتصرف فى الامور شمخت أنوف الاتراك أبناء جنسه وعظم من يومئذ شأنهم ومدوا أيديهم
الى العامة واستوزر الاسعد الفائزى فكان بئس الرجل أكثر من احداث المغارم والمكوس
فأبغضه الناس وكبر بغضهم لايبك فكان أهل مصر والقاهرة يحقرونه ويسمعونه ما يكره
اذا ركب ويقولون لا نريد الا سلطانا رئيسا ولد على الفطرة لاعبدا رقا وانحرفت خواطر
الجند عليه فجعل يسايرهم ويسترضيهم بالعطايا الجزيلة وما زال حتى دانت له بعد ذلك
الامور واستتبت كلمته وبسط يده على جميع المملكة فرسم بهدم سور مدينة دمياط تخلصا
من غارات الفرنسيس فهدموه فى العشر الاخير من شعبان وبنوا مدينة بالقرب من
دمياط فى البر وسموها المنشية وكانت الاسوار التى هدموها من عمارة المتوكل الخليفة
العباسى وكبر أمر ولاية الامير أيبك على الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق
وأعظمه جدا لخروج الملك من بيت أبيه الى الموالى والعبيد فتحرك يريد أخذ ملك مصر
من يد أيبك المذكور استصغارا له واستخفافا بقدره فسار من دمشق وصحبته من ملوك أهل
بيته الصالح اسماعيل بن العادل بن أيوب والاشرف موسى صاحب حمص والمعظم تورانشاه
ابن السلطان صلاح الدين وأخو المعظم نصرة الدين والامجد حسن والظاهر شادى ابنا الناصر
داود بن الملك المعظم عيسى بن العادل بن أيوب وتقى الدين بن عباس بن الملك العادل بن أيوب
فى جيش عظيم للغاية ومقدم الجيش شمس الدين لؤلؤ الارمنى واليه تدبير المملكة وكان
خروجهم من دمشق فى يوم الاحد منتصف رمضان من السنة فلما بلغ المصريين خبر
قدومهم هالهم أمرهم واهتموا لقتالهم ودفعهم وبرزوا الى السائح وتركوا الاشرف المسمى
بالسلطان بقلعة الجبل وخرج أيبك حينئذ على ولدى الصالح اسماعيل وهما المنصور ابراهيم
والملك السعيد عبد الملك وكانا معتقلين من حين استيلاء الملك الصالح أيوب على بعلبك وقطع
عليهما ليتوهم الناصر يوسف صاحب دمشق من أبيهما الصالح اسماعيل ويتخوف منه ثم

التقى

التقى العسكران بالقرب من العباسة باقليم الشرقيـة فى الخامس عشر من ذى القـعدة فكانت الغلبـة أولا على جنود مصر فخامر جماعة من المماليك الترك العزيزية على الملك الناصر صاحب دمشق وثبت المعز أيبـك فى جماعة قليـلة من البحرية فانضاف جماعة من العزيزية مماليك والد الملك الناصر الى المعز أيبـك فلما انكسر المصريون وتبعهـم العسكر الشامى ولم يشكوا فى النصر والغلبة بقى الملك الناصر تحت الصناجق السلطانية مع جماعة يسيرة من المتعممين لايتحركون من موضـعهم فحمل المعز أيبك بمن معه عليـه فولى الملك الناصر منهزما طالبا جهـة الشام ثم حمل أيبك لطلب شمس الدين لؤلؤ فهزمهم وأخذ شمس الدين أسيرا فضرب عنقه بين يديه وكذلك أسر الامير ضياء الدين بن أيوب القيمرى فحز رأسـه وأسر يومئـذ الملك الصالح اسماعيل والاشرف صاحب حمص والمعظم تورانشاه بن صـلاح الدين بن أيوب وأخوه نصرة الدين ووصـل عسكر الملك الناصر فى أثر المنهزمين الى العباسة وضربوا بهـا دهليز الملك الناصر وهم لايشكون أن الهزيمة تمت على المصريين فلما جاءهم الخـبر بفرار الملك الناصر اختلفت آراؤهـم وتفرقت كلمتهم فمنهـم من أشار بالدخول الى القاهرة وتملكها * قال بعض كتاب الاخبار ولو فعلوه لما بقى مع المعز أيبك من يقاتلهم به وكان هرب منهم لترفع المنهزمين الى الصعيد الاعلى * ومنهم من أشار بالرجوع الى الشام وكان معهم تاج الملوك بن المعظم وهومجروح بجراح ليست خفيفة * ودخل المنهزمون من المصريين الى القاهرة من غـد الواقعـة نهار الجمعـة فلم يشك أهـل مصر والقاهرة فى غلبة الملك الناصر وملكه ديار مصر فخطب له الخطيب فى الجمعـة المذكورة بقلعة الجبل وبمصر وأما القاهرة فلم يقم فيها فى ذلك النهار خطبة لاحد ثم وردت اليهم البشرى بانتصار المماليك البحرية ودخـل المعز أيبك والبحرية الى القاهرة يوم السبت ثانى عشرى ذى القعدة ومعـه الصالح اسماعيل تحت الاحتياط وغـيره من المعتقلين فحبسوا بقلعة الجبـل وفى ثالث يوم دخوله أمر باخراج أمين الدولة وزير الصالح اسماعيـل وأستاذ داره المسمى يغمور وكانا معتقلين من حين استيلاء الصالح أيوب على بعلبك فشنقهما على باب قلعة الجبل وأوعز الى جماعة من أصحابه بقتل الصالح عماد الدين اسماعيـل بن الملك العادل بن أيوب فلما كانت ليلة الاحد السابع والعشرين من ذى القعدة هجموا عليه وهو يمص قصب السكر وقبضوا عليه وأخرجوه الى ظاهر قلعة الجبل من جهة القرافة فقتلوه ودفنوه هنالك وعمره يقرب من خمسين سنة فعلت كلمة المعز أيبك من حينئذ واتسعت شهرته ومالت اليـه القلوب وجعـل يتصرف فى أمور المملكة بالاشـتراك مع الملك الاشرف لا يقـدر على الاسـتقلال بهـا ولا الاستبداد بالاحكام لممانعة خو شداشه اقطاى الجدار له فى ذلك فكان أيبك فى حزن دائم من ذلك * فلما كانت سـنة اثنتـين وخمسـين وستمائة دبر المعز أيبـك أمر قتل اقطاى فأوقف له فى بعض دهاليز الدور التى بقلعة الجبل ثلاثة مماليك أحدهـم يسمى قطز والثانى بهادر والثالث سنجر الغتمى فلما مر بهـم فارس الدين اقطاى المذكور ضربوه بالسـيوف

فقتلوه ووصل خبر قتله الى المماليك البحرية فانزعجوا وفروا من مصر الى الشام خوفا من المعز أيبك فخلا الجو للمعز واستقل بالسلطنة وخلع الاشرف موسى منها وسيره الى عماته فكان الاشرف موسى المذكور آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة فى ديار مصر وكان انقضاء دولتهم فى هذه السنة أى سنة اثنتين وخمسين وستمائة هجرية وسنة خمسين ومائتين وألف ميلادية فكان عدد ملوكهم تسعة أولهم الملك صلاح الدين بن أيوب وآخرهم الاشرف موسى أو الملكة شجرة الدر زوجة الملك الصالح الايوبى فسبحان من له الملك وحده والسلطان الدائم بلا زوال

فبادوا جميعا ولا مخبر * وماتوا جميعا وصح الخبر

فلما تمت نعمة المعز أيبك بتملكه على ديار مصر وما يتبعها من الشامات واستقل بحكمها ظهرت على يديه الدولة الشركسية التى هى احدى فروع الدولة التركية وتمكن سلطانها فتولى حكم البلاد منها سبعة وأربعون ملكا أولهم المعز أيبك المذكور وآخرهم طومان باى وهم الملقبون بمماليك الدولة الايوبية الكردية ليمتازوا عن المماليك البحرية وكان الملك الصالح الايوبى قد اصطفاهم لنفسه وخصهم بخدمته فكان لهم التقدم فى أيامه كما سبقت الاشارة الى ذلك قال أصحاب التاريخ وكان فيهم فظاظة وخشونة واستهتار بالامور كلها * وأحسن المعز أيبك التدبير وأقام العدل بين الرعية وشدّد على المماليك العزيزية لتمردهم وتطاول أيدى بعضهم الى العامة فكرهوه وجعلوا يترقبون الفرص للقبض عليه فعلم نيتهم واستعدّ لهم وبالغ فى الاستعداد * فلما كانت سنة ثلاث وخمسين هموا بالقبض عليه فلم يفلحوا فهربوا من مخيمهم الى العباسة على جمية فأحاط على وطاقاتهم جميعها وأخذ ما فيها فهابه الامراء كافة وحسده الملك الناصر صاحب الشام وخاف أن يأخذ ملكه فسير كمال الدين المعروف بابن العديم رسولا من قبله الى الخليفة المستعصم وصحبته تقدمة جليلة وطلب خلعة من الخليفة فعلم المعز أيبك بقصده فأرسل شمس الدين سنجر الاقرع وهو من مماليك المظفر غازى صاحب ميا فارقين الى بغداد بتقدمة جليلة جدا وسعى فى تعطيل خلعة الناصر يوسف صاحب الشام فبقى الخليفة متحيرا أياما ثم انه أحضر سكينا من البلسم كبيرة وقال الخليفة لوزيره أعط هذه السكين رسول صاحب الشام علامة منى فى انه له خلعة عندى فى وقت آخر وأما فى هذا الوقت فلا يمكننى اعطاؤه شيأ فأخذ رسول صاحب الشام السكين وعاد الى الملك الناصر يوسف بغير خلعة فكبر عليه هذا الامر وجعل يراقب الفرص وهو قلق وجل ودس الى شجرة الدر من يعلمها بحاله * وكانت شجرة الدر كثيرة التداخل فى أمور المملكة ولها بعض الغلبة على أمر المعز أيبك فأحس المعز بذلك فكان يضمر لها السوء ويعمل على التخلص منها واتفق انه سير الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل من يخطب له ابنته ليتزوج بها فلما علمت شجرة الدر بعزمه وكانت قد آنست منه البغض وأحست بالشر صارت تتربص الفرصة للايقاع به فلما كان يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الاول سنة خمس وخمسين

وستمائة خرج الى لعب الكرة ثم عاد ودخل الحمام فأوعزت فى الحال الى سنجر الجوهرى مملوك الطواشى محسن وبعض الخدم بأن يقتلوه فدخلوا عليه وقتلوه وأرسلت شجرة الدر فى تلك الليلة اصبع المعز أيبك وخاتمه الى الامير عز الدين الحلبى الكبير وطلبت منه أن يقوم بالأمر فلم يجسر على ذلك وظهر الخبر فثارت مماليك المعز لقتل شجرة الدر فمانع عنها طوائف المماليك الصالحية واجتمع كافة الامراء وكبار الجند ليولوا ملك البلاد لمن يصلح فاتفقت كلمتهم جميعا على اقامة نور الدين على بن المعز أيبك ولقبوه بالملك المنصور وعمره يومئذ خمس عشرة سنة ونقلت شجرة الدر من دار السلطنة الى البرج الاحمر ثم قبضوا على الخدام الذين وافقوها على قتل الملك فصلبوهم وهرب سنجر الجوهرى ولكنهم ظفروا به بعد ذلك وصلبوه واحتيط بالصاحب بهاء الدين علىّ بن حنا الذى كان وزير شجرة الدر وأخذ خطه بستين ألف دينار ۞ ولما تولى الملك نور الدين على المنصور واستقرت به السلطنة قبض على شجرة الدر ودخل بها على أمه فأمرت باعدامها فقتلها الجوارى بالقباقيب ورماها بالخندق وهى عريانة على باب القلعة وبقيت أياما ثم دفنت بالتربة التى كانت قد أعدتها لنفسها * قال كتاب الاخبار وقد جوزيت من جنس عملها لانها كانت سعت فى قتل الملك المعظم فمات غريقا كما تقدم بيانه فى محله وترك ثلاثة أيام على شاطئ النيل فكذلك فعل بها

ودخلت سنة ست وخمسين وستمائة هجرية بكثير من الحوادث المهمة فقصد فى أولها هولاكو ملك التتار دار السلام وحاصرها وضيق عليها وشدد حتى ملكها فى العشرين من المحرم وقبض على الخليفة المستعصم بالله * قال أهل التاريخ وكان سبب ذلك أن مؤيد الدين بن العلقمى وزير الخليفة كان رافضيا وكان أهل الكرخ أيضا روافض فجرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد على جارى عادتهم فأمر أبو بكر بن الخليفة وركن الدين الدوادار العسكر فنهبوا الكرخ وقتلوا النساء وركبوا بهن الفواحش فعظم فعلهم على الوزير ابن العلقمى وعزم على الانتقام فكاتب التتار وأطمعهم فى ملك دار السلام وكان عسكر بغداد قد بلغ يومئذ مائة ألف فارس فقطعهم المستعصم ليحمل الى التتار متحصل اقطاعاتهم فأصبح عسكر بغداد بعد ذلك أقل من عشرين ألف فارس ثم أرسل ابن العلقمى الى التتار أخاه يستدعيهم فساروا قاصدين بغداد فى جمع عظيم للغاية فلما علم الخليفة بخبر قدومهم أخرج عسكره لقتالهم ومقدمهم ركن الدين بن الدوادار فالتقوا على مرحلتين من دار السلام واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم عسكر الخليفة ودخل بعضهم بغداد وسار بعضهم الى جهة الشام ونزل هولاكو على بغداد من الجانب الشرقى ونزل باجو من أكبر مقدميه الى الجانب الغربى على قرية قبالة دار الخلافة وخرج مؤيد الدين بن العلقمى الوزير الى هولاكو فاستوثق لنفسه وعاد الى الخليفة المستعصم وقال ان هولاكو يبقيك فى الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبى بكر وحسن له الخروج الى هولاكو فخرج اليه المستعصم فى جمع من أكابر أصحابه فأنزله فى

خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والاماثل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان منهم محيي الدين بن الجوزى وأولاده وكذلك صار يخرج الى التتار طائفة بعد طائفة حتى تكاملوا فأمر هولاكو فقتلهم التتار عن آخرهم ثم مدوا الجسر وعدى باجو ومن معه وبذلوا السيف فى بغداد وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف ولم يسلم الا من كان صغيرا فأخذ أسيرا ودام القتل والنهب فى بغداد نحو أربعين يوما ثم نودى بالامان قال الراوى وأما الخليفة فانهم قتلوه ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله فقيل خنق وقيل وضع فى عدل ورفسوه حتى مات وقيل غرق فى دجلة وقيل غير ذلك وكان هذا المستعصم وهو عبدالله أبو أحمد ابن المستنصر أبى جعفر منصور بن محمد الظاهر بن الامام الناصر أحمد ضعيف الرأى كما تقدّم وقد غلب عليه أمراء دولته لسوء تدبيره وانهماكه فى اللذات وعدم اهتمامه بمقام الخلافة ومسند الامامة فكانت خلافته نحو ست عشرة سنة وبموته زالت الخلافة من العباسيين وانقرضت دولتهم وانمحت آثارها فلم تكن شيأ مذكورا ۞ قال أصحاب التاريخ كان ابتداء دولة الخلفاء العباسيين فى سنة اثنتين ومائة هجرية وهى السنة التى بويع فيها السفاح بالخلافة وقتل فيها مروان الحمار آخر خلفاء بنى أمية وكانت مدة ملكهم خمسمائة سنة وأربعا وعشرين سنة على التقريب وعدّة خلفائهم سبع وثلاثون خليفة * حكى القاضى جمال الدين بن واصل قال لقد أخبرنى من أثق به أنه وقف على كتاب عتيق فيه ماصورته * ان علىّ بن عبدالله بن عباس بن عبد المطلب بلغ بعض الخلفاء من بنى أمية عنه أنه قال ان الخلافة تصير الى ولده فأمر الاموى بعلىّ بن عبدالله فحمل على جمل وطيف به وضرب وكان يقال عند ضربه هذا جزاء من يفترى ويقول ان الخلافة تكون فى ولده فكان علىّ بن عبد الله المذكور رحمه الله يقول اى والله لتكونن الخلافة فى ولدى ولا تزال فيهم حتى يأتيهم العلج من خراسان فينزعها منهم فوقع مصداق ذلك بورود هولاكو وازالة ملك بنى العباس على يديه فأقامت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سنة وذلك من يوم الاربعاء رابع عشر صفر سنة ست وخمسين وستمائة وهو يوم قتل الخليفة المستعصم الى سنة تسع وخمسين وستمائة فسبحان من له الدوام والبقاء

وكما كانت دار السلام فى قلق واضطراب بسبب دخول هولاكو اليها بعسكره ظافرا منصورا وقتله للخليفة المستعصم وجميع رجال الدولة وكبار البلد كانت مصر كذلك بسبب الارهاصات الداخلية والفتن المتوالية وتحزب بعض الامراء ضد البعض الآخر وتغلب بعضهم على أمر الملك المنصور لاسيما سيف الدين قطز أحد مماليك المعز أيبك فقد كان شديد البأس واسع الكلمة كبير الهيبة وكان يراقب الفرص لخلع الملك المنصور ليتولى الملك مكانه وما زال على هذا الحال الى أن اتفق فى أوائل ذى الحجة سنة تسع وخمسين وستمائة خروج علم الدين المغتمى وسيف الدين بهادر وجمع من كبار المعزية الى الرمى بالبندق وكان لهما كلمة نافذة وشهرة كبيرة فانتهز سيف الدين قطز المذكور فرصة غيابهما وقبض على ولد

استاذه

أستاذه الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيبك وخلعه من السلطنة فلما قدم المغيثى وبهادر المذكوران لم يمهلهما حتى قبض عليهما واعتقلهما فخافه بقية الامراء ودانوا له وبالغوا فى الخضوع اليه فتولى الملك وقبض على زمام السلطنة وتلقب بالملك المظفر ووردت عليه رسائل التهانى من كل صوب وحدب * وكان الملك الناصر يوسف صاحب الشام قد أرسل الى الملك المنصور علىّ قبل خلعه كمال الدين بن العديم مستنجدا على التتار واتفق خلع الملك المنصور وولاية قطز بحضرة كمال الدين بن العديم المذكور فلما استقر قطز بمنصب السلطنة كلمه كمال الدين فيما جاء بصدده فأعاد جواب الملك الناصر يوسف بأن ينجده ولا يقعد عن نصرته فعاد ابن العديم بهذا الجواب ثم أخذ الملك المظفر حينئذ فى جمع الجيوش واعداد معدّات الحرب وفرق فى جيوشه الاموال فكانت زهاء ستمائة ألف دينار جمعها مما فرضه على أهل البلاد مما سماه تصقيع الاملاك وزكاتها وما ناله من ثلث التركات مما قيمته ستة آلاف دينار فى سنة وخرج يريد قتال التتار ومعه الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه الملك الافضل علىّ فى أوائل رمضان من السنة فلما علم كتبغا وهو نائب هولاكو على الشام ومقدم التتار بسير العساكر الاسلامية اليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من بالشام من التتار وسار الى لقاء المسلمين وكان الملك السعيد صاحب الصبيبة بن الملك العزيز بن الملك العادل ابن أيوب صحبة كتبغا فتقارب الجمعان واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم التتار شر هزيمة وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب وكثر فيهم القتل وقتل كتبغا وأسر ابنه وتوقع من سلم من التتار الى رؤس الجبال وتبعهم المسلمون فاخذوهم وهرب من سلم منهم الى المشرق فجرد الملك المظفر قطز ركن الدين بيبرس البندقدارى فى أثرهم وهو من مقدمى الامراء المصرية وكبار العسكر وكان ممن صحب التتار أيضا فى هذه الوقعة الملك الاشرف موسى صاحب حمص فلما رأى ماحل بهم من الفشل والقتل فارقهم وتقدم الى الملك المظفر قطز فى طلب الامان فأمنه وأقره على ما بيده من البلاد وأما الملك السعيد صاحب الصبيبة فانه أمسك أسيرا وأحضر بين يدى الملك المظفر قطز فأمر به فضرب عنقه بين يديه ثم دخل الملك المظفر دمشق ظافرا منصورا ففرح به أهل دمشق فرحا لا يوصف فجعل ينظر فى الامور ويأمر وينهى ويصلح ما أفسده التتار ولبث على هذا الحال أياما فعظم شأنه واتسعت شهرته وطار صيته فحسده أصحابه وكرهوه وخافوا أن تطول مدته فاتفق منهم بيبرس البندقدارى الصالحى مع آخر اسمه آنصو مملوك نجم الدين الرومى الصالحى والهارونى وعلم الدين صوغان أوغلى على قتله وتحالفوا على ذلك فلما قام من دمشق وسار يريد الديار المصرية ساروا معه يرتقبون الفرص فلما وصلوا الى القصر بطريق الرملة وبينه وبين الصالحية مرحلة وقد سبق الدهليز والعسكر الى الصالحية قامت بين يدى قطز أرنب ففرح بها وساق عليها يريد قنصها فساق هؤلاء المذكورون معه فلما بعدوا تقدم اليه آنصو وأظهر أنه يريد أن يشفع عند الملك المظفر قطز فى انسان فأجابه الى ذلك فأهوى ليقبل يده وقبض عليها فحمل عليه بيبرس

البندقدارى حينئذ وضربه بالسيف واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه بالنشاب وكان ذلك فى سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة فكانت مدة ملكه أحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما وساق بيبرس وأولئك المذكورون معه بعد قتله حتى لحقوا بالدهليز بالصالحية فسألهم أقطاى فارس الدين نائب السلطنة عن الملك المظفر قطز فقالوا له قتلناه فقال من قتله منكم فقال له بيبرس أنا فقال له اقطاى ياخوند اجلس فى مرتبة السلطنة فجلس فاستدعيت العساكر والاجناد للتحليف له فحلفوا فى اليوم الذى قتل فيه قطز وهو سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة

واستقرت السلطنة لبيبرس وتلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ثم غير لقبه عن الملك القاهر وتلقب بالملك الظاهر لانه بلغه أن القاهر لقب غير مبارك ماتلقب به أحد فطالت مدته فلما حلف له الجند ورجال الدولة عين الطاعة سار بهم الملك الظاهر بيبرس المذكور من الصالحية يريد القاهرة ثم تركهم فى الطريق وسار فى جماعة من أصحابه فصعد الى قلعة الجبل ففتحت له فدخلها واستقرت قدمه فى المملكة وفرح الناس به وزينوا له مصر والقاهرة أياما فجعل يتصرف فى الامور ويقرر قاعدتها على ما يحب ثم لم يلبث أن سير علاء الدين البندقدارى أستاداره فى عسكر عظيم لقتال علم الدين سنجر الحلبى المستولى على دمشق من قبل الملك قطز فقاتله بظاهر دمشق فهرب الحلبى الى بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحمل الى مصر فاعتقل ثم أطلق واستقرت دمشق فى ملك الملك الظاهر بيبرس وأقيمت له الخطبة بها و بغيرها من الشامات مثل حماة وحلب وحمص وغيرها وأقام ايدكين البندقدارى الصالحى فى دمشق لتدبير الامور فعظمت شوكة الملك الظاهر وظهرت كلمته ودانت له الامور كما يشاء وهابه الملوك وتزلفوا اليه وسيروا اليه الهدايا الجليلة والتحف النفيسة حتى كان من أمره بعد ذلك ماسيذكر فى محله

(المقالة السادسة)

(فى كيفية ظهور الخلافة العباسية بالقاهرة بعد موت الخليفة المستعصم بالله)

(وفيها فصول)

لما كان الملك الظاهر بيبرس المذكور شديد الرغبة فى الغزو والفتوحات ومنازعة هولاكو ومن حذا حذوه من ملوك الخوارج وكان يخشى أنه اذا تقدم الى ذلك فشل أمره وتفرق الناس عنه وزالت سلطنته اذا لم تفرض له الامور بالفرض الشرعى وقد كانت الدنيا

الى

الى هـذا الحين بغير خليفة بعد موت الخليفة المستعصم على مامر بك بيانه عمد الى البحث عمن بقى من سلالة الخلفاء العباسيين وأظهر الاهتمام بامرهم وأجزل العطاء لجماعة من العربان ليأتوه بالخبر فلما كانت سنة تسع وخمسين وستمائة قدم الى القاهرة فى مستهل رجب جماعة من العربان ومعهـم رجـل أسود اسمه أحـد أبو القاسم زعموا أنه ابن الامام الظاهر بالله محمد ابن الامام الناصر العباسى قالوا وكان معتقلا ببغداد ثم أطلق وكان عدة أولئك العربان عشرة منهـم الامير ناصر الدين مهنا فلما عـلم الملك الظاهر بقدومهم أظهر الفـرح وخرج للقائهم ومعه القـاضى تاج الدين والوزير والعلماء والامراء والشهود والمؤذنون فتلقوه فدخل من باب النصر فى أبهة عظيمة وكبكبة زائدة وأنزلهم الملك الظاهر بيبرس مكانا رحبا وبالغ فى الحفاوة بهـم فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر رجب سـنة تسع وخمسين جلس الملك الظاهر بيبرس وأبو القاسم الاسود المذكور فى الديوان بقلعة الجبل وجلس القاضى والوزير والامراء على طبقاتهـم وأثبت أبو القاسم المذكور نسـبه لدى القـاضى تاج الدين بالوجـه الشرعى فلما ثبت ذلك وقف قاضى القضاة قائما وأشهـد على نفسه ثبوت النسب ثم قام عز الدين ابن عبد السلام شيخ الاسلام يومئذ فبايعه بالخلافة أولا ثم السلطان الملك الظاهر ثم القاضى تاج الدين ثم الامراء ورجال الدولة واحدا فواحدا وركب من يومـه فى دست الخلافة بمصر والامراء بـين يديه والنـاس حوله وشـق القاهرة ولقب المستنصر بالله بلقب أخيـه وطيروا الاخبار بذلك الى الآفاق فكان النـاس فى خلافتـه على طرفى نقيض ولكل فريق حجـة والله سبحانه أعلم بالحقـائق

أقول ولما لم يكن من رأينا الانتقال الى البحث فى كنه هذه الخلافة ولا فى كيفية صيرورتها الى أبى القاسم الاسود المذكور كى لا يستطرف بنا القلم الى الخوض فى مجال قد تسابق فيـه فحول الكتاب وكبار أهـل النقـد على غير جدوى لاختلاف الاقوال فيه وتعـدد المذاهب وتباين الاهواء وقد جاء فى حديث صاحب الشريعة الاسـلامية فى الامر بطاعة الخليفـة مالفظه * اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشى كان رأسه زبيبة * وكان الغرض من هـذا المؤلف انما هو ذكر الحوادث على ترتيب سـنى خلا فة كل خليفة ممن سـبق الى هذه الفترة التى بات فيها الاسـلام بغير خليفة قد التزمنا هذه الخطة بعينها فى تقييد حوادث وأنباء المدة من ظهور أبى القاسم هذا على ترتيب سـنى خلافته وخلافة من يأتى بعـده ممن يكون لله فى الارض خليفـة كما جاء به حديث صاحب الشريعة عسى أن لا يشكل الامر على القارئ ولا تفوته الفائدة من سرد الحوادث والاخبار متتابعـة كتتابع سنى الخلافـة واتصال أدوارها بعضها ببعض ۞ وكما كانت دار السـلام وغيرها مقرا للخلافـة العباسية والامامة الاسلامية الى هـذا الحين فقد أصبحت مدينـة القاهرة مقرا لها أيضا بظهور أبى القاسم هـذا والبيعـة له ولكن على آخر رمق من حياة الخلافة بعـد ذلك الحول والطول والقوة والسودد فسبحان من قسم الحظوظ

(الفصــــل الاول)

(فى خلافة المستنصر بالله احمد بن الخليفة الظاهر بالله)

وقام بالامر بعد قتل الخليفة المستعصم على ما مر بك بيانه فى حينه عمه أحمد بن الخليفة الظاهر بالله بن محمد بن الناصر العباسى * قال أصحاب التاريخ وهو أخو المستنصر بويع له بالخلافة بمدينة القاهرة فى يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة تسع وخمسين وستمائة أى سنة ستين ومائتين وألف ميلادية وذلك بعد قتل المستعصم بثلاث سنين ونصف سنة وأيام ولقب المستنصر بالله بلقب أخيه وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه وكتبت الكتب ببيعته الى الآفاق وأنزل بقلعة الجبل هو وخدمه وحشمه فلما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب ركب فى أبهة السواد وجاء الى الجامع بالقلعة فصعد المنبر وخطب خطبة ذكر فيها شرف بنى العباس ودعا للسلطان ثم نزل فصلى بالناس وفى يوم الاثنين رابع شعبان ركب أيضا وركب معه السلطان والقاضى والوزراء والامراء وأهل الحل والعقد الى خيمة عظيمة قد ضربت له بظاهر القاهرة فألبس السلطان بيده خلعة سوداء وعمامة سوداء وطوقا من ذهب فى عنقه وقيدا من ذهب فى رجله وفوّض اليه الأمور فى البلاد الاسلامية كافة وماسيفتحه من البلاد الأخرى ولقبه بقسيم أمير المؤمنين ثم صعد بعد ذلك فخر الدين بن لقمان رئيس الكتّاب منبرا فقرأ عليه تقليد السلطان وركب السلطان بهذه الابهة والقيد فى رجليه والطوق فى عنقه والوزير بين يديه ورجال الدولة مشاة سوى القاضى والوزير فشق من القاهرة وقد زينت له فكان يوما مشهودا ثم بعد قليل طلب الخليفة من السلطان أن يجهزه الى بغداد لقتال هولاكو واستخلاص دار السلام منه فأجابه الى ذلك ورتب له جندا وجيش له عسكرا وأقام له كل ما يحتاج اليه ودفع اليه ألف ألف دينار وسار السلطان بصحبته الى دمشق فدخلوها فى يوم الاثنين سابع ذى القعدة وصليا فيها الجمعة ثم سار الخليفة من دمشق بعسكره وركب الملك الظاهر وودعه وأوصاه بالتأنى فى الامور ثم عاد الى الديار المصرية فدخلها سابع عشر ذى الحجة فلم يلبث الا قليلا حتى وصلت اليه كتب الخليفة بمصر انه قد استولى على عانة والحديثة وولى عليهما وأن كتب أهل العراق وصلت اليه يستحثونه على الوصول اليهم ففرح الملك الظاهر بذلك وترامت آماله الى المرمى البعيد * وبينما كان الخليفة يجدّ السير بعسكره الى بغداد اذ وصل اليه التتار فى جمع كثير وأحاطوا بعسكره واقتتلوا قتالا يسيرا فظفر التتار بعسكر الخليفة وقتلوا الخليفة وجماعة كثيرة من أصحابه ونهبوا ما كان معه من الاسلحة والكراع وشدّدوا على من بقى من العسكر فتفرقوا أيدى سبأ ووصلت

الاخبار الى السلطان الملك الظاهر بما وقع فشق عليه الامر واستعظمه * قال أصحاب التاريخ وقد كان يودّ نصرته وفتحه للبلاد رجاء أن تكبر دولة الملك الظاهر على يديه فلم يوفق الى ذلك وقتل الخليفة فى ثالث المحرم سنة ستين وستمائة فكانت خلافته دون الستة أشهر

وكان ممن شهد الوقعة مع الخليفة وهرب مع من نجا أبو العباس أحمد بن الامير أبى علىّ الحسن القبى بن الامير علىّ بن الامير أبى بكر بن أمير المؤمنين المسترشد بالله فقصد الرحبة وجاء الى عيسى بن مهنا فكاتب فيه الملك الظاهر فطلبه فقدم الى القاهرة ومعه ولده وجماعة فدخلها فى سابع عشر ربيع الآخر فتلقاه السلطان وأظهر السرور به وأنزله بقلعة الجبل وأغدق عليه واستمر بقية العام بلا مبايعة والسكة تضرب باسم المستنصر المقتول فلما كان المحرم افتتاح سنة احدى وستين تمت له البيعة وتقلد الخلافة بعد ثبوت نسبه على ماسيذكر

(الفصل الثانى)

(فى خلافة الحاكم بامر الله بن المستظهر بالله العباسى)

ثم تولى الخلافة أبو العباس أحمد ابن الامير أبى بكر علىّ بن أبى بكر بن المسترشد بالله بن المستظهر بالله العباسى بويع له بالخلافة فى يوم الخميس ثامن المحرم افتتاح سنة احدى وستين وستمائة هجرية أى سنة اثنتين وستين ومائتين وألف ميلادية وذلك انه لما كان يوم الخميس المذكور جلس السلطان الملك الظاهر بيبرس مجلسا عاما وجاء أبو العباس المذكور راكبا الى الايوان الكبير وجلس مع السلطان بعد ثبوت نسبه فقرئ نسبه على الناس ثم أقبل عليه السلطان وبايعه بامرة المؤمنين ثم أقبل هو على السلطان فقلده الأمور ثم بايعه الناس على طبقاتهم ولقب الحاكم بأمر الله فلما كان من الغد يوم الجمعة خطب الخليفة بالناس فقال فى خطبته الحمد لله الذى أقام لآل العباس ركنا وظهيرا * وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا * أحمده على السراء والضراء * وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء * وأستنصره على الاعداء * وأشهد أن لااله الا الله وحده لا شريك له * وأن محمدا عبده ورسوله * صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء * وأئمة الاقتداء * الاربعة الخلفاء * وعلى العباس عمه * وكاشف غمه * وعلى السادة الخلفاء الراشدين * والائمة المهديين * وعلى بقية الصحابة والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين * أيها الناس اعلموا أن الامامة فرض من فروض الاسلام * والجهاد محتوم على

جميع الانام * ولا يقوم علم الجهاد * الا باجتماع كلمة العباد * ولا سبيت الحرم الا بانتهاك المحارم * ولا سفكت الدماء الا بارتكاب المآثم * فلو شاهدتم أهل الاسلام * حين دخلوا دار السلام * واستباحوا الدماء والاموال * وقتلوا الرجال والاطفال * وهتكوا حرم الخلافة والحريم * وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم * فارتفعت الاصوات بالبكاء والعويل * وعلت الضجات من هول ذلك اليوم الطويل * فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه * وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه * فشمروا عن ساق الاجتهاد * فى احياء فرض الجهاد * فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لانفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * فلم تبق معذرة فى القعود عن أعداء الدين * والمحاماة عن المسلمين * وهذا السلطان الملك الظاهر السيد الاجل العالم العادل المجاهد المؤيد ركن الدنيا والدين قد قام بنصر الامامة عند قلة الانصار * وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار * فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود * والدولة العباسية متكاثرة الجنود * فبادروا عباد الله الى شكر هذه النعمة وأخلصوا نياتكم تنصروا * وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا * ولا يرد عنكم ما جرى فالحرب سجال والعاقبة للمتقين * والدهر يومان والآخرة للمؤمنين * جمع الله على التقوى أمركم * وأعز بالايمان نصركم * وأستغفر الله العظيم لى ولكم ولسائر المسلمين فاستغفروه انه هو الغفور الرحيم * ثم خطب الثانية ونزل فصلى بالناس وكتب ببيعته الى الآفاق ليخطب له وتكتب السكة باسمه ﴿ قال أبو شامة فخطب له بجامع دمشق وسائر الجوامع يوم الجمعة سادس عشر المحرم من هذه السنة * وقال ابن فضل الله ونقش اسمه على السكة وضرب بها الدينار والدرهم قال ثم خاف الظاهر عاقبة أمره فأسكنه عنده بقلعة الجبل وعنده حريمه وخدمه وغلمانه موسعا عليه فى النفقات والكساوى يتردد عليه العلماء والقراء على أكمل ما يكون من أنواع الاكرام وملازمته جانب الاجلال والمهابة ممنوعا من اجتماع أحد من أهل الدولة ثم أسقط اسمه من سكة النقود وأبقاه على المنابر فقط

وجعل الظاهر بيبرس منذ مبايعة هذا الخليفة الحاكم بأمر الله يتأهب لغزو التتار والاخذ بالثار فبنى دار العدل القديمة تحت سور قلعة الجبل وصار يجلس بها لعرض العساكر فى كل اثنين وخميس وما زال حتى جيش جيشا ضخما وسار به فى سنة ست وستين الى الشام وقاتل من يافا حتى ملكها واستولى على الشقيف وانطاكية وبغراس وطبرية والقرين وارصوف وصافيتا وايباس ومرقية وعرج على دار السلام فحاصرها وضيق فى حصارها وما زال بها حتى دخلها وأباحها أياما ثم رتب أمورها وأحكم نظامها ثم سار منها وصحبته ولده الامير بركة خان الى مصر يريد الحج فمر بمدينة حلب وكانت فى أيدى التتار فقاتلهم وأجلاهم عنها ثم عرج الى بيت المقدس وعاد قافلا الى مصر ولبث بها الى ميعاد خروج ركب الحاج فخرج من القاهرة فى كبكبة عظيمة وسار برا الى السويس يريد

مكة وخرج معه جماعة كثيرة وقد كانت الطريق من مصر الى مكة الى ذلك الحين من صحراء عيذاب فكان الحجاج يركبون السفن بالنيل من ساحل الفسطاط الى مدينة قوص بالصعيد الاعلى ثم يركبون الابل منها فيقطعون صحراء عيذاب الى ساحل البحر الاحمر ويركبون السفن بالبحر الاحمر الى جدة التى هى ميناء مكة وكذلك كانت تأتى على هذه الطريق جميع قوافل التجار من الحبشة والهند واليمن وجميع جزيرة العرب فكانت لذلك الصحراء المذكورة آهلة عامرة آمنة فلما سار الظاهر بيبرس الى مكة برا تبعه الناس فى ذلك واقتدوا به وتحولوا عن طريق صحراء عيذاب وكذلك تحولت قوافل التجار بعد سنة ستين وسبعمائة هجرية فزالت بهجة مدينة قوص وقلت أهميتها وتقهقرت تقهقرا سريعا حتى أصبحت بالحالة التى هى عليها الآن أوأهم بقليل * ولما رجع من الحج اهتم بأمور الرعية وبالغ فى ترتيب أحوال المملكة وعمل على تأمين السبل وقطع شأفة أهل الفساد * وبينما هو على هذا الحال اذ جاءته الاخبار تترى بزحف طوائف التتار الى أرض الشام ومحاصرتهم بيرة فجيش عسكرا عظيما وسار بهم الى قتال التتار وصحبته الأمير قلاوون الالفى فالتقى الجمعان عند بيرة واقتتلوا قتالا عنيفا فانتصر المسلمون على التتار نصرة مؤزرة واستولوا على بيرة وساروا منها الى أرمينية ففتحوها عنوة وأباحها بيبرس أياما فغنموا وسبوا وقتلوا وأراقوا فيها الدماء الكثيرة ولبث بها حتى رتب أمورها وقرر أحوالها وسار عنها يريد القاهرة فلما صار على قيد فرسخ منها خرج الاهراء والكبراء والعلماء والفقهاء وعامة الناس للقائه وضربت البشائر لقدومه فدخل من باب النصر وقد فرشوا له الطريق بالبسط والطنافس الفاخرة اجلالا وتعظيما فشق من وسط المدينة وصعد الى قلعة الجبل ثم أولم وأعطى الناس وكان قد ترك الامير قلاوون بالشام فلم يمض الا القليل على وصوله حتى جاءه الخبر بزحف بغا خان بن هولاكو ملك التتار على أرض الشام وحصره بيرة ثانية فأنفذ الى الامير قلاوون بقتالهم واجلائهم عن البلاد فسار اليهم الامير قلاوون فى قلة من العساكر المصرية وضربهم ضربة أرجعتهم على أعقابهم فسر الملك الظاهر بذلك سرورا عظيما ومال الى الأمير قلاوون وأحبه واعتمد فى كثير من الامور عليه

وتاقت نفس الملك الظاهر بيبرس الى فتح بلاد النوبة والصعيد الاعلى فأنفذ فى سنة أربع وسبعين الامير آق سنقر فى جيش عظيم فسار من ساحل الفسطاط الى اسوان فقاتلها وما زال بها حتى استولى عليها وترفع الى الصعيد الاعلى يغزو ويفتح ويحرق ويخرب ويسفك الدماء حتى ملك جميع مصر العليا وأخضعها لحكم الملك الظاهر وقرر أمورها على ماشاء وقفل راجعا مثقلا بالغنائم من الذهب والفضة وسن الفيل والريش والعبيد والاماء والخصيان والخيل والدواب ووحوش البر ففرح الملك الظاهر بقدومه وسر باتساع ملكه وطمع فى فتح برقة واخضاعها لحكمه فسار لقتال من بها وعاد ظافرا منصورا فلما كانت سنة خمس وسبعين عاد بغا خان بن هولاكو الى الزحف على أرض الشام ليأخذها من عامل

الظاهر فأهم الظاهر ذلك واستعظمه وجيش جيشا عظيما وخرج به من القاهرة فى يوم الخميس لعشرين مضت من رمضان من السنة وسار يريد قطع شأفة التتار ومحو أثرهم فوصل الى حلب ومنها الى النهر الازرق ثم الى ابلستين فوصل اليها فى ذى القعدة فسير بغا للقائه عسكرا عظيما ومقدمهم كبير اسمه تناون وهو من كبار المقدمين فالتقى الفريقان فى أرض ابلستين يوم الجمعة عاشر ذى القعدة واقتتلوا فانهزم التتار وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم تناون وغلب كبراءهم وأسر منهم جماعة كثيرة وكان ممن أسر فى هذه الموقعة سيف الدين قبجق وسيف الدين أرسلان فلما تم الظفر للملك الظاهر بيبرس سار الى قيسارية واستولى عليها وكان الحاكم بالروم يومئذ معين الدولة سليمان البرواناه فكان يكاتب الملك الظاهر فى الباطن والملك الظاهر يظن انه ان وصل قيسارية يصل اليه البرواناه على ما كان قد اتفق معه فى الباطن فلم يحضر اليه وأقام الملك الظاهر على قيسارية سبعة أيام فى انتظاره وخطب له على منابرها ثم رحل عن قيسارية وقد نفدت منه الاقوات فحصل للعسكر شدّة بالغة جدا وفنى العلف فماتت دواب الجمل والخيل ووصلوا الى عمق حارم وهم فى أسوء حال فلبثوا بها شهرا فلما بلغ بغا بن هولا كو ما حل بقومه التتار ساق فى جمع المغل حتى جاء الابلستين وشاهد عسكره صرعى جيفا واشلالا ولم يشاهد أحدا من عسكر الروم مقتولا فالتهب قلبه بنار الغيظ وأمر بنهب الروم وقتل من مر به من المسلمين ونهب وخرب وفعل مالا خير فيه ثم سار الى الاردن وصحبته معين الدين البرواناه فلما استقر بالاردن أمر بالبرواناه فقتل وقتل معه نيفا وثلاثين نفسا من مماليكه وخواصه

أما الملك الظاهر بيبرس فانه بعد أن أقام بعمق حارم شهرا يصلح حال عسكره رحل عنها فى أواخر سنة خمس وسبعين ونزل بالقصر الابلق ثم سار منها لغزو الروم وعاد فلما كان المحرم افتتاح سنة ست وسبعين وستمائة مرض مرضا شديدا ومات فى يوم الخميس السابع والعشرين منه وكانت وفاته وقت الزوال وقد اختلف فى سبب موته * قال بعض كتاب الاخبار انكسف القمر كسوفا كليا وشاع بين الناس أن ذلك سبب موت رجل جليل القدر فاراد الملك الظاهر أن يصرف التأويل الى غيره فاستدعى بشخص من أولاد الملوك الايوبية يقال له الملك القاهر من ولد الملك الناصر داود ابن المعظم عيسى وأحضر خمرا مسموما وأمر الساقى فسقى الملك القاهر ثم شرب الملك الظاهر ناسيا بذلك الكاس التى شرب منها القاهر على أثر شربه فمات القاهر عقب ذلك وحصلت للملك الظاهر حمى محرقة ومات بها فى التاريخ المذكور وقال آخرون غير ذلك فكتم نائبه ومملوكه بدر الدين بيلبك المعروف بالخزندار خبر موته وحنطه وكفنه وتركه فى قلعة دمشق الى أن تمت تربته بدمشق بقرب الجامع فدفن بها وهى مشهورة معروفة وارتحل بعد ذلك بيلبك بالعساكر ومعهم المحفة مظهرا ان الملك الظاهر فيها وانه مريض وسار الى مصر وكان الملك الظاهر قد حلف العساكر لولده بركة خان ولقبه الملك السعيد وجعله ولى عهده فوصل بيلبك الخزندار بالخزائن والعسكر الى الملك

السعيد

السعيد بركة وهو بقلعة الجبل وأصبحوا وقد أظهروا موت الملك الظاهر وجلس ابنه الملك السعيد للعزاء ثم جددوا له البيعة واستقرت له السلطنة فكانت مدة ملك الملك الظاهر بيبرس سبع عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام على التحقيق لانه ملك فى سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة ومات فى السابع والعشرين من المحرم افتتاح سنة ست وسبعين وستمائة وكان ملكا شجاعا عاقلا مهيبا ملك مصر والشام واستولى على النوبة وفتح الفتوحات الجليلة فكان مافتحه مما بأيدى الصليبيين يافا وطبرية وصفد والشقيف وارسوف وقيسارية وانطاكية وحصن الاكراد والقصير وبغراس وحصن عكا والقرين ومرقية وصافيتا وحلب قال أصحاب التاريخ وناصفهم فى طرسوس وأدنة والمرقب والمصيصة وبانياس وغيرها وغلك مما كان بيد المسلمين على عجلون و بعلبك ودمشق وحمص وصرخد والصلت وتل ناشر والرحبة وتدمر والرصافة والخوانى والقدموس والعليقة وقلعة الكهف وصهيون وبلاطيس والرصافة ومصياف والقليعة والشوبك والكرك

وعمر الحرم النبوى وقبة الصخرة ببيت المقدس وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الاسكندرية وردم فم بحر دمياط ووعر طريقه وبنى منارة رشيد وأنشأ الشوانى وعمر عدة قلاع بالديار الشامية والاناضول وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة والجامع الكبير خارج باب الحسينية وحفر خليج الاسكندرية القديم وبنى فى طريقه قرية سماها الظاهرية وحفر بحر أشمون طناح وجدد الجامع الازهر بالقاهرة وأعاد اليه الخطبة بعد انقطاعها حينا من الدهر وأنشأ قناطر السباع * وأصله مملوك قبجاقى الجنس وكان أسمر أزرق العينين جهورى الصوت حضر هو ومملوك آخر مع تاجر الى حماة فاستحضرهما الملك المنصور محمد ليشتريهما فلم يعجبه واحد منهما وكان ايدكين البندقدار الصالحى مملوك الملك الصالح أيوب صاحب مصر قد غضب عليه الملك الصالح وكان قد توجه ايدكين الى ناحية حماة فأرسل الملك الصالح المذكور وقبض على ايدكين واعتقله بقلعة حماة فتركه الملك المنصور صاحب حماه فى جامع قلعة حماة واتفق ذلك عند حضور الملك الظاهر بيبرس مع التاجر فلما قلبه الملك المنصور ولم يشتره أرسل ايدكين البندقدار وهو معتقل فاشتراه وبقى عنده ثم أفرج الملك الصالح عن البندقدار فسار من حماة وصحبته الملك الظاهر وبقى مع أستاذه البندقدار مدة ثم أخذه الملك الصالح من البندقدار فانتسب الى الملك الصالح دون البند قدار وكان يخطب له وينقش على الدراهم والدنانير بيبرس الصالحى فسبحان المعطى بغير حساب

واستقر الملك للسلطان الملك السعيد بركة بن الملك الظاهر بيبرس فى مصر والشام فى أوائل ربيع الاول من السنة أى سنة ست وسبعين واستقر بدر الدين بيلبك الخزندار فى نيابة السلطنة على ما كان عليه مع أبيه الملك الظاهر واستمرت الأمور على أحسن حال وأتم نظام فلم تطل أيام بيلبك الخزندار بعد ذلك ومات على مايقال حتف أنفه وقيل انه مات مسموما والله سبحانه وتعالى أعلم بالحقائق فتولى نيابة السلطنة بعده شمس الدين العزبانى قال أصحاب التاريخ

ولكنه لم يتمكن من التغلب على الملك السعيد فخبط لذلك الملك السعيد وخلط وقدم الاصاغر على الاكابر وأبعد عنه أكثر الامراء وقبض على سنقر الاشقر والبيسرى وبقى الامر كذلك حتى خرجت هذه السنة ودخلت سنة سبع وسبعين وستمائة فتجهز السلطان الملك السعيد يريد الديار الشامية ثم خرج فى عسكر عظيم ووصل الى دمشق ثم جرد منها عسكرا مع الامير سيف الدين قلاوون الصالحى وجرّد أيضا صاحب حماة فساروا جميعا ودخلوا الى بلاطيس وشنوا الغارة عليها وغنموا ثم عادوا الى جهة دمشق واتفقوا على أن يشقوا عصى الطاعة على الملك السعيد بركة ويخلعوه من السلطنة لسوء تدبيره وبغضهم لافعاله ومروا بدمشق ولم يدخلوها فأرسل اليهم الملك السعيد واستعطفهم وأدخل عليهم والدته فلم يلتفتوا الى ذلك وداوموا السير فركب الملك السعيد وساق وسبقهم الى مصر وصعد الى قلعة الجبل وسار العسكر فى أثره * فلما كانت سنة ثمان وسبعين وصل العساكر الى مصر فى أثر الملك السعيد وذلك فى ربيع الاول وحصروه بقلعة الجبل فخامر عليه أكثر من كان معه من الامراء فصاروا يهربون واحدا بعد واحد من القلعة وينضمون الى العسكر المحارب فلما رأى الملك السعيد منهم ذلك أجاب الى الانخلاع من السلطنة وأن يعطى الكرك فأجابوه الى ذلك وأنزلوه من القلعة وخلعوه فى ربيع الاول من السنة أى سنة ثمان وسبعين وسيروه فى الحال الى الكرك صحبة بيدغان الركنى وجماعة معه فوصل اليها وتسلمها بما فيها من الاموال والخزائن وكان شيأ كثيرا قال كاتب الاخبار وبعد أن جرى ذلك وتم على ما أراده الامراء اجتمعوا وهم بدر الدين البيسرى الشمسى وايتمش السعدى وبكتاش الفخرى أمير سلاح وغيرهم على اقامة بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس فى السلطنة ولقبوه بالملك العادل وذلك فى شهر ربيع الاول المذكور وعمره يومئذ سبع سنين وشهور ثم خطب له وضربت السكة باسمه وصار الامير سيف الدين قلاوون الصالحى أتابك العسكر فلما استقر الحال على ماذكر أرسل الامير سيف الدين قلاوون الامير شمس الدين سنقر الى دمشق وجعله نائب السلطنة بالشام وكان العسكر لما خالفوا الملك السعيد بركة على ماتقدم بيانه قبضوا على عزالدين ايدمر نائب السلطنة بدمشق وسجنوه وتولى تدبير دمشق بعده أقوش الشمسى نائب السلطنة بحلب فسار الامير شمس الدين وتولاها واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة

ولم تكن مدة الملك العادل سلامش المذكور لتطول سوى بضع أشهر وقام الامير سيف الدين قلاوون أتابك العسكر وخلعه من السلطنة وجلس هو على تخت الملك يوم الاحد الثانى والعشرين من رجب سنة ثمان وسبعين ولقب نفسه بالملك المنصور فلما استقرت به السلطنة وثبتت قدماه فيها قام سنقر الاشقر متولى دمشق وخرج عن طاعته وادعى السلطنة واستحلف العساكر والاجناد فحلفوا له وتلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر وكان ذلك لاربع وعشرين خلت من ذى القعدة وجاءت الاخبار بذلك الى الملك المنصور قلاوون فأهمه الامر جدا وجهز عسكرا عظيما للغاية مع علم الدين سنجر الحلبى وهو من

مقدمى العساكر المصرية وكذلك بدر الدين بكتاش وبدر الدين الايدمرى وعز الدين الافرم فساروا جميعا الى الشام وبرز سنقر بجيوش الشام الى ظاهر دمشق والتقى الفريقان فى تاسع عشر صفر واشتبك القتال فلم يكن بأسرع من أن ولى الشاميون وسنقر منهزمين فلعبت فيهم سيوف المصريين ونهبت أثقالهم وكان السلطان الملك المنصور قلاوون قد جعل مملوكه حسام الدين لاجين السلحدار نائبا بقلعة دمشق فاعتقله سنقر بها فلما انهزم سنقر أفرج عن حسام الدين وعن آخرين لم يحالفوا مع سنقر ولم يحلفوا له وكتب الحلبى الى السلطان الملك المنصور بالنصر فرسم بتعيين الامير لاجين المنصورى نائبا للسلطان بالشام أما سنقر الاشقر فانه هرب الى الرحبة وكاتب أبيغا بن هولاكو ملك التتار وأطمعه فى البلاد وكان عيسى بن مهنا أمير العربان مع من حلف لسنقر وقاتل معه وكتب بذلك الى أبيغا أيضا موافقة له ثم سار سنقر من الرحبة الى صهيون فى جمادى الاولى واستولى عليها وعلى برزية وبلاطس والثغر وغيرها بعد حروب كثيرة * وطمع أبيغا بن هولاكو ملك التتار فى ملك الشام فسير جيشين عظيمين أحدهما مقدمه اباكه خان والثانى مقدمه منجو تيمور بن هولاكو عدته ثمانون ألف فارس فالتقوا بالمصريين واقتتلوا قتالا عنيفا فصبر المصريون وقاتلوا قتال الاسود حتى فازوا بالتتار وانتصروا عليهم نصرة مؤزرة وقتل منجو تيمور تحت سنابك الخيل وفر أباكه خان الى همدان فقبض عليه أخوه نبكو دارا وغلان وسقاه السم فمات لحينه وتولى نبكودارا المذكور الملك بعده وراسل الملك المنصور قلاوون فى أمر الصلح أو الهدنة وأظهر الاسلام وسمى نفسه أحمد خان فتقررت قاعدة الصلح بين الفريقين وتعهد أحمد خان بالطاعة والولاء فعاد الملك المنصور ظافرا مؤيدا ولبث الحال فى سكون والأمور على ما يرام حتى قامت الفتنة فى جوف البلاد وخرج على الملك المنصور كبار الامراء والمماليك ونبذوا طاعته وعملوا على خلعه فتأهب لاذلالهم وتجرد لقطع شأفتهم وأعمل فيهم السيف ثلاثة أيام كاملة ولم يرحم صغيرا لصغره ولا شيخا لشيخوخته واشتد القتل حتى امتلأت الاسواق بجثثهم بين رجال ونساء وأولاد فاشتد الهول على الناس وعظم الخطب وارتفعت أصوات النساء بالبكاء واستغاثوا فاجتمع العلماء ودخلوا على السلطان وشكوا اليه ما يلاقيه الناس من هول هذا الامر وتلطفوا فى القول وبالغوا فى الاستشفاع فأجابهم الى ما يسألون وأمر فنادوا بالكف عن القتل وحقن الدماء الا أنه ضيق على من بقى منهم وأبطل كثيرا من عاداتهم بعد أن كانوا يلبسون الالبسة المطرزة بطراز الذهب والفضة ويضعون العمائم من الحرير والوشى ويرخون ضفائر الشعر على ظهورهم مغطاة بالحرير وغير ذلك من أنواع الزينة والترفه فزالت بعد ذلك هيبتهم وانكسرت شوكتهم وأمن الناس من شرهم وزال عنهم بأسهم

ولما كانت سنة أربع وثمانين وستمائة هجرية تحرك الامير سلامش متولى الكرك يريد الاستقلال والخروج عن تابعية السلطان الملك المنصور قلاوون فاستعظم الملك المنصور هذا

الامر وسار من مصر فى جيش عظيم الى الكرك فلاقاه سلامش فى جمع عظيم واقتتلوا فدارت عليه وعلى جيشه الدائرة وسقط سلامش فى قبضة الملك المنصور فأحضره الى القاهرة مكبلا بالحديد وسجنه فلبث مسجونا الى ما بعد وفاة الملك المنصور * ورسم بعد ذلك الملك المنصور لولده الملك الصالح علاء الدين بولاية العهد بعده وسلطنته وأركبه بشعار السلطنة وشق فى وسط المدينة بابهة وكبكبة عظيمة ولكنه لم يلبث أن أدركته المنية وهو فى شرخ الشباب وزهوة العمر أصابته حمى خبيثة فمات فى سنة سبع وثمانين وستمائة فحزن عليه السلطان الملك المنصور حزنا عظيما و بكاه بكاء مرا وجلس للعزاء أياما كثيرة وفرق الصدقات الكثيرة وخرج من مصر فى جيش فرارا مما يلاقيه من ألم الحزن على فقد ولده فسار يريد فتح طرابلس وقد كانت الى ذلك الحين فى أيدى الصليبيين لا ينازعهم عليها منازع من نحو المائة وثمانين سنة * فلما وصل اليها حاصرها وضيق عليها وشدد ووالى الرمى عليها ليلا ونهارا حتى ظفر بها وفتحها فاباحها أياما كثيرة وهدم أسوارها وخرب بناءها حتى أوشكت أن تصبح أثرا بعد عين ثم أمر فرمموا مابقى منها وأعادوا اليها بعض رونقها وولى عليها أميرا من المصريين ورتب له جماعة من العساكر يقومون بحراسة أبراجها ويدفعون عنها عند الحاجة * قال أهل التاريخ ولم يجسر أحد الى هذا الحين ممن سبقه من الملوك مثل صلاح الدين أيوب وغيره على التعرض الى طرابلس لحصانتها وكثرة عساكرها ثم سار لغزو عكا ففتحها أيضا ونزل الى مسجد التبرز ومعه العساكر والاجناد المتوافرة فلما أقام به أياما ابتدأ مرضه وكان فى العشر الاواخر من شوال وهو بالدهليز بالمكان المذكور وأخذ مرضه يتزايد حتى مات يوم السبت سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة وكان جلوسه على تخت الملك فى اليوم الثانى والعشرين من رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة فكانت مدة ملكه نحوا من احدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وأياما وترك ولدين هما الملك الاشرف صلاح الدين خليل والسلطان الاعظم الملك الناصر محمد * وكان ملكا مهيبا حليما جليل القدر كثير العفو شجاعا غير سفاك للدماء محبا للرعية ميالا الى فعل الخير كثير الاحسان وافر الحرمة فلما مات اجتمع الامراء من الخاصكية وغيرهم وتكلموا فيمن يتولى السلطنة بعده فاتفقت كلمتهم على تولية ولده الملك الاشرف صلاح الدين خليل

فلما كان اليوم الثانى من موت الملك المنصور أجلسوا الاشرف صلاح الدين خليل المذكور على تخت السلطنة وبايعوه البيعة العامة بعد أن بايعه الخليفة الحاكم بأمر الله ابن المستظهر بالله فى السابع من ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة ولم تستقر به السلطنة حتى قبض على حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة يومئذ قبض عليه فى يوم الجمعة ثانى عشر ذى القعدة وقتله وفوض نيابة السلطنة الى بدر الدين بيدر وقلد الوزارة الى شمس الدين محمد بن السلعوس * ولما رتب أمور الدولة على ما شاء سار الى ارمينيا وحاصر أرودوم وضيق عليها وشدد فى الحصار حتى فتحها وأقام بها أياما فذاع صيته وكبرت

هيبته وهابه الملوك المجاورون للملك وتزلفوا اليه وعاد الى القاهرة وأقام بها أياما ثم خرج
منها على الهجن يريد الكرك وسارت عساكره على الطريق الى دمشق وسار السلطان
ودخل دمشق ثم سار منها الى البرية متصيدا ووصل الى العزقلس وهو جفار فى طرف بلاد
حمص من الشرق ونزل عليه وأرسل الى مهنا بن عيسى أمير العرب وأخويه محمد وفضل
وولده موسى بن مهنا وكان قد أضمر لهم السوء لامر نقمه على عيسى المذكور فحضروا اليه
فى قلة من قومهم وهم لايعلمون بسوء نيته فقبض عليهم فى الحال وسيرهم الى مصر
فحبسوا فى قلعة الجبل وعاد السلطان خلفهم فوصلها فى رجب من السنة وجعل
يتصرف فى الامور فظهرت عليه علامات الخيلاء وتبدلت أحواله وتغيرت طباعه
وأساء معاملة رجال الدولة وكافة الناس وتخوف لاقل سبب فانحرفت الخواطر عنه
وأبغضه الامراء وتمنوا هلاكه * وكانت طائفة الكتاب من القبط الى سلطنته فى صدر
الدولة ولهم الكلمة النافذة والرأى المسموع وقد أحبهم الامراء الخاصكية كثيرا ومالوا
اليهم جدا وكان منهم كاتب عند خاصكى يعرف بعين الغزال فوجد يوما فى طريقه بمصر
سمسارا بشونة مخدومه فلما رآه السمسار نزل عن دابته وسلم عليه فسأله الكاتب عن مال
تأخر عليه من ثمن غلة الامير وأمر غلامه فنزل وأمسك السمسار وسار به نحو دار الامير
فصاح السمسار فتجمع الناس وكثرت العامة وعلت بينهم الضوضاء حتى صار الى صليبة
جامع ابن طولون والناس يكثرون وكان قد قرب الكاتب من بيت أستاذه فأحاط العامة
بالكاتب وألقوه عن دابته وخلصوا السمسار من غلامه فسبق الغلام الى بيت الامير ليستنجده
فجاءت طائفة من غلمان الامير فخلصوا الكاتب من العامة وشرعوا فى القبض عليهم فصاحوا
هذا مايحل ومروا مسرعين الى أن وقفوا تحت قلعة الجبل وصاحوا نصر الله السلطان
وأكثروا من الضجيج والصياح فأرسل من يكشف الخبر فعرفوه ما كان من أمر
الكاتب والسمسار وما وقع منهما فغضب السلطان وطلب الكاتب ورسم للعامة باحضار
النصارى اليه وطلب الامير بدر الدين بيدر النائب والامير سنجر الشجاعى ورسم لهما
باحضار جميع النصارى بين يديه ليقتلهم فما زالا به حتى استقر الحال على أن ينادى فى
القاهرة ومصر بأن لايخدم أحد من النصارى أو اليهود عند أمير وأمر الامراء كافة
بأن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الاسلام فمن امتنع ضربت عنقه
ومن أسلم استخدموه عندهم ورسم للنائب بان يعرض على جميع مباشرى الديوان السلطانى
ويفعل بهم كذلك فنزل الطلب لهم فصارت العامة والحرافيش تسبق الى بيوتهم وتنهبها حتى
عم النهب بيوت جميع النصارى واليهود وأخرجوا نساءهم سبايا وقتلوا جماعة منهم بأيديهم
فقام الامير بيدر مع السلطان لرد العامة وركب والى القاهرة ونادى من نهب بيت نصرانى
حل دمه وقبض على طائفة من العامة وشهرهم بعد ماضربهم فانكفوا عن النهب بعد
مانهبوا كنيسة المعلقة بمصر وقتلوا جماعة بها * ثم جمع النائب جماعة من كتاب السلطان

والامراء وأوقفهم بين يدى السلطان فرسم للشجاعى والامير جاندار أن يأخذا عدة معهما وينزلوا الى سوق الخيل تحت قلعة الجبل ويحفروا حفرا كبيرة ويلقوا فيها الكتاب الحاضرين ويضرموا عليهم الحطب نارا فتقدم الامير بيدر وشفع فأبى أن يقبل شفاعته وقال ما أريد فى دولتى ديوانيا نصرانيا فلم يزل به حتى سمح بأن من أسلم منهم يستقر فى خدمته ومن امتنع ضربت عنقه فأخرجهم الى دار النيابة وقال لهم بالجماعة هذا ماوصلت قدرتى اليه مع السلطان فى أمركم وقد قبل شفاعتى على شرط وهو أن من اختار منكم دينه قتل ومن اختار الاسلام خلع عليه و باشر أمر خدمته فابتدره المكين بن السقاعى أحد المستوفين وقال ياخوند وأى شئ تختارونه منا الآن قولوا لنا ماتختارونه ونحن نتبع قولكم فغلب الامير بيدرا الضحك وقال ويحك يامكين أنختار غير دين الاسلام ثم أمر فأحضروا العدول واستسلمهم جميعا وكتب بذلك شهادات عليهم ودخل بها على السلطان ثم خرجوا الى مجلس الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس فبدأ بعض الحاضرين بالمكين بن الصقاعى وناوله ورقة ليكتب عليها وقال يامولانا القاضى اكتب على هذه الورقة فأجابه على الفور * يابنى والله ماكان لنا هذا القضاء فى خلد * فأعجب القوم بفصاحته وسرعة خاطره فى هذا الوقت الضيق وتوجعوا لحالهم جدا وراجع الامراء السلطان فى أمرهم وألحوا عليه فأجابهم الى مايطلبون فكانت حالة من أشد الاحوال وأنكاها مات فيها من الاطفال والشيوخ والرجال عدد كثير وبلغت فعال العامة بأصحاب البيوتات من النساء مبلغا عظيما للغاية فكن يخرجن حاسرات مكشوفات الوجوه هائمات فى الطرق والحارات لايعرفن للسلامة سبيلا وكان الامير بيدرا يرق لحالهن ويتوجع لمصابهن فأخجل ذلك السلطان وندم على ما بدا منه وتوجع كثيرا وقد كثر خلطه وخبطه وأخذه للناس بالشبهات وتخوفه من مماليكه وأمراء دولته حتى من أقرب الناس اليه وأخصهم به فشدد وهدد وبالغ فى التحرز فكرهه مماليكه وتفرقوا عنه وجعل الامير بيدرا يراقب الفرص للايقاع به والتخلص من شره فلما كان أول المحرم افتتاح سنة ثلاث وتسعين وستمائة خرج من قلعة الجبل يريد الصيد وسار فى طائفة من الجند الى أن وصل تروجة بالجيزة ونصب دهليزه وركب فى نفر قليل من خواصه وخرج للصيد فقصده مماليك والده وهم بيدرا نائب السلطنة ولاچين الذى كان متوليا نيابة السلطنة بالشام وكان قد اعتقله السلطان مرة بعد أخرى وقرا سنقر الذى كان خلعه عن نيابة السلطنة بحلب وبهادر رأس النوبة وجماعة من الامراء فلما قاربوا السلطان خاف منهم وأرسل اليهم أميرا يقال له كرت أميراخور ليكشف خبرهم وسبب مجيئهم فى هذا الحين فلما وصل اليهم أمسكوه على الفور وقاربوا السلطان وكان بينهم وبينه خور فخاضوه ووصلوا اليه وتقدم بيدرا نحوه وعاجله بضربة بسيفه ثم فعل به كذلك لاچين حتى مات وتركوه ملقى على الارض فحمله أيدمر الفخرى والى تروجة الى القاهرة فدفن فى تربته التى أنشأها بجوار مشهد السيدة نفيسة وذلك فى الثالث عشر من المحرم المذكور فكانت مملكته ثلاث سنين وشهرين ليس الا

وفرح

وفرح الناس بموته فرحا عظيما فكانوا لايذكرونه الا باللعنات

واتفق الجماعة الذين قتلوه على سلطنة بيدرا الذى هو مملوكه وأن يلقبوه بالملك القاهر فساروا على هذا العزم نحو قلعة الجبل فاجتمعت عند ذلك مماليك السلطان الملك الاشرف وانضموا الى زين الدين كتبغا المنصورى وساروا فى أثر بيدرا ومن معه فلحقوهم عند الطرانة فى خامس عشر المحرم فاقتتلوا فانهزم بيدرا وأصحابه وتفرقوا فى الاقطار فتبعوا بيدرا حتى لحقوه واحتزوا رأسه ورفعوه على رمح واختفى لاچين وقراسنقر ولم يطلع لهما على خبر ووصل زين الدين كتبغا وجماعة المماليك السلطانية بعد قتل بيدرا الى قلعة الجبل وبها علم الدين سنجر الشجاعى نائبا واتفقوا على تولية السلطان الملك الناصر بن السلطان الملك المنصور فأجلسوه على تخت السلطنة فى العشر الاواسط من المحرم وعمره يومئذ تسع سنين وتقرر أن يكون الامير زين الدين كتبغا المنصورى نائب السلطنة وعلم الدين سنجر الشجاعى وزيرا وركن الدين بيبرس البرجى الجاشنكير أستاذ الدار وتتبعوا الامراء الذين اتفقوا مع بيدرا على قتل الملك الاشرف فظفروا أولا بهادر رأس النوبة وأقوش الموصلى الحاجب فضربت أعناقهما وأحرقت جثتهما ثم ظفروا بطرنطاى الساقى وايتاق ونفيه وأروس السلحدارية ومحمد خواجا والطنبغا الجدار وآق سنقر الحسامى فاعتقلوا بخزانة البنود أياما ثم قطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا على الجمال وطيف بهم وأيديهم معلقة فى أعناقهم وقبض بعد أيام أيضا على مختار الساقى فشنق * وتوافق زين الدين كتبغا والشجاعى على القبض على شمس الدين محمد بن السلعوس وزير السلطان الملك الاشرف فقبضا عليه وتولى الشجاعى معاقبته واستصفى ماله وقتله وكان ابن السلعوس قد بلغ عند السلطان منزلة عظيمة وتمكن فى الدولة وصارت الامور كلها له وكان لابن السلعوس المذكور أقارب وأهل بدمشق فلما صار الى هذه الحالة أرسل فأحضرهم بمصر فحضروا جميعا الا شخصا منهم فانه استمر مقيما وكتب الى ابن السلعوس يقول

تنبه ياوزير الارض واعلم * بأنك قد وطئت على الافاعى
وكن بالله معتصما فانى * أخاف عليك من نهش الشجاعى

ولم تمض مدة طويلة حتى وقعت الوحشة بين الامير زين الدين كتبغا وعلم الدين سنجر الشجاعى المذكور فصار مع كل منهما جماعة من الامراء واشتد الامر بينهما واستفحل الخلاف فنزل كتبغا ومن معه من قلعة الجبل وبقى سنجر وأصحابه بها لايبرحون فحصره كتبغا وما زال حتى غلب عليه وقتله واحتز رأسه وطيف به فى البلد وذلك فى صفر من السنة أى سنة ثلاث وتسعين وستمائة فلما شاع خبر موته ظهر حسام الدين لاچين وشمس الدين قرا سنقر من الاستتار بعد الغيبة فأخذ لهما زين الدين كتبغا الامان من السلطان وقرر لهما الاقطاعات الجليلة وأعز جانبهما وأخذ زين الدين المذكور من هذا الحين يعمل

على اختلاس الملك من أستاذه الملك المنصور فلما كان يوم الاربعاء تاسع المحرم افتتاح سنة أربع وتسعين وستمائة أزال من طريق مقاصده ما كان يحول دون الوصول اليها وخلع السلطان الملك المنصور من تخت السلطنة وجلس هو على سرير الملك ولقب نفسه الملك العادل زين الدين كتبغا واستحلف الناس على ذلك فحلفوا وخطب له على منابر مصر والشام ونقشت السكة باسمه ثم قبض على السلطان الملك الناصر ووضعه فى قاعة بقلعة الجبل وحجبه عن الناس فصار لايراه أحد ولا يسمع بخبره فكانت مدة ملك السلطان الملك الناصر المذكور سنة الا أياما

ولما استتب الامر لزين الدين كتبغا جعل نائبه فى السلطنة حسام الدين لاجين الذى كان مستترا بسبب قتل السلطان الملك الاشرف وأفرج عن الامير مهنا أمير العربان واخوته وابنه عيسى وزودهم وسيرهم الى بلادهم وخرج فى شوال من السنة يريد الشام فوصل دمشق وأقام بها أياما وقد نقم على عز الدين أيبك الحموى نائب السلطنة بالشام أمورا فخلعه وولى مكانه سيف الدين أحد مماليكه وقام من دمشق فى أوائل المحرم افتتاح سنة سبع وتسعين وستمائة بالعسكر متوجها الى مصر فلما وصل الى نهر العرجا واستقر بدهليزه وتفرقت مماليكه وغيرهم الى خيامهم ركب حسام الدين لاجين المنصورى نائب السلطنة بسنجقه ونقاره وانضم اليه بدر الدين البيسرى وقرا سنقر المنصورى وسيف الدين قلجاق المنصورى وبهادر الظاهرى وغيرهم من كبار الامراء وكانوا قد اتفقوا مع لاجين نائب السلطنة على الغدر بالسلطان كتبغا المذكور لبغضه لهم واعراضه عنهم الى بعض خواصه وباغتوه عند الظهر فى دهليزه بالمنزلة المذكورة فلم يتمكن من جمع أصحابه وركب فى نفر قليل فحمل عليه نائبه لاجين فقتل بكتوت الازرق وبجاص وكانا أكبر مماليك العادل فولى العادل هاربا راجعا الى دمشق حيث كان بها مملوكه عزلو ووصل اليها فركب مملوكه عزلو المذكور والتقى به ودخل الى قلعة دمشق واهتم بجمع العساكر والتأهب للقتال مع لاجين فلم يوافقه عسكر دمشق على ذلك ورأى منهم التخاذل فخلع نفسه عن السلطنة ولبث بقلعة دمشق وأرسل الى حسام الدين لاجين يطلب منه الامان وموضعا يأوى اليه فاعطاه صرخد فسار كتبغا الى صرخد واستقر بها الى أن كان من أمره ماسيذكر فى حينه * وأما حسام الدين لاجين فانه لما هزم العادل كتبغا على ماذكر نزل بدهليزه عند نهر العرجاء واجتمع مع الامراء الذين وافقوه على مابدا وشرطوا عليه شروطا فالتزمها فكان من تلك الشروط أن لاينفرد عنهم برأى ولا يغرى مماليكه بهم كما فعل كتبغا فأجابهم الى ذلك وحلف لهم واستحلفهم على الطاعة فحلفوا و بايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى وذلك فى المحرم افتتاح سنة ست وتسعين وستمائة فكانت مدة ملك السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى سنتين تقريبا الى أن خلع

ولما بايع الامراء الملك المنصور حسام الدين لاجين رحل من فوره بالعسكر الى مصر

ووصل اليها فدخلها فى أبهة زائدة وصعد الى قلعة الجبل واستقر بها وجعل يتصرف فى الامور ويرتب الاحوال على مايريد ثم سير الامير سيف الدين منجق الى دمشق وجعله نائب السلطنة بالديار الشامية وأخرج السلطان الملك الناصر من معقله بقلعة دمشق وسيره الى الكرك صحبة سلار فأوصله اليها وتركه بها وعاد سلار الى مصر وأفرج كذلك عن بيبرس الجاشنكير وعن عدة أمراء كان العادل كتبغا قد قبض عليهم واعتقلهم فى أيامه * وتاقت نفسه الى التشبه بكبار الملوك ممن سلفه فى الغزو والفتوحات فجيش جيشا عظيما وسار الى بلاد الروم فلم يفتح الله عليه بشئ منها الا القليل جدا فى جانب مافقد من المال والرجال وذلك لانحراف قلوب الامراء عنه وتسليم أموره الخصوصية الى الاحداث من المماليك الذين اصطفاهم لنفسه وعينهم لخدمته وكان القائم عليهم شخص اسمه سيف الدين طغجى * قال أصحاب التاريخ وكان سبب بغض الامراء له ما فعله بهم من أخذ جانب من اقطاعاتهم واخراجه من دواوينهم وجعله لهم ولجميع العساكر والاجناد أحد عشر قيراطا بدل عشرين وقد كانت القاعدة الى سلطنة الملك المنصور لاجين أنهم اعتبروا أرض مصر أربعة وعشرين قيراطا فخصوا السلطان منها بأربعة والعساكر والاجناد بعشرة وسائر الامراء بعشرة ولما كان الامراء هم المتولين ادارة شؤن جميع العساكر فى السلم والحرب كانوا لايعطون للعسكر من اقطاعهم الا بقدر الحاجة وربما أقل بكثير أولا يعطونهم ويضمون مايستغل منها الى دواوينهم الخصوصية فكثرت لذلك اقطاعات الامراء وأوى اليها أهل الشقاوة والفساد فعاثوا فيما جاورها من البلاد والقرى والمزارع وقطعوا الطرق على المارة وأبناء السبيل وعجز الولاة عن ردعهم خوفا من اغضاب الامراء وكانت الحقوق الديوانية تمنع من هذه الاقطاعات فكانت طعمة لاعوان الامراء فلما تولى السلطنة الملك المنصور لاجين راك جميع البلاد ورد تلك الاقطاعات على أربابها وأخرجها جميعها من دواوين الامراء ورتب للامراء وجميع الاجناد أحد عشر قيراطا وأفرد تسعة لحاجة العسكر عند الاقتضاء وحرر أوراقا بما يكفى الامراء والاجناد * فلما أيس الامراء من رجوع الاحوال الى ما كانت عليه قبل سلطنة لاجين وقد أحسوا بعزم السلطان على الايقاع بهم عمدوا الى قتله واختاروا لذلك جماعة من مماليكه فلما كانت ليلة الجمعة حادى عشر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين فى أوائل الليل دخل عليه جماعة من أولئك المماليك وهو يلعب بالشطرنج وتقدم أحدهم نحوه واسمه سيف الدين كرجى وضربه بسيفه وتلاه الباقون بسيوفهم حتى قتلوه وطلبوا مملوكه ونائبه منكوتمر فهرب واستجار بسيف الدين طغجى الاشرفى مقدم المماليك فأجاره وبعث به الى الجب فحبسه هنالك ثم بعد استقراره فى الجب توجه اليه كرجى الذى قتل السلطان ومعه جماعة وأخرجوه وذبحوه على رأس الجب وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جلس طغجى مقدم المماليك فى موضع النيابة وأمر ونهى * قال كتاب الاخبار وكان هنالك جماعة من كبار الامراء المتقدمين مثل حسام الدين استاذ الدار

وبيبرس الجاشنكير وغيرهم فأخذهم آخذ الغيظ مما فعله طغجي فاتفقوا على الوقيعة به واعادة الملك الى السلطان الملك المقيم بالكرك الذى تقدم الكلام عنه واتفق فى هذه الاثناء أن حضر بعض العسكر الذين كانوا فى حلب ومعهم أمير السلاح وغيره من الامراء فأشار الامراء المتآمرون على طغجي المذكور بالركوب للقاء أمير السلاح فامتنع فعاودوه فأجاب وركب من قلعة الجبل وجعل نائبه بها كرجي قاتل السلطان الملك المنصور لاجين فلما اجتمع الامراء بأمير السلاح تحدثوا فيما فعله أولئك الصبيان من قتل السلطان وبالغوا فى الامر واتهموا طغجي المذكور بفعله وكان طغجي جالسا بينهم فأنكر ذلك وبالغ فى الانكار فقام عليه الامراء بالسيوف فهرب منهم فأدركوه وقتلوه وقصدوا كرجي بقلعة الجبل فهرب فاتبعوه وقتلوه أيضا وذلك فى ربيع الآخر من السنة فكانت مدة ملك حسام الدين لاجين الملقب بالملك المنصور سنتين وثلاثة أشهر وقيل سبعة وأربعين يوما لم يأت فيها بعمل يذكر ولا بمعروف يشكر

ولما قتل الملك المنصور وطغجي على الوجه المذكور اتفق الامراء كافة على اعادة الملك الناصر محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدين بن قلاوون الى مملكته فبعثوا اليه سيف الدين آل ملك وعلم الدين الجاولى الى الكرك فاحضراه الى مصر وصعد الى قلعة الجبل فى أبهة وكبكبة عظيمة فلما كان يوم السبت رابع عشر جمادى الاولى من السنة أى سنة ثمان وتسعين وستمائة أجلسوه على سرير الملك وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق وضربت السكة باسمه فكانت هذه ولايته الثانية واتفق معه الامراء على أن يكون سيف الدين سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنكير أستاذ الدار وبكتمر الجوكندر أمير جاندار ففعل وفوض نيابة السلطنة بالشام الى جمال الدين أقوش الافرم وأفرج عن شمس الدين قراسنقر من الاعتقال وكان له فيه نحو سنة وشهرين ثم سيره الى الصبيبة وقد كانت البلاد بغير ملك مدة أحد وأربعين يوما الى أن حضر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون المذكور

وعاود التتار الكرة فى أيام الملك الناصر على بلاد الشام فعبروا الفرات فى شهر ربيع الآخر سنة سبعمائة فجفلت منهم المسلمون ودخلت بلاد حلب وسار قرا سنقر بعسكر حلب الى حماة وبرز زين الدين كتبغا وعسكر حماة الى ظاهر البلد ووصل العساكر من دمشق أيضا واجتمعوا بحماة ونزل التتار على سرين والمعرة وتيزين والعمق وغيرها ينهبون ويقتلون فكبر الأمر على السلطان واستعظمه جدا وسار فى عسكره ووصل الى العرجاء وكان الوقت شتاء فاتفق أن هطلت الامطار بشدة زائدة فاشتدت الاوحال حتى انقطعت الطرقات وانقطعت الاقوات وعجز السلطان والعسكر عن القيام على تلك الحال فرحلوا وعادوا الى مصر وبقيت التتار تعيث وتفسد وتفعل بالبلاد مالا خير فيه نحو ثلاثة أشهر ثم رحلوا الى بلادهم فرجع عسكر حلب ولم يستقر بالسلطان المقام بعد رجوعه حتى تغيرت عليه قلوب الامراء وقامت الفتنة بسبب تولى بعضهم المناصب دون البعض الآخر وتحزبوا وتفرقت كلمتهم وكاد يتعذر على السلطان تلافى الأمر وبينماهم على هذا الحال من الاضطراب

والاختباط

والاختباط اذ مات الخليفة أبو العباس الحاكم بأمر الله فى ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الاولى سنة احدى وسبعمائة فارسل نائب السلطنة خلف جميع من فى البلاد من الامراء والقضاة والعلماء والصوفية ومشايخ الزوايا والرباطات وغيرهم ليحضروا للصلاة على الخليفة فكان المجتمعون خلقا كثيرا جدا وبعد الصلاة عليه دفنوه بجوار السيدة نفيسة فى قبة بنيت له فكان الخليفة المذكور أول خليفة مات بمصر من بنى العباس وكانت خلافته أربعين سنة وأشهرا ولم يكن له من الامر شئ سوى الامامة والخطبة فى صلاة الجمعة

قال أبو شامة ولاحظه الملك الاشرف خليل بن قلاوون أتم ملاحظة ممن سبقه ورعى لوده نعمة الخلافة فيه حقها من جميل المحافظة وقال غيره خطب الخليفة الحاكم بأمر الله بالقلعة مرة ثانية يوم الجمعة رابع شوال سنة تسعين وستمائة بسؤال الملك الاشرف له ذلك وذكر فى خطبته تولية السلطنة للاشرف ثم خطب مرة ثالثة بالمنصورة بحضرة السلطان والقضاة وحض على غزو التتار واستنقاذ بلاد العراق من أيديهم وذلك سنة تسعين وستمائة فى ذى القعدة ثم خطب مرة رابعة فى التاسع والعشرين من ربيع الاول سنة احدى وتسعين وحث على الجهاد والنفير وصلى بالناس الجمعة وجهر بالبسملة * وقال الذهبى فى العبر آخر خليفة خطب يوم الجمعة الراضى بالله ولم يخطب بعده خليفة الا الحاكم العباسى هذا فانه خطب فى خلافته * وقال ابن فضل الله لما ملك المنصور لاجين زاد فى اكرامه أى فى اكرام الخليفة الحاكم بأمر الله وصرّفه فى الركوب والنزول فبرز الى قصر الكبش وسكن به ثم انه حج فى سنة سبع وتسعين وستمائة فاعطاه المنصور لاجين ستمائة ألف درهم ورجع من الحج فأقام بمنزله الى أن مات ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الاولى سنة احدى وسبعمائة ودفن بجوار السيدة نفيسة اه

ومات فى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله مرقس بطرك الاسكندرية فكانت مدته اثنتين وعشرين سنة وستة أشهر وخمسة وعشرين يوما وفى أيام مرقس هذا انتقل مرقس بن قنبر وجماعة من القنابرة الى رأى الملكية وبالغوا فى نصرة الملكيين أياما كثيرة فاستعظم المتأصلون هذا الامر وكثر بين الفريقين الاخذ والرد الى أن عاد القنابرة الى المتأصلين فقبلوا فلم يلبثوا الا القليل حتى ارتدوا الى الملكية ثم رجعوا فلم يقبلوا وكان مرقس البطرك المذكور ذا همة ومروءة عاقلا رزينا حازما يحسن السياسة والتدبير وكان جليلا مهيبا مقبول الكلمة واحترقت فى أيامه كنيسة أبو مرقوره وخلا بعد موته الكرسى سبعة وعشرين يوما ثم أقيم يوحنا بن أبى غالب وهو رابع سبعيهم من أهالى مصر وكل بالاسكندرية وكان من طائفة التجار يتردد الى اليمن فى البحر حتى كثر ماله وكان معه مال لأولاد الحباب فاتفق أنه غرق فى البحر الاحمر وذهب جميع ماله ونجا بنفسه الى القاهرة وقد أيس أولاد الحباب من مالهم فلما بلغهم خبر حضوره قابلوه فأعلمهم أن مالهم قد سلم لانه كان قد جعله فى نقائر خشب مسمرة فى المركب فصار لهم به من هذا الحين عناية

كبرى فلما مات مرقس البطرك سعى يوحنا المذكور للقس أبى باسر ليوليه بطركا قيل فقال له أولاد الخباب خذ أنت البطركية ونحن نزكيك فوافقهم يوحنا على ذلك فسعوا له وأقاموه بطركا فشق الامر على أبى باسر وهجره بعد صحبة طويلة وكان معه لما استقر فى البطركية سبعة عشر ألف دينار مصرية أنفقها على الفقراء وأبطل الديارية ومنع الشرطونية ولم يأكل لأحد خبزا ولم يقبل من أحد هدية حتى مات رحمه الله تعالى

ولما مات الخليفة الحاكم بأمر الله قام بالخلافة بعده ولده أبو الربيع سليمن ولقب بالمستكفى بالله وكان أبوه قد عهد اليه بالامر قبل وفاته فبويع بغير خلاف ولا جدال

(الفصل الثالث)

(فى خلافة المستكفى بالله أبو الربيع سليمن بن الحاكم بامر الله)

ثم قام بالامر بعد الحاكم بأمر الله ولده المستكفى بالله أبو الربيع سليمن بن الحاكم بامر الله بويع له فى العشرة الاواخر من جمادى الاولى سنة احدى وسبعمائة هجرية أى سنة احدى وثلثمائة وألف ميلادية وخطب له على المنابر بالديار المصرية والشامية وسارت البشائر بذلك الى جميع الاقطار والممالك الاسلامية * قال ابن كثير قدم البريد من القاهرة سادس عشر جمادى الآخرة فأخبر بوفاة أمير المؤمنين الحاكم بامر الله ومبايعة المستكفى وانه حضر جنازته الناس كلهم مشاة فخطب يوم الجمعة تاسع جمادى الآخرة للخليفة المستكفى بجامع دمشق وكتب له تقليد بالخلافة وقرئ بحضرة السلطان والدولة يوم الاحد العشرين من ذى الحجة ولم يكن السلطان أمضى له عهد والده حتى سأل الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد وهو قاضى القضاة يومئذ هل يصلح للخلافة أم لا فقال الشيخ تقى الدين نعم يصلح قال وانما احتيج الى ذلك لانه كان صغير السن لم يبلغ عشرين سنة فان مولده كان فى أربع وثلاثين وستمائة وكان له ابن أخ أسن منه فكان ينازعه الامر فلما أشار الشيخ باستخلافه أمضى عهد والده فكان العهد هكذا

الحمد لله الذى رفع المستكفى به لما انتصب بشريف همته للمحل الاسمى * ومنح الأمة بربيع خفض العيش وحزم أمرهم على الصلاح والتوفيق حزما * وأدام الائمة من قريش ونظم لآلئ حكم أحكامهم فى جيد الزمان نظما * وجعل الناس تبعا لهم فى هذا الامر فغيرهم بالخلافة العظمى لايدعى ولا يسمى * فالحاكم الحسين المسترشد المستظهر بذخيرة الدين القائم بأمر الله القادر المقتدر الموفق المتوكل المعتصم الرشيد المهدى الكامل من اقتفى لسنن سنتهم رسما * استودع الخلافة فى بنى العباس الذى كان لنبيه الكريم عما *

وفرج عنه ليلة العقبة بمبايعة الانصار كربا وغما * فبشره بأن الخلافة فى عقبه فعمه بالسرور عما * فلما انتهى ذلك السر فى العوالم الى الحاكم قيل وقد نكبت هيئة الخلافة عن معرفته حقوقها العظيم من كل عظيم ففهمناها سليمن وكلا آتينا حكما وعلما * أحمده حمد من لم يثن عن طاعته وطاعة رسوله وأولى الأمر عزما * والله يؤتيها من يشاء من خلقه اختيارا ورغما * وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى دعا الى مودة أولى القربى وهم أفضل قرابة زكاة وأقرب رحما * صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وخلفائه وعترته الذين هم أعدل البرية حكما * وبعد فان الملك السلام منذ أسجد لآدم ملائكته الكرام فى سالف الازمان قدما * جعل طاعة خلفائه فى بلاده على سائر عباده حقا كيف لاوبهم يعمر الوجود وتقام الحدود وتهدم أركان الجور هدما * فبحياتهم تأمن البلاد وربما تصادف قرب وفاتهم أن لبس القمر ليلة التم حلة السواد وأخفى جرما * ولما كان سنة من تقدم من الائمة الخلفاء اذا خاف أن يهجم عليه الحمام هجما * ولاتهدى اليه الايام ألما وسقما * تفويض الامر بولاية العهد الى الخلق لخير ذريته وبنيه نجدة وحزما * أشهد على نفسه الشريفة مولانا الامام الحاكم الحاكم عليه تقواه * المراقب لله فى سره ونجواه * الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين * ابن عم سيد المرسلين ووارث الخلفاء الراشدين * أبو العباس أحمد ابن الأمير الحسن بن أمير المؤمنين المسترشد بالله أبى منصور الفضل ابن أمير المؤمنين المستظهر بالله أبى العباس أحمد ابن أمير المؤمنين أبى القاسم عبد الله ابن المرحوم الذخيرة للدين ولى عهد المسلمين محمد ابن الامام القائم بأمر الله أبى عبد الله محمد بن القادر بالله أبى العباس أحمد ابن أمير المؤمنين أبى الفضل جعفر المقتدر بالله ابن أمير المؤمنين المعتضد بالله أبى العباس ابن الأمير محمد الموفق بالله أبى طلحة ولى عهد المسلمين ابن أمير المؤمنين جعفر المتوكل ابن أمير المؤمنين أبى اسحق محمد المعتصم بن هرون الرشيد ابن أمير المؤمنين محمد ابن أمير المؤمنين عبد الله حبر الأمة بن عباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم أعز الله به الدين * وأمتع ببقاء نسله الشريف الاسلام والمسلمين * وهو فى حالة يسوغ معها الاشهاد عليه * ويرجع فى الامور المنوطة بالخلافة الشريفة اليه * أنه عهد الى ولده لصلبه الامام المستكفى بالله أبى الربيع سليمن شيد الله به أركان الايمان * ونصر ببركة سلفه العصابة المحمدية على أهل الكفر والطغيان * وجعله ولى عهده واستخلفه من بعده لما يعلمه من أهليته * وعدالته وكفالته وصلاحه لذلك وكفايته * وأشخصه لشهود هذا المكتوب الشريف * ونبه على استحقاقه لذلك ومحله العالى المنيف * عهدا صحيحا شرعيا * معتبرا تاما مرعيا * وفوض اليه أمر الخلافة العظيمة تفويضا شرعيا صريحا * وعقد له عقد ولاية العهد على الامة عقدا صحيحا * وقبل ذلك منه القبول الشرعى * المعتبر المرضى * فالله تعالى يجمع به كلمة الاسلام * ويصحبه فى خلافته الشريفة رأيا موفقا ويقمع ببركة سلفه الكرام أهل الطغيان * ويهيئ له من أمره مرفقا بمنه وكرمه آمين * والحمد لله رب

العالمين * وصلواته على سيد المرسلين * نبيه وآله وصحبه أجمعين * وبه شهد فى اليوم المبارك التاسع عشر من جمادى الاولى سنة احدى وسبعمائة أحسن الله العقبى فى ختامها * وأجرى الخيرات فيما بقى من شهورها وأيامها اه

ولما بايعه السلطان والقضاة والاعيان ألبس جبة سوداء وطرحة سوداء وخلع السلطان على أولاد أخيه خلع الامراء وأشهد عليه أنه ولى الملك الناصر جميع ما ولاه والده وفوض اليه جميع الامور ثم نزل فى داره بالكبش ونقش اسمه على سكة الدينار والدرهم ثم رسم السلطان بعد ذلك أن ينتقل هو وأولاده وجميع من يلوذ به الى قلعة الجبل اكراما لهم وتعظيما فانتقلوا فى جمادى الآخرة ونزلوا فى دارين منها وأجرى عليهم الرواتب الكثيرة واستمر هو والسلطان دهرا كالاخوين يلعبان بالاكرة ويخرجان الى المتنزهات ويسافران معا الى غزو التتار حتى وشى الواشى بينهما وكان من أمرهما ماسيذكر فى محله ان شاء الله

ولما دخلت سنة اثنتين وسبعمائة نزل بديار مصر نازلة لم يسبق لها مثيل فقد زلزلت الارض زلزالا عظيما فانشقت الصخور وهدم كثير من المبانى والدور بمصر والقاهرة والاسكندرية وغيرها ومات خلق كثير تحت الردم ودمرت من أسوار مدينة الاسكندرية ستا وأربعين بدنة وكانت القتلى تئن وتستغيث تحت الردم والناس فى دهشة لايلتفتون اليهم بل كل مشغول بنفسه قال كتاب الاخبار فكانت ساعة يالها من ساعة تشيب من هولها الولدان وبقيت الخرائب دهرا فكانوا اذا أرادوا حمل ما انهال من ترابها ظهرت جثث النساء والرجال والاطفال على هيئات مختلفة تنفطر من رؤيتها القلوب واستمروا على هذا أياما كثيرة وعم الخوف الناس وأخذ من قلوبهم وتطيروا من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون فانحرفت قلوبهم عنه وتطاولت أيدى بعض الامراء الى العبث بأمور المملكة وظهر سلار نائب المملكة وبيبرس الجاشنكير أستاذ الدار واستبدا بالأمر وتجاوزا الحد فى الانفراد بالاموال والأمر والنهى ولم يتركا للسلطان غير الاسم وحصراه فى قلعة الجبل أياما كثيرة حتى قبل جميع ما طلباه صاغرا وكان كلما هم بالخلاص صادفه من الشدة ما يقعده وطال عليه الحال فلما كان شهر رمضان سنة ثمان وسبعمائة أظهر الرغبة فى الخروج الى الحج وأخذ فى التأهب والاستعداد وخرج فى الخامس والعشرين منه فسار فى خدمته جماعة من الامراء هم عز الدين ايدمر الخطيرى والامير حسام الدين قرا لاجين والامير سيف الدين آل ملك وغيرهم فسار الى الكرك ووصل اليها فى عاشر شوال وكان النائب بها جمال الدين أقوش الاشرفى فعمل الولائم واحتفل بالسلطان احتفالا عظيما فعبر السلطان الى المدينة ثم الى القلعة قال بعض الكتاب ولما عبر على الجسر الى القلعة والامراء تمشى بين يديه والمماليك حوله وخلفه سقط جسر القلعة وقد أصيبت يد فرس السلطان وهو راكب داخل عتبة الباب فلما أحس الفرس بسقوط الجسر أسرع حتى كادأن يدوس الامراء الماشين بين يديه وسقط فى الخندق من المماليك وأهل الكرك عدد كثير ونزل فى

الوقت السلطان عند الباب وأمر فأحضروا الجنبات والحبال ورفعوا الذين سقطوا فى الخندق جميعا * ولما استقر به المقام أمر من كان معه من الامراء بالرجوع الى مصر وكاشفهم على أنه انما أظهر السفر الى الاقطار الحجازية وسيلة الى المقام بالكرك وعدم العود الى مصر تخلصا من فعال سلار وبيبرس الجاشنكير فراجعه الامراء فى ذلك فلم يقبل وأصر على البقاء بالكرك فعاد الامراء الى مصر وأعلموا من بها بالخبر وتشاوروا فيما بينهم واتفقوا على أن يولوا السلطنة بيبرس الجاشنكير وأن يكون سلار مستمرا على نيابة المملكة كما كان عليها وحلفوا جميعا على ذلك

فلما كان يوم السبت الثالث والعشرين من شوال سنة ثمان وسبعمائة خرج بيبرس من داره راكبا فى شعار السلطنة وحوله الامراء والمماليك على اختلاف طبقاتهم وأمامه الجنائب السلطانية وسار الى الديوان الكبير بقلعة الجبل وجلس على سرير الملك ولقب بالملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصورى وطير الخبر الى نواب السلطنة بالشام فحلفوا له وكتب تقليدا الى السلطان بالكرك ودستورا بما عينه له من الاقطاع وأرسلهما اليه * قال كتاب الاخبار واستقر الحال على ذلك بلا منازع حتى خرجت هذه السنة فكانت مملكة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية نحو العشرين سنة * ولما استقر بيبرس المنصب استبد بالامر وأساء التدبير وأظهر الشدة والجفاء للكثير من الامراء فانحرفت خواطرهم وابتعدوا عنه وظهرت بينهم دلائل الوحشة والنفور ونزح عن مصر منهم جمال الدين أقوش الموصلى المعروف بقتال السبعة وهو من مماليك بدر الدين بن لؤلؤ صاحب الموصل وكذلك لاجين الجاشنكير المعروف بالزيرتاج ومعهما زهاء ألفى فارس من عسكر مصر وبعض من عسكر حماة قاصدين حلب فدخلوها وكان نائب السلطنة فيها يومئذ قرا سنقر المنصورى واتفق أن حضر أيضا جماعة من عسكر دمشق مع الحاج بهادر الظاهرى فسرّ قرا سنقر بقدومهم وعمد الى تمهيد السبل لارجاع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الى كرسى السلطنة فجعل يستميل الناس الى طاعة السلطان ويستنجدهم لنصرته وخرج أيضا جماعة من المماليك على حمية وغيظ مفارقين طاعة بيبرس المذكور وساروا الى السلطان بالكرك وأعلموه بما عليه الناس من طاعته ومحبته وبغضهم لبيبرس فتقوت عند ذلك آمال السلطان وأعاد خطبته بالكرك ووردت اليه مكاتبات عسكر دمشق يستدعونه وأنهم باقون على طاعته وكذلك وردت اليه المكاتبات من حلب فسار بمن معه من الكرك فى جمادى الآخرة الى قرية عمان وهى قريب من رأس الماء ونزل بها فجاءه أحد مماليك قرا سنقر نائب السلطنة بحماة برسالة مكذوبة على قرا سنقر الى السلطان بعدم تعويله على ما وردت به كتب أولئك الطائعين وسرعة رجوعه الى الكرك فصدق السلطان هذا الخبر وظنه حقا وعاد مسرعا الى الكرك فيمن معه من العساكر واستمرت العساكر مع ذلك على طاعته واستدعائه واختلت فى هذه الفترة حكومة بيبرس

أو كادت وجاهره الناس بالعداوة وأظهروا الخلاف وانعكست الأمور عليه وخرج أغلب الجند عن الطاعة فرحل من كان بحماة من الجند والعساكر بغير دستور ولا مرسوم ولم يبق بحماة الا بعض العسكر المصرى * ولما تحقق الملك الناصر صدق طاعة العسكر له وخروجهم عن طاعة بيبرس وبقاء العسكر الشامى جميعه على الاخلاص والولاء عاود المسير الى دمشق وخرج من الكرك وخرجت عساكر دمشق الى لقائه وكان نائب السلطنة بدمشق أقوش الافرم وهو من الطائعين لبيبرس فلما لم يقدر على منع العسكر من الخروج هرب من دمشق فدخلها السلطان فى يوم الثلاثاء ثالث عشر شعبان من السنة وهيئت له قلعة دمشق فلم ينزل بها ونزل بالقصر الابلق فأرسل الافرم اليه يطلب الامان فأمنه فقدم الى طاعته وتتابع وصول العسكر لنجدة السلطان من حماة والساحل ووردت عساكر الشام جميعا فلما تكاملوا رسم لهم السلطان بالتأهب للمسير الى ديار مصر وأرسل الى الكرك فأحضر ما كان بها من الحواصل وأنفق فى العسكر ثم سار بهم من دمشق فى يوم الثلاثاء تاسع رمضان سنة ثمان وسبعمائة * فلما بلغ بيبرس الجاشنكير ونائبه بمصر مافعله السلطان خافا جدا وجرد بيبرس عسكرا عظيما مع الامير برلغى وغيره من المقدمين فساروا الى الصالحية وأقاموا بها وكان برلغى المذكور من أكبر أصحاب الجاشنكير وأعزهم اليه وسار السلطان بجيشه حتى وصل غزة فى يوم الجمعة تاسع عشرى رمضان فلم يشعر عسكر مصر بوصول السلطان الى غزة حتى أخذوا يتقدمون له بالطاعة فريقا بعد فريق وكان ممن قدم له الطاعة أيضا برلغى قائد الجيوش وغيره من المقدمين وكثير من العساكر ثم تتابعت الطلاب وكان السلطان يلقى فى كل يوم وهو سائر طلبا بعد طلب من الامراء والمماليك والاجناد يقبلون الارض ويسيرون بين يديه قاصدين الديار المصرية ووردت الاخبار بذلك الى بيبرس فأسرع فى خلع نفسه وسير ركن الدين بيبرس الدوادار ومعه بهادرآص الى السلطان فى طلب الامان وأن يتصدق عليه ويعطيه اما الكرك واما حماة أوصهيون وأن يكون معه ثلثمائة مملوك من مماليكه فأجابه السلطان الى مائة منهم وأن يعطيه صهيون وأسرع مع ذلك فى المسير الى مصر فهرب الجاشنكير من قلعة الجبل الى الصعيد وخرج سلار الى طاعة السلطان والتقاه يوم الاثنين الثامن والعشرين من رمضان قاطع بركة الحاج وتقدم نحوه ثم ضرب للسلطان الدهليز بالبركة فلم ينزل به ورحل فى نهاره ومعه العسكران الشامى والمصرى فوصل الى قلعة الجبل من يومه وصعد اليها وجلس على سرير الملك بعد العصر فى نهار الاربعاء مستهل شوال سنة تسع وسبعمائة فكانت هذه أيضا سلطنته الثالثة

وفى يوم الجمعة ثالث شوال وهو اليوم الثالث من دخول السلطان القاهرة سار سلار من قلعة الجبل الى الشوبك بحكم من السلطان حيث أنعم بها عليه وأعطى سيف الدين قبجق حلبا واسترجع منه حماة فقام اليها وقام معه عسكر حماة ورسم للامير أقوش الافرم

بصرخد فسار اليها وقرر نيابة السلطنة بالشام لشمس الدين قرا سنقر وقرر حماة للحاج بهادر الظاهرى ثم استرجعها منه وقرره على نيابة السلطنة بالحصون والفتوحات بعد عزل اسندمر عنها وقرر الامير سيف الدين بكتمر الجوكاندار فى نيابة السلطنة بمصر ورتب جميع الامور على ما أراد ودانت له الاحوال فجعل يتصرف فيها * أما بيبرس الجاشنكير فانه لما هرب الى الصعيد وكان قد أخذ معه شيأ كثيرا من الاحمال والاموال أرسل السلطان فاسترجع منه ما أخذه وضيق عليه فقصد المسير الى صهيون حسبما كان طلب فسار من اطفيح الى السويس ومنها الى الصالحية ثم سار منها الى أن وصل الى موضع بأطراف غزة يسمى العنصر قرب الداروم وكان قرا سنقر متوجها الى دمشق نائبا بها على ما استقر عليه الحال فوصل اليه مرسوم السلطان بالقبض على بيبرس المذكور فركب قرا سنقر فى الحال وكبس عليه بالمكان المذكور وقبض عليه وسار به الى مصر حتى وصل الى الخطارة فبعث اليه السلطان باسندمر الكرجى وتسلم منه بيبرس وأخذه الى قلعة الجبل واعتقله فيها وذلك فى يوم الخميس رابع عشر ذى القعدة سنة تسع وسبعمائة فكان آخر العهد به وكانت مدة سلطنته أحد عشر شهرا لاغير * قال كاتب الاخبار وبيبرس هذا هو الذى بنى البيبرسية بالدرب الاصفر ودفن بها وجدّد جامع الحاكم بعد الزلزلة التى سبق الكلام عنها فى حينها * وانتظمت للملك الناصر الأمور واستقرّت له الاحوال فتصرف واستبد بالامر وأنشأ العمارات العظيمة فى سنة عشرين وسبعمائة منها الميدان المعروف بميدان الهاوى المجاور لقناطر السباع وعمد الى بناء زريبة فى التل الاعظم بجوار الجامع الطيبرسى فرسم بنقل كوم تراب كان هنالك وحفر ماتحته من الطين لاجل بناء الزريبة وأجرى الماء الى مكان الحفر فصار يعرف بالبركة الناصرية وكان الشروع فى حفر البركة المذكورة سنة احدى وعشرين وسبعمائة * قال أصحاب التاريخ فلما انتهى الحفر الى جانب كنيسة الزهرى (كانت هنالك كنيسة تسمى كنيسة الزهرى بالقرب من قناطر السباع فى بر الخليج الغربى غربى باب اللوق وكان بها كثير من النصارى لايزالون فيها وبجانبها عدّة كنائس فى الموضع الذى يعرف بحكر اقبغا مابين السبع سقايات وبين قنطرة السد خارج مدينة الفسطاط) أخذ الفعلة فى الحفر حول كنيسة الزهرى حتى بقيت قائمة فى وسط الموضع الذى عينه السلطان للحفر وزاد الحفر حتى تعلقت الكنيسة ومع ذلك لم تسقط وصار العامة من غلمان الامراء العاملين فى الحفر وغيرهم فى كل وقت يصرخون فى طلب هدمها الى أن كان يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر وقت اشتغال الناس بصلاة الجمعة وترك أعمال الحفر فتجمع عدّة من غوغاء العامة بغير مرسوم من السلطان وصاحوا بصوت مرتفع الله أكبر ووضعوا أيديهم بالمساحى ونحوها فى الكنيسة المذكورة وهدموها حتى بقيت كوما وقتلوا من كان فيها من النصارى وأخذوا جميع ما كان بها من أوانى الذهب والفضة والحلى وغيره من الاشياء الثمينة ثم تطاولت أيديهم الى الكنائس الاخرى فهدموا كنيسة بومينا التى كانت بالحمراء وكانت معظمة جدا من قديم الزمان وبها كثير من

المسيحيين قد انقطعوا فيها وكان يحمل اليهم بها من مصر سائر مايحتاج اليه ويبعث اليها بالنذور الجليلة والصدقات الكثيرة فوجد فيها مال كثير من نقود ومصوغات وتسلق العامة الى أعلاها وفتحوا أبوابها وأخذوا منها مالا وقماشا وغيره فكان أمرا مهولا للغاية ثم مضوا من كنيسة الحمراء بعد ماهدموها الى كنيستين أخريين بجوار السبع سقايات تعرف احداهما بكنيسة البنات وكان بها كثير من الراهبات المتعبدات وعدة من الرهبان فكسروا أبواب الكنيستين وسبوا البنات سبيا وكن زيادة عن ستين بنتا وأخذوا ماعليهن من الثياب ونهبوا سائر ماظفروا به وأحرقوا وهدموا تلك الكنائس كلها * قال المقريزى هذا والناس فى صلاة الجمعة فعندما خرج الناس من الجوامع شاهدوا هولا كبيرا من كثرة الغبار ودخان الحريق وهرج الناس وشدة حركتهم ومعهم مانهبوه من الامتعة فكان ذلك اليوم أشبه بيوم القيامة وانتشر الخبر وطار الى الرميلة تحت قلعة الجبل فسمع السلطان ضجة عظيمة أفزعته فبعث ليكشف الخبر فلما بلغه ماوقع انزعج انزعاجا عظيما وغضب من تجرى العامة واقدامهم على ذلك بغير أمره وأمر الامير ايدغمش أميراخور أن يركب بجماعة الاوشاقية ويتدارك هذا الخلل ويقبض على من فعله فأخذ ايدغمش يتهيأ للركوب واذا بخبر قد ورد من القاهرة أن العامة ثارت فى القاهرة وخربت كنيسة بحارة الروم وكنيسة بحارة زويلة وجاء الخبر من مدينة مصر أيضا بأن العامة قامت بمصر فى جمع كثير جدا وزحفت الى كنيسة المعلقة بقصر الشمع فقفلها الموكلون بها وهم محصورون بها وهى على وشك أن تؤخذ فتزايد غضب السلطان وهم أن يركب بنفسه ويبطش بالعامة فراجعه الامير ايدغمش فتأخر ونزل من القلعة فى أربعة من الامراء الى مصر وركب الامير بيبرس الحاجب والامير ألماس الحاجب الى موضع الحفر وركب الامير طينال الى القاهرة وكل منهم فى عدة وافرة وقد أمر السلطان بقتل كل من قدروا عليه من العامة بحيث لايبقوا على أحد فقامت القاهرة ومصر على ساق وفرت النهابة فلم يظفر الامراء منهم الا بمن عجز عن الحركة بما غلبه من السكر بالخمر الذى نهبوه من الكنائس ولحق الامير ايدغمش بمصر وقد ركب الوالى الى المعلقة قبل وصول ايدغمش ليخرج من زقاق المعلقة من حضر للنهب فأخذه الرجم حتى فر منهم ولم يبق الا أن يحرق باب الكنيسة فجرد ايدغمش ومن معه السيوف يريدون الفتك بالعامة فوجدوا عالما لا يحصر وخاف سوء العاقبة فأمسك عن القتل وأمر أصحابه بارجاف الناس من غير اهراق دم ونادى مناديه من وقف حل دمه ففر سائر من اجتمع من العامة وتفرقوا وصار ايدغمش واقفا الى أن أذن العصر خوفا من عود العامة ثم مضى وألزم والى مصر أن يبيت بأعوانه هنالك وترك معه خمسين من الاوشاقية * أما الامير ألماس فانه وصل الى كنائس الحمراء وكنائس الزهرى ليتداركها فاذا بها قد صارت كيمانا ليس بها جدار قائم فعاد وعاد الامراء فردوا الخبر على السلطان وهو لايزداد الاحنقا فما زالوا به حتى سكن غضبه قال الراوى وكان الامر فى هدم هذه الكنائس من أعجب العجب وهو أن الناس لما كانوا فى صلاة

الجمعة

الجمعة من هذا اليوم بجامع قلعة الجبل فعند ما فرغوا من الصلاة قام رجل موله وهو يصيح في وسط الجامع اهدموا الكنيسة التى فى القلعة اهدموها وأكثر من الصياح المزعج حتى خرج عن الحد ثم اضطرب فتعجب السلطان والامراء من قوله ورسم لنقيب الجيوش والحاجب بالفحص عن ذلك فضيا من الجامع الى خرائب التتار من القلعة فاذا فيها كنيسة بنيت فهدموها قال ولم يفرغوا من هدمها حتى وصل الخبر بوقعة كنائس الحمراء والقاهرة فكثر تعجب السلطان من شأن ذلك الفقير وطلبه فلم يوقف له على خبر اه ولما شاع خبر الكنيسة التى كانت بخرائب التتار بقلعة الجبل وما جرى عليها بأمر السلطان ثار العامة وهدموا كنائس الزهرى وكنائس الحمراء وغيرها من كنائس القاهرة وحرقوا وقتلوا وسبوا ونهبوا وفعلوا من الفظائع مالا يقع تحت حصر وكان الذى هدم فى ذلك اليوم من الكنائس بالقاهرة كنيسة بحارة الروم وكنيسة بالبندقانيين وكنيستين بحارة زويلة ثم جاءت الاخبار أيضا من مدينة الاسكندرية بأن العامة هدمت بها أربع كنائس وكنيستين بمدينة دمنهور وست كنائس بمدينة قوص وما حولها من العمائر وتواترت الاخبار من الاقاليم القبلية والبحرية بكثرة ما هدم من الكنائس والديارات فى جميع أعمال مصر ما بين قوص والاسكندرية ودمياط وغيرها فكانت شدة عظيمة للغاية

ولم تكن لتسكن خواطر الناس حتى ظهر الحريق فى القاهرة ومصر فى عدة مواضع فوقع الحريق فى ربع بخط الشوائين من القاهرة فى يوم السبت عاشر جمادى الاولى وسرت النار الى ما حوله واستمرت الى آخر يوم الاحد فتلف فى هذا الحريق شئ كثير وعند ما أطفئ وقع الحريق بحارة الديلم فى زقاق العريسة بالقرب من دار كريم الدين ناظر الخاص فى خامس عشر جمادى الاولى وكان يوما شديد الريح فسرت النار من كل ناحية حتى وصلت الى بيت كريم الدين وبلغ ذلك السلطان فانزعج لما كان هنالك من الحواصل السلطانية وسير طائفة من الامراء لاطفائها فجمعوا الناس لذلك وتكاثروا عليها وقد عظم الخطب من ليلة الاثنين الى ليلة الثلاثاء فتزايد اشتعال النار وعجز الامراء والناس عن اطفائها لكثرة انتشارها فى الاماكن وقوة الريح التى قلعت باسقات النخل وغرقت المراكب فلم يشك الناس فى حريق القاهرة كلها وصعدوا المآذن وبرز الفقراء وأهل الخير وضجوا وعجوا وجأروا وكثر صراخ الناس وبكاؤهم وصعد السلطان الى أعلى القصر فلم يتمالك الوقوف من شدة الريح واستمر الحريق والحث يرد على المكلفين بالاطفاء من السلطان الى يوم الثلاثاء فنزل نائب السلطان ومعه جميع الامراء وسائر السقائين ونزل الامير بكتمر الساقى فكان يوما عظيما لم ير الناس أعظم ولا أشد هولا منه ووكلوا بأبواب القاهرة من يرد السقائين اذا خرجوا من القاهرة لاجل اطفاء النار فلم يبق أحد من سقائى الامراء وسقائى البلد الا وعمل وصاروا ينقلون الماء من المدارس والحمامات وأخذ جميع النجارين وسائر البنائين لهدم الدور فهدم فى هذه النوبة ماشاء الله من الدور العظيمة والرباع الكبيرة وعمل فى هذا الحريق أربعة

وعشرون مأمورا من الامراء المقـدمين سـوى أمراء الطبلخانات والعشراوت والماليـك
وعمـل الامراء بأنفسهـم فيـه وصار الماء من باب زويـلة الى حارة الديلم فى الشارع بحرا
من كـثرة الرجال والجمال التى تحمـل الماء ووقف بكتمر الساقى والامـير أرغون النائب
على نقـل الحواصـل السلطانية من بيت كريم الدين الى بيت ولده بدرب الرصاصى وخربوا
سـتة عشر دارا من جوار الدار وما قابلها حـتى تمكنوا من نقل الحواصـل فما كمل اطفاء
الحريق ونقل الحواصـل حتى وقع الحريق فى ربع الظاهر خارج باب زويلة وكان يشتمـل
على مائة وعشرين بيتا وتحتـه قيسارية تعرف بقيسارية الفـقراء وهبت مع الحريق ريح
قوية فركب الحاجب والوالى لاطفائها وهدموا عدة دور من حول الربع حتى انطفأت ووقع
فى ثانى يوم حريق بدار الامير سلار فى خط بين القصرين ابتدأ من الباذهنج وكان ارتفاعه عن
الارض مائة ذراع فوقع الاجتهاد فيه حتى أطفئ فأمر السلطان الامير علم الدين سنجر الخازن
والى القاهرة والامير ركن الدين بيبرس الحاجب بالاحتراز واليقظة ونودى بأن يعمل عند كل
حانوت دن فيه ماء أو زير مملوء بالماء وان يقام مثل ذلك فى جميع الحارات والازقة والدروب
فبلغ ثمن كل دن خمسة دراهم بعد درهـم وثمن الزير ثمانية دراهـم ووقع حريق أيضا بحارة
الروم وعدة مواضع حتى وجدوا هذا الحريق من نفط قد لف عليه خرق مبتلة بزيت وقطران

قال راوى هذا الخبر فلما كانت ليلة الجمعة النصف من جمادى قبض على راهبـين خرجا
من المدرسـة الهكارية بعد العشاء الاخيرة وقد اشتعلت النار فى المدرسة ورائحة الكبريت
فى أيديهما فحملا الى الامير علم الدين الخازن والى القاهرة فأعلم السلطان بذلك فأمر بعقوبتهما
قال وبينما هو نازل من القلعـة واذا بالعامة قـد أمسكوا نصرانيا وجـد فى جامع الظاهر
ومعه خرق فى هيئة الكعك فى داخلها قطران ونفط وقد ألقى منها واحدة بجانب المنـبر وما
زال واقفا الى أن خرج الدخان فمشى يريد الخروج من الجامـع وكان قد فطـن به شخص
وتأمله من حيث لا يشـعر وقبض عليـه فتكاثر الناس فجروه الى بيت الوالى وهو بهيئـة
المسلمين فعوقب عند الامير ركن الدين بيبرس الحاجب فاعترف بأن جماعـة من النصارى قد
اجتمعوا على عمل نفط وتفريقـه مع جماعة من أتباعهـم وانه ممن أعطى ذلك وأمر بوضعه
عند منبر جامع الظاهر ثم أمر بالراهبين فعوقبا فاعـترفا أنهما من سكان دير البغـل وانهما
اللذان أحرقا المواضع التى تقدّم ذكرها بالقاهرة غيرة وحنقا من المسلمين لما كان من هدمهم
الكنائس وان طائفـة النصارى تجمعوا وأخرجوا من بينهـم مالا جزيلا لعمل هـذا النفط
واتفق وصول كريم الدين ناظر الخاص من الاسكندرية فعرفه السـلطان ما وقع من القبض
على النصارى فقال النصارى لهم بطرك يرجعون اليه ويعرف أحوالهـم فرسم السـلطان
بطلب البطرك عند كريم الدين ليتحدث معه فى أمر الحريق وما ذكره النصارى من قيامهم فى
ذلك فجاء مع والى القـاهرة فلما أن دخل بيت كريم الدين بحارة الديلم وأحضروا اليه الثلاثة
النصارى من عنـد الوالى قالوا لكريم الدين بحضرة البطرك والوالى جميع ما اعترفوا به قبل

ذلك

ذلك فبكى البطرك كثيرا عند سماعه هذا الكلام وقال هؤلاء سفهاء النصارى قصدوا مقابلة سفهاء المسلمين على تخريب الكنائس وانصرف من عند كريم الدين مبجلا مكرما فوجد كريم الدين قد أقام له بغلة على بابه ليركبها فركبها وسار وأصبح كريم الدين يريد الركوب الى القلعة على العادة فلما خرج الى الشارع صاح به العامة مايحل لك ياقاضى تحامى للنصارى وقد أحرقوا بيوت المسلمين وتركبهم بعد هذا البغال فشق عليه ماسمع وعظمت نكايته واجتمع بالسلطان فأخذ يهون عليه أمر النصارى المسوكين ويذكر أنهم سفهاء وجهال فرسم السلطان للوالى بتشديد عقوبتهم فنزل وعاقبهم عقوبة شديدة للغاية قال الراوى فاعترفوا بأن أربعة عشر راهبا بدير البغل قد تحالفوا على احراق ديار المسلمين كلها وفيهم راهب يصنع النفط وأنهم اقتسموا القاهرة ومصر فجعلوا للقاهرة ثمانمائة ولمصر سبعمائة فكبس دير البغل وقبض على من فيه وأحرق منهم جماعة منهم أربعة بشارع صليبة ابن طولون فى يوم الجمعة فاجتمع لمشاهدتهم عالم كثير فاجترأ من ذلك اليوم جمهور الناس على النصارى وفتكوا بهم وصاروا يسلبون ما عليهم من الثياب حتى فحش الأمر وتجاوزوا فيهم المقدار فغضب السلطان من ذلك وهم أن يوقع بالعامة واتفق أنه ركب من القلعة يريد الميدان الكبير فى يوم السبت فرأى من الناس أمما عظيمة قد ملأت الطرقات وهم يضجون نصر الله الاسلام انصر دين محمد بن عبد الله فجزع من ذلك وعند مانزل الميدان أحضر اليه الخازن نصرانيين قد قبض عليهما وهما يحرقان الدور فأمر باحراقهما فأخرجا وأحرقا بمرأى من الناس وبينماهم فى احراق النصرانيين اذا بديوانى الامير بكتمر الساقى قد مر يريد بيت الامير وكان نصرانيا فعندما عاينه العامة ألقوه عن دابته الى الأرض وجردوه من جميع ما عليه من الثياب وحملوه ليلقوه فى النار ثم تركوه واتفق مع هذا مرور كريم الدين وقد لبس التشريف من الميدان فرجمه من هنالك رجما متتابعا وصاحوا كم تحامى للنصارى وتشد معهم ولعنوه وسبوه فلم يجد بدا من العود الى السلطان وهو بالميدان وقد اشتد ضجيج العامة وصياحهم حتى سمعهم السلطان فلما دخل عليه وأعلمه الخبر امتلأ غضبا واستشار الأمراء وكان بحضرته منهم الامير جمال الدين نائب الكرك والامير سيف الدين الابوبكرى والخطيرى وبكتمر الحاجب فى عدة أخرى فقال الابوبكرى العامة عمى والمصلحة أن يخرج اليهم الحاجب ويسألهم عن اختيارهم حتى يعلم فكره السلطان منه ذلك وأعرض عنه فقال نائب الكرك كل هذا من أجل الكتاب النصارى فان الناس أبغضوهم والرأى أن السلطان لايعمل فى العامة شيأ وانما يعزل النصارى من الديوان فلم يجبه هذا الرأى أيضا والتفت الى الامير ألماس الحاجب وقال له امض ومعك أربعة من الامراء وضع السيف من باب زويلة الى باب النصر بحيث لاترفع السيف عن أحد البتة وقال لوالى القاهرة اركب الى باب اللوق والى باب البحر ولا تدع أحدا حتى تقبض عليه وتطلع به الى القلعة ومتى لم تحضر الذين رجموا وكيلى يعنى كريم الدين والا وحياة رأسى شنقتك عوضا عنهم وعين معهم عدة من المماليك

السلطانية فخرج الامراء بعد ما تلكؤا فى المسير حتى اشتهر الخبر فلم يجدوا أحدا من الناس
حتى ولا غلمان الامراء ولا حواشيهم ووقع القول بذلك فى القاهرة فقفلت الاسواق وتفرق
الناس واختفوا وسار الامراء فلم يجدوا فى طول طريقهم أحدا الى أن بلغوا باب النصر
وقبض الوالى من باب اللوق وناحية بولاق على كثير من الكلا بزية والنوتية وأسقاط الناس
فاشتد الخوف وعدّى كثير من الناس الى البر الغربى بالجيزة وخرج السلطان من الميدان فلم
يجد فى طريقه الى أن صعد قلعة الجبل أحدا من العامة فلما استقر بالقلعة سير الى الوالى
يستعجل حضوره فما غربت الشمس حتى أحضر من أمسك من العامة نحو مائتى رجل فعزل
منهم طائفة أمر بشنقهم وجماعة رسم بتوسيطهم وجماعة رسم بقطع أيديهم فصاحوا
جميعا ياخوند مايحل لك مانحن الذين رجمنا قيل فبكى الأمير بكتمر الساقى ومن حضر
من الامراء رحمة لهم وما زالوا بالسلطان الى أن قال للوالى اعزل منهم جماعة وانصب
الخشب من باب زويلة الى تحت القلعة بسوق الخيل وعلق هؤلاء بأيديهم فلما أصبح
يوم الاحد علق الجميع من باب زويلة الى سوق الخيل وكان فيهم من له بزة وهيئة ولم
يفتح أحد من أرباب الحوانيت بالقاهرة ومصر فى هذا اليوم حانوتا ❁ وجلس السلطان
فى الشباك وقد أحضر بين يديه جماعة ممن قبض عليهم الوالى فقطع أيدى وأرجل ثلاثة
منهم والامراء لايقدرون على الكلام معه فى أمرهم لشدة حنقه فتقدم كريم الدين
وكشف رأسه وقبل الارض وهو يسأل العفو فقبل سؤاله وأمر بهم أن يعملوا فى حفير
الجيزة فأخرجوا وقد مات ممن قطع أيديهم اثنان وأنزل المعلقون من على الخشب وعند
ما قام السلطان من الشباك وقع الصوت بالحريق فى جهة جامع ابن طولون وفى قلعة
الجبل وفى بيت الامير ركن الدين الاحمدى بحارة بهاء الدين وبالفندق خارج باب البحر
من المقس وما فوقه من الاربع واستمر الحريق فى الاماكن الى يوم السبت فلما ركب
السلطان الى الميدان على عادته وجد خلقا كثيرا جدا من العامة قد صبغوا خرقا من القماش
بلون أزرق وعملوا فيها صلبانا بيضا وعند ما رأوا السلطان صاحوا بصوت عال واحد لا دين
الادين محمد بن عبد الله يامالك الناصر ياسلطان الاسلام انصرنا على أهل الكفر ولا تنصر
النصارى فتعجب السلطان من فعالهم وسار حتى نزل بالميدان وصراخ العامة لا يبطل ولم
يستقر به المقام حتى أمر الحاجب أن يخرج وينادى بين يديه من وجد نصرانيا فله ماله
ودمه فخرج ونادى بذلك فصاحت العامة وصرخت نصرك الله وضجوا بالدعاء وكان النصارى
يلبسون العمائم البيض فنودى فى القاهرة من وجد نصرانيا بعمامة بيضاء حل له دمه وماله
ومن وجد نصرانيا راكبا حل له دمه وماله وخرج مرسوم بلبس النصارى العمامة الزرقاء وأن
لايركب أحد منهم فرسا ولابغلا ومن ركب حمارا فليركبه بلا إكاف عرضا ولا يدخل نصرانى
الى الحمام الا وفى عنقه جرس ولا يتزيا أحد منهم بزى المسلمين ومنع الامراء من استخدام
المسيحيين وأخرجوا من ديوان السلطان وكتب لسائر الاعمال بصرف جميع المباشرين من

المسيحيين وكثر ايقاع المسلمين بهم حتى تركوا السعى فى الطرقات ولبث الحال هكـذا أياما ثم نودى فى الناس بعد ذلك بالأمان وأنهـم يتفرجون على عادتهـم عنـد ركوب السلطان الى الميـدان وذلك أنهم كانوا قـد تخوفوا على أنفسهم لكثرة ما أوقعوا بالمسيحيين وزادوا فى الخروج عن الحد فاطمأنوا وخرجوا على العادة الى جهة الميدان ودعوا للسلطان وصاروا يقولون نصرك الله ياسلطان الارض اصطلحنا اصطلحنا فأعجب السلطان منهم ذلك وتبسم من قولهم وقد سكنت الخواطر وعادت الامور الى سابق مجراها وكانت هـذه الحوادث من أشنع ما حل بمصر خرب فيها من الكنائس كنيسة بخرائب التتر بقلعة الجبل وكنيسة الزهرى فى الموضع الذى فيه البركة الناصرية وكنيسة الحمراء وكنيسة بجوار السبع سقايات تعرف بكنيسة البنات وكنيسة أبى مينا وكنيسة الفهادين بالقاهرة وكنيسة بحارة الروم وكنيسة بالبنـدقانيين وكنيستان بحارة زويلة وكنيسة بخزانة البنود وكنيسة بالخنـدق وأربع كنائس بثغر الاسكندرية وكنيسـتان بمدينـة دمنهور الوحش وأربع كنائس بالغربيـة وثلاثة بالشرقيـة وست بالبهنساوية وباسيوط ومنفلوط ومنية ابن خصيب ثمان كنائس وبقوص وأسوان احـدى عشرة كنيسة وبالاطفيحية كنيسة وبسوق وردان من مدينـة الفسطاط وبالمصاصـة وقصر الشمع من مصر ثمان كنائس وخرب من الديارات شئ كثير * قال بعض أهـل التاريخ وأقام دير البغل ودير شهران مدة لايأوى بهما أحد واحترق بالقاهرة ربع فى سوق الشوائين وزقاق العريسة بحارة الديلم وستة عشر بيتا بجوار بيت كريم الدين وعدة أماكن بحارة الروم ودار بهادر بجوار المشهد الحسينى وأماكن باسطبل الطارمة وبدرب العسل وقصر أمير سلاح وقصر سلار بخط بين القصرين وقصر بيسرى وخان الحجر والجملون وقيسارية الادم ودار بيبرس بحارة الصالحية ودار ابن المغربى بحارة زويلة وعدة أماكن بخط بئر الوطاويط وبالحكر وفى قلعة الجبل وغير ذلك من الاماكن بمصر والقاهرة قال وكانت هـذه الخطوب العظيمة فى مـدة يسيرة للغاية قلما وقع مثلها فى الازمان المتطاولة هلك فيها من الخلق وتلف من الاموال وخرب من الاماكن ما لا يمكن وصفه لكثرته ولله عاقبة الامور

وبينما كانت هـذه الخطوب تتعاقب والناس فى خوف ماعليـه من مزيد كان الواشون وأصحاب السعاية يوقعون بين الخليفة المستكفى بالله وبين السلطان الملك الناصر محمـد بن قلاوون وما زالوا يوغرون الصدور حتى أبغض الناصر الخليفة ومال عليه وأخذ يراقب أموره وينتقد أعماله فاشتدت الوحشة بينهما وخرجت سنة ثلاثين وسبعمائة على هذا الحال فأمره السلطان أن ينتقل من القلعة الى مناظر الكبش حيث كان أبوه ساكنا ثم أمره أن يخرج الى بلدة قوص بصعيد مصر فيقيم بها الى ما شاء الله فخرج فى ثامن عشر ذى الحجـة من سنة سبع وثلاثين هو وأولاده وأهله فكانوا زهاء المائة نفس ورتب لهم ما كان مرتبـا لهم بمصر من الكساوى والمأكول فتوجع الناس لخروجه كثيرا * قال الحافظ ابن حجر وكان

طول مدته يخطب له على المنابر حتى فى مدة اقامته بقوص واستمربها الى أن مات فى شعبان سنة أربعين وسبعمائة ودفن بها * وكان قد عهد بالخلافة قبل موته الى ابنه أحمد وأشهد عليه أربعين عدلا وأثبت ذلك على يد قاضى مدينة قوص فلما بلغ ذلك الملك الناصر لم يلتفت الى العهد المذكور وطلب ابن أخى المستكفى ابراهيم ابن ولى العهد المستمسك بالله أبى عبد الله محمد بن الحاكم بأمر الله أبى العباس وكان جده الحاكم قد عهد الى ابنه محمد ولقب المستمسك بالله فمات فى حياته فعهد الى ابنه ابراهيم هذا ظنا منه أنه يصلح للخلافة فرآه غير صالح لما هو فيه من الانهماك فى اللعب ومعاشرة الارذال فنزل عنه وعهد الى ولده المستكفى وهو عم ابراهيم وكان ابراهيم المذكور قد نازعه لما مات الحاكم فلم يلتفت الى منازعته اعتمادا على قول الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد كما تقدم بيان ذلك فى محله فأقام على ضغينة حتى كان هو السبب فى الوقيعة بين عمه وبين الملك الناصر وجرى ماجرى من تبعيده الى مدينة قوص فلم يمض الملك الناصر عهد المستكفى لولده وبايع ابراهيم هذا يوم الاثنين ثالث رمضان كما سيذكر فى محله ولقب الواثق بالله وراجع الناس السلطان فى أمره ووسموه بسوء السيرة خصوصا قاضى القضاة عز الدين بن جماعة فانه جهد كل الجهد فى صرف السلطان عنه فلم يفعل وما زال بهم حتى بايعوه كرها * قال صاحب حسن المحاضرة ثم ان الله فجع الملك الناصر بموت أعز أولاده الأمير أنوك فكان ذلك أول عقوباته ولم يتمع بالملك بعد وفاة المستكفى فأقام بعده سنة وأياما وأهلكه الله وقد قيل ان وفاة المستكفى كانت سنة احدى وأربعين فعلى هذا لم يتم الحول على الناصر حتى مات بعد ثلاثة أشهر سنة الله فيمن مس من الخلفاء أحدا بسوء فان الله يقصمه عاجلا وما يدخره له فى الآخرة من العذاب أشد قال ثم ان الله انتقم من الناصر فى أولاده فسلط عليهم الخلع والحبس والتشريد فى البلاد والقتل لجميع من تولى الملك من ذريته اما أن يخلع عاجلا واما أن يقتل فأول ولد تولى بعده عوجل بخلعه ونفيه الى قوص حيث كان قد سير الخليفة ثم قتل بها وغالب من تولى من ذريته لم تطل مدته اه

ومات الخليفة المستكفى وهو ابن بضع وخمسين سنة بمدينة قوص فكانت خلافته تسعا وثلاثين سنة وكان موته فى شعبان سنة أربعين وسبعمائة كما ذكر

ومات فى أيامه يوحنا بطرك الاسكندرية وكان من الحوادث فى أيامه ما وصفنا من تخريب الكنائس والديارات وقتل الرجال والاطفال وسبى النساء وغير ذلك من الخطوب التى لم يسبق لها مثال فى الايام الغابرة وقد أقام بطركا ستا وعشرين سنة * فلما مات قام أبو الفتوح ابن العياط مع السلطان الملك الناصر فى ولاية القس داود بن يوحنا بن لقلق الفيومى فانه كان خصيصا به فأجابه السلطان الى ذلك وكتب توقيعه فشق ذلك على المسيحيين وقام منهم الاسعد بن صدقة كاتب دار التفاح بمصر ومعه جماعة وتوجهوا سحرا ومعهم الشموع الى تحت قلعة الجبل حيث كان يسكن السلطان واستغاثوا وأوقعوا

فى القس داود وقالوا انه لايصلح وفى شريعتنا أنه لا يقوم البطرك الى هذا المسند الا باتفاق الجهور عليه فبعث السلطان بطيب خواطرهم وكان القس المحكى عنه قد ركب بكرة ومعه لفيف الاساقفة وخلق كثير من المسيحيين ليقدموه بكنيسة المعلقة بمصر وذلك يوم الاحد فركب السلطان من قلعة الجبل وأوقف ولاية القس المذكور وبعث فى طلب الاساقفة لتحقيق الامر فوافتهم الرسل مع القس فى الطريق فأخذوهم فدخل القس عندئذ فى كنيسة فى الطريق وبطلت رسامته يومئذ فأقام المتأصلون بغير بطرك تسع عشرة سنة ومائة وستين يوما وكان بعد ذلك من أمرهم ما سيذكر فى محله

(الفصل الرابع)

(فى خلافة ابراهيم الواثق بالله ابن ولى العهد المستمسك بالله)

لما مات الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله طلب السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ابن أخى المستكفى ابراهيم ابن ولى العهد المستمسك بالله أبى عبد الله محمد بن الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد وبايعه بالخلافة فى يوم الاثنين ثالث رمضان سنة ست وأربعين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وأربعين وثلثمائة ميلادية رغما عما بدا من قاضى القضاه عز الدين بن جماعة من صرف السلطان عنه وما زال السلطان بالناس حتى بايعوه فى السنة المذكورة واستقرت له الخلافة فبالغ السلطان فى تعظيمه وقربه اليه واختص به ورتب له الرواتب الكثيرة نكاية فى ولد المستكفى والمتحزبين له وما زال على هذا الحال والناس فى خلافته على قسمين حتى مرض السلطان الملك الناصر ومات فى يوم الاربعاء سابع عشرى ذى الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة ولاختلاف الامراء وتباين أغراضهم لم يتفقوا على الذى يولونه السلطنة من بعده فاشتغلوا بذلك وتركوا السلطان المتوفى ليلة فى قلعة الجبل بغير دفن حتى تم الامر لابنه أبى بكر المنصور فى يوم الخميس ثم أخذوا فى تجهيز السلطان المتوفى فوضع فى محفة بعد العشاء الاخيرة وحمل على بغلين وأنزل من قلعة الجبل الى الاسطبل السلطانى وسار به الامير ركن الدين بيبرس الاحمدى أمير جندار والامير نجم الدين والى القاهرة وقطلوبغا الذهبى وعلمدار خوطا بهار الدوادار وعبروا به الى القاهرة من باب النصر وقد أقفلت الحوانيت كلها ومنع الناس من الوقوف للنظر اليه وقدام المحفة شمعة واحدة فى يد علمدار وعبروا به المدرسة المنصورية بين القصرين ليدفن عند أبيه الملك المنصور قلاوون وكان الامير علم الدين سنجر الجاولى ناظر المارستان قد جلس ومعه القضاة الاربعة وشيخ الشيوخ ركن الدين شيخ خانقاه سرياقوس والشيخ ركن الدين عمر بن

الشيخ ابراهيم الجعبرى لحطت المحفة وأخرج منها ووضع تجاه الفسقية التى بالقبة وأمر ابن أبى الظاهر مغسل الاموات بتغسيله فغسله وكفن فى نصيفة وعملت له أخرى طراحة ومخدة ووضع فى تابوت من خشب وصلى عليه قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن محمد بن جماعة الشافعى بمن حضر وأنزل الى قبر أبيه فى سحلية من خشب وقد ربطت بحبل ونزل معه الى القبر الغاسل الامير سنجر الجاولى * قلت فسبحان من لا يحول ولا يزول انظر كيف ملك كثيرا من المعمور من الارض ومات غريبا وغسل طريحا ودفن وحيدا ان فى ذلك لعبرة لقوم يتبصرون ۞ قال بعض كتاب الاخبار ومات الملك الناصر وليس له نائب بديار مصر ولا حاجب متصرف وكان أبيض اللون قد وخطه الشيب وفى عينيه حول وبرجله اليمنى أثر شوكة تنغص عليه أحيانا وتؤلمه وكان لايكاد يمس بها الارض ولا يمشى الا متكئا على أحد أو متوكئا على شئ ولا يصل الى الارض الا أطراف أصابعه وكان شديد البأس يتولى الامور بنفسه مهيبا عند أهل دولته اذا وقف الامراء فى خدمته لا يجسر أحد أن يتكلم مع آخر كلمة ولا يلتفت بعضهم الى بعض خوفا منه ولا يمكن أحدهم أن يذهب الى بيت أحد البتة لا فى وليمة ولا غيرها فان فعل أحد منهم شيأ من ذلك قبض عليه وأخرجه من يومه منفيا وكان عارفا بأمور رعيته وأحوال مملكته وأبطل نيابة السلطنة من ديار مصر فى سنة سبع وعشرين وسبعمائة وأبطل الوزارة وصار يتحدث بنفسه فى الجليل من الامور والحقير فعظمت حاشية المملكة وكثرت أتباع السلطنة وتخولوا فى النعم الجزيلة حتى الخولة منهم والكلابزية وكان كثير الاخذ بالشبهات فقتل فى أيامه خلقا كثيرا من الامراء وكان اذا كبر أحد من أمرائه وظهر قبض عليه وسلب نعمته وأقام بدله من صغار مماليكه الى أن يكبر ويعظم أمره فيقبض عليه ويقيم بدله ليأمن بذلك شرهم وكان كثير التخيل والحذر حتى انه اذا تخيل من ولده قتله وفى آخر أيامه عظم شرهه فى جمع الاموال فصادر الكثير من الدواوين القبط والولاة وغيرهم ورمى البضائع على التجار حتى خاف كل من له مال وانكمش وكان مخادعا كثير الفشل لا يقف عند قول ولا يفى بعهد ولا يبر فى يمين وكان محبا للعمارة فعمر عدة أماكن منها جامع القلعة وقد هدمه مرتين وعمر القصر الابلق بالقلعة ومعظم الاماكن التى بالقلعة وعمر المجرى الذى ينقل الماء عليه من النيل الى قلعة الجبل على السور وعمل الميدان تحت القلعة ومناظر سرياقوس والخانقاه بسرياقوس وحفر الخليج الناصرى بظاهر القاهرة وعمر الجامع الجديد على شاطئ النيل بظاهر مصر وجدد جامع الفيلة الذى بالمرصد والمدرسة الناصرية بين القصرين من القاهرة وغير ذلك وما زال يعمر منذ عاد فى ولايته الثالثة الى أن مات * قال بعض كتاب الاخبار وبلغ مصروف العمارة فى كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة عنها ثلثمائة وخمسون دينارا سوى من يسخر من المقيدين وغيرهم فى عمل ما يعمره وحفر عدة من الخلجان والترع وأقام الجسور

بالبلاد حتى انه كان يصرف من الاخباز على ذلك ربع متحصل الاقطاعات وحفر خليج الاسكندرية وبحر المحلة مرتين وبحر اللبينى بالجيزة وعمل جسر شيبين وجسر أجاش بالشرقية والقليوبية مدة ثلاث سنين متوالية فلم ينجح فأنشأه بنيانا بالطوب والجير وأنفق فيه أموالا عظيمة ورالك فى أيامه ديار مصر والشام وغزا عدة غزوات فتح فيها جزيرة ارواد فى سنة اثنتين وسبعمائة وفتح مطلية فى سنة خمس عشرة واناس فى ربيع الاول سنة ثلاث وعشرين وخربها ثم عمرها الارمن فسير لها جيشا عظيما فأخذها وأخذ معها عدة بلاد من بلاد الارمن وذلك سنة سبع وثلاثين وأقام بها نائبا من أمراء حلب وعمر قلعة جعبر بعد خرابها واندثارها وضرب السكة باسمه فى سنة احدى وأربعين فى شوال وخطب له فى ارتنا احدى بلاد الروم وضربت السكة باسمه أيضا وكذلك ببلاد القرمان و بلاد الكرد وكثيرمن بلاد الشرق وكان من الذكاء المفرط على جانب عظيم يعرف مماليك أبيه ومماليك الامراء باسمهم ووقائعهم وكان علىّ الهمة كبير السياسة واسع المعرفة بمهادنة الملوك يبذل فى ذلك من الاموال مالا يوصف كثرة فكان كتابه ينفذ أمره فى سائر أقطار الارض وهو مع ذلك مؤيد فى جميع أموره مظفر فى كل أحواله مسعود فى سائر حركاته * وكانت مدة سلطنته فى المرة الثالثة أربعا وأربعين سنة وخمسة عشر يوما خارجا عما بين ذلك قال بعض الكتاب ولما احتضر ندم على ما فعل من مبايعة ابراهيم الواثق بالله ابن ولى العهد المستمسك فأوصى الامراء برد العهد الى ولى عهد المستكفى بالله وخلع بيعة الواثق * فلما استقرت السلطنة بولده أبي بكر المنصور عقد مجلسا يوم الخميس حادى عشرى ذى الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة وطلب الواثق ابراهيم وولى العهد أحمد بن المستكفى المتوفى بمدينة قوص وسأل القضاة قائلا * من يستحق الخلافة شرعا * فقال ابن جماعة ان الخليفة المستكفى المتوفى أوصى بالخلافة من بعده لولده أحمد وأشهد عليه أربعين عدلا بمدينة قوص وثبت ذلك عندى بعد ثبوته على يد نائبى بمدينة قوص فعند ذلك قام السلطان وخلع الواثق ابراهيم وبايع أحمد وبايعه القضاة كلهم * قال الحافظ بن حجر ولقب أولا المستنصر ثم لقب الحاكم بأمر الله لقب جده وكتب له ابن فضل الله صورة المبايعة وقد أضربنا هنا عن ايرادها فكانت مدة خلافة الواثق ابراهيم المذكور ثلاثة أشهر وتسعة أيام

قلت ولم يعتبر جماعة المؤرخين خلافة الواثق المذكور مدة صحيحة ولذلك لم يذكرها أحد منهم فى مددهم سوى الذهبى فى آخر ذيله على العبر وقد قال الحسينى فى ذيله على العبر أيضا ان الذى قام بالخلافة بعد المستكفى ابنه أحمد الملقب بالحاكم بأمر الله وكان ولىّ عهد أبيه اهـ

(الفصـــــل الخامس)

(فى خلافة الحاكم بامر الله احمـد بن المستكفى بالله)

ثم قام بالامر بعـد المستكفى بالله ابنـه الحاكم بأمر الله أحمد وكان ولى عهد أبيه كما سـبقت الاشارة الى ذلك بويع له بالخـلافة يوم الخميس حادى عشرى ذى الحجة سنة ست وأربعـين وسبعمـائة هجرية أى سنة خمس وأربعين وثلثمـائة وألف للميلاد بمشورة ابن جماعة بايعه السلطان المنصور أبو بكر بن الملك الناصر قلاوون وبايعه القضـاة والامراء بعـد خلع الواثق ابراهيم فى اليوم المذكور ولقب بالحاكم بأمر الله لقب جـده واستقرت له الخلافة وأمده السلطان بالرواتب الكثيرة والعطاء الوافر * فلما كان ثانى يوم المحرم افتتاح سـنة اثنتين وأربعـين وسبعمـائة حضر الخليفة الحاكم بأمر الله المذكور والسلطان الملك المنصور أبو بكر والقضاة بدار العدل فجلس الخليفة على الدرجـة العليا وعليه خلعة خضراء وفوق عمـامته طرحة سوداء مرقومة بالذهب وجلس السلطان دون مقـام الخليفة وخطب خطبـة فتحها بقوله * ان الله يأمر بالعدل الآية وبقوله * وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم الآية * ثم أوصى الامراء بالرفق بالرعيـة واقامة الحق وتعظيم شعائر الاسـلام ونصرة الدين ثم قال * فمن نكث فانما ينكث على نفسه وقرأ الآية * وجلس ثم جىء بخلعة سوداء ألبسها الخليفـة السلطان بيده ثم قلده سـيفا عربيـا ثم أخـذ عـلاء الدين بن فضـل الله كاتب السر فى قراءة عهـد الخليفة للسلطان حتى فرغ منه ثم قدمه الى الخليفة فكتب عليه ثم كتب بعده القضاة الاربعة بالشهادة عليه ولكن لم تطل مدة السلطان الملك المنصور بعد ذلك فانه سـلم الأمير قوصون زمام الملك وصرّفه فى جميع الامور بلا استثناء فخانه وعمـل لنفسه وكان من أمره ماسيتلى عليك * قال بعض كتّاب الأخبار وقوصون هذا هو سـيف الدين حضر من بلاد بركـة الى ديار مصر صحبة خوند ابنـة أزبك امرأة الملك النـاصر محمـد ابن قلاوون فى ثالث عشرى ربيع الآخر سنة عشرين وسبعمـائة ومعـه قليل من العصىّ وطسما ونحو ذلك مما قيمته خمسمائة درهـم ليتجر فيها فطاف بذلك فى الأسواق بالقاهرة وتحت قلعة الجبـل وفى داخـل القلعة فاتفق انه فى بعض الايام دخل الاسطبل السلطانى ليبيع ما معـه فأحبه بعض الاوشاقية وكان صبيا جميلا طويل القامة له من العمر ما يقارب الثمـان عشرة سـنة فصار يتردد الى الاوشاقى الى أن رآه السلطان فوقع منـه موقعـا فسأل عنه فعرف بأنه يحضر ليبيع مامعه وأن بعض الاوشاقية تولع به فأمر باحضاره اليه وابتاع منه نفسه ليصير من جملة مماليكه السلطانيـة فنزله من جملة السقاة وشغف به وأحبه حبا كثيرا فأسلمـه للامير بكتمر الساقى وجعله أمير عشرة ثم أعطاه امرة طبلخاناه ثم جعله أمير مائة

مقدم ألف ورقاه حتى بلغ أعلى المراتب فلما كبر وظهر أمره أرسل الى بلاده وأحضر اخوته سوسون وغيره من أقاربه وأمر الجميع واختص به السلطان بحيث لم ينل أحد عنده ما ناله وزوجه بابنته وتزوج السلطان أخته فلما احتضر السلطان جعله وصيا على أولاده وعهد لابنه أبي بكر فأقيم فى الملك من بعده وأخذ قوصون المذكور فى تدبير المملكة وتصرف فى جميع الامور وحجر على أبي بكر وضيق عليه ثم تاقت نفسه الى الملك فأخذ فى أسباب السلطنة وأخرج أبا بكر المنصور بعد شهرين من ولايته الى مدينة قوص بصعيد مصر فى يوم الاحد لعشرين من صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة هو واخوته فتهتكت يومئذ نساء أبيه الناصر وكثر البكاء والعويل بالقاهرة يوم خروجه ولم يستقر به المقام بقوص حتى سير اليه من قتله وخاف قوصون أن يعجل بارتقاء كرسى السلطنة فأقام بعد الملك المنصور أخاه أبا بكر علاء الدين كجك بن الناصر محمد بن قلاوون ولقب بالاشرف ولم يكمل له من العمر ثمان سنين وقيل ست وقيل خمس وتقلد قوصون نيابة السلطنة بديار مصر فأمر حاشيته وأقاربه ستين أميرا وأكثر من العطاء وبذل الاموال والانعام فصار أمر الدولة كله بيده هذا وأحمد بن السلطان الملك الناصر بمدينة الكرك مقيم يراقب الفرص ويستطلع الاخبار فخاف قوصون منه وأخذ فى التدبير عليه فلم يتم له ما أراد من ذلك وحرك ساكنا فى نفس أحمد فتجرد أحمد بعد ذلك لطلب الملك وخاطب الامراء وكاتب بعض النوّاب بالديار الشامية والمصرية فأذعنوا اليه وكان بمصر من الامراء الامير ايدغمش والامير آل ملك وقارى والماردانى وغيرهم فارتاب قوصون منهم وأخذ فى التدبير عليهم فأحسوا بذلك وخافوا فوات الوقت فركبوا لقتاله وحصروه بقلعة الجبل وما زالوا حتى قبضوا عليه فى ليلة الاربعاء آخر رجب سنة اثنتين وأربعين ونهبت داره وسائر دور حواشيه وأسبابه وسير الى الاسكندرية صحبة الامير قلاى فقتل بها واعتقلوا السلطان الملك الاشرف بقلعة الجبل فى أوائل شعبان وبقى معتقلا الى أن مات فى سنة ست وأربعين * قال صاحب السكردان والله أعلم كيف كان موته فكانت سلطنته خمسة أشهر وعشرة أيام

وقام الامير ايدغمش بأمر الدولة وتدبير المملكة وسير الى شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاون يستدعيه من الكرك ليوليه سلطنة مصر فقام على البريد فى عشرة من أهل الكرك ليلة الخميس ثامن عشرى رمضان وعبر الدور من قلعة الجبل بمن كان معه واحتجب عن الامراء ولم يخرج لصلاة العيد ولاحضر السماط على العادة الى أن لبس شعار السلطنة وعقد له المبايعة بينه وبين الخليفة الشيخ تقى الدين بن السبكى وكان قد حضر يومئذ من الشام ولقب بالملك الناصر شهاب الدين وجلس على سرير الملك فى يوم الاثنين عاشر شوال من السنة فلما استقرت به السلطنة وتصرّف فى الامور أعرض عن الامراء وتباعد عنهم ولم يراع لهم حرمة ولا اعتبارا وما زال حتى ساءت سيرته وخبثت سريرته واشتدت الوحشة بينهم وبينه فخشى شر العاقبة وأظهر السفر الى الكرك لترويح النفس

والتخلى عن أشغال السلطنة حينا وخرج فى يوم الاربعاء ثانى ذى القعدة واستخلف الامير آق سنقر نائب الغيبة فلما وصل قبة النصر بظاهر القاهرة نزل عن فرسه ولبس ثياب العرب ومضى مع خواصه من أهل الكرك على البريد وترك الاطلاب فسارت حتى وافته بالكرك فرد العسكر الى بلاد الخليل وأقام بقلعة الكرك ففرح الامراء بخروجه وخلعوه فى يوم الاربعاء حادى عشر المحرم افتتاح سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فكانت سلطنته ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوما أو أربعين يوما ثم قتل فى أوائل سنة أربع وأربعين كما سيذكر فى محله

ولما خلع الملك الناصر شهاب الدين المذكور أقاموا بعده أخاه عماد الدين اسماعيل ولقب بالملك الصالح وبايعوه فى يوم الخميس ثانى عشرى المحرم المذكور وقام الامير أرغون زوج أمه بتدبير المملكة ومعه عدة من الامراء فلما استقرت به السلطنة سير الى الكرك جماعة من الامراء وكثيرا من العساكر والاجناد لقتال الناصر محمد وكانت قد وردت اليه الاخبار بتأهب الناصر محمد لرد الملك لنفسه والاستعداد للبطش بجميع الامراء المصريين فالتقى الجمعان واقتتل الجنود قتالا شديدا فكانت الحرب بينهم سجالا وطالت أياما كثيرة فلما كان فى أحد الايام اشتبك القتال بين الفريقين واشتد فثبتت العساكر المصرية وقاتلت قتال الابطال وما زالت حتى أخذت الناصر محمدا من وسط قومه فانقض عليه سيف الدين منجق اليوسفى وكان من أجناد السلحدارية واحتز رأسه فانفشل أصحابه وتمزق جمعهم وولوا مدبرين وتمت عليهم الهزيمة وعاد اليوسفى الى مصر ومعه رأس الناصر محمد فى غلق وعاد الامراء ومن بقى من العساكر ووصل الخبر بما جرى الى السلطان الملك الصالح عماد الدين ففرح بالنصر وأجاز اليوسفى بالامرة على ديار مصر فظهر نبله وصار من هذا الحين يتنقل فى مراتب الدولة حتى عظم شأنه واتسعت كلمته وكان من أمره بعد ذلك ماسيذكر فى حينه * ولما أحضرت رأس الناصر محمد أمام السلطان الملك الصالح ووقع بصره عليها فزع وأخذه الخوف فرض واشتد به المرض وما زال يتنابه حتى مات فى ليلة الخميس رابع عشر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة وقيل رابع ربيع الآخر وعمره نحو عشرين سنة فكانت سلطنته ثلاث سنين وشهرين وأحد عشر يوما وكان حسن السيرة لين العريكة بعيد الغضب محجورا عليه فى جميع أموره ليس له من الملك سوى الاسم فقط والامر بيد الامير أرغون ومن كان معه من الامراء المصريين فقام بالامر بعده أخوه زين الدين شعبان بعهد من أخيه ولقب الملك الكامل وجلس على تخت السلطنة من غده فلما استقرت به السلطنة تاقت نفسه الى الاستبداد بالملك وعمل على تبعيد الامير أرغون ومن معه من الامراء واستمال اليه جماعة من المماليك فأحس الامراء بفعاله ووقعت الوحشة بينه وبينهم وطال الامر وكرهوا ماهو عليه وكبر خوفهم فركبوا عليه وتجردوا لقتاله وركب هو كذلك فى طائفة من المماليك الذين اصطفاهم لنفسه والتقى الجمعان واقتتلا

فلم

فلم يثبت أصحابه عند احتدام الوطيس وخذلوه فعاد الى قلعة الجبل منهزما فأتبعه الامراء وساقوا خلفه وحصروه بالقلعة فى يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين ثم خلعوه فى اليوم المذكور فكانت سلطنته سنة واحدة وثمانية وخمسين يوما واجتمع جميع الامراء وتشاوروا فيمن يصلح للولاية بعده فاتفقوا على تولية أخيه زين الدين حاجى فبايعوه بالملك من يومه ولقبوه بالملك المظفر * فلما تمت له البيعة واستقرت به السلطنة عبث بالامور وأساء السيرة وخبثت منه السريرة وانهمك فى الملاذ والملاهى واللعب واستبد بالامر وعمل على تذليل الامراء وابعادهم عن خدمة الدولة واختص بطائفة من الاحداث وسير الامير سيف الدين منجك اليوسفى الى دمشق وولاه الحجابة بها مكان ابن طوقل الحاجب فاتسعت كلمته بالشام وكبرت حرمته وعظم أمره فاستعظم الامراء بمصر ذلك جدا وخافوا من الملك المظفر وهو يخادعهم ويظهر لهم خلاف مايبطن ويعمل على الايقاع بهم فلما أيسوا من الصلح تحالفوا على قتاله وركبوا جميعا عليه فركب هو كذلك فى طائفة من أصحابه واقتتلوا فكانت الحرب بينهم سجالا وما زالوا يقاتلونه حتى خذله من كان معه من المماليك وتركوه فهرب فتبعه الامراء حتى قبضوا عليه واعتقلوه أياما ثم ذبحوه فى يوم الاحد ثانى عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة فكانت مدة سلطنته سنة وثلاثة أشهر واثنى عشر يوما لم يعمل فيها عملا يذكر * وعاد الامراء وتشاوروا فيمن يصلح للسلطنة فاتحدت كلمتهم على تولية أخيه بدر الدين أبى المعالى حسن بن محمد فبايعوه بالملك من يومه ولقبوه بالملك الناصر وذلك يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وله من العمر يومئذ احدى عشرة سنة وأركب من يومه من باب الستارة بقلعة الجبل وعليه شعار السلطنة وفى ركابه جميع الامراء الى أن نزل بالايوان السلطانى ومدبرو الدولة يومئذ الامير يلبغاروس والامير الجيبغا المظفرى والامير شيخو والامير طاز وأحمد شاد الشرابخاناه وأرغون الاسماعيلى فخلع على يلبغاروس واستقر فى نيابة السلطنة بديار مصر مكان ارقطاى وقرر ارقطاى فى نيابة السلطنة بحلب وخلع على الامير سيف الدين منجك اليوسفى واستقر فى الوزارة مع الاستدارية وقرر الامير ارغون شاه فى نيابة السلطنة بدمشق الشام وجعل يتصرف فى الامور على مايشاء * ولما كانت سنة تسع وأربعين وسبعمائة هجرية كثر انكشاف الاراضى من ماء النيل بالبر الشرقى فيما يلى بولاق الى الفسطاط فاهتم رجال الدولة بسد البحر مما يلى الجيزة وفوض ذلك الى الامير منجك فجمع لذلك من الاهالى والامراء من الاموال شيأ كثيرا جدا وبالغ فى العمل وطال الامر أياما كثيرة فلم يجد نفعا وساء الحال وانقطعت الآمال من رى تلك الاراضى وتطير الناس وخافوا شر تلك السنة فقبض السلطان على منجك المذكور فى ربيع الاول من السنة واعتقله واشتد بأسباب ذلك الغلاء وقل الوارد من الغلال وغيرها * قال بعض كتاب الاخبار وظهر بعد ذلك الوباء واشتد وكثر الموت فى الناس كثرة بالغة فكان الفقراء يموتون فى الازقة والحارات وعلى أبواب المساجد ولا

يجدون من يحملهـم وامتلأت كذلك البيوت بالموتى وبقوا أياما بغير دفن فكانت الكلاب
تدخـل البيوت وتأكل الاحياء من الاطفال وتشبع من جثث الاموات فكان أمرا مهولا
للغاية وبقى أياما كثيرة حتى ارتفع وزال * وقد تشاءم الناس من أيام السلطان الملك الناصر
بدر الدين وتطيروا من حكمه فانحرفت عنه القلوب وتغيرت عليه الخواطر وقد زادهم بغضا له
وحقدا عليه سوء تصرفه وعدم اكترائه بالامور وكراهته للامراء فانه لما رشد وأثبت رشده
فى سنة احدى وخمسين وسبعمائة هجرية استبد بالامر وجعل يتصرف بما فى نفسه وقبض
على الأمير منجـك الوزير وسجنه ورسم بالقبض على الامير بلبغاروس نائب السـلطنة بديار
مصر وهو مسافر الى الحجاز فقبضوا عليه وألقوه فى السجن وعمل على الوقيعـة بالامير شيخو
العمرى ولكنه كان يخشى العاقبة لما لشيخو المذكور من الصولة والكلمة المسموعة فاتفق ان
شيخو خرج متصيدا الى ناحيـة طنـان بالغربيـة فلما كان يوم السبت رابع عشرى
شوال سنة احدى وخمسين استدعى اليه السلطان جميع الامراء واستحلفهم لنفسـه فحلفوا
بالطاعـة والوفاء فكتب عند ذلك تقليدا للامـير شيخو بنيابة طرابلس وجهزه اليها مع الامير
سيف الدين طينال الجاشنكير فسار اليه وأخذه من طينال ولم يمكنه من العود الى القاهرة
فوصـل الى دمشق ليـلة الثـلاثاء رابع ذى القعدة ولم يستقر به المقام حـتى ظهر مرسوم
السلطان ببقاء شيخو بدمشق على اقطاع الامير بيلبك السالمى وتجهيزه الى القاهرة فخرج بيلبك
من دمشق وأقام شيخو على اقطاعه فما وصل بيلبك الى القاهرة الا وقد وصل دمشق مرسوم
السلطان بامسـاك شيخو وتجهيزه الى السلطان مقيدا وتقييد مماليكه واعتقـالهم بقلعة دمشق
فقبض عليه وسير الى القاهرة مكبلا بالقيود * ولما وصل الى قطيا ساروا به منها الى الاسكندرية
فلم يزل معتقلا بها الى أن خلع السلطان الملك الناصر حسن وتولى أخوه الملك الصالح فأفرج
عنـه وعن منجك الوزير وعـدّة من الامراء فوصلوا الى القاهرة فى رابع رجب سنة اثنتين
وخمسين وسبعمائة وكان من أمره بعد ذلك ماسيذكر فى محله ان شاء الله * قال أصحاب التاريخ
وشيخو هـذا هو الامـير الكبير سـيف الدين أحـمد أحد مماليك الناصر محـمد بن قلاوون
حظى عنـد الملك المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون وزادت وجاهتـه حتى شـفع فى الامراء
وأخرجهم من سجن الاسكندرية ثم انه استقر فى أول دولة الملك الناصر حسـن أحد أمراء
المشورة ثم ترفع الى أن صارت القصص تقرأ عليـه بحضرة السلطان فى أيام الخدمة وصار
زمام الدولة بيده فساسها أحسن سياسة بسكون وعدم شره وكان نافذ الكلمة مسموع الرأى
صائب الفكر ميالا الى الدعـة والسكون والتأليف بين الاحزاب فاحبه الامراء ومالوا اليـه
وأخذوا بقوله فلم يخالفوا له كلمة * واشتدّ السلطان الملك الناصر على بقيـة الامراء والعمال
بالجهات وضيق عليهم وقبض على الامير المجاهد صاحب اليمـن وأتى به الى القاهرة مقيـدا
بالحـديد وألقاه فى السجن أياما ثم أطلقه ثم عاد فقبض عليه وسيره الى قلعة الكرك وسجنه
بها فامتلأت قلوب الامراء كافة حقدا عليه واجتمعوا وتحالفوا على قتاله فلما كان يوم الاحد

سابع عشرى جمادى الآخرة ركبوا لقتاله وهم طاز واخوته ويلبغا الشمسى وبيغوا ووقفوا تحت القلعة وصعد الامير طاز وهو متقلد سلاحه الى قلعة الجبل فى عدة وافرة من الجند وقبضوا على السلطان فى الحال وسجنوه بالدور الاسفل من القلعة فكانت مدة ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر

ثم أقاموا بعده أخاه صلاح الدين صالح وبايعوه فى يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة وطيروا الاخبار بذلك الى الآفاق وبقى السلطان الملك الناصر أبو المعالى حسن معتقلا مؤثرا الاشتغال بالعلم * قال بعض الكتاب وكتب بخطه نسخة من كتاب دلائل النبوة للبيهقى فكانت حسنة وكان لايتحرش فى الظاهر لشئ من أمور الدولة ولا لشئ من أحوالها وكان يظهر غاية الرضا عن الحالة التى هو عليها * أما السلطان الملك الصالح صلاح الدين فانه لم يستقر به الملك حتى كثر لهوه وخرج عن الحد فى التبذل والعبث بمصلحة الدولة وأمور المملكة وكان هو الثامن ممن تولى الملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون ثم جعل يبطل ماأمضاه أخوه فرسم بالافراج عن الأمير شيخو والامير منجك من معتقلهما بمدينة الاسكندرية فحضرا الى القاهرة فى رجب سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة ونزل الامير منجك بالاشرفية من قلعة الجبل وكان السلطان الملك الناصر قد صادره وأخذ جميع أمواله وفرّق أملاكه على بعض المماليك السلطانية فلما استقر بالاشرفية بعث اليه الامير شيخو خمس رؤس خيل وألفى دينار وبعث اليه أيضا جميع الامراء بالتقدمات والهدايا وأقام لايعمل عملا ولا رجع الى خدمة الدولة فكان يجلس على حصير فوق ثوب سرج عتيق وكلما أتاه أحد من الامراء يبكى ويتوجع ويقول انظروا كيف أخذوا جميع مالى حتى صرت على ما ترونى ثم كتب فتوى تتضمن أن رجلا مسجونا فى قيد هدد بالقتل ان لم يبع أملاكه وانه خشى على نفسه القتل فوكل فى بيعها فأفتاه الفقهاء بأنه لايصح بيع المكره فتقدم الامراء الى السلطان فى أمره وفى رد أملاكه عليه فعارضهم فى ذلك الامير صرغتمش ثم قبل السلطان أن يرد عليه من أملاكه ماأنعم به السلطان على مماليكه فاسترد عدة أملاك وأقام الى أن قام يلبغاروس بحلب وخرج عن طاعة السلطان فاختفى منجك بعد ذلك وحسب السلطان ماوراء اختفائه فطلبه فلم يجده فأمر باطلاق النداء عليه بالقاهرة ومصر وفتش عليه وهدّد من أخفاه وألزم عربان العايد باقتفاء أثره فلم يوقف له على خبر وكبسوا عليه عدة أماكن بالقاهرة ومصر وفتش عليه حتى فى داخل الصهاريج التى بالجامع الذى بناه فأعياهم أمره وأدرك السلطان السفر لحرب يلبغاروس بحلب لخروجه فأخذ يتأهب لذلك الى يوم الخميس رابع شعبان فخرج الامير طاز وعرض الامير شيخو والامير صرغتمش أطلابهما وقد وصل الامير طاز الى مدينة بلبيس فحضر اليه من أخبره انه رأى بعض أصحاب منجك فسير اليه وأحضره وفتشه فوجد معه كتاب منجك الى أخيه يلبغاروس بحلب وفيه انه مختف عند الحسام الصفدى استاداره فبعث الكتاب الى الامير شيخو فوافاه والاطلاب خارجة

فاستدعى بالحسام وسأله فأنكر فعاقبه الامير صرغتمش فلم يعترف فركب الى بيت الحسام بجوار الجامع الازهر وهجمه واذا منجك ومعه مملوك فشد وثاقه وساربه مشهرا بين الناس وقد هرعوا من كل مكان الى قلعة الجبل فسجن بالاسكندرية ثانية الى أن شفع فيه الامير شيخو فأفرج عنه فى ربيع الاول سنة خمس وخمسين ورسم له أن يسير الى صفد فسار اليها من غير أن يعبر الى القاهرة ولم يتم خروج السلطان لقتال بلبغاروس حتى دخلت سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وظهر الطاعون بمصر واشتد شدة بالغة فكثر الموت فى الناس وعم فتأخر السلطان الملك الصالح عن المسير لقتال بلبغاروس بحلب وتعطلت أعمال الدولة بسبب اشتداد الطاعون وكثرة الموت وأصاب الطاعون الخليفة الامام الحاكم بأمر الله فمات ولم يعهد لاحد بالخلافة بعده فجمع الامير شيخو جميع الامراء والقضاة وأهل الحل والعقد وكان قد رجع الى خدمة الدولة بعد الاعتقال وتولى مسند الحل والعقد وطلب جماعة من بنى العباس ليرى من هو أصلح للامامة وتولى منصب الخلافة فوقع الاختيار على أخيه أبى بكر بن المستكفى فكانت خلافة الحاكم بأمر الله نحو اثنتى عشرة سنة وكانت أحواله كلها شدة وعيشته فى ضيق لعدم كفاية المرتبات المعينة لمنصب الخلافة

(الفصل السادس)

(فى خلافة المعتضد بالله أبى الفتح بن أبى بكر المستكفى بالله)

ثم قام بالخلافة بعد الحاكم بامر الله أخوه المعتضد بالله أبو الفتح بويع بغير عهد وقيل بعهد من أخيه الحاكم بأمر الله وهو أبو الفتح بن أبى بكر المستكفى بالله أبى الربيع سليمان بن الحاكم بامر الله أبى العباس أحمد بن أبى علىّ بن المسترشد بالله العباسى ولقب بالمعتضد وكنى أبا الفتح وذلك سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة هجرية أى نحو سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة وألف ميلادية فلما استقرت به الخلافة ضم اليه نظر المشهد النفيسى ليستعين بما يرد الى ضريح السيدة نفيسة من نذر العامة على تقويم أوده * قال كتاب الاخبار لان مرتب الخلفاء كان الى هذا الحين على مكس الصاغة لاغير وحسبه أن يقوم بما لابد منه من قوتهم فكانوا أبدا فى عيش ضيق فحسنت نوعا حالة الخليفة المعتضد بما كان يبيعه من الشمع المحمول الى المشهد ونحوه وصار فى رغد من العيش وكان الى مابعد تولية المعتضد الخلافة بايام قد ارتفع الطاعون و زال من جميع البلاد فجعل السلطان الملك الصالح يتأهب لقتال بلبغاروس بحلب وأمر فنادوا فى الجند بالخروج الى ظاهر القاهرة فصاروا يخرجون أطلابا والسلطان يستحث الامراء و يشدد عليهم وهم يتلكئون و يظهرون غير ما يبطنون

وطالت أيام النداء فى العسكر بالخروج وعظم بغضهم لنصرة السلطان الملك الصالح على يلبغاروس وكره الامراء السلطان وظهر بغضهم له فأهمل لذلك التجريدة وبطلت أو كادت وتشاغل السلطان عنها باستمالة العامة واسترضائهم ليكونوا له عونا على الامراء اذا ركبوا عليه وخرجوا عن طاعته فعرف العامة منه ذلك وأخذت منهم الخيلاء فجعلوا يطلبون من السلطان المطاليب الكثيرة وتقدم اليه جماعة منهم فى طلب أخذ جميع الاملاك الموقوفة على الديارات والكنائس بمصر وأعمالها وألحوا فى الطلب فمال السلطان الى قولهم وأحال الامر على ديوان الاحباس فوجد أن للنصارى أوقافا تبلغ زهاء الخمسة وعشرين ألف فدان كلها موقوفة على الكنائس والديارات فلما عرضوا ذلك على الامير شيخو والامير طاز والامير صرغتمش وهم القائمون بالامر يومئذ قرروا بأن تضاف جميع هذه الاطيان الى اقطاعات الامراء وتنزع من أيدى النصارى فانتزعوها واشتد الحال على النصارى بعد ذلك شدة عظيمة وعاد العامة الى تخريب الكنائس وهدم الديارات كما فعلوا فى أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فهدموا عدة كنائس بمصر والقاهرة وخربوا عدة أخرى وخرج الحاجب والامير علاء الدين على بن الكورانى والى القاهرة الى ناحية شبرى الخيام من ضواحى مصر فهدموا كنيسة بها وأخذوا منها اصبع الشهيد وأحضروه الى الملك الصالح فرسم باحراقه فاحرق بين يديه وذرى رماده فى البحر * قال بعض كتاب الاخبار فبطل عيد الشهيد من يومئذ واشتد العامة على النصارى شدة بالغة وتطاولت أيديهم الى السلب والنهب وغير ذلك والسلطان لا يرد للعامة كلمة ولا يوقفهم عند حد ارضاء لهم والامراء فى شاغل بما يدبرونه للسلطان وظل الحال هكذا أياما ثم سكنت الفتنة وعادت الامور الى ما كانت عليه وعاد السلطان الى الاهتمام بتجريد العسكر لقتال يلبغاروس بحلب وهم بتولية موفق الدين مسند الوزارة وهو قبطى مرتد فعارضه الامراء فى ذلك وطلبوا تولية علم الدين وهو قبطى مرتد كذلك فامتنع السلطان من قبوله وعارض فشدد الامراء فى الطلب وانضم بعضهم الى بعض واتحدوا على اكراه السلطان على تولية علم الدين المذكور والا خلعوا السلطان وترددت الرسل بين الفريقين واشتد الخلاف وطال الحال أياما فبطل الاهتمام بأمر التجريدة ثانية وتحرز السلطان من الامراء وجمع اليه مماليكه الذين اصطفاهم لنفسه فلما كان يوم الاثنين ثانى شوال سنة خمس وخمسين ثار عليه الاميران شيخو وطاز وقبضا عليه وسجناه بقلعة الجبل فكانت سلطنته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام وهذا عجيب فى الاتفاق ثم اتحدت كلمة الامراء على ارجاع السلطان الملك الناصر حسن فأخرجوه من معتقله وأجلسوه على تخت السلطنة فى يوم الاثنين المذكور فكانت مدة سجنه بقلعة الجبل ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما فلما استقر به المنصب وتصرف فى الامور رسم بالقبض على الامير طاز فامسك وأخرج الى الديار الشامية ثم جعل يأمر وينهى ويتصرف فى الملك مستبدا فهابه الامراء واتسعت

كلمتـه وكبرت شهرته وضرب الفلوس الجدد فعمل كل فلس زنة مثقال وكان كثير البغض للامراء شـديد الرغبة فى الايقاع بهم والتخلص من شرهـم فكان لا ينكف عن تذليلهـم والنكاية بهم وتفريقهم عن بعض فاشتد بغضهم له وجعـلوا يدبرون على قتـله والتخلص منـه * وما دخلت سـنة اثنتين وستين وسبعمائة حـتى ظهر الطاعون بمصر والقاهرة واشتد وفشا فكثر الموت فى الناس والدواب أيضا وعظم أمره ومات خلق كثير للغاية فخرج السلطان فى طائفـة من مماليكه وعـدى الى بر الجيزة وأقام بناحية كوم برا فرارا من الطاعون وخرج معه الامير يلبغا فى طائفة من عسكره وخيم على مقربة من خيام السلطان لحراسته فراسـله الامراء فى أمر قتـله فاجابهـم الى ذلك وجعـل يخالف أمر السلطان ويقبح فعاله فاسـتعظم السلطان منه ذلك وكبر عليـه الامر وما زالا يتنازعان والامـير يلبغا يراقب الفرص ليغتاله الى ليـلة الاربعاء تاسع جمادى الاولى ركب السلطان فى جماعـة من أصحابه ليكبس على الامير يلبغا فى خيمته ويقتله فاحس يلبغا بذلك فخرج عن الخيام وكمن بمكان وهو لابس آلة حربه فى جماعـة من قومـه فلم يظفر السلطان به ورجع فثاربه يلبغا وهجم عليه بمن معه فانكسر السلطان وفر يريد قلعة الجبل فتبعه يلبغا وقد انضم اليه جماعة من الامراء وغيرهـم ممن لايحبون السلطان فدخـل السلطان الى القلعـة وصار يقاتل مع طائفة من مماليكه أياما وراء السور ثم أحس بالكسرة وأنه على وشك أن يؤخذ فنزل مختفيا ومعـه ايدمر الدوادار يريد الخروج الى الشام وسارا الى بيت الامـير شرف الدين موسى بن الازكشى أمـير حاجب يريدان الاختفاء به حتى يتيسر لهـما الخـروج فبعث شرف الدين المذكور الى الامير يلبغا يعلمه بمجيء السلطان اليه فبعث يلبغا فى الحال من قبض عليـه هو والامـير ايدمر ومن ذلك الوقت لم يوقف له على أثر البتـة مع كثرة تفتيش أتباعه وحواشيه على قبره وما آل اليه أمره فكانت مدة ولايته الثانية ست سنين وسبعة أشهر وأياما * قال أصحاب الاخبار واشتد فى أيامه على القبط بمصر ورشيد بغـير سبب فضيق عليهم وأبعدهم عن خـدمة الدولة فلاطفـه كبارهـم لعله يرتدع فلم يقلع عما هو عليـه فعا كسوه وأتعبوه و بالغوا فى تسفيهه والازدراء به فهم بالايقاع بهم فلم يظفر لبغض الامراء له وكراهة طوائف المماليك له فعاد الى ملاطفتهم واستمالتهـم فلم يفلح لتفاقم الخطب واشتداد النفرة منـه وما زال كذلك حتى قبض عليه وقتل

وبنى فى أيامه جامعـه المشهور وهو تحت قلعـة الجبل فيما بين القلعـة و بركة الفيل وكان موضعه بيت الامير يلبغا * قال صاحب الخطط وابتدأ السلطان عمارته فى سنة سبع وخمسين وسبعمائة وأوسع دوره وعمله فى أكبر قالب وأحسن هيئة وأضخم شكل ولا يعرف فى بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هـذا الجامع أقامت العمارة فيـه مدة ثلاث سنين لاتبطل يوما واحدا وأرصد مصروفها فى كل يوم عشرين ألف درهـم عنها نحو ألف مثقال ذهبا * قال ولقد أخـبرنى الطواشى مقبـل الشامى انه سمع السلطان حسنا يقول

أنفق على القالب الذى بنى عليه عقد الايوان الكبير مائة ألف درهم نقرة وهذا القالب مما رمى على الكيمان بعد فراغ العقد المذكور * قال وسمعت السلطان المذكور يقول لولا أن يقال ملك عجز عن اتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه وفى هذا الجامع عجائب من البنيان منها أن ذرع ايوانه الكبير خمسة وستون ذراعا فى مثلها ويقال انه أكبر من ايوان كسرى الذى بالمدائن من العراق بخمسة أذرع ومنها القبة العظيمة التى لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها ومنها المنبر الرخام الذى لا نظير له ومنها البوابة العظيمة ومنها المدارس الأربع التى بدور قاعة الجامع الى غير ذلك وكان السلطان قد عزم على أن يبنى أربع منائر يؤذن عليها فتمت ثلاث منائر الى ان كان يوم السبت سادس شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وستين وسبعمائة فسقطت المنارة التى على الباب فهلك تحتها نحو ثلثمائة نفس من الايتام الذين كانوا قد رتبوا بمكتب السبيل الذى هنالك ومن غير الايتام وسلم من الايتام ستة أطفال فأبطل السلطان بناء هذه المنارة وبناء نظيرتها وبقى هنالك منارتان قائمتان الى اليوم * ولما سقطت المنارة المذكورة لهجت العامة بمصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد أحمد بن على بن محمد السبكى فى سقوطها هذه الابيات

أبشر فسعدك يا سلطان مصر أتى * بشيره بمقال سار كالمثل
ان المنارة لم تسقط لمنقصة * لكن لسر خفى قد تبين لى
من تحتها قرئ القرآن فاستمعت * فالوجد فى الحال أداها الى الميل
لو أنزل الله قرآنا على جبل * تصدعت رأسه من شدة الوجل
تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت * من خشية الله لا للضعف والخلل
وغاب سلطانها فاستوحشت ورمت * بنفسها لجوى فى القلب مشتعل
فالحمد لله حظ العين زال بما * قد كان قدره الرحمن فى الأزل
لا يعترى البؤس بعد اليوم مدرسة * شيدت بنيانها بالعلم والعمل
ودمت حتى ترى الدنيا بها امتلأت * علما فليس بمصر غير مشتغل

قال فاتفق قتل السلطان بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوما * ومات السلطان قبل أن يتم رخام هذا الجامع فأتمه بعده الطواشى بشير الجدار وكان قد جعل السلطان لهذا الجامع أوقافا عظيمة فلم يترك منها الا شئ يسير وأقطع أكثر البلاد التى وقفت عليه بديار مصر والشام لجماعة من الامراء وغيرهم وصار هذا الجامع فى مقابلة قلعة الجبل لانه قلما تكون فتنة بين أهل الدولة الا ويصعد عدة من الامراء وغيرهم الى أعلاه ويصير الرمى منه على القلعة * فلما كان فى سلطنة الملك الظاهر برقوق لم يحتمل ذلك وأمر فهدمت الدرج التى كان يصعد منها الى المنارتين والبيوت التى كان يسكنها الفقهاء ويتوصل من هذه الدرج الى السطح الذى كان يرمى منه على القلعة وهدمت البسطة العظيمة والدرج التى كانت

بجانبى هـذه البسطة التى كانت أمام باب الجامع حتى لا يمكن التسوّر الى الجامع وسـدّ من وراء الباب النحاس الذى لم يعمل فيما عهد باب مثله وفتح شباك من شبابيك احدى مدارس هـذا الجامع ليتوصل منـه الى داخـل الجامع عوضا عن الباب المسدود فصار هذا الجامع تجاه باب القلعـة المعروف بباب السلسلة وامتنع صـعود المؤذنين الى المنارتين وبقى الاذان على درج هـذا الباب * قال المقريزى وكان ابتداء هدم ما ذكر فى يوم الاحد ثامن صفر سنة ثلاث وتسـعين وسبعمائة ولما شرع السلطان الملك المؤيد شيخ فى عمارة الجامع بجوار باب زويلة اشـترى هـذا الباب النحاس والتنور النحاس الذى كان معلقا فى الجامع المذكور بخمسمائة دينار ونقلا فى يوم الخميس سابع عشرى شوال سنة تسع عشرة وثمانمائة فركب الباب على البوابة وعلق التنور تجاه المحراب * فلما كان يوم الخميس تاسع شهر رمضان سنة خمس وعشرين وثمانمائة أعيـد الاذان فى المئـذنتـين كما كان وأعيد بناء الدرج والبسطة وركب باب بدل الباب الذى أخذه المؤيد واستمر الامر على ذلك

ولما مات السـلطان الملك الناصر حسـن المـذكـور اجتمـع الامراء وتشاوروا فيمن يولونه السلطنة بعده فوقع اختيارهم على ابن أخيه السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمـد بن المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون وعمره يومئـذ أربع عشرة سـنة فبايعوه فى يوم الاربعاء تاسع جمادى الاولى سنة اثنتين وسـتين وسبعمائة ولقب بالملك المنصور وركب من يومه فى دست السلطنة وصعد الى قلعة الجبـل فى كبكبة عظيمـة للغاية * ولما استقر به المنصب قام بالامر يلبغا وأخـذ فى تدبـير الملك والتصرف فى الامور فأمر ونهى واستبد فاتسعت كلمته وعظمت سطوته وهابه الامراء جميعا وتمكن من الملك كل تمكن ودانت له الامور فلما بلغ السـلطان الملك المنصور أشـده لم يطق الصـبر على فعال يلبغا وتاقت نفسـه الى الاستبداد بالملك فجعل يستعمل الحيلة فى نزعـه من يد يلبغا ويستميل اليـه الامراء وطوائف المماليك ويعمل على تقريب العامة منه فلم يفلح وكان من أمره ما سيذكر فى محله

ولما دخلت سـنة ثلاث وسـتين وسـبعمائة مرض الخليفة المعتضـد بالله أبوبكر بن المستكفى بالله وطال مرضه واشتدت علته الى ليلة الاربعاء ثامن عشر جمادى الاولى مات فى داره بالكبش فكانت خلافته نحو عشر سنين قال بدر الدين فى ترجمـة الخليفة المذكور هو أمير المؤمنين * وقائد المذعنين * وامام الائمة * وقدوة المتكلمين فى براءة الذمـة * علت أركـانه * وبسطت أغصانه * وتجملت به ديار مصره * وصغت الى رأيه ملوك عصره * رأس وساد * ومنح وأفاد * ورفـل فى حلل النعـيم * وهـدى الى سـلوك الطريق المستقيم * واعتضد بالله فى أموره * ولم يخف عن الناس بحجبه ولا ستوره * واسـتمر سائرا فى منهاج عزه وبقائه * الى أن لحق بعـد عشرة أعوام بالخلفاء الكرام من آبائه ۞ وكان الخليفة المعتضـد المذكـور يقنع بالكفاف حسن السـيرة حج مرتين احـداهـما سـنة أربع وخمسـين والثانيـة سـنة ستين وكانت أمور عيشـه متيسرة

وفى خـلافتـه سعى المتأصلون فى اقامة بطرك لهم بعـد تلك العطلة التى وقعت بسبب القس داود بن لقلق التى تقـدم بيـان حوادثها واتحـدت كلمتهـم فى هـذه المرة على اقامة القس داود المـذكور فعمل بكارهـم على تقليـده المنصب وألحوا وأكثروا الطلب حتى تم له الامر فكان خامس سبعى بطاركة الاسكندرية وهو من مدينة الفيوم فلما استقر به المنصب أحسن السياسة وقام بواجب الرياسة وكان من الحوادث فى أيامه ماسيذكر فى محله

(الفصل السابع)

((فى خلافة المتوكل على الله أبى عبدالله محمـد))

ثم قام بالامر بعد الخليفة المعتضد ابنه أبوعبد الله محمد بعهد من أبيه فى يوم الخميس ثانى عشر جمادى الاولى سنة ثلاث وستين وسبعمائة هجرية أى نحو سنة احـدى وستين وثلثمائة وألف ميلادية ولقب بالمتوكل على الله وخلع عليه من يومه بين يدى السلطان الملك المنصور محمد بن الملك المظفر حاجى وفوض اليه نظر المشهد النفيسى على ما كان عليـه أبوه من قبـل وفوض هو الى السـلطان الملك المنصور التصرف فى أمور المملكة ومهام الدولة وأشهد على نفسه بذلك فزادت رغبة السلطان من حينئذ فى الاستبداد بالامر والتخلص من يلبغا وعظم عليـه ما هو فيه من الحجر والتقييد وتجرد لمعاداة يلبغا وايقافه عند حده وجعل يستميل بعض الامراء وأصحاب الكلمة وأجزل العطاء الى طوائف المماليـك ليكونوا له عونا على يلبغا كل هـذا ويلبغا لا يلتفت اليـه ولا يهتم به حـتى ظن السلطان أنه بلغ المنشود وتم له المقصود فلما كان يوم الاثنين رابع عشر شعبان سـنة أربع وستين وسبعمائة ركب الامير يلبغا فى نفر من أصحابه وصعد الى قلعة الجبل وقبض على السلطان الملك المنصور ففر من كان حوله من الاجناد والمماليـك وتركوه فخلعـه يلبغا فى الحال وسجنـه بالقلعـة من يومه فكانت سلطنته سنتين وأشهرا وبقى مسجونا الى أن مات لسنة احدى وثمانين وسبعمائة هجرية * وفى اليوم الثـانى من خلع السـلطان الملك المنصور اجتمـع يلبغا مـع الامراء وتشاوروا فيمن يصلح للسلطنة فاتفقت كلمتهم على تولية ابن عمه زين الدين أبى المعالى شعبان ابن حسين بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون ولقب بالملك الاشرف وعمره يومئذ عشر سنين قال أصحاب التاريخ ولم يل من بنى قلاوون من أبوه لم يتسلطن سواه وقام الامير يلبغا بتدبير الملك والتصرف فى جميع الامور على ما كان عليه أيام الملك المنصور وزيادة ولبث على هذا الحال زهاء الاربع سنين وقد عظم شأنه وكبر عدم اكترائه بالامور وزاد احتقاره لكبار الدولة واستخفافه برجال السلطنة وكثرت مماليكه المعروفة بالخاصكية وساروا بسيرته فعاثوا وجاروا

وظلموا الرعية وتطاولت أيديهم الى أموال الناس واستحلوا ما لا يحل * وظهر القحط فى هذه الايام بمصر وعم بجميع المدن والقرى فأكل الناس الكلاب والقطط والميتة وجذور الاشجار واشتد الحال شدة بالغة واتصل بالديار الشامية وتفشى فيها فضج الناس وعجوا وأكثر أهل مصر من الاستغاثة والتضرع الى الله سبحانه وتعالى وذهب جماعة الى دار الامير يلبغا ورجموه بالطوب وصاحوا مايحل لك أن تطلق المماليك يعيثون فى الارض وقد ابتلانا الله بسبب فعالهم بالقحط فعظم الامر على يلبغا وتطير من ذلك ولبث الحال على هذه الشدة أياما كثيرة حتى أكل بعض الناس أولادهم وفشا هذا الامر بينهم فلم يبق منكورا ثم ارتفع القحط فعمد الامير يلبغا الى ايقاف مماليكه عند حدهم وكف أذاهم عن الرعية وشدّد فى ذلك وبالغ فى العقوبة فانحرفت خواطرهم عنه وتوغرت صدورهم منه وزالت عنهم هيبته فاتفقوا على قتله وجعلوا يراقبون الفرص فلما كان فى بعض الايام كبسوه بداره التى فى الكبش وهم فى عدّة عظيمة وقتلوه ونهبوا ما فى داره من حلى وملبوس ففرح السلطان الملك الاشرف بموته وظن كمال استقلاله بالملك فقام الامير استدمر الناصرى أحد مماليك يلبغا المذكور وضم هؤلاء المماليك اليه وتولى الامارة عليهم ونادى السلطان الملك الاشرف بالشر وكاشف أولئك المماليك بما فى سره فقويت قلوبهم واشتدت عزيمتهم وتجردوا الى نزع الملك من آل قلاوون ثم لم يلبثوا أن ركبوا جميعا لقتال الاشرف وركب الاشرف لقتالهم ومعه المماليك السلطانية واقتتل الفريقان وطالت الحرب بينهم أياما وما زالوا حتى انهزم استدمر وجميع الخاصكية وانتصر الاشرف عليهم نصرة مؤزرة وقبض على كثير منهم فقتل طائفة وأغرق طائفة وأبعد طائفة وبقى منهم بمصر جماعة التجؤا الى بعض الامراء * قال بعض كتاب الاخبار وكان هؤلاء المماليك مختلفى الاجناس غلاظ الطباع أشقياء لا دين لهم ومنهم الامير صرغتمش واستدمر والجاولى اليوسفى ولم يزل من بقى منهم فى اختلاف ومقت وهياج وحقد للدولة الى أن تحيلوا وعادوا الى خدمة الدولة واتفقوا على أن طائفة منهم تسكن بالطباق وان يدخلوا فى سلك مماليك الاسياد يعنى أولاد السلطان ففعلوا ومنهم من بقى أمير عشرة ومنهم من انضم الى المماليك السلطانية ومماليك الامراء وظهروا بعد الانكماش فكانوا أرذل مذكور فى الديار المصرية وعادوا الى العمل على الايقاع بالسلطان ونزع الملك من ذلك البيت

فلما كانت سنة ثلاث وستين وسبعمائة عزم السلطان الملك الاشرف على الحج وأخذ فى الاسباب فانتهز عند ذلك أولئك المماليك الفرصة وكتموا أمرهم وتواعدوا مع أصحابهم الذين تأهبوا للخروج فى خدمة السلطان على أنهم يثيرون الفتنة مع السلطان فى العقبة وكذلك المقيمون بمصر يخرجون فينقضون نظام الدولة ويحدثون الفوضى ويزيلون السلطان وجميع الامراء ويستبدون هم بالملك فيفعلون ما يستحسنون وخرج السلطان من مصر يريد الحجاز وهو فى أبهة عظيمة للغاية وتجمل زائد فى عدة وافرة من الاطناب وقد رتب قبل خروجه الامورّ واستخلف بمصر والثغور من يثق بهم فى خدمته وأخذ معه من

أولئك المماليك من لايظن فيه الخيانة وكان بينهم جملة من المماليك الاخر فلم يبعد عن مصر الا قليلا حتى قام من كان بها منهم وأثاروا الفتنة واستمالوا اليهم جماعة من المماليك السلطانية ونادوا بموت السلطان الملك الاشرف وأقاموا ابنه بدلا منه ولبثوا منتظرين فعل أصحابهم الذين هم فى خدمة السلطان أما هؤلاء فانهم لما وصلوا الى العقبة ثاروا على السلطان فقاتلهم واشتد القتال بين الفريقين أياما فكانت الحرب بينهم سجالا ثم انهزم السلطان بعد أمور طويلة وطلب العود الى مصر وصحبته كبار الامراء وبعض مماليكه الذين اصطفاهم فنهب الخاصكية الخزينة السلطانية وما فيها ونهبوا جميع ركاب الحج وأخذ بعضهم ما سلبه وسار الى الشام والبعض الى الحجاز والبعض الى مصر وعاد نساء السلطان الى مصر فى أسوء حال وأشد ضيق وقد ذبح الكثير من الامراء فى هذه الوقعة وتتبعوا السلطان فلحقوه عند قلعة الجبل فانتشب القتال بينه وبينهم واشتد وقاتل السلطان قتال الابطال وطال الحال أياما اختل فيها نظام الدولة وعاث أهل الفساد وكثرت العربدة بمصر والقاهرة والقرى القريبة وارتفع الامن وعم الخطف فانكف الناس عن الخروج الى الاسواق وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وقاتل أهل الاطراف العامة من فوق أسطحة البيوت وما زال الحال هكذا حتى قبض الخاصكية على السلطان وقد تفرق عنه من بقى من أصحابه وسجنوه أياما قلائل ثم خنقوه ونهبوا جميع بيوت الاموال وذخائر السلطان واقتسموا محاظيه وكذلك فعلوا بأموال وذخائر ومحاظى جميع الامراء وأزالوا عن الدولة القلاوونية عزها ورونقها وأذهبوا بهجتها وكان قتل السلطان الملك الاشرف فى يوم الثلاثاء سادس ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة فكانت مدة ملكه أربع عشرة سنة وشهرين وخمسة عشر يوما وأنشأ فى أيامه قصره المعروف بالاشرفية تحت قلعة الجبل سنة اثنتين وتسعين وستمائة ولما فرغ منه صنع فيه أفراحا عظيمة للغاية لم يعمل مثلها فى الدولة التركية وختن أخاه الملك الناصر محمد بن قلاوون وابن أخيه الأمير موسى بن الصالح علىّ بن قلاوون وجمع سائر أرباب الملاهى وجميع الامراء ونثر عليهم الذهب وخلع عليهم الخلع السنية

ولما مات السلطان الملك الاشرف اجتمع أصحاب الكلمة من الامراء وهم قرطاى وايتبك وغيرهما وكتبوا الى الخليفة المتوكل بالله العباسى يطلبون منه أن يبايع من يشاء بالملك فكتب يقول اختاروا من بينكم من تشاؤن وأنا أبايعه فوقع اختيارهم على ابن الملك الاشرف علاء الدين وعمره يومئذ سبع سنين فبايعوه ولقبوه بالملك المنصور وكان الأمير طشتمر رأس الفتنة وزعيم الخاصكية الذين ثاروا على السلطان الملك الاشرف بالعقبة قد تأخر بسبب ركب الحاج فلما وصل الى القاهرة أرسل اليه قرطاى انك قد استقريت فى نيابة دمشق فسر الى الشام فرأى العجز فتوجه الى دمشق كارها وجعل قرطاى يتصرف فى الدولة ويستبد بالملك حتى علت كلمته ودانت له الامور وعظمت شوكته فابغضه الامراء وحقدوا عليه وأخذوا يراقبون الفرص ليفتكوا به * فلما كان فى أحد الايام قام ايتبك فى نفر من

أصحابه وأمسك قرطاى المذكور وغدر به واستقل بالحكم وتصرف فى الامور وطير الخبر بذلك الى الآفاق فلما علم بالخبر الامير طشتمر نائب دمشق شق عليه وكاتب نائب حلب و بقية نواب الشام واستنجدهم على قتال ايتمش فأجابوه الى ذلك وركب اليه اشغتمر نائب حلب ومعه العساكر الحلبية واجتمع الكل بدمشق قاصدين الديار المصرية وجاءت الاخبار بذلك الى ايتمش فسير عسكرا لقتالهم وخرج هو كذلك ومعه السلطان وبعض الامراء وكان بين ايتمش وبين الامير برقوق والامير بركة شقاق وهما يراقبان الفرص للغدر به فلما وصل ايتمش الى أول منزلة ركب عليه المذكوران فى نفر من خواصهما يريدان البطش به فهرب نحو القاهرة وانفشل العسكر ورجع السلطان والامراء وكتب برقوق وبركة الى طشتمر انك تحضر أميرا كبيرا للقاهرة فأجاب الى ذلك وتفرقت العسكر من دمشق وسار طشتمر الى مصر فلاقاه برقوق وبركة ودخل القاهرة فى موكب حافل واستقر أميرا كبيرا بمصر وأخذ يتصرف فى أمور الدولة فلما رأى برقوق من اتساع كلمة طشتمر واقبال الدنيا عليه بحذافيرها حسده وندم على تسليمه مقاليد المملكة وتاقت نفسه الى الملك وكان غاية فى المكر والدهاء صبورا حازما مدبرا مولعا بالاستقلال فجعل يدبر لنفسه ويستميل كبار القوم حتى جاء عيد الاضحى من سنة تسع وسبعين وسبعمائة فركب فى طائفة من أصحابه على طشتمر وأمسكوه واستقر برقوق يحكم البلاد وتصرف فى أمور الدولة فعلت كلمته وكبرت شهرته وطار صيته وهابه الامراء وما زال على هذا الحال من الشهرة والمجد حتى مات السلطان الملك المنصور فى سلخ ربيع الاول سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة هجرية بعد أن حكم أربع سنين وأربعة أشهر فجمع برقوق الامراء كافة وتشاوروا فيمن يصلح للسلطنة فاتفقت كلمتهم على تولية زين الدين حاجى أخى الملك المنصور وله من العمر يومئذ ست سنين فبايعوه من يومه ولقبوه بالملك الصالح وأركبوه فى دست السلطنة فلم يكن له منها سوى الاسم والكلمة للامير برقوق ولبث الامير برقوق بعد ولاية السلطان الملك الصالح زين الدين سنة ونصف سنة يعمل على اعلاء كلمته وتوسيع شهرته وأخذ الملك لنفسه فلما تم له الامر قام فى التاسع عشر من رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة على الملك الصالح وخلعه ونفاه واستلم مقاليد الملك فكانت مدة سلطنة الملك الصالح سنة ونصف سنة وبضع أيام وكان هو آخر من حكم ديار مصر من دولة المماليك سلالة قلاوون المعروفين عند أهل التاريخ بالمماليك البحرية وبموته انقرضت دولتهم وعفت آثارهم بعد أن حكموا نحوا من مائة وثلاثين سنة وقد مر بك بيان أخبار هذه المدة وما وقع فيها من الحوادث فقامت بعدها دولة المماليك الثانية وظهرت بظهور برقوق المذكور وهو رأسها ومؤسسها فسبحان من له الملك والملكوت وهو على كل شئ قدير

(وصل)

(وصـــــــل)

(فى أصل الجراكسة وفى طباعهم وأديانهم)

وفى

(منشأ دولتهم الثانيـــة بديار مصر)

قال أصحاب التاريخ قد سمى الكتاب هذه الدولة بدولة المماليك الشراكسة نسبة الى منشا سلاطينها فانهم كانوا من الشعب الشركسى وقد اختلفوا فى محل ظهورهم فنهم من قال انهم ظهروا بآسية العليا ومنهم من قال انهم نشؤا بسيبريا ناحية بحيرة بيكال فى نحو القرن السادس للميلاد المسيحى * والثانى أشهر * ثم نزحوا الى بحر قزبين فاستوطنوا غربيه وأنشؤا لهم مساكن على شبه الخيام فسميت تلك الاصقاع من ذلك الوقت باسم شركاسيا وتناسلوا ونموا نموّا عظيما فكانوا بعد ذلك يحملون الى أقطار العالم للاتجار بهم كالسلع سواء بسواء وكانوا كغيرهم من بقيـة الامم فى الازمان الغابرة عاكفين على عبادة الاوثان والتقرب اليها بالقرابين والذبائح وتقديم التقادم من الاسلحة والحلى * قال بعضهم وكان فى أحـد الجبال الواقعـة مابـين صخوم وصوغوجق التى يقال لها غوبة شجرة عظيمـة عجيبـة المنظر تعادل فى كبرها السنيديان وهى مكوّنة من عـدّة أشجار مختلفة الاجناس قد نبتت فى مكان واحد وتسمى عندهم يعنى عند طوائف الشراكسة باسم * قودوش * فكان يأتى اليها فى يوم معلوم من كل سنة طير كبير اسمه بيوغه زعموا انه يسند رأسه على تلك الشجرة ليسلم نفسه للذبح قربانا لها ولا ممانع من يأتى ليذبحـه فاذا فعـل ذلك قام أحـد الجماعة الحاضرين هنالك فى ذلك اليوم فيذبحه فى الحال ثم يصبون على رأسه وعينيه شيأ من الخمر أو البوزة ثم يكشـفون رؤسهم ويأخـذون طقياتهم بأيديهـم ويضجون ويقولون يا الهنا العظيم ان عنايتـك بعبيـدك ليس لها حساب ولاحـد ثم يسجـدون ويتضرّعون لهذه الشجرة وهم مكشوفو الرؤس وبعد ذلك يقسمون فيما بينهم لحم ذلك الطير وجلـده ويحمدون معبودهم وينصرفون واذا سار جماعة منهم الى السرقة والنهب بحرا فى القارب المعروف عندهم باسم جابا أو خرجوا الى السلب فى الطرق والجبال ينـذرون لتلك الشجرة شيأ من سلاحهم وآلة حربهـم ان هـم فازوا وظفروا بفريستهم فيقول الواحـد منهـم ان غلبت فى نوبتى هـذه فانى أنذر لشجرة قودوش أحسن بارودة أو أحسـن درع أو أحسـن شئ لاتفنيه الامطار ولا تعمل فيـه العواصف فاذا تم له ما أراد أتى بما نذره فيعلقـه على أغصان تلك الشجرة

ولذلك كان يرى على أغصان قودوش المذكورة شئ كثير من تلك النذور باقية معلقة محترمة لايستطيع أحد أن يمسها بيده لانهم يزعمون أن من سرق شيأ من تلك الاشياء مات لساعته وكان لمعبودتهم قودوش هذه نواب يعرفون باسم طغالك وهؤلاء النواب يختارهم الناس يعنى اذا رأى أحد من الناس شجرة فى جوار داره واستحسنها واستعظم حجمها اتخذها نائبة عن قودوش فيستر ساقها بسياج لطيف ويربط أطرافها من أعلى بالحبال والحشيش اليابس على هيئة عمامة ثم يسميها باسم طغالك وينسبون اليها نماء زرعهم وحفظه من الصيال فاذا هاف الزرع مثلا ونقصت غلة الارض فى سنته تقدموا الى تلك الشجرة وجعلوا يتضرعون اليها ويقولون وهم حاسرو الرؤس نرجو كرما منك أيها المعبود العظيم أن تبارك فى غلات أرضنا وتكثرها فى عامنا هذا فقد كانت فى العام الماضى غير كافية لنا ولضيوفنا ثم يسجدون تحتها لجهة الشرق ويذبحون رأسا من الضأن أو المعز قربانا ويصبون على رأسه شيأ من الخمر أو البوزة ويكررون هذه الضراعة والابتهال كل قليل الى زمن الحصاد فاذا أخصبت أرضهم وكثرت غلاتها فى عامهم ذلك فرحوا وخروا سجدا لمعبودتهم وبالغوا فى تعظيمها والا حنقوا وصاحوا عليها لماذا لاتسمعين نداءنا ثم يغضبون فينزعون عنها أوراقها ويقطعون أغصانها ثم ينزعونها من أصلها ويحرقونها ويتخذون لهم معبودة أخرى مكانها ثم يتقدمون اليها بالتبجيل والتعظيم ويقولون لها يامعبودنا الجديد ان الطغالك الذى كان لنا فعبدناه من قبلك حينا قد أساء الينا فألقيناه فى النار والنور وجعلناك لنا طغالك جديدة وسنقوم بعبادتك خير قيام فان أنت لم تصغى الى ندائنا قلعناك وألقيناك فى النار * قال الراوى وكان هذا التنبيه من عاداتهم القديمة * وكانت عادة السلاطين الجانكيزيين أنهم يعطون أولادهم الى أمراء الجراكسة لارضاعهم وتربيتهم على حالة البداوة فاذا أتموا مدة الرضاع والتربية ردوهم الى آبائهم فكانوا لذلك يغدون ويروحون الى بلاد القرم ولاختلاطهم بمن اعتنق الدين الاسلامى من التتار مال بعضهم الى التدين به فخلطوه ببعض عاداتهم فكانوا يصومون شهرا فى السنة وبعد أربعة أشهر من هذا الشهر يطبخون حبوب عاشوراء ثم بعد ذلك بشهر أيضا يدعون لقراءة المولد النبوى شيخا عارفا برطانتهم فيقرأ عليهم شيأ تقليدا للاسلام وكانوا يعملون فى كل سنة ضيافة على اسم سلطان الابطال الامام علىّ بن أبى طالب ويتظاهرون مثل العلويين وظلوا على هذا الحال حينا من الدهر وهم لايعرفون من الاسلام غير الاسم فقط لان العبادة التى نقلوها عن التتار لم يقصدوا بها عرض العبودية لجانب الحق سبحانه وتعالى وتعظيم نبيه ورسوله بل كانت لحصول الفيض والبركة * قال بعض الكتاب وكانوا أيضا يعملون عيد فصح لروح أبى جهل ويسمون هذا الفصح باسم صاوصوروق اهـ وقد دخلت النصرانية فى عدة جهات من بلاد الجراكسة بسبب الجنويزيين الذين استوطنوا ساحل البحر الاسود فى القرون المتوسطة فمال الى التدين بها الكثير منهم وكادت تعم جميع القبائل فلما تغلبت الدولة العثمانية على بلادهم واستقر أمرها ظهر الدين الاسلامى وزال

الدين المسيحى أوكاد

وكانت لهم حكايات وروايات غريبة للغاية يروونها بالسند الى معبوداتهم ودينهم قبل الاسلام * منها أنهم كانوا يروون أن رجلا محبوسا فى مغارة فى جهة قلعة الحجاج الكائنة فى جبل البرز يقال له ﴿ ضحاك مارى ﴾ فاتفق أن رجلا من أهل قرية كانت تقرب من ذلك الجبل كان يتجول فى الجبل للصيد فرأى المغارة المذكورة ففكر فى نفسه وقال ليتها تصلح مأوى للغنم ثم دخلها فلم ينته الى جوفها حتى سمع صوتا مريعا أوقفه عن المسير فجعل يفرك عينيه بيديه لعله يرى ما فى داخل المغارة واذا به يرى شيأ هائلا على شكل الانسان مربوطة رجلاه الى عنقه ويداه مقيدتان بقيد محكم وفى وسطه سلسلة من حديد فوقف الرجل قليلا حتى سكن روعه واطمأن جأشه وعلم أنه محبوس وبينما هو يفكر فى أمر ذلك المحبوس اذ خاطبه المحبوس قائلا يا أخى لا تخف واقترب منى فانى مرهون هنا ومنتظر للوقت المعهود فان أنت أحسنت لى العمل فأتنى بعصى طويلة تشبه القصبة الطويلة التى يعلق بها حبل الغسيل فان فعلت وقدرت على أن أنزل هذا السيف المعلق أمامى فانى أتخلص من هذا القيد وهذه السلسلة التى أنا مربوط بها فأجازيك على احسانك بخير الاحسان وأحفظ لك هذا الجميل على الازمان قالوا فحن اليه الرجل وأتاه بعصا فتناولها ويداه مربوطتان ومدها نحو السيف واجتهد جهده فى تنزيله فلم يقدر فالتفت الى الرجل وقال له بورك فيك لم يأت وقت نجاتى ولا ساعة خلاصى من هذا الاسر وكسر العصا قطعا فجعلها جذاذا كقطع السوالك فتركه الرجل وانصرف وعاد الى القرية فاخبر زوجته وأولاده بما رآه وحدثهم بما سمعه من ذلك المحبوس ولبث أربعة أيام ومات وشاع خبر موته وما أخبر به أولاده من خبر ذلك المحبوس فاجتمع أهل القرية وقالوا كيف يموت وقد عاش جده وأبوه أكثر من مائة عام وهما لم يشاهدا ذلك المحبوس ولا المغارة ولو لم يره هو ما مات وهو فى هذا العمر واستولى الخوف من الموت على جميع أهل القرية فتعاهدوا على أن لا يذهب أحد منهم الى تلك المغارة وشاع خبر ما وقع بين القرى المجاورة فاجتمعوا وتعاهدوا على أن لا يقتربوا من تلك المغارة ولا يراها أحد منهم وعملوا لذلك حدودا لا يتخطوها فأوت الى تلك الحدود الوحوش من الثعالب والسمور والفهد وكلب الماء وكثير من الطيور كالرهو والليل والرخم والغرنوق ودجاج الارض والدراج وصيدها جميعها ممنوع فيما بينهم ولم تزل هذه الحيوانات مع كثرتها تشاهد للمارين وهى آمنة مطمئنة لا خوف عليها * ومن عادة الامهات عندهم أنه اذا بكى الطفل وأسكتته أمه ولم يسكت خوفته بصاحب تلك المغارة فتقول له مه والا أتيتك بصاحب المغارة فيفعل بك كذا وكذا ويروون عن هذا المحبوس غير ذلك أيضا ولهم عادات فى عباداتهم كثيرة غير ما ذكرناه قد أضربنا عن ايرادها هنا

(لاحقــــة)

(في أخلاق الجراكسة وعاداتهم)

جاء في تاريخ العلامة جودت باشا ماتعريبه قد جبت أرض قبائل الجراكسة والاباظة طولا وعرضا فوجدتها نظيفة طاهرة من جميع الادران ووجدتهم قوما عقلاء قابلين للحضارة والمدنية ذوى شجاعة وجسارة صادقين في أقوالهم ثابتين فيها لايتكلمون بالكذب أصلا ولا يحلفون أيمانا كاذبة فاذا اتخذت لك منهم خادما فهما كان عنيدا فظا عاصيا فاستحلفه على الامانة والولاء فاذا حلف لايخونك أبدا ولا يحنث في يمينه ولايعمل على خلاف ما أقسم به ولكن يجب استحلافه على كل أمر بحرفه فتقول له احلف أنك لاتخونني في كذا وفي كذا وفي كذا فاذا ارتكب الخيانة في أمر وعاتبته عليه وكان غير داخل في عداد ما استحلف عليه قال قد حنثت في هذا الامر لانني لم أحلف على عدم الخيانة فيه * قال وهم قوم في غاية السخاء والكرم يقرون الضيف حتى لو كان صاحب البيت من أشرافهم والضيف من صعاليكهم أو من أحد العامة فانه لا يقعد في حضوره بل يخدمه واقفا على قدميه ولاينام بل يقضي ليله مسلحا بسلاحه لحفظه وحراسته ومن عاداتهم أن صاحب البيت لايأكل مع الضيف ولا من الطعام الذي صنع للضيف ولا ينزعون عن الدجاج الذي يطبخونه للضيف رؤسها عن أبدانها بل يضعونها أمام الضيف كذلك اشارة الى أن رؤسهم وأجسامهم فداء له وألبستهم تكاد تكون جميعها من لون واحد فلا فرق بين الغني والفقير في الملبس وفقراؤهم لايصيرون أغنياء وأغنياؤهم لايصيرون فقراء وجميعهم يعتقدون أنهم اخوة بعضهم لبعض فاذا لزم لأحدهم شئ وطلبه من الآخر أعطاه اياه بلا معاوضة ولا يجيبه بكلمة لا * ومن عاداتهم أن لا يقتل أحدهم الآخر ولا يشتمه ولا يسبه ولا يضربه ويستخدمون أسراهم بالرفق واللين من غير أن يضربوهم أو يؤذوهم ولا يقترون عليهم في المأكل والمشرب وليس من الأمور المعيبة عندهم النهب والسلب أو التخريب بل يعتبرون ذلك من البسالة والاقدام * ومن عاداتهم احترام الشباب للشيوخ فلا يقصر الشاب في خدمة الشيخ بل يقوم بخدمته قيام العبد لخدمة مولاه ويصح لصاحب الحسب والنسب والقدر الرفيع من قبائل الجراكسة أن يتزوج بينت آحاد الناس ليكسبها قدرا وشرفا ولكن لا يصح أن الاصاغر من الناس يتزوجون بينات ذوى الحسب الرفيع مطلقا ولا يسكنون بجوار بعضهم بل بيوتهم متفرقة على رؤس الجبال فاذا حدث لاحدهم حادث نادى بما يعبر عنه بلسان التتار أيش حريق فيصل خبر ذلك الحادث الى جميع البيوت في وقت قريب للغاية فيجتمعون ويتكلمون في أمر ذلك الحادث واذا قاموا لحرب قدموا عليهم

أحدهم فلا يبقى لاحد منهم كلمة فوق كلمته فعليه تدبير أمرهم فى تلك الحرب وعليهم طاعته فى جميع ما يأمر به فاذا انقضت الحرب عاد كل الى ماهو عليه من الحرية والاستقلال ولغتهم متعددة ولا تنطبق على مخارج الحروف المعتادة قال ومع هذا كله فانهم متوحشون جبليون لا يميزون بين الكفر والايمان ولا بين الخير والشر ولا يقدر غريب أن يطوف بينهم واذا أراد أحد الناس أن يمر بين مساكن احدى قبائلهم أخذ معه دليلا من قوم تلك القبيلة والا وقع فى مخالب العطب وهذا الدليل يقال له (شاغرى) وهذا الشاغرى يكون مرعى الجانب مسموع الكلمة فاذا شاء أحد من الناس الاختلاط بقبائل أولئك القوم ومعاشرتهم والتطواف بين منازلهم كواحد منهم لزمه أن يتبنى لاحد أصحاب الحسب وطريقة ذلك عندهم أنه يأخذ أولا ثوبين من القماش الابيض وجلدا من السختيان وابرة وخيطا ومشطا وكستبانا ثم يطلب له دليلا فاذا وجده يعطيه أحد الثوبين المذكورين أجرة ليوصله الى أمير القبيلة التى يختارها فيسير به الى دار الامير فيقدم هديته الى امرأة صاحب الدار واذا كان صاحب الدار غائبا فى ذلك الوقت لزمه الدخول الى فناء الدار وطلب زوجة صاحب الدار فاذا جاءته هجم عليها وأخذ بفمه أحد ثدييها وجعل يرضعه وهو يقول قد صرت فى بيت الوالدين وصرت لك ابنا فى الرضاع يفعل هذا ولو كانت امرأة ذلك الرجل بنتا وكان زفافها اليه تلك الليلة واذا كان لا يعرف رطانتهم يبلغهم مايقول بواسطة ترجمان منهم وقاعدتهم فى هذا الامر أن المرأة تمسح بيدها على ظهره اشارة لقبول بنوته ثم تأذن له بالاقامة عندهم وعند ما يأتى زوجها تخرج اليه وتقول له انظر الى هذا فقد اتخذته لى ولدا ثم تشير الى زوجها بأن يقبل يده فيفعل ويقبله أيضا ويأخذ من يومه فى تدارك أمر ضيافته فيعد لذلك ما طاب من المأكل والمشرب ويدعو قبيلته ومن جاورها من بقية القبائل ويجعل ذلك الوقت عيدا فيأكلون ويشربون ويفرحون يومهم ذلك وفى ختامه يقول صاحب الدار لجميع من حضر انظروا قد اتخذت هذا لى ولدا فيبشون فى وجهه ويهنؤنه ثم ينصرفون ويبقى صاحب الدار وذلك الرجل فى الاتصال كالاب والابن ويظهر كل منهما للآخر محبته فيغدو الرجل ويروح بلا ممانع فان كان تاجرا فلا يبقى فى حاجة الى من يحفظ عليه ماله بل يكون آمنا من جميع المخاوف والمحاذير فاذا صادفه فى طريقه أحد وقصده بسوء من أخذ ماله أواذهاب روحه فقال أنا متبنى لفلان فانه ينكف عنه فاذا لم يلتفت الى قوله وأخذ ماله أو أخذه أسيرا واتصل خبر ما جرى له بأبيه قام لاسترجاع ما أخذ منه أو استخلاصه وأخذ أيضا من الفاعل لذلك تسعة أمثال ما اغتاله ويسمون ذلك عندهم (عيبلق) أى جزاء ما ارتكبه من العيب وهى عادة من رسمهم القديم واذا كان الصائل أوالمغتال لا قدرة له على دفع هذا الجزاء أخذ أسيرا وبيع * ومن عاداتهم أن من يحكم عليه بالجزاء لا يهرب بل يسلم نفسه واذا كان له بنات ورضى أب من أخذ ماله بأخذهن جازله بحسب قانونهم أخذ اثنتين منهن بدلا عن أبيهما فيباعان عوضا عن أبيهما

والقتل عندهم من أكبر الجرائم وأشدها عقابا ولذلك يتباعدون عنه ما استطاعوا فاذا ضرب أحدهم آخر ضربا أفضى به الى الموت كان الجزاء بحسب مرتبة الاهل وهم على ثلاث مراتب وهى مرتبة البكوات * ومرتبة الأوزنيين * والطوقاد * فالبكوات هم كبار القبائل وأصحاب الحسب والنسب والاوزنيون هم أوساط الناس والمساتير منهم والطوقاد هم العامة فاذا كان المقتول من أوساط الناس كانت ديته عشرين عددا حسب اصطلاحهم خمسة منها أسرى تقاس قدودهم على قدر معلوم بالشبر والخمسة الثانية منها عبارة عن خمسة رؤس من جياد الخيل كل رأس بقيمة أسير والخمسة الثالثة منها عبارة عن خمسة دروع كل درع قيمة أسير والخمسة الباقية يقال لها (شوشقه) يعطى فيها سيف وبارودة وقوس ولابد من قيام المحكوم عليه بالدية بجميع ذلك على أى حال كان ولما لم يكن عندهم نقود ولا سكة كان تقدير قيمة الاسير عندهم بالشبر ولا يعتبر عندهم ثمن الاسير بحسب جماله أو بشاعته بل ينظر حسابه على حسب الشبر والاسير التام عندهم ستة أشبار فاذا كان أقل من ذلك عد ناقصا فاذا لزم أحدهم أن يعطى آخر أسيرا تاما وأعطاه اياه بقياس أربعة أشبار مثلا لزمه أن يتم الباقى بشئ آخر * ومن عاداتهم أيضا أنه اذا زنت امرأة وثبت زناها بيعت هى وجميع أولادها بأبخس الاثمان * وقاعدة ذلك عندهم * أن زوج تلك الزانية يذهب الى أبيها وأمها ويخبرهما بما وقع ويقول ان بنتكما بنت حرام فخذوها عنى وأعطونى ما أخذتموه منى مقدما فى عقد نكاحها فعند ذلك يتبرأ منها والداها ويأذناه بأخذها وبيعها هى وأولادها فيحملها مع أولادها الى النخاس ويبيعهم ويأخذ ثمنهم فلا يصل الى داره الا ويكون قد فرق جميع الثمن المقبوض على اخوانه وخلانه ويبيت ليلته تلك ويصبح فيسير الى بيت الزانى ومعه بعض كبار القبيلة ويقول له قد بعت المرأة بكذا من الثمن وأطلب منك حقى ثم يتركه وينصرف ويرسل اليه فى ثانى يوم من يطالبه بهذا الثمن فلا يسع الزانى الا أن يقوم بدفع الثمن الذى بيعت به المرأة وتسعة أمثاله أيضا جزاء ما ارتكبه من فعل الزنا فان كان الزانى لامال عنده ولم يوجد من يعينه على ذلك فيقوم عليه والداه ويقيدانه ويسلمانه الى زوج المرأة ويقولان له هذا حقك فيأخذه بحيث لايضربه ولا يشتمه ولايهينه ولا يوبخه ولا يقول له انك فعلت كذا وكذا لان الشتم وفحش القول عندهم مكروه ويسير به الى السوق ويبيعه بأى قيمة أعطيت فيه ثم يلتفت الى الشخص ويقول له هذه قيمتك ويفرق ماقبضه من الثمن على الحاضرين ثم ان قبيلة الجانى توفى بقيمة حقه

وبلاد الجراكسة لطيفة الهواء والماء وفصولها الاربعة جميلة وأراضيها خصبة ذات محاصيل كثيرة وينبت فيها جميع أصناف الخضر ولكن جميع قبائل الجراكسة لا يأكلون الخضر ويعيشون على أكل اللحم فقط وليس لهم غاية فى الفلاحة فهم ذوو كسل وبطالة وطباعهم أشبه شئ بطباع العرب البادية ولكنهم لا يعادون بعضهم ولا توجد بينهم آداب ولا رسوم مدنية ولا ما يوجب الترقى والحشمة والاحتراز من

بعضهم وفى بلادهم جميع أنواع النباتات كالسنا والراوند الصينى ونوع من السحلب القوى وجميع أنواع الفاكهة والخضر والزيتون والكستنة والشاى البرى ومن أشهر الاشجار عندهم شجر البقس وهو يصلح للسفن جدا فلذلك اذا أتى أصحاب السفن لاخذ شئ منه لا يتقدمون الى ذلك الا اذا وضعوا رهائن منهم عند كبار الجراكسة وأخذوا معهم رهائن منهم أيضا ليكونوا آمنين من شر أصحاب القرصان المعروفين باسم تجايا ولا يوجد عندهم ملح مطلقا وهو عزيز للغاية عندهم فلذلك جرت العادة عند أصحاب السفن التى تسير الى بلاد الجراكسة أن يأخذوا معهم كثيرا من الملح ويتعاملون به معاملة العروض وذلك بأن يضعوا مقدارا من الملح فى احدى كفتى الميزان ويجعلون فى الكفة الثانية مقدارا من العسل مثلا أو من شمع العسل أو من جلود الثعالب والسمور * وفى بلادهم أيضا سائر أنواع الصيد من الطير والوحش ولهم فى القنص أمر غريب ومنه صيد الفهد وهو مخصوص بالنساء وذلك أنهن يعلقن قطعة من اللحم فى شعبتى شجرة ذات شعوب فيأتى الفهد ويثب لأخذ اللحم فتعلق رجله فى شعبة الشجرة فيمسك وفى الحال يسلمنه الى رجل طويل القامة يسلخ جلده * ومن عاداتهم الغريبة أن الذى يسلخ الفهد يلزم أن يكون مساويا للفهد فى الطول ولهم عوائد أخر غير ما ذكر قد أضربنا عن ايرادها خوف الاطالة

وقد جاء بهؤلاء الجراكسة ملوك مصر وأكثروا من شرائهم وتغالوا فى ملبسهم ومركبهم لا سيما السلطان الملك الصالح ابن السلطان الملك الكامل فكانوا مع من بقى من المماليك البحرية الذين اصطفاهم السلطان الملك الصالح لخدمته وسلم اليهم دولته يدا واحدة فكانت لهم حراسة الحصون والقلاع وفى أيديهم سائر الابراج وقد سكنوها وتسموا بها فكان يقال لهم البرجية كما كان المماليك البحرية يسمون أيضا فى أيام الملك الصالح بالحلقة اشارة الى أنهم كانوا لا يفارقونه فى حله وترحاله وما زالوا على هذا الحال حتى عظم أمرهم واشتد بأسهم وظهرت كلمتهم وهابهم الامراء لتمكنهم من مناصب الدولة وأمور المملكة وتزلف السلاطين الى كبارهم وأدنوهم خوفا من بطشهم وأخذوا برأيهم وعملوا بمشورتهم فسادوا وأمروا وفازوا واشتهروا وظهر من بينهم برقوق اليلبغاوى العمرى الذى تقدم الكلام عنه واشتهر أمره واتسعت كلمته وخضع له كبار الدولة وأمراء المملكة فتصرف فى جميع الامور تصرف المستبد وركب فى دست السلطنة فى أيام الملك المنصور وفى سلطنة أخيه الملك زين الدين حاجى وما زال على هذا الحال من الرفعة والسودد وعلو الكلمة حتى تمكن ورسخت قدمه وخلع السلطان الملك الصالح زين الدين واستبد بالملك وطلب من الخليفة المتوكل البيعة فبايعه وبايعه القضاة والعلماء والامراء وكبار الدولة ولقبوه بالملك الظاهر تفاؤلا بالملك ركن الدين بيبرس البندقدارى * ثم كان من أمره وأمر من جاء بعده من هذه الطائفة ما سيذكر بعد

(فصــــــل)

(فى الكلام على ما وقع فى أيام هــذه الدولة أعنى دولة الجراكسة الثانية الى انقراضها وزوال ملكها)

لما تمت البيعــة للسلطان الملك الظاهر برقوق أحسن السيرة و بالغ فى الاهتمام بشؤن البلاد وراحة الرعية ورتب أمور الدولة وأتقن نظام المملكة وحصن الثغور وعمــر الابراج ورمم القلاع وأكثر من العساكر والاجناد وتأهب لقتال تيمورلنك وقد كان تيمورلنك على عزم الزحف على الشام وأخذها والركوب على ديار مصر واستخلاصها من يد السلطان الملك الظاهر فخرج الســلطان الملك الظاهر فى أبهــة عظيمــة وسار من القاهرة فى جيش جرار لقتال تيمورلنــك * فلما التــقى الجمعان اقتتلا قتالا عنيفا فانهزمت جيوش تيمورلنــك شر هزيمة وعادت خاسرة وعاد الســلطان الملك الظاهر برقوق بجيوشــه الى القاهرة ظافرا غانما ودخل من باب النصر فى أبهة وأمامه الامراء ورؤساء الدولة ففرح الناس برجوعه ودقت البشائر ولم يستقر به المقام بالقاهــرة حتى سعى أصحاب السعاية بينه و بين الخليفــة المتوكل فاعلموه أن الخليفة واطأ جماعة من أهــل الفساد على قتله اذا لعب الاكرة وانه تعاهــد مع آخرين على نصرته واستبداده بالامر وأن الخليفــة يقول انه ما فوّض الى الســلطان الملك الظاهر برقوق السلطنة الا كرها وانه لم يسر فى ملكه بالعــدل فاستعظم الملك الظاهر هــذا الامر و بث العيون والارصاد حول الخليفة المتوكل فكبرت الوحشة بينهــما وخاف كل من صاحبه وتحفظ فاستدعى السلطان الملك الظاهر بالقضاة والائمة والعلماء وخاطبهم فى أمر الخليفة وما بدا منــه وأعلمهم بخبر الدعاة الذين انضموا اليه ووافقوه على خلع السلطان فأجمعوا على خلع الخليفة وطال الاخذ والرد بينهم أياما ثم خلعوه وقبض عليه وسجن بقلعة الجبــل فى سنة سبع وثمانين وسبعمائة هجرية وقيــل بل امتنعوا من اجابة طلب السلطان وقاموا عنه فخلع هو الخليفــة بقونه واعتقــله بالقلعــة ثم طلب عمر بن ابراهيم بن المستمسك بن الحاكم وبايعه ولقبه الواثق بالله وذلك فى رجب سنة خمس وثمانين وسبعمائة * فلما كان ذو القعدة من السنة المذكورة أخرج المتوكل من سجنه فأقام بداره مكرما لا خوف عليه * وقد كان الخليفة المتوكل المذكور خلع قبل هذا الحين بقليل وذلك انه لما مات الاشرف وأقيم ولده المنصور علىّ كان الامير ايتبك البــدرى مدبر دولته فوقع بينه و بين الخليفــة المتوكل كلام فحقد أيتبك على المتوكل أمورا فطلب نجم الدين زكريا بن ابراهــيم ابن ولىّ العهد المستمسك ابن الخليفة يوم الاثنين رابع ربيع الاول ســنة تسع وسبعين وخلع عليــه وأقامه خليفة

فاستقر

فاستقر بغير مبايعة ولا اجماع ولقب المعتصم بالله * فلما كان العشرون من الشهر المذكور كلم الامراء أيتبك فيما فعله مع المتوكل ورغبوه فى اعادته الى الخلافة فأعاده وخلع زكريا فكانت مدة خلافة زكريا خمسة عشر يوما ولم يتم الشهر على أيتبك حتى اتفق العسكر على خلافه وقاموا عليه فهرب فتبعوه وظفروا به فى تاسع ربيع الآخر من السنة فقيدوه وسجنوه بالاسكندرية ثم كان آخر العهد به فقال فيه شهاب الدين ابن العطار

من بعد عز أذل أيتبكا * وانحط بعد السمو منفتكا
وراح يبكى الدماء منفردا * والناس لا يعرفون أين بكى

واستقر الواثق فى الخلافة الى أن مات حتف أنفه يوم الاربعاء تاسع عشرى شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائة أو سنة سبع وثمانين وسبعمائة فكلم الناس برقوقا فى اعادة المتوكل الى الخلافة فأبى وأحضر أخا عمر زكريا الذى كان أيتبك قد ولاه ثلاث الايام اليسيرة فبايعه ولقب بالمستعصم بالله فاستقر الى يوم الخميس ثانى جمادى الاولى سنة احدى وتسعين وسبعمائة * قال بعض أهل التاريخ وندم برقوق على ماصنع بالمتوكل فخلع زكريا وأعاد المتوكل الى الخلافة فركب من يومه فى الدست وحلف القضاة كلا من الخليفة والسلطان على موالاة الآخر ومناصحته وأقام زكريا بداره الى أن مات مخلوعا فى سنة احدى وثمانمائة هجرية وقرئ تقليد المتوكل فى المشهد النفيسى فى ثامن عشر الشهر بحضرة القضاة والامراء وقرر له السلطان دارا بقلعة الجبل يسكنها ويركب الى داره بالمدينة متى شاء واستمر فى خلافته مهيبا محترما محبوبا عند الامراء والوجهاء وكثرت أولاده كثرة فائقة وأثرى وكثر ماله وهابه الملك الظاهر برقوق لما رأى من طاعة الامراء له واجتماع رجال الدولة على كلمته والأخذ بمشورته فلم يلبث على مصافاة السلطان الملك الظاهر الا قليلا حتى عادت الوحشة بينهما واستحكم النفور واشتد الخلاف فاتحد الخليفة المتوكل مع جماعة من كبار الامراء وبينهم الامير يلبغا الناصرى والامير منطاش على خلع السلطان الملك الظاهر فقاموا عليه وخلعوه من السلطنة وسيروه منفيا الى قلعة الكرك واستقدموا السلطان الملك الصالح حاجى آخر ملوك دولة المماليك البحرية الذى قد كان خلعه برقوق على ماتقدم بيانه فحضر وبايعوه فى السادس من جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين وسبعمائة ولقب بالملك المنصور واتسعت كلمة منطاش وكبرت صولته وتاقت نفسه الى الملك فركب فى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة على بعض الامراء وقتلهم وأمسك الناصرى مع جماعة من الامراء وسيرهم الى الاسكندرية وألقاهم فى السجن وأرسل الى بزلار نائب دمشق من أمسكه وقتله وأقام بدله فى نيابة دمشق الامير جنتمر أخا الامير طاز وسير الى قلعة الكرك من يقتل السلطان الملك الظاهر برقوق وكان المرسل ممقوتا عند أهل الكرك فلما علموا بخبر مجيئه قاموا عليه وقتلوه

وأطلقوا السلطان الملك الظاهر برقوق فسار برقوق الى دمشق فى نفر من أصحابه فخرج اليه صاحب دمشق بالعساكر الشامية فانتصر عليهم برقوق نصرة عظيمة ونزل بقبة يلبغا وحاصر دمشق وضيق عليها وشدد وتوجه اليه نائب حلب المدعو كمشبغا بعساكر حلب ناصرا له واجتمع اليه أيضا كل من كان قد تفرق عنه فكبرت جموعه وجاءت الاخبار بذلك الى منطاش بالقاهرة فخرج اليه منطاش بالسلطان والعساكر المصرية والخليفة والقضاة وقرب من الشام والتقى الجمعان بناحية شقحب فانتصر البعض من الفريقين وانكسر البعض ولم يعلم أحدهما حال الآخر فولى كمشبغا هاربا نحو حلب وولى منطاش نحو دمشق ولم يشعر السلطان الملك الظاهر برقوق بنفسه الا وهو على مخيم السلطان الملك المنصور حاجى فنزل فى الحال عن فرسه وأمسك الملك المنصور وقيده وجلس هو على كرسى السلطنة وصار كل من يحضر من الفريقين يجده جالسا فى دست السلطنة فلا يسعه الا النزول وتقبيل الارض بين يديه فلما كان اليوم الثانى خرج منطاش فيمن بقى من عسكر مصر والتقى الجمعان وتناوشا قليلا ثم رجع كل الى مقره وسار السلطان الملك الظاهر برقوق من ليلته قاصدا مصر ومعه جماعة من عسكر حلب والعسكر الشامى والمصرى ووصل اليها فوجد مماليكه قد خرجوا جميعا من الحبوس وأمسكوا أعوان منطاش والعاملين معه ومنطاش بدمشق فدخل السلطان الملك الظاهر برقوق مصر فرحا مطمئنا وأطلق جميع الامراء الذين حبسهم منطاش

وأما منطاش فانه لما بلغه خبر وصول السلطان الملك الظاهر برقوق الى مصر وماجرى فيها أرسل أميرا اسمه تمنتمر الموساى الى حلب نائبا وحاصروا كمشبغا فى قلعتها وجاء الخبر بذلك الى السلطان برقوق فجهز عسكرا عظيما من مصر ومقدمهم الامير يلبغا الناصرى وسير معه الامير الجوبانى نائبا بدمشق وقراد مرداش نائبا بطرابلس فلما أحس منطاش بقدومهم هرب من دمشق وبلغ ذلك تمنتمر وهو يقاتل من بحلب فهرب أيضا وخرج الناصرى والجوبانى ومن معهما من العساكر من دمشق فى أثر منطاش وهو منضم الى نعير بن جبار وعنقا فحصلت بين الفريقين وقعة عظيمة للغاية على مدينة حمص قتل فيها الجوبانى وجماعة من الامراء وعاد الناصرى الى دمشق فجاءه تقليد نيابتها وبلغ ذلك كمشبغا نائب حلب فأخذ فى عمارة سورها ولم تكن عمرت من عهد طاذات ووصل منطاش ونعير وعنقا فى جيش جرار ونازلوا حلب وحاصروها فى شهر رمضان فلم يتمكنوا منها ورجعوا عنها خاسئين وأرسل السلطان الملك الظاهر برقوق فى طلب الامير كمشبغا فحضر الى مصر فولاه بها أميرا كبيرا واستقر عوضه قراد مرداش بولاية حلب ۞ ولم ينكف منطاش عن شن الغارة كل قليل من الزمن على البلاد الشامية وكثر عبثه وفساده فكبر أمره على السلطان برقوق وخرج فى جيش عظيم يريد الشام وبلغ ذلك منطاش فهرب نحو الشرق وقدم السلطان دمشق واستصحب معه الناصرى وسارا الى حلب وأقاما بها أياما ثم عاد الى دمشق وفى ليلة عوده قتل يلبغا الناصرى وجماعة من الامراء بقلعة حلب وأخذ معه قراد مرداش وقرر

عوضه فى حلب الامير سيف الدين بطا الدوادار وسار فى عسكره يريد مصر فدخلها فى سنة
أربع وتسعين وسبعمائة وفى قلبه غصة لعدم ظفره بمنطاش واراحة البلاد منه فلم يمض على
وصوله الا القليل حتى جاءه الخبر بمسير منطاش الى نعير بن جبار ونزوله عليه ظنيبا فأرسل
السلطان برقوق ووعد نعيرا باعادة الاميرية اليه ومناه حتى سلم منطاش فسيره السلطان
مع جماعة الى قلعة حلب فقتل بها وأحضر رأسه الى القاهرة وعلق بباب زويلة وعاد
السلطان فنكث وعده لنعير وأرسل اليه يوبخه ويعيره بأنه خان ذمة العرب ولم يوله
الاميرية فندم نعير على ما صنعه بمنطاش وتمكن السلطان الملك الظاهر من السلطنة وثبتت
قدماه فى منصبها فهابه الناس وكبرت شهرته وتقرب منه الامراء والملوك وأهدى له الامير
يوسف بن قرا محمد أمير التركمان بالشرق مدينة تبريز وبعث اليه بمفاتيحها مع بعض كبار
قومه فأرسل اليه برقوق خلعة سنية وفوض اليه الغزو وفتح ماتمكن من فتحه من المدن
والامصار ففرح قرا يوسف بذلك وجيش جيشا عظيما وخرج للغزو وقتال التتار فركب عليه
تيمورلنك فى عسكر جرار وقاتله فانتصر عليه تيمورلنك نصرة عظيمة ومزق عساكره كل
ممزق فسار قرا يوسف ومعه أحمد بن عويس وهو ممن كان حالفه على قتال التتار الى
قسطنطينية مستجيرين بالامبراطور منويل فلم يجدهما ولم يسمح لهما بالبقاء فى بلاده خوفا
من تيمورلنك لا سيما وقد كانت الامبراطورية كلها فى ضعف واختلال بأسباب الحوادث
المتراكمة وهجمات السلطان بايزيد رابع سلاطين آل عثمان على معظم ايالات المملكة
الرومانية الشرقية وضم الكثير منها الى أملاكه وقربه من مقر الامبراطورية لولا قيام
تيمورلنك من خلفه فى عسكر كبير ومنعه من التقدم الى القسطنطينية * ولما لم يتمكن قرا
يوسف وأحمد بن عويس من البقاء فى جوار منويل الامبراطور جاآ الى مصر فى نحو سنة
خمس وتسعين مستجيرين بالسلطان الملك الظاهر برقوق فأحسن برقوق وفادتهما وأنزلهما
منزلا رحبا ولبثا عنده أياما وكان تيمورلنك والسلطان بايزيد التركى يتمنى كل منهما فتح
ديار مصر ونزعها من يد دولة المماليك الثانية فعمد كل منهما الى ارسال وفد الى برقوق
فتقدم وفد بايزيد الى برقوق فى معاهدتهم على السلم والى الخليفة المتوكل
على أن يقرهم على مابيدهم من سلطنة الاناضول فأجابهم الى ذلك أما سفراء تيمورلنك
فانهم أغلظوا فى القول وسألوه تسليم قرا يوسف وأحمد بن عويس فطيب برقوق خاطرهم
ولاطفهم فلم يزدادوا الا عتوا فأمر بهم فقتلوا جميعا فشق ذلك على تيمورلنك واستعظمه
وسار فى جيش عظيم الى مصر آخذا بالثار فمر بالرها ففتحها وأعمل السيف فى أهلها تشفيا
وانتقاما فأهلك منها خلقا كثيرا ثم جاء الى حلب فأنكى فيها فخشى السلطان برقوق العاقبة
وخرج من القاهرة فى عسكر عظيم وصحبته السلطان أحمد بن عويس يريد دفع تيمورلنك
عن البلاد فلما وصل الى دمشق خلع على السلطان أحمد المذكور وجهزه بشعار الملك وسيره
الى بغداد فاخذها وضرب السكة باسم السلطان برقوق وجعل السلطان برقوق يتأهب لصد

تيمورلنك ويكثر من جمع الاسلحة والكراع الا أن المنية أدركته قبل أن يتم له الارب فمات بداء الصرع فى يوم الجمعة خامس عشر شوال سنة احدى وثمانمائة هجرية وعمره ستون سنة فحزن عليه الناس حزنا عظيما لعدله ورفقه بالرعية وقد أبطل فى أيامه المكوس عن الفاكهة والاثمار التى كانت ترد من طريق بولاق وكان كثير الصدقات محبا للعلم والعلماء بنى مدرسة عظيمة وسماها المدرسة الظاهرية وابتنى جامعا لا يزال الى يومنا ظاهرا معروفا بجامع برقوق وكان له ولع باقتناء الاسلحة وجياد الخيل والاستكثار من المماليك الجراكسة وكان كثير العناية بامور الدولة وتنظيم المملكة

ولما مات السلطان الملك الظاهر برقوق المذكور بايعوا بالملك ابنه فرج زين الدين الملقب بابى السعادات وله من العمر يومئذ ست وعشرون سنة ولقبوه بالملك الناصر فلما كانت سنة ثلاث وثمانمائة وردت الاخبار الى الملك الناصر بتأهب تيمورلنك للزحف على ديار مصر والشام فانه لما عاد من أخذ بلاد الهند بلغه وفاة السلطان الملك الظاهر برقوق فاستبشر لذلك وأنعم على مخبره بجملة تحف وكان فى نفسه منه لقتله رسله ومن أخذ السلطان بايزيد خان مدينة سيواس عقب موت صاحبها القاضى برهان الدين سنة ثمان وتسعين وسبعمائة مع ملطية وأخذ السلطان أحمد بن عويس بغداد فقصد بلاد الشام ومعه من العساكر مالا يكاد يحصى * قال أبو الوليد محمد بن الشحنة الحنفى أخبرنى الحافظ الخوارزمى أن بديوان عساكر تيمورلنك المختصة به ثمانمائة ألف وانه اجتاز على سيواس وحاصرها وأخذها بعد أن حلف لاهلها أن لايضع فيهم السيف فلما تمكن منهم حفرلهم حفائر ودفنهم فيها أحياء ثم أحرق البلد وأخربها وتوجه نحو البساتين فوجد أهلها قدأخلوها فاحرقها وخربها ثم توجه الى ملطية فهرب من كان بها فاخذها وخربها ثم اجتاز بهنى فحصرها ونصب عليها المنجنيق وهدم بعض قلعتها ثم أخذها صلحا * ولما كان يوم الخميس تاسع ربيع الاول وصل الى حلب ونازلها وكان العامل عليها يومئذ المقر السيفى دمرداش الخاصكى فارسل يستنجد فجاءته عساكر دمشق مع نائبها سعيد بن سودون خال الملك الناصر وعسكر طرابلس مع نائبها المقر السيفى شيخ الخاصكى وعسكر حماة مع نائبها دقماق وعسكر صفد وغزة فلما اجتمعوا اختلفت كلمتهم فمن قائل ادخلوا المدينة وقاتلوا من الاسوار ومن قائل اخرجوا الى ظاهر البلد بالخيام وظلوا على هذا الحال أياما فلما رأى الامير دمرداش نائب حلب اختلافهم خاف شر العاقبة فاذن للناس فى اخلاء المدينة والتوجه حيث شاؤا فلم يوافقوه على ذلك وضربوا خيامهم ظاهر البلد تلقاء العدو وحضر قاصد تيمورلنك وطلب الاجتماع بنائب دمشق فاذن له فلما دخل عليه أمر بعض غلمانه فقتلوه قبل أن يسمع كلامه فلما لم يرجع القاصد علم تيمورلنك أنه قتل فنادى فى العسكر بالخروج فخرجوا من خيامهم وزحف بهم على المسلمين فى يوم السبت حادى عشر ربيع الاول وأمامهم الفيلة فزعر المسلمون وخافوا وولوا نحو المدينة وازدحموا على الابواب فمات منهم خلق عظيم

والعدو

والعدو وراءهم يأسر ويقتل بحد السيف وأخذ تيمورلنك البلد عنوة فصعد نواب المملكة وخواص الناس الى القلعة وكان أهل حلب قد أودعوا غالب أموالهم بها فحاصر القلعة وشدد عليها وضيق فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الاول أخذها بالامان والايمان مجردة عن الذمة والايمان فدخلها العسكر ولبثوا بها يومين اثنين ثم غدروا بكل من فيها وأسر فنقلوا جميع ما كان بها من الاموال والاقمشة والامتعة مما لا يحصى وعاقب أغلب المسلمين بأنواع العقوبات وحبسهم بالقلعة مابين مقيد ومزنجر ومسجون ومرسم عليه ثم نزل تيمورلنك من القلعة الى دار النيابة وصنع وليمة على زى المغل فوقف سائر الملوك والنواب فى خدمته وأدار عليهم كؤس الخمر فشربوا وطربوا فى ذلك اليوم والمسلمون فى عقاب وعذاب وقتل وسبى وجوامعهم ومدارسهم وبيوتهم فى هدم وحرق وتخريب ونبش الى آخر شهر ربيع الاول فركب تيمورلنك فى عسكره وسار نحو دمشق وقد أقام على حلب نائبا اسمه الامير موسى فلما جاءت الاخبار الى الملك الناصر بمسير تيمورلنك الى دمشق خرج من القاهرة فى عسكر كثير وسار نحو دمشق لقتال تيمورلنك فالتقى الجمعان وانتشبت الحرب بينهما فكانت سجالا ثم وقعت الهزيمة على الملك الناصر ومزقت عساكره كل ممزق فعاد الى القاهرة ليجمع ما تفرق منهم ويعود لقتال تيمورلنك فبلغه أن تيمورلنك قد اشتغل عنه بقتال السلطان بايزيد ابن السلطان عثمان التركى ففرح بذلك واستبشر * وكان تيمورلنك لما وصل الى قرا باغ بلغه أن بايزيد سار الى ارزنكان وأخذها فعظم ذلك على تيمورلنك واستكبره وسار فى عسكره الى بلاد السلطان بايزيد يريد أخذها فخرج عليه السلطان بايزيد والتقى الجمعان بانكورية وحصل بينهما قتال شديد فدارت الدائرة على السلطان بايزيد وسقط أسيرا فى يد تيمورلنك وبقى عنده مأسورا الى أن مات واستولى تيمورلنك على غالب بلاده وجهز قصاده الى السلطان الملك الناصر صاحب مصر يطلب منه أميرا من أمرائه اسمه الطنبدى كان قد أمسكه من عدة سنين قرا يوسف وجهزه الى الملك الظاهر برقوق وبقى فى مصر الى ذلك الحين فخاف السلطان الملك الناصر من ذلك وخشى شر العاقبة وترددت الرسل بين تيمورلنك وبينه فى تقرير قاعدة للصلح وما زالوا حتى انعقدت بينهما مودة ومهادنة فارسل السلطان الملك الناصر الى تيمورلنك زرافة حبشية فاهداه تيمورلنك فيلا وتتابعت رسائل المودة بين الفريقين فظن الناس خضوع السلطان الملك الناصر الى تيمورلنك واعترافه بالمبايعة الى دولة التتار فتخوفوا من ذلك وانقبضت نفوسهم وانحرفت خواطرهم على الناصر وأحس هو منهم بذلك فانكمش وتحرز وأبعد عنه كثيرا من الامراء ومقدمى الاجناد وكثرت الوحشة بينهم وبينه * واتفق أن قصر النيل فى سنة ست وثمانمائة هجرية ثم شرقت البلاد فدهى أهل الصعيد من ذلك بمالا يوصف واشتد القحط وكثر الموت فى الناس والدواب فمات فى مدينة قوص وحدها جوعا زهاء سبعة عشر ألفا ومات فى أسيوط أحد عشر ألفا ومات نحو ذلك

وأكثر فى مدن أخرى واشتد الكرب وعم الخطب وطالت الشدة أياما فزاد بغض الناس للملك الناصر واعتقدوا انه ماوقع لهم ذلك الا لتقرب الناصر من تيمور لنك وخضوعه لدولة التتار ثم ارتفع الموت عن الناس وكثر الوارد من الحبوب والاقوات ففرحوا بذلك وجاءت الاخبار بموت تيمور لنك فى السابع عشر من شعبان سنة سبع وثمانمائة فزاد فرحهم واطمأن جاش السلطان الملك الناصر وهم باسترجاع ماأخذه تيمور لنك من البلاد الشامية وطمع فى ذلك لما تحقق من وقوع الفتنة بين أولاد تيمور لنك واختلال نظام مملكة أبيهم فاخذ يجيش الجيوش ويكثر من جمع الاسلحة والكراع بدون مشورة الامراء ومقدمى العساكر فاغضبهم ذلك منه وانضموا الى أعدائه من بقية الامراء المبعدين فلما حانت لهم الفرص ركبوا وضيقوا عليه فى قصره وقام معهم العامة والغوغاء وكثر صياحهم حول القصر وبالغوا فى سبه ورميه بالخيانة وعدم الصلاحية للملك وعقد جماعة من الامراء لواء وساروا به الى حيث الامير عز الدين عبد العزيز أخى الناصر وأركبوه وساروا فى ركابه الى قصر الملك الناصر فحاصروه وضيقوا عليه وذلك فى السادس عشر من ربيع الاول سنة ثمان وثمانمائة فلما رأى الناصر انه مأخوذ لامحالة تنازل عن السلطنة وخلع نفسه منها فرضوا بذلك وانصرفوا عنه فخرج من قصره واختفى عند بعض خواصه فظن الناس يومئذ أنه قتل بين الغوغاء وأتموا البيعة لاخيه عز الدين عبد العزيز المذكور ولقبوه بالملك المنصور فكانت سلطنة الملك الناصر ست سنين وخمسة أشهر وأحد عشر يوما * ولما استقر المنصب بالسلطان الملك المنصور عبد العزيز جعل يتصرف فى الامور ويدنى قوما ويقصى آخرين ثم أساء السيرة فأبغضه الناس وندم الامراء على مافعلوه بأخيه الناصر فاتصل ذلك بالناصر فخرج من مخبئه وشاع خبر ظهوره وتقدم اليه الامراء فى أن يعود الى السلطنة فاجابهم الى ذلك فولوه المنصب فى جمادى الآخرة من السنة فلما قبض على زمام الامور أمسك أخاه عز الدين ونفاه الى الاسكندرية فقتل بها فى السابع من ربيع الآخر سنة تسع وثمانمائة وقيل سنة ثمان وثمانمائة فكانت سلطنته شهرين غير كاملين

ولم يكن الخليفة المتوكل على الله ليتعرض الى شئ من أمور السلطنة فى كل هذه المدة بعد الذى جرى له مع السلطان الملك الظاهر برقوق بل كان منعكفا على أشغاله الخصوصية مع هيبة ووقار وشهرة مطاع الامر مسموع الكلمة حتى مات ليلة الثلاثاء عشرى رجب سنة ثمان وثمانمائة هجرية * قال أصحاب التاريخ وهو أول من أثرى من خلفاء مصر وكثر ماله ورزق أولادا كثيرة يقال انه جاء له مائة ولد ما بين مولود وسقط ومات عن عدة أولاد ذكور واناث ولى الخلافة منهم خمسة ولانظير لذلك وتولى الخلافة من اخوته أربعة واتفق للمتوكل هذا أن عاد الى الخلافة بعد خلعه مرتين ولم يقع ذلك لاحد فيما تقدم الا للمقتدر فقط *وذكر الحافظ بن حجر فى انباء الغمر أن مولد المتوكل كان فى سنة نيف وأربعين وسبعمائة

وانه

وانه لما تسلطن برقوق المرة الاولى حسن له جماعة من أهل الدولة وغيرهم طلب الملك فكاتب الامراء والعربان مصرا وشاما وعراقا وبث الدعاة فى الآفاق فبلغ ذلك برقوق فخلعه وسجنه فخرج يلبغا الناصرى على برقوق بسبب ذلك فافرج عنه برقوق وأعاده الى الخلافة وفرح الناس به فرحا عظيما * قال فلما انتصر الناصرى وزالت دولة برقوق قال الناصرى للخليفة بحضر من الامراء يامولانا أمير المؤمنين ماضربت بسيفى هذا الا فى نصرتك وبالغ فى تعظيمه وتبجيله فتبرّم المتوكل من الدخول فى الملك وأشار باعادة حاجى بن شعبان * وكان المتوكل قد عهد بالخلافة لولده أحمد ولقبه المعتمد على الله ثم خلعه وعهد الى ابنه أبى الفضل العباسى فاستقر فى الخلافة بعده كما سيذكر فى محله ولقب المستعين بالله فكانت خلافة المتوكل المذكور نحوا من خمس وأربعين سنة

وما فى أيامه كيرلس بطرك المتأصلين بعد أن أقام سبع سنين وقد وقعت فى أيامه شدّة عظيمة قاسى فيها النصارى من البلايا والمحن مالا يكاد يدخل تحت الحصر وكبر الامر على كيرلس البطرك وعظم الخطب فكان صبورا وقورا عظيم العناية بالامة فلما مات خلا الكرسى بعده ثمان سنوات * ثم أقيم بعده ابن القس أبو المكارم بن كليل الشماس المصرى وسمى اثناسيوس وهو سادس سبعيهم فأقام احدى عشرة سنة ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شئ فاختاروا بعده شماسا اسمه غبريال أصابته القرعة فنقم عليه جماعة واختاروا آخر اسمه يوحنا فوقعت لذلك بينهم الشحناء فاشتد اللدد وطال الخصام وعمل كل فريق على نصرة صاحبه وتقوى أصحاب يوحنا وثبتت قدمهم فتمكنوا من اقامته بطركا فكان سابع سبعيهم وأقام ست سنين وتسعة أشهر كلها منافسة ومماكسة وخصام ثم قاموا عليه وخلعوه وسجنوه باحدى الديارات وولوا غبريال مكانه فأقام سنتين وشهرين كانت الفتنة فى خلالهما لاتخمد نارها ولا ينطفئ أوارها وكان المتأصلون لذلك على طرفى نقيض وقد نادى بينهما منادى القلق الدائم والكمد الملازم ثم عاد أصحاب يوحنا فتغلبوا وظفروا وقاموا على غبريال فخلعوه وسجنوه وأخرجوا يوحنا من معقله وأعادوه الى منصب البطريكية ثانية فعدّ ثامن سبعيهم * قال بعض كتاب الاخبار وكان يوحنا هذا رجلا جليل القدر وقورا واسع العلم والمعرفة فلما استقربه المنصب دبر الامور فأحسن التدبير وعمل على ازالة الوحشة من بين الاحزاب وبالغ فى التلطف مع الحزم ففاز ونجح ومالت اليه القلوب واتحدت على محبته الخواطر فعظمت شهرته واتسعت كلمته وطالت أيامه وكان من الحوادث فيها ما سيذكر فى محله

(الفصــــل الثامن)

(في خلافة أبي الفضــل المستعين بالله ابن المتوكل)

ثم قام بالأمر بعـد الخليفة المتوكل على الله ابنـه أبو الفضل العباسي بويع له بها في ثاني يوم وفاة أبيه سنة ثمان وثمانمائة هجرية أي سـنة خمس وأربعمائة وألف ميـلادية ولقب بالمسـتعين بالله فلما اسـتقرت به الخـلافـة أدنى منـه جميع الامراء وتحبب الى رجال الدولة واستمال اليـه العامـة فمالوا الى محبتـه ودانت له الامور واجتمع النـاس على طاعتـه وبقيت الاحوال سـاكنـة والخـواطر مطمئنـة الى سـنة ثلاث عشرة وثمانمائة فوقعت فتنـة عظيمـة بين السلطان الملك الناصر فرج وبين شيخ المحمودي أحد كبار الامراء فخـرج عليـه شيخ وشق عصا طاعتـه وكان شيخ المـذكور أحـد مماليـك الملك الظاهر برقوق المقربين اليـه وكان جليـل القـدر عالما داهيـة واسع المعـرفة والتـدبير شـدد في معاداة الملك النـاصر ورماه بالكفـر والزندقة والانحـلال وتقرب من كبار الامراء واستمـالهـم الى مذهبـه فوافقوه على خلع الناصر وتوليتـه من يأهـل لمنصب السـلطنة فكاشـف الخليفـة المسـتعين بالله بما في نفسـه وحبب اليـه الملك وأعلمـه أن الامراء والنـاس كافـة ميالون الى مبايعتـه فمال الخليفـة الى السـلطنة وتاقت نفسـه اليها وجعـل شـيخ المحمـودي يراقب الفـرص للايقاع بالنـاصر فاتفق خروج النـاصر من مصر الى الشام ترويحا للنفس فـلم يسـتقر به المقام بدمشـق حـتى سـير اليـه الامـير شـيخ من يستقدمه الى مصر ويسأله التنـازل عن الملك طوعا قبـل أن يحـل به العطب فاكـبر الناصر هذا الامر وأعظمه وقبض على رسول الامير شيخ وسجنه ونادى في عسـكر الشام بالخروج الى مصر وجاءت الاخبار بذلك الى الامير شيخ فاستعد للقائه واشتد على الخليفة في خلعه وقد أثبتوا عليه الزندقة والكفر وحكم ناصر الدين بن العديم بسفك دمه واتفق رأى الامراء كافة على سلطنة الخليفة المستعين بالله واستقلاله بالامر فوافقهم الخليفة بعـد شدة وتوثق منهم بالايمان فبايعوه وحلفوا له على الوفاء فلم يغير لقبه وجلس على سرير الملك وقام الكل بين يديه ووردت بعـد ذلك الأخبار بقرب السـلطان الملك الناصر الى حـدود الديار المصرية فخرج الامير شيخ في عسكر عظيم ومعه الخليفة المستعين وجماعة من أكابر الامراء فدخلوا الشام بغـير قتال وجعـل الخليفة يتصرف في الأمور فقرر الأمـير بكتمر جلق على نيابة الشام وقرقـاس في نيابة حلب وسودون الجلب في نيابة طرابلس وجعـل الامـير شيخ والامـير نوروز في ركابه يدبران الامر ونادى منادى الخليفـة ألا ان فرج بن برقوق قـد خلع من السـلطنة ومن حضر الى أمير المؤمنـين وابن عم سـيد المرسلين فهو آمن فتسلل

الناس من الناصر ففر الناصر الى مدينة حلب فلما علم به أهلها قام أناس منهم على أسواق البلد فنادوا نصر الله أمير المؤمنين فلما سمع الرماة ذلك تخوفوا على أنفسهم ولم يغيبوه وقبضوا على الناصر وقتلوه بحكم ابن العديم فى الخامس والعشرين من المحرم افتتاح سنة خمس عشرة وثمانمائة هجرية وكتب المستعين الى القاهرة باجتماع الكلمة اليه وعزل الجلال البلقيني فأغضبه وفعل معه بعد ذلك ما فعل ثم أرسل المستعين كتابا ثانيا الى من بالقاهرة من الاعيان فأرسل الى الجامع الطولونى فقرأه خطيبه ابن النقاش على المنبر ثم أرسل الى الجامع الازهر فقرأه خطيبه الحافظ بن حجر على المنبر وصدرت الكتب منه أيضا الى أمراء التركمان والعربان والعشير فكان مفتتحها ❁ من عبد الله ووليه الامام المستعين بالله أمير المؤمنين * وخليفة رب العالمين * وابن عم سيد المرسلين * المفترضة طاعته على الخلق أجمعين * أعز الله ببقائه الدين * الى فلان ثم سار بالعسكر المصرى ومن انضم اليه أيضا من العساكر الشامية الى القاهرة فدخلوا فى يوم الثلاثاء ثانى ربيع الآخر من السنة بعد أن تلقاهم الناس الى قطيا والصالحية وبلبيس وحصل للناس من الفرح بذلك مالا مزيد عليه وشق الخليفة القاهرة والامراء بين يديه الى قلعة الجبل فنزل بها ونزل الامير شيخ الاسطبل بباب السلسلة فلما كان الثامن عشر من ربيع الآخر صعد الامير شيخ والامراء كافة الى القصر وجلس الخليفة على تخت الملك فخلع على الامير شيخ خلعة عظيمة بطراز لم يعهد مثلها وفوض اليه أمر المملكة بالديار المصرية فى جميع الامور وكتب له أن يولى ويعزل من غير مراجعة وأشهد عليه بذلك ولقب نظام الملك فكان الامراء اذا فرغوا من الخدمة بالقصر نزلوا فى خدمة الامير شيخ الى الاسطبل فأعيدت الخدمة اليه ليكون عنده الابرام والنقض ثم يتوجه دواداره الى الخليفة المستعين فيعلم على المنشورات والتواقيع وظل الحال على ذلك حينا وقد نودى فى الناس برفع المظالم والمكوس وغير ذلك مما أثقل الرعية فأحب الناس الخليفة المستعين جدا ومالوا اليه بقلوبهم وعمل الحافظ أبو الفضل ابن حجر فى المستعين قصيدته المشهورة التى مطلعها

الملك أصبح ثابت الاساس * بالمستعين العادل العباسى

فلما كان فى شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة أمر الامير شيخ دواداره أن لا يمكن الخليفة المستعين من كتابة العلامة الا بعد عرضها عليه ففعل الدوادار ذلك فاستوحش الخليفة وضاق صدره وراجع الامير شيخ فى ذلك فلم يلتفت اليه وسأله أن يفوض اليه السلطنة على العادة فأجابه الخليفة بشرط أن ينزل من القلعة الى بيته فلم يوافقه شيخ على النزول بل استنظره أياما فلم يفوض اليه السلطنة فقام عليه ونقله من القصر الى دار من دور القلعة ومعه أهله ووكل به من يمنعه الاجتماع بالناس فكتب المستعين الى الامير فيروز سرا يستنجده وكان يومئذ واليا على دمشق من قبل المستعين فأسرع لنجدته فى جيش عظيم

للغاية فلما بلغ القاهرة جمع فى سابع ذى القعدة العلماء والقضاة واستفتاهم عما صنعه الامير شيخ بالخليفة المستعين فأفتوه بعدم جواز ذلك فأجمع على قتال الامير شيخ فاستمر الخليفة المستعين بالقلعة الى ذى الحجة سنة ست عشرة وهو باق على الخلافة وتقررت قاعدة الصلح بينه وبين الامير شيخ فعاد فيروز بعسكر الشام الى دمشق وسكنت الفتنة بعد ذلك أياما قلائل * وعزم الامير شيخ على الشخوص الى الشام بعد رجوع الامير فيروز فخاف من المستعين وخشى غائلته فراجع البلقينى فى أمره وكاشفه بما فى نفسه وكان فى نفس البلقينى من الخليفة المستعين شئ لكونه عزله من منصبه كما سبقت الاشارة اليه فأقام له دعوى شرعية وحكم بخلعه من الخلافة فخلع قهرا وسير الى الاسكندرية فأقام بها مخلوعا الى أن مات بالطاعون فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة هجرية فكانت خلافته نحوا من أربع سنين وكانت مدة جلوسه على تخت السلطنة سبعة أشهر وخمسة أيام وأقاموا بعده أخاه أبا الفتح داود

(الفصل التاسع)

(فى خلافة أبى الفتح داود المعتضد)

ثم قام بالامر بعد المستعين أخوه أبو الفتح داود بويع بالخلافة يوم خلع أخيه سنة ست عشرة وثمانمائة هجرية أى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة وألف ميلادية فلم يكن له فى أمور المملكة كلمة ولا رأى والامر للامير شيخ المحمودى فانه بعد أن عاد من الديار الشامية وقد قرر أمورها على ما شاء قبض على زمام الملك واستبد بالمنصب فأحسن السياسة واستمال اليه الرعية وحذا حذو الخليفة المستعين فى ابطال المكوس والمغارم والرفق بالرعية فأحبه الناس واجتمعت اليه القلوب وأمنت الرعية وسعدت البلاد ودرت الارزاق ورخصت الاقوات وكثر الوارد منها وأمنت الطرق واختفى أهل الفساد وأرباب الشقاوة * قال المقريزى وأنشأ جامعه المشهور بجوار باب زويلة من داخله حيث كانت خزانة شمائل وأول ما ابتدئ به فى أمر هذا الجامع أن رسم فى رابع شهر ربيع الاول سنة ثمان عشرة وثمانمائة بانتقال سكان قيسارية سنقر الاشقر التى كانت تجاه قيسارية الفاضل ثم نزل جماعة من أرباب الدولة فى خامسه من قلعة الجبل وابتدئ فى الهدم فى القيسارية المذكورة وما يجاورها فهدمت الدور التى كانت هنالك فى درب الصفيرة وهدمت خزانة شمائل فوجد بها من رمم القتلى ورؤسهم شئ كثير الى أن قال وكان السبب فى اختيار هذا المكان دون غيره أن السلطان يريد المؤيد شيخ المحمودى حبس فى خزانة شمائل هذه أيام تغلب الامير منطاش وقبضه على

المماليك الظاهرية فقاسى فى ليلة من البق والبراغيث شدائد فنذر لله تعالى ان تيسرله ملك مصر أن يجعل هذه البقعة مسجدا لله عزوجل ومدرسة لاهل العلم فاختار لذلك هذه البقعة وفاء بنذره الى أن قال وفى يوم الخميس سابع عشر شوال نقل باب مدرسة السلطان حسن ابن محمد بن قلاوون والتنور النحاس المكفت الى هذه العمارة وقد اشتراهما السلطان بخمسمائة دينار وهذا الباب هو الذى عمل لهذا الجامع وهذا التنور هو التنور المعلق تجاه المحراب الى أن قال وبلغت النفقة على الجامع الى أخريات شهر رمضان هذا سوى عمارة الامير فخر الدين زيادة عن سبعين ألف دينار وتردد السلطان الى النظر فى هذا الجامع غير مرة فلما كان فى أثناء شهر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين ظهر بالمئذنة التى أنشئت على بدنة باب زويلة التى تلى الجامع اعوجاج الى جهة دار التفاح فكتب محضر بجماعة المهندسين أنها مستحقة للهدم وعرض على السلطان فرسم بهدمها فوقع الشروع فى الهدم يوم الثلاثاء رابع عشريه واستمر فى كل يوم فسقط يوم الخميس سادس عشريه منها حجر هدم ملكا تجاه باب زويلة هلك تحته رجل فغلق باب زويلة خوفا على المارة من يوم السبت الى آخر يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الاولى مدة ثلاثين يوما قال ولم يعهد وقوع مثل هذا قط منذ بنيت القاهرة اهـ

ومات السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى المذكور فى يوم الاثنين ثامن المحرم افتتاح سنة أربع وعشرين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته ثمان سنين وخمسة أشهر وستة أيام كلها راحة واطمئنان واسعاد على الرعية فقام بعده ابنه السلطان الملك المظفر شهاب الدين أبو السعادات أحمد وعمره يومئذ سنة ونصف سنة فقام بأمره الامير ططر فلم يحسن السيرة وأساء التدبير واستبد بالملك وأكثر من السرف والتبذير حتى بذر ماجمعه الملك المؤيد من الاموال وخرج بالمظفر مع حداثته يريد قتال الامراء بالشام وذلك أنهم لما علموا بموت الملك المؤيد وولاية ابنه المظفر استخفوا به لحداثته وقصدوا الاستبداد بالملك والاستقلال بحكم الديار الشامية فخشى ططر من ذلك وخرج لقتالهم وارجاعهم الى الطاعة فسار فى جيش عظيم ومعه السلطان الملك المظفر فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا عنيفا للغاية فظفر بهم الامير ططر وشردهم وأخضع من بقى منهم وأخذ أموالهم وسبى نساءهم وما زال حتى دانت له الامور فسار الى دمشق وفى نفسه ما فيها من حب الاستبداد بالملك فلما استقر به المقام بدمشق قام على الملك المظفر فى شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة فخلعه وارتقى عرش السلطنة فى يوم الجمعة تاسع عشرى شعبان المذكور فكانت سلطنة الملك المظفر شهاب الدين ثمانية أشهر تنقص سبعة أيام * ولبث ططر بالشأم أياما كان يدبر فيها الامر لنفسه وتلقب بالظاهر وكنى بأبى الفتح وهو من مماليك السلطان الملك الظاهر برقوق وسير الاخبار بسلطنته الى مصر فتعجب الناس من ذلك حيث لم يكونوا ليتوقعوا ولايته على هذه الصورة ثم سار من دمشق وهو متوعك البدن حتى دخل مصر وصعد الى قلعة الجبل فى موكب حافل للغاية وأمامه الامراء وكبار العسكر والجنائب السلطانية

فلم يستقر بها حتى ثقل به المرض واشتدّ فمات يوم الاحد رابع عشرى ذى الحجة من السنة فكانت سلطنته ثلاثة أشهر و يومين * فأقيم بعده ولده السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد وعمره نحو عشر سنين فقام بأمره الامير برسباى الدقاقى وجعل يتصرف فى الامور فطمعت نفسه فى الملك فقام على الملك ناصر الدين بعد أربعة أشهر وأربعة أيام من ولايته وخلعه وتسلق عرش السلطنة ولقب نفسه بالاشرف سيف الدين وكنى بابى النصر وقد كان من مماليك الظاهر برقوق فكان جلوسه على تخت الملك فى يوم الاربعاء ثانى ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة هجرية * قال أصحاب التاريخ وكان فاضلا عالما نحا نحو الملك المؤيد شيخ فى التزام الحزامة والعدل وعدم التهاون فى قضاء مصالح الخلق فأحبه الناس جميعا ومالوا الى طاعته واجتمعت له القلوب فسعدت أيامه وأمنت الرعية وزالت الفتن وانقطعت أسبابها واختفى أهل الفساد وزاد النيل فى أيامه فعم الاراضى فأخصبت وكثرت غلتها كثرة عظيمة فرخصت الاسعار وشبع الفقراء وكانت له حروب كثيرة مع الفرنجة ووقائع مشهورة فى عدة أماكن وأخضع جزيرة قبرص وألزم الملك لوسينيان الثالث بالطاعة والخضوع وضرب عليه الجزية فكان أجدر جميع الملوك الشراكسة بالمدح والشكران فقد كان أرفعهم همة وأكبرهم عزيمة وأشدهم حزامة وأقدرهم على سياسة الجمهور وتدبير الأمور فطالت لذلك أيامه وعاهد ملوك الفرنجة والسلطان مراد سلطان آل عثمان فكبرت لذلك هيبته واتسعت شهرته وارتفعت كلمته وخافه الملوك والامراء وتزلفوا اليه وهادوه بالهدايا النفيسة * فلما كانت سنة سبع وعشرين وثمانمائة هجرية خرج عليه ينبق النجاشى عامله على دمشق وشق عصا طاعته فسار اليه فى عسكر عظيم وقاتله حتى هزمه وقبض عليه وعلى دعاته فقتل بعضهم وشرد بعضهم وولى الامير عبد الرحمن مكانه وكان عبد الرحمن هذا زنجيا أسود قال أصحاب التاريخ فلم يقع فى أيام السلطان الملك الاشرف المذكور من الحروب والفتن غيرهذه الفتنة ولم تلبث أن تلاشت وعادت اليه الامور بالديار الشامية كما كانت عليه من قبل واستمر يدبر الملك ويعدل فى الرعية الى أن مات ثالث عشر ذى الحجة سنة احدى وأربعين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته عشر سنين وتسعة أشهر

فقام بالامر بعده ولده يوسف ولقب بالملك العزيز وعمره يومئذ نحو خمس عشرة سنة فقام بأمره الأمير جقمق وسمى نظام الدولة وتسلم مقاليد الأمور فاستبد بها وتصرف حسب هواه وضيق على الملك العزيز فلم يبق له من الملك سوى الاسم فاستعظم الملك العزيز هذا الامر جدا وجمع مماليكه وشاور كبارهم وأصحاب الرأى منهم فى أمر خلع جقمق من منصبه فوافقوه على ذلك وتجردوا لخلعه فأحس جقمق بما عزموا عليه وتحرز منهم وجمع كبار الامراء وطوائف العسكر وخرج بهم على الملك العزيز فاقتتلوا أياما اختل فيها نظام الدولة وكثر عبث أهل الفساد وتطاولت أيديهم الى أموال الناس وكادت الفتنة تعم حتى ظفر جقمق بالملك العزيز فقبض عليه وخلعه وارتقى منصب السلطنة فى التاسع عشر من ربيع

الاول

الاول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة فكانت سلطنة العزيز يوسف المذكور ثلاثة أشهر لاغير ولقب جقمق نفسه بالملك الظاهر وقبض على زمام الملك وصار يتصرف فى الامور فعبث وأكثر من تقرير المغارم وضرب المكوس ولم يهتم بمصالح الرعية فأبغضه الناس وتشاءموا من ولايته ونفرت منه القلوب وظهر الطاعون بالقاهرة ومصر عقب ولايته واشتد الموت فى الناس شدة بالغة ثم عم البلاد ففتك بأهلها فتكا ذريعا فكان الناس يموتون بالازقة والطرقات ولا يوجد من يدفنهم وطالت أيامه ثم ارتفع ولم ترتفع عن الناس المغارم ولا انكفت عنهم جباة المكوس وأعوان السلطان فكان الخليفة المعتضد بالله فى نكد وكمد بأسباب هذه المحن وما نال الرعية من فعال الملك الظاهر المذكور وكان يئن ويتوجع ويراجع الظاهر فى ذلك والظاهر لايلتفت اليه ولا يزداد الا تشديدا فى الطلب فمرض الخليفة وثقل به مرضه فكان اذا جاءه أحد الامراء ليعوده شكى اليه من فعال الظاهر بالرعية وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى فلما حضرته الوفاة عهد بالخلافة الى شقيقه أبى الربيع سليمان ولقب المستكفى بالله وكتب له عهدا بذلك يقول * بسم الله الرحمن الرحيم * هذا ما أشهد على نفسه الشريفة حرسها الله وحماها * وصانها من الاكدار ورعاها * الشريفة الطاهرة الزكية الامامية الاعظمية العباسية النبوية المعتضدية * أمير المؤمنين * وابن عم سيد المرسلين * ووارث الخلفاء الراشدين * المعتضد بالله تعالى أبو الفتح داود أعز الله به الدين * وأمتع ببقائه الاسلام والمسلمين * أنه عهد الى شقيقه المقر العالى المولى الاصيلى * العريقى الحسبى النسبى السليلى * سيدى أبى الربيع سليمان المستكفى بالله عظم الله شأنه بالخلافة المعظمة وجعله خليفته بعده ونصبه إماما على المسلمين عهدا شرعيا معتبرا مرضيا نصيحة للمسلمين * ووفاء بما يجب عليه من مراعاة مصالح الموحدين * واقتداء بسنة الخلفاء الراشدين * والائمة المجديين * وذلك لما علم من دينه وخيره وعدالته وكفالته وأهليته * واستحقاقه بحكم أنه اختبر حاله وعلم طويته * وأن الذى يدين الله به أنه اتقى لله ممن رآه وأنه لايعلم أنه صدر منه ما ينافى استحقاقه لذلك وأنه ان ترك الامر هملا من غير تفويض المشار اليه أدخل اذ ذاك المشقة على أهل الحل والعقد فى اختيار من ينصبونه للامامة ويرتضونه لهذا الشأن فبادر الى هذا العدل شفقة عليهم وقصدا لبراءة ذمته ووصول الامر الى من هو أهله لعلمه أن العهد كان غير محوج الى رضا سائر أهله ووجب على من سمعه وتحمل ذلك منه أن يعلم به ويأمر بطاعته عند الحاجة اليه ويدعو الناس الى الانقياد له فسجل ذلك على من حضره حسب اذنه الشريف وسطر عن أمره قبل ذلك سيدى المستكفى أبى الربيع سليمان المسمى فيه عظم الله شأنه قبولا شرعيا * ومات الخليفة المعتضد بعد ذلك فى يوم الاحد رابع ربيع الاول سنة خمس وأربعين وثمانمائة هجرية واستقر المستكفى فكانت خلافة المعتضد نحو ثلاثين سنة هلالية

ومات فى أيام الخليفة المعتضد المذكور يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام بطركا تسعا

وعشرين سنة فخلا الكرسى بعده سنة ولم يقع فى أيامه من الحوادث شئ يذكر فأقاموا بعده ثاوروسيوس وهو تاسع سبعيهم وأصله من منية ابن خصيب من صعيد مصر واسمه عبد المسيح وكان راهبا فى دير أبو فانه ولم يقع فى أيامه من الحوادث شئ يذكر

(الفصل العاشر)

(فى خلافة أبى الربيع سليمان المستكفى بالله)

ثم قام بالامر بعد المعتضد شقيقه أبو الربيع سليمن ولقب المستكفى بالله بعهد منه واستقر بالخلافة فى يوم الاحد رابع ربيع الاول سنة خمس وأربعين وثمانمائة هجرية أى سنة احدى وأربعين وأربعمائة وألف ميلادية * قال بعض كتاب الاخبار وكان من صلحاء الخلفاء وعبادهم صالحا دينا عابدا كثير التهجد والتلاوة كثير الصمت حسن السيرة فلما رآه السلطان الملك الظاهر جقمق على هذا الحال اعتقده وعرف له حقه وأجله وعظم قدره وأحبه ولبثا على الصفاء والمودة حينا من الدهر فلم تقع فى أيامه فتن ولم تقم تلك الاحن التى كانت لاتقعد لها قائمة بأسباب بغض الامراء بعضهم لبعض وتداخلهم فى أمور السلطنة وأحوال الدولة وميل كل منهم الى الاستبداد بالأمر والاستقلال بأبهة السلطنة وانكف جقمق عن ضرب المكوس والمغارم على الرعية وأبطل بعضها خوفا من الخليفة فاطمأنت القلوب وسكنت خواطر الفقراء وأمنت الطرق واختفى أهل الفساد ودرّت الارزاق وكثرت غلات البلاد وشبع الفقراء بعد الجوع وأمنوا بعد الخوف ولم تطل مدة خلافة المستكفى بالله اذ مات ليلة الجمعة سلخ ذى الحجة سنة أربع وخمسين وثمانمائة فكانت مدة خلافته نحو ثمان سنين كلها خير وبركة ولم يعهد بالخلافة لأحد فمشى السلطان فى جنازته الى تربته وحمل نعشه بنفسه وتسابق الامراء الى ذلك وخرج الالوف من الناس أمام جنازته وبكوه بكاء مرا وبايع السلطان الملك الظاهر جقمق بعده أخاه أبا البقاء حمزة ولقب بالقائم بأمر الله

ومات فى أيام الخليفة المستكفى ثاوروسيوس بطرك المتأصلين فكانت مدته ست سنوات أو نحوا منها وكان ورعا تقيا كثير الصدقات مجتهدا متهجدا ولم يقع فى أيامه من الحوادث شئ يذكر فأقيم بعده يوحنا رئيس دير شهران وأصله من منية ابن خصيب فهو الثمانون عددا لبطاركة الاسكندرية ووقع فى أيامه من الحوادث ماسيذكر فى محله

(الفصل

(الفصل الحادى عشر)

(فى خلافة أبى البقاء حمزة القائم بامر الله)

ثم قام بالأمر بعد الخليفة المستكفى أخوه أبو البقاء حمزة فى سلخ ذى الحجة سنة أربع وخمسين وثمانمائة هجرية أى سنة خمسين وأربعمائة وألف ميلادية ولقب القائم بأمر الله وكان شهما صارما أقام أبهة الخلافة وتعرض لأمور السلطنة واستمال اليه جماعة من كبار الامراء وطوائف القواد فعظمت صولته وكبرت هيبته وتطاولت يده الى فعل الدسائس وافساد الامور على السلطان الملك الظاهر جقمق فأحس السلطان بذلك فأبغضه ومقته وخشى عاقبة فعله وآثر العزلة والتخلى عن الملك على مناواة الخليفة وكان قد ناهز الثمانين فتنازل عن السلطنة لابنه فخر الدين عثمان وصرّفه فى سائر الامور وحذره من فعال الخليفة وكان كثير الحزن والاشفاق على ولده فلم تطل بعدذلك حياته ومات بعد قليل فكانت وفاته فى التاسع والعشرين من صفر سنة سبع وخمسين وثمانمائة فبايع الناس ولده فخر الدين المذكور البيعة العامة فى الحادى عشر من المحرم افتتاح سنة ثمان وخمسين ولقب بالملك المنصور وكانت سلطنة الملك الظاهر جقمق أربع عشرة سنة ونحو عشرة أشهر ۞ ولم يستقر بالملك المنصور المنصب حتى عاد الخليفة القائم بأمر الله الى دس الدسائس وايقاظ الفتنة طمعا فى الملك فالتم حوله الدعاة واستفحل أمره وظهرت كلمته واشتد الخصام بينه وبين الملك المنصور وعمل كل على تذليل الآخر فتحزبت الاحزاب وانقسم الناس واختلفت الكلمة وعظمت الفتنة وما زال الرؤساء فى نزاع وخصام والامر فى شدة واحتدام حتى تمكن الخليفة من خلع السلطان الملك المنصور فى سابع ربيع الاول من السنة فلم تكن مدة سلطنته سوى أحد وأربعين يوما أو أحد وثلاثين ولم يتمكن الخليفة من الاستواء على عرش السلطنة بعد خلع الملك المنصور اذ غادره الدعاة وانصرف عنه الاحزاب واختاروا مملوكا اسمه أبو النصر اينال وهو شيخ مسن فولوه الملك وبايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك الاشرف وذلك ثانى يوم خلع الملك المنصور

ولما استقرت السلطنة بالملك الاشرف المذكور دبر فاحسن التدبير وساس فأحسن السياسة ونظر فى مصالح الخلق نظرة الصادق الأمين واتخذ الامير بالجيونى وزيرا ولم يترك صغيرة ولاكبيرة الأحاط بها فخاف الخليفة منه وخشى أمره وانكف عن المشاغبة ولازم السكون ست سنوات وهو يتوقع فى كل سنة منها موت اينال نظرا لشيخوخته فلم يمت ولما طال عليه الحال وعيل صبره والنفس الامارة تدفع به الى ركوب ذلك المركب الخشن قام وأثار الفتنة فأحس بها بالجيونى الوزير فأعلم السلطان حتى خرج الجند على الاشرف وخرج الخليفة معهم فقام عليهم الاشرف فى مماليكه وخواصه وقاتلهم قتالا عنيفا وظفر بهم وشرد الكثير منهم ومزقهم كل ممزق وأرجع من بقى منهم الى الطاعة وأرسل فى طلب الخليفة الى قلعة الجبل

فصعد بعد اقدام واحجام فلما دخل عليه عاتبه وأغلظ معه القول و زاد فى الغلظة فغضب الخليفة وقال للاشرف ﷺ ما بالك قد خلعت نفسى وعزلتك ﷺ وكان ذلك غلطا منه * فقال قاضى القضاة علم الدين البلقينى وكان حريصا على جر الخلافة الى أخى الخليفة يوسف لكونه زوج ابنته قد بدأ بخلع نفسه فانخلع وثنى بخلع السلطان وهو غير خليفة فلم ينفذ ذلك وحكم بصحة خلعه * وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وثمانمائة فرسم السلطان عند ذلك باخراج الخليفة الى الاسكندرية فأخرجوه مقهورا مبعدا فاقام بالاسكندرية الى أن مات سنة ثلاث وستين وثمانمائة هجرية ودفن عند شقيقه المستعين بالله العباسى * قال بعض كتاب الاخبار ومن غريب الاتفاق أنهما شقيقان كل منهما رام السلطنة وكل منهما خلع وكل منهما سكن الاسكندرية ودفنا معا وحكم بخلعهما قاضيان أخوان ذلك خلعه الجلال البلقينى وهذا أخوه العلم البلقينى وهو عجيب اه وخلا الجو للاشرف اينال بعد ذلك فاستبد بالملك وعاقب زعماء دعاة الخليفة وخلع من كان يتوسم فيه الشر من الامراء وكبار العسكر ونظر فى أمور السلطنة بعين ساهرة ووافق علم الدين البلقينى فبايع أبا المحاسن يوسف أخا القائم بالخلافة ولقب المستنجد بالله فكانت خلافة القائم بأمر الله نحوا من أربع سنوات وستة أشهر كلها معاندة ومحاسدة فسبحان من أودع فى كل قلب ما شغله

(الفصل الثانى عشر)

(فى خلافة أبى المحاسن يوسف المستنجد بالله)

ثم قام بالامر بعد الخليفة القائم أخوه أبو المحاسن يوسف ولقب بالمستنجد بالله بويع له يوم خلع القائم بامر الله فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وثمانمائة هجرية أى سنة أربع وخمسين وأربعمائة وألف ميلادية فكان حسن السيرة عاقلا رزينا فاحبه الاشرف اينال وأجله ووفاه حقه وأسكنه بدار اخوته الخلفاء بالمدينة و واصله بالعطايا والتحف وكان السلطان الملك الاشرف قد أنهكته متاعب السلطنة وثقل عليه حمل أعباء الدولة فاشرك معه ولده شهاب الدين أبا الفتح أحمد وسلمه مقاليد الامور فسار فى الرعية سيرة تحمد وسلك مسالك الرفق وأحسن التدبير والسياسة وضرب بعض الدراهم باسمه ووفى السلطنة حق تدبيرها * فلما كان شهر جمادى الاولى سنة خمس وستين وثمانمائة وقد ثقل بالملك الاشرف اينال مرضه خلع نفسه وولى ابنه أبا الفتح المذكور ولقبه بالملك المؤيد فكانت مدة سلطنة اينال ثمان سنين وشهرين فاستقر ولده فى السلطنة واستقل بتدبير الملك وتصرف فى الامور على أحسن مارام فحسده الامراء واستولت عليهم الغيرة فقاموا عليه وخلعوه فقامت بسبب ذلك فتنة عظيمة وطالت أيامها و بقى الحال على ذلك حتى ولوا بعده

فى

فى الثامن عشر من رمضان سنة خمس وستين الامير سيف الدين خوش قدم ولقبوه بالملك الظاهر فكانت مدة سلطنة المؤيد أربعة أشهر لا غير

وكان خوش قدم هذا يعرف بالرومى وبالناصرى لانه كان من مماليك الملك الناصر وكان عاقلا عالما واسع الدراية عظيم التدبير محبا للرعية ساهرا على ما فيه راحتها ميالا الى الآداب اليونانية القديمة لانه يونانى الاصل ولم يستوزر الا كل عالى الهمة كبير الدراية خبيرا بالامور فعم فى عهده الأمن البلاد وسعد أهلها وجرى أمراؤه على شاكلته فاجتمعت قلوب الامراء والرعية على طاعته وانصرفوا عن الخليفة فلم يبق للخليفة من الامور الا الدين فقط فكان لا يتعرض لأحوال السلطنة ولا يزاحم الظاهر عليها وما زال الظاهر مسموع الكلمة ينظر فى مصالح الرعية نظر الأب الشفيق والفتنة راقدة والعدل قائم حتى اخترمته المنية عاشر ربيع الاول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته نحو ست سنين وستة أشهر فبكاه الناس بكاء مرا وحزنوا عليه حزنا شديدا

ولما كان اليوم الثانى من موته اجتمع الامراء وكبار الجند وتشاوروا فيمن يصلح للسلطنة فوقع اختيارهم على الامير أبى سعيد بالباى أحد الامراء المقدمين فبايعوه فى الحال ولقبوه بالملك الظاهر تفاؤلا فلم يستقر به المنصب حتى أظهر الغلظة فكان فظا مستبدا طائفا عنيدا وكاد يفسد ما أصلحه السلف فابغضته الرعية وانحرفت عنه خواطر الامراء كافة فخاف من الفتنة وأوجس من الخليفة المستنجد فانزله من داره من قلعة الجبل ووكل به من يراقب أموره فزاد بغض الامراء له وكرهوا بقاءه فى دست السلطنة وتجردوا لخلعه ثم قاموا عليه قومة رجل واحد وخلعوه فى السابع عشر من جمادى الاولى سنة اثنتين وسبعين وقيل فى سابع جمادى الاولى فكانت مدة سلطنته نحو ست وخمسين يوما وقيل ست وستين * ثم ولوا بعده الامير تمربغا بايعوا له بالسلطنة فى ثانى يوم خلع الظاهر بالباى ولقبوه بالملك الظاهر أيضا فلم يكد يستقر به المنصب حتى ظهر فساده وكثر عبثه وأطاع النفس الامارة فقاموا عليه وخلعوه أيضا ففرحت بخلعه الرعية وكان خلعه فى العشر الاول من رجب من السنة فكانت سلطنته نحو تسعة وخمسين يوما

ثم ولوا بعده الامير قايتباى أحد مماليك جقمق وبايعوه فى ثامن عشر رجب المذكور ولقبوه بالملك الاشرف قايتباى فلما استقر به المنصب أخذ فى تدبير الامور على ما فيه المصلحة واصلاح ما أفسده السلف * وكان شهما جليل القدر مسموع الكلمة مهيبا واسع المعرفة بأحوال الرعية فأمنت البلاد على يديه واطمأنت خواطر أهلها * وكان بين ملك فارس ومصر معاهدة وعلاقة ودية قد مضى عليها حين وكان بين ملوك آل عثمان وملك فارس عداوة وخلاف كانت الحرب بسببهما لا تنطفئ لها نار ولا يسكن لها أوار وظل الفريقان على قدم الحرب والجلاد حينا حتى ظفر السلطان محمد الغازى العثمانى بملك فارس وهزمه شر هزيمة ومزق شمل جنوده فلما جاءت الاخبار بذلك الى الاشرف قايتباى خاف من السلطان محمد وأوجس شرا

وخشى أن يهاجم الديار الشامية يوما فيسلخها عن ملك مصر ويضمها الى أملاكه التى كانت بلغت يومئذ مبلغا عظيما فجيش الاشرف جيشا ضخما وسيره الى الحدود ليدفع عنها غارات الجيوش العثمانية فعلم السلطان محمد بقصده ولم يلتفت اليه وخرج فى جيش عظيم يريد قتال الروم وأخذ بعض مدنهم فزاد قلق الاشرف قايتباى وهم بخلع نفسه من السلطنة وترك الامور لمن يتولاها فخاف الامراء وقواد الجند عاقبة تنازله ومنعوه من ذلك وجددوا له البيعة وبالغوا فى استرضائه فتولاها كارها وأخذ يتأهب لقتال السلطان محمد * وبينما هو على قدم التأهب والاستعداد اذجاءت الانباء بنصرة السلطان محمد على الروم وعزمه على الزحف على مصر والشام وأخذهما وعمت الاشاعة بذلك وتحققت بتأهب السلطان محمد واكثاره من جمع الاسلحة وآلات الحرب فكبر خوف الاشرف قايتباى وبالغ هو كذلك فى التأهب والاستعداد وصار يراقب الحوادث مع التحذر فلما تم للسلطان محمد ماأراد من ترتيب الجيوش ولم يبق عليه الا تسييرهم الى الشام فاجأته المنية فى مدينة طبقور جابر وجاءت الاخبار بذلك الى الملك الاشرف قايتباى ففرح وظن بلوغ الغاية ومات السلطان محمد عن ولدين هما بايزيد وجم المعروف عند أهل التاريخ باسم زيزم وكان بايزيد حاكما بأماسيا وجم حاكما فى بلاد القرمان فوقع بينهما الخلاف واشتد خصامهما على الملك واشتغلا عن الفتح بالمنازعة والمخاصمة فثار الانكشارية بسبب ذلك على قرمانى محمد باشا الصدر الاعظم يومئذ وقتلوه وعاثوا فى البلاد حتى كاد يختل نظام العسكر السلطانى فازداد اطمئنان الاشرف قايتباى وعاد الى القاهرة بجيوشه ولبث يراقب الحوادث ويتنسم الاخبار واشتد الخصام بين ولدى السلطان محمد الى حد القتال فقامت الحرب بينهما وطالت أيامها ودخل الأمير جم مدينة بورصه عنوة وقتل فيها من الانكشارية خلقا كثيرا فركب عليه أخوه بايزيد وقهره عند مدينة يكى شهر ففر عن بقى من عسكره يريد الالتجاء الى حمى الاشرف قايتباى فتبعه بايزيد بخيله ورجله الى حدود الديار المصرية ثم رجع ظافرا منصورا ووصل جم الى القاهرة فى نفر من خواصه فأكرمه الاشرف وأحسن لقاءه وأنزله مكانا رحبا فأقام عنده زهاء السنة ثم سار من مصر الى حلب وأخذ يراسل الامير قاسما آخر سلالة أمراء القرمان ويمنيه بأنه اذا أنجده ومكنه من تولى الملك مكان أخيه السلطان بايزيد رد اليه بلاد أجداده وعاهده على المودة والصفاء فمال اليه الامير قاسم وجمع أحزابه وسار فى نفر كثير مع جم المذكور لمحاصرة قونيه عاصمة القرمان فركب عليهم كدك أحمد باشا أحد قواد العساكر العثمانية وهزمهم ومزق جمعهم ففر الامير جم هاربا * وجاءت الاخبار بذلك الى الاشرف قايتباى فتطير وزاد خوفه من السلطان بايزيد وعزم على مفاجأته والزحف عليه بالعسكر المصرى قبل أن يدهمه بايزيد بخيله ورجله وجعل من يومئذ يناوى الترك ويقطع على قوافلهم السبل ويشرد ركبهم الراحل الى بيت الله الحرام وكان ملك الهند قد أرسل الى السلطان بايزيد سفيرا فى أمر لامحل لذكره هنا فلما وصل السفير الى مدينة السويس أمر الاشرف قايتباى فقبضوا عليه وجاؤا به الى القاهرة وعوّقه عنده وزحف على

أذنة

أذنة فلكها عنوة وكذلك فعـل بطرسوس وقد كانتا فى حوزة العثمانيين فاستعظم السلطان بايزيد ذلك وأكبره وسـير سفراء الى قايتباى فى طلب رد ما أخـذه المصريون من البـلاد العثمانيـة فأرجع قايتباى السفراء بغير جواب وسير عسكرا كثيرا لقتال عساكر بايزيد فكبر كيد السلطان بايزيد وسير هو كذلك جيشا عظيما لقتال عسكر قايتباى فالتقى الجمعان واقتتلوا فكانت الحرب بينهم سجالا ثم انحازت العساكر المصرية الى ملاطية فأخذها الاشرف قايتباى بخمسة آلاف مقاتل ثم كروا على جنـد بايزيد وهم فى مضايق الجبال وأعملوا فيهـم السيف وقتلوا منهم خلقا كثيرا ومن بقى وتحصن فى طرسوس وأذنة فأرسـل قايتباى الامير أزبك فى نجدة لاخراج العثمانيين منهما فقاتلهم أزبك قتالا شديدا وأبلى فيهم بلاء حسنا فشق هذا الامر جدا على السلطان بايزيد وأكبره وآلى على نفسه أن يسترجـع أذنة وطرسوس فأنفذ عسكرا عظيما مع صهره الامير أحمد * وأحمد هذا ابن أمير البشناق ومولده فى بلاد الارنؤد وتربى فى مهد النصرانية ثم أسلم ودخـل فى خدمة آل عثمان حتى بلغ رتبـة الامارة فلما التقى الفريقان اقتتلا قتالا شديدا فانهزم الامير أحمد وظفرت به الجنود المصرية وانتصروا عليه نصرة عظيمة ووقع أحمد المذكور فى قبضة الامير أزبك فسار به الى القاهرة مدحورا ووصل الخبر الى السلطان بايزيد بما حـل بأصحابه فكاد يتميـز من الغيظ وجند جندا عظيما وعقد لواءه لامير من كبار القواد اسمه على باشا فسار فى سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة هجرية ونزل بجيوشه فى بلاد القرمان فعـلم الاشرف بخبره وكثرة عساكره فتخوف وعمـد الى طلب الصلح وأنفذ الى السلطان بايزيد صهره الامـير أحـمد واسطة فى ذلك فأبى بايزيد الا القتال وأحث جيوشـه حتى التقت بجيوش الاشرف قايتبـاى فى أذنة وطرسوس فانتشبت الحرب بينهم فانهزمت جيوش قايتباى شر هزيـمة وأخذ منهم العثمانيون أذنة وطرسوس وعاد من بقى من المصريين الى مصر وفرح السلطان بايزيد بنصرة جيوشه فسار الى أرمينية فى عسكر عظيم وحاصر تختها وافتتحها بعـد قتال شديد وقبض على واليها وسيره الى القاهرة بدلا من الامير محمـد استخفافا بالاشرف قايتباى فاستعظم الاشرف ذلك وسـير الامير أزبك ثانية فى جيش كبير للقتال فالتقى الفريقان عنـد طرسوس فواقعهم أزبك فكادوا يهزمونه فعاد اليهم وقاومهـم ونال منهم فرجعوا القهقرى ولم يقـدروا على القتال فعاد أزبك الى القاهرة ظافرا غانما فأجله الاشرف وأدناه منه * وحسب الاشرف قايتباى عاقبة تلك الحروب وأوجس منها خيفة فأرسل الى السلطان بايزيد فى طلب الصلح حقنا للدماء فلم يلتفت بايزيد الى ذلك وأغلظ فى القول وطلب منـه أن يتخـلى عن أذنة وطرسوس فان لم يفعل جاء لقتاله مع جميع دعاة آل عثمان فيفتح مصر عنوة ويعمل السيف فى أهلها فلا يرحم كبيرا ولا صغيرا فأذعن الاشرف الى ذلك وتخلى عنهما صاغرا وذلك سـنة ست وتسعين وثمانمائة هجرية فانكف بايزيد عن قتاله وعاقده الصلح

وكان الاشرف قايتباى مع كل هـذه الحروب والخطوب كثير التحرز من الخليفة أبى

المحاسن يوسف لا يركن اليه ولا يمكنه من شئ من أمور السلطنة ولا يبيح له النزول من قلعة الجبل الى دار أجداده بالمدينة خوفا من تقرب الامراء منه وقيام العامة لنصرته فلبث محجورا عليه بقلعة الجبل مقهورا مغلوبا لايعلم من أحوال المملكة شيأ حتى مات فى يوم السبت رابع عشرى المحرم افتتاح سنة أربع وثمانين وثمانمائة هجرية وكان قد عهد بالخلافة الى ابن أخيه عبد العزيز أبى العز يعقوب بن المتوكل على الله فكانت خلافة المستنجد نحو ثلاث وعشرين سنة وبضع أشهر

ومات فى خلافته يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام عشرين سنة وكان كامل الرأى صائب الفكر حسن التدبير محبوبا معظما قامت فى أيامه فتنة عظيمة بسبب ضعف الحكام وسقوط هيبة أصحاب الامر والنهى فقام العامة على النصارى بالقاهرة وأغلقت جميع كنائسهم ومنعتهم من اقامة شعائر دينهم ثم عم هذا الامر جميع الاقاليم القبلية والبحرية واشتدت نار الفتنة فوقع القتل والسبي والنهب والتخريب وأريقت الدماء هدرا فى الازقة والحارات وعجز ولاة الامر عن ردع العامة وزاد الخطب اشتدادا باشتغال السلطان الملك الاشرف قايتباى بقتال السلطان بايزيد وخلوا القاهرة وغيرها من المرابطين من العساكر والاجناد وما زال الحال على ذلك أياما كثيرة حتى سكنت الفتنة من نفسها وانكف العامة والناس جميعا فى تحرز فكان الخطب شديدا * ولما مات يوحنا البطرك المذكور أقام المتأصلون بعده يوحنا التاسع فكان حادى ثمانيهم ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله

(الفصل الثالث عشر)

(فى خلافة عبد العزيز أبى العز يعقوب بن المتوكل)

ثم قام بالامر بعد المستنجد ابن أخيه عبد العزيز أبو العز يعقوب بن المتوكل على الله بويع بالخلافة بعهد من عمه يوم الاثنين سادس عشر المحرم سنة أربع وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة تسع وسبعين وأربعمائة وألف ميلادية * فلما كان عصر يوم الاثنين المذكور صعد الى قلعة الجبل وحضر القضاة والاعيان فأمضوا عهد عمه ولبس تشريف الخلافة ونزل الى داره والقضاة بين يديه وكان قد أراد أن يلقب نفسه بالمستعز بالله ثم وقع التردد بينه وبين المستعين أو المتوكل واستقر الحال على أن يلقب بالمتوكل على الله * فلما استقرت به الخلافة أحسن السيرة والتدبير وأدنى منه العلماء وتعفف عن أخذ ما يتحصل من مشهد السيدة نفيسة من النذور من شمع وزيت وغيرهما وصرفه فى مصالح المكان من عمارة وغيرها وكان الخلفاء قبله يأخذون لانفسهم أكثره ويفرقون مايتبقى على من شاؤا من ألزامهم فرفع ذلك كله فلما خبر السلطان الملك الاشرف حاله مال اليه وأحبه ولم يضيق عليه

كما كان يفعل بعمه المستنجد ولكنه مع ذلك كان فى شاغل عنه بالانباء المتراكمة عن السلطان بايزيد وخوفه من نقض الصلح واضطرام نار الحروب فكان قلق البال مضطرب البلبال وما زال على هذا الحال حتى مرض ومات فى الثانى والعشرين من ذى القعدة سنة احدى وتسعمائة هجرية فكانت سلطنته تسعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وعشرين يوما فبكاه الناس وحزنوا عليه حزنا عظيما واجتمعت كلمة الامراء كافة على تولية ولده أبى السعادات محمد فولوه يوم وفاة أبيه ولقبوه بالملك الناصر

فلما استقر به المنصب أساء السيرة وعبث بالامور وجار وظلم الرعية فكان جبارا غشوما عتلا زنيما لا رحمة عنده وكان شديد البغض للملة النصرانية على غير سبب وكان النصارى من أهل البلاد الى هذا الحين لم يتمكنوا من لم شعث ماأفسدته الفتنة السابقة ولا اصلاح ما تهدم من كنائسهم ودورهم وغير ذلك فضيق عليهم وبالغ فى تذليلهم وأباح للعامة تتبعهم بالايذاء ورفع القصص ضدهم فكان الرجل منهم لا يشعر الا وقد طرقوا بابه أوأدخلوه عنوة وأخذوا جميع ما وصلت اليه أيديهم من ملبوس وأثاث ثم يأخذون صاحب الدار حتى اذا نزلوا به عند باب داره ذبحوه أو أوقدوا حطبا وألقوه فيه على مرأى من أهله وولده واشتدت نار الفتنة وارتفع لهبها فقتل وحرق خلق كثير وأغلقت الكنائس وسائر بيوت العبادة وتعطلت الشعائر الدينية * قال بعض أهل التاريخ فتوجه الناس بقلوبهم الى الله تعالى وضجوا وعجوا والناصر بظلمه كل يوم فى شأن * فلما كان فى بعض الايام اتفق أن مملوكا من مماليكه أذنب ذنبا صغيرا فأمر به الناصر فسلخ جلده حيا بين يديه فقام عليه عند ذلك طوائف المماليك ونادوا بخلعه فخلعوه كرها وحجروا عليه وضيقوا وتشاوروا فيمن يصلح للولاية فاتفقت كلمتهم على مبايعة الامير قانصوه الملقب بخمسمائة وهو من مقدمى الامراء ولقبوه بالملك الاشرف فكانت سلطنة الناصر ستة أشهر الا أياما قلائل كلها عسف وجور لا يطاق

فلما استقرت بقانصوه السلطنة رأى من اختلال الاحوال وتفشى الفساد فى جميع أمور المملكة ما أقعده عن التدبير وأعجزه عن القيام بمهام السلطنة فعالج الامر فلم يفلح فأكثر من الاخذ والرد مع الامراء فلم يتم له أمر فخلع نفسه فكانت سلطنته خمسة أشهر لاغير وكان من أمره بعد ذلك ما سيذكر فى محله ان شاء الله * وأما الخليفة المتوكل فانه أقام يدبر أمور الامامة لايتعرض لشئ من أحوال المملكة عاكفا على مابيده من حقوق الخلافة حتى مات فى يوم الجمعة الثانى من صفر سنة ثلاث وتسعمائة ولم يعهد بالخلافة لاحد من بعده فكانت خلافته نحوا من عشر سنين فاجتمعت الكلمة على البيعة للخليفة أبى صابر ولقب بالمستمسك

ومات فى خلافة المتوكل المذكور يوحنا بطرك الاسكندرية بعد أن أقام ست سنين قضاها فى أنكد عيش وأضيق حال بين أسر واسترقاق وقد ذاقت فى أيامه النصارى من الرزايا والمحن أنواعا وأصنافا وبموته أقيم بعده بنيامين وهو راهب من جبل سينا فكان ثانى ثمانيهم ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله

(الفصل الرابع عشر)

(فى خلافة أبى صابر يعقوب المستمسك بالله)

ثم قام بعد الخليفة المتوكل على الله أبو صابر يعقوب بويع بالخلافة يوم السبت الثالث من صفر سنة ثلاث وتسعمائة هجرية أى سنة سبع وتسعين وأربعمائة وألف ميلادية ولقب بالمستمسك بالله وكان حسن السيرة سليم السريرة محبا للخير وأهله عاقلا فأقام فى داره بالمدينة لا يتطرف لشئ من أمور السلطنة ولا يتعلق بأمر من أمور الدولة الا ما كان بيده من النظر على المشهد النفيسى فمالت الى محبته القلوب وهابه الامراء واجتمعوا على طاعته ومال جماعة منهم الى تسليم مقاليد السلطنة اليه فتحزب آخرون للناصر محمد وطلبوا ارجاعه الى تخت الملك بعد تنازل الملك الاشرف وخلعه نفسه وانضم الى هؤلاء جماعة من الكبراء والعلماء وما زالوا حتى فازوا بارجاعه وتسليم مقاليد الامور اليه وظنوا اصلاح ما فسد من أخلاقه فلم يستقر به المنصب حتى عاد الى ما كان عليه من الجور والعسف بالرعية وارتكاب المحرم والفحش مما لا خير فيه وتمادى فى جوره وظلمه فمقته الرعية وأبغضه الامراء وندموا على توليته الملك وحقدوا عليه وكرهوا مماليكه والمقربين اليه وصاروا يراقبون الفرص للايقاع به وطال الحال على ذلك أياما * فلما كان سادس عشر ربيع الأول سنة أربع وتسعين خرج الناصر يريد الجيزة على عادته فكمن له كمين فى الطريق من المماليك وخرجوا عليه وضربوه بالسيوف وتركوه ملقى بالطريق وعادوا الى القاهرة وأشاعوا خبر موته فاجتمع الامراء وكبار الجند وتشاوروا فمن يصلح للولاية بعده فاجتمعت كلمتهم على مبايعة خاله قانصوه الغورى فبايعوه فى يوم الجمعة سابع عشر من الشهر ولقبوه بالملك الظاهر وولوه السلطنة على كره منه اذ كان يعرف ماوراءها من المتاعب وما سيلاقيه من المصاعب * فلما استقر به المنصب رأى من فساد الاحوال ما أقعده وأضعف عزيمته وأبغضه فى الملك فتقاعس وترك الامور تجرى فى أعنتها وتحجب عن الناس ومنع الامراء من الحضور الى خدمته وأغلق دون أهل الظلامات بابه بغضا منه فى السلطنة وكرها فلما أيس الامراء منه وتحققوا من عزمه على اعتزال المنصب قاموا عليه وخلعوه فى أوائل ذى الحجة سنة خمس وتسعمائة فكانت سلطنته سنة وبضع أشهر وولوا بدله خاله جانبلاط الاشرف قايتباى ولقبوه بالملك الاشرف فتولاها والامور مختلة والاحوال معتلة وسعد السلطنة فى إدبار فعالجها علها تستقيم فلم يفلح فصمم على خلع نفسه وهم بذلك فأجابوه اليه وخلع فى تاسع عشرى جمادى الآخرة سنة ست وتسعمائة فكانت مدته سنة وأشهرا وأياما

واختل نظام السلطنة وزالت هيبة الدولة وتطاولت اليها أعناق الطامعين لكثرة العزل والتولية فلما رأى أمراء الشام ذلك وتحققوا أن ذلك انما هو ناجم عن تفرق الاحزاب وانقسام

الآراء وتباين الاهواء اختاروا من بينهم الامير طومان باى وسيروا الرسل الى أمراء مصر فى أمر توليته السلطنة فوافقوا على توليته وبايعوه جميعا وطيروا الاخبار بذلك الى الآفاق ولقبوه بالملك العادل فقدم الى مصر فى طائفة من الجند الشامى وصعد الى قلعة الجبل وأمامه الامراء المصريون ومقدمو الجند والجنائب السلطانية ودقت لقدومه البشائر وتوسم الناس فيه سمة الخير واستبشروا به فلما قبض على زمام الامور ورأى من تمرد الجند واقدامهم على الكبائر بغير خوف ولاحساب لتفشى الخلل فى جميع الامور وفساد الاحوال شدد عليهم وضيق وآخذهم على كل هفوة فأبغضوه وأضمروا له السوء وصاروا يراقبون الفرص للايقاع به فأحس بذلك وأخذ يتحرز منهم ويعمل على تفريق كلمتهم وتذليل كبارهم فلم يفلح وقد أكثر المبغضون له وكبر خوفه منهم ففر واختفى أربعين يوما فجعلوا يفتشون عليه حتى عثروا به فى ذى القعدة من السنة فجاؤا به وقتلوه ومثلوا بجثته فكان يوما عبوسا كثر فيه بعد ذلك النهب والسلب والتخريب واراقة الدماء وتمكن العدو من عدوه فخاف حينئذ جميع الامراء وانكمشوا ولم يقدم أحد منهم بعد ذلك على طلب الملك لاستفحال أمر الجند وتصرفهم فى جميع أمور الدولة ثم اجتمع جميع الامراء وكبار الجند والاعيان والعلماء وأصحاب الوظائف العالية وتشاوروا فى الامر طويلا ثم اتحدت كلمتهم على ارجاع الامير قانصوه الغورى الى دست السلطنة ثانيا لانهم رأوا أنه لين الجانب سهل الازالة أى وقت أرادوا خلعه خلعوه لانه كان أقلهم مالا وأضعفهم حالا وأوهنهم قوة فلما كلموه فى ذلك قال لاأقبل الا بشرط أن لاتقتلونى فان رأيتم منى اعوجاجا وأردتم خلعى فأعلمونى فأنزل لكم عن السلطنة وأخلى بيعتكم فعاهدوه على ذلك فقبل منهم فبايعوه فى ذى الحجة من السنة وفرح العساكر ببيعته واستبشروا بولايته وظنوا بلوغ الغاية * قال بعض أهل التاريخ وكان قانصوه هذا كثير الدهاء كبير المعرفة ذا فطنة وتجربة بالامور الا أنه شديد الطمع كثير الظلم جبارا طاغية فجعل يعالج الامور حتى سكنت الفتنة بما عاهد عليه الجند واشتغلوا عنه وأهملوا أمره فأخذ يعمل التدبير على اهلاكهم وتمزيق شملهم وصار يلقى الفتنة بينهم ويأخذ هذا بهذا ويحرض طائفة على الاخرى ويدس لكبارهم السم فى الطعام ويباعد بين بعضهم والبعض بالأسفار والبعثات الطويلة وغير ذلك من الحيل حتى أفنى أكثرهم وأهلك جميع كبارهم وشرد أصحاب الكلمة فيهم وأضعف شوكتهم وأزال صولتهم وفرق كلمتهم وأذهب هيبتهم ثم اتخذ لنفسه مماليك جلبا وأعدهم جندا وبالغ فى ترتيب نظامهم فكانوا بعد قليل ضربة على الرعية يظلمون ويجورون ويعبثون بالخلق ويسلبون المارة وأبناء السبيل وظهر منهم غاية الفساد والجور وهو يتغافل عنهم والناس فى ضجر وابتهال الى الله بقلوب مفعمة حزنا * فلما قويت بهم شوكته عمد الى مصادرة الناس فى أموالهم بالقهر والبأس وكثر أخذه للناس بالشبهات فكثر أصحاب السعاية على بابه فكانوا اذا علموا باحد من مساتير الناس وشوا به عند السلطان فيرسل اليه أعوانه من أولئك المماليك ويأخذ أمواله بغير رحمة ويسلمه الى من يعاقبه بانواع العقوبات حتى يأخذ ماأخفاه من دنياه الى أن يصبح فقيرا بعد غناه وعمت

المصادرة فأخفى الناس أموالهم وتظاهروا بالفقر والمسكنة وعظم ملك قانصوه وكبرت هيبته وعلت كلمته حتى هابه ملوك الروم والمشرق والفرنجة وفك الاسرى منهم وكان له المواكب الهائلة والكلمة المسموعة ومهد طريق الحاج وأمنه فكان يسافر اليه من مصر النفر القليل

ونزلت فى أيامه طائفة من الفرنجة على سواحل البحر الاحمر وصاروا يشنون الغارة على قوافل التجارة التى كانت تأتى الى مصر من الاقطار الهندية وبلاد العرب وغيرها فاستعظم قانصوه ذلك وسير جيشا عظيما لقتالهم فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا عنيفا فظفر الفرنجة وانتصروا على عساكر قانصوه نصرة عظيمة وأهلكوهم فلم ينج منهم أحد وكانت هذه الوقعة من أشد الوقائع وأشأمها على السلطان قانصوه اذ بدا بعدها نجم سعده فى الافول وسلطنة فى الانحلال * ولما كانت سنة ثمان عشرة وتسعمائة جاء الى مصر الامير كركور أخى السلطان سليم ابن السلطان بايزيد فارا من أخيه بعد قتال على الملك لاتحل لايراده هنا واستنجد قانصوه على قتال أخيه ففرح قانصوه بقدمه وجهزه بعشرين سفينة حربية وأمده ببعض العساكر البرية وسيره لفتح القسطنطينية فسار بها كركور فخرجت عليه عمارة عظيمة من السواحل الشامية وقاتلته وشددت فى قتاله حتى أغرقت جميع المراكب المصرية ودمرتها فلما جاء الخبر بذلك الى قانصوه ندم على ما فعل وخاف شر السلطان سليم وتحرز وبعث اليه سفراء فى طلب الصلح وعقد معاهدة على الولاء والمودة فلما تمثل السفراء بين يدى السلطان سليم أغلظ عليهم فى القول وهددهم وقال لهم قولوا لصاحبكم ليست السلامة فى كل مرة وان أنا الا زاحف على القاهرة فسيلقى صاحبكم نارا حامية ان شاء الله تعالى فرجع السفراء وأخبروه بما كان فكبر خوف قانصوه وأزعجه الامر وأخذ يراقب الفرص ويعلل النفس بالامانى البعيدة * ومرض فى هذه الاثناء الخليفة المستمسك بالله وثقل مرضه فزاد خوف الاشرف قانصوه من قيام الفتنة أيضا فى داخل البلاد وخروج الاحزاب لاسيما وقد كان بعض كبار الجند والامراء ناقمين عليه متحفزين للبطش به وما زال المرض يشتد بالخليفة حتى مات فى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة هجرية فكانت خلافته نحوا من عشرين سنة ولم يعهد بالخلافة لاحد من بعده فعجل الاشرف قانصوه فى مبايعة ولده محمد المتوكل على الله وبايعه كذلك الامراء والقضاة والعلماء خوفا من قيام الفتنة

ومات فى خلافة المستمسك المذكور بنيامين بطرك المتأصلين بعد أن أقام احدى عشرة سنة واشتد فى أيامه السلطان الملك الاشرف قانصوه على النصارى شدة بالغة فصادر الكثير منهم فى أموالهم وضيق عليهم وزاد فى نكايتهم حتى عاقب بعض النساء بالجلد ونحوه وكان بنيامين هذا ورعا تقيا ساكن اللب عمر فى أيامه ديرانبابشوى فى برية شهيات وبموته خلا الكرسى سنة ثم أقيم بعده بطرس وهو ثالث ثمانيهم واسمه داود وكان راهبا بدير أبى مقار فأقام ثمان سنين ومات ووقع فى أيامه من الشدائد والاحن ماوقع للنصارى فى أيام بنيامين فكان صبورا جلودا متواضعا فأقيم بعده مرقس وهو رابع ثمانيهم واسمه فرج الله وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله

(الفصل)

(الفصل الخامس عشر)

(فى خلافة محمد المتوكل على الله ابن المستمسك)

ثم قام بالامر بعد المستمسك ابنه الخليفة محمد المتوكل على الله بويع بالخلافة ثانى يوم موت الخليفة المستمسك سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة هجرية أى سنة ست عشرة وخمسمائة وألف ميلادية وفى اليوم المذكور صعد الخليفة المشار اليه الى قلعة الجبل وألبس تشريف الخلافة بحضرة السلطان الملك قانصوه والقضاة والعلماء ونزل الى داره بالمدينة فى دست الخلافة والقضاة بين يديه والتزم النظر بالمشهد النفيسى على ما كان عليه الخلفاء من قبل واحتجب عن الناس الا القليل بأسباب الحوادث والفتنة القائمة وتشاغل عنه السلطان قانصوه بما هو فيه من تجنيد الجند وجمع الاسلحة والكراع لقتال السلطان سليم فقد كانت الاخبار تأتى اليه فى كل يوم أشكالا لاسيما بعد أن سار السلطان سليم فى عسكر جرار لقتال اسمعيل شاه ملك فارس لما بينهما من العداوة القديمة * قال أصحاب التاريخ وكان سبب هذه العداوة أنه لما عصى السلطان سليم واخوته والدهم السلطان بايزيد استنجد الامير أحمد شاه اسمعيل على قتال والده ثم على أخيه من بعده فساعده وقبل من التجأ اليه من أولاده وسير سفراء الى سلطان مصر قانصوه فى طلب عقد تحالف سرى على الايقاع بالدولة العثمانية وايقاف سلاطينها عند حدهم فعظم هذا الامر على السلطان سليم وجيش جيشا عظيما لغزو بلاد فارس وأخذها جميعها من اسمعيل شاه ولما كان اسمعيل شاه لايبدى حراكا ولم يفتح للحرب بابا وكان السلطان سليم على قدم الاستعداد للقتال دس لعماله فى الولايات المتاخمة لبلاد العجم أن يحصوا الشيعيين من العجم النازلين فى بلادهم فأحصوهم سرا فكانوا زهاء أربعين ألفا فأمر بقتلهم صبرا فقتلوا عن آخرهم ثم سار السلطان سليم بجيوشه الى أدرنه فى الثانى والعشرين من المحرم افتتاح سنة عشرين وتسعمائة فكان كلما مر ببلد أومدينة فتحها حتى وصل تبريز فلاقاه ملك فارس فى عسكر عظيم واحتدت نار القتال بين الفريقين فانهزم ملك فارس ومن معه وساقت عساكر السلطان سليم خزائن ملك فارس وآلات حربه وذخيرة جنوده وما زال السلطان سليم يسير خلفه بخيله ورجله حتى وطأ أرض تبريز فقتل وأسر وأراق الدماء وأراد أخذ جميع بلاد فارس ومحو آثار هذه الدولة فلم يفلح لاشتداد القحط والغلاء وانتشار الوباء بين عسكره وبيعت العلوفة بمائة درهم وبيع الرغيف بمائة درهم وكان ذلك لانقطاع القوافل التى كان أعدها السلطان سليم لتأتى له بالمؤن والعلوفة فتخلفت عنه ولم يوجد بتبريز شئ من المأكول أو الحبوب حيث أحرق ملك فارس جميع الاجران وخرب المبانى وأفسد المزروعات لكى لا يتمكن السلطان سليم من شئ منها فاضطرب السلطان لذلك وخاف شر العاقبة وسأل عن سبب انقطاع القوافل

فقالوا له ان سبب ذلك قانصوه الغورى سلطان مصر فان بينه وبين ملك فارس عهدا على ذلك فقفل السلطان سليم راجعا بمن بقى من عسكره الى مقر سلطنته وفى نفسه ما فيها وأخذ يتأهب لقتال قانصوه وسلخ مصر منه وأقسم أنه لا ينكف عن الحرب حتى يزيل عنها دولة المماليك الشراكسة ويبيدهم

وكان من مقدمى الامراء المصريين أميران أحدهما اسمه خيربك متولى حلب وثانيهما اسمه سيباى الغزالى متولى الشام وكان بينهما وبين السلطان قانصوه الغورى عداوة فى الباطن وقد علم السلطان سليم بذلك فراسلهما فى أمر قتاله بمصر فأوسعا له الامل وسهلا عليه سبل العمل وحرضاه على ذلك وكشف له عن فساد الاحوال وعجز السلطان قانصوه عن القتال فأحس السلطان قانصوه بذلك وأخذ يراقب الامور ويبعث بالعيون لتأتى له بصادق الاخبار حتى علم بتأهب السلطان سليم للحركة والقيام من دار سلطنته فأخذ هو كذلك فى التأهب وعرض العساكر والاجناد وجمع الاموال لنفقة الحرب وفتح خزائن البيسارية وحواصل الامتعة فأخرجوا منها ما أرادوا من كراع وسلاح وأرسل الى الخليفة المتوكل على الله أن يتأهب للخروج معه الى حلب ونادى فى جميع العسكر بالتأهب والاستعداد فلما كان يوم الاثنين ثامن عشرى ربيع الاول سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة أنفق على العسكر نفقة السفر فكان ماخص كل مملوك مائة دينار وجامكية أربعة أشهر ثمانية آلاف فضة وثمن جمل سبع أشرفيات ثم نادوا فى العسكر بالخروج فخرجوا فى يوم الجمعة سابع ربيع الآخر وساروا تباعا الى الريدانية وعسكروا بها أياما ثم خرجت أطلاب السلطان وأمير المؤمنين الخليفة وبقية الامراء والمباشرين وفى صبح يوم السبت خامس عشر ربيع الآخرة اجتمع سائر الامراء المقدمين عند السلطان بالميدان وهم بملابس التشريف فخلع عليهم الخلع السنية فكانت عدتهم خمسة عشر أميرا ثم رسم السلطان بتعيين الامير طقطاى نائب القلعة أحد المقدمين والامير برزمك المعروف بالناشف والامير تانى بك العجمى أحد المقدمين وغيرهم من الامراء نواب غيبة كل منهم فى مسنده حتى يرجع السلطان من هذه الحلة ثم خرج السلطان من باب الاسطبل الذى عند السلم المدرج وأمامه النفير السلطانى المسمى بالبرغيشى وهو فى موكب عظيم وأبهة زائدة وكان يتقدم هذا الموكب ثلاثة أفيال مغشاة بالصناجق وخلفهم العساكر بملابس التشريف تباعا ثم الامراء رؤس النوب بالعصى ثم أرباب الوظائف من المباشرين ثم ولد السلطان وبجانبه الاتابكى سودون العجمى ثم القضاة الاربعة ثم أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله محمد بن المستمسك يعقوب العباسى وهو لابس العمامة البغدادية التى بالعذبتين وعليه قباء بعلبكى بطراز أسود حرير ثم سارت الجنائب السلطانية فكانوا طوالتين من الخيل من أحسن الجياد بعراقى وسروج بقواشى من الحرير الاصفر وطبول وزمور وطوالتين أخريين بكياس وسروج ذهب ومياثر زركش وخلفهم جماعة من رؤس النوب مشاة والجاويشية والطبردارية مشاة بالاطيار

ثم البقيع والجامع مغطاة بالحرير الاصفر ثم البخورى بالمبخرة * قال بعض كتاب الاخبار ثم أقبل السلطان الملك الظاهر قانصوه وكان الخليفة أمامه بنحو العشرين خطوة والسلطان راكب على فرس من جياد الخيل وعلى رأسه كاوتا وهو لابس قباء بعلبكيا أبيض بطراز مزركش والصنجق السلطانى على رأسه وشبل العثمانى مقدم المماليك خلفه ومعه السلحدارية والجم الغفير من الخاصكية والجدارية ودخل من باب زويلة وشق القاهرة بموكبه هذا فضج الناس له بالدعاء وما زال حتى خرج من باب النصر وسار الى المعسكر بالريدانية ونزلت فى غروب ذلك اليوم من قلعة الجبل جميع الخزائن السلطانية وكان فيها من الذهب زهاء ألفى ألف دينار نقرة وكثير من الفضة والنحاس ثم نزلت الزردخانة وهى محملة على مائة جمل ونادى المنادى سادس عشر الشهر المذكور بخروج من تعوق من العساكر والاجناد بالقاهرة ومصر القديمة وأن السلطان على عزم السفر فى يوم الجمعة عشرى الشهر فخرج من بقى ورسم السلطان لجماعة من نواب الشافعية ونواب الحنفية ونواب المالكية ونواب الحنابلة أن يرافقوه فى هذه الغزوة ورسم بذلك لجماعة من مشايخ الحقيقة والائمة ومشايخ القراء والمؤذنين والكتاب وجماعة من الاطباء والكحالين والحلاقين والمغنين وجماعة كثيرة من البنائين والنجارين والحدادين ثم قام الركب وسار الى الديار الشامية ولبث السلطان بالريدانية فى نفر من خواصه وكبار أمرائه أياما فجاءته الاخبار من عامله على حلب بأن السلطان سليم لايريد الا المصالحة وحقن الدماء وعدم الاندفاع الى حرب ربما كانت عاقبتها عليه وخيمة فسر السلطان الظاهر بهذا الخبر واعتقد صدق مقال السلطان سليم والامر على عكس ذلك فقد كان هذا القول خدعة من السلطان سليم ومداهنة لغاية فى نفسه * فلما كان يوم السبت ثانى عشرى ربيع الآخر سار السلطان الملك الظاهر قانصوه من الريدانية وصحبته أمير المؤمنين الخليفة والقضاة الاربعة و ولده المعز الناصرى وأقباى الطويل وذلك بعد صلاة الضحى يريد الخانقاه السرياقوسية فكانت مدة لبثه بالريدانية سبعة أيام وأقام بالخانقاه يوما وليلة ورحل عنها فى يوم الاحد ثالث عشريه * وكان بمصر من أولاد أحمد بك أخى السلطان سليم غلام اسمه قاسم وكان سبب حضوره الى مصر أنه لما قام السلطان سليم على أخيه أحمد أبى قاسم المذكور وقتله خافت أم أحمد عليه فسلمته الى مربيه من الخصيان وأشارت عليه بالهرب الى الديار الشامية فهربا معا الى حلب وهما فى هيئة مبتذلة فدخلاها فلبثا بها حينا فلما علم السلطان الملك الظاهر بأمر الصبى المذكور كاتب عامله على حلب فى أمره ورسم بتسييره الى مصر فجاءها مع مربيه وأقاما بها متنكرين فلما عزم السلطان الظاهر على الشخوص الى الشام جهز الامير قاسما المذكور فى عدة من المماليك والفرسان والخدم والحشم ودواب الحمل وقيد بخدمته الامير ماماى الصغير المحتسب ورسم بخروجه خلفه الى الشام فى هذه الابهة والكبكبة كى يشيع خبره ويعلم الناس فى دار السلطنة العثمانية أن بمصر غلاما من سلالة ملوكهم فيخرجون على

السلطان سليم بسببه ويتحازون اليه فتضعف شوكة السلطان سليم وتسقط هيبته فيظفر به ويعود منصورا وكان الصبي المذكور لم يبلغ من العمر سوى الثالثة عشرة فخرج في غرة جمادي الاولى من السنة في موكب حافل وشق من صليبة ابن طولون وعلى رأسه عمامة تركمانية وفي وسطه خنجر وفي أذنه قرط مثمن للغاية وخلفه جماعة من العثمانيين والامير ماماي المحتسب والامير اينال باى دوادار سكين ولحق بالركب السلطاني كما رسم الظاهر قانصوه

ودخل السلطان الملك الظاهر قانصوه بجيوشه الى الصالحية في يوم الثلاثاء خامس عشرى ربيع الآخر ثم سار منها الى قطيا فلاقاه نائبها ومد له الموائد وجهزه بما لاق وسار منها فدخل مدينة غزة في يوم الخميس رابع جمادى الاولى فلاقاه الأمير دولت باى نائب غزة فأقام بها خمسة أيام ثم رحل عنها الى دمشق فدخلها في يوم الاثنين ثامن عشرى جمادى الاولى فلاقاه الأمير سيباى الغزالي نائب الشام وأظهر الفرح بقدومه ومشى في ركابه فدخل وأمامه الخليفة والقضاة الاربعة وسائر الامراء وأرباب الوظائف من المباشرين والجم الغفير من العساكر والناس فلاقاه بها جميع أمراء الشام وعسكرها وحملوا القبة والجلالة على رأسه كما جرت عادة الملوك من القدم وزينت له المدينة ودقت البشائر بقلعة دمشق ونثر على رأسه بعض تجار الفرنجة الذهب والفضة وفرش له سيباى الغزالي تحت أقدام فرسه الشقق الحرير خديعة وغشا فشق وسط المدينة ودخل من الباب المسمى باب النصر وخرج الى الفضاء وسار نحو المصطبة السلطانية بناحية قانول فنزل بها ورسم بعمارتها فرمموها * قال أصحاب التاريخ ولم يتفق هذا الموكب لغيره من ملوك مصر الا للملك الاشرف برسباى لما سار الى دمشق سنة ست وثلاثين وثمانمائة * وأقام السلطان بالمصطبة تسعة أيام ثم رحل عنها الى حمص ثم الى حماة فلاقاه عاملها قباى بردى الغزالي وبالغ في تعظيمه وعمل له موكبا حافلا جدا فأقام بها أياما حتى جاءه الامير قاسم أخو السلطان سليم فأنزله بها وسار هو بعسكره ومتاعه قاصدا حلبا فدخلها في يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة في موكب حافل ومشى أمامه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله والقضاة الاربعة وسائر الامراء وحملت له القبة والجلالة وكان الحامل لها الامير خيربك عامله على حلب فلم يستقر بالسلطان المقام حتى وفدت عليه رسل السلطان سليم وهم ركن الدين قاضي عسكره وأمير اسمه قراجاه باشا وفي ركابهما سبعمائة راكب فأنزلهم قانصوه في أحسن مكان وأكرم وفادتهما ودعاهما الى مقامه وجعل يعاتبهما ويشكو من فعال السلطان سليم واقدامه على سفك الدماء التي حرم الله سفكها فلاطفاه وهونا عليه الامر وقالا قد جئنا الى مقامك وكلانا مفوض في اجراء كل ماتحب وتختار بشرط أن لاتتعرض لنجدة ملك فارس وقالا ان السلطان يريد أن ترسل اليه سكرا وحلوى من محصول بلادك فسر الظاهر قانصوه بذلك وظن السلامة والاخلاص وأرسل اليه ماطلب ولم تكن نية السلطان سليم من ارسال هذا الوفد الا ليسبر غور الامور ويعرف أحوال جيوش الظاهر قانصوه وما عندهم من سلاح وكراع وكان السلطان سليم قد

وصل فى هذه الاثناء الى قيسارية ثم خلع الظاهر على رسل السلطان سليم خلعا سنية ورسم للامير مغلباى دوادار سكين بأن يتوجه الى السلطان سليم رسولا ومعه بعض التحف وكثير من الهدايا الثمينة وكتاب يعرب عن المودة والولاء والاشارة الى تقرير قاعدة للصلح بين الفريقين لحسم المشاكل وقطع أسباب الخصومة ولبث ينتظر الجواب فلما أبطأ رسوله جمع جميع الامراء المقدمين والالوف والنواب وأمراء الطبلخاناه وأمراء العشراوات واستحلفهم على القرآن بأن يكونوا له عونا على العدو ولايخونوه ولايخالفوا له أمرا ولا يغدروا به فحلفوا جميعا وحلف معهم خيربك والغزالى ثم نادى فى العسكر بالعرض فى الميدان فعرضوا وهم باللباس الكامل ثم مروا من تحت سيفين قد نصبا على شكل قنطرة كعادة الاتراك * وعندهم أن هذا هو القسم الاعظم * وأرسل السلطان قانصوه الى الامير قاسم بن أحمد بحماة فجاء الى حلب فخلع عليه وأذاع خبره وطيره الى الآفاق وجعل يتأهب وبينما هو على هذا الحال اذ جاءه الخبر بأن السلطان سليم قبض على الامير مغلباى الذى سار اليه بالهدية والكتاب وكبله بالحديد وأبى الا القتال وقطع دابر الظاهر وأصحابه واستخلاص البلاد منهم * وساق السلطان سليم بعد ذلك بعسكره الى عنتاب وفتح قلعة ملطية وبهنسا وكركر وغيرهما من القلاع فاضطرب الملك الظاهر وتحير فى أمره ونادى فى طائفة من العسكر بالخروج الى لقائه فخرج أمير اسمه عبد الرزاق بعسكره وخرج معه خيربك فى نفر من جنده أيضا فكانت عدتهم خمسة آلاف ونزلوا على قيد يوم من مدينة حلب ثم خرج بعدهم سيباى الغزالى نائب الشام والأمير تمراز نائب طرابلس والأمير طراباى نائب صفد ونائب حمص ونائب غزة وتتابع خروجهم بالعسكر والاسلحة فى اليوم السابع عشر من رجب وخرج بعد ذلك من بقى وساروا قاصدين جبلات ووردت الاخبار بذلك الى نائب الغيبة بمصر فأطلق بعض المحابيس من النساء والرجال وفرق الصدقات ودعا الناس الى الدعاء للسلطان الملك الظاهر قانصوه بالنصر والتأييد

وعاد فى هذه الاثناء الى حلب الامير مغلباى دوادار الذى سار الى مقام السلطان سليم رسولا بالكتاب والهدية وهو فى أسوء حال من العرى والتعب وأخبر الظاهر بما ناله من السلطان سليم وتصميمه على القتال ومحو أثر دولة الغورى فهال الملك الظاهر هذا الامر وأزعجه وخرج من حلب فى يوم الثلاثاء العشرين من رجب ومعه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله العباسى والقضاة الاربعة وسار الى جبلان فبات بها ليلة وأصبح فرحل عنها الى مرج دابق فأقام بها الى يوم الاحد سابع عشرى رجب فجاءته الرسل من قبل السلطان سليم تدعوه الى القتال فنادى فى العسكر بالخروج وركب هو وعليه تخفيفة صغيرة وملوطة وعلى كتفه طبر وأخذ يرتب صفوف العسكر ويختار لها مواقع القتال ثم وقف بخواصه الذين يعتمد عليهم فى قلب الجيش وعلى يمينه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله وهو بتخفيفة صغيرة وملوطة وعلى كتفه طبر مثل السلطان وعلى رأسه الصنجق الخليفى

وكان حول السلطان أربعون مصحفا فى أكياس من الحرير الاصفر على رؤس جماعة من الاشراف وبينهم مصحف بخط الامام عثمان بن عفان وحوله أيضا جماعة من الفقراء وهم خليفة أحمد البدوى ومعهم العلم الاحمدى والقادرية ومعهم علم أخضر وخليفة السيد أحمد ابن الرفاعى ومعه العلم الخليفى والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة ومعه علم أسود والامير قاسم ابن أخى السلطان سليم واقف بازاء الخليفة وعلى رأسه صنجق من الحرير الاحمر وكان خلف السلطان الظاهر الصنجق السلطانى وتحته سنبل العثمانى مقدم المماليك والقضاة الاربعة والامير تمراز الزردكاش أحد المقدمين واصطفت جيوش السلطان سليم وارتفعت أعلامهم فبرز من جيوش السلطان الملك الظاهر الاتابكى سودون العجمى بعسكره والامير سيباى الغزالى نائب الشام والمماليك القرانصة للقتال فالتقى الجمعان واقتتلا قتالا عنيفا للغاية فانهزم عسكر السلطان سليم وتقهقروا الى الوراء فساق خلفهم سودون العجمى وأصحابه وغنموا منهم سبعة صناجق ومكاحل وأسروا منهم عددا كثيرا من رماة البنادق وكادت تتم هزيمتهم وكان خيربك عامل حلب والغزالى والى الشام قد راسلا السلطان سليم واستوثقا منه لانفسهما بأن يعطى خيربك مصر والغزالى الشام فلما التحم الجمعان واضطرمت النيران وكادت تتم هزيمة عسكر السلطان سليم فرخيربك بمن معه وكانوا فى الميمنة وانضموا الى صفوف العدو وفر الغزالى بمن معه من العسكر الشامى وكانوا فى الميسرة وبقى السلطان الملك الظاهر بمن معه من خواصه فى القلب فاندفع عليه من بقى من عساكر السلطان سليم فأراد الهرب وحول وجه جواده يريد حلبا فسقط ومات تحت سنابك الخيل وقيل أصابه فى الحال فالج فلم يملك نفسه فسقط فمات لساعته فانقض عسكر السلطان سليم على من كانوا حوله فقتلوا الامير بيبرس أحد المقدمين وكثيرا من الخاصكية والغلمان وشردوا من بقى ووطؤا المصاحف والاعلام بسنابك الخيل ونهبوا ماوجدوه فى المعسكر المصرى وزال من تلك الساعة ملك السلطان الملك الظاهر قانصوه فكانت مدة تصرفه فى ملك مصر والشام وأعمالها خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوما فقد كان ولى الملك فى مستهل شوال سنة ست وتسعمائة ومات فى الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة * وقتل فى هذه الوقعة من الامراء المقدمين عدة كثيرة وقتل سيباى نائب الشام عند فراره للانضمام الى عسكر السلطان سليم وعدة أخرى من العمال والنواب وقد ستر وجه الارض بالجثث من الانسان والحيوان فكان المشهد مريعا للغاية والخطب شديدا ودخل السلطان سليم وطاق الملك الظاهر فأخذ جميع مافيه من مال وسلاح وكان شيأ كثيرا وانحاز من بقى من عساكر الظاهر الى مدينة حلب ليتترسوا فيها فقام عليهم أهلها جميعا ومنعوهم من الدخول وقاتلوا دونها فقتلوا من العسكر خلقا ونهبوا ما كان معهم من سلاح ومتاع وخيول وغنموا ودائعهم التى كانت بالمدينة فارتد من بقى وساروا الى دمشق فدخلوها وهم فى أسوء حال ما بين ضعيف وجريح بلا لباس ولا سلاح ولحق بهم بعض

المشردين

المتشردين من المباشرين ومن بقى من الامراء الكبار ولبثوا بها أياما بلا ماء ولا زاد الا
القليل جدا وأقام السلطان سليم خارجا عن حلب بالمكان المعروف بميدان حلب حتى تكامل
ورود عسكره وجمعوا الاسلاب والغنائم فسار اليه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله
يعقوب والقضاة الثلاثة وهم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة محيى
الدين الدميرى المالكى وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى أما قاضى الحنفية محمد
ابن الشحنة فكان قد هرب مع العسكر الى دمشق فناله ما نالهم فلما دخل الخليفة قام له
السلطان سليم وأجله وأجلسه وجلس بين يديه ولم يلتفت الى القضاة ولم يجلهم ثم رسم
للخليفة بالمقام فى مدينة حلب وخلع عليه خلعة سنية من مال وملبوس ووكل به من يحرسه
ثم صرف القضاة على غير صورة * وخرج اليه بالميدان أمراء حلب فتسلم المدينة وارتفعت
راياته على حصونها بلا حرب ولا جلاد وغنم جميع ما كان بها من مال وسلاح وتحف وغير
ذلك وهرب قانصوه الاشرف نائب قلعتها وسار الى الشأم مع من هرب من العسكر * قال
بعض كتاب الاخبار وكان بالقلعة من المال ماقيمته مائة ألف ألف دينار خلاف أوانى
الذهب والفضة والتحف النفيسة وصلى السلطان سليم صلاة الجمعة فى جامع الاطروش بحلب
فخطب الخطيب باسمه ودعاله ولاسلافه وبالغ فى المدح والتعريف وعند ماسمع السلطان سليم
الخطيب يقول فى تعريفه * خادم الحرمين الشريفين * أظهر الفرح والسرور بلقب خادم
الحرمين الشريفين وخلع على الخطيب خلعا متعددة وهو على المنبر وأحسن اليه احسانا
كثيرا فلما خرج من الصلاة زينت له المدينة وأوقدوا له الشموع على أبواب الدكاكين
وارتفعت له الاصوات بالدعاء فأقام بالميدان أياما وهو يرتب الامور ويجرى الاحكام ويمهد
العقبات ثم ارتحل الى الشام فخرج من كان بها من العساكر المصرية هاربين وخرج اليه
أهل دمشق وطلبوا الامان فأمنهم ودخل المدينة فى موكب حافل للغاية وأقام بها أياما وخطب
له بها الخطباء ووصل من بقى من العسكر المصرى والامراء الى القاهرة وهم فى أسوء حال من
العرى والجوع والضعف وبينهم كثير من المرضى والجرحى فقام العزاء بالقاهرة على السلطان
ومن مات من الامراء والعسكر والمباشرين وأرباب الوظائف وكثر البكاء والنواح فى جميع
البيوت فكان الخطب عظيما والحزن عاما ۞ وجاءت الاخبار الى الامير طومان باى الدوادار
متولى الغيبة بعزم السلطان سليم على الزحف بجيوشه على القاهرة فهاله الامر وأزعجه
وجمع من بقى من الامراء المقدمين وأمراء الطبلخاناه وأمراء العشراوات وتكلموا فى الامر
طويلا فاتفقت كلمتهم على تولية الامير طومان باى المذكور منصب السلطنة فامتنع فألحوا
عليه فلم يقبل وأظهر غاية الامتناع ثم ركب وركب معه من الامراء المقدمين الامير علان
والامير أنسيباى حاجب الحجاب والامير تمر والامير بقطاى نائب القلعة وآخرون غيرهم
وساروا الى كوم الجارح عند الشيخ أبى السعود وكان للامير طومان باى معرفة ثابتة به
وصحبة فذكروا للشيخ ما وقع للعساكر المصرية بمرج دابق وما حل بالسلطان قانصوه

الغورى وعـزم السـلطان سـليم على الزحف بجيوشـه على القاهرة ورغبتهـم فى مبايعـة الامـير طومان باى بالسـلطنة وامتناعـه وطال بهـم الكلام فى ذلك فقام الشيخ وأحضر المصحف واستحلفهم جميعا على أنه اذا قبل الامير طومان باى المنصب لايخونونه ولا يغـدرونه ولا يخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله فحلفوا جميعا على ذلك ثم أعاد عليهم اليمين ثانيا أن لا يظلموا الرعية ولا يجددوا الاحـداثات من المشاهرة والمجامعة التى أحـدثها الغورى وأن يبطلوا ما على الحوانيت من ذلك وأن يجروا الامور على ما كانت عليـه أيام الملك الاشرف قايتباى ويسيروا الحسبة على طريقـة يشبك الجالى عند ما كان متوليا عليها فحلفوا له على ذلك وقاموا من عنده وقد قبل الامير طومان باى المنصب وأطاع * فلما كان يوم الجمعـة رابع عشر رمضان من السـنة صلى الامير طومان باى صلاة الفجر وركب فركـب معه الامراء المقدمون وأمامهـم الفوانيس بالشموع والمشاعـل وشق من صليبة ابن طولون وهو بتخفيفة صغيرة وملوطة بيضاء وكذلك الامراء الذين معه فارتفعت له أصوات النـاس بالدعاء وصعد الى باب السلسلة وجلس به وأرسل يستدعى أمير المؤمنين يعقوب والد أمير المؤمنـين الخليفة المتوكل على الله فحضر ومعه هرون ولد الخليفـة محمـد المتوكل على الله وأولاد ابن عم خليل وحضر قاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمد بن الشحنـة والقاضى شرف الدين يحيى بن البرديني أحد نواب الشافعية وجماعـة من نواب القضاة الذين بالقاهرة فلما تكامل المجلس اجتمع سائر الامراء المقدمين وغيرهم من الاجناد والعسكر فابرز أمير المؤمنين يعقوب ورقة بالوكالة المطلقة عن ولده المتوكل على الله فتليت بحضرة من حضر وبعد ذلك تقدم الخليفة يعقوب فبايع الامير طومان باى بالسلطنة وبايعه هو أيضا وشهد عليهما بذلك الشرف يحـيى بن البرديني وجماعـة من نواب القضاة فلما تمت له البيعة أحضروا له الخلعة السلطانية وهى جبة سوداء وعمامة سوداء وسيف بدوى ولقبوه بالملك الاشرف ثم قدموا له فرس النوبة فركب على سلم الحراقة التى بباب السلسلة والخليفة أمامـه فطلع من باب سر القصر الكبير وجلس على تخت المملكة وقبل الامراء الارض بين يديه ودقت البشائر بالقلعة ونودى باسمه فى القاهرة ومصر فارتفعت له الاصوات بالدعاء وفـرح الناس به فانه كان بارا شـفيقا على الرعية ميالا الى خير البلاد فلما كان وقت صلاة الجمعـة من ذلك اليوم خرج السلطان الملك الاشرف طومان باى المـذكور وصـلى صلاة الجمعـة وخطب به الشرف يحـيى بن البرديني وخطب جميع الخطباء باسمه على المنابر فى ذلك اليوم بعد انقطاع الخطبة خمسين يوما من مصر والقاهرة وغيرهما

وجاء فى هذه الاثناء الى القاهرة بعض كبار الامراء الذين تخلفوا بدمشق ومعهم جماعة كثيرة من كبار دمشق وأعيانها فرارا من ايذاء جنـد السلطان سليم فانهـم لما دخلوا دمشق عاثوا وأفسدوا ونهبوا الدور وأخذوا كل ما وصلت اليه أيديهم فهاجر الكثير من أهل دمشق وتفرقوا وجاء منهم جماعة الى القاهرة * قال بعض أصحاب التاريخ وكثر فساد عسكر السلطان

سليم

سليم فتطاولت أيديهم أيضا الى نهب مافى القرى المجاورة لدمشق فخرج لقتالهم الامير ناصر الدين بن الحشن أحد كبار قبائل العرب فلاقاهم عند قابون واقتتل الفريقان قتالا عنيفا فانتصر عليهم ابن الحشن وقهقرهم وأعمل فيهم القتل بالسيف ثم تترس فى دمشق وجاءت الاخبار بذلك الى السلطان طومان باى ففرح وتقوت عزائمه ونادى فى العسكر المصرى الذى تخلف بالقاهرة لحراستها بعد خروج قانصوه بأن يتأهبوا للخروج ثم عرضهم وعين من الامراء المقدمين الذين تخلفوا أيضا ستة أمراء ثم رتب أمور الجند وولى عليهم من شاء من الامراء وعين أرباب الوظائف العالية والمباشرين وأمراء الطبلخاناه والعشراوات وغيرهم من أصحاب الوظائف الاخرى وكتب الى ابن الحشن يستنهض همته الى قتال السلطان سليم ووعده بولاية حمص وأتابكية الشام ان هو نال من العثمانيين وفرق شملهم وكثر الارجاف فى هذا الحين واشتد خوف الناس ولم يخرج الحج فى هذه السنة وتعطلت مراسمه وجاءت الاخبار بعزم السلطان سليم على الزحف على غزة بجيوشه بعد أن ملك جميع الديار الشامية من الشام الى الفرات وأقام الولاة والعمال ورتب الامور على ما يشاء فلما علم السلطان الاشرف طومان باى بذلك نادى فى العسكر بالخروج الى الريدانية وخلع على الامير جان بردى وجعله مقدم هذه الجملة فخرج من يومه الى الريدانية ونصب وطاقه وأكثر النداء فى العسكر فصاروا يخرجون تباعا والنداء متواصل والاخبار مترادفة بوصول طلائع جيوش السلطان سليم الى سواد غزة وخرج أصحاب البنادق من الجند وأصحاب المكاحل وغيرهم وتقدم الاميرجان بردى بعسكره يريد غزة وتبعه بعض الامراء بمماليكهم فالتقت بهم طلائع السلطان سليم على مقربة من غزة فقاتلوهم قتالا عنيفا ولازم كل فريق منهم مواقعه * فلما كان يوم الاثنين حادى عشر ذى القعدة قبض جواسيس السلطان الملك الاشرف طومان باى على جماعة من أصحاب السلطان سليم بطريق بركة الحاج وكانوا نحو خمسة عشر ومعهم شيخ كبير هو مقدمهم وكان حضورهم من طريق الدرب السلطانى ولم يأتوا من طريق غزة لوقوف الامير جان بردى بعسكره عند سواد غزة فلما جاؤا بهم الى دار الامير علان الدوادار الكبير أشاروا الى الشيخ بأن يترجل عن فرسه ليدخل على الامير فلم يقبل فبطحوه على وجهه وأوسعوه ضربا ومن معه وأمر بهم الدوادار فقيدوهم جميعا بالحديد وألقوهم فى السجن وفتشوهم فوجدوا مع ذلك الشيخ عدة رسائل لبعض الامراء والمباشرين وأرباب الوظائف العالية بمصر ورسالة الى السلطان الملك الاشرف طومان باى وهى غاية فى التشديد والغلظة وكلها سباب ووعيد وتهديد الى أن قال له فيها ﴿ ولقد أوحى الله الىّ بأن أملك جميع البلاد شرقا وغربا كما ملكها ذو القرنين وأن لا تكون كلمة فوق كلمتى ولا يد فوق يدى وأما أنت فمملوك تباع وتشرى فلا تصح لك ولاية ولا يجوز لك التسلط على الاحرار وقد أتت الىّ السلطنة على ديار مصر بعهد من أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة فان سالمتنا سلمت وأزلنا عنك البأس واضرب السكة باسمنا

الشريف ثم اخطب لنا على المنابر قياما بواجب السلطنة وقد وليناك بعد الطاعة عمالة مصر وملحقاتها الى مدينة غزة فقط فان أبيت الطاعة وأظنك فاعلا أتيت الى مصر وقتلت جميع من بها من الشراكسة حتى الاجنة الذين فى بطون الامهات وأمحو شأفتهم عن وجه الارض * الى أن قال وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا * الآية

فلما قرئ هذا الكتاب على السلطان الملك الاشرف طومان باى بكى بكاء مرا وجمع اليه الامراء وكلمهم فى الامر ثم شدد فى خروج من بقى من العساكر وشاع خبر ما فى هذا الكتاب بين الناس فانزعجوا ونزح بعضهم الى أطراف القاهرة وبعضهم الى الصعيد الاعلى بأموالهم وعيالهم وعم الخوف جميع الرعية وامتنع من بقى من العساكر والاجناد من مماليك الطباق لا سيما المماليك القرانصة من الخروج الى القتال الا بعد النفقة وأن ينفذ لكل واحد منهم مائة وثلاثين دينارا فأخذ السلطان يلاطفهم ويسايرهم حتى قبلوا خمسين دينارا فجمع السلطان هذا المال من أولاد السلطان الملك الغورى وأولاد السلطان الملك المؤيد وأولاد السلطان الملك المنصور وجميع أولاد الامراء الذين بالقاهرة ومصر ولم يحدث بسببه احداثا على أهل البلاد كما كان يفعل غيره من الملوك والسلاطين اذا قامت الحرب من عدو خارجى * وفى هذه الاثناء جاء الخبر بوقوع القتال فى يوم الاحد سابع عشرى ذى القعدة بين العساكر المصرية وعساكر السلطان سليم تحت أسوار مدينة غزة واشتد شدة بالغة ثم انكشف عن هزيمة المصريين وفى رواية ان هذه الوقعة كانت بناحية بيسان فساق عسكر السلطان سليم خلف العسكر المصرى وأكثروا فيهم القتل والطعن فمات منهم خلق كثير وخرج الامير جان بردى مقدم الجيوش المصرية والامير أزرمك الناشف أحد الامراء المقدمين وغيرهما من كبار الامراء والمباشرين وغنموا ما كان معهم من سلاح وكراع وخيول وجمال ومات الامير علىّ باى السيفى الدوادار أحد أمراء الطبلخاناه وتشتت من بقى من المصريين وتمزق شملهم * فلما كان يوم الاثنين خامس المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة دخل من بقى من العسكر الى القاهرة وهم فى أتعس حال فكان أول من دخل الامير جان بردى مقدم الحلقة والامير أزرمك الناشف وبعض أمراء العشراوات والعساكر والغلمان والاتباع فأخبروا بما نالهم من عساكر السلطان سليم وبالغوا وهولوا وملؤا القلوب خوفا ورهبة من سطوة السلطان سليم وشدة بأس عساكره وأنهم دخلوا غزة وملكوها وأتى مع من حضر أيضا والى غزة المسيحى دوات باى فاشتد غم السلطان الملك الاشرف وحار فى أمره ووصلت طلائع الجيوش العثمانية الى قطيا وقد أباح لهم السلطان سليم مدينة غزة أياما فقتلوا فيها وأراقوا الدماء وأفحشوا فى القتل حتى فى الاطفال والصبيان تشفيا وانتقاما وكان فتح غزة على يدى سنان باشا أحد كبار عسكر السلطان سليم

واهتم السلطان الملك الاشرف باعداد المعدات وجمع الذخيرة فجمع منها شيأ كثيرا

وسيرها

وسيرها مع بعض طوائف الجند من المماليك وأخلاط الناس من سود ومغاربة وغيرهم وأخرج عدة عجلات تجرها الابقار وعليها المكاحل النحاس وساروا الى الريدانية ونزلوا على مقربة من تربة العادل ورسم السلطان بتسليم قيادة هذا الجيش الى الامير سودون الدوادار فتقيد عندئذ بخروج الجند واخراج المعدات وبرز بهم الى الريدانية وبث العيون والارصاد لتأتى اليه بالاخبار فأعلموه بأن السلطان سليم خرج من دمشق يريد الديار المصرية وقد قسم عساكره الى فرقتين فسير احداهما من طريق الدرب السلطانى وثانيتهما من طريق التيه وهو طريق البرية التى سلكها بنو اسرائيل مع موسى عليه السلام عند خروجهم من أرض مصر فسير سودون الخبر بذلك الى الاشرف بالقاهرة فجمع الاشرف الامراء وحثهم على الخروج الى الريدانية فخرجوا وعسكروا بها وتابع الامير سودون استطلاع الاخبار فعلم أن العدو وصل الى مدينة غزة وأن السلطان سليم عرّج فى نفر قليل الى زيارة بيت المقدس ومقام الخليل ابراهيم وأحسن الى من بالبيت وعاد ولما كان يوم الاثنين تاسع عشر ذى الحجة نزل السلطان الملك الاشرف ومعه الامير قاسم ابن أخى السلطان سليم من قلعة الجبل فى عدة وافرة من الجند والغلمان وساروا الى الريدانية وأقام السلطان بالمصطبة التى بها المعروفة بالمطعم ورسم بترتيب العساكر ووضع المكاحل واستعد للقاء السلطان سليم بالصالحية فمنعه الامراء وقالوا لانقاتله الا بالريدانية فراجعهم فلم يقبلوا فألح عليهم فامتنعوا فأجابهم كارها ورسم بعمل خندق من سبيل علان الى الجبل الاحمر والى منتهى مزارع المطرية فعملوه ووضعوا عليه الطوارق والمكاحل وأتى الى الريدانية الكثير من القصابين والخبازين والبياعين على اختلافهم وخيموا هنالك وأرسل الاشرف الامير قانصوه العادلى الذى كان كاشف الشرقية ليستكشف خبر مجىء السلطان سليم بجيوشه الى قطيا فعاد فى يوم الاحد خامس عشرى الشهر ومعه رأسا شخصين من عساكر السلطان سليم ورجل من أبناء حلب كان فى خدمة الامير خير بك واليها الذى انضم الى عسكر السلطان سليم وكان هو سبب هزيمة المصريين وموت السلطان كما تقدم بيان ذلك فى محله وكان قانصوه المذكور لما وصل الى الصالحية وجد أن طائفة من عسكر السلطان سليم قد دخلتها وأخذت منها بعض المؤنة وعلائف الدواب الجل فقبض على اثنين منهم واحتز رأسهما وقبض على ثالث وهو من أتباع خير بك وأتى بالرأسين والرجل الى الاشرف بالمصطبة فسأل السلطان ذلك الرجل عن أحوال عسكر السلطان سليم ووجدوا معه عدة رسائل من خير بك الى بعض الامراء المقدمين بمصر فألقوه فى السجن مقيدا بالحديد وأخفوا عن الناس خبره وخبر تلك الرسائل

وكان السلطان سليم كلما مر ببلد أو قرية أو قصبة فى طريقه أحسن الى أهلها فيهرب من بها من الشراكسة أو يختفى ويتنكر وما زال على هذا الحال حتى وصلوا بلبيس ومنها جاؤا الى العكرشة فلما علم الأشرف بوصولهم الى العكرشة هم بان يلقاهم بها ويقاتلهم على ما هم فيه من التعب والجوع فلم تمكنه الامراء من ذلك وقالوا لا نقاتلهم الآن وكأنهم كانوا على

عهد مع السلطان سليم فى ذلك فلما لم يقاتلوه وأفسحوا له فى الاجل سار بعسكره من غير
ممانع حتى دخل الخانكاه فخرج أهلها على وجوههم الى القاهرة مولولين فرسم والى القاهرة
بغلق الابواب الكبرى فغلقوا باب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وباب البحر وباب
القنطرة وغيرها من الابواب وأغلقت أسواق المدينة وتعطلت الطواحين فقل الدقيق والخبز
من الاسواق واشتد الجوع بالفقراء * ولما كان يوم الخميس تاسع عشرى ذى الحجة قام
السلطان سليم بعسكره من بركة الحاج الى الجبل الاحمر فقام للقائه الأشرف وصمم على
القتال بغير مهل والتقى الفريقان فاقتتلا قتالا عنيفا فقتل من عسكر السلطان سليم عدة
وافرة وقتل سنان باشا أحد مقدمى جند السلطان سليم فحزن عليه السلطان حزنا عظيما
قال بعض الكتاب حتى انه قال وأى فائدة لى فى مصر بعد يوسف يريد (سنان باشا
المذكور) واشتد السلطان سليم على عساكره وقسمهم الى قسمين وسير أحدهما من خلف
الجبل الاحمر وزحف بالثانى نحو الريدانية حيث معسكر السلطان طومان باى ثم انضم
القسمان وأعملا القتل برمى البنادق والمكاحل واشتد الرمى وتراسل على العساكر المصرية
فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى قتل أكثر الامراء المصريين وعدد عديد من العساكر
والاجناد فتمت هزيمة المصريين وفر من بقى منهم يريد النجاة ووقف الاشرف طومان باى
يقاتل الاعداء مقاتلة الاسود الضوارى وحوله نفر من العبيد الرماة والمماليك السلحدارية
ثم عمد بعد ذلك الى الفرار ففر الى طرا ودخلت العساكر العثمانية الى القاهرة فعاثوا وقتلوا
ونهبوا وحرقوا وخربوا جميع بيوت الامراء وأخذوا ما فى الحواصل والاشوان ولبثوا على
هذا الحال اليوم كله فكان يوما عبوسا قمطريرا فقال فى ذلك الشيخ بدر الدين الزيتونى

يبكى على مصر وسكانها * قد خربت أركانها العامره
وأصبحت بالذل مقهورة * من بعد ما كانت هى القاهره

وأصبح يوم الاثنين سلخ ذى الحجة سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة فدخل القاهرة
أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله ومعه بعض كبار الامراء من أصحاب السلطان سليم
وطائفة كثيرة من عسكره ودخل معه الامير خيربك والى حلب وقاضى القضاة الشافعية كمال
الدين الطويل والقاضى المالكى محيى الدين الدميرى والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى
وكان دخول الخليفة المتوكل على الله من باب النصر فشق القاهرة وأمامه المناداة على الناس
بالامن والامان والبيع والشراء والتحذير من اخفاء أحد من المماليك الشراكسة
والدعاء للسلطان المظفر سليم خان فلما سمع الناس النداء ضجوا بالدعاء * قال بعض
كتاب الاخبار ومع ذلك لم تكن العساكر لتكف عن النهب وقتل النساء والاطفال
والقبض على كل من وجدوه من المماليك فكانوا اذا قبضوا على أحد منهم ساروا به الى
الريدانية حيث السلطان فيذبحونه بين يديه ويحتزون رأسه ويعلقونه حتى كثرت الرمم
وانتشرت من الريدانية الى سفح الجبل الاحمر الى مزارع المطرية ولبث الحال على ذلك ثلاثة

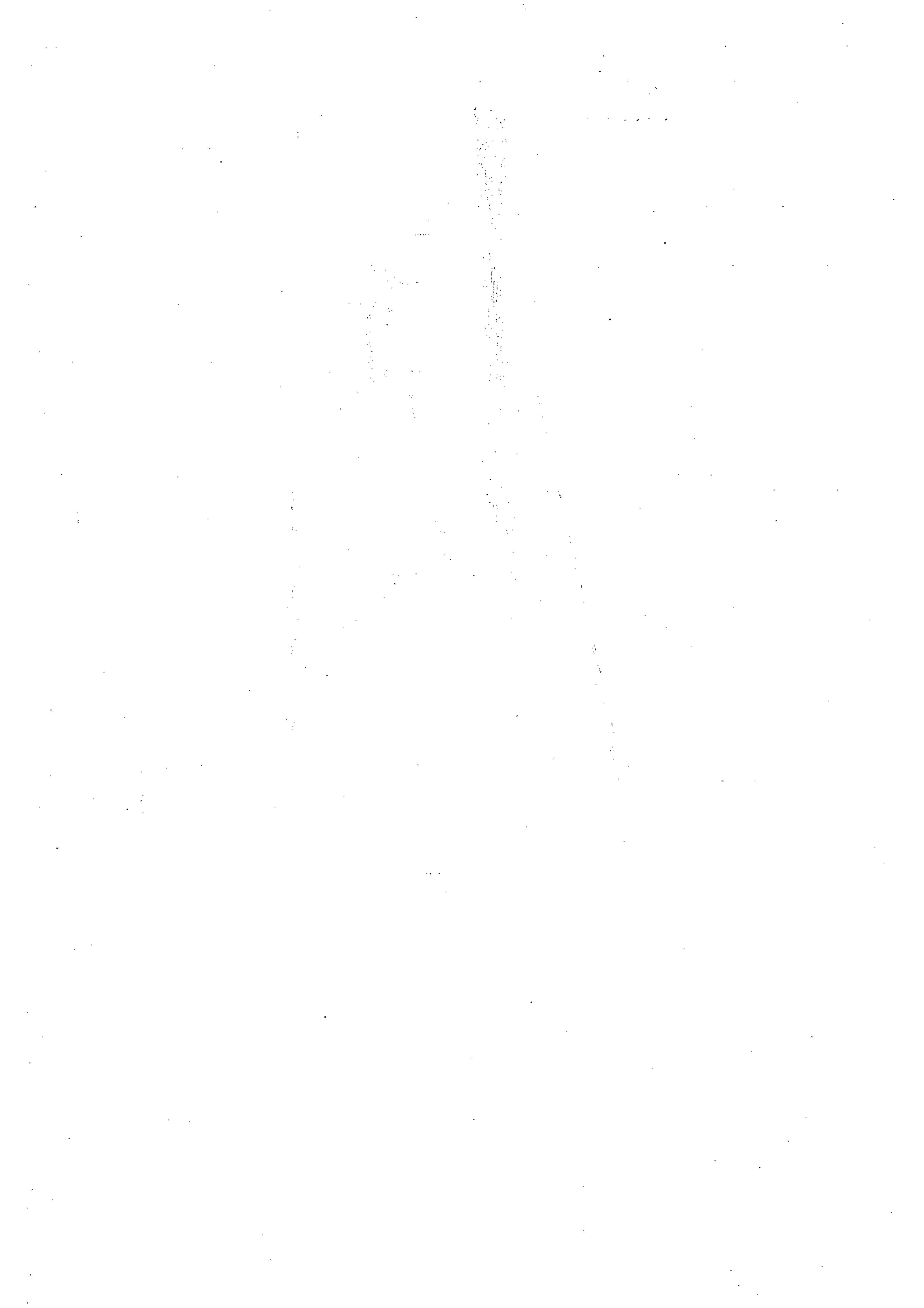
ايام

أيام كاملة والناس فى هول ولا هول القيامة * وخطب فى ذلك اليوم للسلطان سليم على منابر مصر والقاهرة وقد بالغ بعض الخطباء فى خطبته فقال * وانصر اللهم السلطان ابن السلطان مالك البرين والبحرين وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه اللهم انصره نصرا عزيزا وافتح له فتحا مبينا يامالك الدنيا والآخرة يارب العالمين فسر السلطان سليم بذلك سرورا عظيما

وأرسل السلطان جماعة من الانكشارية فقيدهم بحراسة الابواب ومنع العسكر من العبث ونهب البيوت فمنعوهم وسكنت خواطر الناس قليلا وأرسل السلطان خلف المعز الناصرى محمد ابن السلطان الغورى فلما حضر بين يديه خلع عليه وألبسه قفطانا مخملا مذهبا وألبسه عمامة عثمانية ورسم له بأن يسكن فى مدرسة أبيه التى أنشأها فى الشرابشيين وعين بعض الكشاف للاقاليم القبلية والبحرية وخلع على الزينى بركات بن موسى وجعله يتحدث على الحسبة ونزل السلطان سليم فى يوم الاحد ثانى المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة من الريدانية الى بولاق ونصب خيامه بها من تحت الرصيف الى آخر الجزيرة الوسطى وقد أحضروا له مفاتيح قلعة الجبل فلم يلتفت اليها ولا أحلها محلا ثم دخل فى ثانى يوم القاهرة من باب النصر وشق المدينة فى موكب حافل للغاية وأمامه الجنائب والعساكر والاجناد وطوائف الغلمان وهو فى هيبة وجلالة عظيمة ثم رجع الى بولاق وأقام بوطاقه يرتب الامور ويفرق المناصب بين قومه وقد ظن موت السلطان الملك الاشرف طومان باى مع من قتلوا فى الوقعة وتمزيق شمل من بقى من العساكر المصرية واطمأن لذلك قلبه فلم يلتفت الا الى تنظيم الاحوال وترتيب الامور على ماتقتضيه مصلحة الرعية وكان من الامور بعد ذلك ماسيتلى عليك مفصلا فى الجزء الثالث ان شاء الله تعالى

تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث مبتدئا بمختصر تاريخ ملوك آل عثمان
قبل فتح مصر بالجيوش العثمانية ثم ماجرى بعد دخول
السلطان سليم بجيوشه الى القاهرة الى ظهور
الحاج محمد على باشا الكبير
وولايته





(جـــدول)

فهرست خطأ وصواب الجزء الثانى من تاريخ الكافى

صحيفة	سطر	خطـــأ	صـــواب
١٠	٣	نبناء	بينا
١٠	٧	وأهلها	واهل
٤٣	١٨	وووری	ووری
٤٤	٢٣	ولاتقتلواط فلا	ولاتقتلوا طفلا
٤٥	٠١	ومافرغوا	ومافرغوا
٥٠	٢٤	سمسك	سكاك
٥١	١٩	أيهاشئت	رأيتها شئت
٥٢	٠٢	باكريون	باكيريون
٥٣	٠٤	حديج	خديج
٨٣	١٨	بها	بهما
٨٥	٢٧	جاريت	حاريت
٨٧	٠٩	الغرقد	الفرقد
٩٢	٣٠	نغلها	نعلها
٩٧	٠١	ترجونى	ترجونى
١٠٣	٢٠	فقتل أهل	فقتل من أهل
١٠٧	٢٥	الابيان	الابيات
١١٤	٠٥	هارم	هادم
١١٤	١٩	كتب	فكتب
١٣٣	١١	الحوثرة	الجوثرة
١٣٦	٢٣	حجرالايرض	حجرالا يرض
١٣٧	٢٨	الماس	الناس
١٥٣	٠٦	ولازمه	ولا ذمة
١٦٢	٠٣	حديج	خديج
١٦٦	٥١	بالغم	بالفم
١٦٨	٢٦	فسير	فصير
١٧٣	٢٢	ضمةسيوفهم	ضمة من سيوفهم

(تابع الخطأ والصواب)

صحيفة	سطر	خطـــــا	صـــواب
١٨٠	١٣	مدبجة	مديحة
١٨٥	٣٠	ففيل	فقيل
١٨٧	٣١	المتعصم	المعتصم
١٩٧	٢٥	بعينه	يعينة
١٩٩	٢٩	فبينا	فبينما
٢٠٣	١١	فاعلمهم	فاعلمه
٢١٤	٢٠	وهو يؤخذ	وهوما يؤخذ
٢٢٣	١١	لدى	ليرى
٢٢٥	٢٥	الجانيق	المنجانيق
٢٣٠	١٤	عليه	عليها
٢٣٢	١٥	أو ثر	أو أثر
٢٣٢	٢٢	كانت	كان
٢٣٥	٠١	الدحان	الدخان
٢٥١	٠٣	ونوزك	ونازوك
٢٧١	١٢	لوزون	توزون
٢٧٦	١٦	يطفون	يطفون
٢٧٧	٠٢	الممابر	المنابر
٢٨٣	٢٦	هوبت	هرب
٣٢٩	١٣	وامت	دانت
٣٣٥	١٥	الستنصر	المستنصر
٣٣٥	١٨	هؤلاء	هذه
٣٣٦	٠٩	حاسراء	حارسا
٣٥٠	٢٦	ومازالوا	ومازالا
٣٦٣	٢٧	أونخرجهم	أونخرجه
٣٦٧	٥	مثلة	مثله
٣٦٩	١٥	الذمرة	الزمرد

تابع الخطا والصواب

صحيفة	سطر	خطـأ	صواب
٣٨٤	٩	عزالدين	وعزالدين
٣٨٦	٣٠	حفر	حفر
٣٩٤	١٧	فى	من
٤٠٥	٢٥	بيعةقامه	بيعةالقيامة
٤٠٣	١٠	بها	بهما
٤١٣	٠٣	مريج	مربع
٤٤٦	٢٦	الشروطا	الشروط
٤٤٨	٢٧	وانقطعت	وعزت
٤٥٥	١٤	حينها	محله
٤٦٤	٠٥	الامير	والامير
٤٧٨	١٣	ونادى	وناوى
٤٧٨	٣١	الاموز	الامور
٤٨٣	١٩	أغوا	أغوا
٤٨٩	٣٤	لسلطان	السلطان
٤٩٦	١٢	وتوليته	وتولية
٥٠٥	١٥	الاهزاء	الامراء
٥٠٩	١٦	وللناصر	والناصر
٥١١	٠٩	أكشر	كشر
٥٢٣	٢٤	الدواب	لدواب

﴿ تم التصويب والخطأ ﴾




مركز الوثائق والبحوث
30018000012291
المكتبـــة

